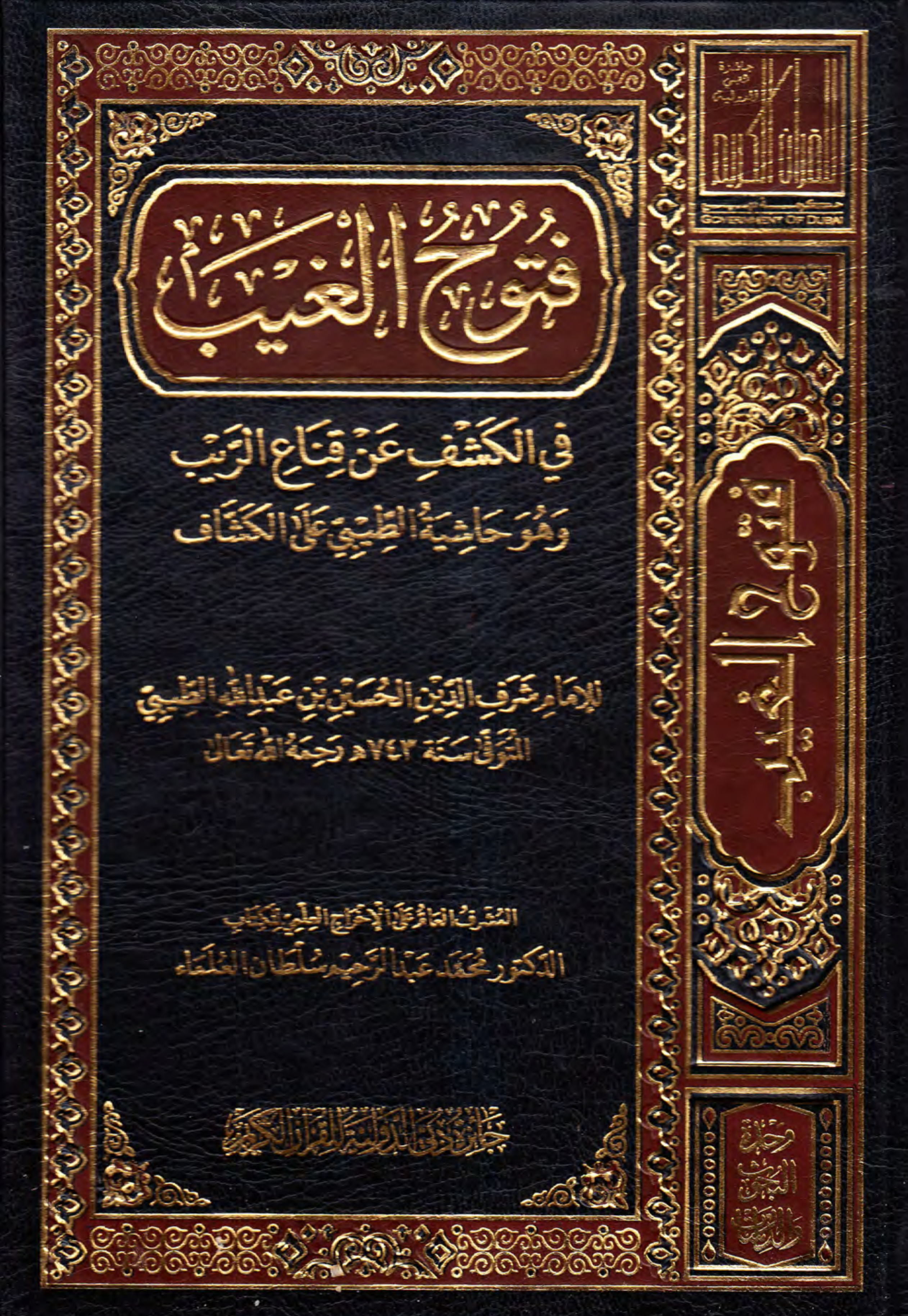


فتوح الغيب
في الكشف عن قناع الريب
وهو حاشية الطيبي على الكشاف
للإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي
المتوفى سنة ٧٤٣هـ رحمه الله تعالى
المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب
الدكتور محمد عبد الرحيم سلطان العلماء
جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم
GOVERNMENT OF DUBAI
فتوح الغيب

فتوح الغيب

فتوح الغيب

في الكشف عن قناع الريب

تأليف : الإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي

الطبعة الأولى : ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية بالأردن : (٢٥٣٣/ ٧/ ٢٠١٠)

الرقم المعياري الدولي : ٩٧٨٩٩٥٧٢٣١٨٠٤

ما ورد في حواشي هذا الكتاب يعبّر عن رأي محققيه ولا يعبّر بالضرورة عن رأي الجائزة



وحدة البحوث والدراسات

ص. ب.: ٤٢٠٤٢ دبي - الامارات العربية المتحدة
هاتف: ٩٧١٤٢٦١٠٦٦٦ +
فاكس: ٩٧١٤٢٦١٠٠٨٨ +
الموقع على الانترنت: www.quran.gov.ae
البريد الالكتروني: Rs@quran.gov.ae



وهو حاشية الطيبي على الكشاف

للإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي
المتوفى سنة ٧٤٣هـ رحمه الله تعالى



تفسير السور من الذاريات إلى نهاية الحاقة

حققه حتى نهاية التحريم
الدكتور لطفي بن محمد الزغير
أستاذ الحديث المساعد بجامعة الملك خالد
بأبها بالمملكة العربية السعودية

حقق التتمة
الدكتور يوسف عبد الله الجوارنة
أستاذ النحو المساعد بكلية الآداب
بجامعة طيبة بالمدينة المنورة

المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب
الدكتور محمد عبد الرحيم سلطان العلماء




بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الذَّارِيات
مكيَّة، وهي ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ ١-٦]

﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ الرِّياحُ، لأنَّها تَذْرو التُّرابَ وغَيرَه. قال الله تعالىٰ: ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾، وقُرئَ **بإدغام التَّاءِ في الذَّال**، ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ السَّحابُ، لأنَّها تَحملُ المطر. وقُرِئَ: **(وَقْرًا) بِفَتْحِ الواو** علىٰ تَسْمية المَحْمُولِ بالمَصْدرِ. **أَوْ علىٰ إِيقَاعِهِ موقِعَ حَمْلًا** ....

سورة الذَّاريات
مكيّة، وهي ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله: **(وقرئ بإدغَام التَّاءِ في الذالِ)** أبو عمرو وحمزة.

قوله: **(«وَقْرًا» بفتح للواو)** هي شاذَّة. الجوهريّ: الوَقْر بالفتح: الثِّقْل في الأُذُن، وبالكسر: الحِمْل.

قوله: **(أَو على إيقَاعه مَوقِعَ حملًا)** فيكون مفعولاً مُطلقًا لا من لَفْظِه، وعلىٰ الأول مفعولاً به.

﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ الفُلْك. ومعنىٰ ﴿يُسْرًا﴾: جَرْيًا ذا يُسرٍ، أي: ذا سُهولةٍ، ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ الملائكةُ، لأنَّها تَقسِم الأُمورَ من الأمطارِ والأرْزاقِ وغيرِها. **أو تفعل التَّقسيم مَأْمورةً** بذلكَ. وعن مُجاهِدٍ: تتولَّىٰ تَقسيمَ أمرِ العبادِ: جِبْريل للغِلْظةِ، ومِيكَائيلُ للرَّحمةِ، وملَكُ الموت لقَبْضِ الأَرْواحِ، وإِسرَافيلُ للنَّفخِ.

وعن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه قال وهو علىٰ المِنبرِ: سَلُوني قبل أن لا تسأَلُوني، ولن تَسألوا بعدي مثلي، فقام ابنُ الكوّاءِ فقال: ما الذَّارياتُ ذَروًا؟ قال: الرِّياحُ. قال: فَالحَامِلاتُ وِقرًا؟ قال: السَّحابُ. قال: فالجارِياتُ يُسرًا؟ قال: الفُلكُ. قال: فالمُقَسِّماتُ أمرًا؟ قال: الملائِكةُ. وكذا عن ابنِ عَبَّاس.

وعن الحسن: «المُقَسِّماتُ»: السَّحابُ، يَقسِمُ اللهُ بها أرْزاقَ العِبَاد، **وقَدْ حُمِلتْ علىٰ الكواكب السَّبعةِ**، ويجوزُ أن يُرادَ: الرِّياحُ لا غَيرُ؛ لأنَّها تُنشئُ السَّحابَ وتُقِلُّهُ وتَصرِفُه، وتَجْرِي في الجَوِّ جَريًا سهلًا، وتَقسِمُ الأمطارَ بتَصريفِ السَّحابِ. ....

قوله: (**أو تَفْعل التَّقْسيم مأْمُورةً**) جُعل أمرًا حالاً وأضمر المفعول به؛ ليكونَ على وزان يَمْنع ويُعْطي، وعلىٰ الأوَّل أمرًا مفعولًا به على العُمُوم، والأمرُ بمعنىٰ الشَّأنِ.

قوله: (**وقد حُمِلتْ على الكَواكبِ السَّبعة**)، قلتُ: هذا القَول مَردود، وقد وَرَد في النَّهي عن أمثال هذا الكلامِ أحاديثُ صحيحةٌ عن الثِّقاتِ[١]، ولم يذكرْهُ أيضًا أحدٌ من المُفسِّرين مثل الواحِديِّ ومُحْيي السُّنةِ وصاحبِ «التَّيسيرِ» و«المطلع» والكَواشي والقاضي. وقال الزَّجَّاج: المُفسِّرون جميعًا يقولون بقولِ عليٍّ رضي الله عنه[٢]، وأمَّا الإمام فقال بعد ما نَقل

---

(١) منها ما رواه البخاري معلقًا في «صحيحه» كتاب بدء الخلق، باب في النجوم، من عن قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاثٍ؛ جعلها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها، فمن تأول فيها بغير ذلك فقد أخطأ وأضاع نصيبه وتكلَّف ما لا علم له به».

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٥١).

فإنْ قُلتَ: **مَا معنىٰ الفَاء علىٰ التَّفْسِيرين؟**

قُلتُ: أمّا علىٰ الأوّل؛ فمعنىٰ التَّعْقِيبِ فيها أنّه تعالىٰ أقسم بالرِّياحِ، فبالسَّحابِ الذي تَسوقُه، فَبِالفُلكِ التي تُجْرِيها بِهُبُوبِها، فبالملائكة التي تَقسِمُ الأرزاقَ بإذنِ الله من الأمْطَارِ وتجاراتِ البَحْر ومنافِعِه.

وأمَّا علىٰ الثاني: فَلِأنَّها تَبْتدئُ بِالهَبُوبِ، فَتَذْرُو التُّرابَ والحَصْباءَ، فتنقل السَّحابَ، فتَجْري في الجَوِّ باسِطةً له، فتقسِمُ المطر.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ جَوابُ القَسَمِ، وما مَوصُولةٌ أو مصدريةٌ، والمَوْعُودُ: البَعثُ. ووَعدٌ صادقٌ: كعيشةٍ راضِيةٍ. والدِّينُ: الجزاءُ. والواقِعُ: الحاصلُ.

قولَ عليٍّ رضي الله عنه: الأَقْربُ أَنْ تُحمل هذه الصِّفاتُ الأَربعُ على الرِّياح؛ فالذَّارِياتُ: هي التي تُنْشئ السَّحاب. والحَامِلاتُ: هي التي تَحْمِلها، والجَارِياتُ: هي التي تَجْري بها، والمُقَسِّماتُ: هي التي تُفَرِّق الأَمْطارَ على الأَقْطَار[1]، ولم يذكر هذا القول أصلاً، والعَجَبُ من المُصَنِّف كيف ذَهِلَ مع ديانتِه عن هذا النَّـقْل؟! وسيجيءُ الكلامُ فيه في النَّازِعاتِ مُستوفًى.

قولُه: (**ما معنىٰ الفاءِ على التَّفسيرينِ؟**) أحدهما: أن يُرادَ بالمذكورات الذَّواتُ المُختلفةُ، وثانيهما: أن يُراد صِفَاتُ الرِّياحِ لا غيرَ. قال القاضي: إن حُملتِ الذَّارِياتُ فالحَامِلاتُ فالجَارِياتُ فالمُقَسِّماتُ علىٰ ذَواتٍ مُختلفة، فالفاءُ لترتبِ الإِقسامِ بها، باعتبارِ ما بينَها من التَّفاوُتِ في الدَّلالةِ علىٰ كَمالِ القُدْرة، وإلا فالفاء لترتب الأَفْعال، إذ الرِّيحُ مثلاً تذرو الأَبخِرَة إلىٰ الجوِّ حَتَّىٰ تنعقدَ سَحَابًا فتَحملُه فتجري به باسِطَةً لَه إلى حيثُ يُقْسمُ المطر[2].

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٢٩: ٢٥٣).

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٢٣٤).

[﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ ٧-٩]

﴿الْحُبُكِ﴾ الطَّرائِق، مثل حَبَكَ الرَّملُ والمَاءُ: إذا ضَرَبتْهُ الرِّيْحُ، وكذلك حُبُكُ الشَّعْرِ: آثار تَثَنِّيهِ وتكَسُّرِه. قَالَ زُهيرٌ:

مُكَلَّلٍ بأُصُـولِ الـنَّجْمِ تَنْسِجُهُ رِيحٌ خَرِيقٌ لِضَاحِي مَائِهِ حُبُكُ

والدِّرْعُ مَحْبوكةٌ: لأنَّ حَلْقَها مُطَـرَّقٌ طَرائِق. ويقال: إنّ خِلْقَةَ السَّماء كذلك. وعن الحَسَن: حُبُكُهَا: نُجُومُها. والمعنىٰ: أَنَّها تُزَيِّنُها كما تُزَيِّن المُوشَّى طَرائقُ الوَشْي. وقيل: حُبُكُها: صِفَاتُها وإحْكَامُها، من قولهم: فَرسٌ مَحْبُوكُ المَعَاقِمِ؛ أي مُحْكَمُها. وإذا أجاد الحَائِكُ الحِيَاكَةَ قالوا: ما أَحسنَ حُبُكَهُ، وهو جمع حِبَاك، كمِثَال ومُثُل، أو حَبيكَة، ....

قوله: (قَالَ زُهير) يَصِفُ بركةً مُزَيَّنَةً[1] لظُهورِ النَّجم فيها، لِصَفَائِها وسَعَةِ أرجائها:

حَتى اسْتَغَاثت بمَاءٍ لا رِشَـاء لـه مِـنَ الأَبَـاطحِ في حافاتهـا الـبُرُكُ
مُكلَّـلٍ بأصُـولِ الـنجم يَنْسِجهُ رِيحٌ خَرِيقٌ لِضَاحي مائِـهِ حُبُـكُ[2]

مُكَلَّل: أي مُلَبَّسٌ إكْليلاً، سَحابٌ مُكَلَّل: أي مُلَمَّعٌ بالبَرْق، وقيل: هو الذي حوله قِطَعٌ مِن الغيم، خريقٌ: بالخاءَ المعُجْمة: بارِدةٌ شَديدةُ الـهُبُوب، ضاحيةُ كلِّ شيءٍ: نَاحِيتُه البَارِزَة، مكانٌ ضَاحٍ؛ أي: بَارز.

قوله: (لأنَّ حَلْقَها مُطرَّقٌ طَرائقَ) قالَ القاضي: هي الطرائق المَحسوسَة، أي: بالنُّجُوم والمَجرَّة، أو المَعْقُولةُ التي يَسْلُكُها النُّظَّار، ويُتَوصَّل بِها إلى المَعَارِف[3].

قوله: (مَحْبُوكُ المَعَاقِم) الجَوهريُّ: المَعاقِمُ مِنَ الخَيْلِ: المَفاصِلُ، واحِدُها مَعْقِم.

(١) في (ح) و(ف) مرثية وهو تصحيفٌ، والصواب ما أثبتُّه من (ط).

(٢) انظر: «ديوان زُهيرٌ» ص٨١. و«الكامل في الأدب» للمبرد (٣: ٤٧).

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٢٣٥).

كطَرِيقة وطُرُق. وقرئ: (الحُبْك) بوزن القُفْل. و(الحِبْك)، بوزن السِّلْك. و(الحَبَك)، بوزن الجَبَل. و(الحَبْك) بوزن البَرْق. و(الحِبَك) بوزن النِّعَم. و(الحِبِك) بوزن الإِبِل.

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ قولهُم في الرَّسول: ساحِرٌ وشَاعِرٌ ومجنونٌ، وفي القُرآنِ: شِعْرٌ وسِحْرٌ وأَسَاطِيرُ الأولين. وعن الضَّحَاكِ: قولُ الكَفَرةِ لا يكون مُستويًا، إنَّما هو مُتَناقِضٌ مُختلِفٌ. وعن قَتادة: مِنكُمْ مُصدِّقٌ ومُكَذِّبٌ، ومُقِرٌّ ومُنْكِرٌ.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ الضَّمِيرُ للقُرآنِ أو الرسولِ، أي: يُصْرَفُ عنه مَنْ صُرِف الصَّرْفَ الَّذي لا صَرْفَ أَشَدُّ مِنْهُ وأعظم؛...........................

قوله: (وقُرِئَ: «الحُبْكُ») القراءَات، نسَبَها ابن جِنيّ إلى الحَسَنِ، وقالَ: جَمِيعُها: طَرائقُ الغيم، وأثرُ حُسنُ الصَّنعةِ فيه[1].

قال الزَّجاج: الحبك في اللُّغَة: ما أُجِيدَ عَملُه، وكلُّ ما تَراهُ مِنَ الطرائِق في الماءِ وفي الرَّمْلِ إذا أَصَابته الرِّيحُ، واحدُها حِباكٌ مِثل: مِثَالٍ ومُثُلٍ، أوحَبِيكَةٌ مِثل: طَرِيقَةٍ وطُرُق[2].

قوله: (قَولُهم في الرَّسُولِ ﷺ: ساحرٌ وشاعِرٌ ومجنونٌ، وفي القُرآن: شِعْرٌ وسِحْرٌ وأساطيرُ) قال القاضي: ولعلّ النُّكتَة في هذا القسم؛ تشبيه أقوالهم في اختلافها وتبايُنَ أغراضِها، بطرائقِ السَّمواتِ في تباعُدِها واختلافِ غاياتِها[3].

قولهُ: (الضَّميرُ للقُرآنِ أو الرَّسول) يعني: في ﴿عَنْهُ﴾، وما دلَّ عليه قوله: ﴿لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ وتفسيره قولهم في الرسول: ساحرٌ وشاعر ومجنون وفي القرآن: شِعْرٌ وسِحْرٌ وأَسَاطِير.

قوله: (أي يُصْرَف عَنه منْ صُرِف الصَّرفَ الَّذي لا صَـرْفَ أشدُّ مِنهُ)، الانتصاف:

---

(١) «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» لابن جنِّي (٢: ٢٨٦).

(٢) «معاني القرآن» للزجاج (٥: ٥٢).

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٢٣٥).

كَقوله: **لا يَهْلِكُ على الله إلا هَالِكٌ**. وقيل: يُصْرَف عنه مَنْ صُرِفَ في سَابِقِ عِلْمِ الله، أي: علم فِيما لَم يَزل أنَّه مَأْفُوكٌ عن الحقِّ لا يَرْعَوي. **ويجوز أنْ يكونَ الضَّميرُ لما تُوعدُون أو للدِّين**: أقْسم بالذَّارياتِ علىٰ أنَّ وقُوعَ أَمْرِ القِيامة حَقٌّ، ثُمَّ أقْسَم بالسَّماءِ علىٰ أنَّهم في قولٍ مُخْتلَفٍ في وُقُوعِهِ، فَمِنْهم شَاكٌّ، ومِنْهُم جَاحِدٌ. ثُمَّ قَالَ: يُؤْفَك عن الإِقْرَارِ بِأمْرِ القِيَامَةِ من هو المأفوك.

وَوَجهٌ آخر: وهو أَنْ يَرْجِعَ الضَّمِير إلىٰ ﴿قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾، وعن مثلِه في قولِه: ....

إنما دَلَّ النَّظمُ على هذا، لأنَّ قولَه: ﴿يُصْرَفُ عَنْهُ﴾، دالٌّ علىٰ مَنْ صُرِف، كَأنَّك قُلت: لا يَثْبتُ الصَّرْفُ في الحقيقة إلا لهذا، وكُلُّ صَرفٍ دُونه كَلا صَرْف[1].

الراغب: رجُلٌ مأفوكٌ: مَصروفٌ عن الحَقِّ إلى الباطل، وأُفِكَ يُؤْفَك؛ صُرِفَ عَقْلُهُ، ورَجلٌ مأفوكُ العَقْلِ[2]، وقيل: ﴿يُؤْفَكُ﴾ كلامٌ مُبتدأ، وفيه تَعجُّبٌ، وقال صاحبُ «التَّيسير»: يُصرفَ عن الإيمان مَن صُرِفَ عن كلِّ خَيرٍ وسَعادة.

وقلتُ: يُصْرفُ عن القُرآن من ثَبَتَ له الصَّرْفُ الحَقِيقيّ، وذلك من إطلاق «صَرَف» وجَعْلِه بمَنزِلة يَمْنع ويُعْطِي.

قوله: (**لا يَهلِكُ على الله إلا هالكٌ**) وعن بعضهم: أي: لا يُحرَم من رَحمةِ الرَّحْمن الرَّحِيم إلا مَنْ كان هالِكًا فِي غَايةٍ ليس وَراءَها وَراء.

المُغرب: يُقال: هَلَكَ الشَّيءُ في يَدِه: إذا تغير صُنعِه، وهَلَكَ عَلى يَدِه: إذا استهلكَه؛ كأنَّه قاسَه على قَولِهم: قُتِلَ فُلانٌ على يَدِ فُلان، وماتَ في يَدِه، ولا يُقال: مات على يَدِه[3].

قوله: (**ويَجُوزُ أنْ يَكون الضَّمِيرُ لِـما تُوعَـدُون أو للدِّين**) عَطفٌ على قَولِه: الضَّمير

---

(١) «الانتصاف» لابن المنيِّر (٤: ٣٩٦) بحاشية «الكشاف».

(٢) «مفردات القرآن» ص ٧٩.

(٣) «المُغرب في ترتيب المُعرب» لابن المُطرِّز (٢: ٣٨٧).

يَنْهُونَ عَنْ أَكْلٍ وَعَنْ شُرْبِ

أي: يَتَناهون في السِّمَن بسببِ الأكلِ والشُّرْب، وحَقِيقَته: يَصْدُر تَنَاهِيْهم في السِّمَن عنهما، وكذلك يَصْدُر إفْكُهُم عن القَول المُخْتَلف.

وقرأ سَعِيد بن جُبَير: (يُؤفَكُ عنه مَن أَفِك) علىٰ البِناء للفَاعِل، أي: مَن أَفِكَ النَّاسَ عنه؛ وهم قُرَيشٌ، وَذلك أنّ الحَيَّ كانوا يَبْعثون الرَّجل ذا العَقْل والرَّأي لِيَسْأَلَ عن رسول الله ﷺ، فيقولون له: احْذَره، فَيرجِعُ فيُخْبِرهم. وعن زَيْد بن علي: (يأْفِكُ عنه من أَفِكَ)، أي: يَصْرِفُ النَّاسَ عَنهُ مَنْ هُو مَأْفُوكٌ في نَفسِه. وعنه أيضًا: (يأفِكُ عَنهُ مَنْ أَفَّكَ)، أي: يَصْرفُ النَّاسُ عنه من هو أفَّاك كَذَّاب. وقرئ: (يُؤْفَنَ عَنْه من أُفِن) أي: يُحرَمُهُ من حُرِمَ، من أفَنَ الضَّرْعَ: إذا نَهَكَهُ حَلبًا.

[﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ١٠ – ١٤]

للقرآن ويَنْصُرُه الكلامُ السَّابِق، وهو قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾، واللَّاحقُ وهو قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾.

قوله: (يَنهون عن أكلٍ وعن شُربِ)، تمامه:

مثـلَ المَهـا يَـرْتَعْنَ في خَـصْبِ

جملٌ ناهٍ: إذا كان غريقًا في السِّمن. والضَّمير في قَولِه: يَنْهُون يَعُود إلى الجماعَة، ومَنْ ظَنَّ أنَّه يَعُودُ إلى النُّوق أخطأ، فإنَّه لَوْ كان كذلك لقَالَ: يَنْهِينَ.

قوله: (مَن هوَ أَفَّاك كَذَّاب) هذه المُبَالغة إنَّما يُقيِّدها مقامُ مَدْح الرَّسُولِ ﷺ، أي: لا يَصْرف النَّاسَ عَن مِثْلِ هذا الرَّسُولِ ﷺ الصَّادِقِ المَصْدُوْقِ إلا مَنْ هو مُبالِغٌ في الكَذبِ، مُتَنَاهٍ فيه، وهو نحو قولِه السَّابق: لا يَهْلِك عَلى اللّـهِ إلا هَالكٌ، أيُّ هالكٍ، أيُّ هَالك[1]!

---

(١) في (ح) و(ف): «أي هالك»، والتكرار من (ط) وهو الأصوب لسياق الكلام.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ دُعَاءٌ عَلَيهم، كقوله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧] وأَصْله الدُّعاء بالقَتْلِ والهَلاكِ، ثُمَّ جَرَىٰ مجْرىٰ: لُعِنَ وقُبِح. والخَرَّاصُون: الكَذَّابُون المُقَدِّرُون ما لا يَصِحُّ، وهم أَصْحَابُ القول المُخْتلف، **واللام إشَارةٌ إليهم**، كأنَّه قيل: قُتِلَ هَؤلاءِ الخَرَّاصُون. وقرئ: (قَتَلَ الخَرَّاصِينَ) أي: قتَل اللهُ. ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾: في جَهْلٍ يَغْمُرُهم؛ ﴿سَاهُونَ﴾: غَافِلون عما أُمِروا به ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ فيقولون: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: مَتَىٰ يومُ الجزَاء. وقُرئ بِكَسْر الهمزة وهي لغة.

فإن قُلتَ: **كيف وَقع أَيَّانَ ظَرْفًا لليومِ**، وإنَّما تَقَعُ الأَحْيَانُ ظُرُوفًا للحَدَثانِ؟

قلت: معناه: أيانَّ وُقوعِ يومِ الدِّينِ.

فإن قُلتَ: فَبِمَ انْتَصَبَ اليَوْم الوَاقِع في الجواب؟

قلتُ: بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ دَلَّ عليه السُّؤالُ، أي: يَقَع يَوْم هُمْ علىٰ النَّار يُفْتَنُون، وَيَجُوز أَنْ يكون مَفْتُوحًا **لإضَافَتِهِ إلىٰ غَيرِ مُتَمكِّنٍ** وهي الجملة.

فإنْ قُلتَ: فما محلّه مَفْتُوحًا؟

قوله: (**واللَّام إشارة إليهم**) أي: التَّعريف في الخَـرَّاصُون للعهدِ الخَارجيِّ التَّقدِيري لما يُعرف من قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ جماعةٌ كذَّابُون خَرَّاصُون.

قوله: (**كَيْف وَقَعَ أَيَّان ظرفًا**[1] **لليوم**) أي: أَيَّان يُسأَل بها عن الحَدَثِ، كما تقول: أَيَّان المَجيءُ؟ أَيَّان القُدومُ؟ فيُجابُ: يوم الجمُعة، أو شهرَ كذا.

قوله: (**لإضَافتِهِ إلى غَير مُتَمكِّنٍ**) قال الزَّجّاجُ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ لَفظُهُ لَفظَ نَصْبٍ، ومَعناهُ مَعْنى الرَّفْع، لأنَّه مُضَافٌ إلى جملةٍ، تقول: يُعجِبُني يومَ أنت قَائِمٌ ويوم أنْت تقُوم[2].

---

(١) في (ح) و(ف): «ظرفٌ»، وفي «الكشاف» و(ط): «ظرفًا»، وهو الأصوب.

(٢) «معاني القرآن» (٥: ٥٢).

قلتُ: يَجُوز أنْ يكون محلّه نصبًا بالمُضْمَرِ الذي هو يقع؛ ورَفعاً علىٰ: هو يَومُ هُم عَلىٰ النَّار يُفتَنون. وقرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ بالرَّفع، ﴿يُفۡتَنُونَ ﴾: يُحْرَقُون ويُعَذَّبُون. ومنه الفَتِين: وهي الحَرَّةُ؛ لأنَّ حِجَارتَها كأنَّها مُحْرَقَةٌ.

﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ في محلِّ الحَالِ، أي: مَقُولًا لَـهُم هذا القَوْل ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِى﴾ خَبَرُهُ، أي: هذا العَذَاب هو الَّذِي ﴿كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾، ويَجوزُ أنْ يكون هذا بدلًا من فِتْنَتِكم؛ أي: ذُوقُوا هذا العَذَاب.

[﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ * وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ * وَفِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ ١٥-١٩]

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ قابلين لِكُلِّ مَا أعْطَاهُم راضِيْن به، يَعْنِي أنَّه لَيْس فِيما آتاهم إلا ما هو مُتلقىً بالقَبُول مَرْضِيٌّ غير مَسْخُوطٍ، لأنَّ جَمِيعَهُ حَسَنٌ طَيِّبٌ. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤] أي: يَقْبلها ويَرْضَاها، ﴿مُحۡسِنِينَ﴾ قد أَحْسَنُوا أَعْمالَهم، وتَفْسِيرُ إحْسَانِهم ما بعده. ﴿مَا﴾ مَزِيْدة. والمعنىٰ: كانوا يَهْجَعُون في طَائِفَةٍ قَلِيلةٍ مِن اللَّيل

قولُه: (هو يومُ هُم على النَّار يُفْتَنُون) ويَـجُوز أن يَكُونُ مُبتدأ خبَرهُ مَحْذُوفٌ، أي: يومُ هُم على النَّار يُفْتَنون(١) وقْتُ وُقُوعِ يومِ الدِّين.

قوله: (وهي الحَرَّة) الحَرَّةُ: أرضٌ ذاتُ حِجَارةٍ سُودٍ نَخِرَة، كأنَّها احترقَتْ بالنَّار(٢).

قوله: (قَابلين لِكلِّ ما أعطاهمُ راضِينَ به) فُسِّر الأَخْذُ بالقَبُولِ والرِّضَىٰ، لأنَّ لفظَ الأَخذِ فيهِ دَلالةٌ على أنَّ المَطلوبَ مرغُوب فيه، وفيه تَلوِيحٌ إلى ما وَرَد عَن الصَّادِقِ المَصْدُوقِ أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يقولُ لأَهْلِ الجَنَّة: «يا أهْلَ الـجَنَّةِ، فيقُولُون: لَبَّيْكَ ربَّـنا وسَعْدَيْكَ والـخَيْرُ في

---

(١) من قوله: «ويجوز أن» إلى هنا ساقط من (ح).

(٢) من قوله: «قوله: هو يوم هم...» إلى هنا ساقط من (ط).

إنْ جعَلتَ ﴿قَلِيلًا﴾ ظَرْفًا، وَلَكَ أنْ تَجْعله صِفَةً للمَصْدَرِ، أي: كَانُوا يَهْجَعُون هُجُوعًا قليلًا. وَيجُوز أنْ تكُون ﴿مَا﴾ مَصْدَرِيةً أو مَوْصُولةً؛ علىٰ: كانوا قَلِيْلًا مِنَ اللَّيل هُجُوعُهم، أو ما يَهْجَعُون فيه، وارْتِفَاعه بـ﴿قَلِيلًا﴾ علىٰ الفَاعِلِيَّة.........................

يَدَيْك، فيقول: هل رَضِيتُم؟ فيقولُون: ما لَنا لا نَرْضَىٰ يا ربَّنا وقد أعْطَيْتَنا ما لم تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِك، فيقُول: ألا أُعْطِيكم أَفْضَل مِنْ ذَلك؟ فيقُولون: وأيُّ شيءٍ أفْضَلُ مِن ذَلِك؟ فيقول: أُحِلُّ عَلَيْكُم رِضْوَانِي، فلا أَسْخَطُ عَلَيْكُم بَعْدَهُ أبَدًا»، أخرجه البُخَاري ومُسْلِمٌ والتِّرمذيُّ عَنْ أبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ[١].

شبَّه حُلولَ الرِّضْوانِ عَلى السُّعَداءِ وقَابليَّتهم إيَّاه، وهو مَعقولٌ بإعطاءِ ما يَتَناولون باليد، وهو محسوسٌ، مُبالَغةً في الحُصُولِ، وتَصْوِيرًا لحالةِ الأَخذِ والإِعطاءِ، وإبرازِهِ في صُورةِ اسمِ الفَاعل، لِلدَّلالةِ على الدَّوامِ والاستِمرار، رَزَقَنا اللهُ حُلولَ رِضوانِهِ بفَضْلِه وَكرمِه، لأنَّا لَسنا من المُحْسنِين، الَّذِين كَانُوا قَليلاً مِنَ اللَّيلِ مَا يَهْجَعُون، وبالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُون، وفِي أمْوَالِهم حَقٌّ للسَّائِل والمَحْرُوم.

قوله: (ويجوزُ أَنْ تكُون ﴿مَا﴾ مَصْدرِيّةً أو مَوْصُولةً)، الانتصاف: جَعْلُها مَصدرِية يُوجِبُ أَنْ يكونَ ﴿قَلِيلًا﴾ واقعًا على الهُجُوع؛ لأنَّه فاعله[٢].

وقوله: (مِنَ اللَّيل)، لا يَكُون صِفَةً لِلقَلِيل، وَلَا بيَانًا لَهُ، ولا مِنْ صِلةِ المَصْدَرِ لتَقدُّمهِ عَليهِ، وَلا كَذَلِك عَلى أنَّها مَوْصُولة، فَإنَّ ﴿قَلِيلًا﴾ حينئذ واقعٌ عَلى اللَّيلِ، كأنَّه قَال: قليلاً المِقْدَار الذي كَانُوا يَهْجَعُونَه مِنَ اللَّيل، فَلا مَانِعَ أَن يكُون ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ بيانًا لِلقليلِ وهذا أيضًا ذكره الزَّجَّاج[٣]، ومَنَع الزَّمَخْشَريّ نصبَ ﴿قَلِيلًا﴾ بـ﴿يَهۡجَعُونَ﴾، لأنَّه لا يَتقدَّم مَعْمُول «مَا» بَعْد النَّفْيِ عَلَيْه.

---

(١) البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩)، والترمذي (٢٥٥٥).

(٢) «الانتصاف» لابن المنير بحاشية «الكشاف» (٤: ٣٩٨).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٥٣).

....

الإنصاف: ويُفسِدُه من حيث المَعْنىٰ أنَّ طلبَ قيام جميعِ اللَّيل غيرُ مُستثنىً عنه وقتُ الهُجُوع، ولَمْ يَرِدْ بِه الشَّرع، وقال الزَّجَّاجُ: المعنىٰ: كانوا يَهجعون قَليلاً من اللَّيل، أي: يَنامون قَلِيلاً منه، وجائز أن تكون «ما» مُؤكِّدةً لَغوًا، وجَائزٌ أنْ تكُون مع ما بَعدَها مَصدرًا، المعنىٰ: قليلاً مِنَ اللَّيل هُجُوعُهم[1].

وقال أبو البقاء: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا﴾ في خَبرِ «كان» وجْهَان: أحدهما: ﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾، وفي ﴿مَا﴾ على هَذا وَجْهان. أَحدُهما: هي زائِدةٌ، أي كانوا يَهجعُونَ قليلاً، و﴿قَلِيلًا﴾[2]: نعتٌ لِظَرْفٍ أَو مَصْدَرٍ، أيْ: زمنًا قَلِيلاً، أو هُجُوعًا قليلاً، والثاني: «ما» نافيةٌ، ذَكَرَه بعضُ النَّحوِيِّينَ، ورُدَّ لأنَّ النَّفيَ لا يتقدَّمُ عليه ما في حَيِّزِه، والثّاني: أنَّ ﴿قَلِيلًا﴾ خَبرُ «كان»، و﴿مَا﴾ مصدرية، أي: كَانوا[3] قَليلًا هُجوعُهم[4]، كما نقول: كانوا يَقِلُّ هُجُوعُهم، ويجوز علىٰ هذا أنْ يَكون ﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾ بَدلاً من اسمِ كان بَدَلَ الاشْتِمال، و﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ لا يَجوز أنْ يَتعلَّقَ بـ﴿يَهْجَعُونَ﴾ على هذا لما فيه منْ تقديم مَعمُولِ المَصدر عليه، وإنَّما هُو مَنْصوبٌ على التَّبيين وَمُتعلِّقٌ بِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ يُفسِّره ﴿يَهْجَعُونَ﴾. وقال بعضُهم: تمَّ الكلام عندَ قولِه ﴿قَلِيلًا﴾، ثمَّ استأنفَ فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، وفيه بُعدٌ لأنَّك إن جَعلتَ ﴿مَا﴾ نافية فَسُدَ لما ذَكرْنَا، وإن جَعلتها مَصدريَّةً لم يكن فيه مَدحٌ لأنَّ النَّاسَ يَهْجَعُون في اللَّيل[5].

الانتصاف: قَال الزَّمَخشرِيُّ: وفي الآيةِ مُبالغاتٌ، لفظُ الهُجُوع وهو القَلِيل من النَّوم، وقوله: ﴿قَلِيلًا﴾، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾، ومِنْها زِيادَةُ «ما» المؤكِّدة في بَعضِ الوُجُوه، وفي الأَخيرِ نظرٌ، فإن «ما»

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٥٣).

(٢) في (ح) و(ف): «وقلنا»، والمثبت من «إملاء ما مَنَّ به الرحمن»: (وقليلا)؛ وهو الصواب إن شاء الله تعالى.

(٣) من قوله: «يهجعون قليلاً» إلى هنا، سقط من (ط).

(٤) «إملاء ما من به الرحمن» (٢: ٢٤٢ – ٢٤٤).

(٥) من قوله: «وقلنا نعت .. » إلى هنا ساقط من (ط).

وفيه مُبَالَغات: لَفْظ الهُجُوعِ، وهو الغِرَارُ من النَّومِ. قال:

قَدْ حَصَّتِ الْبَيْضَةُ رَأْسِيْ فَمَا أَطْعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجَاعِ

وقوله: ﴿قَلِيلًا﴾ و﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ لأنَّ اللَّيل وَقْت السُّبَاتِ والرَّاحَةِ، وزيادةُ ﴿مَا﴾ المؤكدة لذلك. وصَفَهم بِأنَّهم يُحْيُون اللَّيل مُتهجِّدين، فإذا أَسْحَرُوا أخذوا في الاسْتِغْفَار، كَأنَّهم أسْلَفُوا في لَيْلِهم الجرائم. وقوله: ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فيه أنَّهم هُم المُسْتَغْفِرُون الأَحِقَّاء بالاسْتِغْفَار دُونَ المُصِرِّينَ، فكأنَّهم المُخْتَصُّون به لاسْتِدَامَتِهْم له وإطْنَابِهم فيه.

فإنْ قُلتَ: هَلْ يَجُوز أن تَكُون ﴿مَا﴾ نَافِية كما قال بَعْضُهم، وأنْ يكون المعنىٰ: أنَّهم لا يَهْجَعون من اللَّيل قليلًا، ويُحْيُونه كُلَّهُ؟

تؤكد الهُجوعَ وتُحقِّقُه لا أنَّها تَجعله في معنىٰ القِلّة[1].

الإنصاف: بل تؤكد ما سَبقها، وهو قوله: قَليلاً، أو تحقق أنَّ الهُجوعَ قليلٌ ومحقَّقٌ أنَّه قليل.

وقلتُ: الظَّاهرُ أنَّها تؤكِّد المضمُون؛ لأنَّ الإشارةَ بِقولِه: «لذلكَ» جميعُ ما سبق، مما يُعطِيه معنىٰ الهُجُوعِ من قلَّةِ النَّوْم، ولفظُ قَليلٍ مما وُضِعَ له، وتَخصيصُ ذِكرِ اللَّيلِ من إرادة الرَّاحَة.

قوله: (وهو الغِرَارُ)، الجوهري: الغِرَارُ: النَّوم القَليل.

الرَّاغب: الغِرَّةُ: غَفْلَةٌ في اليَقَظة، والغِرَارُ: غَفْلَةٌ مع غَفْوَةٍ[2].

قوله: (قَدْ حَصَّت البَيْضةُ) البيت، الحَصُّ، أي: زال شَعْرُ رَأْسِي بِاعتِيادِ لبسِ المِغْفَر، البيت لأبي قَيس بن الأَسْلت[3] وبعده:

أسعىٰ علىٰ جُلِّ بني مالكٍ كُلُّ امرئٍ في شأنه ساعِ

---

(١) «الانتصاف» (٤: ٣٩٨) بحاشية «الكشاف».

(٢) «مفردات القرآن» ص ٦٠٣.

(٣) انظر في نسبة هذا البيت لأبي قيس بن الأسلت: «الكامل» للمبرد (١: ١٤٦)، وانظر: «ديوان أبي قيس الأسلت» ص٧٨ .

قُلتُ: لا، لأنَّ «ما» النَّافِية لا يَعْملُ ما بَعْدَها فيما قَبْلها. تقول: زَيْدًا لم أَضْرِبْ، ولا تقول: زَيْدًا ما ضَرَبْتُ.

السَّائِل: الذي يَسْتَجدي، ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الَّذي يُحسَبُ غَنِيًّا فيُحْرَم الصَّدقَةَ لِتعفُّفِهِ.

وعن النبي ﷺ: «ليس المِسْكينُ الذي تردُّه الأُكْلةُ والأُكْلَتان واللُّقْمَةُ واللُّقْمَتان والتَّمْرةُ والتَّمْرَتان» قالوا: فما هو؟..............................

قوله: (تقول: زيدًا لم أضْرِب، ولا تَقُول: زيدًا ما ضَربتُ) قال شَارح «الهادي»[(١)]: يَجُوزُ تَقْديمُ مَنْصُوبِ الأفعالِ النَّاقِصةِ الوَاجبةِ علىٰ اسمِها بِلا خلاف، لأنَّها أَفعالٌ مُتصرِّفة واجِبة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٧] وهو دَليلُ جوازِ تقديمِ الخبرِ، وأمَّا مَا أوله «ما» النَّافِية وهي: مَا زَال، ومَا بَرِح، ومَا فَتِئ، فمنعَ البَصْريون تقدِيمَ خَبرِها عليها، لأنَّ النَّفيَ كالاستفهَامِ له صَدرُ الكلامِ، فَلا يَتقدَّمُ ما في حَيِّزِهِ عليه، وأجازَ الكُوفِيُّون وابن كَيْسان؛ لأنَّ الكلام إيجابٌ لدُخولِ حرفِ النَّفي علىٰ الأفعالِ التي معناها النَّفي، ويَجُوزُ ذَلك مع: لم وَلا وَلَن؛ لأنَّ لَنْ وَلَم كالجُزْءِ من الفعل لاختِصَاصِهما به، وأمَّا «لا» فإنَّها كَثِيرةُ التَّصرُّفِ تَدخل على المَعرفة والنَّكِرة ويَتخَطَّاها العاملُ، وتعملُ فيما بعدَها، كقولك: خرجتُ بلا زادٍ، وعُوقِبتُ بلا جُرْم، فَتعْمل فِيما قبلَها، وقال أيضًا: «لا أفعلُ» نَقيض «أفعلُ غداً»، فكما جاز: زيدًا أرى غداً[(٢)]، أو أراه، جاز: زيدًا لا أرى، ولا أراه، و«لَم أَفْعَل» نقيضُ: «فعلت»، وكما جاز: عَمراً ضربتُ وضَربْتُه، جاز: عَمراً[(٣)] لم أضربْ ولم أضربْهُ، و«لن أفعلَ» نقيضُ: «سوف أفعلُ»، فكما جاز: أخاكَ سوف أزور، وسوف أزورُه، جاز: أخاك لن أزورَ، ولن أزورَه.

قوله: (ليس المسكينُ) عن البُخَاري ومُسلمٍ وأبي دَاود عن أبي هُريرةَ عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ المِسْكِينُ الذي تَردُّه اللُّقمةُ واللُّقْمَتانِ، والتَّمْرةُ والتَّمرَتانِ، ولكنَّ المِسكِينَ الذي

---

(١) لعله يريد كتاب «الكافي شرح الهادي» في النحو والصَّرفِ لعبد الوهاب الزَّنجاني.

(٢) قوله: «أرى غداً» ساقط من (ح) و(ف) وأثبته من (ط) .

(٣) من قوله: «وكما جاز عمراً» إلى هنا، ساقط من (ح) و(ف) وأثبته من (ط) .

قال: «الذي لا يَجِد وَلا يُتَصَدَّقُ عَليه» وقيل: الذي **لا يَنْمَىٰ له مال**. وقيل: **المُحَارَف** الَّذي لَا يَكاد يَكْسب.

[﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ٢٠ - ٢١]

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ تدلُّ علىٰ الصَّانِع وقُدْرَته وحِكْمَته وتَدْبِيرِه، حَيث هي مَدْحُوَّة كَالبِسَاطِ لِمَا فَوْقَها، كما قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣]، وفيها المَسَالِكُ والفِجَاجُ للمُتَقَلِّبين فِيها والمَاشِينَ في مَنَاكِبِها، وهي **مُجَزَّأة**؛ فَمِنْ سَهْل وجَبَل وبَـرٍّ وبَحْرٍ، وقِطَعٍ مُتجاورات؛ من صُلْبَةٍ ورِخْوَةٍ، **وعَذَاةٍ** وسَبِخَةٍ؛ **وهي كَالطَّرُوقَةِ** تُلَقَّح بألوانِ النبَاتِ وأنواعِ الأَشجارِ بالثِّمارِ المُخْتَلِفَةِ الألوان والطُّعُومِ والرَّوَائح تُسْقَىٰ بماءٍ واحدٍ،

لا يَجِدُ غِنًى يُغنِيهِ وَلا يُفْطَنُ بِهِ فيُتصدَّقَ عليه، ولا يَقومُ فيَسأَلَ النَّاس»[(١)].

قوله: (**لا يَنْمَى لهُ مال**) يُحتَمل أن يتمسَّك به الشافعي، أي: له مالٌ، ولكن لا ينمى[(٢)]، وأبو حنيفة: ليس له مال حتى ينمى[(٣)]، نحوه قوله: ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

قوله: (**المحَارَف**)، **الجَوْهَرِيُّ**: رَجُلٌ مُحارَفٌ بفتح الرَّاء: أي مَحْدودٌ محروم، وهو خِلاف قولك: مُبارَك، ورجل مُحارَفٌ: أي منقُوصُ الحظِّ لا يَنْمُو له مال[(٤)].

قوله: (**وعَذَاة**)، **الأساس**: أوديةٌ ذَاتُ عَذَوات، وهي الأَرَضُون الطَّيِّبَة التُّربَةِ الكَرِيمةُ النَّبات.

قوله: (**وهي كالطَّرُوقةِ**)، **الجَوْهَرِي**: الطَّرُوقَة الفَحْلِ: أُنْثاهُ، ويُقال: نَاقةٌ طَرُوقَةُ الفَحْلِ: التّي بلغت أَن يَضرِبَها الفَحل.

---

(١) البخاري (١٤٧٦)، ومسلم (١٠٣٩) وأبو داود (١٦٣١).

(٢) «أحكام القرآن» (١: ١٦٣) برواية البيهقي.

(٣) من قوله: «وأبو حنيفة» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف).

(٤) من قوله: «قوله: المحارف» إلى هنا ساقط من (ط).

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]، وكُلّها مُوافِقَةٌ لِحوائج سَاكِنيها ومَنَافِعِهمْ ومَصَالِحِهمْ في صِحَّتِهِم واعتِلالهِم، وما فِيْها مِن العُيُونِ المُتَفَجِّرةِ والمَعَادِنِ المُفتنّة والدَّوَاب المُنبَثَّةِ في بَرِّهَا وبَحْرِها المُختلفة الصُّور والأَشكالِ والأفعَالِ: من الوَحْشِيِّ والإنسيِّ والهَوامِّ، وغير ذلك.

﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ المُوَحِّدين الَّذين سَلكوا الطَّريقَ السَّوِيَّ البُرْهَاني المُوْصِل إلىٰ المَعْرِفةِ، فهم نَظَّارُون بعُيونٍ باصِرةٍ، وأفهامٍ نَافِذَةٍ، كُلَّما رأَوا آيةً عَرَفُوا وَجْه تَأمُّلِهَا فَازْدادوا إيمَانًا مَعَ إيمانِهِم، وإيْقَانًا إلىٰ إيقانهم.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ في حَالِ ابْتِدائِها وتَنَقُّلِها مِنْ حَالٍ إلىٰ حَالٍ، وفي بَواطِنِها وظَوَاهِرِهَا من عَجَائِبَ الفِطَرِ وبَدائِعِ الخَلْقِ: ما تَتَحيَّرُ فيه الأَذْهَانُ، وحَسْبُك بالقُلوب وما رَكَز فيها من العُقُول وخُصَّتْ بِهِ من أصْنافِ المَعاني، وبِالأَلْسُنِ، والنُّطْقِ، ومَخَارِجِ الحُرُوفِ، ومَا في تَرْكِيْبِها وتَرْتِيبِها ولَطَائِفِها: من الآيات السَّاطِعةِ والبَيِّناتِ القَاطِعة علىٰ حكمة المُدَبِّرِ، دَع الأَسماعَ والأَبْصارَ والأَطْرافَ وسَائِرَ الجَوارِحِ وتأَتِّيها لِما خُلِقَت لَه، وما سُوِّيَ في الأَعْضاءِ مِن المَفاصِلَ للانْعِطافِ والتَّثَنِّي؛ فإنَّه إذا جَسَا شيءٌ مِنْها جَاءَ العَجْزُ، وإذا اسْتَرْخىٰ أَنَاخَ الذُّلُّ، فتبارَكَ اللهُ أحْسنُ الخَالِقين.

[﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ ٢٢-٢٣]

قوله: (وخُصَّتْ به) عطف على رَكَز، والضَّميرُ في «به» رَاجِعٌ إلى «ما»، و«من أصناف المَعَاني» بيانُ ما خُصَّتْ، وَ«بالأَلْسُنِ» عَطف على «القُلوب».

قوله: (جَسَا) أي: يَبِسَ، لأنه إذا يَبِسَ صَلُب، وسَيجِيءُ إنْ شاء اللهُ بيانُ نظم الآياتِ عند قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ﴾.

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ هو المَطَر؛ لأنَّه سَبَبُ الأقْواتِ. وعن سعيد بن جُبَير: هو الثَّلْجُ وكُلُّ عَيْنٍ دائِمةٍ مِنْهُ. وعن الحسَنَ: أنَّه كان إذَا رَأىٰ السَّحابَ قال لأصْحَابه: فيه والله رِزْقُكُمْ، ولكِنَّكُمْ تُحْرَمُونَه لخِطَايَاكُم.

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ الجنة: هِيَ عَلىٰ ظَهْرِ السَّماءِ السَّابعَة تَحْتَ العَرْش، أو أَرَاد: أنَّ ما تُرْزَقُونه في الدُّنيا وَمَا تُوعَدُونَ بِهِ في العُقْبىٰ كُلَّهُ مَكْتُوبٌ في السَّماءِ.

قرئ: (مِثْلُ ما) بالرَّفع صِفةً لِلحَقِّ، أي: حَقٌّ مِثْلُ نُطْقِكم، وبالنَّصْبِ علىٰ: إنَّه لحقٌّ حَقًّا مِثْلَ نُطْقِكُمْ. ويَجُوز أنْ يَكُون فَتحًا لإضَافَتِهِ إلىٰ غَيْرِ مُتمكِّن، و«مَا» مَزِيدةٌ

قوله: («مثلُ ما» بالرَّفع) أبو بكر وحَمْزة والكِسَائي، والباقون: بالنَّصب[1]، قال أبو البقاء: الرَّفعُ على أنّه نَعتٌ لـ «حقّ»، أو خَبرٌ ثان، أو على أنَّهما خَبرٌ واحدٌ، مثل: حُلوٌ حَامِض، و«ما» زائدةٌ على الأوجه الثلاثة، والفَتْحُ فيه وَجْهان أحدهما: وهو مُعْرب، وفيه أوجه، إمَّا هُو حالٌ من الضَّمير في حق، أو علىٰ إضْمار أعْني، أو على أنّه مرفوعُ المَوْضع، ولكنَّه فُتِح كما فُتِح الظّرفُ في قوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾ [الأنعام: ٩٤] على قول الأخْفَش[2]، و«ما» علىٰ هذه الأوجُهِ زائِدةٌ أيضًا، والوجه الثّاني: هو مَبْنيٌّ، وفيه وجهان، أحدهما: أنّه رُكِّبْ مع «ما» كخَمْسَة عشر، و«ما» علىٰ هذا يجوزُ أن تكون زَائدة، وأنْ تكونَ نَكرةً مَوصُوفة،

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» للداني ص ١٣٠.

(٢) قال ابن جني في «الخصائص» (٢: ٣٧٠): وأمَّا قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾ فيمن قرأه بالنَّصب فيحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون الفاعل مُضمرًا: أي لقد تقطع الأمرُ والعقد أو الود ـ ونحو ذلك ـ بينكم، والآخر: ما كان يراه أبو الحسن من أن يكون ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ وإن كان منصوب اللفظ مرفوع الموضع بفعله، غير أنّه أقرت نصبه الظرف وإن كان مرفوع الموضع لاطّراد استعمالهم إياه ظرفًا.
وقال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٧: ٤٣): ويجوز أن تكون قراءة النّصب (أي: نصب الظَّرف ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾) على معنى الرفع، وإنما نُصب لكثرة استعماله ظرفًا منصوبًا وهو موضع رفع، وهو مذهب الأخفش.

بِنصِّ الخَلِيل، وهذا كَقَوْلِ النَّاسِ: إنَّ هَذا لَحَقٌّ، كَمَا أَنَّكَ تَرىٰ وتَسْمَعُ، **وَمِثْلَ مَا أَنَّك هاهنا.**

والثاني: أن تكون بُنِيَتْ لأنَّهَا أُضِيفت إلى مُبهمٍ، وفيها نفسِها إبهامٌ كقوله: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ [هود: ٦٦]، فتكون «ما» علىٰ هذا إما زائِدة، وإما بمعنىٰ شيء.

وأمَّا «إنكم»، فيجُوزُ أن يكونَ موضِعُها جرًّاً بالإضافة إذا جُعلت «ما» زائدة، وأن تكون بدلاً منها إذا كانت بمعنىٰ شيء[1]، ويجوز أن تكون في موضعِ نَصْبٍ بإضمارِ: أعني، أو رفعٍ علىٰ تقدير: هو أنّكم[2].

وقال الوَاحِديُّ: ومن نَصَبَ جعل «مثل» مع «ما» بمنزلة شيء واحد، ذكر ذلك المَازِني وأبو علي، قال: ومثله قول حُميد[3]:

وَوَيحاً لمن لَمْ يَدْرِ ما هُنَّ وَيحَما

فبنى «ويح» مَعَ «ما»، ولم يُلحِقه التَّنوين[4].

قوله: **(ومِثل ما أنك هاهنا)** قال الوَاحِديُّ: شبّه الله تعالى تحقق ما أَخْبَر عنه بتحقق نُطق الآدَمي ووجودِه، أي: أنّه في صدقِه ووجودِه كالذِي تعرفه ضرورة[5].

---

(١) من قوله: «وأما إنكم» إلى هنا ساقط من نسخة (ح).

(٢) «إملاء ما منّ به الرحمن» (٢: ٢٤٤).

(٣) المقصودِ به حميد الأرقط كما جاء مصرحًا به، ومعْزوًّا له هذا البيت في «لسان العرب» لابن منظور (٥: ٣٧١) وتمام البيت.

ألا هَـيَّما ممـا لَقِيـتُ وهَـيَّما   وويحًا لمن لم يَدْرِ ما هُنَّ وَيحَـما

(٤) قال ابن جني في «الخصائص» (٢: ١٨٢)، وأخبرنا أبو علي أن أبا عثمان ذهب في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ إلى أنه جعل «مثل» و«ما» اسمًا واحدًا، فبنى الأول على الفتح، وهما جميعًا عنده في موقع رفعٍ لكونهما صفة لـ«حق».

(٥) «الوسيط» (٤: ١٧٧).

وَهَذا الضَّمِيرُ إشَارَة إلىٰ مَا ذُكِرَ مِنْ أَمْرِ الآياتِ والرِّزْقِ وأمْرِ النَّبيِّ ﷺ؛ أو إلىٰ ما تُوعَدُون. وعن الأصمعي: أقبلتُ من جامِع البَصْرة فطَلَع أعْرَابيٌّ علىٰ قَعُودٍ لَهُ فقال: ممَّن الرَّجل؟ قلت: من بني أصْمَع. قال: مِنْ أين أقْبلت؟ قُلتُ: مِنْ مَوضِعٍ يُتْلَىٰ فيه كلامُ الرَّحْمنِ. فقال: اتْلُ عَليَّ، فتَلوتُ ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ فلما بلغت قولَه تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ قال: حَسْبُك، فقام إلىٰ ناقتِهِ فَنَحرهَا وَوزَّعها علىٰ من أقْبَل وأدْبَر، وعَمَد إلىٰ سَيْفِهِ وقوسِهِ فكَسَرَهُما وَوَلَّىٰ، فلمَّا حَجَجْتُ مع الرَّشِيدِ طَفِقْتُ أطوفُ، فإذا أنا بِمَنْ يَهْتِفُ بِي بِصوتٍ دَقِيقٍ، فَالتفتُّ فإذَا أنَا بِالأعرابِيِّ قد نَحُلَ واصْفرَّ، فَسَلَّم عَليَّ واسْتقرأ السُّورة، فلمَّا بَلغْتُ الآية صَاح وقال: قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا ربُّنَا حقًّا! ثُمَّ قال: وهَل غير هذا؟ فقرأت: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾، فَصَاح وقال: يا سُبْحانَ الله! مَنْ ذَا الَّذي أغضَبَ الجَلِيلَ حَتَّىٰ حَلَفَ؟! لم يُصَدِّقُوه بِقوله حتىٰ ألجؤوه إلىٰ اليمين؟! قالها ثلاثًا وخَرَجَتْ معها نَفْسُه.

[﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ * فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ * فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ * قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ٢٤ – ٣٠]

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ تفخيمٌ للحَديث وتَنْبِيهٌ عَلىٰ أنَّه لَيْس مِن عِلْمِ رَسولِ الله ﷺ، وإنَّما عَرَفَهُ بِالوَحْي. والضَّيفُ لِلواحِد والجماعة كالزَّوْرِ والصَّوْمِ؛ ....

وقلت: إنما خصَّ النُّطق دونَ سائرِ الأَعْمالِ الضَّرورية لكونه أبينَ وأظهرَ، ومن الاحْتِمالِ أبْعد، وفيهِ إيماءٌ إلى اسْتِجلابِ رأسِ الشُّكر، قال: إنَّما جُعَل الحمدُ رأسَ الشُّكر؛ لأنَّ ذِكرَ النِّعمة باللِّسَانِ والثَّناءَ على مُولِيْها أشبع لها من الاعتقادِ وآدابِ الجوارِحِ، لأنَّ النُّطقَ يُفْصِحُ عن كل خَفِيٍّ، ويُجلِّي كُلَّ مُشتبه.

لأنَّه في الأصل مَصْدرُ: ضَافَهُ. وكَانوا اثْنَيْ عَشَرَ مَلَكًا وقيل: تِسْعَةٌ عَاشِرُهُم جِبْرِيلُ وقيل: ثلاثةٌ: جِبْرِيلُ، ومِيكَائِيلُ، ومَلَكٌ مَعَهُما. وجَعلَهم ضيفًا؛ لأنَّهم كَانُوا في صُورةِ الضَّيْفِ: حَيْثُ أَضَافَهُم إبْرَاهِيم. أو لأنَّهُم كانوا في حُسْبَانِه كَذَلِك. وإكرامهم: أنّ إبْرَاهيم خَدَمَهم بِنَفْسِهِ، وأَخْدَمَهُم امْرَأَتَـهُ، وعَجَّلَ لَهُمُ القِرَىٰ، أو أَنَّهم في أَنْفُسِهم مُكْرَمُون. قال الله تعالىٰ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]

﴿إِذْ دَخَلُوا﴾ نُصِبَ بِـ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ إذا فُسِّر بِإكْرامِ إبْرَاهِيمَ لَهُمْ؛ وإلا فَبِما في ﴿ضَيْفِ﴾ مِنْ معنىٰ الفِعْل. أو بإضْمَار: اذكر.

﴿سَلَامًا﴾ مصدرٌ سَادٌّ مَسَدَّ الفِعْلَ مُسْتَغْنىً بِهِ عَنْهُ. وأصله: نُسَلِّمُ عَلَيْكُم سَلامًا، وأمّا ﴿سَلَامٌ﴾ فمعدولٌ به إلىٰ الرَّفع علىٰ الابْتِداء. وخبرُه محذوفٌ، معناه: عَلَيْكُم سَلامٌ، للدَّلالةِ علىٰ ثَبَاتِ السَّلام، كأنَّه قَصَدَ أنْ يُحَيِّيَهم بِأَحْسَنِ مِمّا حَيَّوهُ بِه، أَخْذًا بأدبِ الله تعالىٰ. وهَذا أيضًا مِنْ إكْرامِهِ لَهُم. **وقُرِئَا مَرْفُوعَيْن، وقُرِئ: (سلاماً قال سَلْماً)**، والسَّلْم: السَّلام. وقُرِئَ: (سَلامًا قال سِلْم).

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أنكرهم للسَّلام الذي هو عَلَمُ الإسْلامِ، أَوْ أراد أنَّهم لَيْسوا مِنْ مَعَارِفِهِ أَوْ مِنْ جِنْسِ النَّاس الَّذين عَهِدَهُم، كَما لو أَبْصَر العَرَبُ **قومًا من الخَزَر**، ....

قوله: **(وقُرِئا مَرفُوعَيْن، وقُرِئ: «سَلامًا»)** المشهورةُ: بالنَّصبِ، والرَّفعُ: شاذَّةٌ، حمزةُ والكِسائي: «قال سِلْمٌ» بكسر السِّينِ وإسكان اللام، والباقون: بفَتحِ السِّينِ واللام وأَلِفٌ بعدها(١).

قوله: (من الخَزَر) عن بعضهم: جيلٌ من الناس، وهم الغُزُّ والأتراك.

(١) «حجة القراءات» ص٦٧٩.

أو رأىٰ لَهم حَالًا وشَكْلًا خِلافَ حَالِ النَّاس وشَكْلِهِمْ، **أو كان هذا سُؤالًا لهم**، كأنَّه قال: أنتم قومٌ مُنْكَرون، فعَرِّفُوني مَن أنتُم؟

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ **فذهَب إليهم في خُفْيَةٍ** من ضُيوفِهِ؛ ومن أدَبِ المُضِيف أن يُخْفِيَ أمْرَه، وأنْ يُبادِرَه بالقِرىٰ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْعُرَ به الضَّيفُ، حَذَرًا من أن يَكُفَّه ويَعْذِرَه.

قال قَتَادَة: كَان عَامةُ مالِ نبي الله إبْراهِيم: البقر ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾. والهمزة في ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ للإنكار: أَنكَر عَلِيْهم تَرْكَ الأَكْلِ. أو حَثَّهم عليه.

قوله: (**أَوْ كَان هَذا سُؤالاً لهم**) عَطفٌ على قَوله: «أَنْكَرَهُمُ للسَّلام الَّذي هو عَلَمُ الإسلامِ»، يعني: أنّه عليه السَّلام إمَّا أن أنْكرهم بقلبِهِ، وقال في نَفسه: هؤلاءِ قومٌ مُنْكَرون، أو كان هذا سؤالاً لهم، وقال بلسانِه: أنتم قَومٌ مُنْكَرُون؟، وذلك أنَّه عليه السَّلام، كان بين أَظهُرِ قومٍ كُفَّارٍ، ما عُهِدَ منهم السَّلامُ الذي هو تَحيةٌ للمُسلمين، فلمَّـا سَمِعَ منهم أنكرهُم.

نحوه ما رُوِّيْنا في «الصَّحِيحين»[١] أنَّ موسى عليه السَّلام لـمَّا سَلَّم عليه الخَضِر عليه السَّلام قال: أنَّى بأَرضِكَ السَّلامُ! أو بأَرْضِي السَّلام؟! أو أرادَ أنَّهم ليسوا من مَعارِفِه، أو مِن جِنس النَّاس الذين عَهِدَهُم، أو رأى لهم شَكلاً خِلافَ شكل النَّاس، روى الوَاحِدِيُّ: عن ابن عَبَّاس قال في نفسه: هَؤُلاءِ قومٌ لا نَعْرِفُهم[٢].

قوله: (﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾: **فذهب إليهم في خُفْية**)، **الرَّاغب**: الرَّوغُ: المَيْل على سَبِيل الاحْتِيَال، ومنه: راغَ الثَّعلبُ يَرُوغُ رَوَغَانًا، وطريقٌ رائِغٌ إذَا لم يكُن مُستقيمًا، كأنه يُرَاوِغ، ورَاغ فلانٌ إلى فُلانٍ: مَال نَحْوَهُ لأمر يُرِيْد منه بالاحْتِيال، قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الصافات: ٩١] ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]، أي: احْتالَ، وحَقِيقَتُه طلبٌ بضَربٍ من الرَّوَغانِ، ونَـبَّه بـ«علىٰ» علىٰ معنىٰ الاسْتِعلاءِ[٣].

---

(١) البخاري (١٢٢) ومسلم (٢٣٨٠)، وفيهما أن موسى هو مَن سَلَّم على الخضر عليهما السلام.

(٢) انظر: «الوسيط في تفسير القرآن المجيد» للوَاحِدي (٤: ١٧٨).

(٣) «مفردات القرآن» ص ٣٧٣.

﴿فَأَوْجَسَ﴾ فأضْمَرَ. وإنَّما خَافَهم لأنَّهم لم يَتحَرَّمُوا بطَعَامِهِ فَظَن أنَّهم يُريدُون به سُوْءًا. وعن ابن عَبَّاس: وقع في نفسه أنَّهم مَلائِكَة أُرْسلوا للعَذَابِ. وعن عَوْن بن شَدَّاد: مَسَحَ جِبْريل العِجْل بِجَناحِهِ فَقَام يَدْرُجُ حَتَّىٰ لَحِقَ بأمِّهِ.

﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي يَبْلُغ ويَعْلَم. وعن الحَسن، عَليمٌ: نبيّ، والمبشَّر به إسْحَاق، وَهو أكثرُ الأَقاوِيلَ وأصحُّها؛ لأنَّ الصِّفةَ صِفَةُ سارَّة لا هَاجَرَ، وهي امرأةُ إبْراهِيم وهُو بَعْلها. وعن مجاهد: هو إسماعيل.

﴿فِي صَرَّةٍ﴾ في صَيْحة، من: صَرِّ الجُنْدُب، وصَرِّ القَلَم والبَاب، ومَحَلّهُ النَّصْب علىٰ الحَال، أي: فجاءت صَارَّةً. قال الحسن: أَقْبَلت إلىٰ بَيْتِها وكَانَتْ في زَاوِيَةٍ تَنْظُر إلَيهم، لأنَّها وَجَدَتْ حَرارَةَ الدَّم فَلَطَمت وَجْهَهَا مِنَ الحَيَاءِ، وقيل: فأَخَذَتْ في صَرَّةٍ، كما تَقُول: أَقْبَل يَشْتُمني. وقيل: صَرَّتُها قَولُها: أَوَّه! وقيل: يا وَيْلتَا! وعن عِكْرمة: رَنَّتُها.

﴿فَصَكَّتْ﴾ فلَطَمَتْ بِبَسْطِ يَدَيْها. وقيل: فَضَرَبَتْ بِأَطْراف أَصَابِعِها جَبْهَتها؛ فِعْلَ المُتعجِّب.

﴿عَجُوزٌ﴾ أَنَا عَجُوزٌ، فكيف ألدُ؟!

قوله: (لم يَتحَرَّمُوا بطعامِه) أي: لم يدخلوا في حرمة بأكل طَعامِه، **الأساس**: تَحَرَّم فُلانٌ بفُلانٍ، إذا عاشَرَه ومَالَحَهُ، وتَأكَّدتِ الحُرْمةُ بينهما، وتَـحَرَّمتُ بِطعامك، ومُجَالستِكَ، أي: حرمَ عَلَيكَ مني بِسَببهما ما كان لك أخذه.

قوله: (فَقَام يَدْرُجُ) **الأساس**: دَرَجَ الشَّيخ والصَّبِي دَرَجاناً، وهو مَشْيهما.

قوله: (الجندب) الجوهري: الجُندُب: ضَربٌ من الجرادِ.

قوله: (وَجَدَتْ حَرارَةَ الدَّم) قَال صاحِبُ «المطلع»: أي دمَ الحَيْض، كما قال تعالى: ﴿فَضَحِكَتْ﴾.

﴿كَذَٰلِكِ﴾ مثل ذلك الَّذي قُلنا وأخبرنا به، ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ أي إنَّما نُخْبِرُكِ عن الله، والله قَادِرٌ علىٰ مَا تَسْتَبْعِدين. وُرويَ أنّ جِبْريل قَال لها: انظري إلىٰ سَقْفِ بَيْتِكِ، فَنَظَرت فإذا جُذُوعُهُ مُورِقَةٌ مُثْمِرةٌ.

[﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ ٣١-٣٧]

لـمَّا عَلِم أنَّهم مَلائِكةٌ، وأنَّهم لا يَنْزِلُون إلا بِإِذنِ الله رُسُلًا في بعض الأُمُور ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: فَما شَأْنُكم وَمَا طَلَبُكُم؟

﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ إلىٰ قومِ لُوطٍ.

﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ يريد: السِّجِّيل، وهو طِينٌ طُبِخَ كَما يُطبَخ الآجُرُّ، حتَّىٰ صار في صَلابةِ الحِجَارة، ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مُعلَّمَة، من السُّوْمَةِ، وهي العَلامة علىٰ كُلِّ واحِدٍ مِنها اسم من يَهْلِك به. وقيل: أُعْلِمت بأنَّها من حِجَارةِ العَذَابِ. وقيل: بعَلامَةٍ تَدلُّ علىٰ أنَّها لَيْست من حِجَارةِ الدُّنيا. سَمَّاهُم مُسْرِفين، كما سَمَّاهم عَادِيْن، لإِسْرَافِهم وعُدْوَانِهم في عَمَلِهِمْ: حيث لم يَقْنَعُوا بِما أُبِيح لَهُمُ.

الضَّميرُ في ﴿فِيهَا﴾ للقَرْيَةِ، ولم يَجْرِ لها ذِكْرٌ لكَوْنِها مَعْلُومة. **وَفيه دَليلٌ عَلىٰ أنَّ الإِيمانَ والإِسْلامَ واحدٌ**، وأنَّهما صِفَتَا مَدْح.

قوله: (وفيه دَليلٌ على أنَّ الإيمانَ والإِسلامَ واحِدٌ) قال القاضِي: وهو ضعيفٌ، لأنَّ ذلكَ لا يَقْتَضِي إلَّا صِدقَ المؤمن والمُسلم على من اتَّبَعُه، وذلك لا يَقتَضِي اتِّحاد مفهُومَيْهما لجَواز صِدق المَفهُومات المُختلفة على ذاتٍ واحدة[1].

---

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٢٣٩).

قيل: هُم لُوطٌ وابْنَتاهُ. وقيل: كان لُوطٌ وأهلُ بَيْتِهِ الذين نَجَوْا ثلاثةَ عشر. وعن قتادة: لو كان فيها أكْثر مِنْ ذَلك لأنْجاهُم، ليَعْلَمُوا أنَّ الإِيمان مَحْفُوظٌ لا ضَيْعَةَ علىٰ أهْلِهِ عِنْدَ الله.

﴿ءَايَةً﴾ عَلامةً يَعْتَبِر بها الخَائِفُون دُونَ القَاسِيَة قُلوبُهُم. قال ابن جُرَيجٍ: هي صَخْرٌ مَنْضُودٌ فِيْها. وقيل: مَاءٌ أسْوَدُ مُنْتِنٌ.

[﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ٣٨ – ٤٠]

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ عطفٌ عَلىٰ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ أو عَلىٰ قَولِه: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ علىٰ معنىٰ: وجَعَلْنا في مُوسَىٰ آيةً، كقوله:

عَلَفْتُـهَا تِبْنًا وَمَاءً بَارِدا

وقُلت: قوله: «وأنّها صِفَتا مَدْح» عَطْفٌ تَفسيريّ، ومعناه: أنَّ ذِكر المُؤمِنين والمُسلمين هاهنا لمُجرَّدِ المَدحِ، وأنَّ الثَّاني عَين الأوَّلِ لوُقُوعِها مقابِلَين لِذكرِ الكافرين، فقيل أولاً: إلى قومٍ مُجرمين، ثُمَّ لِلمُسرفين، والثَّاني عَين الأوَّلِ وضعاً للمُظهَرِ مَوْضِع المُضْمَر، المعنىٰ: أرْدنا إخْراج مَن كان فيها من المُطيعين الكَامِلين في الإيمانِ، فما وَجَدْنا غير بيتٍ منهم، فقيل: مِن المُسْلمين. أي المُستَقيمينَ علىٰ الجادَّةِ المُنتفعينَ بالإيمانِ، ليقابل المُسرِفِينَ، كما أنَّ المُؤمنينَ مُضادٌّ للمُجرِمين، وَلو لَم يَكُن الإسلامُ داخلاً في مفهومِ الإيمانِ لما صَحَّ استثناءُ بيتٍ من المسلمين من قولِه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله: (﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ عَطْفٌ علىٰ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾) إشارةٌ إلى بيانِ نَظْمِ الآيات، وذلِك أنّه تعالىٰ لما ذَمّ الخَـرَّاصِينَ الأفّاكِين، ووَصَفَهُم بما به أوقعُوا أنفسهم في تلك الوَرَطَات، وهُو أنّهم في غَمراتِ الجَهل، وسَكَراتِ السَّهوِ، يتورَّطونَ فيما لا يَعنيهم من السُّؤال عن أيّان[1]

---

(١) أيّان: معناه أيُّ حين، انظر: «الصحاح» للجوهري (٥: ٢٠٧٧) مادة (أين).

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ فازْوَرَّ وأَعْرَضَ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [فصلت: ٥١] وقيل: فتولّىٰ بما كان يَتقوّىٰ بِهِ مِن جُنُودِهِ ومُلْكِهِ. وقُرِئَ: (بِرُكُنِهِ)، بضَمِّ الكَاف. ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ﴾ أي هو سَاحر.

﴿مُلِيمٌ﴾ آتٍ بِما يُلامُ عَلَيهِ مِنْ كُفْره وَعِنَادِهِ، والجُمْلَةُ مَعَ الوَاوِ حالٌ مِنَ الضَّمِيرِ في ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ﴾.

فإن قُلتَ: كَيْفَ وَصَف نبيَّ الله يُونُس صَلَوات الله عليه، بما وَصَف به فِرْعَونَ في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢]؟

قلتُ: مُوجِبَاتُ اللَّومِ تَخْتَلف وعَلىٰ حَسَبِ اختلافِها تَخْتَلِفُ مَقَادِيرُ اللَّوم، فَراكِبُ الكَبِيرةِ مَلُومٌ علىٰ مِقْدَارِهَا، وكذلك مُقْتَرِفُ الصَّغِيرةِ. ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ [هود: ٥٩]، ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: ١٢١] لأنَّ الكَبيرةَ والصَّغِيرة يَجْمَعُهُما اسمُ العِصْيَانِ، كَما يَجْمَعُهُما اسم القَبِيح والسَّيِّئَةِ.

[﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ ٤١-٤٢]

السَّاعة، مع إنكارِ مجيئها والامْتِناع من الاستِعداد لها، وأَوْعَدَهم علىٰ ذلك بِقَوْله: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ وجعله مخلصًا إلىٰ ذِكر أضْدَادِهم، وذكر ما به فازُوا إلىٰ النَّعيمِ المُقِيم، من أخذِ التأهُّبِ للمعادِ، والتَّهيؤ لاستِعدادِ زادِ يوم التَّنادِ، أتىٰ بعد ذلِك بدليلِ للآفاقِ والأنفس، تنبيهًا لهُم، وإيقاظًا من سِنَةِ الغَفْلة، وعَطَفَ عَليهِ قصَّةَ مُوسىٰ وفِرعَونَ اتعاظاً وتَخْويفًا، وأمَّا قِصَّة إبراهيمَ ولوطٍ عليهما السَّلام، فَمُعْتَرِضَتَان بين المعطُوفِ والمعطُوفِ عليه، تَسلِيةً لرَسول الله ﷺ من تَـكذِيبِهم، وَوَعدًا له بإهلاكِ أعدائِه الأفَّاكِين كَما أهْلَك قَومَ لُوط.

قوله: (﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ فازوَرَّ وأعرضَ) قال بعضُهم: أي حَرفَ رُكنَه وهو مَنْكِبُه، والباء للتَّعْديِة، وحُذِف المَفْعول لأنَّك تقول: تَولى عنه، أي: أعرَضَ عنه.

﴿ٱلْعَقِيمَ﴾ التي لا خَيْر فيها من إنْشَاء مَطَرٍ أو إلْقَاحِ شَجَرٍ، وهي رِيْحُ الـهَلاكِ. واخْتُلِف فِيهَا: فعن عليٍّ رضي الله عنه: النَّكْبَاء. وعن ابن عباس: الدَّبُور. وعن ابن المُسَيِّب: الجَنُوب. الرَّمِيْم: كُلُّ مَا رَمَّ أي: بَلِيَ وتَفَتَّتَ مِنْ عَظْمٍ أو نَباتٍ أو غير ذلك.

[﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ ٤٣-٤٥]

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تفسيرُه قوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاسْتَكْبروا عن امتِثَالِه.

قوله: (مِن إنْشَاء مَطرٍ أو إلقَاحِ شَجَرٍ) إيذَانٌ بأنَّ ﴿ٱلْعَقِيمَ﴾ هاهنا مُستعَارٌ للمَعنىٰ المذْكُورِ علىٰ سَبِيل التَّبَعِيَّة، شبّه ما في الرِّيح من الصِّفةِ التي تمنع من إنشاءِ مطرٍ أوْ إلقَاحِ شَجرٍ، بما في المَرأةِ مَن الصِّفةِ التي تَمنَعُ من الحَمْل، ثُمَّ قِيل: العَقِيم، وأُرِيدَ به ذلكَ المعنىٰ بقَرينةِ وَصْفِ الرِّيح به.

الراغب: أصلُ العقم: اليُبْسُ المانِعُ من قَبولِ الأثرِ، تقول: عَقِمَتْ مَفَاصِلُه، وَدَاءٌ عُقَامٌ: لا يَقبلُ البُرْءَ، والعَقِيمُ مِنَ النِّساء الّتي لا تقبلُ ماءَ الفَحْل، يُقال: عَقِمَتِ الرَّحم، وريحٌ عَقِيمٌ، يَصحُّ أن يكونِ بمعنىٰ الفاعل، وهي التي لا تُلَقِّحُ سَحَابًا ولا شَجرًا، وأنْ يكُون بمعنىٰ المَفعُولِ كَالعَجُوز العَقِيم، وهي التي لا تَقبلُ أثر الخَيرِ، وإذَا لَم تَقبل ولم تَتأثّر لَـمْ تُعطِ ولم تُؤثِّر، ويَوْمٌ عَقِيمٌ: لَا فَرَحَ فِيهِ[1].

قوله: (**النَّكْباءُ**) **الجوهري**: النَّكْباءُ: الرِّيحُ النَّاكِبَةُ التي تَنْكُبُ عن مَهابِّ الرِّياحِ، أي: تَتجنَّب، مِنْ تَنَكَّبه، أي تَجنَّبه، والدَّبُور: الرِّيح التي تُقابل الصَّبَا.

قوله: (﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تَفْسيرُه) أي: في مَوْضع آخر، تَفْسيره قوله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، وفي الكبير: قال بعضهم: المراد هو ما أَمْهلَهُم الله تعالىٰ أيامًا بَعْد عَقرِهم

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٥٧٩.

وقرئ: (الصَّعْقَة) وهي الـمَرَّةُ من مَصْدر صَعَقَتْهُم الصَّاعِقَةُ، والصَّاعِقَةُ: النَّازِلَةُ نَفْسُها، ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ كانت نهارًا يُعَايِنُونَها.

ورُوِيَ أنَّ العَمالِقَةَ كانوا مَعَهُم في الوَادِي يَـنْظُرون إلَيْهِم ومَا ضَرَّتْهُم، ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٧] وقيل: هو من قَولِهم: ما يَقُوم به، إذا عَجَز عن دَفْعِه. ﴿مُنتَصِرِينَ﴾ مُمْتَنِعين من العَذَابِ.

[﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ ٤٦]

﴿ وَقَوْمَ﴾ قرئ بالجَرِّ علىٰ معنىٰ: وفي قَومِ نُوح، وتقوّيه قراءة عبد الله: (وفي قَوْمِ نُوحٍ). وبالنَّصْب علىٰ معنىٰ: وأهْلَكْنا قَومَ نُوحٍ؛ لأنَّ مَا قَبْله يَدُلُّ علَيهِ. أو واذْكُر قَوْمَ نُوحٍ.

[﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ ٤٧-٤٨]

النَّاقَة، وكَانت لَـهُم في تلكَ الأيَّام أنواعٌ من الآياتِ، كتغيُّر ألوانِهم واسوِدادِ وُجوهِهم، وهو ضَعِيفٌ؛ لأنَّ تَرتُّب قوله: ﴿ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ بالفاء دليلٌ على أنَّ العُتُوَّ كان بعد قوله: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾. فَإِذَن الظَّاهر هو ما قَدَّرَ اللهُ تعالىٰ للنَّاس من الآجَالِ، فما من أَحَدٍ إلا وهو مُمْهَلٌ مُدَّةَ الأَجَل، يقال له: تَمَتَّع إلى آخرِ أجلك، فَإِنْ أحْسَنت فقد حَصَل لك التَّمتُّع في الدَّارَين، وإلَّا فما لكَ في الآخرةِ من نصِيبٍ(١).

قوله: (وقُرِئَ: «الصَّعْقَة»)، الكِسائي وحْده(٢).

قوله: (﴿ وَقَوْمَ﴾ قُرِئ بالجَرِّ) أبو عَمْرو وحَمْزَة والكِسائي، والباقون بالنَّصب(٣).

---

(١) «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي (١٤: ٣٦٥).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» ص ١٣٠.

(٣) المصدر السابق ص ١٣٠.

﴿بِأَيْيْدٍ﴾ بقوّةٍ. والأَيْدُ والآد. القُوّة. وقد آد يَئِيْد وهو أَيِّد.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾: لقادِرُون؛ من الوُسْع: وهو الطَّاقَة. والمُوْسِعُ: القَويُّ علىٰ الإِنْفاق. وعن الحَسَنِ: لَموسِعُون الرِّزْق بِالمَطَرِ. وَقيل: جَعَلْنا بَيْنَها وبَيْنَ الأَرْضِ سَعَةً ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ فَنِعْمَ المَاهِدُونَ نَحْن.

[﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ٤٩]

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الحَيَوان ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ذَكَرًا وأُنْثَىٰ. وعَنَ الحَسَنِ: السَّماء والأَرْض، والليل والنَّهارُ، ....

قوله: (﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾: لقادِرُون؛ من الوُسْع) اعتُبر الوُسعُ في القُدرةِ والجُودِ والمكان.

الراغب: ويُسْتَعمل في الأَمكنةِ، وفي الحَالِ وفي الفِعلِ، كالقُدرةِ والجُودِ ونحو ذلك، ففي المكان قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: ٥٦] وفي الحال قوله تعالىٰ: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: ٧] و﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، والوُسْع من القُدْرة ما يفْضَل عن قَدر المكلّف، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] تَنْبيهًا علىٰ أنه يكلف عبده دُوَين ما يَنُوء به المكلف قُدْرته، وأمّا قولُه تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠] فعبارة عن سَعةِ عِلمِه وقُدرتِه. وقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فإشارةٌ إلى نحوِ قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠][١].

وقلت: أراد أنَّ قَوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ تكميلٌ لمعنىٰ قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ إنْ فُسِّر الأيدُ بالقُوَّة، ليَضُمّ مع صفةِ القُدرة، صِفةَ الكَرم، أو تتميمٌ إن فُسِّر بالإنعامِ، كما فَرَّعَ قوله: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ على قوله: ﴿أَعْطَىٰ﴾، ألا ترى إلى قَرينتها: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾

---

(١) «مفردات القرآن» ص٨٧٠.

والشَّمْسُ والقَمَرُ، والبَرُّ والبَحْرُ، والمَوتُ والحَيَاة؛ فَعدَّد أشياءَ وقال: **كُلُّ اثْنَين مِنْها زَوجٌ، واللهُ تَعالىٰ فَردٌ لا مِثْل لَهُ.**

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي فَعلْنا ذَلك كُلَّه مِنْ بِناءِ السَّماء، وفَرْشِ الأَرْضِ، وخَلْقِ الأَزْواج إرادةَ أن تَتذَكَّروا فتَعْرِفُوا الخَالِقَ وتَعْبُدوه.

[﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ ٥٠ – ٥١]

كيف فُرِّع ﴿ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ على ﴿فَرَشۡنَٰهَا﴾ مَزيدًا لإرادة الامْتِنان، فالمُناسِبُ إذن تفسيرُ الحسن: لموسعون الرِّزقَ بالمطرِ، كقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

قوله: (كلُّ اثنينِ منها زوجٌ واللهُ تعالىٰ فَردٌ) قال أبو سعيدٍ الخَرَّاز: أَظهرَ معنىٰ الرُّبوبيةِ والوحدانية، بأنْ خلقَ الأزواجَ لتَخلُصَ له الفَرْدانية[1].

الراغب: يُقال لكل من القَرِينَتينِ من الذَّكرِ والأُنثىٰ في الحيوانات المُتَزاوِجة: زَوج، ولكُلِّ قَرينتين فيها وفي غَيرِها: زَوج، كالخُفِّ والنَّعل، ولكل ما يُقرَن بآخر مماثلاً له أو مُضادًّا: زوجٌ[2]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [طه: ١٣١] أي: أشباهًا وأقْرانًا. وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ تَنبيهٌ علىٰ أنَّ كلَّ ما في العالم، فإنه زَوْجٌ من حيْث أنَّ له ضِداً ما، أو مثلًا ما، أو تركيبًا[3] ما، بل لا ينفكُّ بوَجهٍ من تَركيب، وإنما قال: ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾ ليُؤذِن بأنَّ الشَّيء وإن لم يكن له ضِدٌّ ولا مِثْـلٌ فإنّه لا يَنْـفَكُّ[4] من تَركِيب، وذلك زَوجان،

---

(١) انظر: «البحر المديد» لابن عجيبة (٧: ٣١٣).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٣٨٤.

(٣) في (ح) و(ف): «ضد، ومثل، وتركيب»، والصواب ما أثبتُّ موافقًا لـما في «المفردات» للراغب، وفي (ط): «من حيث إنه له ضد ما...».

(٤) من قوله: «بوجه من» إلى هنا ساقط من (ف).

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي إلىٰ طاعَتِه وَثَوابِهِ مِنْ مَعْصيَتِهِ وعِقَابِهِ، وَوحِّدُوه وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وكَرَّرَ قوله: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ عِنْدَ الأَمر بالطَّاعَةِ والنَّهْي عَن الشِّرْك، **لِيُعلَم أَنَّ الإِيمان لا يَنْفَعُ إلا مَع العَمَل**، كَما أَنَّ العَمَل لا يَنْفَعُ إِلا مع الإِيمَانِ، وأَنَّه لا يَفُوزُ عِنْد الله إلا الجَامِعُ بَيْنَهُما. ....

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه: ٥٣] أي: أنواعًا مُتَشَابِهة.

قوله: (**لِيُعلمَ أَنَّ الإِيمانَ لا يَنفعُ إلا مع العَملِ**)، **الانتصاف**: حَمل الزَّمَخْشريُّ الآيةَ علىٰ ما لم تَحْتمل، ولَيْس في الآية إلا النَّهيُ عِن التَّقصِير والأَمرُ بالمُبادَرة، وفائِدةُ التَّكرارِ: التَّنبيهُ علىٰ أنَّه لا تنْفعُ العبادةُ مع الإِشراك، إذ حكم المشرك حُكمُ الجاحِدِ المُعطِّلِ، أو المأمورُ به في الأولِ الطَّاعةُ المُوظَّفةُ بعد الإيمانِ، فتُوعِّد تارِكُها بالوَعِيد المعروف دُون الخُلودِ، وتُوعِّد ثانيًا المُشركُ بالوعِيدِ مع الخُلود، فيكونُ وعيدًا مختلفًا لا تكرارًا[١].

وقلتُ: الآية من باب قوله: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء: ٣٦] بل دلَّ الأَوَّل علىٰ الأَمرِ بالاعتصَامِ بالتَّوحيد، والثاني علىٰ النَّهيِ عنِ الإشراك، كَقْولنا: لَا إِلهَ إلا اللهُ وَحدَه لَا شَرِيك لَه.

روى مُحيي السُّنَّةِ عن سهل بن عبد الله: فَفِرُّوا ممّا سوىٰ الله إلى الله[٢]، وروىٰ السُّلَمي عن محمد بن حامد: حقيقةُ الفرار إلىٰ اللّـهِ ما رُوي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «وألجأتُ ظَهرِي إِليك»[٣]، وقال أيضًا: «أعوذُ بك»[٤]، وَهذا غايةُ الفِرار مِنهُ إليه.

---

(١) «الانتصاف» (٤: ٤٠٤-٤٠٥) بحاشية «الكشاف».

(٢) «معالم التنزيل» (٤: ٢٨٧).

(٣) أخرجه البخاري(٢٤٧) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٤) ورد مثل هذا اللفظ في أحاديث كثيرة جداً عن النبي ﷺ.

....

وقال الواسِطيُّ: لن يَصِلَ إلىٰ اللّـهِ تَعالىٰ إلا من يفر مِن نَفسِه.

وأما قَضِية النَّظمِ فلمّا قُلنا: إنَّ قَوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾، ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾، تعريضٌ بِالـمُكذِّبين الخَـرَّاصِين، فكان في قصصِ الأنبياءِ وإهلاكِ المُعانِدين تَخويفٌ شَدِيد.

وفي قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ تذكير لشِدَّةِ سطوتهِ وكمالِ قُدرتِه، فَلمَّـا فرغَ مِن ذَلك، أمَرَ حَبيبَهُ صَلوات الله عليه وسلامه بأنْ يقول لقومِه: إذَا ظَهرَ لكُم شِدَّةُ قَهْرِهِ وكَمالُ سَطْوَتِهِ، وما فعل بالأُمم الـمُكذِّبةِ، وعَرَفْتُم كُلَّ ذلِك، وإنَّه إذا أخذ لا يُبْقِي ولا يذر، فَفرُّوا إلى اللّـهِ مِن اللّـه، واترُكوا العنادَ، وخَافُوا سُوءَ مَغَبَّة تَـكذِيبِكُم، يَدلُّ عليه قَوله: ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وتكريره إظهارًا للنَّصِيحةِ وأنَّه النَّذِيرُ العُريانُ، وقولُه بعد ذلك: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ وإن شِئْتَ عَلَّقْتَ الفَاء، في ﴿فَفِرُّوٓا۟﴾ بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وعليهِ ظاهرُ كلامِ المُصنِّف، وَلكنَّ تَقريرَ ذلِك أنَّه تعالى لـمّا أظهر القَهَّاريَّةِ بإهلاكِ الأُممِ الماضية، وبَيَّن الفردَانيَّة بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، ونبَّه على ذلك بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ورتَّبَ عليه: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ووضعَ الاسمَ الجامِعَ مَوضعَ الضَّمير، يعني: إذا تَفكَّرتُم واعتبَرتُم وتذكَّرتُم، وتَبيَّنَ لَكُم أنَّه هو القَهَّارُ الصَّمد، وإليهِ المَرجِعُ والملجأ فَلوذوا إليه وتوكلُّوا عليه، ولا تُشرِكوا بِه شَيئًا، والعِبادَةُ مِن لوازم ذَلِك، ولذلك عَقَّبه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وحين لم يَكُن ينجعُ في المُشرِكين تِلك المواعَظُ والتَّخْويفُ والتَّذكيرُ، رَجعَ عوداً إلى بَدءٍ، بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ إلى آخره، مُسلِّيًا لِـحَبيبهِ صَلوات الله عليه، وجعل التَّخلُّصَ إلىٰ المَقصُودِ من الخَلق قولَهُ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ألا ترىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] والمعنىٰ: قُلْ يا مُحمّد: فِفرّوا إلىٰ الله.

[﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ ٥٢-٥٣]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمر، أي مِثل ذَلِكَ، **وذَلِك إشَارة إلىٰ تكذِيبِهم الرَّسولَ** وتَسْمِيتِهِ ساحِرًا ومَجْنونًا، ثُمَّ فَسَّرَ مَا أجْمَل بِقَوله: ﴿مَآ أَتَى﴾، ولا يَصِحُّ أنْ تكون الكاف مَنْصُوبةً بِـ﴿أَتَى﴾؛ لأنَّ «مَا» النَّافية لا يَعْمل ما بَعْدَها فيما قَبْلَها. ولو قيل: لَمْ يَأْتِ، لكَانَ صَحِيْحًا، **علىٰ معنىٰ: مِثل ذلك الإتيان لَمْ يَأْتِ مِنْ قِبلِهم** رسولٌ إلا قالوا.

قوله: (**ألا ترى إلىٰ قوله:** ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام ١٥٨]) الآية، قد ذكرنا في موضعه أنَّ الآيَةَ دالةٌ عَلى خِلافِ مَا قَصَدَ به، وأنَّ المعنى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ حِينئذ، أو كَسبها في إيمانِها خيرًا حِينئذٍ لم تَكُنْ آمنَتَ منْ قَبْل أو كَسبت في إيمانِها خَيرًا من قَبل، فهو من حَذْفِ إحدىٰ القَرِينتين من اللَّفِّ لدَلالةِ النَّشرِ عليها[1].

قوله: (**وذَلِكَ إشارَةٌ إلى تَكْذيبهم الرَّسُولَ ﷺ**) يعني: المُشَار إليه ما في الذِّهن علىٰ الإبهام، وهو الأمر، لِمجيءِ تفسيرِه، وهو قوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾.

قوله: (**عَلىٰ معنىٰ: مثل ذَلِك الإتيانِ لم يأتِ**) مُتعلِّق بقوله: «لو قيل: لم يأتِ، لكان صحيحًا»، فإنْ قلتَ: لِمَ أوثر في التَّنزيلِ «ما» على «لـم»؟

---

(١) اللَّف والنشر من المحسنات البلاغية، قال أبو البقاء الكفوي في «الكليات» ص٧٩٨: وهو من المحسنات المعنوية، وهو ذكرُ متعدِّدٍ على التفصيل أو الإجمال، ثم ذكرُ ما لكلٍّ من غير تعيينٍ، ثقةً بأن السامع يردُّه، ومنه اللف التقديري، وهو لف الكلامين وجعلهما كلامًا واحدًا إيجازًا وبلاغة، كقوله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾ الضَّميرُ للقول، يعني: أتواصَىٰ الأوّلُون والآخِرُون بهذا القَوْل حتّىٰ قَالوه جَمِيعًا مُتَّفِقين عَلَيه؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أيْ: لَمْ يَتَواصَوْا بِهِ لأنَّهم لَمْ يَتَلاقَوا فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ، بَلْ جَمَعَتْهُم العِلَّةُ الوَاحِدَةَ وهي الطُّغْيَان، والطُّغْيَان هُو الحَامِل عَلَيه.

[﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٤-٥٥]

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأَعرِضْ عَنِ الَّذِين كرّرتَ عَلَيْهم الدّعوةَ فَلَم يُجِيبُوا، وعَرَفتَ عَنْهم العِنَادَ واللَّجَاج، فَلا لَومَ عَلَيكَ فِي إعْرَاضِكَ بعْدما بَلَّغْت الرِّسَالة، وبَذَلْتَ مجْهودَك في البَلَاغ والدَّعْوة، ولا تَدَع التَّذْكِيرَ وَالمَوعِظَةَ بِأيَّام الله ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أيْ: تُؤَثِّر في الَّذِينَ عَرَفَ اللهُ مِنْهم أنَّهم يَدْخُلون في الإيْمانِ. أو يَزِيدُ الدَّاخِلين فِيهِ إيْمانًا.

ورُوي أنّه لـمَّا نَزَلت ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ حَزِنَ رَسولُ الله ﷺ واشْتَدَّ ذلك عَلَىٰ أَصْحَابِه، ورَأَوْا أنَّ الوَحْيَ قَد انْقَطَعَ وأنَّ العَذَابَ قَدْ حَضَر، فأنزل الله: ﴿وَذَكِّرْ﴾.

[﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ٥٦]

قلت: ليُؤذِن بانْفِصالِ ما صدّر بها على ما قبله واتّصالِه بقوله: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ إلى آخر القَصَص، فلَمَّا وَسَّط بَينهما الحديثَ في بيانِ الآيات الدَّالة علىٰ التَّوحِيد، ونَفِي الشِّرْك والفرار إلى الله تعالىٰ عَمَّا سواه، جيءَ بِقولِه الأمرِ كذلك فَصْلاً للخِطاب، ليَتخلَّصَ مِنهُ إلىٰ مَا سَبقَ له الكلامُ، ولَو أتىٰ بـ«لم» لاختلَّ النَّظْم، وأمَّا الكلام في بيانِ الفَرقِ بَين «ما» و«لم» فقد سبق.

قوله: (أي: لم يَتَواصَوا بِه لأنَّهم لم يَتَلاقَوا) يعني الإضرابَ بقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾، يَستَدعي أن يُفسَّر ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾ بِما يصِحُّ الإضرابُ عنهُ به، وذَلِكَ بِأن يُجعَلَ الاستِفهامُ لإنكارِ أنَّهم لو توافَقُوا علىٰ أنْ قالوا جَميعًا لِرُسُلِهم: ساحِرٌ أو مجنونٌ في زمانٍ واحد، وإثباتِ أنَّهم إنَّما قَالُوه لِطُغْيانِهم.

أيْ: ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلا لأَجْلِ العِبادَةِ، وَلَمْ أُرِدْ من جَمِيْعهم إلا إيَّاها.

فإنْ قُلت: لَوْ كَان مُرِيدًا للعِبَادة مِنْهم لكَانوا كُلُّهم عُبَّادًا؟

قُلت: إنَّما أرادَ مِنْهم أنْ يَعْبُدُوه مُخْتارِين للعِبادَةِ، لا مُضْطَرِّين إِلَيها، لأنَّه خلَقَهُم مُمَكَّنين، فاخْتَار بَعْضُهم تَرْكَ العِبادَةِ مَعَ كَوْنِهِ مُرِيدًا لها، ولو أرادَها علىٰ القَسْر والإلجاء لوُجِدَتْ مِنْ جَمِيْعِهِم.

[﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ ٥٧-٥٨]

يريد: أنَّ شَأْني معَ عِبَادِي ليسَ كَشَأْنِ السَّادة مَعَ عَبيدِهم، فإنّ مُلَّاكَ العَبيدِ إنَّما يَمْلِكُونَهُم لِيَستَعِينُوا بِهِمْ فِي تَحْصِيل مَعَايِشِهِم وَأَرْزَاقِهِمْ، فإمّا مُجَهَّز في..........

قوله: (لو كان مُريدًا للعِبادةِ مِنهم لكانُوا كُلُّهم عُبَّادًا)، الانتصاف: من عَادتِه إذا رَأى ظَاهِرًا يُوافق مُعتقدَه، أَوردَ مَذهَب أهلِ السُّنَّةِ سُؤالاً، وأورد مُعْتَقَدَه جَوابًا، والجَوابُ الّذي ذَكَره لا يَصِحُّ، فَإنَّ السُّؤالَ مقدِّماته عَقليَّة قَطْعِيَّة، والظَّاهِرُ إِذَا خَالَفَ القَطْعَ وجَبَ ردُّه إلى الأَدِلَّةِ القَطْعِيَّة، وظاهِرُ الآيَةِ دَلِيلٌ لأَهلِ السُّنة، لأنّها سِيقَتْ لبيانِ عظَمَةِ الله، وأَنَّ شَأنَه مَعَ عَبِيدِهِ لا يُقَاسُ بِغَيرِه، فإنَّ عَبيدَ الخَلقِ مَطْلُوبونَ بالخِدْمَةِ تكسّبهم للسَّادَة، وبوَاسِطة كسبِ العَبيدِ تدرُّ أَرزاقُ سادِتهم، واللهُ تعالىٰ لا يَطلبُ من عِبادهِ رِزْقًا ولا طَعامًا، بل يَطْلُب منهم العِبادَة لا غَير، وزائدٌ على ذَلك أنّه هو الّذي يَرزُقهم، فحاصِلُه: ومَا خَلَقتُ الجِنَّ والإِنسَ إِلا لآمُرهم بِعِبَادَتِي(١).

وقلت: أما مقتضى النَّـظم فَإنَّ الكلامَ واردٌ على تَحريضِ رسولِ الله ﷺ علىٰ ما بُعث بِه من التَّذكيرِ والتَّفادي عن التَّـواني فيه، لأنّه لـمَّا نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ حَزن رسولُ الله ﷺ

---

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٤٠٦).

تِجارةٍ لِيُفيءَ رِبْحاً، أو مُرَتَّبٌ في فِلاحَةٍ لِيَغْتَلّ أرضًا، أو مُسَلَّمٌ في حِرْفَة لِيَنْتَفعَ بأُجْرته، أو مُحتطِبٌ أو مُحتشٌّ، أو طَابخٌ أو خَابِزٌ، وما أشْبَه ذلك مِن **الأعْمال والمِهَنِ** التي هي تصرُّفٌ في أسْبَاب المَعيشَة وَأَبواب الرِّزْق، فَأَمَّا مَالِكٌ مَلَكَ العَبِيدَ وقَال لَهم: اشْتَغِلوا بِمَا يُسْعدُكُم في أَنْفُسِكم، وَلا أُريدُ أَنْ أصْرفكم في تَحْصِيل رِزْقِي ولا رِزْقِكم، وأَنَا غَنِيٌّ عَنْكُم **وعَن مَرَافِقِكم**، وَمُتَفضِّل عَلَيكُم بِرِزْقِكُم وَبِما يُصْلِحُكُم ويُعَيِّشكُم **مِن عندي**، فَمَا هُو إلا أنا وَحْدي، ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ **الشَّدِيْدُ القُوَّة**........................

فَأنزَلَ الله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تَدع التَّذكِيرَ والمَوعِظَة، فإنَّ الذِّكرىٰ تَنفعُ المُؤمنينَ[(١)]، وحُجَّةٌ علىٰ المُعانِدين، فإنَّك مَا بُعِثتَ إلا للدَّعوةِ: وَمَا خُلق الجنُّ والإنسُ إلا لأن يُؤمَروا بالعِبَادةِ لأنَّهم مُكلَّفُون امتِحانًا وَابتلاءً.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أمّا الإرَادة فكما تعلَّقت بالعِبَادةِ تعلَّقتْ بِمَا يُخالِفُها، لقولِه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

ويُؤيِّدُ هذا التَّأويل ما رُوِّينا عن مُحيي السُّنة عن عليٍّ رضي الله عنه: أنَّه قال: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: إلا لآمُرهم أن يعبدُوني[(٢)].

قوله: (**من الأعمالِ والمِهَنِ**)، **الجَوْهري**: المَهْنَةُ ـ بالفتح ـ: الخِدمةُ، والماهِنُ: الخادِم.

قوله: (**وعَنْ مَرافِقكم**)، **الجَوْهري**: المِرفَقُ مِن الأَمرِ: ما انتفعتَ بِه.

قوله: (من عِندِي) مُتعلِّقٌ بمتفضِّلٍ، أي: أنا مُتفضِّلٌ عليكم مِن عِندِي، ذلك من غيرِ سابِقةٍ مِنكُم، كما هو دَأْبُ السَّادات.

قولُه: (﴿ٱلْمَتِينُ﴾ **الشَّديد القوة**)، **الرَّاغب**: المَتْنانِ: مُكتنفا الصُّلْب، وبهِ شُبِّه المَتْنُ مِن الأَرض، وَمَتَنْتُهُ: ضَرَبْتُ مَتْنَهُ، فَصَارَ مَتِيناً، ومِنهُ قيل: حَبْلٌ متِين، فإنَّ الله تعالىٰ: ذُو القُوَّةِ المَتِين[(٣)].

---

(١) من قوله: «أي: لا تدع» إلى هنا ساقط من (ح).

(٢) «معالم التنزيل» (٤: ٢٨٨).

(٣) «مفردات القرآن» ص ٧٥٨.

قُرِئ بالرَّفْع صِفَةً لِـ﴿ذُو﴾، وَبِالجرِّ صِفَةً للقُوَّةِ عَلَىٰ تَأْوِيل الاقتدار، والمَعْنَىٰ في وَصفه بالقوة والمتانة: أنَّـهُ القادِرُ البَلِيغُ الاقْتِدَار عَلَىٰ كُـلِّ شَيء، وقُرِئ: (الرَّازِق) وفي قِراءة النَّبي ﷺ: (إني أنا الرَّازِق).

[﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ ٥٩-٦٠]

الذَّنُوبُ: الدَّلْو العَظِيْمة، وهَذَا تَمْثِيلٌ، أَصْلُه فِي السُّقَاةِ يَتَقَسَّمُون الماءَ فَيكُونُ لهَذا ذَنُوبٌ ولِهَذا ذَنُوبٌ. قال:

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُـمْ ذَنُـوبُ فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلَنَـا الْقَلِيـبُ

ولما قال عَمْرو بن شأسٍ:

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْـتَ بِنِعْمَـةٍ فَحُقَّ لشَأسٍ مِـنْ نَـدَاكَ ذَنُـوبُ

قال الملك: نعم وَأَذْنِبَـةٌ.

قوله: (قُرِئ بالرَّفعِ) أي: ﴿ٱلْمَتِينُ﴾، وَهِي المَشْهُورة، وبالجَرِّ: شاذٌّ[١].

قوله: (وفي كُلِّ حَيٍّ) البيت، خَبطْت مُسْتَعارٌ لإِفاضَةِ النِّعمة.

الأساس: وخَبَط في قَومِهِ: إذَا نَفَعَهم. **الجوهريُّ**: خَبَطت الرَّجُل: إذا أنعَمتَ عليهِ من غير مَعرفةٍ، وأنشد البيت. شأسٌ هو أخو عَلْقمةَ، مَدَح الحارث الغسَّاني بقَصِيدةٍ فيها البيت، وكان عنده أسيرًا فلَمَّا سَمِع الحارثُ قوله:

فَحُقَّ لشأسٍ مِن نَدَاكَ ذَنُوبُ

---

(١) «المحتسب» (٢: ٢٨٩).

والمعنىٰ: فإنّ الَّذِين ظَلَمُوا رَسولَ الله ﷺ بالتَّكْذيب مِنْ أَهلِ مَكَّة لَهُم نَصِيبٌ مِنْ عَذَابِ الله، مِثْل نَصِيْبِ أَصْحَابِهم وَنُظَرائِهم مِنَ القُرُون.

وعن قتادة: سَجْلًا مِنْ عَذَابِ الله مثل سَجْل أَصْحَابِهم، ﴿مِن يَوۡمِهِمُ﴾ مِنْ يَوْم القِيَامَةِ. وقِيلَ: مِنْ يَوْمِ بَدْرٍ.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرأ سُورة ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ أَعطَاهُ اللهُ عَشْر حَسَناتٍ بِعَدَدِ كُلِّ رِيْحٍ هَبَّتْ وَجَرَتْ فِي الدُّنْيا».

قال: نعم وأذْنِبَةٌ، وأمرَ بإطلاقِه وإطلاقِ جميعِ أسْرىٰ بني تميم.

تمَّت السُّورة

حَامدًا لله تعالى ومُصلّيًا علىٰ رسولِ الله ﷺ.

* * *

سورة الطور

مَكيّة، وهي تِسعٌ وأربعُون، وقيل: ثَـمانٌ وأربعُون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[﴿وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ * وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ * وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ ١-١٠]

الطُّور: الجَبَل الذي كَلَّم اللهُ عليه مُوسَىٰ وهو بمَدْيَن. والكِتابُ المَسْطورُ في الرَّقِّ المَنشور ـ والرَّق: الصَّحِيفة. وقيل: الجِلد الذي يُكتَب فيه ـ **الكِتابُ الذي تُكتب فيه الأعمال**. ....

سورة الطُّور

مَكيَّة وهي تسعٌ وأربعونَ آيةً، وقيل: ثمانٌ وأربعونَ آيةً[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قولُه: (**الكِتابُ الذي تُكتَب فيه الأعمال**)، خبرٌ للمَوصُوفِ والصِّفة، وهو قوله: «والكِتابُ المَسْطُورُ في الرَّقِّ المَنشُور»، وما بَينهما تَفسيرٌ لِلرَّق، قد اعترَض بينهما، وعن بعضِهم: «والكتابُ» مُبتدأٌ، «والمَسطُورُ» خبرٌ له، والأوّل أقرب.

---

(١) في (ط): «مكية، وهي سبع وأربعون آية»، وانظر في تحقيق الاختلاف في عدِّ آياتها: «البيان في عدِّ آي القرآن» للداني ص١٠٠.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] وقيل: هو ما كَتبه الله لموسَىٰ وهو يَسْمع صَرِيرَ القَلم. وقيل: اللَّوحُ المَحْفُوظ. وقيل: القُرآن، **ونُكِّرَ لأنه كِتابٌ مخصُوصٌ** مِن بين جِنْس الكُتُب، كقوله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧].

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ **الضُّراحُ في السَّماء الرَّابعة**. وعُمْرانه: كَثرةُ غاشِيَته مِن الملائِكة. وقيل: الكَعْبةُ لكَونها مَعْمُورةً بالحُجّاجِ والعُمّار والمُجاوِرين.

قولُه: (**ونُـكِّرَ لأنه كتابٌ مخصُوصٌ**)، يعني قيل: «كتاب» نَـكِرة، وهو أعرَفُ المعارفِ وأشهرُها ليدُلَّ على اختِصاصِهِ من جِنسِ الكُتُبِ بأمرٍ تَميَّز به مِن سائرِها. قال في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧] نَفسًا خاصَّةً مِن بينِ النُّفُوس، وهي نفسُ آدمَ عليه السَّلام، كأنه قيل: وواحدةٌ من النُّفُوسِ[1]. وقريبٌ مِنه ما سيَجِيء بُعَيد هذا؛ أنَّ المُـتَّقينَ في جَنّاتٍ ونعِيم، أي: في جَنّاتٍ مَخصُوصَةٍ بِهم، خُلِقَت لهم خاصَّةً.

وأنشد ابن جِنِّي[2]:

أَمِيرُ المُؤْمِنينَ على صِراطٍ إذا اعوَجَّ المواردُ مُستَقِيمُ

وقال هذا كقوله: أميرُ المُؤمنينَ على الصِّراطِ المُستقِيم، لا فرقَ بينهُما، وعليهِ قولُه تعالى: ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٨] أي: هَديناهُم من نِعمَتِنا عليهم، ونَظرنا لهمُ صِراطًا مُستَقيمًا.

قولُه: (**الضُّراحُ في السَّمـاءِ الرَّابعة**)، **النهاية**: **الضُّراح**: بيتٌ في السَّمـاء حِيال الكَعبة، ويُروى: **الضَّريح**، وهو البيتُ المَعمُور؛ من المُضارحَة، وهي المُقابَلة والمُضارَعة، وبالصّاد المهملة مُصحَّف.

---

(١) «الكشاف» (١٦: ٤٦٠).

(٢) زاد في (ط): «الكثيِّر»، وهي خطأ، فالبيت لجرير يمدح هشام بن عبد الملك، انظر: «ديوانه» ص٥١٧، و«الكامل» للمبرد (٢: ١٠٤).

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ السَّماء، ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ المَملُوء. وقيل: المُوقَد، من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ [التكوير: ٦].

وَرُوي أنَّ الله تعالىٰ يجعل يوم القِيامةِ البِحارَ كُلَّها نارًا تُسَجَّر بِها نارُ جَهنَّم.

وعن عليٍّ رضي الله عنه أنه سأل يهُودِيًّا: أينَ موضِعَ النّارِ في كِتابِكُم؟ قال: في البَحر. قال عليّ: ما أراهُ إلا صادِقًا، لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾.

﴿لَوَٰقِعٞ﴾ لَنازل.

قال جُبَير بنُ مُطعِم: أتيت رسولَ الله ﷺ أُكَلِّمه في الأُسارىٰ فألفيتُه في صَلاةِ الفَجر يقرأ سُورة الطُّور، فلمّا بَلغ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ أسلَمتُ خَوفًا مِن أن يَنزِل العَذاب.

وفي «الصَّحِيحين»(١) في حديث الإسراء: أنَّ البيتَ المَعمُورَ في السَّماءِ السّابِعة.

قولُه: (ما أراه إلا صادِقًا)، قلت: ومِصداقه أيضًا ما رُوِّيناه عن عبد الله بن عَمرٍو قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «لا تَركَبِ البَحرَ إلّا حاجًا أو مُعتمِرًا أو غازِيًا في سَبِيل الله، فإنَّ تَحت البَحر نارًا، وتحت النّارِ بحرًا». أخرجه أبو داود(٢)، وفي هذا الحديث إشارةٌ إلى أنَّ راكِبهُ متعرض للآفاتِ المُهْلكة والفِتَن المُغرِقة، إحداهُما وراءَ الأُخرى، وفيه: أنَّ اختِيارَ ذلكَ لِغَرضٍ من الأغراضِ الفانِيةِ سَفهٌ وجَهل، لأنَّ فيه تَلفَ النَّفس، وبَذلُ النَّفسِ لا يُحمَدُ إلا فيما يُقرِّبُ العَبدَ إلى اللّـه.

---

(١) البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٢)، وكأنه بهذا يـردُّ على الزَّمَـخشري حيث ذكر أنّه في السَّمـاء الرابعة.

(٢) في «السنن» رقم (٢٤٨٩)، والحديث ضعيف، كما أشار إلى ذلك الخَطّابي في «معالم السنن» (٣: ٣٥٩) مع «مختصر المنذري» و«تهذيب ابن القيِّم».

﴿تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ﴾ تَضطرِبُ وتَجِيءُ وتذهَب. وقيل: الـمَورُ: تَحرُّكٌ في تَموُّج، وهو الشَّيء يتردَّدُ في عَرض، كالدّاغِصةِ في الرُّكبة.

[﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ١١-١٦]

غَلبَ الخَوضُ في الاندِفاعِ في الباطِلِ والكَذِب. ومنهُ قوله تعالىٰ: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥]، ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ [التوبة: ٦٩] الدَّعّ: الدَّفعُ العَنِيف، ....

قولُه: (ومارَ الشَّيء: تردّد في عَرض[1])، الأساس: الدَّمُ يَمُور على وَجهِ الأرضِ إذا انْصَبَّ وتردَّدَ عرضاً.

الرّاغِب: المَوْر: الجَرَيان السَّريع: يقال: مارَ يَمُورُ مَوْرًا، ومارَ الدَّم على وجهِه، والمَورُ: التُّرابُ المُتردِّد به الرِّيح، والنّاقة تَـمُور في سَيرِها، وهي مَوّارةٌ[2].

قولُه: (كالدّاغِصة)، الأساس: سَمُن حتى كأنه داغِصَة، وهي العَظم الذي يَمُوجُ في الرُّكبَـةِ الدّاغِصَة، بالغَين المعجَمة والصّاد المُهملة.

قولُه: (غَلبَ الخوض في الانْدِفاعِ في الباطِلِ)، الخَوضُ في الأصل: الشُّرُوعُ في الماءِ والمُرُور فيه، ومستعار في الأمُور.

---

(١) كذا في الأصول الخطية، وهو مرتبط بقوله في «الكشاف»: «وهو الشيء يتردد في عرض»، فقد ورد بَدَلَه في نص«الكشاف» من (ط): «ومار الشيء تردد في عرض»، لكن ما أثبتناه في «الكشاف» هو ما ورد في الأصل الخطي منه وفي المطبوع.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٧٨٣.

وذلك أنَّ خزنةَ النّار يَغُلُّون أيديَهُم إلىٰ أعناقِهم، ويجمَعُون نَواصِيَهُم إلىٰ أقدامِهِم، ويَدفَعُونَهُم إلىٰ النّار دَفعًا علىٰ وجُوهِهم، وزَخًّا في أقفيتِهم. وقرأ زَيدُ بنُ عليّ: (يُدعَونَ) من الدُّعاء، أي يُقال لهم: هلُمُّوا إلىٰ النّار، وادخُلُوا النّارَ ﴿دَعًّا﴾ مَدعُوعِين، يُقالُ لهم: هٰذِه النّار.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ يَعني كُنْتم تَقُولون للوَحْي: هذا سِحْر، أفسِحرٌ هذا؟ يريد: **أهَذا المِصْداقُ أيْضاً سِحْرٌ؟ ودَخَلتِ الفاءُ لِهَذا المَعْنىٰ.**

﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ كما كُنتم لا تُبْصِرُونَ في الدُّنيا، يعني: أم أنتُم عُمْيٌ عنِ المُخْبَرِ عنه كَما كُنتم عُمْيًا عنِ الخَبَر، وهذا تَقرِيْعٌ وتَهكُّم، ﴿سَوَآءٌ﴾ خبَرُ محذُوفٍ، أي: سَواءٌ عَليكُم الأمْران: الصَّبرُ وعَدمُه.

فإنْ قُلت: لِمَ عَلَّل استِواءَ الصَّبرِ وعَدمِهِ بِقولِه: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟

رُويَ عن المُصنِّف أنه قال: «الخَوضُ» في المعاني مِنَ الغالبة، فإنه يَصلُح للخَوضِ في كُلِّ شَيء، إلا أنه غَلَبَ في الباطِل، ونَظِيرهُ في الأسماءِ الغالبة: دابة، غلبتْ في ذواتِ الأربع، والقوم: في الرِّجال.

قولُه: (مَدعُوعِينَ)، **الأساس:** دَعُّ اليَتيم: دَفعُه بِجَفوة، ودَعدَع المكيال: حَرَّكَهُ حتى يكْتَنز. و﴿دَعًّا﴾ على هذهِ القِراءة: حال، وعلى الأول: مفعولٌ مُطلق.

قولُه: (**أهذا المِصْداقُ أيضًا سِحْرٌ؟**) قيل: المِصْداقُ هو الشَّيءُ الذي يُعرَفُ به الصِّدق، والعَذاب في الآخِرَة، وغيرُ ذلكَ من أحوالِ القِيامة، ممّا يُعدُّ مِن مِصْداقِ قولِ الأنبياءِ عليهم السّلام.

قولُه: (**ودَخَلتِ الفاءُ لِهذا المَعنى**)، عن بعضهم أي: تَعَقَّبَتْ للمُقدَّر، وهو: هذا سِحرٌ؟! وقلت: هذه الفاء تقتضي مَعطُوفًا عَليه، وهو مُقَدَّر دَلَّ عليه مَضمُون قوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فدَخَلت الهَمزةُ بين المعطُوفين لمزيد التَّقْريع والتَّهكُّم، فإنه لمّا قِيل:

قُلتُ: لأنَّ الصَّبرَ إنّما يكُون له مَزيةٌ علىٰ الجزَع، لِنفعِهِ في العاقِبةِ بأن يُجازَىٰ عليه الصّابرُ جَزاءَ الخَير، فأمّا الصَّبر علىٰ العَذابِ الذي هو الجَزاءُ ولا عاقِبَة له ولا مَنفعة، فلا مَزيةَ له علىٰ الجَزع.

[﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ ١٧-٢٠]

﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ عَقَّب بقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ يعني: هذا المِصْداقُ أيضًا سِحْرٌ؟! أي: كُنتم تقُولون للقرآن الّذي أنذرَكُم هذِه النّار: هَذا سِحْر، فتقُولُون: سِحْرٌ هذا أيضًا!! فالمُشارُ إليهِ بهذا: النّار، وذُكِر لأنه في تأويل المِصْداق، أو الخَبَر مذكر وقُدِّمَ الخَبرُ لإفادَةِ الاخْتِصاصِ تتميمًا للتَّقريع، ثُمَّ قَرَّر المعْنى بقوله: ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: هذا أيضًا لا تُبصِرُون، كما كُنتم لا تُبصِرُون ما يَدلُّ على هذا، وقلتم: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ [الحجر: ١٥]، و«أم» في ظاهِر كَلامِ المُصنِّف مُنقطِعةٌ حيثُ قال: «أم أنتم عُمْيٌ عنِ المُخبَرِ عنْه كَما كُنتم عُميًا عن الخبر»(١)، أي: بَلْ أنتُم عُمْيٌ عن المُخبَر عنه، وهذا تَقْريعٌ وتَـهكُّم.

وفي «التَّفْسِير الكَبِير»: هَل لأمرنا شَكّ، أم هَل في بَصَرِكُم خلل، أي: لا واحِدَ مِنهُما ثابتٌ، فجعلها مُعادَلة(٢).

وقال صاحِبُ «الكَشفِ»: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾، كَلامٌ تامٌّ مِن مُبتدأ وخبر، ثُمَّ قال: ﴿أَمْ أَنتُمْ﴾، أي: بَل أنتمُ ﴿لَا تُبْصِرُونَ﴾(٣).

قولُه: (لأنَّ الصَّبرَ)، أي: إنَّمـا عَلَّل استِواء الصَّبر وعَدمِه بِقولِه: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ

(١) من قوله: «كما كنتم» إلى هنا ساقط من نسخة (ح).

(٢) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٨: ٢١٢).

(٣) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٢٨٤).

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ في أيَّةِ جَناتٍ وأيِّ نعيمٍ!! بِمَعنى الكَمالِ في الصِّفة. أو في جَناتٍ ونعيمٍ مخصُوصَةٍ بِالـمُتَّقِين، خُلِقتْ لهم خاصَّةً. وقرئ: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ و(فكِهِينَ) و(فاكِهون)؛ مَن نَصبه حالًا جَعل الظَّرفَ مُستَقِرًّا، ومنْ رَفعهُ خبَرًا جَعلَ الظَّرفَ لغوًا، أي: مُتلذِّذينَ ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

فإنْ قُلتَ: عَلامَ عَطفَ قولَه: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾؟

قُلتُ: علىٰ قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾، أو علىٰ ﴿ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ علىٰ أنْ تَجعَل (ما) مَصْدَرِيةً؛ والمعنىٰ: فاكِهينَ بإيتائِهم رَبُّهم ووِقايَتِهم عَذابَ الجَحِيم. ويَجوزُ أن تَكُونَ الواوُ للحالِ و«قد» بَعدها مُضمَرة. يُقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أكْلًا وَشُربًا ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أو طَعامًا وشَرابًا هنيئًا، وهو الذي لا تَنغِيصَ فيه.

تَعْمَلُونَ﴾ لأنَّ قوله: ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ دَلَّ على تَناهِي العذاب، وأنه بَلغ إلى أنَّ الصَّبرَ والجزَعَ لا يَنفعانِ البتَّة. كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] فإنه دَلَّ على تَصميمِهم على الكُفر، وعَدمِ ارعِوائِهم.

قولُه: (جَعَلَ الظَّرفَ مُستقِرًّا)، يعني: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ خبر لـ﴿إِنَّ﴾، و﴿فَٰكِهِينَ﴾ حالٌ من ضَمِيرِ الاستقرار، إذا قُرِئَ مَنصُوبًا، وإذا قُرِئ مَرفُوعًا كان هو الخبر، و﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ مُتعلِّقٌ بِه، فالظرفُ لغو.

قولُه: (على أن تُجعَل «ما» مصدَرِيَّة)، أي: إذا عطف ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾ على ﴿ءَاتَىٰهُمْ﴾ لا يجُوز أن تكونَ «ما» مَوصُولة، لفُقدان العائِد من الجملةِ المعطوفَة، إذِ التَّقديرُ: فاكِهينَ بالذي آتاهُم اللهُ إياه، وبالذي وقاهُم رَبُّهم عذابَ الجَحِيم، وليس في الجُملةِ الثّانيةِ عائِدٌ إلى الموصُول؛ لأنَّ «وقاهُم» أخذَ كِلا مَفعُولَيه، بِخلافِ ﴿ءَاتَىٰهُمْ﴾.

ويَجوزُ أن يَكون مِثله في قولِه:

هنِيئًـا مَرِيئًـا غـيرَ داءٍ مخـامِرٍ لِعَزَّةَ مِن أعراضِنا ما اسْتحَلَّتِ

أعني: صَفةٌ استُعمِلت استِعمالَ المصْدر القائِم مَقامَ الفِعل، مُرتفِعًا به ما استحَلتْ كما يُرتَفعُ بالفِعْل، كأنه قِيْل: هنأ عَزة المُستَحَلُّ مِن أعراضِنا، وكذلكَ مَعنىٰ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ هاهُنا: هنأكُم الأكلُ والشَّرب. أو هنأكُم ما كُنتم تَعملون؛ أي: جَزاءُ ما كُنتم تعمَلُون. والباءُ مَزيدةٌ كما في ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٤٣] والباء مُتعلِّقَة بـ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ إذا جعَلتَ الفاعِلَ الأكلَ والشُّرب. وقرئ: (بِعِيسٍ عِيْن).

قولُه: (ويَجوزُ أن يكُونَ مثلَه)، أي: لا يكونُ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ صفة مَصدَرٍ محذُوف، بل يكون من المصادِر التي حُذِف عامِلُها، وأُقِيمت مَقامَه، وفاعِله الأكل، أو ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾، على أنَّ الباءَ زائِدةٌ كما في البيت، لأنَّ «ما استحلَّت» فاعِل «هنيئًا مَرِيئًا»، والـهنيءُ والـمَريءُ صِفـتان من هنُؤَ الطَّعام ومَرُؤ، إذا كان سائِغًا لا تَنغُّصٍ فيه.

وقال أبو البَقاء في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ٤]: مَصدَرٌ جاء على «فَعِيلٍ»، وهو نَعتٌ لمصدرٍ محذُوف، أي: أكلًا هنيئًا، وقيل: هو مَصدرٌ في مَوضِعِ الحالِ من الهاءِ في ﴿فَكُلُوهُ﴾، أي: مُهنأً[1].

قولُه: (والبـاء مُتعَـلِّقة بـ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾)، أي: هَنـاكُم الأكل والشُّـربِ بِسَـببِ عَملكُم.

قولُه: (وقُرئ: «بِعِيس عِين»)، قال ابنُ جِنّي: وهي قراءةُ عبد اللّـهِ وإبراهيم، المرأة العَيْساء: البَيضاء، ومثله: جمَلٌ أعيَس، وناقةٌ عَيساءَ[2].

---

(١) «إملاء ما من به الرحمن» (١: ١٦٧).

(٢) «المحتسب» (٢: ٢٩٠).

[﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ ٢١-٢٤]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ معطوفٌ علىٰ «حُورٍ عِينٍ» أي: قرنّاهُم بالحُورِ وبالذين آمَنُوا، أيْ: بالرُّفقاء والجُلساء مِنهم، كقوله تعالىٰ: ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] فيَتمتعُون تارةً بِمُلاعَبةِ الحُور، وتارةً بمُؤانَسةِ الإخوانِ المُؤمنين.

(وأتبَعناهم ذُرِّياتهم) قال رسُولَ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ يـرفعُ ذُرِّيَّة المُؤمِنَ في دَرجتِهِ وإن كانُوا دُونهُ لتَقرَّ بِهِم عَينُه» ثُمَّ تَلا هذهِ الآية. فيَجمَعُ الله لهم أنواعَ السُّرورِ بِسَعادتِهم في أنفُسِهِم، ومُزاوجَة الحُورِ العِين، وبِمؤانَسةِ الإخوانِ المُؤمِنين، وبِاجتِماعِ أولادهم ونَسلهُم بِهم. ثُمَّ قال: ﴿بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: **بِسَببِ إيمانٍ عَظِيم رَفيعِ المَحَلِّ ـ وهو إيمانُ الآباءِ ـ ألحقْنا بِدرجاتِهم** ذُرِّيتَهم وإنْ كانوا لا يَستأهِلُونَها، تفضُّلًا عليهم وعلىٰ آبائِهم، لِنُتمَّ سُرُورَهُم، ونُكمِلَ نَعيمَهُم.

فإنْ قُلت: ما مَعنىٰ تَنكِيرِ الإيمانِ؟

قُلت: مَعناه: **الدَّلالةُ علىٰ أنه إيمانٌ خاصٌّ عَظِيمُ المنزِلَة.** ....

قولُه: (**بِسَبب إيمـانٍ عَظِيمٍ رَفِيعِ المحلِّ ـ وهو إيمانُ الآباء ـ ألحقْنا بِدرجاتِهم**)، رُوِّينا في «مُسـند الإمام أحمد بن حَنبلٍ» عن عليٍّ رضي الله عنه عن خديجَة رضي الله عنها عن رَسولِ الله ﷺ، قال: «إنَّ المُؤمِنينَ وأولادَهم في الجنَّة، وإنَّ المُشرِكينَ وأولادَهُم في النّار»، ثُمَّ قرأ رسولُ الله ﷺ الآية[1].

قولُه: (**الدَّلالةُ على أنه إيمـان خاصٌّ عَظيمُ المنزِلة**)، تَـكرِيرٌ لما عُلِمَ من قولِه: «عَظِيمُ

---

(١) «مسند الإمام أحمد» (١١٣١) وهو ضعيف.

ويجوزُ أن يُراد: إيمانُ الذُّريَّة الدّاني الـمَحَل، كأنه قال: **بِشَيءٍ مِنَ الإيمانِ لا يُـؤهِّلهُم** لِدرجةِ الآباءِ ألحقناهُم بِهِم.

وقرِئ: **(وأتبعَتْهُم ذُرِّيّتُهم)**، ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ ذُرِّيَّـٰتِهِم﴾، و**(ذُريّاتُهم)**، وقرئ: **(ذِرِّيّاتهم)** بِكَسرِ الذّال. ووجهٌ آخر، وهو أن يكونَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ **مُبْتدأً**، خَبرُه: ﴿بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وما بَينهُما اعتِراض.

المَحل» هذا المعنى، فيكُون السُّؤال مُستَدركًا، لعله سأَلَ لِيُجيبَ بما يَعْلم منه، هَذا مع شَيءٍ آخر، وهو أنَّ التَّنكير يَحتمِلُ التَّقلِيل أيضًا نحوه مَرّ في أولِ البَقرة. «هَل هٰذهِ الفَواتِحِ مَحلٌّ مِن الإعراب، بعدَ ما عُلِم إعَرابها من وجهٍ»؟ فأجاب بِمثل هذا الجَواب(١).

قولُه: **(بشيْءٍ من الإيمان)**، والتنكير حينئذٍ للتَّقليل والتَّحقِير، فوِزانُ اعتبارِ التَّنكيرِ في «إيمانٍ» هاهُنا بسبب الاحتمالين وِزانُ الحاجبينِ في قول الشاعر(٢):

لــه حاجِــبٌ في كُــلِّ أمْــرٍ يَـشينُهُ ... وَلَيسَ له عن طالِبِ العُرفِ حاجِبُ

قولُه: (**«وأتبعَتْهُم ذُرِّيّتُهم»**، ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ ذُرِّيَّـٰتِهِم﴾)، «وأتبَعناهم» بقَطعِ الألفِ وإسَكانِ التّاء وألف بعدَ النُّون: أبو عَمْرو، والباقون: بالوَصْل وفتح التاء والعَيْن بالتَّوحيد، وفَتح التّاء والعَين وتاءٍ ساكِنة بَعدَ العَين. وقَرأ أبو عَمرو وابنُ عامِر: «ذُرِيّاتهم بِإيمانٍ» الجمع، وضَمَّ ابنُ عامِرِ التّاء، وكسَرها أبو عَمرٍو، والباقُون: بالتَّوحيد وفَتح التّاء(٣).

قولُه: **(ووجهٌ آخر، وهو: أن يَكونَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مبتدأ، خَبرُه: ﴿بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾)**

---

(١) انظر «الكشاف» (٢: ٤٢).

(٢) البيت لمروان بن أبي حَفصة المعروف بـ«ابن أبي السمَّط». انظر: «الإيضاح علوم البلاغة» للقزويني، ص٢٩، و«مفتاح العلوم» ص٨٣، ولم أجده في «ديوانه» المطبوع باسم: «شعر مروان بن أبي حفصة»، فلعل جامع «الديوان» لم يهتدِ لهذا البيت.

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السَّبع» ص١٣١، وفيه: «رفع التاء» بدل «فتح التاء».

﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾ وما نَقصناهُم. يَعني: وفَّرنا عَليهِم جميعَ ما ذَكرنا مِنَ الثَّوابِ والتَفَضُّل، وما نَقصناهُم مِنْ ثَوابِ عمَلِهم مِن شَيء. وقيل مَعناه: وما نَقصناهُم مِنْ ثوابِهِمْ شَيئًا نُعطِيه الأبناء حَتّىٰ يَلحَقوُا بِهِم، إنَّما ألحقناهُمْ ....

وهُو عَطفٌ على قَولِه: «﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، معطوفٌ على (حُورٍ عِين)»، والتَّقدِير: والذِين آمنوا ألحقنا بِهِم ذُرِّيَّتهم بسبب إيمانهم. وقال أبو البقاء: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ﴾وهو الخَبر، ويَجوز أن يكُون في موضع نَصبٍ على تَقدِير: وأكرَمنا الذينَ[١]. وكذا عن صاحِبِ «الكَشف»، وقال: هذا على شَرِيطَةِ التَّفسِيرِ لَكِن لا يُضْمرُ المُفسِّر فعلاً يتعدَّى بالجارّ، وَقَدَّر سِيبوَيه في قولهم: أزَيدًا مَررتَ بِه؟ أجُزتَ زيدًا؟ والباء في ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حال، إمّا مِن الفاعِل أوالمفعُول أو مِنهُما جَمِيعًا[٢].

وقُلت: على أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مَرفُوعًا على الابتِداء، تكونُ الآياتُ بأسرِها مَعطُوفةً على جُملة: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ﴾، ويكُون هؤُلاء غيرُ المُتَّقِين من عوامِّ المُؤمنين، ومن يَتَّصِلُ بِهِم لِيَشمَل طوائِف المُؤمِنينَ أجمَعِين، وعَلى تَقْدِير النَّصْب يُحتَمل أن يكونُوا أُولئِك، كرِّر لِيُناط به أمرٌ آخر وهو إلحاق ذُرِّياتِهم إلى دَرجاتِهم، كرامَةً لهم لِتَقرَّ بِه أعيُنُهم، وتكون صِلَةُ المَوصُول عِلَّةً للإلحاق.

قولُه: (﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾)، ابن كثير: بكسر اللام، والباقون: بفتحِها[٣]، قال الزَّجّاج: «ما ألتناهُم»: ما نَـقَصْناهم، يقال: ألته يألِته ألْتاً، ويُقال: لاتَـهُ يَليتُهُ لَيْـتًا: نقصَهُ وصَرَفهُ عن الشَّيءِ[٤].

(١) «إملاء ما منّ به الرحمن» ص ٢٤٦.

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٢٨٥).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السّبع» للداني ص ٢٠٣.

(٤) «معاني القرآن» (٥: ٣٩).

بِهِم على سَبِيْل التَفضُّل. قُرِئ: ﴿أَلَتْنَٰهُم﴾ وهو مِن بابين: من: أَلَتَ يأْلِتُ، ومِن: ألاتَ يُلِيت، كأمات يُميت. و(آلَتْناهُمْ)، مِن: آلَتَ يُؤْلِتُ، كآمَنَ يُؤْمِن. و(لِتناهُمْ)، مِن: لاتَ يَلِيْت. و(ولَتناهُمْ)، مِن: وَلتَ يَلِت. ومَعناهُنَّ واحد.

﴿كُلُّ ٱمْرِي بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مَرهُون، كأنَّ نَفسَ العَبدِ رَهْنٌ عِند الله بالعمَلِ الصّالحِ الذي هُو مُطالَبٌ بِه، كَما يَرهَنُ الرَّجُل عَبدَه بِدين عَليه، **فإنْ عَمِلَ صالحاً فكَّها وخَلَّصَها، وإلّا أوبَقها.**

وقال ابنُ جِنِّي: قَرأ الأعرَج: «آلتناهُم» على: أفعَلناهُم، وقرأ عبدُ الله وأُبيٌّ: «وما لِتْناهم»، وابن عبّاس كان يقول: و«ألتناهم»: نَقَصناهُم، يقال: أَلَتَهُ يأْلِتُه أَلْتاً [١]، ويقال: لاتَه يَليتُه لَيتاً، وآلَـتَهُ يُؤلِتُه إيلاتًا ، كلّهنَّ بمعنى نَقَصَهُ، ويُقال أيضًا: وَلتَهُ يَلِتُه وَلْتاً، وقالوا: وَلَـتَه يلِتُه: إذا صرَفَهُ عن شيءٍ يريدُه، وقالوا: أَلَته يأْلتُه باليمين: إذا غَلَّظ عليه بها، وآلَتَهُ يُؤلِتُه: إذا قلَّدهُ إياها[٢].

قولُه: (**فإنْ عَمِلَ صالِحًا فَكَّها وخَلَّصها وإلّا أوْبقَها**)، ونَظِيرُه ما رُوِّيناه عن مُسْلِم والتِّرمذيِّ[٣] عن أبي مالِكٍ الأشعَريّ: «كُلُّ النّاسِ يَغْدُو؛ فَبائعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها أوْ مُوبِقُها»[٤].

وفي «مسند أحمد بن حَنْبل» عن جابرٍ أنَّ النَّبي ﷺ: قال لكَعْب بنُ عُجْرة: «إنه لا يَدْخُلُ الجنَّـةَ لَحمٌ نبتَ من سُحت، النّارُ أولى بِه، يا كَعبُ بنَ عُجرة، النّاس غاديان؛ فَمُبتاعٌ نَفسَهُ فَمُعتِقُها، وبائعٌ نفسَهُ فمُوبقُها»[٥].

الرَّهن: ما يُوضعُ وثيقةً للدَّيْن، والرِّهانُ مثله، وقد يُستعملُ الثاني فيما فيه الإخطار، وأصلُهما مصدران، يُقال رَهنتُ رَهناً، وراهَنتُه رِهانًا، فهو رَهينٌ ومَرهون.

---

(١) من قوله: «ويقال: ألاته» إلى هنا ساقط من (ط).

(٢) «المحتسب» (٢: ٢٩٠).

(٣) مسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٧) وقال: هذا حديثٌ صحيح.

(٤) «مسند الإمام أحمد» (٣: ٣٢١).

(٥) من قوله: «وفي مسند أحمد» إلى هنا، ساقط من (ط).

﴿وَأَمْدَدْنَـٰهُم﴾ وزِدناهُم في وَقتٍ بعدَ وقت.

﴿يَتَنَـٰزَعُونَ﴾ يَتعاطَوْن ويَتعاوَرُون، هُم وَجُلساؤُهُم مِن أقرِبائِهم وإخوانِهم، ﴿كَأْسًا﴾: خَمرًا، ﴿لا لَغوَ فيها﴾: في شُرْبِها، ﴿ولا تأثيمَ﴾ أي: لا يَتكَلَّمُون في أثناء الشُّرب بِسَقَطِ الحَدِيث، وما لا طائِلَ تَحتَه، كفِعلِ المُتنادِمينَ في الدُّنيا علىٰ الشَّراب، في سَفَهِهِم وعَربدَتِهم، ولا يَفعَلونَ ما يُؤثَم به فاعِلُه، أي: يُنسَب إلىٰ الإثم لو فَعَله في دارِ التكليف من الكَذِبِ والشَّتمِ والفَواحِش، وإنما يَتكلَّمون بِالحِكَمِ والكَلامِ الحَسَنِ مُتلَذِّذينَ ...

فإن قُلت: كيف اتِّصال ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ بما قَبلَه؟

قُلت: هو مُتَّصلٌ به على وجهِ التَّتميم، إن فُسِّرَتِ الآياتُ من قَوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بِجُملتِها باتِّصالِ الثَّوابِ والجزاءِ إليهم تَفضُّلاً، فإنه لـمّا قيل: «وفَّرنا عليهم جميعَ ما ذَكرنا من الثَّواب، وما نَقصناهُم من ثَوابِ عَملِهم من شَيء»، كما قال؛ عُلِم أنهم فَكُّوا رِقابَهم عمّا كانت مرهُونةً بِه من الكَسْب، فَقيل: ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: حالهم كَيْتَ وكيْت، وغيرهم غير مفكُوكٍ بِما كَسبَت، ونَحوه قَوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۞ إِلَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾، أو يُقال: هو استئناف، فإنه لَـمّا قِيل: ما نَقصناهُم من ثَوابِهم شيئًا تُعطيه الأبناء حتّى يَلحقوا بِهِم على سبيلِ التّفضُّل، قيل: لِـمَ كان الإلحاقُ تفضُّلاً؟ فقيل: لأنّ كُلَّ امرِئٍ بما كَسَب رَهِين، وهؤلاء لم يكَن لَهم عملٌ يَلحقُوا بِهم بسببِه، فأُلحِقوا بِهم تَفضُّلاً.

أو يُقال: إنه لـما قيل: ﴿بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، يَعني بسَبَبِ إيمان الآباءِ ألحَقنا بِهم[1] الذُّرِّياتِ كرامةً للآباء لا لِشيءٍ آخر، ودَلَّ على الاختِصاصِ تَقدِيمُ ﴿بِإِيمَـٰنٍ﴾ على ﴿أَلْحَقْنَا﴾، قيل: لم اختُص الإلحاقُ بِإيمان الآباء؟ قيل: لأنّ كُلَّ امرِئٍ بِما كَسبَ رَهِين، وهَؤلاءِ لَم يَكُن لهم كَسْب، فَلم يَكُن سَببُ الفَكِّ إلا ذلك التَّفَضُّل لا يُفارِق الوجوه.

---

(١) من قوله: «ذرياتهم» إلى هنا، ساقط من نسخة (ح).

بِذلك، لأنّ عُقُولَـهُم ثابِتةٌ غَيرُ زائلة، وهم حُكَماءُ عُلَماء. وقُرِئ: ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: مَملوكُون لهم مَخصوصُونَ بِهِم، ﴿مَّكْنُونٌ﴾ في الصَّدَف، لأنه رَطْبًا أحسَن وأصفَىٰ. أو مَخزونٌ لأنه لا يُخزنُ إلا الثَّمِينُ الغالِي القيمَة. وقيل لِقَتادَة: هذا الخادِمُ فكيفَ المَخدوم؟ فَقال: قال رَسولُ الله ﷺ: «والذي نَفسِي بِيَدِه إن فَضلَ المَخدُومِ علىٰ الخادِمِ كَفضْلِ القَمَرِ لَيلةَ البَدرِ علىٰ سائِرِ الكَواكِب»، وعَنه عليه الصَّلاةُ والسَّلام: «إن أدنَىٰ أهلِ الجنّةِ مَنْزِلةً مَن يُنادي الخادِمَ منْ خَدّامه فَيُجيبُه ألفٌ بِبابِه: لَبَّيكَ لبّيك».

[﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ ٢٥-٢٨]

قولُه: (﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا﴾)، كلُّهم سوى ابنِ كَثير وابنِ عامر[(١)].

قولُه: (لأنه رَطْبًا أحسَنُ وأصفَى)، «رَطْبًا» حالٌ منَ الضَّميرِ في «أحسن»، قال صاحِبُ «اللّباب»: في قَولِه: هَذا بُسراً أطيَبُ منْه رُطَبًا، الأصَحّ أنّ العامِلَ في «بسراً»: «أطْيَب»، وعَمَلُه في الأول عمَلُ الفِعل الصَّريح، ولهذا تقدَّمه، وفي الثاني عَملُ المَعنى، وقال في تَفسيرِه: «بسراً»: حالٌ مِن الفاعِلِ المُستكن في «أطيَب»، واسمُ التَّفضِيل يَعملُ في الضَّميرِ المُستكنِّ فيه عَمَلَ الفِعلِ من غيرِ خِلاف، فكَذا يَعملُ فيما هو حالٌ عنه، «ورُطَبًا» حالٌ من الضَّميرِ المَجرور المُتَّصِل بِـ«مِن»، وإنّما عمل فيه «أفعل» باعتبار أنه تضمّن الزّيادة، فلذا جيءَ بِـ«مِن»، فلَيس هذا كعمَلِ فِعلِه، لأنّ فِعلَه لا يُعدّى بِـ«مِن»، وإنّما هُو كعَمَلِ المعنى في الظَّرفِ[(٢)].

---

(١) أي كلهم هكذا بالرفع مع التنوين، سوى من ذكر، فقد جعلوها بالفتح بلا تنوين، انظر: «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر» للدمياطي ص٧١٤.

(٢) لينظر في هذه المسألة رسالة السيوطي: «تحفة النجبا في قولهم: هذا بسراً أطيب منه رطبا» المطبوع في نهاية «الأشباه والنظائر» في النحو (٤: ٦٥٢-٦٦٢).

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يتحادثون ويَسأل بَعضُهم بَعضًا عن أحواله وأعمالِه، وما استَوْجبَ بِهِ نَيل ما عِندَ الله، ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أرِقّاء القُلوبِ من خَشيةِ الله. وقُرِئ: (ووَقّانا) بالتَّشديدِ.

﴿عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾: عَذابَ النّارِ ووَهجَها ولَفحَها. والسَّمُوم: الرِّيحَ الحارّةُ التي تَدخُل المَسامّ. فَسُمِّيَت بِها نارُ جَهنّم لأنّها بِهذه الصّفة، ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قَبلِ لقاءِ الله تعالىٰ والمصير إليه، يَعنُونَ في الدُّنيا، ﴿نَدْعُوهُ﴾: نَعبدُه ونَسألُه الوِقايَة، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾: المُحسِن، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: العَظيم الرَّحمة الذي إذا عُبِدَ أثابَ وإذا سُئِلَ أجاب.
وقُرِئ: ﴿أَنَّهُۥ﴾ بالفَتْح، بمعنىٰ: لأنّه.

[﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ ٢٩]

﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبُت علىٰ تَذكِير النّاس وموعِظتِهم، ولا يُثَبِّطَنّكَ قَولُهم: كاهِنٌ أو مَجنُون، ولا تُبالِ بِه فإنه قَولٌ باطِلٌ مُتناقِض؛ لأنّ الكاهِنَ يَحتاجُ في كَهانَتِه إلىٰ فطنةٍ ودِقّةِ نظَر، والمَجنون مُغَطّىً علىٰ عَقلِه. وما أنتَ بِحمدِ الله وإنعامِه عليكَ بِصدقِ النُّبوّة ورَجاحةِ العَقلِ أحَدُ هذين.

قولُه: (وقُرِئ: «أنّه» بالفتح)، نافع والكسائي(١).

قوله: (وما أنت بحمد الله) أشار به إلى أنّ «نعمةَ ربِّك» حالٌ مُقدَّم على عاملِها، وهو «كاهنٌ أو مجنونٌ»، والباءُ الزائدةُ لا تمنعُ من العمل، والحالُ معمولُ العامِل المنفيّ، كذا صرّح في سُورة النّون. المعنى: ما أنت بكاهنٍ كاذبٍ منعماً عليك، بل أنت بحمد الله نبيٌّ صادِقٌ مُنْعماً عليك، ولا أنت بمَجنونٍ مُنعماً عليك، بل أنت لحصافة العقل والشّهامة بمكان.

فإنك إذا قلت: الفِعل المَنفيُّ مُقيَّدٌ بقيدٍ مخصوصٍ لَزِمَ منه إثباتُ فعلٍ مُضادٌّ له، مُقيّداً بذلك القَيْد، نحو قوله:

---

(١) في «التيسير» للداني ص١٣١: نافع والكسائي: «أنه هو البر» بفتح الهمزة، والباقون: بكسرها.

[﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۞ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۞ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۞ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۞ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۞ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۞ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۞ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۞ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ۞ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۞ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۞ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ۞ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٣٠-٤٣]

وَقُرِئ: (تُتَرَبَّصُ به رَيبُ المنون) علىٰ البِناء للمفعول. ورَيبُ المنون: ما يُقلِق النُّفوسَ

على لاحِبٍ لا يُهتَدى بِمَنارِهِ[(١)]

على أحد وَجهيه[(٢)] وهو أن يكون هناك مَنار، لكن لا يَهتدي به، بل يَضِلُّ لسببه لعَمَهِه.

ويُمكن أن يكون ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ قَسَماً اعترضت بين اسم «ما» وخبره، ونَظيره في الإقسام بالنِّعمة قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ [القصص: ١٧]. أي: أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة[(٣)].

قولُه: (ورَيبُ المَنون: ما يُقلق النُّفوسَ) إلى آخره، فيه أنّ «المَنونِ» بمعنى الدَّهر،

---

(١) وتمام البيت:

إذا سافَه العَود النُّباطيُّ جَرْجرا

وهو لامرئ القيس، والبيت في «ديوانه» ص ٦٤.

(٢) والوجهان هما: أن لا يكون ثمة منارٌ ولا اهتداء، وهذا المراد، والوجه الثاني ما ذكره المصنف، واقتصَر القزويني في «الإيضاح» ص ١٧٦ على الوجه الثاني فقال: أي لا مَنار ولا اهتداء.

والوجه الذي ذكره المصنِّف غيرُ مراد، وهذا ما بيّنه النُّقّاد، فقال ابن الأثير في «المثل السائر» (٢: ٦٢) أي: أنَّ له مَناراً إلا أنه لا يهتدي به، وليس المُرادَ ذلك، بل المراد: أنه لا منار له يهتدي به.

(٣) من قوله: «قوله: وما أنت بحمد الله» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف)، وأثبته من (ط).

ويَشخصُ بِها من حوادثِ الدّهر. قال:

أمِنَ الـمَنُونِ ورَيبِه تتَـوَجَّعُ

وقيل: الـمَنُون: المَوت، وهو في الأصْل فَعول؛ مِن مَنَّهُ: إذا قَطَعَهُ؛ لأنّ المَوتَ قَطوعٌ؛

قال الواحِدِيّ: يَتَظِرُ بِهِ حَدَثان المَوتِ وحَوادِثَ الدَّهر، الـمَنُون يكون بمَعنى الدَّهر وبِمعنَى المنِيَّـة[1].

قولُه: (**ويشخصُ بها**). يُقالُ للرَّجل إذا وَرَدَ عليه أمرٌ أقلقه: شَخَصَ به[2].

قولُه: (**أمن الـمنون**) وتمامه:

والدَّهرُ لَيس بمُعْتبٍ مَنْ يَجْزَعُ

بِمُعتب: بمرضيٍّ[3]، **الأساس**: استَعتَبه: استَرضاه، وفي مَعناه قَول القائل[4]:

عَـن الـدَّهْرِ فاصـفَحْ إنـه غَـيرُ مُعتِـبِ وفي غَيْرِ مَنْ قَـدْ وَارتِ الأرْضُ فـاطْمَعِ

قولُه: (**وقيل: المَنُون: المَوتُ**)، **الرّاغب**: رابَني كذا وأرابَني، فالرَّيب أن يَتَوهَّم بالشَّيءِ أمرًا ما، فينكَشِف عمّا يَتوهَّمه، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] والإرابة أن: يتوَهَّمَ فِيه أمرًا فلا ينكَشِفُ عمّا يَتوهَّمه، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وريبُ الدَّهر: صُروفُه، وإنّما قيل: «رَيبٌ» لِـما يُتوهَّمُ فِيه منَ المُنكر[5]. وقوله: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾، سمّاهُ رَيبًا لا لأنه يُشَكَّك في كونِه، بل من حيث تَشكَّكَ في

---

(١) انظر: «الوسيط» (٤: ١٨٩).

(٢) من قوله: «قوله ويشخص» إلى هنا، ساقط من (ح) و(ف)، وأثبته من (ط).

(٣) من قوله: «تمامه» إلى هنا، ساقط من (ح) و (ف)، وأثبته من (ط)، وبه يستقيم السّياق

(٤) البيت لأرطاة بن سُهية المَري، قاله في رثاء ابنٍ مات له كما بيَّن ذلك الزَّجّاجي في الأمالي: ص٦٣ – ٦٤، وانظر البيت أيضاً شرح ديوان الحماسة: ص٦٣٢.

(٥) «مفردات القرآن» ص ٣٦٨.

ولذلِكَ سُمِّيتْ: شَعُوب، قالوا: نَنتظِر بِهِ نَوائِبَ الزّمانِ فَيَهلِكُ كَما هَلَكَ مَن قَبلَه مِنَ الشُّعراء؛ زُهَيرٌ والنّابِغَة.

﴿مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أَتربَّصُ هَلاكَكُم كَما تَترَبَّصون هلاكِي.

﴿أَحْلَـٰمُهُم﴾ عُقُولهم وألبابهم. ومنه قولهم: أحلامُ عاد. والمَعنىٰ: **أتأمُرُهم أحلامُهم بِهذا التَّناقُضِ في القَول، وهُو قَولُهم: كاهِنٌ وشاعِر، مَع قَولِهِم: مَجنُون**. ....

وقتِ حُصولِه، فالإنسانُ أبدًا في رَيب المنُون مِن جِهةِ وقتِه، لا من جِهةِ كونِه، ولهذا قال الشاعِر:

النّاسُ قد عَلِمُوا أن لا بَقاءَ لَـهُمْ لو أنّهم عَمِلوا مِقدارَ ما عِلمُوا[1]

والرِّيبة اسمٌ مِنَ الرَّيب، قال تَعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١١٠] أي: يدل على دغَلٍ وقلة يقين منهم.

قولُه: (**وَلذلك سُمِّيتْ: شَعُوبَ**)، الضَّميرُ للمَوتِ وأنّث بتأويل المنية. **الجوهري**: سُمِّيتِ المَنيَّـةُ شَعُوب، لأنّها تُفرِّق، وهِيَ مَعرِفةٌ لا يَدْخُلها الألف واللام.

قولُه: (**أتامرُهُم أحلامُهم بِهذا التَّناقُضِ [في القول]، وهو قَولهم: كاهِنٌ وشاعِر، مع قَولِهِم: مَجنُون**)، يُريد: أنّ «أم» في هذهِ الآياتِ منقَطِعَة، والهَمزةُ فيها للتَّقريعِ والتَّوبيخ، وبل في ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ﴾ إضرابٌ عن جَميعِ ما حُكِي عن القَومِ من الطَّعنِ في رسولِ اللّهِ ﷺ، ذُكِر أوّلاً، فذَكَر ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾، رَدًّا لِقولِهم: هو كاهِنٌ أو مَجنونٌ تَسليًا له وتَثبيتًا، ثُمّ تَرقّى إلى قَولِهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ يَعني: دَعُوا عَنِ القَولِ بأنه كاهِنٌ أو مَجنُون، بَلِ هُوَ شاعِرٌ نتربَّصُ به رَيبَ الـمَنُون، لأنّ الشُّعَراء كانوا عِندَهُم أعظَمَ حالاً مِنَ الكاهن،

---

(١) البيت للشاعر العباسي عبد السلام بن رغبان الديلمي المعروف بديك الجن، وانظر البيت في: «ديوان ديك الجن» ص١٩١.

وكانَت قُرَيشٌ يُدعَونَ أهلَ الأحلام والنّهي.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾: مُجاوِزُون الحدَّ في العِنادِ مَع ظُهورِ الحقِّ لهم.

أي: نَنتظِرُ به نَوائبَ الزَّمان، فيَهلِك كما هلكَ امرؤُ القَيس وعنترة، وزهيرهم وغَيرهُم، فأضربَ اللهُ تَعالى عن جميع ذلك بِقوله: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ فنَسبَهُم إلى السَّفَهِ والجهل، والقَولِ بالتناقُض، ثُمّ تَرقّى إلى قَولِه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: لَيسُوا بِجاهِلين، أي أنهم أرباب النُّهى والأحلام، بل طُغيانهُم ومُجاوَزَتهم الحدَّ في العِنادِ هو الذي حَمَلَهُم على ذلكَ القولِ بالتّناقُض.

وأمّا قَوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ فهو متّصل بقَوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أي ليس بِكاهِنٍ ولا شاعِر، بل هُو مفترٍ على اللّـه، مختلق من تِلقاءِ نَفسِه، فَرُدَّ بما يُناسِبُه من قوله: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنه أجمَع مِن نِسْبتِهم إلى السَّفَهِ والطُّغْيان، أي أنّهم مِمّن حُكِمَ عليهِم بأنّهم لا يُؤمنون البتّة، وهم من الذين خَتم اللهُ على قُلُوبِهم وعلى سَمعِهم، وعلى أبصارِهم غِشاوة، ثمّ بنى الكلام على نِسبَتِهم الافتراءَ والتَّقوُّلَ إليه، دفعًا للتُّهمةِ وإزالةً للشُّبهة، وقال: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ في أنه تَقوُّلٌ وافتِراء.

ولـمّا فَرغ من ذلك النَّوعِ منَ الإضرابات، وهو طَعنهُم في حَقِّ رَسولِ الله ﷺ، عَقَّبه بِنوعٍ آخرَ منها، وهو ما اشتملَ على الرَّدِّ فيما لَزِمَ منهُ الطَّعنُ في جلال الله وعُلوِّ كِبريائِه، من إثباتِ الشَّريك واتّـخاذِ الوَلَد، وتَركِ النّاس سُدَىً، والطَّعن في رُسله وهو قَولُه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ إلى آخرِه، مزِيدًا للتَّسلِّي والتَّثبيتِ لرسُولِه ﷺ، يعني: كما طَعَنُوا فيكَ طعنُوا في خالِقِهم، ألا ترى كيفَ ختمَ السُّورةَ بِقَولِه: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؟!

قولُه: (وكانَتْ قُرَيشٌ يُدعَونَ أهلَ الأحلام)، رُوِيَ عن الجاحظِ أنه قال: لا يَكمُلُ عقلُ الإنسانِ إلا بالمُسافَرةِ والمُخالطةِ وزيارةِ البلادِ المُختَلفة، ومُصاحبةِ الأخلاقِ المُتباينة، وقُريشٌ

فإن قُلت: ما مَعنىٰ كَون الأحلام آمِرة؟

قلت: هُو مَجازٌ لأدائِها إلىٰ ذلك، كَقوله تعالىٰ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ [هود: ٨٧].

وقُرِئ: (بل هُم قومٌ طاغُون).

﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾: اختَلقَهُ مِن تِلقاءِ نَفسِه، ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فَلِكُفرِهم وعِنادِهم يَرمُون بِهذه المَطاعِن، مَعَ عِلمِهم بِبُطلانِ قَولِهم، وأنه لَيسَ بِمُتقَوَّلٍ لعَجْز العَربِ عَنه، وما مُحمّدٌ إلّا واحدٌ منَ العَرب. وقرئ (بِحَدِيثِ مِثْلِه) علىٰ الإضافَة، والضّميرُ لرَسُولِ الله ﷺ، ومعناه: أنّ مثل مُحمّدٍ في فَصاحَتِه لَيس بِمُعوِزٍ في العَرب، وإنْ قَدِر مُحمّد علىٰ نَظمِه كان مِثلُه قادِرًا عليه، فَليأتُوا بِحَديث ذلك المثل.

في أماكِنِهم لا يَفعَلُون شَيئًا من هذا، وهم أعقلُ من الكُلّ، وما كان ذلكَ إلّا أن جَميعَ العالَم يأتونَهم ويُخالطونَهم، فيَحصُل غَرضُهم بدون مَشقّة.

قولُه: (كقولِه: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾)، أي: كما قال قَومُ شُعَيب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ﴾، قال: جازَ الصّلاة أن تكُون آمرةً على طَرِيقِ المَجاز، كما كانت ناهِيةً في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ كذا، لـمّا كان مُؤدّى عقُولِهم السَّخِيفة، ذلك القولُ بِالتّناقُضِ جُعِلَتْ آمرةً على الاستِعارة المكنيّة.

قولُه: (وقُرِئ: «بل هُم قومٌ طاغُون»)، قال ابنُ جِنّي: قرأها مُجاهِد، وقِراءةُ الجَماعة: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾، هذا هو الموضِعُ الذي يقُولُ أصحابُنا فيه: إنّ «أم» المُنقطعةَ بمعنى «بل» لِلتَّركِ والتَّحوُّل، لأنّ بَعد «بل» مُتيَقّنٌ وبعد «أم» مَشكُوكٌ فِيه مَسؤولٌ عَنه[1].

قولُه: (ليس بمُعْوِزٍ في العَربِ)، الأساس: هذا شَيءٌ مُعْوِزٌ: عَزيزٌ لا يوجد.

---

(١) «المحتسب» (٢: ٢٩١).

﴿ أَمْ خُلِقُوا ﴾ أم أُحدِثوا وقُدِّروا التَّقدير الذي عَليه فِطرتهم، ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ مِن غَيرِ مُقَدِّر، ﴿أَمْ هُمُ ﴾ الذين خَلَقُوا أنفُسَهم حَيثُ لا يَعبُدونَ الخالِق، ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ أي: إذا سُئِلوا: مَنْ خَلَقَكُم وخَلَق السَّماواتِ والأرض؟ قالوا: الله، وهم شاكُّون فيما يَقولون، لا يُوقِنون. وقيل: أخُلِقوا مِن أجلِ لا شَيء مِن جَزاءٍ ولا حِسابٍ؟ وقيل: أخُلِقُوا مِن غَيرِ أبٍ وأمٍّ؟

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ ﴾ الرزق حتّىٰ يَرزُقوا النُّبوّة مَن شاؤوا؟ أو: أعِندهُم خَزائِنُ عِلمِه حتّىٰ يَختاروا لها مِن اختِياره حِكمَةً ومَصلَحة؟ «أم هم المسيطرون»: **الأرباب الغالِبون**، حتّىٰ يُدَبِّروا أمْرَ الرُّبوبيّة وَيَبنُوا الأمورَ علىٰ إرادَتِهم ومشِيئَتِهم؟ **وقُرِئَ ﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ بِالصّاد.**

قولُه: («المسيطرون» **الأربابُ الغالِبُون**)، الرّاغب: يُقال: سَيطر فُلان على كذا، وتَسَيْطَر عليه: إذا قام عليه قِيام سَطر، واستعمالُ المسيطر هاهنا كاستعمالِ القائمِ في قَولِه عزَّ وجلّ: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ وإلى هَذا المعنى أشار المُصنِّف: «ويَبنوا الأُمورَ على إرادَتِهم ومَشيئتِهم»[١].

قولُه: (**وقُرِئ: ﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ بالصّادِ**) قُنبلٌ وحَفْص وهِشام: بالسِّين، وحَمزَة: بِخلاف، وابن خَلّاد: بين الصّاد والزّاي، والباقون: بالصّاد خاصة[٢]. قال الزجّاج: «المُسَيطِرون»: الأربابُ المُـتَسلِّطُون، يقال: تَسيطَر علينا بالسِّينِ والصّاد، والأصْل السِّين[٣].

وقال أبو علي: ليس هذا البِناء بَناء تَحقِير، لكنّ الياءَ فيه مثل الواو في حوقَل، فكما تقول: حَوقَل، كذلك مُسَيطِرٌ ومُبَيطَر، لإلحاقهما جميعًا بمدحرجٍ ومُسرْهَف.

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٤١٠.

(٢) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣١.

(٣) «معاني القرآن» (٥: ٦٦).

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ مَنصُوب إلىٰ السّماء يَستَمِعُون، صاعِدينَ فيه إلىٰ كلامِ الملائكةِ وما يُوحىٰ إليهم مِن عِلمِ الغَيْب، **حتّىٰ يَعلَمُوا ما هُو كائِنٌ مِن تَقدُّم هَلاكِهِ علىٰ هَلاكِهِم**، وظَفرِهم في العاقِبةِ دُونَه كما يَزعُمون؟

﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ بِحُجَّةٍ واضحةٍ تُصَدّق استِماع مُستَمعِهم.

الجوهري: حَوْقَل الشَّيخ حَوقَلةً: إذا كَبِرَ وفتَرَ عن الجِماع، سَرْعَفْتُ الصَّبي: إذا أحسَنتَ غذاءَه، وكذلك سرهفتُه.

قولُه: (**حتّى يَعلَمُوا ما هو كائِنٌ من تَقدُّمِ هَلاكِه على هَلاكِهِم**)، قلت: هذا التّأويلُ إنْ كان يَنظُر إلى قَوله: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ لكن لا يَلتئِم مع قَولِه: ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾، والأوْفقُ لتأليفِ النَّظمِ ما قالَه الواحِديّ: المعنَى: أم لهم مرقىً ومَصعَدٌ إلى السّماءِ يَستَمِعُونَ أنّ ما هُم عليه حَقّ، فَليأتِ مُستَمِعُهم بِحُجّةٍ واضحةٍ على تِلك الدَّعوى؟

وبيانُ ذلك أنّ الكلامَ مِن لَدُن قَولِه: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ إلى آخِر: ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ في الإلـهياتِ مدمجٌ فيها أمرُ النُّبوّات، فقوله: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ معناه ما نَقلَ الواحِديُّ عن الزجّاج: أم خُلقُوا باطِلاً لا يُحاسَبون ولا يُؤمَرون، وعن ابن كَيسان: هُم خُلِقوا عبثًا، وتُركوا سُدًى، لا يُؤمَرونَ ولا يُنهَون، ثُمّ تَرقّى إلى قَولِه: ﴿ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ يَعني: أنّ السّماواتِ والأرضَ ليسا مِن خَلقِهم، حتّى يكون خَلقَهُما باطِلاً وعَبثًا، ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ أنّا خَلقناهُما بِالحَقّ، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١] أي: خَلَقناهُما مَساكِنَ المُكَلَّفِينَ وأدِلّةً على المَعرفَةِ ووُجُوبِ الطّاعَة، ثُمّ أضرَبَ عنه إلى بَيانِ ما هُو تأسِيسُ العِبادة بقوله: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ أي: مفاتيحه بالرّسالة يَضعُونها حيث شاؤوا، ثُمّ إلى ما هُو أعلى مِنه، بِقَولِه: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ أي: الأربابُ المتسلِّطون، فلا يَكونُون تحت أمرِ اللّـهِ ونَهيهِ وطاعة رَسُولِه

المَغرَم: أن يَلتَزِم الإنسانُ ما لَيسَ عَليه، أي: لَزِمَهُم مَغرَمٌ ثَقيلٌ **فَدَحَهُم** فزَهَّدَهُم ذَلِك في اتِّباعِكَ؟

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾: **أي اللَّوحُ المحفُوظ** ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيه حتّىٰ يَقُولوا لا نُبعَث، وإنْ بُعِثنا لَم نُعذَّب، ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو كَيدُهم في دار النَّدوةِ برَسولِ الله ﷺ وبِالمُؤمنين، ....

يفعلون ما شاؤُوا، ثُمّ إلى قَوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ﴾ ومعناه ما عَليه كَلامُ الواحِديّ، أي: يَستَمِعُون الوَحي فَيَعلَمون أنّ ما هُم عليه حَقٌّ وصِدق[1]، و ما عَليه غَيرُهم باطِلٌ وزُور، ثمّ أضرَبَ عنه بقوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ يعني: قد كشف من مَحضِكُم وتَبيَّن مِن صِدقِكُم وحَقِّكُم هذه الهناة، وهي نَسْبَتكم إلى الله عزَّ وجلَّ ما هُو مُنـزَّهٌ عنه، وجعلْتُم له أدْوَن الجِنسَين، وما إنْ نُسِبَ إلى بَعضِكُم ظلَّ وجهُهُ مُسْوَدًّا وهو كَظيم، والله أعلم.

قولُه: (**المَغْرَم: أن يلتَزِمَ الإنسانُ ما لَيسَ عليه**)، الراغب: المَغْرَم: ما يَنُوبُ الإنسان في مالِه من ضَرَرٍ بِغَيْر جِنايَة، يقال: غَرِمَ كَذا غُرْمًا ومغرَمًا وأُغرِمَ فُلانٌ غَرامةً، قال تعالى: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾[2].

قولُه: (**فَدَحَهم**) أي: أثقَلهم، فَدَحَهُ الدَّين: أثقَله. **الرّاغب**: الثِّـقَلُ والخِفَّةُ مُتقابِلان، فَـكلُّ ما يَتَرجَّحُ على ما يُوزَنُ بِهِ أو يُقَدَّر به، يُقال: هو ثَقيل، وأصلُهُ في الأجسام، ثمّ يُقالُ في المَعاني: نحو أثْقلَهُ الغُرمُ والوِزر، قال تعالى: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾[3].

قولُه: (﴿ٱلْغَيْبُ﴾ **أي: اللّوحُ المَحفوظ**)، يُرِيد: أنّ الغَيْبَ بِمَعنى الغائِب.

---

(١) «الوسيط» (٤: ١٨٩).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٦٠٦.

(٣) المصدر السابق ص ١٧٣ - ١٧٤.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إشارةٌ إليهم، أو أُريدَ بهم كلُّ مَن كَفَر بالله ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ هُم الذين يَعُود عَلَيهم وبالُ كَيدِهم، وَيَحِيقُ بهم مَكرُهُم. وذلك أنّهم قُتِلوا يومَ بَدر. أو المَغلُوبُون في الكَيْد، مِن كايَدتُهُ فَكِدْتُه.

[﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ * فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٤٤-٤٧]

الكِسْف: القِطعَة، وهو جَوابُ قولِهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] يُريد: أنهُم لِشـدّة طُغيانِهم وعِنادِهم، ....

قَوله: (﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إشارةٌ إليهم) فيكُون مِن وَضعِ المُظْهَرِ مَوضِعَ المُضْمَر للتّسجيل على كُفرِهِم، والدَّلالة على أنه المُوجِبُ للدَّمار، فالتَّعريف فيهِ للعَهد، وعلى أن يُراد بِهم كُلّ من كَفَر للجِنس، فقوله: «أو المغلُوبون في الكَيد»، عَطفٌ على قولِه: «هُم الذِين يَعُود عليهم وَبالُ كَيدِهم» على طريقةِ النشر لإرادةِ أنّ التّعريفَ إمّا للعَهدِ أو الجِنسِ[1].

قولُه: (الكِسْف: القِطعة)، الرّاغِب: كُسوفُ الشّمسِ والقَمر: استتارُهُما بِعارض، وبه شُبِّه كُسوفُ الوَجهِ والحال، فقيل: هُو كاسِفُ الوجه، وكاسِفُ الحال، والكِسْفة: قطعةٌ من السَّحاب والقُطن، ونَحو ذلِك من الأجسام المُتخلخِلةِ الحائلة، وجَمعُها كِسَف. قال تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] قال أبو زيد: كَسفتُ الثَّوبَ أكسِفُه كسفًا، قَطعتُه قطعًا[2].

قولُه: (وهو جَوابُ قَولِهِم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ﴾)، قال في ذلك المَقام: «لـمّا بيَّن إعجازَ القُرآنِ وانضَمَّت إليه المُعجِزاتُ الأُخَر والبيِّنات، ولَزِمتهُم الحُجَّة وغُلِبوا، أَخَذُوا يَتعَلَّلُون باقتراحِ

---

(١) من قوله: «لإرادة» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف)، وأثبته من (ط).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٧١١.

لو أسقطناهُ عَليهِم لَقالوا: هذا سَحابٌ مَركُومٌ بعضُهُ فَوقَ بَعضٍ يُمطِرُنا، ولَم يُصَدِّقوا أنه كِسْفٌ ساقِطٌ للعَذاب. وقُرِئ: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا﴾ و(يَلقَوا)، (يَصْعَقُونَ): يَموتون. وقرئ: ﴿يُصْعَقُونَ﴾. يقال: صَعَقهُ فَصُعِق، وذلك عِند النَّفخَةِ الأُولىٰ نَفخَةِ الصَّعْق.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وإنّ لهؤلاء الظَّلَمة ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دُونَ يَومِ القِيامَة: وهو القَتلُ بِبَدر، والقَحطُ سَبعَ سِنين، وعذابُ القَبر. وفي مُصحَفِ عَبدِ الله: (دون ذلك قَريبًا).

[﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ ٤٨-٤٩]

﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بِإمهالِهم وما يَلحَقُك فيه مِنَ المَشَقّةِ والكُلفَة، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ مَثَل، أي: بحيث نَراكَ ونَكلَؤُك. وجُمِعَ العَين، **لأنّ الضَّميرَ بلفظِ ضَميرِ الجَماعة**.........

الآيات، فِعلَ المَبهُوت المَحجُوجِ المُتَعثِّر في أذيالِ الحَيرة، فقالوا: لن نُؤمِنَ لرُقِيِّك حتّى تُفجِّر...» إلى آخرِ الآيات، وَجِيءَ هاهنا بِجواب بَعض الاقتراحاتِ على سبيل التَّمليحِ ليُؤذِنَ بأنّهم مَحجُوجُونَ مَبهوتُون، وأنّ طَعنَهم ذلك لَيسَ إلّا للعِنادِ والمُكابرة، ومن ثَمّ رتَّب عليه قوله: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا﴾ بالفاء.

قولُه: (وقُرِئ: ﴿يُصْعَقُونَ﴾)، عاصمٌ وابنُ عامر، والباقون: بفتح الياءِ[1]، قال أبو البَقاء: الفَتحُ ماضيه: صَعَق، وقُرئ بالضَّم ماضيه: أصعَق، وقيل: صُعِق مثل سُعِدَ[2].

قولُه: (مَثَلٌ) يعني: أنّ قَولَه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ استعارةٌ تَمثيليّةٌ شبَّهت حالة كِلائِه وحفظِه رسولَ الله ﷺ بحالةِ من يُراقبُ الشَّيءَ بِعينَيه ويَحفظُه.

قولُه: (لأنّ الضَّمير بلفظِ [ضمير] الجماعة)، يَعني: راعَى المُناسبة بين الجمعَين، أعني العين وضميرَ الجمـاعة، وحينَ أفـرَدَ الضميرَ أفردَ العَينَ في قولِه: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]،

---

(١) «التيسير في القراءات السبع» للداني ص١٣٠.
(٢) «إملاء ما منَّ به الرحمن» (٢: ٢٤٦).

ألا تَرىٰ إلىٰ قَولِه تعالىٰ: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]. وقُرِئ: (بأعيُنّا) بالإدغام. ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من أي مكانٍ قُمت. وقيل: من مَنامِك، ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾: وإذا أدبرَتِ النُّجومُ من آخِرِ اللَّيل. وقرئ: (وأدبار النُّجوم) بالفَتح، بمَعنىٰ في أعقابِ النُّجوم وآثارِها إذا غَرَبَت، والمُرادُ الأمرُ بقَول: **سُبْحان الله وبحَمدِهِ** في هذه الأوقات. وقيلَ: التَّسبيح: الصَّلاةُ إذا قام من نَومِه، ومِنَ اللَّيل: صَلاةُ العِشاءَين، وأدبار النُّجُوم: صَلاةُ الفَجر.

عن رسولِ الله ﷺ: «مَن قَرأ سُورةَ الطُّورِ كانَ حَقًّا علىٰ الله أن يُؤمِّنَه من عذابِه وأنْ يُنعِّمَه في جَنَّتِه».

ويُمكِنُ أن يُقال: إنّ ذلِك امتِنانٌ على الكليمِ في كَلاءَتِه وحفظِه من العَدوِّ في بدءِ حالِه وتَربيتِه في حالِ الطُّفوليَّة، كما قال: «ولِتُربىٰ ويُحسن إليك، وأنا راعِيكَ وراقِبك، كما يراعي الرجلُ الشَّيءَ بعينَيه إذا اعتَنى به»، فناسَب الإفراد، وهذا تعليلٌ لتصبيرِ الحبيبِ على مَكائِد أعداءِ الدّين، كما قال: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ وتثبيته على مَشاقِّ التكاليفِ والعبادات[1]، ألا تَرى كيف عَطفَ ﴿وَسَبِّحۡ﴾ على ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ عطفَ الخاصِّ على العامِّ فناسبه الجَمعان.

قولُه: (**سُبحانَ الله وبحَمدِه**)، أي أُسبِّحُ اللّـهَ وألتَبِسُ بحمدِه، أي: وبحمِدِهِ أُسبِّح، **الراغب**: ومعنى نُسبِّح بحمدِك، أي نُسبِّحُكَ والحمدُ لَك، أو نسبِّحُك بأنْ نَحمَدك[2]، والباءُ على الأوّل حالٌ، وعلى الثاني صِلة.

تَـمّت السُّورة

حامدًا لله تعالى ومصلّيًا على رسولِ الله ﷺ.

---

(١) انظر: «روح البيان» للآلوسي (٢٧: ٤٧) حيث نقل كلام المؤلف بتصرُّف.

(٢) «تفسير الراغب الأصفهاني» (١: ١٤٠).

سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾
مكيّةٌ إحدى وستون، وقيل: ثنتان وستون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ * إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ * فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ * أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ * عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ * إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ ١-١٨].

النَّجْم: الثُّرَيَّا، وَهُو اسْمٌ غَالبٌ لَها. قال: إذا طَلَعَ النَّجْمُ عِشَاءً، ابْتَغَى الرَّاعِي كِسَاءً.

سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾
مكِّية، وهي إحدَى وستونَ آيةً، وقيل: ثِنْتانِ وسِتُّونَ آيةً[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله: (إذَا طَلَعَ النَّجْمُ عِشَاءً، ابْتَغَى الرَّاعِي كِسَاءً)، قال ابنُ قُتَيبةَ الدِّيْنَورِيُّ: الثُّرَيَّا: انتهاء الحَمَل، وجاءَت مُصغرًا، ولم يُتكلَّم بها إلا كَذلِك، نحوُ حُمَيّا الكأسِ، وأصلُها من الثَّروةِ، وهي كثرةُ العددِ، وطُلوعُها ليلةَ عشرةٍ تخلو من أيَّارَ، وسُقوطُها

---

(١) انظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» للدَّاني ص٢٤٣.

أو جِنْس النُّجُوم. قال:

فباتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ في مُسْتَحِيرةٍ

يريد: النُّجُوم.

ليلةَ عشرة من تشرينَ، تظهر من أوَّلِ الليلِ في المشرقِ عند ابتداءِ البَرْدِ، وإذا توسَّطتِ السَّماءَ مع غروبِ الشَّمسِ يكون غَايةُ شدَّةِ البَردِ[١].

قوله: (**فَباتت تَعُدُّ النَّجمَ في مُستَحِيرةٍ**)، تمامه:

سريعٍ بأيدِي الآكلينَ جُمُودُها

أنشده الزَّجّاجُ وقال: يصف قِدْرًا كثيرةَ الدَّسَم، ومعنى تَعُدُّ النَّجمَ، أي: من صَفاءِ دسَمِها ترى النُّجومَ فيه، وَالمسْتَحِيرةُ: القِدْرُ، فقال: يَجْمُدُ على الأيدي الدَّسمُ من كثرته[٢]، واستشهد به الزَّجَّاجُ لصحَّةِ إطلاقِ النَّجمِ على النُّجومِ.

وقال ابن قُتيبةَ: النَّجمُ في البيتِ الثُّريّا، لأنَّ الثُّريا في الشِّتاءِ تصيرُ في كَبدِ السَّماء، فتُرى حينئذٍ في الماءِ وفي المرآةِ، وفي كُلِّ شيءٍ له صَفاءٌ[٣]، ويُناسِبُ هذا القول قوله: جُمُودُها لأنَّ الدَّسمَ يجْمُدُ في البردِ. أوَّلُه[٤]:

قَرَيْتُ الكِلابيَّ الذي يَبْتغي القِرى ... وأُمَّــك إذ تُحْدِي عَلينــا قَعُودُها

أي: ضِفتُ الكِلابيَّ وأمَّك.

---

(١) انظر: ابن قُتيبة، «الأنواء» ص٢٣.

(٢) «معاني القرآن» (٥: ٦٩).

(٣) كتاب «الأنواء» ص٢٤.

(٤) ظاهر كلام المصنف أن هذا البيت هو أول القصيدة وليس كذلك إذ في «ديوان الرَّاعي النُّميري» ص٩١، وفي «شرح الحماسة للمرزوقي» ص١٠٥٤ جُعل هذا البيت ثالثًا، ومطلع القَصيدة وهي للرَّاعي النُّميريّ:

مــاذا نكِرتم من قَلــوصٍ نَحَرْتُها ... بِسَــيفِي وضِيْفانُ الشِّتاءِ شهودُها

﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا غـرَبَ أو انتثَـر يَـومَ القِيَامَـة، أو: النَّجْـمُ: الَّذِي يُرْجَمُ بِـه، ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾: إِذَا انْقَضَّ. أو: النَّجْم مِنْ نُجُومِ القُرآنِ، وَقَد نَزَلَ مُنَجَّمًا في عِشْرِين سَنَةٍ، ﴿إِذَا

قولـه: (﴿إِذَا هَوَىٰ﴾: إذا غـرَبَ وانتثَر[١])، وفي «المُقتبس» قال الجَنْـزِي[٢]: فاوضتُ جارَ الله[٣] في قولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ما العَامِلُ في إذا؟ فقال: العاملُ فيه: ما تعلّقَ به الواو، فقلت: كيف يعملُ فِعلُ الحالِ في المُستقبلِ؟ وهذا لأنَّ معناه أُقسِمُ الآن، وليس معناها: أقسم بعد هذا؟ فرجع فقال: والعامِلُ فيه مصدرٌ مَحْذوفٌ، تقديرُه: وهُوِيِّ النَّجمِ إذا هَوى. فعرضتُه على زينِ المَشايخِ[٤] فلم يستحِسنْ قولَه الثَّاني.

والوجهُ: أنَّ «إذا» قد انْسَلَخَ عنه معنى الاستقبال وصار للوقتِ المُجرَّدِ، ونحوه: آتيك إذا احمرّ البُسر، أي: وقت احمراره، فقد عَرِي عن معنى الاستقبال، لأنه وقعتِ الغُنية عنه، بقوله: آتيك. قال عبد القاهر: إخبارُ الله بالمُتوقَّعِ يُقامُ مقامَ الإخبارِ بالوَاقِعِ، إذ لا خُلفَ فيه فجرَى المُستقبلُ مجرَى المحقَّقِ الماضِي[٥].

الرَّاغب: قيل: أراد بالنَّجمِ الكوكبَ، وإنَّما خُصَّ الهُوِيُّ دُونَ الطُّلوعِ، فإنَّ لفظَ النَّجمِ دَلَّ على طلوعِه، وقيل: أراد بذلك القرآن المُنَجَّمَ المُنزلَ قدرًا فَقدرًا، وفَسَّر على الوجهينِ قولَه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[٦].

(١) كذا، وفي «الكشاف»: «أو انتَثَرَ».

(٢) هو عمر بن عثمان بن الحسين الجَنْزي، أبو حَفْص، وهو إمام في النَّحو والأدب، لا يُشقُّ غباره، وقال السَّمْعانيُّ: أحد أئمة الأدب، وله باعٌ طويلٌ في النحو والشعر، مات سنة (٥٥٠هـ).
انظر ترجمته في: «الأنساب» (٢: ٩٧)، و«بغية الوعاة» (٢: ٢٢١).

(٣) المقصود به الزَّمَخشَرِي.

(٤) هو محمد بن أبي القاسم بن باجوُك البقّالي الخوارزمي الآدمي، قال عنه هو ياقوت الحموي: كان إمامًا في الأدب، وحجة في لسان العرب، أخذ اللغة والإعراب عن الزمخشري.
له عدة تصانيف منها: «مفتاح التنزيل»، و«الإعجاب في علم الإعراب»، توفي سنة (٥٧٢هـ). انظر ترجمته في: «معجم الأدباء» (٥: ١٩)، و«بغية الوعاة» (١: ٢١٥).

(٥) انظر: «روح المعاني» (٢٧: ٤٥).

(٦) «مفردات القرآن» ص ٧٩٢.

هَوَىٰ﴾: إِذَا نَزَل. أو: النَّبات ﴿إِذَاهَوَىٰ﴾: إِذَا سَقَطَ عَلَى الأَرْضِ.

وعن عُروةَ بن الزُّبَيْر: أنَّ عُتْبَةَ بنَ أبي لَهَبٍ ....

وعن بعضهم: نَبَّهَ بالطُّلوعِ والهُوِيِّ على أنَّه مخلوقٌ، والله خالقُه، كما قال إبراهيمُ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، أي: ذلك من أَماراتِ الحُدُوثِ.

وقلتُ: كأنَّه أقسمَ بذلك لما فيه من الدَّلالةِ على وجودِ مُحْدِثه.

قوله: (**وعن عُروةَ بن الزُّبيرِ أن عُتبة بن أبي لَهَب**) هذا الحديثُ موضُوعٌ، رواه بعضُ الشِّيعةِ، وأَتى به محمد بن أحمد بن حمَّاد المعروفُ بالدُّولابي في كتاب «الذُّرية الطَّاهرة»[1]،

(١) هاهنا مبحثٌ لا بدَّ منه، وهو أنَّه حكم على الحديثِ بالوَضْعِ، ثمَّ حكم بأنَّ هذا الحديث من رواية بعضِ الشيعةِ، ومثَّلَ لهذا بالدُّولابي. والأمر ليس كذلكَ مَن جميع الوجوهِ، فالحديثِ لم يُحْكم عليه بالوضع سوى الطِّيبي حسبما وقفتُ عليه، وذكر المَناويُّ في «الفتح السَّماوي» (٢: ٥٤٨-٥٤٩)، هذا الحكم عن الطِّيْبي وهو متعقَّبٌ، إذ نُقل تصحيحُ هذا الحديث عن الحاكم كما في «المستدرك»: (٢: ٥٣٩) رقم (٣٩٨٤) ووافقه الذهبي على تصحيحه! غير أنه سَمَّى المأكول: لهب بن أبي لهبٍ، وحسّنه الحافظ ابن حجر كما في «فتح الباري» (٤: ٣٩)، ولم يبيِّن حكمه في تخريجه للكشاف ولم يزد على أن نقل توهين البيهقي لإحدى رواياته!!
أما قوله: إنَّ هذ الحديث جاء من رواية بعض الشيعةِ، فهو غير مُسلَّم، بل غير سليم، نعم رواه بعض الشيعة لكن لا اعْتبارَ لهم ولا ذكر في كُتب الذين خرّجوا الحديث، فالحديثُ رواه أبو نُعيم الأصبهاني في «دلائل النبوة» بعدَّة رواياتٍ من (٢: ٤٥٤-٤٥٨) بأرقام (٣٨٠-٣٨١)، والبَيْهقيُّ في «دلائل النبوة» (٢: ٣٣٨-٣٣٩)، وأشار إلى هذه القصّة في «السنن الكبرى» (٥: ٢١١) حيث قال: قال أبو عُبيد: قد يجوز في الكلام أنْ يُقال للسَّبع: كلبٌ، ألا ترى أنَّهم يروون في المغازي أن عُتبة ابن أبي لهب كان شديد الأذى للنبي ﷺ فقال: «اللهم سلِّط عليه كلبًا من كلابك»، ... وتعقبَه ابن التركماني في «الجوهر النَّقي» أن ابن الصَّلاح قال: إن قول عُتبة ممَّا يُغلط فيه وهذه القضية لعُتيبة أخي عُتبة، ذكر ذلك أهل المعرفة بالنسب والمغازي، وأما عُتبة فإنَّه بقي حتَّى أسلم يوم الفتح وهو مذكورٌ في كُتب الصحابة، وأخرجه كذلك الدُّولابي في «الذرية الطاهرة» ص٥٦-٥٩، وابن عسَاكر في «تاريخ دمشق»: (٣٨: ٢٠٣)، ومحمد بن إسحاق في «المغازي» كما ذكرذلك أبو نعيم في «الدلائل» وعزاه له مُلا علي قاري في «شَرح الشفا» وهؤلاء كلهم من أئمّة أهل السُّنة وليسوا من الشيعة!! =

....

وذلك أنَّ ابن عبد البَـرِّ وابن الأثير صاحبَيْ «الاستيعاب» و«جامع الأصُول» ذَكَرا أنَّ عُتبَةَ ابنَ أبي لَهَبٍ أسلم هو وأخوه مُعَتِّبٌ يومَ فتح مكَّة، كانا قد هَربا، فبَعَثَ العباسُ فأتى بهما فأسلما، وسُرَّ رسولُ الله ﷺ ودعا لهما، وشهدا معه حُنَينًا والطَّائفَ(١).

روى عُتبة عن ابن عبّاس حديث المملوكين: «أطعِموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون»(٢).

= فكلام المُصنِّف إذا غير سليم من هذا الجانب أيضًا، وبخاصّة في ذكره للدُّولابي فهو من عُلماء السُّنة وأئمتهم أيضًا.

أما عن الحكم على الحديث فقد يكون ضعيفًا من طريقٍ، لكنّ كثرة هذه الطُّرق تُنْبِئ أنَّ للقصّة أصلًا. وأنَّ المأكول ليس عُتبة حتمًا، فلَعلّه وهْمٌ من بعض الرُّواة كما بين ابن الصّلاح، أو لعلّه لهبٌ كما في روايتَي الحاكم والبَيْهقي، أو عُتيبة، كما جزم غير واحد من أهل المغازي والسِّيَر، والله أعلم.

(١) انظر: «جامع الأصول» (١٢: ٥٩٦)، و«الاستيعاب»: ترجمة رقم (١٩١٩).

(٢) انظر: «مسند الإمام الشافعي» ص ٣٠٥، وفيه: عن إبراهيم بن أبي خِداش بن عتبة بن أبي لهب، أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول في المملوكين: أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون وليس فيه رواية لعتبة، ولكن لعلها كانت في إحدى النُّسخ، قال ابن حجر في «تعجيل المنفعة»: ص ٨٥٩: روى عتبة عن ابن عباس أنه قال في المملوكين: أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تكتسون، رواه عنه إبراهيم بن خِداش، قلت (ابن حجر): وقع كما قال في نسخة من «مسند الشافعي»، والحديث المذكور مخرج من كتاب «الأم» للإمام الشافعي في كتاب القرعة والنفقة على الأقارب ولفظه: أخبرنا ابن عيينة عن إبراهيم بن خِداش بن عتبة بن أبي لهب أنه سمع ابن عباس يقول للمملوكين: أطعموهم مما تطعمون وألبسوهم مما تلبسون، هكذا في النسخ المعتمدة بن أبي خِداش بن عتبة بن أبي لهب فالحديث من رواية إبراهيم عن ابن عباس وقد تقدم في ترجمة إبراهيم هذا أن ابن أبي حاتم نسبه كذلك فقال: إبراهيم بن أبي خِداش بن عتبة بن أبي لهب، فعلى هذا فلا رواية لعتبة بن أبي لهب وإنما الرواية لحفيده إبراهيم، وعلى تقدير أن يكون الذي وقع في النسخة المذكورة محفوظًا، فعتبة بن أبي لهب الذي أدركه إبراهيم وروى هو عن عبد الله بن عباس آخر غير الصحابي، فإن الصحابي قديم الموت وهو أسن من ابن عباس، وقد وقع في السيرة النبوية أن أبا لهب زوج ولديه عتبة وعتيبة ابنتي النبي ﷺ، فلما دعا النبي ﷺ الناس إلى الإسلام وخالفه أبو لهب وأظهر له العداوة والمنابذة، أمر ولديه فطلقا ابنتي =

وكانَتْ تَحتَه بِنْت رَسُولِ الله ﷺ أَرَاد الخُرُوجَ إلى الشام، فقال: لآتينَّ مُحمَّدًا فلأُوذِيَنَّه؛ فأتَاه فَقال: يا مُحمَّد، هُو كَافِرٌ بالنَّجْم إِذَا هَوى، وبالَّذي دَنَا فتَدلى، ثُمَّ تَفَلَ في وَجْهِ رَسُولِ الله ﷺ وَرَدَّ عَلَيْه ابْنَتَهُ وَطَلَّقَها، فَقَال رَسُولُ الله ﷺ: «اللهم سَلِّطْ عَلَيْه كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ» ، وكَانَ أَبو طَالِبٍ حَاضِرًا، **فَوَجِمَ لَها** وقَال: **مَا كَان أَغْنَاكَ** يا ابنَ أخِي عن هَذهِ الدَّعْوة، فرَجَعَ عُتْبَةُ إلى أَبِيهِ، فأَخْبَرهُ، ثُمَّ خَرَجُوا إلى الشَّام فنزَلُوا مَنْزِلًا، فأَشْرَفَ عَلَيْهم رَاهبٌ مِنَ الدَّيْر فَقَال لَهُم: إنَّ هَذه أرْضٌ مُسْبِعَةٌ، فَقَال أَبو لَهَبٍ لأَصْحَابِه: أَغِيثُونَا يَا مَعْشَر قُرَيْشٍ هَذهِ اللَّيْلَةَ، فإنِّي أَخَافُ عَلى ابْنِي دَعْوَةَ مُحمّد، فجَمَعُوا جِمَالَهُم وأَنَاخُوهَا حَوْلَهم؛ وَأَحْدَقُوا بعُتْبَة، فجَاءَ الأَسَدُ يَتَشَمَّم وُجُوهَهُم، حتَّى ضَربَ عُتْبة فقَتَلهُ. **وقال حسَّان:** ....

وروِيَ عن عُتبةَ بن خِراش، أخرجه الإمام الشافعي رضي الله عنه في «مسنده».

قوله: (**فَوجِمَ لها**) النهاية: وَجَمَ يَجِمُ وجومًا، والواجمُ: الذِي أسْكتَه الهمُّ، وعَلَتْهُ الكآبةُ، والضَّمير في «لها» للكلمة أو الدَّعوةِ.

قوله: (**ما كان أَغناكَ**) «ما» للتَّعجُّبِ، و«كان» زائدة.

قوله: (**وقال حسَّان**) ذَكَر هذا البيت صاحب «الذُّرية الطَّاهِرة» في كتابه، في ضمن

= النبي ﷺ، وذلك قبل مولد عبد الله بن عباس بنحو عشر سنين، فإنه ولد بعد المبعث بعشر، والقصة كانت بعد المبعث وإذا كان كذلك فعتبة بن أبي لهب مجهول الحال والعين ويدل على عدم وجود ذلك إطباق الأئمة كالبخاري ومن بعده على أنهم لم يذكروا أن لإبراهيم بن أبي خِداش شيخًا روى عنه إلا ابن عباس وقد تقدم حديثه وتصريحه بسماعه منه في ترجمته.

وقد جزم ابن حجر بالتصحيف في موضع آخر من «التعجيل» في ترجمة إبراهيم بن أبي خِداش عن عتبة ابن أبي لهب فقال ص ٢٥٩-٢٦٠: إبراهيم بن أبي خِداش عن عتبة بن أبي لهب وعنه ابن عيينة مجهول كذا قرأت بخط الحسيني واقتصر على رقم الشافعي، وقد وقع له تصحيف فإن إبراهيم سمع من ابن عباس ليس بينهما واسطة، وعتبه جده لأبيه، فكأنه كان فيه إبراهيم بن أبي خداش بن عتبة بن أبي لهب عن ابن عباس فتصحف «بن» فصارت «عن»، فنشأ من ذلك خطأ آخر بينته في ترجمة عتبة ابن أبي لهب.

مَنْ يَرْجِعِ الْعَامَ إِلى أَهْلِه ... فَمَا أَكِيلُ السَّبْعِ بِالرَّاجِع

﴿مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ يعني محمدًا ﷺ، والخِطَاب لِقُرَيْشٍ، وَهُو جَواب القَسَم،

أبياتٍ، ونسبه إلى حَسّانَ[1]:

سَائِل بني الأشْعر إنْ جِئتَهم ... ما كانَ أنباءُ أبي الواسعِ
لا أوسعَ الله لهُ قَبْرَه ... بلْ طَبَّقَ الله عَلى القَاطِعِ
رِحْمَ نَبيٍّ جَدُّه جَدُّه ... ويدعُو إلى نورٍ له ساطعِ
أسْبَل بالحِجْرِ لتكذيبِهِ ... دونَ قريشٍ نَهزة القادعِ
واستوجَب الدَّعوة منه بِما ... بيَّن للنَّاظِرِ والسَّامعِ
أنْ سَلَّط الله به كلبَهُ ... يمشي هُوينا مِشيَةَ الخَادعِ
حتَّى أتَاه وَسْطَ أصحابِهِ ... وقَد عَلتْهُم سِنَةُ الهاجعِ
والتَقَمَ الرَّأسَ بيافُوخِهِ ... والنَّحرَ منه فَغْرةَ الجائعِ
استلمُوهُ وَهْوَ يدعُو لهُ ... بالسَّبب الأدْنى وبالجَامعِ
والليثُ يَعْلُوه بأنيابِهِ ... مُنْعَفِرًا وَسْطَ دمٍ ناقعِ
لا يَرْفعِ الرَّحمنُ مَصْروعَكُمْ ... ولا يُوَهِّنْ قوّة الصَّارِعِ
وكان فيه لكم عبرةٌ ... للسَّيِّدِ المتبوعِ والتَّابعِ
مَنْ يرجِعِ العام إلى رَحْلِهِ ... فما أكيل السَّبْع بالرَّاجِعِ
مَنْ عَادَ فاللّيثُ لهُ عائدٌ ... أَعْظِمْ بهِ من خَبرٍ شائعِ

وأثرُ الصَنْعَةِ ظاهرٌ في هذه الأبيات.

---

(١) ذكر أبو نعيم في «دلائل النبوة» الأبيات من ١-٨ ونسبها إلى حسّان، وفي «ديوان حسان» ص١٥٩ أربعة أبيات منها هي الأول و٩، ١٠، ١١.

والضَّلال: نَقيضُ الهُدَى، والغيّ: نَقيضُ الرُّشْدِ، أي: هُو مُهْتَدٍ رَاشدٌ وَليس كما تَزْعُمُون مِنْ نِسْبَتِكُم إِيَّاه إلى الضَّلالِ والغَيِّ، ومَا أَتَاكُم بِه مِنَ القُرآن لَيْس بِمَنْطِقٍ يَصْدر عَنْ هَوَاهُ وَرَأْيِه، وإنَّما هُو وَحْيٌ مِن عِنْدِ الله يوحَى إليه.

ويَحتَجُّ بهذِه الآيةِ مَنْ لا يَرى الاجتهَادَ للأنبياء، ويُجابُ بأنَّ الله تعالى إذا سَوَّغَ لهُم الاجْتِهَادَ، كانَ الاجتِهادُ ومَا يَسْتَنِد إليه كُلّه وَحيًا لا نُطْقًا عَنِ الهَوَى.

قوله: (والغَيّ: نقيضُ الرُّشدِ) الرَّاغب: الغَيُّ جهلٌ من اعتقادٍ فَاسدٍ، وذلك أنَّ الجهلَ قد يكون من كون الإنسان غير مُعتقدٍ لا صالحًا ولا فاسدًا، وقد يكونُ من اعتقادِ شيءٍ فاسدٍ، وهذا الثَّاني يقال له: غَيٌّ[1].

قوله: (ويَحتَجُّ بهذِه الآية مَنْ لا يرى الاجتهادَ للأنبياء) قال القاضي: واحتجَّ بها من لا يَرى الاجتهادَ له، وأُجيبَ عنه بأنَّه: إذا أُوحيَ إليه بأنْ يجتهدَ، كان اجتهادُه وما يُسنَدُ[2] إليه وحيًا، وفيه نظر؛ لأنَّ ذلك حينئذٍ بالوَحي[3].

وقلت: هاهنا بحثٌ لا بُدَّ منه، وهو أنَّ هذه الآيةَ واردةٌ في أمرِ التَّنزيلِ، وليس فيها لمُسْتَدِلٍّ أنْ يَستدلَّ بشيءٍ من أمرِ الاجتهادِ، لا نفيًا ولا إثباتًا، لأنَّ الضَّميرَ في ﴿إِنۡ هُوَ﴾ للقُرآن؛ بدليلِ من فسَّرَ النَّجمَ بنُجُومِ القُرآنِ، وهي من الأيمان الحَسَنة، نحوه قوله:

وثَنَاياكِ إنَّها إغْرِيضُ[4].

ويَنْصُرُهُ قولُه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ وفي الآياتِ معنى قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ * وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ

---

(١) «مفردات القرآن» ص٦٢٠.

(٢) لفظ البيضاوي: «وما يستند».

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٢٥٢).

(٤) هذا شطرٌ من بيت لأبي تمام، وتمام البيت:

ولآلٍ تُومٌ وبَرقٌ وميضُ

انظر: «شرح ديوان أبي تمام» للخطيب التبريزي (١: ٨٦).

....

بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٠-٢٧] فقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ جوابُ القَسمِ، وقد تقرَّر أنَّ الجملةَ القَسميَّةَ يُتلَقّى بها المُنْكِرُ المُصِرُّ، أي: ما ضَلَّ صاحبُكم وما مَسَّه الجِنُّ، ولا اسْتهواهُ، وما غَوَى، وليس بَيْنَه وبين الغَوايةِ تعلُّقٌ، أي: لَيسَ بشاعرٍ والشُّعراءُ يَتَّبعهُمُ الغَاوُونَ، وما يَنطقُ عن الهوى كالكاهنِ، فقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ كالتَّكملةِ للبيانِ، فكأنَّه قيل: ما هذا القرآنُ إلَّا وحيٌ، ليس بقولِ مجنونٍ، ولا بقولِ شاعرٍ، ولا بقولِ كاهنٍ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤١] فقال أولًا: ما ضَلَّ وما غوى ماضِيَيْنِ، ثُمَّ قفَّاهُ بقولِه: ﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ مُستقبلًا، إيذانًا بأنَّه صلوات الله عليه في صِغَرِهِ حين اعتزلَكُم وما تعبُدونَ، ما ضَلّ قَطُّ، ومَا غوى في كِبَرِه، حين اخْتَلى بغارِ حراءِ، فكيفَ ينطِقُ بالهوى الآن وهو رسولٌ من عندِ الله أمينٌ على خلقِه رحمةٌ للعالمينَ، بشيرًا ونَذِيرًا.

وإلى هذا المعنى ينظر ما رُوِّيناه عن البُخاريِّ ومُسلمٍ[1] عن ابنِ عبَّاسٍ عن أبي سُفيانَ حين سأله هِرَقلُ وقال: سألتُكمُ هل كُنتمْ تتَّهمونَه بالكذبِ، قبلَ أنْ يقولَ ما قالَ؟ فزَعَمْتَ أنْ: لا، فعَرفتُ أنَّه لم يكنْ لِيدَعَ الكَذِبَ على النَّاسِ ثُمَّ يذهبَ فيكذبَ على الله.

وقال جعفرُ بن مُحمدٍ: كيف يَنْطقُ عن الهَوى من هو ناطقٌ بإظْهارِ التَّوحيدِ، وإتمامِ الشَّريعةِ، وإيجابِ الأمرِ والنَّهي، بل مَا نطقَ إلا بأمرٍ، ولا سكتَ إلا بأمرٍ.

فإذا تقرَّرَ أنْ الآيَةَ ساكِتةٌ عن حديثِ الاجتهادِ، فلنبين ثُبوتَه بالنُّصُوصِ الواردةِ فيه: منها ما رُوِّينا عن التِّرمذِيِّ وأبي داودَ[2] عن المِقدَام بن مَعْدِي كَرِبَ، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألَا إنِّي أُوْتيتُ الكِتابَ ومِثلَه مَعَهُ، ألا يُوشِكُ رَجلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَقُول: عَلَيْكُم بِهذَا القُرآنِ، فما وَجدْتُم فيهِ مِنْ حَلالٍ فأَحِلُّوه، ومَا وَجدْتُم فيه مِنْ حَرامٍ فَحَرِّمُوهُ».

---

(١) البُخَاريُّ (٧) و(٢٩٤١)، ومُسلِمٌ (١٧٧٣).

(٢) الترمِذيُّ (٢٦٦٤)، وأبو دَاود (٤٦٠٤).

﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ مَلَكٌ شَديدٌ قُواهُ، والإِضافةُ غَيرُ حَقيقيَّة، لأنَّها إِضافةُ الصِّفة المَشبَّهَة إِلى فاعِلِها، وَهُو جِبْرِيل عَليه السَّلام، وَمِنْ قُوَّته أنَّه اقْتَلع قُرَى قَوْم لُوطٍ مِنَ

وفي رواية: «وإنّ ما حرّم رسولُ الله ﷺ كما حَرّم الله[1]؛ ألا لا يحلّ لَكُم الحِمارُ الأهْليُّ، ولا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّباع، ولا لُقَطَة مُعَاهِدٍ، إلا أنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْها صَاحِبُها، ومَنْ نَزَلَ بقَوْمٍ فعَلَيْهِمْ أنْ يَقْرُوهُ، فَإنْ لَـمْ يَقْرُوه فَلَهُ أنْ يُعْقِبَهُمْ بمثْلِ قِرَاهُ».

وعن أحمدَ بنِ حَنْبل ومُسلم وابنِ مَاجَهْ عن طَلْحَةَ بن عبيد الله، قال: مَررتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بِقَومٍ على رُؤوسِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «مَا يَصْنَعُ هَؤُلاءِ»؟ قالوا: يُلَقِّحُونَه، يجْعَلونَ الذَّكَرَ مَع الأُنْثى، فَقَال رَسُولُ الله ﷺ: «مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذلِكَ شَيْئًا»، فأُخْبِرُوا بذلِكَ، فتَرَكُوهُ، فأُخبِرَ رَسُولُ الله ﷺ فقال: «إنْ كَانَ يَنْفَعُهُم فلْيَصنَعُوهُ، فإنِّي إنّما ظَنَنْتُ ظَنًّا فلا تُؤَاخِذُونِي بالظَّنِّ، ولكِنْ إذَا حَدَّثْتكُم عَن الله بشَيْءٍ فخُذُوا بِهِ، فَإنِّي لا أَكْذِبُ عليه»[2]، وفي رواية أحمدَ[3]: «إذا كَانَ شَيْئًا مِن أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَشَأْنُكُم به، وإذا كَانَ شَيْئًا مِنْ أَمْر دِينِكمْ فإليَّ»[4].

وفي رِوايةٍ أُخرَى: «والظَّنُّ يُخطِئُ ويُصِيبُ»[5]، والله أعلم.

قوله: (﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ ملَكٌ شَديدٌ قُواهُ) الرَّاغِب: قال تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ يَعني به جِبْرِيلَ عليه السَّلامُ، وَوَصفَهُ بالقُوَّةِ عِنْدَ ذِي العَرْشِ، فأفرد اللَّفظَ ونكَّره تنبيهًا على أنه إذا اعتُبِر بالملأ الأعلى فقوَّتُه إلى حدٍّ ما، وقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ فإنَّهُ وصَفَ القُوَّة بلفظِ الجَمْعِ، وعرَّفَها تعريفَ الجِنْسِ، تنبيهًا أنَّه إذا اعتُبِرَ بهذا العَالَمِ، وبالَّذِينَ يَعْلَمُهم ويُفيدهم هُو كَثيرُ القُوى عظيمُ القُدْرةِ[6].

---

(١) وإن ما حرَّم رسول الله كما حرم الله رواية الترمذي، وبقية الحديث إلى آخره رواية أبي داود.

(٢) مسلم (٢٣٦١)، وابن ماجَهْ (٢٤٧٠).

(٣) في «المسند» (٦: ١٢٣) من رواية عائشة رَضِيَ الله عنها.

(٤) من قوله: «وفي رواية» إلى هنا ساقط من (ف).

(٥) هذه رواية أحمد في «المسند» كذلك (١: ١٦٢) عن طلحة بن عبد الله.

(٦) «مفردات القرآن» ص٦٩٤.

المَاءِ الأسْوَد، وحَمَلَهَا عَلَى جَنَاحِه، وَرَفَعَها إلى السَّماء ثُمَّ قَلَبَها؛ وَصاحَ صَيْحَةً بِثَمُودَ فأَصْبَحُوا جَاثِمِين؛ وَكَان هُبُوطُه عَلى الأَنْبِياء وَصُعُودهُ في **أَوحَى مِنْ رَجْعَة الطَّرْف**، وَرَأى إِبْلِيْس يُكَلِّم عِيْسى عَليه السَّلام عَلى بَعْضِ عِقَابِ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ، فَنَفَحَهُ بِجَنَاحِه نَفْحَةً فَأَلْقَاهُ في أَقْصى جَبَلٍ بِالهِنْد.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: ذُو حَصَافَةٍ في عَقْلِه وَرَأْيِه، وَمَتَانَةٍ في دِيْنِه، **﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ فاسْتَقَامَ عَلى صُورَةِ نفسِه الحَقيقيّة** دُونَ الصُّورَة التي كَانَ يَتمثَّلُ بها كُلَّما هَبَطَ بِالوَحي، وَكَان يَنْزِلُ

قوله: (**في أَوْحَى مِنْ رَجْعةِ الطَّرْفِ**) أي: أسْرع.

قوله: (**﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: ذُو حَصافةٍ في عَقلِه**)، **الرَّاغِب**: المُرُور: المُضِيُّ والاجتِيازُ بالشَّيءِ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢] وأمْرَرتُ الحبْلَ: إذا فَتلتَه، والمَرِيرُ والمُمَرُّ: المَفتولُ، ومنه فُلانٌ ذو مِرَّةٍ، كأنَّه محكمُ الفَتْلِ[١].

ورُوي عن ابنِ عبَّاس: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾: ذو مَنْظَرٍ حَسنٍ[٢]، قال الطَّبريُّ[٣]: هو الصَّوابُ، يعني صِحَّةَ الجِسم وسلامَتَه مِن الآفاتِ، وإذا كان كذلكَ، كان قَويًّا، ومنه الحديثُ: «وَلَا ذِي مِـرَّةٍ سَـويٍّ»[٤]. وعن سعيد بن المُسيِّبِ: ذِي حِكْمةٍ، لأنَّ كـلامَ الحُكَـماءِ مَتينٌ.

قوله: (**﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ فاستَقام على صُورةِ نَفْسِه الحَقيقيّة**)، عن بعِضهم: استوى، أي: ارتفَعَ إلى السَّماءِ بعد أن عَلَّمه. وعن الحسَنِ: أنَّ الأفُـقَ أفُقُ المغرِبِ[٥].

---

(١) «مفردات القرآن» ص٧٦٣.

(٢) أخرجه الطَّبريُّ في «جامع البيان»: (٢٢: ٤٩٩).

(٣) «جامع البيان» (٢٢: ٤٩٩)، ونقل المصنِّفُ تلخيصَ كلام الطَّبريّ.

(٤) وتمام الحديث: «لا تحلُّ الصَّدَقة لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ سويٍّ». رواه أصحاب «السنن»، منهم التِّرمذي (٦٥٢)، وأبو دَاود (١٦٣٤)، وأحمد في «المسند» (٢: ١٦٤) من حديث عبد الله بن عمرو، ورواه النسائي (٥: ٩٩) رقم: (٢٥٩٧) وأحمد في «المسند» (٢: ٣٨٩) من حديث أبي هريرة، ورواه غيرهم من هذين الطريق ، ومن طُرقٍ أخرى غيرها.

(٥) المَرويُّ عن الحسن خلافُ ذلك، إذ ذكر السُّيوطيُّ في «الدر المنثور» (٦: ١٢٣) وعزاه لابن جرير وعبد بن حُميدٍ عن قَتَادة أنّه قال: وهو بالأفق الأعلى قال: قال الحسن: الأفق الأعلى أفق المشرق،=

في صُورَةِ دِحْيَةَ، وَذلِك: أَنَّ رَسُول الله ﷺ أحبَّ أَنْ يَرَاهُ في صُورَتِه التي جُبِلَ عَلَيها، فَاسْتَوى لَهُ في الأُفِقِ الأَعْلى وَهُو أُفُق الشَّمْسِ فَمَلأ الأُفقَ. وَقيلَ: **مَا رَآه أَحَدٌ مِن الأَنْبياء في صُورَتِه الحَقيقيَّة غَيْر مُحَمَّدٍ ﷺ مَرَّتَيْن: مَرَّة في الأَرْضِ، وَمَرَّة في السَّمَاء.**

﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ مِنْ رَسُول الله ﷺ ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ فَتعلَّق عَلَيه في الهَواء، وَمِنْه: تَدلَّت الثَّمَرةُ، وَدلَّى رِجْليهِ مِنَ السَّرِيْر، والدَّوَالي: الثَّمَرُ المُعَلَّقُ. قال:

تَدَلَّى عَلَيْها بَينَ سِبٍّ وَخَيطةٍ

قال أبو البَقَاء: ﴿ وَهُوَ ﴾ مبتدأٌ، ﴿بِٱلْأُفُقِ﴾ خَبرُه، والجملةُ حالٌ من فاعلِ «اسْتَوى»، وقِيلَ: هو مَعْطوفٌ على فاعلِ ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾، وهو ضعيفٌ، إذ لو كانَ كَذلِكَ لَقالَ: استوى هو، وعلى هذا يكون المعنى: فاسْتَويا بالأفُقِ، يعني مُحمدًا وجبريلَ صلواتُ الله عليهما[1].

قوله: (**مَا رآه أحدٌ مِنَ الأنبياء**) الحديثُ مِنْ رواية التِّرمذيِّ[2] عن مَسروقٍ عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها في حديثِ مَنْ أَخبرَ أَنَّ مُحمدًا رأى ربَّه فقد أَعْظَمَ الفِريةَ، لكنَّه رأى جِبْريل، لم يرَهُ في صورَتِه إلَّا مَرَّتينِ، مرَّةً عِندَ سِدرَةِ المُنتهَى، ومرَّةً في أجياد له ستُّ مِئةِ جَناحٍ قَدْ سدَّ الأُفقَ.

قوله: (﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ مِنْ رسول الله ﷺ ﴿فَتَدَلَّىٰ ﴾) فتعلَّق عليه في الهواء، أي: جبريلُ على محمد صلواتُ الله عليهما، يعني أراد الدُّنُوَّ فتدَلَّى.

قوله[3]: (**تدلَّى عليها بين سِبٍّ وخَيطَةٍ**) أنشد الجَوْهريُّ، تمامه لأبي ذُؤَيب:

بِجَرْداءَ مِثلِ الوَكْفِ يَكْبُو غُرابها

= وانظر: «جامع البيان» للطبري (٢٢: ٦٠) كذلك، ومثل هذا القول مرويٌّ عن ابن عبّاس رَضِيَ الله عنهما أنه قال: وهو بالأفق الأعلى: مطلع الشمس.

(١) «إملاء ما مَنَّ به الرحمن»: (٢: ٢٤٦)، وجاء في بداية كلامه: قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ﴾ أي فاستقر، وهو مبتدأ، و﴿بِٱلْأُفُقِ﴾ ..إلخ.

(٢) في «جامعه» برقم (٣٢٧٨).

(٣) من قوله: «فتَعلّق» إلى هنا ساقِط من (ح).

وَيُقال: **هُو مِثْلُ القِرِلى**، إنْ رأى خَيرًا تَدَلَّى، وإنْ لَم يَرهُ تولَّى.

﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مِقْدار قَوْسين عَرَبيَّتَين: والقَابُ والقَيْبُ؛ والقَادُ والقَيْدُ، والقَيْسُ: والخَيطة في الوَتَد[١].

قال أبو عَمرٍو: وهو حَبْلٌ لطيفٌ يُتَّخَذُ من السَّلبِ، وهو لِحاءُ شجرٍ يُعملِ منه الحِبَالُ، والسِّبُّ: الحبلُ، في لُغةِ هُذيلٍ، والوَكْفُ: النِّطْعُ، والجَرداء: الصَّخرة المَلساء، يَصِفُ مُشتَار العَسَلِ، والضَّميرُ في عليها للعسَلِ.

قوله: (هو مِثلُ القِرِلّى) قِرِلّى ـ بِكَسر القَافِ والرَّاءِ المهملة ـ ليس له ذِكرٌ في الأُصُول[٢]، وفي الحاشية: هُو طائِرٌ يَصيدُ السَّمَكَ، وإحدى رجليه أطْولُ.

قوله: (مِقدارُ قَوسين عَرَبيَّتَين) وفي «التَّيسِير»: كانت عُظماءُ العربِ، إذا أرادوا تَأْكِيدَ عهد وَتَوثيقَ عقدٍ لا يُنقَضُ، أحضَرَ المُتعاقِدَانِ قَوسَيهِمَا، فَجمعَا بَينهُما، وقَبَضَا عليهما، ونَزعَاهُما جَميعًا ورمَيا عَنهُما سَهمًا وَاحِدًا، يُشِيرانِ بِذَلِكَ إلى الاتِّحادِ الكُلِّيِّ، وكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ رِضا أحَدِهمَا رضا الآخَر، وسَخَطُ أحَدِهِمَا سَخط الآخَر، فَكَأَنَّهما قَالا: أَكَّدْنا المَحَبَّةَ وأَبْرَمْنا القُرْبَةَ[٣].

---

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الصحاح». والخَيطة في كلام هُذَيل: الوتدُ، وبه يستقيم المعنى.

(٢) جاء في «تهذيب اللغة» للأزهري، مادة (قَرل): قال: القِرِلَّى: طائرٌ، ومن الأمثال: «أَحْزَمُ من قِرِلى» و«أخطَفُ من قِرِلّى» و«أحذرُ من قِرِلّى»، لا يُرى إلّا مُرفرفًا على وجه الماء على جانب فيه، يهوي بإحدى عينيه إلى قعرِ الماء طمعًا، ويرفعُ الأُخرى في الهواء حَذرًا.
وهذا فقول المصنف ليس له ذِكرٌ في الأصول يبدو أنه يفتقر للاستقراء.
وجاء في «القاموس المحيط» (٤: ٣٧) مثل ما في «تهذيب اللغة»، وفي «لسان العرب» (١١: ٥٥٤): قال ابن برّي: القِرِلّى: «طائرٌ صغير الجرم سريع الغَوْصِ حديد الاختطاف، لا يُرى إلّا مرفرفًا على وجه الماء...».
ومن الطَّريف أن المصنف قد استشهد بكلام لبنت الخسّ في أوائل سورة الواقعة، وبنت الخسّ معروفةٌ بالفَصاحة وهي من نُقِل عنها أنّها قالت: السجع السابق فتأمل!!

(٣) ذكر الثَّعْلبي في «الكشف والبيان» (٩: ١٣٩) قريبًا مما ذكره المصنِّف. وذكره الشِّهاب الخَفاجي في «حاشيته» على «البَيْضاوي» (٨: ١١٠) دون عَزوٍ.

المِقْدَار. وقَرَأَ زَيْدُ بنُ عَلِيٍّ: (قَاد)، وقُرِئَ: (قِيْدَ) وَ(قَدْرَ). وَقد جَاء التَّقْدِير بالقَوْسِ والرُّمح، والسَّوْطِ والذِّرَاعِ والبَاعِ وَالخُطْوَةِ والشِّبْرِ والفِتْرِ والأُصْبُع، ومِنه: «لا صَلاةَ إلى أنْ تَرْتَفِعَ الشَّمْسُ مِقْدَارَ رُمحَين».

وَفي الحَديث: «لَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ وَمَوضِعُ قَدِّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وَمَا فِيْهَا»، وَالقدُّ: السُّوطُ. وَيُقَال: بَيْنَهما خُطُواتٍ يَسيْرةٍ. وَقَال:

وَقَدْ جَعَلَتْني مِنْ حَزِيمَةَ أُصْبُعَا

وفي «مَعَالِمِ التَّنزِيل»: قال مُجَاهِد: مَعناه: حَيثُ الوترُ منَ القَوْسِ.

وَهِيَ إشَارَةٌ إلى تَأْكِيدِ العَرَب، وَأَصْلُهُ أَنَّ الحَلِيْفَيْنِ كَانَا إِذَا أَرَادَا عَقْدَ الصَّفَاء أَخْرَجَا بقَوْسَيْهِمَا وألصقا بينهما، يُرِيْدَانِ بِذَلِكَ أنَّهما مُتَظَاهِرَان يُحَامِي كُلّ وَاحِدٍ مِنْهما صَاحِبَه[1].

قوله: (الفِتْرُ) الجَوْهَرِيُّ: الفتر: ما بين طَرَفي السَّبَابة والإِبْهامِ إذا فتَحهما.

قَوله: (لَقابُ قَوسِ أَحدِكم) روى أبو هُريرَة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ في الجَنَّةِ شَجَرةً يَسِيْرُ الرَّاكِبُ في ظِلِّهَا مِئَة سَنةٍ، واقْرؤوا إنْ شِئتُم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾، ولَقَابُ قَوْس أَحدِكُم في الجَنَّةِ خَيْر مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْه الشَّمْسُ أوْ تَغْرُب». أخرجه البُخاريُّ ومسلمٌ والتِّرمِذي[2].

قوله: (وَقَدْ جَعَلَتْنِي مِنْ حَزِيمَةَ أُصْبُعَا) أوله:

فـأَدْرَكَ إِبْقَاءَ العَـرادة ظَلْعُها

البَيْتُ لأبي الأَسْوَد[3]، حَزِيمة ـ بالحاء المُهْمَلة وبفتحها وكَسْر الزَّاي ـ: اسْم قَبِيلةٍ،

---

(١) «معالم التَّنزيل» للبَغَوي (٤: ٣٠٣).

(٢) البُخَاريُّ (٣٠٨٠)، ومُسلمٌ (٢٨٢٦)، وهذا اللفظ عند الترمِذي بروايتين منفصلتين، انظر رقم (٣٢٩٢) و(١٦٥١).

(٣) نَسبه الزَّمَخْشري في «المفصّل» ص١٠٧ إلى الأسود، وليس إلى أبي الأسود، فكأن الزَّمَخْشري أراد: الأسْود بن يَعْفَر، ومع ذلك فقد خُولِف في نسبة هذا البيت إلى الأسود، فقد نسب الأكثرون هذا =

فإنْ قُلتَ: كَيف تقدير قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾؟

قلت: تقديره: فكانَ مِقدَارُ مَسافَة قُربه مِثْل قَابِ قَوسين، فَحُذِفت هذه المُضَافَات كما قال أبو علي في قوله:

وقد جَعَلَتْني من حَزِيْمَةَ أَصْبُعًا

أي: ذا مِقْدار مَسَافة أَصْبُعٍ.

﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي على تَقْديركُم، كقولِه تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]. ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ إلى عبد الله، وإن لم يجر لاسمِه عزّ وجَلّ ذِكْر، لأنَّه لا يُلبِس؛ كقوله: ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ تَفْخِيم للوَحي الّذي أوْحي إليه: **قيل: أوحِي إليه أنّ الجنَّة مُحرّمةٌ على الأنبياء حتّى تدخُلَها، وعلى الأُمَمِ حتّى تَدْخُلَها أمَّتُك.**

عَرَادَة: اسم فرَسٍ، وظَلْعُ: وجَعُ الرِّجْلِ، ومعنى أبقاها: أنَّ من عَادةِ عِتاقِ الخيل أن لا يُعْطي ما عِندَه مِنَ العَدْوِ، بل يُبقِي شَيْئًا مِنهُ بعدَ شَيءٍ، لوقت الحاجةِ إليهِ، ومفعولُ إبقاء مَحذوفٌ، أي: ذخيرتها.

يقول: أَوصلتني عَرادةُ إلى العَدُوّ الذِّي هُو حَزِيمةُ، وَبقي بَيني وَبَيْنَه قَدْر مَسَافَة أُصبُعٍ، عَرَض لِمَا ادَّخرَت مِنَ العَدْوِ الظَّلعُ، فَفَاتَ مِني وهَرَبَ.

قوله: (**قيل: أُوحِيَ إليه أنَّ الجَنَّةَ مُحرَّمةٌ عَلى الأنبياءِ حَتَّى تَدْخُلَها**)، رُوِّينا عن مُسلم عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «آتِي بَابَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ فأَسْتَفْتِحُ، فيقولُ الخَازِنُ: مَنْ أنْتَ؟ فأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فيَقُول: بكَ أُمِرْتُ أَنْ لا أفتَحَ لأحَدٍ قَبْلَكَ»[1].

= البيت إلى الكَلْحَبة اليربوعي، كما في «المفضليات» للمُفضَّل الضَّبِّي ص٣٢، و«أنساب الخيل» للكَلْبي ص٤٠، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي ص٣٩١.

(١) مسلم (١٩٧).

﴿مَا كَذَبَ﴾ فؤادُ محمّدٍ ﷺ ما رَآه بِبَصرِه من صُورة جِبْريل علَيه السّلام، أي: ما

قوله: (﴿مَا كَذَبَ﴾ فؤادُ محمَّدٍ صَلوات الله عليه ما رَآهُ ببصرِه من صُورةِ جبريلَ عليه السَّلام) وَاعلَمْ أَنَّ السَّلفَ والخلفَ اختلفوا في أنَّه: هل رأى النَّبيُّ ﷺ رَبَّه ليلةَ الإسراءِ أم لا؟

رُوِّينا عن مسلم والتِّرمذيِّ عن ابن عبَّاس قال: رآهُ بِفُؤادِهِ مرَّتينِ(١)، وَفي رِوَايَةِ التِّرمذيِّ قَال: رَأى محمَّدٌ صَلواتُ الله عليه ربَّه تعالى. قال عِكرِمَةُ: قلتُ: أليس الله يقولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾؟ [الأنعام:١٠٣] قال: وَيحكَ، ذاكَ إِذَا تَجلَّى بِنُورِهِ الَّذي هو نُورُه، وَقَد رأى رَبَّه مَرَّتينِ(٢). وَفي أُخرَى له(٣): ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾. قال ابنَ عبَّاس: قد رآهُ النَّبيُّ ﷺ.

وَفي أُخرى له(٤): ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، قَال: رَآهُ بِقَلبِه. وعن مُسلم والترمذيِّ عن عَبد الله بن شقيقٍ قلتُ لأَبي ذَرٍّ: لَوْ رأيتُ رسولَ الله ﷺ كنتُ أسألهُ: هَلْ رَأيتَ ربَّكَ؟، قال أبو ذَرٍّ: قَد سألتُه فقال: «نُورٌ، أَنَّى أَرَاهُ؟!»(٥)

وزاد الإمامُ أحمدُ بنُ حَنْبلٍ: «نوراني أراه»، يَعْنِي: عَلى طَرِيق الإيجاب(٦).

وعن التِّرمذي(٧) عن الشَّعْبيِّ قَال: لَقيَ ابنُ عَبَّاسٍ كَعْبًا بِعَرفةَ، فسألهُ عن شيءٍ فكبَّر حَتَّى جَاوَبتْهُ الجِبالُ، فقال ابنُ عَبَّاسٍ: إِنَّا بَنو هَاشم، فَقَال كعبٌ: إنَّ الله قَسم رُؤيَتَهُ وكَلامَه بين محمَّدٍ ومُوسَى صلوات الله عليهما، فكلَّمَ مُوسى مَرَّتَين ورآهُ مُحمَّدٌ مرَّتَينِ، قال مَسْرُوقٌ: فدخلتُ على عائِشَةَ رَضِيَ الله عَنها فقلتُ: هل رأى مُحمَّدٌ صلواتُ الله عليه رَبَّهُ تعالى؟

---

(١) انظر: مسلم (١٧٦).

(٢) التِّرمذي (٣٢٧٩). وقال: حديثٌ حسن غريب من هذا الوجه.

(٣) الترمذي (٣٢٨٠) وقال: هذا حديثٌ حسن.

(٤) الترمذي (٣٢٨١) وقال: هذا حديثٌ حسن.

(٥) مسلم (١٧٨)، والتِّرمذي (٣٢٨٢) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ.

(٦) «مسند الإمام أحمد»: (٥: ١٥٧). وهذا في بعض نسخِ «المسند» لا كلِّها، وقيل: إنها تصحيفٌ.

(٧) الترمذي (٣٢٧٨) وزاد في سياقه عما هنا.

....

فقالت: لَقَدْ تكلَّمتَ بشيءٍ قفّ لَهُ شَعْري، قُلتُ: رُوَيْدًا، ثُمَّ قرأتُ: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾، فقالت: أين يُذهب بك؟ إنَّما هُو جبريل، من أَخبرك أَنَّ محمَّدًا رأى رَبَّهُ، أو كتَم شيئًا مِمَّا أُمرَ به، أو يعلم الخَمْسَ الَّتِي قال الله تَعَالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان: ٣٤]، فقَدْ أعْظَمَ الفِرْيةَ.

وعَنِ البُخَارِيِّ[١] عن عائِشَةَ رَضِيَ الله عنها قالت: من حَدَّثَكَ أنَّ مُحَمَّدًا رَأى رَبَّه فَقَد كَذبَ... الحديث. وَفي «شَرْح صَحِيح مُسلم» للإمَـام المُتقِن أفْضَـلِ المتأخِّـرينَ، مُحْيِي الدِّين النَّوَاوِي رحمه الله: «قال القَاضِي عِياض[٢]: اختَلَف السَّلَفُ والخَلَفُ: هَل رَأى نبيُّنا صلَواتُ الله عليهِ رَبَّه ليلةَ الإسرَاءِ؟ فَأَنْكَرَتهُ عائشةُ، وهو المشهورُ عن ابنِ مَسعودٍ، وإليهِ ذهب جماعةٌ من المُحدِّثِينَ والمُتكَلِّمِينَ، ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه رأى بعينه، ومثله عن أبِي ذَرٍّ وكعبٍ والحسنِ، وكانَ يحلِفُ على ذلك، وحُكِيَ مثلهُ عن ابنِ مسعودٍ وأبي هُريرة وأحمد بنِ حنبل.

وحكى أصحابُ المقالات عن أبي الحَسن الأشْعَرِيِّ وجماعةٍ من أصحابِه أنَّه رَآهُ، ووقفَ بعضُ مَشايِخنا، وقال: ليس عليه دليلٌ واضِحٌ، ولكنَّه جَائزٌ.

ورُؤيةُ الله تَعالى في الدُّنيا جَائزة، واخْتلَفُوا أنَّ نبيَّنا صلواتُ الله عليه هل كَلَّم رَبَّه سبحانه وتعالى ليلةَ الإسراءِ بغيرِ واسطةٍ أم لا؟ فحُكِيَ عن الأشعَرِيِّ وقوم من المُتكلِّمين أنَّه كلَّمهُ، وعَزَى بعضُهُم إلى جَعفرِ بن مُحمَّدٍ وابنِ مسعُودٍ وابْنِ عبَّاسٍ، وكذَٰلِكَ اختَلَفوا في قَوْلِه: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾، فالأكثَرونَ على أنَّ هذا الدُّنوَّ والتَّدلِّيَ مُقَسَّمٌ ما بين جِبريلَ والنَّبيِّ ﷺ، وعن ابنِ عَبّاسٍ والحسن ومُحمَّدِ بنِ كَعبٍ وجَعْفر بنِ مُحَمَّدٍ وغيرِهم أنَّه دُنوٌّ مِنَ النَّبيِّ ﷺ إلى ربِّهِ، أو منَ الله تَعالى، والدُّنوُّ والتَّدَلِّي عَلَى هَذا مُتأَوَّلٌ، ليس على وَجهِهِ.

قَال جَعفرُ بنُ محمَّدٍ: الدُّنوُّ مِنَ الله لا حدَّ لهُ، وَمنَ العِبَاد بِالحُدُودِ، فدنُوُّهُ صلواتُ الله علَيه وسلامه من ربِّهِ عزَّ وجَلَّ قُربُهُ منه، وظُهورُ عظيمِ منزلَتهِ لديه، وإشراقُ أنوارِ معرفتِه

---

(١) البخاري (٤٥٧٤).

(٢) أي: في كتابه «إكمال المعلم»، وانظره (١: ٣٤٣).

عليه واطِّلاعِه على أسرارِ مَلكوتِه وغَيبِه، بما لم يطَّلِعْ عليه سِواهُ، والدُّنُوُّ مِنَ الله تَعالى إظهارُ ذلك واتِّصالُ عَظيمِ بِرِّهِ وفَضلِه إليه، وَ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ على هذا عِبارةٌ عن لُطفِ المحلِّ وإيضَاحِ المَعْرِفَةِ والإشراف على الحَقِيقة مِنْ نبينا صلواتُ الله عليه، ومن الله إجابةُ الرَّغبةِ وإبانةُ المَنزلةِ، ونحوهُ في قوْلِه صلوات الله عليه حكايةً عن ربِّهِ: «من تقَرَّبَ مِنِّي شِبرًا تقرَّبتُ منهُ ذراعًا». هذا آخرُ كلامِ عِياضٍ[١].

وأمّا صاحبُ «التَّحْرِيرِ»[٢] فإنَّه اخْتَار إثباتَ الرُّؤيةِ، قَال: والحُجَجُ في هَذِه المسألةِ، وإن كانت كَثيرةً، لكنّا لا نتمسَّكُ إلا بالأقْوى، منها: حديثُ ابن عباس: أتَعجبُون أن تكونَ الخلَّةُ لإبراهيم، والكلامُ لموسى، والرُّؤية لمحمدٍ صلوات الله عليهم[٣]!

والأصل في البابِ حديث ابن عبّاس حَبْر الأمّة، والمَرْجُوع إليه في المُعْضِلات، وقد راجَعه ابنُ عمر في هذهِ المسألة: هَل رَأى مُحمّد صَلَوات الله عَلَيه رَبَّهُ؟ فَأخْبَره أنّه رَآهُ، وَلا يَقْدَحُ في هَذا حَدِيثُ عَائِشةَ، لأنَّ عَائِشةَ رَضِيَ الله عنها لَـمْ تُخبِر أنَّها سَمِعَتْ مِن النَّبي ﷺ يَقُول: «لَـمْ أرَ رَبي»، وإنَّما ذكَرَتْ مَا ذَكَرتْ مُتأوِّلةً، لقولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٥١] الآية، ولقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، والصَّحَابيُّ إذا قَال قَوْلًا وخَالَفَه غيرُه منهم، لم يكن قولُه حُجَّةً، وإذَا صَحَّت الرِّوَاياتُ عَنِ ابنِ عَبَّاس في إثْبَاتِ الرُّؤْيةِ وجَبَ المَصِيرُ إلى إثْباتِها، فإنها لَيْسَتْ مِمَّا يُدرك بالعَقلِ، ويُؤخَذ بالظَّنِّ، وإنَّما يُتَلقَّى بِالسَّماعِ، وَلا يَستَجِيزُ أحدٌ أَن يظنَّ بِابنِ عَبّاسٍ أنّه تكلَّم في هذِه بالظَّنِّ والاجْتِهَادِ.

وَقَد قال مَعْمَر بن راشد حِينَ ذكر اخْتلَاف عَائِشةَ وابنِ عَبَّاس: مَا عَائِشةُ عندَنا بأعْلَمَ من ابنِ عَبَّاس، ثُمَّ إنَّ ابنَ عَبَّاسٍ أثْبَتَ شَيْئًا نَفَاه غَيرُه، والمُثْبِتُ مُقدَّمٌ عَلى النَّافي. هذا كَلامُ صَاحِب «التَّحرير».

---

(١) انظر ما مرَّ كله في: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (١: ٤١٦-٤٣٧) بشرح القاري.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الأصبهاني، المعروف بقوّام السُّنة، وكتابه المشار إليه هو «التحرير بشرح صحيح مسلم». انظر: «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٤: ١٢٧٧) فما بعدها.

(٣) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٣٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٤٢).

....

فَقَال الشَّيخ مُحيي الدِّين رحمه الله: «الحَاصِلُ أنَّ الرَّاجِحَ عِنْدَ أكثرِ العُلماءِ أنَّ رسولَ الله ﷺ رأى رَبَّه بِعَينَيْ رَأسِه لَيلةَ الإسراء، وإثباتُ هذا ليس إلا بالسَّماعِ مِن رَسُولِ الله ﷺ، هَذَا مِمَّا لا يَنبغِي أن يُشكَّكَ فِيهِ، ثُمَّ إنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عنها لَـمْ تَنْفِ الرُّؤيَةَ بِحَدِيثٍ، وَلَو كَان مَعَها حَدِيثٌ لَذَكرتهُ، وإنَّما اعْتَمدت على الاسْتِنْبَاطِ مَن الآياتِ. أمَّا احْتجَاجُها بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فَجَوابُهُ أنَّ الإدْرَاكَ هُوَ الإحَاطَةُ، وَالله تَعالى لَا يُحَاطُ بِـهِ، وإذَا وَرَدَ النَّصُّ بِنَفْيِ الإحَاطَةِ لَا يَلْزَم مِنهُ نَفْيُ الرُّؤيَةِ بغَيْرِ إحَاطَةٍ، وبِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ الآية، فَجَوابُه أنَّه لا يَلْزَمُ مِنَ الرُّؤيَةِ وُجُودُ الكَلَامِ حَالَ الرُّؤيَةِ فيجُوزُ وُجُودُ الرُّؤيَةِ مِنْ غَيْرِ كَلامٍ، أو أنَّه عَامٌّ مَخْصُوصٌ بِما تَقَدَّم منَ الأدِلَّةِ.

وقَال ابنُ عَبَّاس: وَعلى هَذا مَعْنَى ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، تَعُود إلى النَّبيِّ ﷺ، فقد كَانَتْ لَه عَرَجَاتٌ في تِلْكَ اللَّيلة لاسْتِحطَاطِ عَدد الصَّلواتِ، وكُلُّ عرجَةٍ: نَزْلةٌ» تَمَّ كَلامُه(١).

وفِي «التَّفْسيرِ الكَبيرِ»: واعْلَم أنَّ مَنْ يُنْكِرُ جوازَ رُؤيةِ الله يَلْزَمُه أنْ يُنْكِرَ رُؤْيَةَ جِبْرِيل، وفيه إنْكَارُ الرِّسَالةِ، وهُوَ كُفْرٌ. ثُمَّ إنَّ النُّصُوص وَرَدَتْ أنَّ مُحمَّدًا صَلوات الله عَلَيهِ رَأى ربَّه بِفُؤادِهِ، وجُعِلَ بَصرُهُ في فُؤَادِهِ، أَوْ رآهُ بِبَصَرِهِ وَجُعِل فُؤَادُه في بَصَرِه، وَكَيف لا؟ ومذهبُ أهـلِ السُّنَّةِ: الرُّؤْيةُ بالإراءة لا بِقُدْرَةِ العَبْدِ، فإذا حَصَّـل الله تَعالى العِلْمَ بِالشَّيْءِ مِنْ طَرِيقِ البَصَر كَانَ رُؤْيةً بالإراءة، وَإنْ حَصل مِنْ طَرِيق القَلْبِ كان مَعْرِفَةً، والله تَعالى قادِرٌ عَلى أن يُحَصِّلَ العِلْمَ بِخَلْق مُدْرِكٍ للعُلوم في البَصَـرِ، كَما قَدر أن يُحصِّله بِخلْق مدرك للعُلوم في القَلْب. والمسألةُ مُـخْتَلَفٌ فِيها بين الصَّحابةِ(٢)، واخْتِلافُ الوُقُوعِ مِمَّا يُنبِئُ عن الاتِّفَاقِ على الجَوازِ، والله أعلم(٣).

---

(١) «شرح صحيح مسلم» للنووي (٣: ٤-٦).

(٢) هذه من نَوادِر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الصَّحابة رضوان الله عليهم في مسألةٍ من مسائل العقيدة، ولم يكفِّر بعْضُهم بعضًا فيها!! ولهذا فالإلزام المذكور عن الرَّازي في هذه المسألة بتكفير من يُنكر الرؤية غيرُ صوابٍ والله أعلم.

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٧: ٤١٣).

....

وأمَّا اقْتِضَاء النَّظْم فإن مجرى الكَلام إلى قَوله: ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾، مِنْ أمرِ الوَحْيِ، وتَلقِّيهِ من الملِك، ودَفْعِ شُبَهِ الخُصُوم، ومِنْ قَوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ عَلى أمرِ العُرُوج إلى الجَنَابِ الأقْدَسِ، والضَّمِير في: ﴿أَوْحَىٰ﴾ لله تَعالى، و﴿عَبْدِهِۦ﴾ مِنْ إقامَة المُظْهَر مَوْضِع المُضْمَرِ، لتَصحيحِ نِسبةِ القُرْب، وتَحْقِيق معنى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]. ولا يَخفَى على كُلِّ ذِي لُبٍّ إباء مَقَام ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ الحَمْلَ عَلى أنَّ جِبْرِيل أَوْحَى إلى عَبْدِ الله ما أَوْحَى، إذ لا يَذُوقُ منه أربابُ القُلوب إلا معنى المُنَاغاة[1] بين المُتسارِّين، ومَا يَنْطَوي عِنْده بساطُ الوَهْم، ولا يُطيقه نَطاقُ الفَهم، وكَلمةُ ﴿ ثُمَّ﴾ على هَذا مُنَزَّلةٌ عَلى التَّراخِي بَيْنَ المَرتَبتَيْن، والفَرْقِ بَينَ الوَحيَيْن؛ وَحْيٍ بواسِطَةٍ وتَعْليم، وآخرَ بغيرِ واسِطَة لجهة التَّكريم، فَيَحْصُل عِنْده التَّرَقِّي مِنْ مَقَامِ ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات: ١٦٤] إلى مَخْدَع ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾.

وروى السُّلَمي عَنْ جَعفَر بن مُحمّد: أدْنَاه مِنْه حَتَّى كَان منه كَقَابِ قَوْسَيْن، والدُّنُوُّ مِنَ الله لا حَدَّ لَهُ، والدُّنُوُّ مِنَ العَبْدِ بالحدود، ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ قَالَ: بِلَا وَاسِطَة فَيما بَيْنَه وبَيْنَه، سِرًّا إلى قَلْبِه لا يَعْلم بِهِ أَحَدٌ سِوَاه، بِلا واسطةٍ إلا في العُقْبَى حَتَّى يُعْطِيَه الشَّفَاعَةَ لأمته[2].

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ أَيْ كَان ما كان وجَرَى مَا جَرَى.

وذَكَر الشَّيْخ أَبو القَاسِم القُشَيْري فِي «مَفَاتِيح الحُجَج»: أَخْبَرَ الله تَعالى بِقَوْله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ أنّه صَلَوَات الله عَلَيْه بَلَغَ مِنَ الرُّتْبةِ والمَنْزِلَةِ القَدرَ الأَعْلى ممَّا لا يَفْهَمُه الخَلْقُ، ثُمَّ قالَ: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ ﴾، أَيْ: جَلَّ فَوْقَ ذَلِكَ[3].

قَال شَيْخُنا شَيْخُ الإسلام أبو حَفْص السُّهْرَوَرْدِي قدَّس الله سرَّه: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ إِخْبَارٌ عَنْ حَاله صَلواتُ الله عَلَيه بوصفٍ خَاصٍّ، فكَانَ ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ حَالَهُ فِي طَرَفِ

---

(١) والمناغاة: تكليم الصبي بما يهوى من الكلام، كما في «العين» للفراهيدي (٤: ٤٥١) وغيره.

(٢) انظر: «حقائق التفسير» للسلمي (٢: ٢٨٤).

(٣) انظر هذا النقل في: «إرشاد الساري» للقسطلاني (٧: ٣٦٠).

....

الإِعْراضِ، وفي طرفِ الإقبالِ تَلَقَّى مَا وردَ عليه في مقامِ قاب قوسينِ بالرُّوحِ والقلبِ، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ حاله فِي الفِرَارِ من الله حَياء إلى مَطاوِي الانكسار لئلَّا تَنْبَسِط النَّفسُ فَيطغَى، وقال: فِيه وَجهٌ آخرُ أَلطَفُ مِنهُ: أنّه ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ حَيثُ لم يَتَخلَّف عنِ البصيرة وَلَم يَتقاصَرْ، و«مَا طَغَى» لَم يسبِق البَصِيْرة فَيَتَجاوَزَ حَدَّه، ويَتَعدَّى مَقَامَه، فَلَمْ يَزَلْ صَلَواتُ الله عليه مستحلس حجاله، في خَفارة أدَبِ حَاله، حَتَّى خَرَقَ حُجُبَ السَّماواتِ فَانْصَبَّتْ إليه أقْسَامُ القُرَبِ انْصِبَابًا، وَانْقَشَعَتْ عَنهُ حُجبُ الحُجُبِ حِجَابًا حِجَابًا، حَتّى اسْتَقَام عَلى صِرَاطِ ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾، فَمَرَّ كالبَرْقِ الخَاطِفِ، إلى مَخْدَعِ الوَصْلِ واللَّطَائِفِ، وَهَذَا غَايةُ الأَدَبِ، ونَهايَةُ الأرب[١].

وقال أَبُو العَبّاس بن عَطاء: لم يرَهُ بِطُغْيانٍ يَمِيْل، بَلْ رَآهُ عَلى شَرْطِ اعْتِدَالِ القُوَى.

وقال سَهْلُ بنُ عَبْدِ الله التُّسْتَرِيُّ: لم يَرجِع رَسُولُ الله ﷺ إلى شَاهِدِ نَفسِهِ، وَلا إلى مُشَاهَدَتِها، وإنَّما كَانَ مُشَاهِدًا بِكُلِّيَّتِهِ لرَبِّهِ، يُشاهد ما يَظْهر عليه من الصِّفَاتِ التي أَوجبتَ الثّبوتِ في ذلك المَحلِّ[٢].

وعَنْ «حَقَائِق» السُّلَمِيِّ، قَال الصَّادِقَ: لما قَرُبَ الحبيبُ مِن الحبيبِ بغاية القُرْبِ، نَالَتْهُ غَايةُ الهَيْبَةِ، فلاطَفَهُ الحَقُّ بغَايَةِ اللُّطفِ، لأنّه لا يَحْتمل غَايَةَ الهَيْبَة إلا غَايَةُ اللُّطْفِ، وذَلِك قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ أي: كَانَ مَا كَان، وجَرى ما جَرى، قَال الحبيبُ لِلحبيبِ مَا يَقُول الحبيبُ لِحَبِيبِه، وألطفَ له إِلْطاف الحَبِيْبِ لحَبِيبِه، وَأَسَرَّ إليه ما يُسِرُّ الحبِيبُ إلى حَبِيبِه، فَأخفَيَا وَلم يُطلِعا عَلى سِرِّهِما أحدًا[٣].

وقَال جَعفرٌ: لَا يَعْلَم مَا رَأى إلا الَّذي أُرِيَ، وَالَّذِي رُئِي صَار الحَبِيبُ إِلى الحَبِيبِ قَرِيبًا وله نَجِيًّا وَبِه أَنِيسًا، ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾[٤].

---

(١) «عوارف المعارف» ص ١٥١-١٥٣، طُبع ملحقًا في آخر «إحياء علوم الدين» للغزالي.

(٢) «تفسير التستري» ص١٥٦.

(٣) «حقائق التفسير» للسُّلَمي (٢: ٢٨٥).

(٤) المصدر السابق (٢: ٢٨٥).

قال فؤادُه لَمّا رآه: لم أعْرِفْك، ولو قَال ذلك لكانَ كَاذِبًا، لأنّه عَرَفه، يعني: أنّه رآه بِعينِه وعَرَفه بِقَلبِه، ولم يَشُكَّ في أنّ مَا رآهُ حقٌّ، وقرئ: (ما كَذَّبَ) أي صَدَّقَه ولم يَشُكَّ أنّه جِبريلُ عليه السّلام بِصُورَتِه.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ من المِرَاءِ وهو المُلاحَاةُ والمُجادَلة، واشْتِقَاقُه مِنْ مَرْيِ النَّاقَة، كَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ من المتجادلين يَمْرِي ما عند صاحبِه، وقُرِئ: (أَفَتَمْرُونَه) أَفَتَغْلِبُونَه في المِراء، من مَارَيْتُه فَمَرَيْتُه. ولِما فيه من معنى الغَلَبة عُدِّيَ بـ«على»، كما تقول: غَلَبْتُه على كذا: وقيل: (أفتمرونه): أفتَجْحَدونه. وأنشدوا:

لَئِنْ هَجَرتَ أخا صِدْقٍ وَمَكْرُمَةٍ لَقَـدْ مَرَيْتَ أخًا مَا كَانَ يَمْرِيكا

وقال السُّلمي: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾: البَصَرُ، وَهُوَ مُشَاهَدَةُ رَبِّـه كِفاحًا ببَصَرِهِ وقَلْبِه[1].

وَقَال ابنُ عَطَاء: ما اعْتَقدَ القَلْبُ خِلاف ما رَأَته العَين، وليسَ كل من رأى شيئًا مُكِّنَ فُؤادُهُ من إدرَاكِه، إذ العَيانُ قَد يظهَرُ فيَضطَرِبُ السِّـرُّ عن حمل الواردِ عليه، والرَّسُولُ ﷺ محمُول فيها فُؤادُهُ وعقلُه وحِسُّهُ ونظَرُه، وهذا يدلُّ على صِدقِ طَوِيَّتِه وحَمْلِه فِيما شُوهِد به[2].

قوله: (وقُرِئ: «مَا كَذَّبَ») قرأها هِشامٌ، وَالباقُون: بِتَخفِيفِها[3].

قوله: (مِنْ مَري النَّاقةِ) مَرَيْتُ النَّاقَةَ مَرْيًا: إذا مسحتَ ضَرعهَا لتدِرَّ، وأَمْرتِ النَّاقَةُ، إذا: دَرَّ لبنُها.

قوله: (وقُرِئ: «أَفَتَمْرُونَهُ») حمزة والكِسائي، والباقون: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾[4].

قوله: (لئن هجرت أخا صِدْقٍ) البيت، يقول: لَئِنْ هَجرتني، وَأنَا ذُو صِدقٍ ومَكْرُمةٍ، لقد جَحدتَ حَقَّ أخٍ وَفِيٍّ ما كان يَجحَدُ حَقَّكَ.

---

(١) «حقائق التفسير» للسُّلمي (٢: ٢٨٥).

(٢) المصدر السابق (٢: ٢٨٥).

(٣) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣١.

(٤) المصدر السابق ص١٣١.

وقالوا: يُقَال: مَرَيْتُه حَقّه: إذا جَحَدْتَه، وتَعدِيَته بـ«على» لا تَصِحُّ إلا على مذْهب التَّضمِين.

﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ مَرّةً أخْرَى من النُّزول، نُصِبَت النَّزْلة نَصْبَ الظَّرْفِ الَّذِي هُو مَرَّة، لأنَّ الفَعْلَة اسْمٌ لِلمَرَّةِ مِن الفِعْل، **فكانت في حُكْمِها**، أي: نزل عليه جِبريلُ عَليه السَّلام نزلةً أُخْرى في صُورةِ نفسهِ، فَرآه علَيها، وذلك ليلةَ المِعْراجِ.

قيل في سِدْرَةِ المُنْتهى: هِي شجرةُ نَبْقٍ في السَّماءِ السَّابعةِ عَن يمينِ العَرْشِ **ثَمرُها كقِلالِ هَجَر**، وَورقُها كآذانِ الفُيولِ، تَنْبُعُ مِن أصلِها الأَنْهارُ التي ذَكرها الله في كتابِه، يَسيرُ الرَّاكبُ في ظِلِّها سَبعينَ عامًا لا يَقْطعُها. وَالمُنتَهى: بِمعنى موضع الانتهاءِ، أو الانْتِهاء، كَأنَّها في مُنْتَهى الجَنَّةِ وآخرِها. وقيل: لم يُجاوِزْها أَحدٌ، وإليها يَنْتَهي علمُ المَلائكةِ وغيرِهم، وَلا يَعلمُ أَحدٌ مَا وَراءَها. وَقيل: تَنْتهِي إِليها أرواحُ الشُّهَداءِ.

﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾: الجَنَّةُ التي يَصيرُ إِليها المُتَّقُونَ، عن الحسن. وقيل: تأْوِي إِليها أرواحُ الشُّهداءِ.

قوله: (**فكانت في حُكْمِها**) أي: فَكانت النزلةُ في حُكِم المرَّةِ، الفاء نَتيجة التَّعليلِ، لتفسيرِ ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ بـ«مرَّةً أُخرَى».

قال أبوْ البقاء: المرَّةُ في الأصلِ: مصدرُ: مَرَّ يمُرُّ، ثُمَّ استُعْمِل ظَرفًا اتِّساعًا، وهَذا يدلُّ على قُوَّةِ شبه الزَّمانِ بالفِعل[1].

قوله: (**ثَمرُهَا كقِلالِ هَجَر**) في حديثِ المِعراجِ عنِ البُخَاريِّ ومُسلمٍ والنَّسائيِّ[2] عَن أَنس: «ثُمَّ ذُهِبَ بِي إلى سِدْرةِ المُنْتَهى، فإذا ورقُها كآذانِ الفِيلَةِ، وَإذا ثَمرُها كَالقِلَالِ، فَلَمَّا غَشَّاهَا من أَمرِ الله مَا غشّى، تَغَيَّرت، فما أحدٌ يَستطِيْعُ أَنْ يَنْعَتها من حُسْنِها».

---

(١) «إملاء ما منَّ به الرحمن» (١: ٢٥٤).

(٢) مُسلِم (١٦٢) أمّا روايتا البُخَاري (٣٢٠٧) والنَّسَائي في «السنن» (١: ٢١٧) فهما عن أنس، عن مالك بنِ صَعْصَعة، فكان يجب التَّفريق.

وَقرأ عليٌّ وابنُ الزُّبيرِ وَجماعةٌ (**جَنَّهُ المأوى**)، **أي: سَتَرهُ بِظِلالِهِ وَدَخَل فِيهِ**. وَعنْ عَائِشَةَ: أَنَّها أَنْكَرتْهُ وَقالَتْ: مَنْ قَرأ بِهِ فَأَجَنَّهُ اللهُ.

﴿**مَايَغْشَىٰ**﴾ تعظيمٌ وتَكْثيرٌ لِما يَغْشاهَا، فَقد عُلمَ بهذِهِ العِبارةِ أَنَّ مَا يَغشاها من الخلائِقِ الدَّالّة عَلى عَظَمَةِ الله وجلالِهِ: أَشياءُ لا يَكْتَنِهُهَا النَّعتُ ولا يُحيطُ بِها الوَصفُ. وقد قيل: يَغْشاها الجَمُّ الغَفِيرُ مِن المَلائِكةِ يَعْبُدونَ اللهَ عِندَها. وَعن رسول الله ﷺ: «رأيتُ عَلى كُلِّ وَرقةٍ مِن وَرقِها مَلَكًا قَائمًا يُسبِّحُ اللهَ». وعنه عليه الصَّلاة والسَّلام: «يَغشاها **رَفْرفٌ** مِن طيرٍ خُضْرٍ». وَعن ابن مسعودٍ وغيرِه: **يَغْشَاها فَرَاشٌ مِن ذَهَب**.

قولُه: (**«جَنَّهُ المَأْوَى»، أي: سَتَرهُ بظلالِه، وَدخل فيه**)، يعني: رسولَ الله ﷺ، سَتَرهُ المأوى ودَخل هو فِيه، قَال أَبو البقَاء: ويُقرأ: «جَنَّهُ» على أَنّه فِعلٌ، وهو شاذٌّ، والمُستعْملُ: أَجَنّهُ[1].

وقلتُ: ولهذا قَالت أمُّ المُؤمِنين: من قَرأ بِهِ فأَجَنَّهُ الله تعالى، أي: جعلَه مَجْنُونًا، أو جعلَه في الجَنَنِ، أي: القَبرِ، تقُول العَربُ: أَجَنَّ الله جِبلَّتَك، وأَجَنَّهُ الله، فهو مجْنُونٌ، من الشواذ.

قوله: (**رَفرفٌ**)، **النِّهاية**: الرَّفرفُ: البِسَاطُ، وقيل: ما كان من الدِّيباجِ وغيره رقِيقًا حَسنَ الصَّنْعة، ثم اتُّسِعَ فيه.

قوله: (**يَغْشاها فَراشٌ من ذهبٍ**) عن ابن مَسعودٍ قال: لما أُسريَ برسولِ الله ﷺ انتُهِي به إلى سدْرةِ المُنتهى، وإليها ينتهي ما يُعْرجُ بِهِ من الأرضِ، فيُقبضُ منها، وإليها ينتهي ما يَهبِطُ من فوقِها، فيُقبضُ منها، قال: ويَغشَى السِّدْرةَ ما يَغشَى، قال: فَراشٌ من ذَهبٍ[2]، أخرجه مُسلمٌ والتِّرمذيُّ والنَّسائيُّ[3].

---

(١) «إملاء ما مَنَّ به الرحمن» (٢: ٢٤٧).

(٢) من قوله: «عن ابن مسعود» إلى هنا ساقط من (ط) وأثبته من (ح) و(ف).

(٣) مُسلِم (١٧٣)، والترمذيُّ (٣٢٧٦) وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح، والنَّسائي (٤٥١).

﴿مَا زَاغَ﴾ بصــرُ رســولِ الله ﷺ ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي أثبت مـا رَأى إثبـاتًا مُستيْقِنًا صَحيحًا، من غيرِ أَن يَزِيغَ بَصرُه عَنه أو يَتجاوزَه، أَو مَا عَدَل عن رُؤيَةِ العَجائِب التي أُمِر بِرُؤيَتِها ومُكِّن مِنها، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾: ومَا جَاوز ما أُمِر بِرؤيَتِه.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ والله لقد رأى ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾ **الآيات التي هي كُبْراها** وعُظْماها، يعني: حين رُقيَ به إلى السَّماءِ فأُرِي عَجائِب المَلكُوت.

[﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ * إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ١٩ – ٢٣].

اللاتُ والعُزّىٰ ومناةُ: أصنـامٌ كانت لهم، وهي مؤنّثاتٌ؛ فاللّاتُ كانت لِثقيفٍ

قوله: (رأى ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾، **الآياتِ التي هي كُبْراها**)، قال أبو البقاء: ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ هي مفعولُ ﴿رَأَىٰ﴾، وقيل: هو نعتٌ لـ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾، والمفعول محذوفٌ، أي: شيئًا من آيات ربِّه الكبرى[1].

الانتصاف: ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ صفةٌ لـ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾ لا مفعول به، ويكون المَرئيُّ محذوفًا تعظيمًا له، ولأنَّ في الآياتِ ما لم يَرَهُ، وفيها ما رآه، وعلى الأوّلِ يكون مقتضاهُ أنّه رأى الآياتِ الكُبرى كلَّها على الشُّمولِ، فإنَّ آياتِ الله لا يحيطُ بها أحدٌ.

فإنْ قُلتَ: عامٌّ أُريدَ به الخصوصُ، قلتُ: فقد رَجعَ إلى الأوّلِ بعد تكلُّفٍ[2].

الإنصاف: ويجوزُ أن تكونَ ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ مُفردًا مفعولًا وجُعِلَ الإسراءُ وما رأى فيهِ من العجائبِ كالشَّيءِ الواحِدِ، فلا يَرِدُ عليه سُؤالُ صاحبِ «الانتصافِ»، وعلى هذا أوّل الزَّمخشريُّ قوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ الآية الكبرى من آياتِنا.

قوله: (**اللاتُ والعُـزّى ومـناةُ: أصنام**)، قال الـزَّجّاجُ: فلمّا قـصَّ هذه الأقـاصِيصَ،

---

(١) «إملاء ما من به الرحمن» (٢: ٢٤٧).

(٢) «الانتصاف» (٤: ٤٢١-٤٢٢).

بالطَّائِفِ. وقيل: كانت بنخْلةِ تعبدُها قريشٌ، وهي فَعْلَةٌ من لَوَى؛ لأنَّهم كانوا يلوُونَ عليها ويَعْكُفونَ للعبادَةِ. أو يَلتَوُونَ عليها: أي يطُوفونَ. وقُرِئ (اللاّتّ) بالتَّشديدِ، وزَعمُوا أنَّه سُمِّيَ برجُلٍ كان يَلِتُّ عِنْدَه السَّمنَ بالزَّيتِ ويُطعِمُه الحاجّ. وعن مجُاهِد: كان رجل يَلِتُّ السَّوِيقَ بالطَّائفِ، وكانوا يَعْكُفونَ على قبره، فجعلوه وثنًا.

قيلَ لهم: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ أي: أخبرونا عن هذه الآلهةِ التي تَعْبُدونَها من دُونِ الله، هل لها مِن هذه القُدرةِ والعَظمةِ التي وُصِف بها ربُّ العزَّةِ شيءٌ؟!(١)

قلتُ: ونظيرُ الآياتِ في هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [الرعد: ٣٣] إذ المعنى: أفالله الذي هو قائمٌ رَقيبٌ على كلِّ نفسٍ صالحةٍ وطالحةٍ بما كَسبتْ، يعلمُ خيرَه وشرَّه، كمن ليسَ كذلك!! أو لم يوحدوه وجعلوا له شُركاءَ!؟ إلى قوله: ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: بل أتسمُّونَهم شركاءَ بظاهرٍ من القَولِ، من غيرِ أن يكونَ لذلك حقيقةٌ، وهو معنى قوله: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ﴾ ويُمكنُ أنْ يُقالَ: إنَّه تعالى لـمّا ردَّ طعنَ المشركين في النَّبيِّ ﷺ بقوله: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ وفي ما أُنزل إليهِ بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ وقرر المعنى الثّاني بقولِه: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ إلى آخرِها، حتى بَلغَ به الغايةَ القُصْوى، أخذَ يُبيِّنُ ضَلالَتهم بقوله: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ إلى آخرِ الآيات، ووبَّخَهم على غِوايَتِهم، حيثُ جعلوا لله شُركاءَ إناثًا، وسمَّوها بأسامِيَ لا حقيقة لها، أي: هذه الضَّلالةُ والغِوايةُ التي بلغت غايَتها، ولذلك التفتَ من المُخاطبة ناعِيًا عَليهم إلى الغَيْبَة ثُبوتَهم على الضَّلالة بعد مجِيء الآياتِ البيناتِ بقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾. والظَّاهرُ أنَّ الواو للحالِ، وقد دخلتْ على الجملةِ القَسميَّةِ مقررة لجهةِ الإشْكالِ، ولهذا قال الوَاحِديُّ: هذا التعجب من حَالِهم، حيثُ لم يَتركوا عِبادتَها مع وُضوحِ البيانِ(٢)، والله أعلم.

---

(١) «معاني القرآن» (٥: ٧٢).

(٢) انظر: «الوسيط» للواحدي (٤: ٢٠٠).

و«العُـزَّى» كانت لغَطَفانَ وهي سَمُـرةٌ، وأصلُها تأنيثُ الأعَـزِّ. وبعث إليهـا رسولُ الله ﷺ خالدَ بن الوليد فقطَعَها، فخرجت منها شيطانةٌ ناشِرةً شعرَها، داعيةً ويْلَها، واضِعةً يدَها على رأسِها، فجعل يضْرِبُها بالسَّيفِ حتى قتَلَها وهو يقول:

يا عُزَّ كُفْرانَكِ لا سُبْحَانَك ... إني رَأَيْتُ الله قـد أهـانَـك

ورجع فأخبر رسولَ الله ﷺ فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «تلْكَ العُزَّى ولنْ تُعْبَد أبَدًا».

ومَناةُ: صخرةٌ كانت لهُذَيل وخُزاعَة. وعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما: لثقيفٍ. وقرئ: (ومَناءَة) وكأنَّها سُمِّيت مَناة؛ لأنَّ دِماء النَّسائِكِ كانت تُمْنَى عِندَها، أي: تُراقُ، ومَناءةُ، مَفْعلةٌ مِن النَّوْءِ، كأنَّهم كانوا يَستَمْطِرون عِندها الأنواءَ تبرّكًا بها.

و﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ ذمٌّ، وهي المتأخِّرةُ الوضِيعةُ المِقْدارِ، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٩] أي: وُضَعاؤهم لرُؤساِئهم وأشرافِهم.

قوله: (و﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ ذمٌّ وهي[1]) إلى آخـره، **الانتصاف**: «أُخـرى»: تأنيثُ «آخـر»؛ أفعل، ولا شكَّ أنَّه في الأصلِ من التَّأخُّرِ الوجوديِّ، إلَّا أنَّ العربَ عدلَت به عن التَّأخُّرِ الوُجودِيِّ، إلى استعماله حيثُ يذكر مُغايرًا لما تقدم لا غيرُ، وسُلبت دَلالتُها عن المعنى الأصليِّ، بخلافِ آخِر وآخِرة، فإشعارُهما بالتقدم الوجودِيِّ ثابتٌ، ومِنْ ثَمَّ قالوا: ربيعٌ الآخِرُ، جمادى الآخِرة، بكسر الخاء ليدُلَّ على التَّأخِيرِ الوُجودِيِّ، وهذا البحث حرّره ابنُ الحاجب، وهو الحقُّ، فحينئذ يكون الإشعارُ يَتغايَر في الذِّكرِ مع مراعاةِ الفواصلِ[2].

الإنصاف: إنَّما حمـل الزَّمخشريُّ على القـولِ الأوّل قوله إنَّه رأى «أخـرى» إذا كانت تأنيث «آخَر» ـ بفتح الخاء ـ يَستدعي مشاركة «ما»، فجُعلت قرينةً لها في الوَصْفِ المذكور لما سَبَقه، وهاهنا مناةٌ ثالثةٌ، وليست اللّاتُ والعُزى موصُوفين بكون كُلِّ واحدٍ منها ثالثة، فامْتَنع أنْ يُقال الأخرى بهذا المعنى، فلذلك عَدَل الزَّمخشريُّ.

---

(١) في (ح) و(ف) و«نهي» وما أثبته من (ط) وهو موافق لما في «الكشاف».

(٢) «الانتصاف» (٤: ٤٢٢).

ويجوزُ أن تكون الأوّليَّة والتَّقدّم عِندهم للَّات والعُزَّى. كانوا يقوُلون: إنَّ الملائِكةَ وهذِه الأصنامَ بناتُ الله، وكانوا يَعبُدُونهم ويزعُمون أنّهم شُفَعاؤهم عِندَ الله تَعالى مع وأدِهِم البناتِ، فقيل لهم: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾، ويجوز أن يُراد: أنّ اللّات والعُزّى ومَناةَ إناثٌ، وقَدْ جعَلْتُموهنَّ لله شُركاءَ، وَمِن شَأنِكم أن تحتقِروا الإناثَ، وتستَنْكِفوا من أن يُولدنَ لكم ويُنْسَبنَ إليكُم، فكيفَ تجعلونَ هؤلاءِ الإناثَ أندادًا لله وتسمونهنّ آلهة؟! ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ جائرةٌ، من ضَازَهُ يَضيزُه إذا ضَامَهُ، **والأصل: ضُوزَى، ففُعِلَ بها ما فُعِلَ بـ«بِيض»**؛ لتسلّم الياء. ....

والظَّاهِر أنَّ صاحبَ «الانتصاف» لم يَفهمْ عنه هذا المعنى، وقد كَشف عن المعنى القاضي حيثُ قال: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾: صِفتان للتَّوكيد، كقوله تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، أو ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ من التأخر في الرُّتبة(١).

وذلك أنه لَمَّا عُطِفَ ﴿وَمَنَوٰةَ﴾ عليهما، عُلم أنّها ثالِثَتهما، فجيءَ بالثالثة توكيدًا، فالأخرى؛ إما توكيدٌ مثلُها، أو تُجعل بمعنى أُخرى من التأخر الوجودي، فتصيرُ حينئذٍ مثل «ثُمَّ» في أنْ يُذهب بها إلى التَّراخي بحسبِ الزَّمانِ حقيقةً، أو المرتبة مجازًا، فقولُ المصنِّفِ: «والأُخرى ذمٌّ» من القَبيلِ الثاني، وقوله: «الأوّليَّة والتقدُّم عندهم للَّات» من القَبيل الأول.

قوله: (**ويجوز أن يُرادَ أنّ**)، الفرق بين هذا الوجه وما سبق، أنَّ الإنكارَ على الأوّلِ زاد على قولهم: إنَّ الملائكةَ وهذه الأصنام بناتُ الله، مع اسْتِنْكافِهم عن البناتِ، فأنْكر عليهم قولَهم حال اسْتِنكافِهم، ألا ترى كيف أوقَعَ قولَه: «مع وأدِهِمُ البناتِ» حالًا مِن فاعلِ «يقولون»؟! وعلى الثّاني: الإنكارُ واردٌ على فعلهم، فإنَّهم لـمَّا عبدوها وهي إناثٌ جعلوها شركاءَ لله تعالى في العبادة، فأنكرَ عَلَيهم ذلك الفعل، ولذلك قال: «وقد جعلتموهُنَّ لله شركاء...» إلى آخره.

قوله: (**والأصل: ضُوْزى، ففُعِلَ بها ما فُعِلَ بـ«بِيض»**)، **الجوهري**: هو فُعلى مثل: طُوبى وحُبلى، وإنَّما كَسروا الضَّاد لِتَسْلم الياءُ، لأنَّه ليس في كلام العرب فِعْلى صفةً، وإنَّما

---

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٢٥٦).

وقرئ: (ضِئْزَى) مِن: ضَأَزَه، بالهمز. و(ضَيْزَى) بفتح الضَّادِ. ﴿هِيَ﴾ ضَميرُ الأصنامِ، أي مَا هِي ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ ليس تحتَها في الحقيقةِ مُسمَّياتٌ، لأنَّكم تَدَّعُون الإلهية لما هو أبعدُ شيءٍ مِنها وأَشدُّه منافاةً لها. ونحوه قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠] أو ضمير الأسماءِ وهِي قولهم: اللَّاتُ والعُزَّى ومَنَاة، وهم يقصدون بها أسماءَ الآلهةِ، يَعني: ما هذه الأسماءُ إلا أَسماءٌ سَمَّيتُموها ....

هو من بناء الأسماء كالشِّعْرى والدِّفْلى. وجمع الأبيضِ بِيضٌ، وأصله بُيْضٌ - بضم الباء -، وإنّما أبدلوا من الضَّمة كسرةً ليصح البناء.

قال(١) الزَّجَّاجُ: أجمعُوا أنَّ أصل ضِيزى، ضُوزَى، نُقلت من «فِعْلى» إلى «فُعلى»، كأبيضَ إلى بِيْضٍ وأصله بُوضٌ، كأحمر وحُمرٌ، فنُقلت الضَّمةُ إلى الكَسْرة وهم لا يعرفون في الكلام فِعْلى صفة، بل فَعلى بالفتح نحو سَكْرَى وغَضْبَى، وبالضَّم؛ نحو: حُبْلى وفُضْلى، ولذلك قالوا: مِشية حيكى، وهي مِشيةٌ يحيك فيها صاحبها: أي يتبختر، فحيكى عندهم: فُعلى بضمّ الفاء أيضًا(٢).

قوله: (وقُرِئ: «ضِئزى» من: ضأزه، بالهمز) ابن كثير: ضِئْزى بالهمز، والباقون بغير همزٍ(٣).

قوله: (يعني: ما هذه الأسماءُ إلا أسماءٌ سمَّيتُموها) وقال أبو البقاء: يجب أن يكونَ المعنى: ذواتَ أسماء، لقوله: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، لأنَّ لفظ الاسم لا يُسمّى(٤). والمصنِّف ذهبَ إلى أنَّ هذه التَّسمِيَةَ تسميةٌ ليس لها مُسمَّيات يستحق أن يُسمى بها، لأنَّ الإله ينبغي أن يكون

---

(١) في (ح) و(ف) جاء قوله: «قال الزجاج» إلى قوله: «أيضًا»، بعد قوله: «والباقون: بغير همز» في التعقُّب المتعلق بالقراءة، لكنه جاء في (ط) متصلًا بالتعقُّب السابق وهو أصوب، لأنه لا تعلُّق له بالقراءة وإنما بالاشتقاق.

(٢) «معاني القرآن» (٥: ٧٣).

(٣) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣١.

(٤) «إملاء ما من به الرحمن» (٢: ٢٤٧).

بِهَواكُم وشَهوتِكُم، ليسَ لَكُم مِن الله على صحَّةِ تَسميتها برهانٌ تتعلَّقُون بِه. ومَعنى ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ سمَّيْتم بها، يقال: سمَّيْتُه زَيدًا، وسمَّيْتُهُ بزيدٍ. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ ـ وقُرِئَ بالتَّاءِ ـ ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلا تَوهُّمَ أنَّ مَا هُم عَليه حَقٌّ، وأنّ آلهتهم شفعاؤُهم، ومَا تَشتهيه أنفُسهم، ويَتْرُكُونَ مَا جاءَهُم مِن الهُدى والدَّليلِ عَلى أنَّ دينَهم بَاطلٌ.

[﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ * فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ ٢٤-٢٥].

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ هي أمْ المنقَطِعة ومعنى الهمزة فيها الإنكارُ، أي: ليسَ للإنسانِ ما تمنَّى، والمُرادُ طمَعُهم في شفاعةِ الآلهةِ، وهو تمنٍّ على الله في غاية البُعدِ، وقيل: هو قولهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وقيل: هو قولُ الوليدِ بن المُغيرة ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] وقيل: هو تمنِّي بعضِهم أن يكونَ هو النبيَّ ﷺ.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أي هو مالِكُهما، فهو يُعطي منهما من يشاءُ ويمنعُ من يشاءُ، وليس لأحدٍ أن يتحكَّم عليه في شيءٍ منهما.

[﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ ٢٦].

خالقًا رازقًا عالمًا مُثيبًا ومُعاقِبًا، وإليه الإشارة بقوله: «سمَّيْتُموها بهواكم وشَهوتِكم». وفي «الكبير»: وقيل: أي قُلتُم عُزّى ولا عِزَّة لها، وقلتم: إنّها آلهة، وليست بآلهة(١).

قوله: (والدَّليلِ على أنَّ دينَهم باطلٌ) عطفٌ تفسيريٌّ على الهُدى، وإنَّما جعله دليلًا وسُلطانًا على بُطلان دينهم لأنَّه مجْلُوبٌ لقوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]. و[النجم: ٢٣]، أي: ما لهم من دليلٍ قطّ، ما يتَّبعُون إلَّا شَهواتِ الأنفس، والحالُ أنْ جاءهم دليلٌ قاطعٌ وسلطانٌ قاهر على بُطلان ما هم عليه، فيكون قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ حالًا مُقرِّرةً لجهة الإشكال.

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٨: ٢٥٨).

يعني: أنّ أمر الشَّفاعةِ ضيِّقٌ، وذلك أنَّ الملائكةَ مع قُرْبَتهم وزُلْفَاهم وكثرتهم واغْتِصَاصِ السَّمواتِ بِجُموعِهم لو شَفَعُوا بأجمعِهم لأحدٍ لم تُغنِ شفاعَتُهم عنه شيئًا قطُّ ولم تنفع، إلا إذا شَفَعُوا من بعد أن يأذن الله لهم في الشَّفَاعةِ لِمن يشاءُ الشَّفاعَةَ له ويَرْضَاهُ ويراه أهلًا لأن يُشْفَعَ لَه، فكيف تَشْفَع الأصنامُ إليه لِعَبَدَتِهم؟!

[﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا * فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ ٢٧-٣٠].

﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي كلَّ واحدٍ منهم ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ لأنَّهم إذا قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، فقد سَمَّوْا كُلَّ واحدٍ مِنهم بنتًا، وهي تسميةُ الأنثى ﴿بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بذلك وبِما يقولون. وفي قراءة أُبيٍّ: (بها)، أي: بالملائكةِ، أو التَّسميةِ. ﴿لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ يعني: إنَّما يُدرَكُ الحقُّ الذي هو حقيقةُ الشَّيءِ وما هو عليه بالعِلم والتَّيقُّن، لا بالظَّنِّ والتَّوَهُّمِ. ﴿فَأَعْرِضْ﴾ عن دعوةِ من رَأيته مُعرضًا عن ذكر الله وعنِ الآخرةِ ولم يُرد إلا الدُّنيا، ولا تتهالَك على إسلامِهِ، ثُمَّ قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ أي: إنَّما يعلمُ الله من يُجيبُ ممن لا يُجيبُ، وأنتَ لا تعلمُ، فخفِّضْ على نفسِك ولا تُتعِبْها، فإنَّك لا تَهدي من أحببتَ، وما عليكَ إلا البلاغُ. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ اعتراض، أو فأَعرِض عنه ولا تُقابِلْه، إنَّ ربك هو أعلم بالضَّالِّ والمُهتدِي، وهو مُجازِيهما بما يستَحِقَّان من الجزاء.

قولُه: (إنما يُدرَكُ الحقُّ) قال القاضي: الحقُّ الذي هو حقيقةُ الشيءِ؛ لا يُدرَكُ إلا بالعلم، والظَّنُّ لا اعْتِبار له في المعارف الحَقيقيّة، وإنَّما العِبرةُ به في العمليات وما يكون وصْلَةً إليها[1].

---

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٢٥٧).

[﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ ٣١-٣٢].

قرئ: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ و(لِنَجْزِيَ)، بالياء والنون فيهما. ومعناه: أنّ الله عز وجل إنَّما خلقَ العالمَ وسوَّى هـذا الملكوتَ لهـذا الغَـرضِ: وهـو أنْ يُجازيَ المُحسنَ مـن المكلَّفين والمُسيءَ منهم. ويجوزُ أن يتعلَّق بقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ لأنَّ نتيجةَ العلمِ بالضَّالِّ والمُهتدِي جزاؤهما. ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ بعقابِ ما

قوله: (قُرِئ: ﴿لِيَجْزِيَ﴾، و«لِنَجْزِيَ») والمشهورة: «يَجزي» بالياء[1] فيهما.

قوله: (ويجوز أن يتعلَّق بقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾): أي ﴿لِيَجْزِيَ﴾ إمَّا تعليلٌ لقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وإمَّا لقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ المعنى: أنَّ قولَه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾[2] و﴿بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾، ليجزي كلَّ واحدٍ منهما بما يستحقه، فيكون قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على هذا مُعترضةً، توكيدًا لما تضمَّن الكلام من معنى القُدرةِ والمنَعةِ، يعني هو عالمٌ كاملُ العلمِ، قادرٌ تامُّ القُدرة، يعلم أحوال المكلَّفينَ فيُجازِيهم، لا يمنعه أحدٌ مما يُريده، لأنَّ كلَّ شيءٍ تحت قهرِهِ وسُلْطانِه.

قال الواحدي: «لله مُلك السَّموات والأرض»: إخبارٌ عن قُدْرتِه وسَعةِ مُلكه، وهو معترَضٌ، أي: إذا كان أعلم بهم جازى كُلًّا بما يستحِقّه، وإنّما يقْدِر على المُجازاة إذا كان كثيرَ المُلك[3]. تم كلامه.

وكان هذا من تَوارد الخاطِر، وعلى الأوّل مُتَّصل بقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فأعرِض عن دعوةِ من تدعُوه إلى لقاءِ ربِّه والدَّار الآخِرة وهو

(١) انظر: «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر» لشهاب الدين الدِّمياطي ص٧١٧.
(٢) من قوله: «أي: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ إما تعليل» إلى هنا سقط من (ط).
(٣) «الوسيط» (٤: ٢٠١).

عملوا من السُّوءِ. و﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ بالمثوبةِ الحُسنى وهي الجَنَّة. أو بسببِ ما عَملوا من السُّوءِ وبسببِ الأَعمالِ الحُسنى.

﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي الكبائرَ من الإثم؛ **لأنَّ الإثمَ جنسٌ يَشتملُ على كبائرَ وصغائرَ**، والكبائرُ: الذُّنوبُ التي لا يسقطُ عقابُها إلا بالتَّوبةِ. وقيل: التي يكْبُر عقابُها بالإضافةِ إلى ثوابِ صاحبِها، ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ما فَحُشَ من الكبائِر، **كأنه قال: والفواحشَ منها خاصَّةً**: وقُرِئَ: (كَبِيْرَ الإِثْم) أي: النَّوع الكبير منهُ، وقيل: هو الشِّركُ بالله. واللَّمَمُ: ما قلَّ وصَغُرَ. ومنهُ: اللَّممُ: المسُّ من الجُنونِ، واللوثةُ منه. وأَلَمَّ بالمكانِ: إذا قلَّ فيه لُبْثُه. وألمَّ بالطَّعامِ: قَلَّ منه أكلُهُ: ومنه:

لِقَاءُ أَخِلَّاءِ الصفاء لِمَامُ

يقول: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، والحال أنَّ الله سبحانه وتعالى إنّما خلق العالم وسوَّى هذا الملكوت لِيَجْزي المُحسن والمُسيء، ويكون قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ تعريضًا بهم، وبِظَنِّهم الباطل أنهم يُتركون سُدى، ويَزعُمون أنَّ السّماوات والأرض وما بينهما خُلقَ عبثًا، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الآية، على هذا اعتراضٌ وتوكيدٌ للتَّهديدِ والوَعيدِ.

قوله: (**لأن الإثمَ جنسٌ يشتمل على كبائر وصَغائر**) إلى آخره، **الانتصاف**: أطالَ الزَّمخشريُّ الكلَامَ في هذه الآية على مُعتَقَدين فاسِدين؛ أحدهما وجُوب تعذيب مُرتكب الكبيرة إنْ لم يتُب، والثاني: وجوبُ تكفير صَغائر مُجتنب الكبائر مع عدم التَّوبة، وله أنْ يُعذِّبَ بالصَّغائر مع اجتنابِ الكبائر وليس في الآية ما يُخالف ذلك فلا حاجة إلى الإطالةِ.

قوله: (**كأنَّه قال: والفَواحِشَ منها خاصَّة**) يُريد أنَّه من أُسلوب قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ... وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨].

قوله: (**لِقاء أخِلّاء الصفاء لِمامُ**) تمامُه:

وكلُّ وِصَالِ الغانيات ذِمَامُ(١)

---

(١) ذكره المرزوقي في «مشاهد الإنصاف» (٤: ٤٢٥) بحاشية «الكشّاف».

والمرادُ الصَّغائرُ من الذُّنوبِ. ولا يخلو قولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ من أنْ يكونَ استثناءً منقطِعًا **أو صفةً، كقوله تعالى:** ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الأنبياء: ٢٢] كأنَّه قيلَ: كبائرُ الإثمِ غير اللَّممِ، وآلهةٌ غيرُ الله.

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ: اللَّممُ هي النَّظْرةُ، والغمزَةُ، والقُبْلَةُ. وعن السُّدِّيِّ: الخَطْرةُ من الذَّنبِ، وعن الكَلْبِيِّ: كُلُّ ذَنبٍ لم يَذْكرِ الله عليه حَدًّا ولا عَذابًا. وعن عطاء: **عادةُ النَّفس، الحينَ** بعد الحينِ.

وفي «ديوان الأدب»: فلانٌ يزورنا لمامًا، أي: في الأحايين[1]. **الجَوْهرِيُّ**: يُقال: بِئرٌ ذَمَّةٌ، قليلةُ الماء وجمعها: ذِمام.

قوله: (**أو صِفَة كقولِه:** ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾) قيل: فيه نظرٌ، لأنَّ ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ معرفةٌ، و«غيرَ اللّمم» نكرةٌ، اللهم إلا أنْ يُحمل على الجنس نحو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وإذا حُمل على الصِّفة يكون مثلَ قول الشاعر:

.... إلا الـفـرقـدانِ[2]

لأنَّ ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ ليس جَمْعًا مَنْكُورًا.

قوله: (**عَادةُ النَّفسِ الحِين**) وفي «التيسير»: وقيل: اللمم أنْ لا يُصرَّ على ما ارْتكَبه، بل يُبادر بالتَّوبة عنه، من قولهم: ما يأتينا فلانٌ إلا لِمامًا: أي زيارة لا لُبث معها، يعني في الحين، أي لا يدوم عليه ولا يعتاده. ورُوِّينا عنِ التِّرمذيِّ عن ابن عبّاس عن النبي ﷺ قال[3]: «إنْ تغفِرِ اللهم تَغْفِرُ جمّا، وأيُّ عبدٍ لك لا ألمّا».

---

(١) «ديوان الأدب» للفارابي (٣: ٩٤).

(٢) هذا جزءٌ من بيتٍ للمقدام بن معديكربَ، وهو من شواهد سيبويه في «الكتاب» (٢: ٣٣٤)، يقول فيه:

وكلُّ أخٍ مُفارِقُـه أخوهُ   لَعَمْرُ أبيك، إلّا الفرقدانِ

(٣) التِّرمذي (٣٢٨٤) وقال: هذا حديث حسنٌ صحيحٌ غريب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حيثُ يُكفِّرُ الصَّغائرَ باجتنابِ الكبائِرِ، والكبائر بالتَّوبةِ.

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فلا تَنسِبُوها إلى زَكاءِ العملِ، وزيادَةِ الخيرِ، وعملِ الطَّاعَاتِ، أو إلى الزَّكاءِ والطَّهارةِ من المعَاصِي، ولا تُثْنوا عليها واهضِمُوها، فقد علِمَ اللهُ الزَّكيَّ منكم والتَّقيَّ أوَّلًا وآخرًا، قبل أن يُخرجكم من صُلبِ آدم، وقبل أنْ تخرجوا من بطونِ أمهاتِكم.

وقيل: كان ناسٌ يعملون أعمالًا حَسَنةً ثُمَّ يقُولون: صلاتُنا وصيامُنا وحجُّنا، فنزلت، وهذا إذا كان على سَبيلِ الإعْجَابِ أو الرِّياءِ، **فأمَّا من اعتقد أنَّ ما عملهُ من العملِ الصَّالِح** من الله وبتوفيقه وتأييده، ولم يقصد به التَّمدُّحَ، لم يكن من المزكِّين أنفسَهُم، لأنَّ المسرَّةَ بالطَّاعةِ طاعةٌ، وذكرها شكر.

[﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ * أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ * وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ * وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ * وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ * وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ ٣٣-٥٤].

قوله: (فأمَّا من اعْتَقد أنَّ ما عَمِله من العَمَل الصَّالِح) رُوِّينا عن مُسلم عن أبي ذرٍّ قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيتَ الرَّجل يعمل العمل من الخير ويحمَدُه الناس عليه؟ قال: «تِلكَ عَاجِلُ بُشْرى المُؤْمِن»(١).

---

(١) مسلم (٢٦٤٢).

﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ قطع عَطِيَّتَهُ وأمسكَ، وأصله: إكْداءُ الحافِرِ، وهو أنْ تَلقاهُ كُدْيةٌ: وهي صلابةٌ كالصَّخرةِ فيُمسكُ عن الحفْرِ، ونحوه: **أجبل الحَافر**، ثمَّ استُعِيرَ فقيل: أجبلَ الشاعرُ: إذا أُفحِمَ.

رُوي أنَّ عثمانَ رضي الله عنه كان يُعطِي مالهُ في الخيرِ، فقال له عبد الله بن سعد ابن أبي سَرحٍ وهو أخوه من الرِّضاعةِ: يوشكُ أنْ لا يَبقى لك شيءٌ، فقال عثمانُ: إنَّ لي ذنوبًا وخطايا، وإنِّي أطلبُ بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوَه، فقال عبد الله: أعطني ناقَتكَ برحْلِها وأنا أتحمَّلُ عنك ذنوبَك كلَّها، فأعطاهُ وأشهدَ عليه وأمسكَ عن العطاءِ. فنزلت.

ومعنى ﴿تَوَلَّىٰ﴾ ترك المْركِز يومَ أُحدٍ، فعاد عثمانُ إلى أحسنَ من ذلك وأجمل.

﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ **فهو يعلـم** أنَّ ما قالـه لـه أخوهُ من احتمـالِ أوزاره حق، ﴿وَفَّىٰٓ﴾ **قُرِئَ مخففًا ومُشدَّدًا**، والتَّشديدُ مبالغةٌ في الوَفاءِ. أو بمعنى: وَفَّرَ وأتَمَّ، كقوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] وإطلاقهُ ليتناولَ كلَّ وفـاءٍ وتوْفِيةٍ، من ذلك: تبلِيغه الرِّسالةَ، واستقلالُه بأعباءِ النُّبوَّةِ، والصَّبرُ على ذبْحِ ولدِه، وعلى نارِ نَمْرُوذَ، وقيامُهُ بأضيافِه وخِدْمته إيَّاهم بنفسِه، وأنَّه كان يخرج كلَّ يومٍ فيمشي فَرْسخًا يرتادُ ضيفًا، ....

قوله: (**أجبل الحافر**) الجوهريُّ: أجْبَل القومُ: إذا حَفَروا فبلَغوا المكان الصُّلْبَ، وأكدى الحافِر: إذا بلغ الأرض الصُّلْبَةَ فلا يمكنه أنْ يَحْفِر.

قوله: (﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ **فهو يَعْلم**) قال أبو البَقاء: ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ جملةٌ اسْميَّة واقعة موقع الفعلية، والأصلُ: أعِنْدَه علمُ الغَيبِ فيَرى؟ ولَوْ جاء على ذلك لكان نصبًا على جوابِ الاسْتِفهام(١).

قوله: (﴿وَفَّىٰٓ﴾ **قُرِئ مُخَـفَّفًا ومُشدَّدًا**)، المُشدَّدةُ: هي المشهورة(٢).

---

(١) «إملاء ما من به الرحمن» (٢: ٢٤٨).

(٢) انظر: «إتحاف فضلاء البشر للدِّمياطي» ص٧١٨.

فإن وافقه أكرمَه، وإلا نوى الصَّومَ. وعن الحسن: ما أمره الله بشيءٍ إلا وفَّى بِه. وعن الهُذيل بن شُرحْبيل: كان بين نوحٍ وبين إبراهيمَ يؤخذُ الرَّجُلُ بجريرةِ غيرِه، ويُقتلُ بأبيهِ وابنِهِ وعمِّهِ وخَالِه، والزَّوجُ بامرأتِه، والعبدُ بسيِّدِه؛ فأوَّلُ من خالفَهم إبراهيمُ. وعن عطاءَ ابنِ السَّائبِ: عهد أنْ لا يسألَ مخلوقًا، فلما قُذِفَ في النَّار قال له جبريلُ وميكائيلُ: ألك حاجة؟ فقال: أمّا إليكما فلا. وعن النَّبيِّ ﷺ: «وفَّى عمله كل يوم بأربعِ ركعاتٍ في صدرِ النَّهارِ، وهي صلاةُ الضُّحَى». ورُوي: ألا أخبرُكم لـمَ سمَّى الله خليلَه ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾؟ كان يقولُ إذا أصبحَ وأمسى: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى ﴿حِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨] وقيل: وفَّى سِهَام الإسـلامِ: وهي ثلاثون: عشرة في التوبة ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ...﴾ [التوبة: ١١٢]، وعشرة في الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ ...﴾ [الأحزاب: ٣٣] وعشرة في المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾ [المؤمنون: ١-١٠] وقُرِئَ: (في صُحْفِ)، بالتَّخفيفِ.

﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ «أنْ» مُخفَّفةٌ من الثَّقيلةِ. والمعنى: أنَّه لا تَزِرُ، والضَّميرُ ضميرُ الشَّأنِ، ومَحل «أنْ» وما بعدها: الجرُّ، بدلًا مِن «ما في صحُفِ موسى». أو الرَّفع على: هو أنْ لا تَزِرُ، كأنَّ قائلًا قال: وما في صُحُفِ موسى وإبراهيمَ؟ فقيل: أنْ لا تزرُ.

﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ **إلا سَعْيَه**.

قوله: (**فإنْ وافقَه أكرمَه**) قال: يقال: وافقتُ فلانًا يُصلِّي، ووَفِقْتُه أي: وجدته.

قوله: (﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ **إلا سَعْيَه**). الرَّاغِب، السَّعيُ: المَشْيُ السَّريعُ، وهو دُون العَدْوِ، ويُستعمل في الجدّ في الأمر، خيرًا كان أوشرًّا، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(١)، وأكثرُ ما يُستعملُ في الأفعالِ المحمودَةِ، وخُصَّ المَسْعاةُ بطلبِ المَكْرُمة(٢).

---

(١) من قوله: «ويُستعمل في الجدّ» إلى هنا ساقطٌ من (ح) و(ف)، وأثبته من (ط).

(٢) «مفردات القرآن» ص٤١١.

فإن قلتَ: أمَا صَحَّ في الأخبارِ: الصَّدقةُ عن الميِّتِ، والحجُّ عنه، وله الإضْعَافُ؟

قوله: (أمَا صحَّ في الأخبارِ: الصَّدقةُ عن الميِّتِ) تلخيصُه: أنَّ التَّرْكيب، أي: وأنْ ليسَ للإنسانِ إلا ما سَعَى، يُفيد بما فيه من أداةِ الحَصْرِ، وتَعْقِيبه لقولِه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ اختصاصَ الإنسانِ بثوابِ مَا عَمِل هو بنفسِه لنفسِه، وانتفائه بِسعي غيرِه، وأنَّه لا يُجزى من سعيِه إلا مقدارَ ما عمِله لا يزادُ عليه، وهو على خلافِ الأقوالِ الواردةِ في الصَّدقةِ والحجِّ، والآياتِ الصَّادِرةِ في مُضاعفةِ الثَّوابِ.

وأمَّا الأخبارُ الواردةُ في الصَّدقةِ فكثيرةٌ، منها: ما رُوِّينا عن البُخاريِّ ومُسلِمٍ ومَالكٍ وأبي دَاودَ والنَّسائيِّ عن عائشة[1] رَضِيَ الله عنها أنَّ رجلاً قال لرسولِ الله ﷺ: إنَّ أمِّي افْتُلِتَتْ نفْسُها، وأظنُّها لو تكلَّمت تصدَّقتْ، فهل لها أجرٌ إنْ تصدَّقتُ عَنها؟ قال: «نَعَم».

«افتُلِتَت نفسُها»: أي: ماتت فَجأةً، كأنَّ نفسَها أُخِذَت فَلتةً، وأمَّا في الحجِّ فكذلكَ، منها ما رُوي في البُخاريِّ ومُسلمٍ والنَّسائيِّ عن ابن عبَّاس[2]، قال: أتى رجلٌ النَّبيَّ ﷺ قال: إنَّ أُختي نذرت لأنْ تحُجَّ، وإنَّها ماتت، فقال النبي ﷺ: «لو كان عليها دَيْنٌ أكنتَ قَاضِيه»؟ قال: نعم، قال: «حَقُّ الله أحَقُّ بالقَضَاء».

وأمَّا الآياتُ الدَّالةُ على مضاعفةِ الثَّوابِ فلا تَخفى كَثْرتُها، وأجابَ أنَّ سعيَ الغيرِ إنَّما لم ينْفَعه إذا لم يوجد له سعيٌ قطُّ، فإذا وُجِد له سعيٌ بأن يكون مؤمنًا صالحًا، كان سعيُ الغير تابعًا لِسعْيِه، كأنَّه سَعْيُ نفسِه.

---

(١) البُخَاري (١٣٨٨) ومُسلم (١٠٠٤)، ومالك (١٤٥١) وأبو دَاود (٢٨٨٣)، والنَّسائي (٣٦٥١).

(٢) البُخَاري (٦٦٩٩)، وفي (١٨٥٢) إن أمي نذرت ...إلخ. والنَّسائي (٦: ١١٦) كلاهما باللفظ المذكور.

أمَّا مُسلمٌ فقد رواه في الصوم لا في الحج، (١١٤٨) عن ابن عبّاس رَضِيَ الله عنهما أنَّ امرأةً أتت رسولَ الله ﷺ فقالت: إنَّ أمِّي ماتَت وعليها صَومُ شَهرٍ، فقال: «أرأيتِ لو كان عليها دَينٌ أكنتِ تَقْضينَهُ»؟ قالت: نعم، قال: «فَدَينُ الله أحَقُّ بالوَفاء».

والمؤلف متابعٌ في التَّخريج غالبًا لابن الأثير في «جامع الأصول»، فهو يُترجم رموزه إلى كلماتٍ، ويَعْزو الحديثَ لمن ذكره ابن الأثير، وابنُ الأثير رمز في «جامع الأصول» (٣: ٤٣٠): خ م س. والأصَحّ أنْ يَفْصِل حديثَ مُسلم عن حديثي البُخَاري والنَّسائي، والله أعلم.

....

ويمكن أَنْ يُقال: إنَّ عُلْقةَ الإيمانِ وصلةٌ قويةٌ، رُوِّينا عن البُخاريِّ ومُسلم عن النُّعمان ابن بَشيرٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمِنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعَاطُفِهم مَثَلُ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى مِنهُ عضوٌ تَداعَى لَهُ سائِرُ الجَسدِ بالسَّهرِ والحُمَّى»[١].

وعن البُخاريِّ ومُسلم وأحمدَ بنِ حَنْبل عن أبي مُوسى عن النَّبيِّ ﷺ قال: «المُؤْمِنُ للمُؤْمنِ كَالبُنْيانِ يَشُدُّ بَعْضُه بَعْضًا»، ثُمَّ شبَّك بين أَصابِعَه[٢]. فإذا سَعى أحدٌ في الإيمان والصَّلاحِ فكأنه سعى في شدِّ عَضُدِ أخيهِ، وسَدِّ ثلمته، فكأنَّ سَعْيَهُ سَعْيُهُ.

وقلتُ: ما أحسنَ هذا المعنى لو اطَّرد في الصَّومِ والصَّلاةِ وقراءةِ القُرآن، لعلَّ الظَّاهِرَ أنَّ الآيةَ عامَّةٌ خُصِّصتْ في صورٍ مَعْدودةٍ، وعن أحمدَ بنِ حنبل[٣] عن عَمرو بن شُعيبٍ عن أبيه عن جدِّه أن العاص بن وائلٍ نَذر في الجاهلية أن يَنحرَ مئةَ بَدَنةٍ، وأنَّ هشامًا ابنه نَحر حِصَّته خمسين، وأنَّ عُمرَ أخبر النَّبيَّ ﷺ عن ذلك، فقال: «أمَّا أبوك فلو كان أقرَّ بالتَّوحيدِ فصُمْتَ وتصدَّقتَ عنه نَفعَه ذلك». وذكر صاحب «الروضة» في «الأذكار»: المشهورُ من مذهب الشافعيّ وجماعةٍ أنّ قراءة القرآن لا تصِلُ، وذهب أحمدُ وجماعةٌ من أصحاب الشافعي إلى أنها تصل، فالاختيار أن يقول القارئ بعد فراغه: «اللهم أوصل ثواب ما قرأته إلى فلان»[٤]، والله أعلم[٥].

وأمَّـا بيـانُ النَّظْمِ، فإنَّ قوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ تنبيهٌ لمن خُوطِب بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۞ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ على خطئه في إمساكه عن البِرِّ، وقبولِ قولِ أخيه أنا أتحمَّل ذُنُوبَك كلَّها، ولذلك جعل قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تمهيدًا لقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾.

---

(١) البخاري (٦٠١١) وبداية حديثه «ترى المؤمنين»، ومسلم (٢٥٨٦).
(٢) البخاري (٢٣١٤) ومسلم (٢٥٨٥)، وأحمد (٤: ٤٠٤) بزيادة.
(٣) انظر: «المسند» (٢: ١٨١-١٨٢).
(٤) انظر: «الأذكار» للنووي ص١٦٥.
(٥) من قوله: «وذكر صاحب» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف)، وأثبته من (ط).

قلتُ: فيه جوابان؛ أحدهما: أنَّ سعْيَ غيرِه لَمَّا لم ينفَعْه إلا مبنيًّا على سعيِ نفسِه، وهو أنْ يكونَ مؤمنًا صالحًا، وكذلك الإضعافُ، كان سعيُ غيرِه كأنَّه سعيُ نفسِه، لكونِه تابعًا له وقائمًا بقيامِه. والثَّاني: أنَّ سعيَ غيرِه لا ينفَعُه إذا عملَه لنفْسِه، ولكن إذا نواه بِه فهو بحُكْمِ الشَّرعِ كالنَّائِبِ عنه، والوكِيلِ القَائمِ مَقَامَه.

﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ﴾ ثُمَّ يُجزى العبدُ سعيَه، يقال: جزاه الله عمَله وجزَاه على عملِه، بحذف الجارِّ وإيصال الفعلِ. ويجوز أن يكون الضَّميرُ لِلجزاءِ، ثُمَّ فَسَّره بقوله: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أو أبْدَله عنه، كقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنبياء: ٣]، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ قُرِئَ بالفَتْحِ على معنى: أنَّ هذا كلَّه في الصُّحُفِ، وبالكسرِ على الابتداءِ، وكذلك ما بعدَه. والمُنتهى: مصدرٌ بمعنى الانتهاءِ، أي: ينتهي إليه الخلقُ ويرجعونَ إليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [فاطر: ١٨].

قوله: (ثُمَّ يُجزى العبدُ سَعيَه) قال السَّجَاوندي: الجزاءُ مصدرٌ، والمفعولُ الثَّاني الضَّميرُ المنصوب، والأول مرفوعٌ مُسْتكِن، قال:

إنْ أجزِ علقمةَ بن سيفٍ سعيهُ   لا أجْـزِهِ ببلاءِ يـومٍ واحِدِ[1]

أي: ثُمَّ يُجزى هو سعيه، وقال أبو البقاء: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ هو مفعول ﴿يُجْزَىٰهُ﴾، وليس بمَصْدرٍ لأنَّه وصَفَه بالأوفى، وذلك من صِفةِ المُجزى به، لا من صفةِ الفِعلِ[2]. وقال صاحبُ «الكشف»: إنْ جُعِلت الهاءُ في ﴿يُجْزَىٰهُ﴾ مَصْدرًا، لم يكن ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ مَصْدرًا، لأنَّ فعلًا واحدًا لا ينصِبُ مصدرين، بل يكون التَّقْدِير: المُجزَى الأوفى، كالصَّيد بمعنى المَصِيدُ[3].

قوله: (﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾، قُرِئ بالفَتح): الجماعة كلُّهم.

---

(١) ذكر هذا البيت المَرْزباني في «معجم الشعراء» ص٤٧٥ ونسبه للمُرنَاق الطَّائي، وقال: وأظنه لقبًا!

(٢) «إملاء ما منَّ به الرحمن» (٢: ٢٤٨).

(٣) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٢٩٦).

﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ خلق قوّتي الضَّحِك والبُكاء.

﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ إذا تُدفَّق في الرَّحم، يقال: مَنَى وأمْنَى. وعن الأخْفَشِ: تخلَّق، من مَنى المانِي، أي: قَدَّر المقدِّرُ.

قوله: (خَلق قُوَّتَي الضَّحكِ والبُكاءِ) الانتصاف: وخلقَ أيضًا فِعلي الضَّحكَ والبُكاء على قواعد السُّنَّةِ، وعليه دلَّت الآيةُ، غير متأثِّرةٍ لتحريفِه[(١)].

وقلت: المرادُ من ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ خلق السُّرور والحَزن، أو ما يَسرُّ ويحُزِن من الأعمالِ الصَّالِحةِ والطَّالِحة، ولذلك قَرَنهما بقوله: ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾.

قال الوَاحِدي: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾، هذا يدلُّ على أنَّ ما يَعملُه الإنسانُ فبِقَضائِه وخَلْقِه، حتّى الضَّحكَ والبكاءَ[(٢)].

قال الكلبيُّ: أضحكَ أهلَ الجنَّةِ، وأبكى أهلَ النَّارِ[(٣)]. الرَّاغب: بكى يَبْكي بُكاءً وبُكىً، فالممدودُ سَيَلانُ الدَّمْعِ عن حُزنٍ وعوامِلَ، يقال إذا كان الصَّوتُ أغلبَ كالرُّغاءِ والثُّغاء. والمقْصُور[(٤)]، يقالُ إذا كان الحُزن أغلب، و«بكى» يقال في الحُزن وإسالةِ الدَّمْعِ معًا ومُنْفردًا، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢] إشارةٌ إلى الفَرَحِ والتَّرَح.

قوله: (مِنْ مَنَى المَانِي) أي: مأخوذٌ منه؛ بفتح الميم والنُّون، وفي نسخة: «مِن مَنْي المانِي» بسكون النون. الرَّاغب: المَنى كالقَفَا: القَدَر، يقال: مَنى لَك المانِي، أي: قدّر لك المُقدِّر، ومنه المَنَى الذي يُوزن به فيما قيل، والمَنِيُّ: الذي قُدِّر منه الحيوان، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ أي: تقدّر بالعزَّةِ الإلهيةِ ما لم يكن منه[(٥)].

---

(١) «الانتصاف» (٤: ٤٢٨) مع «الكشّاف».

(٢) «الوسيط» (٢: ٢٠٤).

(٣) أغلب المُفسرينِ ينسب هذا القول لمُجاهد بن جبر، وبعضهم يقرن معه الكَلبي، فيقول: وعن مجاهِد والكَلبي، ولا شكّ أنّ نسبتها لمجاهد أولى كونه المتقدِّم، فاقتصار المؤلف على ذكر الكلبي فيه قُصور.

(٤) في «المفردات»: «وبالقَصرْ»، أي: بُكا بالقصر بلا مَدٍّ.

(٥) «مفردات القرآن» ص٧٧٩.

قُرِئَ: ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ و(النَّشَاءَة) بالمدِّ. وقال: ﴿عَلَيۡهِ﴾ لأنَّها واجبةٌ عليه في الحكمةِ، ليُجَازِيَ على الإحسانِ والإساءَةِ.

﴿وَأَقۡنَىٰ﴾ وأعطَى القُنْيَة وهي المالُ الذي تأَثَّلْتَه، وعَزَمتَ أنْ لا تُخرجَه من يَدِكَ.

قوله: (﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ و«النَّشَاءة» بالمدّ) ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرو والباقُون بالقصر[1].

قوله: (وقال ﴿عَلَيۡهِ﴾ لأنها واجبةٌ[2] في الحِكمة)، وعند أهل السُّنةِ كالواجِبةِ بحَسبِ الوعدِ. **الانتصاف**: معنى ﴿عَلَيۡهِ﴾ هَهنا: أنَّ أمرَ النَّشأةِ الثانية تدورُ على قُدْرتِهِ تعالى وإرادتِه، تقولُ: دارت قضيةُ فلانٍ على يَدِي، أي: أنا المشيد بها، ويقول المُحدِّثُون: هذا الحديث يدُور على فلانٍ[3].

قوله: (تأثَّلتَه) أي: اتَّخَذْتَه أصْلًا. **الرَّاغب**: الغِنى: يقال على ضَرْبين؛ أحدهما ارتفاعُ الحاجاتِ، وليس ذلك إلا لله عزَّ وجلَّ، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] والثاني: قلة الحاجات كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٨] ومنه الحديثُ: «الغِنَى غِنى النَّفس»[4]، والثالث: كثرة القُنيَات بحسب ضُروبِ النَّاس، قال تعالى: ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] أي: لهم غِنى النَّفس ويَحسَبُهم الجاهلُ أنَّ لهم القنياتِ لما فيهم من التَّعفُّفِ والتَّلطُّف، وهذا المَعنى هو المِعنيُّ بقول الشَّاعر:

قديكثرُ المالُ والإنسانُ مُفْتقِرُ[5]

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» ص١١٤.

(٢) كذا في الأصول الخطية، وكذا هو في نص «الكشاف» من (ط)، لكن في الأصل الخطي من «الكشاف» وفي المطبوع: «واجبة عليه».

(٣) «الانتصاف» (٤: ٤٢٨).

(٤) الحديث: «ليس الغنى كثرة العَرَض، إنما الغنى غنى النفس»، رواه البخاري (٦٠٨١) ومسلم (١٠٥١) وغيرهما.

(٥) البيت لأبي يعقوب الخريمي، انظره في «التمثيل والمحاضرة» للثعالبي ص٨٥ وفي «المنتحل» له ص١٧٥.

﴿ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ مِرزم الجَوْزاء: وهي التي تطلُعُ وراءَها، وتُسمَّى كَلب الجبَّار، وهما

يقال: أغنى عنه كذا، إذا كَفاهُ، قال تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ﴾ [المسد: ٢] والغانيةُ: المُستغنية بزوجها عن الزِّينة، وقيل: المُسْتغنية بحُسنها عن التَّزيُّن، وغَنِي في مكانٍ كذا، إذا طَال مقامُه فيه مُسْتَغنيًا به عن غيرِه، يقال: يُغنِّي وغَنَّى أُغنيةً وغِناءً وتغنَّى، وقيل: تَغنَّى بمعنى استغنى، وحُمِل الحديث: «مَنْ لم يَتَغنَّ بالقُرآنِ» على ذلك[١].

وقوله: (مِرْزَم الجَوْزَاء) قال ابن قُتَيبة في «كتاب الأنْواء»: يدُ الجَوْزاء: كَوْكبان أزْهَران في أَحدِهما حُمرةٌ، والآخر، هو مِرْزَمُ الجَوْزاءِ، وبحيالِ يديها كَوْكَبان نورُهما نحو نور اليدين، وقال أبو زُبَيد:

لما استَتَمّت إلى الجوزاء أكرعها

يُريد رِجْلَيها.

وفيها الشِّعْرى العَبور، ومِرْزم الشِّعرى، وهي التي ذكرها الله عز وجل في كتابه ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾، فإنَّ قومًا في الجاهِلية عبَدُوها وفُتِنوا بها. وكان أبو كَبْشَة الذي كان المشركون ينسبونَ رسولَ الله ﷺ إليه أوَّلَ من عبَدها، وقال: قَطَعت السَّماء عَرْضًا ولم يقطعها غيرها، وخالف قريشًا، فلمّا بُعث النَّبيُّ ﷺ ودَعاهم إلى عبادةِ الله عزَّ وجل، وترك أوثانِهم سمَّوهُ به، أي: هو شَبَهه، ومِثْلَه في الخِلاف، وشِعْريان: أَحَدهُما التي ذُكِرت في الجَوْزاء، وهي التي تسمى بالعَبُورِ، والشِّعْرى الأخرى، هي الغُمَيْصَاء مِن الذِّراع المبْسُوطةِ في نُجومِ الأسد، لا في الجوزاء، وزعم العربُ أن سُهيلًا والشِّعْريَيْن كانت مجتمعةً، فانحدر سهيلٌ نحو اليمن، وتبعه العَبور، فعبرت المجرة، وأقامت الغُميصاء فبكت لفقد سُهيل فغَمصَت عينُها[٢] فهي أقلُّ نورًا من العَبُورِ، والغَمْصُ مثل الرَّمْص، والشِّعْرى العَبُور: نجمٌ كبيرٌ يُزْهر.

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٦١٥-٦١٦.

(٢) من قوله: «وزعم العرب» إلى هنا ساقطٌ من (ح) و(ف)، وأثبته من (ط).

شِعريان؛ الغُمَيْصاءُ والعَبورُ، وأراد العَبُور. وكانت خُزاعَةُ تعْبُدها، سنّ لهم ذلك أبو كَبشةَ رجلٌ من أشرافِهم، وكانت قريشُ تقول لرسولِ الله ﷺ: أبو كَبشةَ، تشبِيْهًا له به، لمخالفتِه إيَّاهم في دينِهم، يريد: أنَّه ربُّ معبودِهم هذا.

عادٌ الأولى: قوم هودٍ، وعاد الأُخرى: إرمُ. **وقيل: الأولى: القُدَماء**؛ لأنهم أوّل الأُمَم هلاكًا بعد قومِ نوحٍ، أو المتقدِّمون في الدُّنيا الأشرافُ. **وقُرِئ: (عادًا لُولى)** ......

قال ذُو الرُّمة: يذكر طُلوعها أوّل اللَّيلِ في الشِّتاءِ:

إذا أمسْتِ الشِّعرى العَبُـور كأنَّها ... مهاةٌ علَتْ من رملِ يَبْرين رابيا[١]

انتهى كلام ابنُ قُتيبة[٢].

وعن بعضهم: الجَبَّار: اسم الجَوْزاء، والكَلْب: اسم الشِّعْرى، لأنَّه يَتْبَع الجَوْزاءَ كما يتبع الكلبُ الصَّائِدَ[٣].

قوله: (**وقيل: الأُولى:القُدَماء**) سلك بالأُولى ما سَلَكه بالأُخْرى في قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فسَّرها تارةً بالتَّقدُّم الزَّمانيِّ حيثُ قال: «أوّل الأمم هلاكًا بعد قوم نُوحٍ»، وأخرى بالتَّقدُّمِ الرُّتْبي، وإليهِ الإشارةُ بقوله: «أو المُتقدِّمُونَ في الدُّنيا الأشْرافُ».

قوله: (**وقُرِئ: «عادًا لُولى»**) نافعٌ وأبو عَمرو: بضمِّ اللامِ بحركة الهمزةِ، وإدغامِ التَّنوين فيها، وأتى قَالُون بعد ضمَّهِ اللام بهمزةٍ ساكنةٍ في موضع الواو، والباقون: يكسِرون التَّنوين ويُسكِّنُون اللام، ويُحقِّقُون الهمزة بعدها[٤].

---

(١) انظر: «ديوان ذي الرُّمة» ص٢٩١، ويَبرين: اسم موضعٍ.

(٢) انظر: كتاب «الأنواء» ص٤٥-٤٧.

(٣) انظر: المرزوقي «الأزمنة والأمكنة» ص٢٢٠.

(٤) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣١.

وقال السَّمين الحلبي في «الدُّر المصون» (١٣: ٢٢٥-٢٢٦): «اعلم أن هذه الآية من أشكل الآيات نقلًا وتوجيهًا، وقد يسَّر الله تعالى تحرير ذلك كله بحوله وقوّته، فأقول: إن القرّاء اختلفوا في ذلك على أربع رُتَبٍ: =

....

قال صاحبُ «الكشف»: من قال في الأحمر: لَحْمر، بفتح اللَّامِ وإسقاط همزة الوَصل، قال هاهنا: لُولى بَضمِّ اللَّام المنقولِ إليها من الهمزةِ، وحرَّكَ اللامَ وحذف ألفَ الوصلِ، فيقرأ: عادًا لُولى، فيُدغِم التَّنوين في اللَّامِ، ولا بدَّ من ذلكَ، ومن قال: في الأَحمر: أَلَحْمر بفتح اللام ولا يحذف همزة الوصلَ، ادِّعاءً منه بأنَّ اللامَ وإنْ تحرَّكت، وهي في تقدير السَّكون، لأنَّ حرَكتها حركة الهمزةِ المحذُوفةِ المقدَّرةِ، قال هاهنا: «ألولى»، فإذا وصلها بـ«عادٍ»، قال: عادًا لأولى، فلا يُدغم التَّنوين في اللَّامِ لأنَّ اللَّامَ في تقدير السُّكُون[١]، والسَّاكنُ لا يُدغمُ في السّاكن[٢].

قال الزَّجَّاجُ: «الأولى» بإثبات الهمزة: أجودُ اللُّغات، وبعدها: «لُولى» بضم اللام وطرح الهمزة، والقياس إذا تحركت اللام أن تَسقط ألف الوصل، لأنَّ ألفَ الوَصْل إنما اجتُلبت لِسكون اللَّام، لكنَّه جاز ثُبوتُها، لأنَّ ألف لام المعرفة لا تسقط مع ألف الاستفهام، فخالف ألف الوصل، ومن العرب من يقول: «لُولى» يريد «الوُلى»، فيطرح الهمزة ليُجرِيَ اللام، وقُرِئ «عادًا لولى» على هذه اللُّغة وأُدغِمَ التنوين في اللّام. والأكثر: ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾

= إحداها: قرأ ابن كثيرٍ وابن عامر والكوفيون: «عادًا الأولى» بالتنوين مكسورًا وسُكون اللام وتحقيق الهمزة بعدها، هذا كله في الوصل، فإذا وقفوا على «عادًا» وابتدؤوا بـ«الأولى» مقياسهم أن يقولوا: «الأولى» بهمزة الوصل وسكون اللام، وتحقيقِ الهمزة.

الثانية: قرأ قالون «عادًا لُؤْلى» بإدغام التَّنوين في اللام ونقل حركة الهمزة إلى لام التَّعريف وهمز الواو، هذا في الوصل، وأما في الابتداء ثم همزةٍ ساكنةٍ، **الثاني**: «لُؤْلى» بلام مضمومة ثم بهمزة ساكنةٍ، **الثالث**: كابتداء ابن كثيرٍ ومن معهُ إليها كقالون، إلَّا أنَّه أبقى الواو على حالها غير مبدلةٍ همزةً، هذا في الوصل، وأما في الابتداء فله وجهان: «أَلُؤْلى» بالهمزة والنقل، و«لُؤْلى» بالنقل همزَ وصلٍ، والواو ساكنةٌ على حالها في هذين الوجهين.

الرابعة: قرأ أبو عمرٍو كَوَرشٍ وصلًا وابتداءً سواءً بسواءٍ، إلَّا أنَّه يزيدُ عليه في الابتداءِ بوجهٍ ثالث، وهو وجهُ ابنُ كثيرٍ ومن ذُكر معه، فقد تحصَّل أن لكل من قالون وأبي عمرٍو في الابتداء ثلاثة أوجهٍ، وأنَّ لورشٍ وجهين، فتأمل ذلك، فإن تحريره صعب المأخذِ من كتب القراءات».

(١) من قوله: «لأنَّ حركتها» إلى هنا ساقط من (ح).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٢٩٧).

بإدْغام التَّنوين في اللَّام وطرحِ همزةِ أُولى، ونَقْل ضمَّتها إلى لامِ التَّعريف.

﴿وثمودَا﴾، وقُرِئ ﴿وَثَمُودَا﴾، ﴿أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ لأنَّهم كانوا يُؤْذُونَه ويضرِبُونَه حتى لا يكون به حَراكٌ، ويُنفِّرونَ عنه حتَّى كانوا يُحذِّرون صِبيانهم أنْ يَسمعُوا منه، وما أثَّر فيهم دعاؤه قريبًا من ألفِ سنةٍ. ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ والقُرى التي ائتفكَتْ بأهلِها، أي: انقلبَت، وهم قومُ لوطٍ، يقالُ: أفكه فائْتَفَك. وقُرِئَ: (المُؤتَفِكاتِ). ﴿أَهْوَىٰ﴾ رَفعَها إلى السَّماءِ على جَناحِ جبريلَ، ثمَّ أهْواهَا إلى الأرْضِ، أي: أسقطَها.

﴿مَاغَشَّىٰ﴾ تهويلٌ وتعظيمٌ لما صُبَّ عليها من العذابِ، وأُمطِر عليها من الصَّخْرِ المنْضُودِ.

[﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ * هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ * أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ٥٥-٥٨].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ تَتشكَّك، ....

بكسر التَّنوين(١)، ولأبي عليٍّ كلامٌ على قول الزَّجاج في «الإغفال»(٢).

قوله: (وقُرِئ: ﴿وَثَمُودَا﴾) عاصمٌ وحمزةُ: يقفانِ بغير ألفٍ، والباقون: بالتَّنوين ويقفون بالألف(٣). وعن بعضِهم: «ثمود»: نَصْبُ نسقٍ عَلى ﴿عَادًا﴾، ولا يجوز أن يُنصب بقوله: ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ لأنَّ ما بعد الفاءِ لا يعمل في ما قَبلها، لا تقول: زيدًا فضربتُ، وأكثرُ النَّحْويين ينصب ما قبلَ الفاءِ بما بعدَها.

وقال أبو البقاء: ﴿وَثَمُودَا﴾ منصوبٌ بفعلٍ مُضمرٍ، أي: وأهلكَ ثمودَ، ولا يعمل فيه ما أبقى لأجل حرف النَّفي، وكذلكَ «قومَ نُوحٍ»، ويجوز أن يُعطَف على ﴿عَادًا﴾(٤).

(١) «معاني القرآن» (٥: ٧٧).

(٢) انظر: «الإغفال» لأبي علي الفارسي (٢: ٥٤٠).

(٣) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣١.

(٤) «إملاء ما من به الرحمن» (٢: ٢٤٨).

والخِطابُ لرسولِ الله ﷺ، أو للإنسانِ على الإطلاقِ، وقد عدَّد نِعمًا ونِقمًا وسمّاها كلَّها آلاء، من قِبَلِ ما في نِقمهِ من المزاجِرِ والمواعِظِ للمُعْتَبِرين.

﴿هَٰذَا﴾ **القرآنُ** ﴿نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: إنذارٌ من جنسِ الإنذاراتِ الأُولى التي أُنذِر بها من قَبلكم. **أو هذا الرَّسولُ** منذرٌ **من المُنْذِرين الأولين**، وقال: ﴿ٱلْأُولَىٰٓ﴾ على تأويلِ الجماعة.

قوله: (**والخِطَابُ لِرسُولِ الله ﷺ أو للإنْسان**)، الثَّاني أظْهَرُ لِقولِه تعالى في الرّحمن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ على أنَّ الخِطابَ إذا كان لرسولِ الله ﷺ فهم المُرادُون أيضًا؛ لأنَّ الخِطَاب إمَّا من باب الإلهاب والتَّهييجِ، أو لأنَّه هو الرَّئيسُ والقُدوةُ، وهم المرؤوسُون.

قوله: (**وقد عدَّدَ نِعمًا ونِقمًا وسمّى كُلَّها آلاء**)، اعلم أنَّه تعالى جعل الكلام على نمطين، وكُلُّ نمطٍ مُشْتَملٌ على نِعَمٍ ونِقَم، أمَّا النَّمطُ الأوَّل فمن قوله: والنَّجمِ إلى قوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ من النِّعَم التي دُونها كلُّ نِعمٍ، ومن قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ مُشْتملٌ على النِّقم التي دُونَها كلُّ نقم، وأمَّا النَّمطُ الثاني: فابتداؤه من قولِه: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ في بيان النِّعمِ الجسيمَةِ، ومن قوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ من النِّقَم.

قوله: (﴿هَٰذَا﴾ **القُرآن** ﴿نَذِيرٌ﴾) إلى قوله: (**أو هذا الرّسول**)، يعني: في بيانِ ﴿نَذِيرٌ﴾، بقوله: ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ بعد ذكرِ قوله: ﴿مَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ إشعارٌ بأنَّ المُشارَ إليه بقوله: ﴿هَٰذَا﴾: هو القرآنُ أو الرَّسولُ.

قوله: (**مِن المُنْذِرين الأولين**) فإنْ قُلتَ: كيف اعتُبِر معنى التَّأخر في الزَّمَان، ثُمّ المرتبة في «مَناة الثالثة الأخرى»؟ وكذا في ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ فيهما، وخُصَّ هذا الموضع بالتَّقدم الزَّمَاني؟

قلتُ: اسْتَدعى ذلكَ احتمال التَّحقيرِ في الأُولى والتَّعظيم في الثَّانيةِ، وهاهنا ليس المرادُ سوى التَّقدُّمِ في الزَّمانِ لأنَّه على وزان ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩] فلا يدخلُ في المعنى إرادةُ التَّعظيم.

﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ قرُبَت الموصوفةُ بالقُربِ؛ من قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، ﴿لَيْسَ لَهَا﴾ نَفْس ﴿كَاشِفَةٌ﴾ أي مبيّنة متى تقوم، كقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أو ليس لها نفسٌ كاشفةٌ، أي: قادرةٌ على كَشْفِها إذا وقعتْ إلا الله، غيرَ أنّه لا يكْشِفها. **أو ليس لها الآن نفسٌ كاشفةٌ بالتَّأخِيرِ**، وقيل: الكاشِفةُ مصدرٌ بمعنى الكَشْف، كالعافية. وقرأ طلحةُ: (ليس لها مما يَدْعُون من دونِ الله كاشفة، **وهي على الظَّالمين ساءتِ الغَاشية**).

قوله: (﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾: قَرُبَت المَوْصُوفة بالقُرْب)، الرَّاغب: دَنَتِ القيامةُ، وأَزِف وأَفِدَ يتقارَبان، لكن أَزِفَ يُقالُ اعتبارًا بضِيقِ وقتها، ويُقال: أَزِفَ الشُّخُوص، والأَزَفُ: ضِيْقُ الوقتِ[١]، وسُمِّيت به لقُرْبِ كونها، وعلى ذلك عُبرّ عنها بالسَّاعةِ، وقيل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، فعُبِّر عنها بلفظِ الماضي، لقُرْبِها وضِيقِ وقْتِها[٢].

قوله: (**أو ليس لها الآنَ نفسٌ كاشفةٌ بالتَّأخِيرِ**) يعني: لو وقَعَت الآن لم يردَّها لوقتِها أحدٌ إلا الله، وعلى الوجه الثاني: روى مُحيي السُّنَّة عن قَتادةَ وعطاء والضَّحَّاك: معناه: إذا غَشِيت الخلقَ أهوالُها وشدائِدُها لم يكشِفْها ولم يردَّها عنهم أحدٌ[٣].

قوله: (**وهي على الظَّالمين سَاءَتِ الغَاشَية**) إلى هنا قراءة طَلحة، قال ابنُ جِنِّي: هذا جارٍ مجرى قولهم: زيد نعم الرَّجل، لأنَّ ساءَ بمعنى بِئس، والغَاشِية هنا جنسٌ، والعَائِدُ منها إلى «هي» ضمير يتجرَّد ويمْتَاز من معنى الجماعة، كقولهم: زيدٌ قام بنو محمدٍ، إذا كان محمّدٌ أباهُم، فكأنّه قال: زيدٌ قام في جملةِ القومِ، كما أنَّ قولك: زيدٌ نِعمَ الرَّجل، العائد عليه في المعنى ذكرٌ يخصُّه من جملةِ الرِّجالِ[٤].

---

(١) من قوله: «دنت القيامة» إلى هنا زيادة من (ط).
(٢) «مفردات القرآن» ص٧٥.
(٣) «معالم التنزيل» (٤: ٣١٨).
(٤) «المحتسب» (٢: ٢٩٦).

[﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ۝ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ ٥٩ - ٦٢].

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ وهو القرآنُ، ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكارًا، ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾، والبُكاء والخشوع حقٌّ عليكم.

وعن رسول الله ﷺ: أنَّه لم يُرَ ضاحكًا بعد نُزولِها. وقُرئ: (تعجبُونَ تضحكُونَ)، بغير واوٍ. ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ شامِخُونَ مُبرطِمُونَ. وقيل: لاهُون لاعِبُون. وقال بعضهُم لجاريتِه: اسمدي لنا، أي: غنِّي لنا ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾، ولا تَعْبُدوا الآلهة.

وعن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورةَ النَّجم أعطاهُ الله عشرَ حَسناتٍ بِعددِ مَن صدَّق بمحمدٍ وجحَد به بمكَّةَ».

قوله: (مُبرَطِمُون) الجَوْهري: البَرْطَمة: الانتِفاخُ من الغَضَب، وتَبَرْطَم الرَّجُلُ: تغضب من كَلامٍ.

الرَّاغب: السَّامِد: اللاهي الرَّافعُ رأسَه، من سَمَد البعير في سيرِه. سُئل ابن عباسٍ عن السُّمُودِ، قال: البَرْطَمةُ وهي رَفْعُ الرَّأسِ تكبُّرًا، أي: رافعون رؤوسهم تكبرًا[1].

تمَّت السُّورةُ

حَامِدًا لله تعالى ومُصَلِّيًا على رسولِ الله ﷺ.

* * *

(١) قوله: «أي: رافعون رؤوسهم تكبُّرًا» أثبته من (ط). وانظر «مفردات القرآن» ص ٤٢٤.

سورةُ القمر
مكيّة، وهي خمس وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

[﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ ١-٣]

انشقاقُ القَمرِ من آياتِ رسولِ الله ﷺ ومُعْجزاتهِ النَّيِّرة.

سُورةُ القَمَر
مَكيّةٌ وهي خمس وخمْسُون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله: (انشقَاقُ القَمر من آياتِ رسولِ الله ﷺ) عن البُخاريِّ ومُسلمٍ والتِّرمذيِّ عن أنسٍ: أنَّ أهلَ مكةَ سألوا رسولَ الله ﷺ أنْ يُريَهم آيةً، فأراهم انْشقاقَ القمرِ[1]. زاد التِّرمذيُّ: فنزلت ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ إلى قوله: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

وعن التِّرمذيِّ عن جُبير بن مُطعِم: انشقَّ القمرُ على عهدِ رسولِ الله ﷺ فصارَ فِرقَتينِ، فقالت قُريشٌ: سَحَرَ محمدٌ أعيُننا، فقال بعضهم: لئن كان سَحَرنا، لا يستطيعُ أنْ يسحرَ النَّاس كلَّهُم[2].

---

(١) أخرجه البُخاريُّ (٤٨٦٧)، ومُسْلم (٢٨٠٢)، والترمذيُّ (٣٢٨٦).

(٢) انظر: الترمذي (٣٢٨٩).

عن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه: أنَّ الكُفَّارَ سألوا رسولَ الله ﷺ آيةً، فانشقَّ القمرُ مرَّتينِ. وكذا عن ابن عبَّاس وابنِ مسعودٍ رضي الله عنهم، قال ابنُ عبَّاس: انفلَقَ فِلْقَتينِ؛ فِلقةٌ ذهبت، وفِلقَةٌ بقيتْ. وقال ابن مسعودٍ: رأيت حِراءَ بين فِلقَتي القمرِ. وعن بعضِ النَّاس: أنَّ معناه: ينشقُّ يومَ القيامةِ.

وقال رَزينٌ العَبْدرِيّ: فكانوا يتلقَّون الرُّكبانَ فيُخبرونَهم بأنَّهم قد رأَوْهُ، فيُكذِّبونهم[١].

وحديثُ انْشِقاقِ القمر قد رواه البُخاريُّ ومُسلمٌ وغيرهما عن ابن مسعود[٢] وابن عباس[٣] وابن عمر[٤]، وروى الإمامُ أحمدُ بن حنبلٍ في «مُسنده» عن ابن مَسعود، قال: انشقَّ القَمرُ على عهدِ رسول الله ﷺ حتى رأيتُ الجبلَ بين فرجتَيْ القمَر[٥].

وأمَّا أبو إسحاق الزَّجَّاج؛ فقد أسندَ عشرينَ حديثًا إلا واحدًا في تفسيره[٦] إلى رسول الله ﷺ في انشقاق القمر.

قوله: (**وعن بعض النَّاس: أنَّ معناه: ينشقُّ يومَ القيامةِ**) قال الواحِديُّ: هو عُثمان بن عَطاء عن أبيه[٧]، وقال الزَّجَّاجُ[٨]: وزعم قومٌ عَندُوا عن القَصْدِ، وما عليه أهلُ العلم، أنَّ تأويله أنَّ القمرَ ينشَقّ يومَ القيامةِ، والأمرُ بيِّنُ اللَّفظِ بقوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ فكيفَ يكونُ هذا يوم القِيامَةِ؟!

وقال القاضي: دلَّ قوله: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾، أي: مُطَّرِدٌ على أنَّهم رأوا قَبلَه آياتٍ أخرى

---

(١) انظر: «جامع الأصول» لابن الأثير (١١: ٣٩٨)، نقلاً من كتابه «تجريد الصحاح».
(٢) رواية ابن مسعود عند البُخَاريِّ (٣٦٣٦)، ومُسْلم (٢٨٠٠).
(٣) وحديث ابن عبَّاس رواه البُخَاريُّ (٣٦٣٨) ومُسْلم (٢٨٠٣).
(٤) وحديث ابن عمر عند مُسْلم (٢٨٠١).
(٥) «المسند» (١: ٤١٣).
(٦) انظر: «معاني القرآن» (٥: ٨١-٨٥).
(٧) «الوسيط» (٢: ٢٠٧).
(٨) «معاني القرآن» (٥: ٨١).

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ يردّه، وكفى به رادًّا، وفي قراءة حذيفة (وقَدِ انْشَقَّ القَمَر) أي: اقتربت السَّاعةُ، وقد حَصَلَ من آياتِ اقترابها أنَّ القمرَ قد انشقّ، كما تقولُ: أقبلَ الأميرُ وقد جاءَ المبشِّرُ بقدومِه. وعن حُذيفةَ أنَّه خطبَ بالمدائنِ ثمَّ قال: ألا إنَّ السَّاعةَ قد اقتربتْ؛ وإنَّ القمرَ قد انشقَّ على عهد نبيِّكُم.

﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾: دائمٌ مطَّرِدٌ، وكلُّ شيءٍ قد انقادَت طريقتهُ ودامتْ حالُه، قيل فيه: قد استمرَّ. لَّما رأَوا تَتابعَ المُعْجِزاتِ وتَرَادُفَ الآياتِ قالوا: هذا سحرٌ مستمرٌّ.

مُترادِفة، ومعجزاتٍ سابقةٍ[(١)]. وفي «الكبير»: القولُ بأنَّ انشقَاقَ القَمرِ مُنتَظرٌ بعيدٌ، لأنَّ من منعَ ذلك، وهو الفَلسفيُّ المخذُولُ، يمنعُه في الماضي والمُسْتَقبل، ومن يُجوِّزُ لا يحتاج إلى التَّأويلِ، وإنَّما ذهبَ الذَّاهِب، لأنَّ الانشقاقَ أمرٌ هائلٌ، ولو وقع لعمَّ وجه الأرضِ، وبلغ مبلغَ التَّواتر[(٢)].

والجواب: أنَّ الموافِقَ فَقَدْ نقلَه، وبلغ مَبلَغ التَّواتُر[(٣)]، وأمَّا المُخَالِف فربَّما ذَهِل، أو حَسِبَ أنَّه نحو الخُسوف، والقرآن أولى دليل وأقوى شَاهِد، وإمكانه لا شكَّ فيه، وقد أخبر عنه الصَّادِق، فيجب اعْتِقاد وُقُوعه، وأمَّا امتناع الخَرق والالْتِئام فحديثُ اللِّئَام.

قوله: (وفي قراءةِ حُذيفةَ: «وقد انشقَّ القمرُ») قال ابن جِنِّي: هذا يجري مجرَى المُوافقة على إسقاطِ العُذر، ورفعِ التَّشكُّك، أي: قد كان انْشِقاقُ القمرِ، فتوقَّعُوا قُربَ السَّاعةِ، أي: إذا كان انْشِقاقُه من أشْراطِها وأحد أدِلَّةِ قُربِها، فقد توكَّد الأمرُ في قُربِ وُقُوعِها، وذلك أنَّ «قد» إنَّما هي جوابُ وقوعٍ كان متوقَّعًا[(٤)]، يقول القائل: انظر أقامَ زيدٌ؟ وهل قامَ زيدٌ؟ وأرجو أن لا يتأخَّر زيدٌ، فيقولُ المُجيبُ: قد قامَ، أي: قد وقعَ ما كان مُتوقَّعًا.

---

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ٢٦٣).

(٢) «مفاتيح الغيب» للرَّازي (٢٩: ٢٨٨).

(٣) انظر: «نظم المتناثر من تحديث المتواتر» للكتاني ص٢٢٢-٢٢٣.

(٤) «المحتسب» (٢: ٢٩٧).

وقيل: مستمرّ: قويٌّ محكمٌ، من قولهم: اسْتَمرّ مَريره. وقيل: هو من استمَرَّ الشَّيءُ: إذا اشتَّدتْ مرارتُه، أي: مستبشعٌ عندَنا، مرٌّ على لهواتِنا، لا نقدِرُ أن نُسيغَه كما لا يُساغ المُرُّ المُمْقِر. وقيل: مستمرّ: مارٌّ، ذاهبٌ يزولُ **ولا يبقَى، تمنيةً** لأنفسِهم وتعليلًا. وقرئ: (وإن يُرَوا).

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وما زيَّن لهم الشَّيطانُ من دَفْعِ الحقِّ بعد ظُهورِه.

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾. أي: كلُّ أمرٍ **لا بدَّ أنْ يصيرَ** إلى غايةٍ يستَقِرّ عليها، وإنَّ أمرَ محمدٍ سيصيرُ إلى غايةٍ يتبيَّن عندها أنَّهُ حقٌّ أو باطلٌ، وسيَظْهر لهم عاقبَتُه. أو وُكلُّ أمرٍ من أمرهم وأمرِه مستقرٌّ، أي: سيثبتُ ويستقرُّ على حالة خِذلانٍ أو نصرةٍ في الدُّنيا، وشقاوةٍ أو سعادةٍ في الآخرةِ. وقُرِئَ بفتحِ القَافِ، يعني: كلُّ أمرٍ ذو مُستَقَرٍّ أي: ذو استقرار. أو ذُو موضع استقرار أو زمانِ استقرارٍ. وعن أبي جعفر: (مُستَقِرٍّ)، بكسرِ القافِ والجرّ، عَطْفًا على السَّاعةِ، ....

قوله: (**المُرُّ المُمْقِر**)، **الجَوْهَريُّ**: مَقِرَ الشَّيءُ بالكسر يَمْقَرُ مَقْرًا أي: صار مُرًّا فهو شيء مَقِرٌ، والمَقِرُ أيضًا: الصَّبِر، وأمْقَرَ الشَّيءُ أي: صار مُرًّا.

قوله: (**ولا يَبقى، تمْنِيةً**) **الجوهريُّ**: والأُمْنِيَّةُ واحِدةُ الأمَانيّ، تقول منه: تَمَنَّيْتُ الشَّيء ومنَّيت غيري تَمْنِيةً؛ نصبهُ تمييزًا من قولِ الكُفَّار، أو مَفْعولًا له.

قوله: (﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾) بكسر القافِ: السَّبْعَة.

قوله: (**لا بد وأن يصير**) ورد في بعض النسخ بالواو، وفي بعضها بغير واوٍ، وقد وقع في كلام المتأخرين كثيرًا بالواو، وقد قيل: إنه لا يجوز وقوعها بين الاسم والخبر، وقيل: إنها زائدةٌ، ويمكن أن يقال: إن الخبر محذوفٌ، و«أن يصير» معطوف عليه، تقديره: «كلُّ أمرٍ لا بدّ له من الانتهاء وأن يصير إلى غاية»[1].

---

(١) من قوله: «لا بد وأن يصير» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف) وأثبته من (ط).

أي: اقتربت السَّاعةُ واقتربَ كُلُّ أمرٍ مستقرٌّ يسْتَقِرُّ ويَتبيَّن حالُه.

[﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ ٤-٨]

﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ من القرآنِ المُودَع أنباءَ القرونِ الخاليةِ، أو أنباء الآخِرةِ وما وصف من عذابِ الكفارِ.

﴿مُزْدَجَرٌ ﴾ ازْدِجارٌ أو موضعُ ازْدِجارٍ. والمعنى: هو في نفسِهِ موضعُ الازْدِجارِ ومَظِنَّةٌ له، كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١] أي: هو

قوله: (أيْ: اقْتَربت السَّاعةُ واقترب كُـلُّ أمـرٍ مُستَقرٌّ) عن بعضِهِم: هـو عَطَفَ قولَهُ: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ بأسرِهِ على قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾، وهو عطفُ مفردٌ، وهو المضافُ والمضافُ إليهِ الموصُوف على مفرد هو السَّاعةُ، فالعطفُ لتتميم المعنى، فيكونُ قوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ بَعْضًا من هذه الأمورِ المُستقرّة ذكر لتخْصِيصِه، وأنّه من أعْظَمِ الأُمورِ، فيَجوزُ أنْ يكونَ من بابِ قولِه: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ... وَجِبْرِيلَ ﴾ [البقرة: ٩٨]، إذا قدر: واقترب كلُّ أمرٍ مستقر قبلَه، أو من بابِ عطفِ ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧]، إذا قُدِّر بعدَه، وأمَّا توسِيط قولِه: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً ﴾ إلى آخره، فللاستطرادِ لذكْرِ انْشِقاقِ القمرِ تَوْبيخًا أو تَقْرِيعًا، ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ على أنْ يكونَ جملةً برأسِها، كان تَذْييلًا للكلامِ السَّابِق، ولذلك عمَّ الحكم بقوله: «كلُّ أمرٍ لا بُدَّ وأنْ يصِيرَ إلى غايةٍ يَسْتقرُّ عليها».

قوله: (هُو في نَفْسِه مَوضِع الازْدِجَار) و«في» فيه تجريديَّةٌ، نحوَ قولِه تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]. الرَّاغِب: مُزدجَر، أي: طَردٌ ومَنعٌ عن ارْتِكابِ المأثم، واستعمالُ الزَّجرِ فيهم لصِياحِهم بالمطرُودِ، نحو أن يقال: اغْرُب، وتنحَّ، وَوَراءك[1].

(١) «مفردات القرآن» ص ٣٧٨.

أسوةٌ. وقرئ: (مُزَّجَر) بقلب تاء الافتعال زايًا، وإدغام الزاي فيها.

﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾ بدلٌ من ﴿مَا﴾. أو على: هو حكمةٌ. وقرئ بالنَّصبِ حالًا من ﴿مَا﴾.

فإن قلتَ: إن كانت ﴿مَا﴾ موصوفةً ساغَ لك أن تنصب حكمةً حالًا، فكيفَ تعمل إنْ كانت موصوفةً وهو الظَّاهر؟

قلتُ: تخصِّصُها الصِّفةُ؛ فيحسُنُ نصبُ الحالِ عنها.

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ نفيٌ أو إنكارٌ. و«ما» منصوبة، أي: فأيُّ غَناءٍ تُغني النُّذُرُ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلمِكَ أنَّ الإنْذارَ لا يُغني فيهم، نُصِبَ ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ بـ﴿يَخْرُجُونَ﴾، أو بإضْمارِ: اذكر. وقُرِئَ بإسقَاطِ الياءِ اكتفاءً بالكسرةِ عنها، والدَّاعي إسرافيلُ أو جبريلُ، كقولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ [ق: ٤١].

قوله: (﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلْمِك أنَّ الإنذارَ لا يُغني فِيهِمْ) إشارةٌ إلى رَبْطِ الآياتِ، وأنَّ هذه الفاء نتيجةٌ للكلامِ السَّابِق، وفي مَدْخُولِها معنى المُتَارَكَةِ والمُوادَعَةِ، وذلك أنَّه تعالى لمّا أخبر عن المُعانِدين أنَّه بلغ إعراضهم وتمرُّدُهم، بحيثُ إنْ يَروا آية يقولوا: سحر مستمرّ وكرَّر المعنى بقوله: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ لأنَّ الإعراض[١] وقولهم: سحرٌ مُستمِر[٢]، تكْذيبٌ ومتابعةٌ للهوى، ثُمَّ جاء بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ جملةٌ قَسَميّةٌ حالًا مقررةً لجهةِ الإشكال، أي: يُكذِّبون، والحال أنَّه جاءَتهم حكمةٌ بالغةٌ، ثُمَّ سجَّل عِنَادَهم بقولِه: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾، قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي: بعدَ أنْ استَعلَمت حالَهم وأنَّهم لا يُؤمنون البتَّة، فتولَّ عنهم وأعْرِض عن الإنْذَار، لأنَّ الإنذارَ إنَّما يُفيدُ إذا انْتَفَع به المُنذَرُ.

---

(١) من قوله: «وقالوا سحر» إلى هنا ساقط من (ح).

(٢) من قوله: «وكرّر المعنى» إلى هنا ساقط من (ط).

﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾: مُنكرٌ فظيعٌ تُنكرِه النُّفُوسُ لأنَّها لم تَعهد بمثلِه وهو هَولُ يومِ القيامةِ. وقُرِئَ: (نُكْرٍ) بالتَّخْفيفِ؛ و(نُكِرَ) بمعنى: أُنكِرَ.

﴿خاشعًا﴾ حالٌ من الخارجين فعلٌ للأبصار، وذُكّر كما تقول: يخشعُ أبصارُهم.

قوله: (وقرئ: «نُكْرٍ» بالتَّخفيفِ) ابن كثير، والبَاقُون: بضمِّها[١]. قال أبو البقاء: ﴿نُّكُرٍ﴾ بضمِّ النون والكاف، وبإسكان الكافِ، وهو صفة بمعنى: منكَرٌ[٢].

قوله: (و«نُكِرَ» بمعنى: أُنكِرَ) قال ابن جِنِّي: قرأ مجاهدُ والجَحْدري وأبو قُلابة: «إلى شيءٍ نُكِرٍ»، أي: جُهِل، يقال: قد أنكرت الشَّيء فهو مُنكَرٌ، ونكِرتُه فهو منكُورٌ، مثله: مَررت بصبيٍّ يُضرَبُ؛ وصْفٌ بالفِعْلِ[٣].

قوله: (خَاشعًا) أبو عمرو وحمزة والكسائي: «خاشعًا»[٤] بفتح الخاء وألف بعدها، والباقون: بِضمِّ الخاء وفتح الشِّين مشدَّدة[٥].

قوله: (حالٌ من الخَارجين) قال أبو البقاء: ﴿خُشَّعًا﴾ حالٌ، وفي العاملِ وجهانِ: أحدُهما: ﴿يَدْعُ﴾، أي: يدعُوهم الدَّاعِي، وصاحبُ الحالِ الضَّميرُ المحذوفُ، و﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ مرفوعٌ بـ﴿خُشَّعًا﴾، وجَاز أنْ يَعْمل الجمعُ لأنَّه مُكسَّرٌ، والثَّاني: العاملُ ﴿يَخْرُجُونَ﴾.

وقُرئ: «خَاشِعًا»، والتَّقْديرُ: فريقًا خاشعًا، ولم يؤنَّث، لأنَّ تأنيثَ الفاعلِ تأنيثُ الجَمْع، وليس بِحقيقيٍّ، ويجوزُ أن ينتصِبَ «خَاشِعًا» مَفْعولًا به لـ﴿يَدْعُ﴾، و﴿يَخْرُجُونَ﴾ على هذا: حالٌ من أصحابِ الأبْصار[٦].

---

(١) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٢.
(٢) «إملاء ما منَّ به الرحمن» (٢: ٢٤٩).
(٣) «المحتسب» (٢: ٢٩٨).
(٤) من قوله: «أبو عمرو» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف) واستدركته من (ط).
(٥) انظر: «التيسير» للدَّاني ص١٣٢.
(٦) «إملاء ما من به الرحمن» (٢: ٢٤٩).

وقُرِى: (خَاشِعَةً) على: تَخشَعُ أبصارُهم. ﴿خُشَّعًا﴾، على: يَخْشَعنَ أبصارُهُم، وهي لُغةُ من يقول: أكلُوني البَراغِيثُ، وهم طَيِّئ. ويجوزُ أن يكون في ﴿خُشَّعًا﴾ ضميرهم، وتقع ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ بدلًا عنه.

وقُرِئَ: (خُشَّعٌ أبْصَارهم)، على الابتداءِ والخبر، ومحلُّ الجملةِ النَّصب على الحالِ. كقوله:

وَجَدتُهُ حاضِراهُ الجودُ والكَرَمُ

وخشوعُ الأبصارِ: كنايةٌ عن الذِّلة والانْخِزال، لأنَّ ذِلَّة الذَّليلِ وعزَّةَ العزيزِ تَظهران في عيونِهما. وقُرِئ: (يُخرَجون)، ﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ من القُبورِ. ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ الجراد: مَثَلٌ في الكَثْرةِ والتَّموّج. يقال في الجيش الكَثير المائِج بعضُه في بعض:

قوله: (وقُرِئَ: «خَاشِعةً») قال الزَّجَّاجُ: قرأها ابنُ مسعودٍ، ولك في أسماء الفَاعِلين إذا تَقدَّمت على الجماعة التَّوحيدُ، نحو خَاشِعًا أبْصَارهم، ولك التّوحيدُ والتَّأنيثُ نحو: خاشعةً أبصارهم، ولك الجمعُ نحو: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾[١].

قوله: (وهي لغةُ من يقولُ: أَكلُوني البراغيثُ) وقال صاحبُ «التقريب»: وفيه نظرٌ، لأنَّه لا حاجةَ إلى البِناء علَيه، لجوازِ «جاء رجلٌ قَعُودٌ غلمانه»، يريد ما قاله أبو البقاء: جاز أن يُعمل الجمع لأنَّه مُكسَّر.

قوله: (وجدتُه حَاضِراه الجودُ والكَرَمُ)، أوله:

جئتُ الَّذي كنتُ أرجُو فَضْلَ نائِلِه[٢]

---

(١) «معاني القرآن» (٥: ٨٦).

(٢) البيت للأخطل يمدح بِشر بن مروان، وهو في «ديوانه» ص٤٢ وهو بتمامه فيه:

إذا أتيتَ أبَـــا مــروانَ تسألُــهُ   وجدتَــهُ حَاضِراه الجــودُ والكَرمُ

وليس كما ذكر المصنف، فالله أعلم بالصواب.

جاؤوا كالجرادِ، وكالدَّبا مُنتشِرٍ في كلِّ مَكانٍ لكثرتِه.

﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ مُسرِعين مادِّي أعناقِهم إليه. وقيل: ناظرين إليه لا يُقْلعُون بأبْصارِهم. قال:

تَعَبَّدَني نِمْرُ بنُ سَـعْدٍ وقد أرَى ... ونِمْرُ بنُ سَعْدٍ لي مُطِيعٌ ومُهْطِعُ

[﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ * فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ * وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ * وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ * تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ * فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ ٩-١٧]

﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ قبلَ أهلِ مكّة، ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ يعني نُوحًا.

«حاضِراهُ» مبتدأٌ، و«الجودُ والكَرمُ» مبتدأٌ وخبرٌ، ومحلُّ الجملةِ نصبٌ على الحال.

قوله: (كالدَّبا) الدَّبَا: الجرادُ الصِّغار، قبلَ أنْ يَطير.

قوله: (﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ مُسْرِعين)، قال أبو البَقاء: ﴿مُّهۡطِعِينَ﴾ حالٌ عندَ قومٍ من الضَّميرِ في ﴿مُّنتَشِرٞ﴾، وهو بعيدٌ لأنَّ الضمير في المنتشرِ للجرادِ، وإنَّما هو حالٌ من ﴿يَخۡرُجُونَ﴾[١].

الرَّاغِب: هطَع الرَّجُل ببَصَرِه: إذا صوَّبه، وبعيرٌ مُهْطِعٌ: إذا صوَّبَ عُنقَهُ، قال تعالى: ﴿مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٤٣][٢].

قوله: (تَعبَّدني نمرُ بنُ سَعْدٍ) البيت[٣]، يقول: اتَّخَذني نمرُ بن سعدٍ عَبْدًا، وكان قبلَ هذا مُطيعًا لي، وناظرًا إليَّ.

---

(١) «إملاء ما من به الرحمن» (٢: ٢٤٩).

(٢) «مفردات القرآن» ص٨٤٣.

(٣) البيت غير منسوب في «لسان العرب» (عبد) و(نمر) و(هطع).

فإن قلتَ: ما معنى قولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا﴾ بعدَ قولِه: ﴿كَذَّبَتْ﴾؟

قلتُ: معناه: كذَّبُوا فكذَّبُوا عبدَنا أي: كذَّبوهُ تكْذيبًا على عقبِ تكْذِيبٍ، كُلَّما مضى منهم قَرنٌ مكذِّبٌ تبعه قَرنٌ مُكذِّبٌ. أو كذَّبتْ قومُ نوحٍ الرُّسلَ فكذَّبوا عبدَنا، أي: لمّا كانوا مُكذِّبين بالرُّسُلِ جاحِدينَ للنُّبوَّةِ رأسًا: كذبوا نوحًا؛ لأنَّه من جُملةِ الرُّسلِ.

﴿مَجْنُونٌ﴾ هو مجنونٌ. ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ وانتَهرُوه بالشَّتمِ والضَّربِ، والوَعيدِ بالرَّجمِ في قولهم: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، وقيل: هو مِن جُملةِ قيلِهم، أي:

قوله: (أو كذَّبت قومُ نوحٍ الرُّسُلَ فكذَّبوا عبْدَنا)، والفاعِلُ الأوَّلُ تعقيبٌ، وعلى هذا للتَّسبيبِ.

الانتصاف: ومضى سؤالٌ في قوله: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ [سبأ: ٤٥] وأجاب الزَّمَخْشَريُّ: «إنّه كقولِ القائلِ: أقدَم فلانٌ على الكُفر فكفر»، وأقول: إنَّ الأولَ مطلَقٌ والثَّاني مقيَّدٌ، وليس بتكرارٍ، وهو كقوله: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ فإنَّ تعاطِيه هو نفسُ «عقَرَ»، لكنَّه ذكَرَهُ من جِهةِ عُمومِه، ثُمَّ من ناحية خُصوصِه امْتِهانًا[1].

وقلت: ومثلُه أيضًا قولُه تعالى: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] ولا شَكَّ أنَّ ما سَلَكهُ المصنف أولًا فنٌّ بليغ يُذهبَ إليه، نحو ما جاء في الحديث: و«الأمْثَل فالأمْثَل»[2]، وفي قولِهم: وجاء القومُ الأفْضَلُ فالأفْضَلُ، والأكْرمُ فالأكْرمُ، واستدعاه المَقام لاستمرارِ تكْذيبِهم لهُ، قومًا بعد قومٍ، مدَّةَ ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عامًا، فَوجَبَ المصيرُ إليه بخلافِ تلك الأمثلةِ.

قوله: (وقيل: هو من جُملةِ قِيْلِهم) فيكونُ تتميًا للمعنى الأوَّل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] وعلى الأولِ تكميلٌ، لأنَّ و﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ حينئذٍ

---

(١) «الانتصاف» لابن المنيِّر (٤: ٤٣٣) بحاشية «الكشاف».

(٢) إشارة إلى حديث: «أشد الناس بلاءً الأنبياءُ، ثُمّ الأمثل فالأمثل» والحديث عند الترمذي (٢٣٩٨)، والنَّسائي (٧٤٨١).

قالـوا: هو مجنونٌ، وقدِ ازدَجَـرتْه الجـنُّ وتخبَّطتهُ وذهبتْ بِلُبِّه وطـارت بقَلبِه.

قُـرِئَ: ﴿أَنِّي﴾ بمعنى: فدَعا بأني مغلوبٌ، و(إني): على إرادةِ القَولِ، فدَعا فقال: إني مغلوبٌ غلبَنِي قومي، فلمْ يسمعُوا مِنِّي واستَحْكَم اليأسُ من إجابَتِهم لي.

﴿فَٱنتَصِرۡ﴾: فانتقِم منهم بعذابٍ تبعثُه عَليْهِم، وإنَّما دَعا بذلكَ بعد ما طَمَّ عليه الأمرُ وبلغ السَّيلُ الزُّبَى، فقد رُويَ: أنّ الواحدَ من أُمَّتِه كان يلقاهُ فيخنُقه حتَّى يَخِرَّ مَغْشيًّا عليه، فيفيقُ وهو يقولُ: اللهم اغفِرْ لقَومِي فإنَّهم لا يعلمون.

وقُرِئَ: ﴿فَفَتَحۡنَآ﴾ مخففًا ومُشدَّدًا، وكذلك ﴿وَفَجَّرۡنَا﴾. ﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾ مُنْصَبٍّ في كَثرةٍ وتَتابُـعٍ لم ينقطعْ أربعينَ يومًا.

﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ وجعلنا الأرضَ كُلَّها كأنَّها عيونٌ تتفجَّر، وهو أبلغُ من قولِك: وفجَّرنا عيُونَ الأرضِ، ونَظِيرُه في النَّظْمِ: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: ٤].

﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ يعني مياهَ السَّماء والأرض. وقُرِئَ: (الماءان)، أي: النَّوعان من

خارجٌ عن حَيِّزِ القولِ، عَطَف على «قالوا» ذلك القول، وما اكتفوا به، بل ضمُّوا إليه هذا الفعلَ، ولهذا قال: «وانْتَهروه بالشَّتمِ والضَّربِ».

قوله: (وبَلغَ السَّيلُ الزُّبَى) قال الميدانيُّ: وهي جمع زُبية، وهي حُفرةٌ تُحفرُ للأسدِ في الرَّابيةِ إذا أرادوا صيدَه، لا يعلوها الماءُ، فإذا بَلغ إليها السَّيلُ كان جارِفًا مُجْحِفًا يضرَبُ لما جاوزَ الحدَّ[1].

قوله: (قُرِئَ: ﴿فَفَتَحۡنَآ﴾ مخففًا ومُشدَّدًا) ابن عامر: بالتَّشديدِ، والباقون: بالتَّخْفيف[2].

قوله: (ونَظِيرُه في النَّظْم: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: ٤])، قال صاحب «المِفْتاح»: إسْنَاد الاشْتِعالِ إلى الرَّأسِ لإفَادةِ شُمولِ الاشْتِعال الرأسَ، إذ وزانُ اشتعلَ شيبُ رأسي،

---

(١) «مجمع الأمثال» للميداني (١: ٩١).

(٢) «التيسير في القراءات السبع» ص٧٦.

الماءِ السَّماوِيِّ والأَرْضيِّ. ونحوه قولك: عِندي تمرانِ، تريد: ضَربَانِ من التَّمر: بُرنيٌّ ومَعْقلي. قال:

لـنا إِبـلانِ فِيهما ما علمتُمُ

وقرأ الحسنُ (الماوان)، بقلبِ الهمزةِ واوًا، كقولهم: **علْبَاوان**.

﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾: على حالٍ قدَّرَها الله كيف شَاءَ. وقيل: على حالٍ جاءتْ مقدَّرةً مُستويةً: وهي أنَّ قَدْرَ ما أُنزلَ مِن السَّماءِ كَقدْرِ ما أُخرِجَ من الأرضِ سواءً بسواءٍ. وقيل: على أمرٍ قد قُدرَ في اللَّوح أنَّه يكون، وهو هلاكُ قومِ نوحٍ بالطُّوفان.

﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾ أرادَ السَّفينةَ، وهي من الصِّفاتِ التي تقومُ مقامَ الموصُوفاتِ

واشتعلَ رأسي شيبًا، وِزان اشتعلَ النَّار في بيتي، واشتعل بيتي نارًا[١]، وإليه الإشارةُ بقولِه: «وجعلنا الأرضَ كلَّها كأنَّها عيونٌ تتفجَّرُ».

قوله: (لنا إِبلانِ فِيهما ما علمتُمُ)، تمامه:

فعن أيِّها ما شِئْتُمْ فَتَنَـــكَّبُوا[٢]

«ما عَلِمْتُم» أي: من قِرى الأضيافِ وصِلةِ ذوي الفاقةِ إبلان، أي: طَائِفتان، أو قطعتان، فَتنكَّبُوا: اعتمدوا.

الجَوهري: نَكبَ على قومه نِكابةً: إذا كان مَنْكِبًا لهم يعتَمِدون عليه، وهو رأسُ العُرَفاء. ويُروى: فعلى أيهما فعلى عن تَنكّبوا مَضْمن معنى تَفَحّصوا.

قوله: (عِلْباوان)، **الجوهري**: العِلْباء: عَصَب العُنُق، وهما عِلْبَاوان بينهما مَنْبت العُرف، وإنْ شئت قلت: عِلباآن لأنَّها همزةٌ مُلحقةٌ، وإن شئت شبَّهْتها بهمزةِ التَّأنيث التي في حَمراء، وبالأَصْليَّة التي في كِساء، والجمع: العِلابِيّ.

---

(١) «مفتاح العلوم» للسّكاكي ص٢٨٦ .

(٢) قال البغدادي في «خزانة الأدب» (٧: ٥٦٥): وهو بيت مفردٌ لم يُذكر غيره ولا قائله.

فتنوبُ منَابها وتودِّي مُؤَدَّاها. بحيثُ لا يُفْصَلُ بينها وبينها. ونحوه:

.... وَلَكِــنّ قَمِيصِي مَسْرُودَةٌ مِنْ حَدِيدِ

أراد: ولكنَّ قميصي درعٌ، وكذلك:

ولَو فِي عُيونِ النازِياتِ بأَكْرُعِ

أراد: ولو في عُيونِ الجرادِ. ألا ترى أنَّك لو جمعتَ بين السَّفينةِ وبين هذه الصِّفةِ، أو بين الدِّرعِ والجرادِ وهاتين الصِّفتينِ: لم يصحَّ، **وهذا من فصيح الكلام وبديعِه**.

والدُّسُرَ: جمع دِسَارٍ: وهو المِسمارُ، **فِعَالٌ، من: دَسَرهُ؛ إذا دَفعَه؛ لأنَّه** يُدسَرُ به مَنفَذُه.

قوله: (**ولو في عُيُونِ النَّازِياتِ بأَكْرُعِ**) **الجوهري**: التَّنَزِّي: التَّوثُّبُ والتَّسرُّع. الأكرع: أرْجُلُهنَّ، أي: الوَاثِباتُ بِسُوقٍ وأرْجُلٍ دقِيقةٍ، وألحقَ الشَّارحُ قبله:

وإنِّي لأَسْتَوفي حُقُوقِي جَاهِدًا

قوله: (**وهَذا من فَصيحِ الكلام وبَدِيعِهِ**) وهو من الكِنايات التي المطلوبُ بها نفسُ الموصوفِ، كما تقولُ في الكِنَايةِ عن الإنسانِ: إنَّه حيٌّ مستوي القَامة عريضُ الأظْفارِ، وفيه حصولُ المطلوبِ مع التَّصويرِ، هاهنا صوَّر إيحاءهم بشيءٍ عُمِل من المَساميرِ القويَّةِ، والأخشابِ الرَّصينةِ. وأكثرُ ما يقع هذا في كَلامِ الجَبابِرة تَهاونًا بالمطلوبِ، كقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ﴾ [الرعد: ١٧].

وأنْشَد ابن جِنِّي بيتَ «الكِتاب» في وصف سفينةٍ:

أمّــا النَّهــارُ ففِي قَيــدٍ وسلسـلةٍ والليلُ في جوفِ مَنحُوتٍ من السَّاجِ(١)

أي: السَّفينةُ.

قوله: (**فِعَالٌ، من: دسَرهُ؛ إذا دفعَه**)، **الراغبُ**: الدَّسْر: الدَّفعُ الشَّديدُ بعنف، يقال:

---

(١) البيت من شواهد سيبويه في «الكتاب» (١: ١٦٠)، ولعل قائله أحد اللصوص كما في «الكامل في الأدب» (٣: ٢٩).

﴿جَزَآءً﴾ مفعول له، لِمَا قُدِّم من فتحِ أبوابِ السَّماءِ وما بعدَه، أي فعلنا ذلك جزاءً، ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ وهو نوحٌ عليه السَّلامُ، وجعلَه مَكْفورًا لأنَّ النبي ﷺ نعمةٌ من الله ورحمةٌ. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فكان نوحٌ عليه السَّلام نعمةً مَكفُورةً، ومن هذا المعنى ما يُحكى أنَّ رجلًا قال للرَّشيدِ: الحمد لله عَليكَ، فقال: ما معنى هذا الكلامَ؟ قال: أنتَ نعمةٌ حَمِدتُ اللهَ عليها.

ويجُوزُ أن يكونَ على تَقْديرِ حذفِ الجارِّ وإيصالِ الفعلِ. وقرأ قَتادةُ: (كَفر)، أي: جزاءً للكافرين. وقرأ الحسنُ (جِزاءً)، بالكسرِ: أي مجازاةً.

الضَّميرُ في ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾ للسَّفينةِ. أو للفعْلةِ، أي: جعلناها آيةً يُعتبرُ بها. وعن قَتادَة: أبقاها الله بأرضِ الجزيرةِ ـ وقيل: على «الجُوديِّ» ـ دهرًا طويلًا، حتَّى نظرَ إليها أوائلُ هذهِ الأمَّةِ. والمُدَّكِرُ: المُعتبرُ. وقُرِئَ: (مُذْتكِر) على الأصل، و(مُذَّكِر)، بقلب التَّاءِ ذالًا وإدغام الذَّالِ فيها، وهذا نحو: (مُزَّجِر). والنُّذُر: جمع نذيرٍ وهو الإنذارُ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي سهَّلناهُ للادِّكار والاتِّعاظِ، بأنْ شحَنَّاهُ بالمواعِظ الشَّافيةِ، وصَرَّفنا فيه من الوَعدِ والوَعيدِ ﴿فَهَلْ مِن﴾ مُتَّعِظٍ؟

دَسَرهُ بالرمح، ورجلٌ مِدْسَرٌ، كقولك: مِطْعن. وروي: ليس في العَنْبرِ زكاةٌ، إنَّما هو شيءٌ دَسَرهُ البحرُ[١].

قوله: (على تَقْدير حَذْف الجار وإيصال الفِعْل) والكُفْرُ على هذا ضدُّ الإيمانِ، والأصلُ: لمن كان كُفِر به، ثمَّ حُذِف الجارُّ فبقي المفعول، ولما بُني الفعل للمَفْعول انْقَلب المَجْرُور مرفوعًا والبَارِز مُستَكِنًّا.

قوله: (بأن شحَنَّاه) أي: ملأناه، الجَوْهري: شحنتُ السَّفينة: مَلأتُها، قال الله تعالى: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩] عبَّر عن تكرير المواعظِ والوعدِ والوَعيدِ بالتَّيْسِير،

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٣١٤.

وقيل: ولقد سهَّلناهُ للحفظِ وأعنَّا عليه من أرادَ حِفْظه، فهل من طَالبٍ لحِفْظِهِ لِيُعانَ عليه؟! ويجوزُ أن يكونَ المعنى: ولقد هيأناهُ للذِّكرِ، من يسَّرَ ناقتَه للسَّفَرِ: إذا رحَّلها، ويسَّر فرسَه للغزوِ: إذا أسرَجهُ وألجمه. قال:

وَقمت إِلَيْــهِ بِاللِّجَــامِ مُيَسِّرًا هُنَالِكَ يَجْزِيني الَّذِي كُنْتُ أَصْنَعُ

ويُروَى: أنَّ كُتب أهلِ الأديانِ نحو التَّوراةِ والإنجيلِ لا يَتْلوها أهلُها إلا نَظَرًا ولا يَحْفَظُونها ظَاهرًا كما القرآن.

[﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ * فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ * أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ ١٨ - ٢٥]

لأنَّ الإنسانَ مجبولٌ من الطَّبائعِ المختلفة، كلُّها داعيةٌ إلى الشَّهواتِ والرُّكونِ إلى السُّفْليات، واستئصالِ تلك العُروق الضَّاربة من قَعْرِ الطَّبيعةِ لا يسْتَتِبُّ ولا يتيسَّرُ إلا بتكريرِ المواعظِ والقَوارِعِ، ألا ترى إلى سورةِ الرَّحمنِ وتكرير ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟

قوله: (**وقمتُ إليهِ باللِّجامِ**)، البيت[1]، يَجْزيني، أي: يكْفِيني، يقول: قمتُ إلى فرسي متهيئًا باللِّجَامِ للدِّفاعِ أو القِتالِ، ثُمَّ قال: هنالك أي: في ذلك الوقت، يكفيني ما أُعانِيه، وما أُعاملُ به من إيثار اللين والتَّضْمير والتَّعليفِ، قيل: كان البدويُّ يقف على فرسِهِ ناقةً أو ناقتين، يسقيه لبَنها، فهو يقول: هنالك يَجْزيني هذا الفَرسُ.

قوله: (**كَما القرآنُ**) «ما» كافَّة، أي: كما هو القرآن.

---

(١) والبيت للأعرج المعني، انظر: «شعر الخوارج» للدكتور إحسان عباس ص٢٤٣.

﴿وَنُذُرِ﴾ وإنذاري لهم بالعذابِ قبلَ نُزولِهِ، أو إنذارٌ أتى في تَعْذِيبِهم لمن بَعْدَهم.

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ في يوم شُؤْمٍ. وقُرِئَ: (في يومِ نَحِس) كقوله: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾. [فصلت: ١٦].

﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ قد استمرَّ عليهم ودامَ حتى أهلكهم. **أو استمرَّ عليهم جميعًا** كبيرِهم وصغيرِهم، حتَّى لم يبقَ منهم نسمةٌ، وكان **في أربعاءَ في آخر الشَّهر لا تدور**. ويجوزُ أن يُريد بالمستمر: الشَّديد المَرارةِ والبَشاعةِ.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ تَقلَعُهم عن أماكِنهم، وكانوا يصْطَفُّونَ آخذين أيديَهم بأيدي بعضٍ، ويتدخَّلُون في الشِّعابِ، ويَحفُرونَ الحُفَرَ فيَنْدسُّونَ فيها، فتَنْزعُهم وتَكبُّهم وتدُقُّ رِقابَهم.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ يعني: أنَّهم كانوا يتساقَطُون على الأرض أمواتًا وهم جثثٌ طِوالٌ عِظامٌ، كأنَّهم أعجازُ نَخْلٍ، وهي: أصولُها بلا فروع، ﴿مُّنقَعِرٍ﴾: **مُنقلِعٍ عن مَغارِسه**. وقيل: شُبِّهوا بأعجازِ النَّخلِ، لأنَّ الرِّيحَ كانت تقطَعُ رؤوسَهم فتُبقِي

قوله: (**أو استمر عليهم جميعًا**)، يعني الاستمرارَ، إمَّا بحسبِ الزَّمانِ، يعني دامَ عليهم ذلكَ أزمنةً مُمتدَّةً حتَّى أهلكَهم، وإمّا بحسب الأشخاص كما قال: استَمَرَّ عليهم جميعًا، والأوّل أظْهرُ وأوفقُ لما في حم السَّجْدة: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ [فصلت: ١٦] ويؤيده قوله: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ قال: قد استقرَّ عليهم إلى أنْ يُفضي بهم إلى عذابِ الآخرة، وكان أوَّلُ تلك الأيام يومَ الأربعاء، فذكر ها هنا بدايتها، ودلَّ على البَواقي بمُستمرٍّ، وهناك ذكر البداية والنِّهايةَ.

قوله: (**في أربعاء في آخرِ الشَّهر لا تَدُور**) أي: اسْتمَرّ عَلَيهم الأرْبِعاء لا يَرْجع لهم، أي: دام الشؤم. عن الوَاحِديِّ، قال ابنُ عبّاس: كانوا يَتَشاءمون بذلك اليوم[1].

قوله: (**مُنْقَلِعٍ عن مغارِسه**). الرَّاغب: قَعْرُ الشَّيءِ: نهايةُ أسفَلِه، وقولُه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ

---

(١) «الوسيط» (٤: ٢١٠).

أجسادًا بلا رؤوس. وذكّر صفةُ ﴿نَخۡلٍ﴾ على اللَّفظِ، ولو حملَها على المعنى لأنَّث، كما قال: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧].

﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا﴾ نُصب بفعلٍ مُضمرٍ يُفسِّرُهُ: ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ وقُرِئَ: (أَبَشَرٌ منّا واحدٌ) على الابتداءِ. و﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾: خبرُه، والأوّلُ أوجَه للاسْتفهام. كأنَّ يقول: إنْ لم تتَّبِعُوني كنتم في ضلالٍ عن الحقِّ، و«سُعُرٍ»: ونِيرانٍ، جمعُ سعيرٍ، فعَكَسُوا عليه فقالوا: إن اتَّبعناكَ كنا إذن كما تقولُ. وقيل: الضَّلال: الخطأ والبُعد عن الصَّواب. والسُّعُر: الجنون. يقال: ناقةٌ مَسْعورةٌ. قال:

كأنَّ بها سُعْرًا إذا العِيسُ هَزَّها ذَمِيلٌ وإرخاءٌ مِنَ السَّيْرِ مُتْعِبُ

أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ أي: ذاهبٍ في قَعرِ الأرضِ، قال بعضهم: انْقَعَرتِ الشَّجَرةُ: انقلعت من قَعْرِها، وقيل: معنى انقعَرت: ذهبت في قَعْرِ الأرضِ، وإنَّما أراد تعالى أنَّ هؤلاء اجْتُثُّوا، كما اجْتُثَّتِ النَّخل الذَّاهب في قَعرِ الأرض، فلم يبقَ لهم رسمٌ ولا أثرٌ، وقَصْعةٌ قَعِيرةٌ: لها قَعْرٌ، وقَعَّرَ فلانٌ في كلامِه: إذا أخْرَجَ الكلامَ من قَعْرِ حَلْقِهِ، وهذا كما يُقال: شدَّقَ في كلامِه، إذا أخرج من شِدْقِه[1].

قوله: (فعَكَسُوا) أي: عَكَسُوا في جوابِه، أي: المعنى الَّذي أوردَه في الخِطاب، أوردوه في الجواب، وردُّوه به من غير اعْتِقادٍ منهم، لأنَّ الضَّلال الَّذي هو مقابلُ للهدى، والسُّعُر من السَّعير، إنَّما يستعملها الأنبياءُ في إنْذاراتِهم مع القَومِ، كما جاءَ في آخر هذه السُّورة: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ لا يعتقدونها، ولذلك قال: كُنَّا إذن كما تقُول، وهو قريبٌ من القولِ بالمُوجِبِ.

قوله: (كأنَّ بها سُعْرًا)، البيت[2]، الضَّمير في «هَزَّها» راجعٌ إلى العِيسِ، وهي الإبل البِيْض يُخالِط بياضَها شيءٌ من الشُّقْرةِ، وفاعلُ هزَّها: ذميلٌ، الذَّميلُ والإرخَاءُ[3]: ضربانِ

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٦٧٩.

(٢) استشهد ابن الأنباري بهذا البيت في «الزاهر» (١: ٢٥٥)، والخطَّابي في غريب الحديث (٢: ٣٢) ولم ينسباه لأحدٍ.

(٣) في (ط): «والإرضاء» وهو تصحيفٌ.

فإن قُلتَ: كيف أنكروا أن يتَّبِعوا بشرًا منهم واحدًا؟

قلتُ: قالوا: أبشرًا؛ إنكارًا لأنْ يتَّبِعوا مِثلَهم في الجِنسيَّةِ، وطلبوا أنْ يكونَ من جنسٍ أعلى من جنسِ البَشر وهم الملائكةُ، وقالوا: ﴿مِّنَّا﴾ لأنَّه إذا كان منهم كانت المُماثلة أقوى، وقالوا: ﴿وَٰحِدًا﴾ إنكارًا لأنْ تتَّبع الأمّةُ رجلًا واحدًا. أو أرادوا واحدًا من أفنائِهم ليس بأشرفِهم وأفضَلِهم، ويدلُّ عليه قولهم: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: أُنزل عليه الوحيُ من بيننا، وفينا من هو أحقُّ منه بالاختيارِ للنبوّةِ؟

﴿أَشِرٌ﴾ بطرٌ متكبّرٌ، حملهُ بطرهُ وشطارَتُه وطلبُه التَّعظُّمَ علينا على ادِّعاء ذلك.

[﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ٢٦ - ٣٢]

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ عند نُزولِ العَذاب بهم، أو يوم القِيامة ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ أصالحٌ أم من كذَّبه؟ وقُرِئَ: (ستَعلمُونَ) بالتَّاء، على حكايةِ ما قالَ لهم صالحٌ مجيبًا لهم. **أو هو كلامُ الله تعالى على سبيلِ الالتفاتِ.**

من السَّيرِ، يقول: إذا هزَّ العِيسَ هذانِ النوعان من السَّيرِ ترى يا فَتى حينئذٍ فيَّ مثلَ الجُنونِ.

قوله: («سَتَعْلَمُون») أي: بالتَّاء الفَوقانية: ابنُ عامرٍ وحمزة(١).

قوله: (**أو هو كلامُ الله على سبيلِ الالتفاتِ**) أي: قال الله سبحانه وتعالى لصالح عليه السَّلام: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ عند نُزولِ العذابِ بهم ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾، مُسلِّيًا لصالح فخاطبهم به صالحٌ ـ بالتَّاء الفَوقانية ـ وتحريره: أنَّه تَعالى لمَّا حكى المَقالةَ التي جرَتْ بين نُوحٍ وقومِه، وهي قوله: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا﴾، إلى قوله: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ وجوابَه عليه السَّلام:

---

(١) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٢.

وقُرِئَ: (الأَشُر) بضمِّ الشين، كقولهم: حَدِثَ وحَدُث، وحَذِر وحَذُر، وأخواتٍ لها. وقُرِئَ: (الأشَرُّ) وهو الأبلغُ في الشَّرارةِ. والأَخْيَرُ والأَشَرُّ: أصلُ قولهم: هو خيرٌ منه وشرٌّ منه، وهو أصْلٌ مرفوضٌ، وقد حكى ابنُ الأنباريِّ قولَ العربِ: هو أخْيَرُ وأَشَرُّ، وما أخْيَرَهُ وما أشَرَّهُ.

﴿مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ باعِثُوها ومخرِجُوها من الهَضْبَة كما سألوا، ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ امتحانًا لهم وابتلاءً ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ فانتَظِرهُم وتبصَّر ما هم صانِعُون ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على أذاهُم ولا تعجَل حتَّى يأتيَكَ أمرِي.

﴿قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ مقسومٌ بينَهم: لها شِربُ يومٍ ولهم شِربُ يوم. وإنَّما قال: ﴿بَيْنَهُمْ﴾، تَغْليبًا للعُقلاءِ.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ كان من الظَّاهر أنْ يُقال: أجابَهم بما أوْحينا إليه أنْ يجيبَ به، وهو ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾، بالياء التَّحْتانِيَّة، فعدَلَ إلى التَّاءِ نقلًا للمعنى لا اللفظِ، ثُمَّ حكى الله تعالى لفظَه، وفي جَعْلِه من الالتفاتِ بُعدٌ.

قوله: (﴿مُّحْتَضَرٌ﴾ **محضورٌ لهم أو للنَّاقَة**). قال الواحِديُّ: أي يحضُر القومُ يومًا، وتحضُر النَّاقةُ يومًا، وحضَر واحْتَضَر واحدٌ[1].

الرَّاغب: الحَضَر خلافُ البَدْوِ، والحَضَارة ـ بفتح الحاءِ وكسرها ـ الكون بالحَضَر، كالبِدَاوة، ثمَّ جَعل ذلك اسمًا لِشَهادةِ مكانٍ أو إنسانٍ أو غيرِ ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٨] وذلكَ من بابِ الكِناية: أي يحضرني الجنُّ، وكُنِّي عن المجنُون بالمُحتَضَر، وكذلك كُنِّي عمَّن حضَره الموتُ بالمُحتَضَر، وذلك لَمَّا نبَّه عليه قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وقوله: وشِربٌ مُحْتَضرٌ، أي: يحضُرُه أصحابُه،

---

(١) انظر: «الوسيط» (٤: ٢١١).

﴿مُّحۡتَضَرٞ﴾ محضورٌ لهم أو للنَّاقَةِ. وقيل: يُحضِرون الماء في نوبَتِهم واللَّبَن في نوبَتِها.

﴿صَاحِبَهُمۡ﴾ قِدارُ بن سَالِف أُحيمرُ ثمودَ، ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ فاجْتَرأ على تعاطِي الأمر العَظيمَ غير مُكْترثٍ له، فأحدث العَقْر بالنَّاقةِ. وقيل: فتَعَاطَى النَّاقَة فعَقرها، أو فتعاطَى السَّيفَ.

﴿صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾: صيحـةُ جبريـلَ، والهَشيمُ: الشَّجـرُ اليابسُ المتهشِّـمُ المتكسِّرُ،

وتجارةٌ حاضِرةٌ، أي: نَقْدًا[1].

قوله: (أُحَيْمر ثَمودَ) عُطْف بيانٍ لـ«قِدار». أنشد الزَّجَّاجُ لزُهيرٍ يصفُ حَربًا:

فتُنتِجْ لكُم غِلمانَ أشـأَمَ كلُّهُم كأحمرِ عادٍ، ثُمَّ تُرضِعْ فتَفْطِمِ[2]

قوله: (﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ فاجْتَرأ على تَعَاطِي الأمرِ) فأحْدَث العَقْرَ بالنَّاقةِ، إنَّما حمَلَهُ على هذا التَّفسير اتِّحاد معنى ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾، كما ذَكَره صاحِب «الانتصاف» قُبَيْل هذا.

---

(١) «مفردات القرآن» ص٢٤١.

(٢) «معاني القرآن» (٥: ٩٠) والبيت لزهير بن أبي سلمى في معلقته التي مطلعها:

أمن أمِّ أوفـى دمنـة لـم تكلّمِ بِحـومَـانـة الـدَّرّاج فالمـتثلّمِ

ويُعدُّ هذا البيت الذي استشهد به الزَّجاج مما غلط فيه زهير، كما بيَّن ذلك الشُّرَّاح والنُّقَّادُ، فقد قال الزّوزني في «شرح المعلقات السبع»: وأراد بأحمر عاد: أحمر ثمود وهو عاقرُ النَّاقة واسمه: قِدار بن سَالِف.

وقال السيوطي في «المزهر» (٢: ٢٩): يُريد كأحمر ثمود فغلط، لكن الجوهري حمل هذا الغلط على أنه من باب إقامة الوزن فقال في «الصحاح» (٦: ٦٦): وإنما قال زُهير: كأحمر عادٍ لإقامة الوزن، لَمَّا لم يمكنه أن يقول: ثمود، أو وهم فيه.

أما ابن مُنقذ فقد قال في «البديع في نقد الشعر» (٢: ٣٢) باب الغلط: أراد أحمر ثمود وهو عاقر النَّاقة، وقد احتج بعض العلماء فقال: أراد عادًا الأخرى، لأنهما عادان، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ فدلَّ على أنَّ ثمود عادٌ الأخرى.

﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: الذي يعمل الحَظِيرةِ وما يُحتَظرُ به يَيْبَس بطُولِ الزَّمانِ، وتتوطَّؤه البَهائمُ فيتحَطَّمُ ويتهشَّمُ. وقرأ الحسن بفتح الظَّاء وهو موضع الاحْتِظَارِ، أي :الحَظِيرة.

[﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ٣٣-٤٠]

﴿حَاصِبًا﴾ ريحًا تَحصِبُهم بالحِجارةِ، أي: تَرْمِيهم، ﴿بِسَحَرٍ﴾ بِقطْعٍ من الليل، وهو السُّدسُ الأخيرُ منه. وقيل: هما سَحَران، فالسَّحرُ الأعلى قبل انْصِداعِ الفجرِ، والآخرُ عند انْصِداعِه، وأنشد:

قوله: (الّذي يَعمل الحَظِيرةَ وما يُحتَظَر به) قال الوَاحِدي: المُحْتَظِر: الّذي يتَّخِذُ لغنمِه حَظِيرةً تمنعها من بردِ الرِّيح، يُقال: احْتَظَر على نَعَمِهِ الشَّجر، وضَع بعضَها فوقَ بعضٍ[(١)]. وقال الزجاج: كانُوا كالهَشيمِ الذي يجمعُه صاحبُ الحظيرة[(٢)].

الرَّاغِب، الحظْر: جمعُ الشَّيءِ في حظيرةٍ، والمحظُور: المَمْنوع، والمُحْتَظِر: الذي يَعْملُ الحَظِيرةِ، وقد جاء فلان بالحظْرِ الرَّطب، أي: الكذب المُسْتَبْشَع[(٣)].

قوله: (﴿بِسَحَرٍ﴾: بِقطْعٍ من الليل) الرَّاغِب: السَّحَرُ والسَّحْرَة: اختلاطُ ظلامِ آخرِ اللَّيل بضياء النَّهار، وجُعل اسمًا لذلك الوقتِ، يقال: لَقِيتُهُ بأعلى السَّحرينِ، والمُسْحِرُ: الخارج سَحَرًا، والسَّحُور: اسمُ الطَّعامِ المأكولِ سَحَرًا، والتسحُّرُ: أكْلُه[(٤)].

---

(١) «الوسيط» (٢: ٢١١).

(٢) «معاني القرآن» (٥: ٩٠).

(٣) «مفردات القرآن» ص ٢٤٣.

(٤) المصدر السابق ص ٤٠١.

مَرَّتْ بأَعْلى السَّحَرَيْنِ تَذْأَلُ

وصُرِفَ لأَنَّه نكرةٌ. ويُقال: لقيتُه سَحَرَ، إذا لقيتَه في سَحَرِ يومِهِ.

﴿نِّعۡمَةٗ﴾ إنعامًا، مَفعُول له ﴿مَن شَكَرَ﴾ نعمةَ الله بإيمانه وطاعتِهِ.

﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم﴾ لـوطٌ عليه السَّـلامُ ﴿بَطۡشَتَنَا﴾ أخْذَتَنا بالعذابِ، ﴿فَتَمَارَوۡاْ﴾ فكذَّبوا ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ مُتشاكِّين ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ فمَسحنَاها وجَعلْنَاها كسائرِ الوجهِ، لا يُرى لها شِقٌّ.

رُوِيَ أنَّهم لما عالجُوا بابَ لوطٍ عليه السَّلام ليدخُلوا، قالت الملائكة: خلِّهم يدخُلُوا، ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ [هود: ٨١] فصَفقَهُم جبريلُ عليه السَّلامُ بجناحه صفقةً، فتركهم يترَدَّدُونَ لا يهتدونَ إلى البابِ، حتى أخرجهم لوطٌ، ﴿فَذُوقُواْ﴾ فقلتُ لهم: ذوقوا على ألسنةِ الملائكةِ ﴿بُكۡرَةً﴾ أوّلَ النَّهارِ وباكرَه، كقوله: ﴿مُشۡرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣]، و﴿مُصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣]. وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: (بُكْرَةَ)، غير مُنصَرفةٍ،

قوله: (مرَّتْ بأعلَى السَّحَرين تذأَلُ) أي: تُسرِعُ، يصِفُ حُمرَ الوَحشِ، الذَّألان: مَشْي الذِّئب، والذُّؤالةُ: عَلَمٌ للذِّئبِ، كثُعَالة: الثعلب.

الرَّاغِب: قيل: السَّحَر سَحَرانِ؛ الأعلى قبل انْصِداعِ الفَجرِ، والآخرُ عند انْصِداعِه.

قوله: (وصُرِفَ لأنَّه نكرةٌ ويقال: لَقِيتُه سَحَرَ، إذا لقيتَه في سَحَرِ يومِه) أي: لا ينصَرِف، قال ابنُ الحاجب: سحر: يستعمل معرفة ونكرة، فالنكرةُ مُنْصرِفٌ، والمعرفةُ غيرُ مُنصرِفٍ، وليس فيه ما يمْنعُه الصَّرفَ، إلا أن تقدّر العَلَمية مع العَدل، ولو قيل: إنه مبني لتضمُّنه معنى الألف واللام يَبعد عن الصَّوابِ، كما أنَّ أمسِ على لغةِ أهلِ الحجاز مبنيٌّ لتضمُّنِه معنى الألف واللام، ولا يكونُ عَلَمًا على هذا، لأنَّ العَلَمَ إنَّما يكونُ عَلَمًا بالقَصدِ لا بتقديرِ حرفِ التعريف(١).

---

(١) انظر: «شرح الكافية لابن الحاجب» للشريف الرضي (١: ٤٩٦-٤٩٧).

تقول: أتيتُه بُكرةً وغُدوةً بالتَّنوين، إذا أردت التَّنْكِير، **وبُكْرةَ وغُدْوةَ إذا عرَّفْتَ** وقَصَدْتَ بكـرةَ نهـارِك وغُدوَتَه.

﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ ثابتٌ قد استقرَّ عليهم إلى أنْ يُفضِيَ بهم إلى عذابِ الآخرةِ.

فإنْ قُلتَ: ما فائدةُ تكريرِ قوله ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟

قلتُ: فائدتُه أنْ يجدِّدُوا عندَ استماعِ كُلِّ نبأٍ من أنباءِ الأوَّلين ادِّكارًا واتِّعاظًا، وأنْ يستأنِفوا تَنبُّهًا واستيقَاظًا، إذا سمعوا الحثَّ على ذلك والبَعثَ عليه، **وأنْ يَقرَعَ هم العصا مرّاتٍ، ويُقَعْقِع لهم الشَّنَّ تاراتٍ**؛ لِئلا يَغلِبَهم السَّهوُ، ولا تَستولي عليهم

قوله: (**وبُكْرةَ وغُدْوةَ إذا عُرِّفت**)، قال ابن الحاجبُ: وضعوا للأوقاتِ أعلامًا كما وضعُوا للمعاني الموجودةِ، وإن لم تكن الأوقات شيئًا موجودًا، أجراها مجرى الأمور الموجودة، والدليل على أنه عَلَمٌ: سير على فرسه غُدوةَ، فغدوةَ غير منصرف[1]، وإن لم يكن عَلَمًا لوجب صرفِه إذ ليس فيه إلا التَّأنيثُ اللفظيُّ، والتَّأنيثُ اللفظيُّ بالتَّاء لا يمنع إلا مع العَلَميّة، وقد يُستعمَلُ نكرةً، فيُعرَّف باللام كغيرِه[2].

قوله: (**وأن يَقْرَعَ لهم العَصا مرّاتٍ**) مضى تفسيره في أول البقرة.

قوله: (**ويُقَعْقِع لهم الشَّنَّ تاراتٍ**) الشَّنُّ: القِربةُ الخَلَق، وقيل في المثل: لا يُقَعْقَع بالشِّنان قال النَّابِغة[3]:

كأنَّـكَ مـن جِمالِ بنـي أُقيشٍ   يُقعقَـعُ خلـفَ رجليه بشَـنِّ

أي: كأنك جَمَلٌ من جِمال هذه القَبيلة، أي: إنَّك جَبانٌ في الحَرْب لا تَقْدِر على الطِّعَانِ، ولا تَقرَبُ إلى الحربِ، بل تَنْفِرُ عنها كما يَنفِرُ الجملُ من صوتِ الشَّنِّ وعن قَعْقَعتِه.

---

(١) من قوله: «وإن لم تكن» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف) واستدركته من (ط).

(٢) انظر: «شرح الكافية لابن الحاجب» للشريف الرضي (١: ٤٩٦-٤٩٧).

(٣) «ديوان النَّابغة الذُّبْياني» ص١١٤.

الغَفْلةُ، وهكذا حُكم التَّكريرِ، كقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ عِندَ كُلِّ نِعمةٍ عدَّها في سورةِ الرَّحمن، وقولِهِ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عندَ كُلِّ آيةٍ أوردها في سورةِ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، وكذلك تكرير الأنباءِ والقَصَصِ في أنفُسِها لتكونَ تلك العِبرُ حاضرةً للقُلوبِ، مُصوَّرةً للأذهانِ، مذكورةً غيرَ منْسيَّةٍ في كُلِّ أوانٍ.

[﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۞ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ ٤١-٤٢]

﴿ٱلنُّذُرُ﴾ موسى وهرون وغيرُهما من الأنْبياء، **لأنَّهما عَرضا عليهم ما أَنذرَ به المُرسلون.** أو جمعُ نذيرٍ وهو الإنذارُ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ بالآياتِ التِّسعِ ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يُغالَب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا يُعجِزُهُ شيءٌ.

[﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ۞ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۞ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۞ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ ٤٣-٤٦]

﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا أهلَ مكَّةَ ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ الكُفَّارِ المعدُودِين: قـوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وآلِ فرعونَ، أي أهم خيرٌ قوّةً وآلةً ومكانةً في الدُّنيا. **أو أقلُّ كُفرًا وعِنادًا يعني:** أنَّ كفَّارَكم مثل أولئكَ بل شرٌّ منهم ﴿أَمْ﴾ أُنزلت عليكُم يا أهلَ مكَّة ﴿بَرَآءَةٌ﴾

قوله: (**لأنَّهما عَرضا عَلَيْهم ما أَنْذر به المُرسَلُون**) يعني إنَّما جَمعُ النُّذُر في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ والمُنذِرُ مُوسى وهارُون، لأنَّهما آتيا بما يأتي به المُنْذِرون من الآيات والمعجزاتِ، وجميع ما يفتقر إليه المرسلون بأبلغِ وجه وأتمِّه، كأنَّهما المرسلون، أو أنْ يكون جمعَ نذيرٍ باعتبارِ الآيات التِّسع، فإنَّ كل واحدٍ منها نذيرٌ كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] أي: إنذارٌ على حِدةٍ.

قال الواحِديُّ: يجوز أنْ يكون جمعَ نَذيرٍ، وهي الآياتُ التي أَنذَرهم بها مُوسى(١)، وذلك قوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾.

قوله: (**أو أقـل كفرًا وعنـادًا يعني**)، إنَّ معنى الزِّيـادة في قوله: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ إذا

---

(١) انظر: «الوسيط» (٤: ٢١٢).

في الكُتبِ المتقدِّمةِ: أنَّ من كَفَر منكم وكذَّب الرُّسلَ كان آمنًا من عذابِ الله، فأمنتم بتلك البراءةِ؟ ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ﴾ جماعةٌ أمرُنا مجتمِعٌ ﴿مُّنتَصِرٞ﴾ ممتنعٌ لا نُرامُ ولا نُضامُ.

وعن أبي جَهلٍ أنَّه ضربَ فرسَه يومَ بدرٍ، فتقدَّم في الصَّفِّ وقال: نحن ننتَصرُ اليوم من محمَّدٍ وأصْحابِه، فنزلت: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ﴾. عن عكرمة: لمَّا نزلت هذه الآية قال عُمر: أي جمع يُهزَمُ، فلمَّا رأى رسولَ الله ﷺ يَثِبُ في الدِّرع ويقول: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ﴾ عرف تأويلها ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أي الأدبار، كما قال:

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمُ تَعِفُّوا

وقرئ: (الأدبارَ)، ﴿أَدۡهَىٰ﴾ أشدُّ وأفظعُ.

والدَّاهِيةُ: الأمرُ المُنكر الذي لا يُهتَدى لدوائِه ﴿وَأَمَرُّ﴾ مِن الهزيمةِ والقتلِ والأسرِ. وقُرِئَ: (سَنهزمُ الجمعَ).

[﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ * يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ * وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ ٤٧-٥٠]

اعتُبِر من جَانِب أولَئِك الكَفَرة، كان التقديرُ: أهم خيرٌ قوةً وآلةً؟ وإذا اعتُبِر من جانب كفَّارِ مَكَّة قيل: أقلُّ كفرًا، بل شرٌّ منهم.

قوله: (قال عُمر: أيُّ جمع يُهزمُ[1]) في هذه الرِّوايةِ نَظَرٌ لأنَّ همزةَ الإنكارِ في قولِه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾ دلَّ على أنَّ المنهزمين مَن هُم.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٣: ٢٥٩)، والطبري (٢٢: ٦٠٢)، وذكر ابن حجر في «الكاف الشاف» (٤: ٤٤٠) مع «الكشاف»: أنّ الحديث أخرجه عبد الرّزاق، وإسحاق والطّبري وابن أبي حاتم بمثل طريق عبد الرزاق. وحديث إسحاق أورده البُوصِيري في «إتحاف الخيرة المهرة» (٦: ٩٣)، وابن حجر في «المطالب العالية» (٣: ٣٨١) وحكما بانقطاعه.

﴿فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ في هلاكٍ ونيرانٍ، أو في ضَلالٍ عن الحقِّ في الدُّنْيا، ونيرانٍ في الآخرةِ.

﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ كقولك: وجَد مَسَّ الحُمَّى، وذاق طَعْمَ الضَّرْبِ؛ لأنَّ النَّارَ إذا أصَابَتْهم بِحرِّها ولفَحَتْهُم بإيلامها، فكأنَّها تَمَسُّهم مَسًّا بذلك، كما يمَسُّ الحيوانُ ويُباشِرُ بما يُؤذِي ويُؤلِم. و﴿ذُوقُواْ﴾: على إرادةِ القولِ. و﴿سَقَرَ﴾: عَلَمٌ لجهنَّمَ، من سَقَرَتْهُ النَّارُ وصَقَرَتْهُ: إذا لوَّحته. قال ذو الرُّمَّة:

إذا ذابَتِ الشَّمْسُ اتقى صَقَراتها ... بأَفْنانِ مَرْبُـــوعِ الصَّرِيمةِ مُعْبِلِ

وعدمُ صَرفها للتَّعريفِ والتأنيثِ. ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مَنصوبٌ بفعلٍ مُضمرٍ يُفسِّرُهُ الظَّاهِرُ، وقُرِئَ: (كلُّ شيءٍ) بالرَّفْع. والقَدَرُ والقَدْرُ: التقدير، وقُرئَ بهما ....

قوله: (فكأنها تمسُّهم مسًّا بذلك، كما يمَسُّ الحيوانُ ويُباشِرُ بما يُؤذِي) يريد: إنَّ ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ اسْتعارةٌ مَكْنيَّة، ويجوز أن يكون اسْتعارةً للإصابة مُصَرِّحة، وأشَار إليه بذلك الحَرِّ واللَّفح.

قوله: (إذا ذابَت الشَّمسُ) البيت، ذابت الشَّمسُ: اشتد حَرُّها، ويقال: ذابَ لُعاب الشَّمسِ، فيكون إسنادُ الذَّوَبانِ إلى الشَّمسِ مجازًا، والمَرْبُوع: الذي أتى عليه مطرُ الرَّبيع، والصريمة: الرمل المنقطعة من الرِّمال، المُعْبل: جماعةُ الشَّجر ذي العَبْل، والعَبْل: وَرَقُ الأرطى، والأفْنان: الغُصُون، الواحد فَنَنٌ، والصَّقرات: شدَّة وقْعِ الشَّمسِ، يَصِفُ الظَّبيَ، يقول: إذا اشْتَدّ الحرّ عليهِ اتَّقَى مِنْه بأفنانِ الشَّجر واستَظَلَّ به.

قوله: (والقَدَرُ والقَدْرُ) بِسُكون الدّال: شاذَّةٌ، وبالتَّحريكِ: المشهورةُ، و«كلُّ شيءٍ» بالرَّفع: شاذة[1].

قال أبو البقاء: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ بالنَّصبِ العاملُ فيه محذوفٌ، و﴿بِقَدَرٍ﴾ حالٌ من الهاء أو

---

(١) انظر: «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (٢: ٣٠٠).

من ﴿كُلَّ﴾، أي: مُقدرًا، ويُقرأ بالرَّفع على الابتداءِ، و﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾ نعتٌ لـ﴿كُلَّ﴾ أو لـ﴿شَيۡءٍ﴾، و﴿بِقَدَرٖ﴾ خبره وإنَّما كان النَّصْبُ أقوى لدَلالتِه على عُموم الخلق، والرَّفعُ لا يدلُّ على عُمومه، بل يُفيدُ أنَّ كلَّ شيءٍ مخلوقٍ فهو بِقَدَرٍ[١].

وذهب ابن الحاجب إلى أنَّ «كلُّ شيءٍ» مبتدأ، و﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾ خبرُه، و﴿بِقَدَرٖ﴾ حالٌ، والمجموع خبر «إنَّ»، فيفيد المعنى المقصود من الآية، لكن لا يأمنُ من أن يغلَطَ بعضٌ فيجعلَ ﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾ صفةً لـ«كلُّ شيءٍ»، و﴿بِقَدَرٖ﴾ خبرًا له، فيكون التَّقديرُ: كلُّ شيءٍ مَخْلوقٌ لنا بِقَدَرٍ، فيفيدُ غيرَ المقصود، لأنَّه يُوهم وجودَ شيءٍ ليس بقَدَرٍ، لأنَّه غيرُ مخلوقٍ له، فكان النَّصبُ أولى لما فيه النُّصوصيَّةِ على المقصودِ.

الانتصاف: ما مَهَّدَه النُّحاة اختيارُ رَفْعِ «كلّ»، ولم يقرأ بها أحدٌ من السَّبعةِ، لأنَّ الكلامَ مع الرَّفع جملةٌ واحدةٌ، ومع النَّصبِ جُملتان، فالرَّفعُ أَخْصَر، ولا مُقْتضى للنَّصب هاهنا من الأمور السِّتَّة؛ من الأمرِ والنَّهي إلى آخرها، وإنَّما وقع إجماعُ السَّبعةِ على النَّصبِ، لأنَّه لو رُفِعَ لَكانت ﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾: صفةً لـ﴿شَيۡءٍ﴾، و﴿بِقَدَرٖ﴾: خبرًا عن «كلّ شيءٍ»، المُقيّد بالصِّفَة، ومعناه: أنَّ كلَّ شيءٍ مخلوقٌ لنا بِقَدَرٍ، فيُفهم ذلك أنَّ مخلوقًا ما يُضَافُ إلى غير الله ليس بِقَدرٍ، وعلى النَّصْبِ يصير الكلام: إنَّا خلقنا كلَّ شيءٍ ﴿بِقَدَرٖ﴾، فيفيد عموم نسبة كُلِّ مخلوقٍ إلى الله تعالى[٢]، وهذه الفائدةُ لا تُوازِيها الفائدةُ اللفظيةُ مع ما فيها من نقصِ المعنى، لا جرم اجتمعت السَّبْعَة عليها. ولمَّا كان الزَّمخشري يرى أنَّ أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ لهم، استَرْوَح إلى قراءة الرَّفعِ وإن كانت شاذَّةً، وإجماعُ المتواترةِ حُجَّة عليه[٣].

وأمَّا بيانُ النَّظْمِ فهو ما عليه قولُ الزَّجَّاجِ: المعنى: ما خلقناهُ فمقدورٌ مكتوبٌ في اللوحِ المحفوظ قبلَ وُقُوعِه، والآياتُ من قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، إنَّما نزلت في القَدَريةِ،

(١) «إملاء ما مَنّ به الرحمن» (٢: ٢٥٠).
(٢) من قوله: «ليس بقدر» إلى هنا ساقط من (ح).
(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٤٤١).

....

ونَصْب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ بفعلٍ مُضمرٍ أي: إنَّا خلقنا كلَّ شيء خَلَقْناه بِقَدَرٍ، ويدلُّ عليه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ هذا هو المعنى المقصود الّذي نصَّ عليه ابنُ الحاجبِ، ويؤيده ما رُوِّينا، عن الإمام أحمد بن حنبل ومُسلمٍ والتِّرمذيِّ وابنِ ماجه عن أبي هُريرة، قال: جاء مُشْرِكو قُريشٍ يُخاصِمُون رسولَ الله ﷺ في القَدَرِ، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(١).

وتحريرُه واللهُ الموفقُ للصَّواب: أنّه تعالى افتتح هذه السُّورة الكريمة ببيانِ تكذيبِ المُشركين رسولَ الله ﷺ وما جاء به من الآياتِ الباهرةِ المُتَوالية، مثلَ انْشِقاق القَمَرِ وغيره، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، وأشارَ إلى أنَّ تكذيبَهم لم يكن إلا لمجرَّدِ مُتابعةِ الهوى، وتَسْويل الشَّيطانِ، ثمَّ قَصَّ أحوالَ الأُممَ وتكذيبَهم الأنبياءَ، ووخَامةَ عاقِبتِهم وسوءَ خاتمةِ أمرِهم، مُهدِّدًا أو مُسلِّيًا، ثمَّ عادَ إلى التَّقْريع، والإجمالِ بعد التَّفصيلِ، قائلًا: أكفَّارُكم خيرٌ من أولئكم الكفَّار المعدُودين، يعني: أنتم أشدُّ قوةً ومكانةً، أمْ هم؟ ثمَّ أضرَبَ عنه بقوله: ﴿أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ يعني: يا أهل مكةَ، أُنزلت براءةٌ لكم في الزُّبُرِ المتقدِّمةِ أنَّ من كَفَر منكم وكذَّب الرُّسلَ ليس له أسوةٌ بالأمم السَّالفة في الدَّمارِ والهلاك؟ أم تَزعُمون أنَّكم يدٌ واحدةٌ على من يُخالِفكم؟ فتنتصرون ممن عاداكم؟ وليس كذلك، لأن سنّة الله جارية بالانتصار من المكذبين، والانتقام للمرسلين، وعن قريب سنفرغ لكم(٢) ونجعل يَدَكم الواحدةَ أيادي ونهزمُ جمعَكم، ونستَأصِلُ شأفتَكم، والموعدُ الأكبرُ السَّاعةُ، والسَّاعةُ أدهى وأمرُّ.

ولمَّا تضمَّنتِ الآياتُ معنى ادِّعاء القُدرةِ والقُوَّةِ لأنفسِهم، والوَعيدِ بالإهلاكِ عاجلًا وآجلًا، والوَعدِ للمُؤمنينَ بالانتصارِ مِنهُم، جِيءَ بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، توكيدًا للوَعدِ والوَعيدِ، يعني: أنَّ هذا الوعدَ حقٌّ، وصدق الموعدِ والموعودِ مُثبتٌ في اللَّوح، مُقدَّرٌ

---

(١) انظر: مُسلم (٢٦٥٦)، والترمذي (٢١٥٧) و(٣٢٩٠) وابن ماجه (٨٣)، وأحمد (٢: ٤٤٤).

(٢) من قوله: «فتنتصرون» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف) وما أثبته من (ط).

أي: خلَقْنا كُلَّ شيءٍ مُقَدَّرًا مُحكمًا مُرتَّبًا على حَسبِ ما اقْتَضَته الحِكْمةُ. **أو مُقدَّرًا مَكتوبًا** في اللَّوح، معلُومًا قبل كونِه، قَد علمنا حالَهُ وزَمانَه.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ إلا كلمةٌ واحدةٌ سريعةُ التَّكوينِ ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أرادَ قولَه: كُنْ، يعني أنه إذا أراد تكوينَ شيءٍ لم يلبث كونه.

[﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ ٥١-٥٣]

﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشْباهَكُم في الكُفْر من الأُممِ، ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ في دَواوينِ الحفَظَةِ

عندَ الله، لا يزيدُ ولا ينْقُصُ، وذلك على الله يسيرٌ، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾، ثمّ عمّ التَّهديد في جميع ما صدَر عن المشركين من أعمالِهم السُّوء بقوله: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ كما قال: «كلُّ ما هو كائنٌ مسطورٌ في اللَّوحِ»، وبهذا ظهر أنَّ القَدَرَ كالأساسِ، والقَضاءَ كالبِناءِ عليه، وعليه كلام الرَّاغِب قال: القَضَاء من الله أخصُّ من القَدَرِ، لأنَّ الفَصلَ بين التَّقديرِ والقَدَرِ: هو التَّقديرُ، والقَضَاءُ: هو التَّفْصيل والقَطْعُ، وقد ذكر بعضُ العُلَماء أنَّ القَدَرَ بمنزلة المُدّ للكَيْل. ولهذا لما قال أبو عُبَيدةَ لعُمر رضي الله عنهما لمّا أرادَ الفِرار من الطَّاعُون بالشَّام: أتَفِرُّ من القَضَاءِ؟ قال: أفِرُّ من قَضَاء الله إلى قَدَرِ الله، تنبيهًا على أنَّ القَدَر ما لم يكن قَضَاءً فمرجوٌّ أنْ يَدْفَعَه الله، فإذا قضى فلا مَدْفع له، ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١] ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]. وقد اسْتَقْصينا القولَ في آخرِ سورة يونس عليه السـلام، وفي فاطر. وحديثُ عمر وأبي عبيدة مختصرٌ من «صحيح البُخَاريِّ» عن ابن عبّاس[١].

قوله: (**أو مُقدَّرًا مكتوبًا**) أي: القَدَر بمعنى التَّقدِير، فهو إمَّا أنْ يُحمل على المُقدَّر المسوّى بأمْثلة الحِكمة، كما قال تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [عبس: ١٨] أي: صُورَته وشَكْله الذي يُطابِق المنفعة المَنُوطة، وإمّا على الحُكم المُبرمِ الذي هو مُقارِنٌ للقَضاء.

---

(١) انظر: البُخَاري (٥٧٢٩)، وهو عند مُسلم أيضًا في «الصحيح» (٢٢١٩).

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ مـن الأعمالِ، ومِـنْ كُـلِّ ما هـو كـائنٌ ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ مَسْـطُورٌ في اللَّوحِ.

[﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ ٥٤-٥٥]

﴿وَنَهَرٍ﴾ وأنهـارٍ، اكتفى باسمِ الجنسِ. وقيل: هـو السَّعةُ والضِياءُ مـن النَّهـار. وقُرِئ: بسكون الهاء (نُهُرٍ) جمع نَهرٍ، كأَسَدٍ وأُسْدٍ.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكانٍ مَرْضيٍّ. وقُرِئَ: (في مَقاعِدِ صِدْقٍ)، ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ مقرَّبين عند مَليكٍ مُبهَم أمرُهُ في المُلكِ والاقْتِدار، فلا شيءَ إلا وهو تحتَ مُلكِه وقُدْرتِه، فأيُّ مَنْزلةٍ أكرمُ من تلك المَنْزلة وأجمعُ للغِبْطةِ كُلِّها والسَّعادةِ بأَسْرِها.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة القمر في كُلِّ غِبٍّ بعَثه الله يومَ القِيامة ووجْهُه مِثلَ القَمرِ لَيلةَ البدْر».

قوله: (عند مَليكٍ: مُبهَم أمرُهُ في المُلكِ والاقْتِدار) يعني جِيءَ بهما مُنكَّرين للإطلاق، وقال جَعْفر الصادق: مُدِح المكانُ بالصِّدقِ، فلا يَقْعُد فيه إلا أهلُ الصِّدْق[1]، هو المقعد الّذي يُصَدِّق الله فيه مواعِيدَ أوليائِه بأنْ يُتيحَ لهم النَّظَر إلى وجهِهِ الكريم.

قوله: (في كُلِّ غِبٍّ) أي: يقرؤه يومًا ويتركه يومًا.

تمت السُّورةُ

حَامِدًا لله تعالى ومُصلِّيًا على رسُولِ الله ﷺ.

* * *

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» للبَغَوي (٤: ٣٣٠).

سورة الرَّحمن

مكيّة، وقيل: مَدنيّة، وقيل: فيها مكي ومدني
وهي ست وسبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[﴿الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْءَانَ * خَلَقَ الْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ١-١٣]

عدَّد الله عزَّ وعلا آلاءَه، فأراد أن يُقدِّم أوَّل شيءٍ، ما هو أسبقُ قِدمًا من ضُروبِ آلائِه وأصنافِ نعمائِه، وهي نِعْمةُ الدِّينِ، فقدَّمَ من نِعمةِ الدِّين ما هو في أعلىٰ مراتِبها وأقصىٰ مَراقِيها، وهو إنعامُه بالقرآنِ وتنزيلِه وتعليمِه، لأنَّه أعظمُ وحيِ الله رتبةً، وأعلاهُ منزلةً، وأحسنُه في أبوابِ الدِّين أثـرًا، وهو سَنامُ الكُتبِ السَّمـاويةِ ومِصدَاقها والعِيارُ عَليْها،...

سورة الرَّحمن

مكية، وقيل: فيها مَدنيٌّ ومكيٌّ، وهي ستٌّ وسبْعُونَ آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله: (والعِيَارُ عليها) عن بعضهم: العِيارُ: مصدر: عَايَر المكاييل؛ إذا عدَّلها، والمُعدِّلِ

وأَخَّرَ ذِكرَ خلقِ الإنسانُ عن ذكرِهِ، ثم أتبعَه إيّاه؛ ليُعلم أنّه إنّما خلقَه للدِّينِ، وليُحِيطَ علمًا بوحيِهِ وكتبِهِ وما خُلق الإنسانُ من أجلِه، وكأن الغرضَ في إنشائِه كان مقدَّمًا عليه وسابقًا له، ثُمَّ ذكر ما تميَّز به من سائر الحيوانِ من البيانِ، وهو المنطقُ الفصيحُ المُعرِبُ عمّا في الضَّميرِ.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مبتدأٌ، وهذه الأفعالُ مع ضَمائرها أخبارٌ مُترادِفَةٌ، وإخلاؤها من العاطِف لمجيئِها علىٰ نمطِ التَّعْدِيدِ، كما تقول: زيدٌ أغْناكَ بعد فَقرٍ، أعزَّك بعد ذُلٍّ، كثَّرك بعد قِلَّةٍ، فعل بك ما لم يفْعَلْ أحدٌ بأَحدٍ، فما تُنكِرُ من إحسانِه؟

يكون حفيظًا على المُعدَّل ومُهيمنًا عليه، ولهذا قالوا: هو عِيارٌ على كذا، أي: القرآن عِيارٌ على سَائِرِ الكُتب كلِّها، ومُصدِّقُها ومُهيمنٌ عليها ليكون مستويًا.

قوله: (**وأَخَّرَ ذِكرَ خلقِ الإنسان**) أي: أخرَّ ما هو مُقدَّمٌ في الوجودِ، وقَدَّم ما هو مُؤَخَّرٌ عنه، ليُؤْذِنَ بأنَّ المقصودَ الأوَّلي من خلقِ الإنسان تَعليمُ ما به يُرشَدُ إلى ما خُلِقَ لَهُ من العبادةِ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وخُصَّ القرآنُ بالذِّكرِ لأنَّهُ أعظمُ وحيِ اللّٰـهِ رتبةً، وأعلاهُ منزِلةً، وأجمعُ لما يُرادُ بالهِدايةِ منَ الكُتبِ السَّماويَّةِ، إذْ هو بإعجازِه، واشْتِمالِه على مكارمِ الأخلاقِ، مُصدِّقٌ لنفسه ومِصداقٌ لها، ودلَّ اختصاصُ ذِكرِ الرَّحمنِ، على أنَّهُ من جَلائلِ النِّعم وعظائمِها، ولهذا السر صُدِّرت السُّورة براعةَ للاسْتهلال، لاشتمالها على النِّعم الأخروية والدُّنيوية[1]، وإنَّما أرْدَف الإنسانَ ذكرَ البيانِ، ليُنبِّهَ على أنَّ اختصاصَه بتلكَ النِّعمةِ السَّنيَّةِ من بين سائِرِ الحيوانِ، لتَميُّزِهِ وتعبيره عمّا في ضَمِيرِهِ بالنُّطقِ لإفهامِ الغَيرِ، فالنَّبيُّ إذا تلَقَّى الوحيَ يجبُ عليهِ التَّبْليغُ، ثمَّ تعليم الشَّرائعِ وبيان ما أُجمل.

وأما قوله: «وما خُلق الإنْسان لأجْلِه، وكان الغَرَض من إنشائه كان مُقدَّمًا عليه»، فيُنظر إلى قولهم: إنَّ الغاياتِ والكَمالاتِ سابقةٌ في التَّقدُّمِ، لاحِقةٌ في الوجودِ، نحوه ما رُوِّينا عن التِّـرمِذيِّ عن أبي هُريرة حين قالوا: يا رسول الله ﷺ متى وجبتْ لك النُّـبوَّة؟ قال: «وآدمُ بين

---

(١) من قوله: «ولهذا السِّر» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف)، وأثبته من (ط).

﴿بِحُسۡبَانٖ﴾ بحِسابٍ مَعلومٍ وتقديرٍ سويٍّ، يجريان في بُروجِهما ومنازِلِهما، وفي ذلك منافعُ للنَّاس عظيمةٌ: منها عِلمُ السِّنين والحساب.

﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾: والنَّباتُ الذي يَنْجُم من الأرض لا ساقَ له كالبُقُولِ، ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ الذي له ساقٌ. وسُجودُهما: انقيادُهما لله فيما خُلِقا له، وأنَّهما لا يَمْتَنعان، تشبيهًا بالسَّاجِد من المكلَّفِين في انقيادِه.

فإنْ قُلتَ: كيف اتَّصلَتْ هاتانِ الجُملتانِ بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؟

الرُّوحِ والجَسدِ»[1]، وزاد رَزِينٌ: «وآدمُ منجَدِلٌ في طِينتِه بين الرُّوحِ والجَسدِ[2].

قوله: (﴿بِحُسۡبَانٖ﴾: **بحسابٍ معلومٍ**)، قال الزَّجَّاجُ: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ مرفوعانِ بالابتداءِ، و﴿بِحُسۡبَانٖ﴾ يدلُّ على الخبر، أي: الشَّمسُ والقمرُ يجريان بِحُسبانٍ، أي: دالّان على عَددِ الشُّهورِ والسِّنين وجميع الأوقاتِ[3].

قوله: (**كيف اتَّصلتْ هاتان الجُملتانِ بـ«الرَّحمن»**) يُريدُ أنَّ هاتين الجُملتينِ مثلُ الجملةِ السَّابقة في كونها أخبارًا مترادفةً لـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وكلٌّ منها مشتملٌ على راجعٍ إلى المبتدأ، فأين الرَّاجعُ فيهما؟ كما قال القاضي: وكان حقُّ النَّظم فيهما أن يُقال: أجرَى الشَّمسَ والقمرَ، وأسجدَ النَّجم والشَّجَر، وأجاب: بأنَّ الوَصلَ المعنويَّ أغنى عن اللَّفظِ، والفائدة الإيذان بأنَّ المُسخَّرَ والمسجودَ له لا يُشارِك معه فيهما أحدٌ، فلا يذهبُ الوهمُ إلى الغيرِ[4].

---

(١) الترمذي (٣٦٠٩) وقال: هذا حديثٌ حسن صحيح غريب.

(٢) انظر: «جامع الأصول» (٨: ٥٤٤)، وهذه الزيادة التي ذكرها رَزِين، أخرجها أحمد في «المسند» (٤: ١٢٧ - ١٢٨)، والحاكم في «المستدرك» (٢: ٦٠٠) وغيرهما.

(٣) «معاني القرآن» (٥: ٩٤).

(٤) «أنوار التنزيل» (٥: ٢٧٢ - ٢٧٣).

قلت: استُغنِي فيهما عن الوصلِ اللفظيِّ بالوصلِ المَعْنويِّ، لَمَّا عُلِم أنَّ الحُسبانَ حُسبَانُه، والسُّجودَ له لا لغَيرِه، كأنَّه قيل: الشَّمسُ والقمرُ بحُسْبانِه، والنَّجمُ والشَّجرُ يسجدانِ لهُ.

فإن قلتَ: كيف أخلَّ بالعاطفِ في الجُملِ الأُولِ، ثُمَّ جِيءَ به بعدُ؟

قلتُ: بُـكِّتَ بتلكَ الجملِ **الأُول**، وَارِدة علىٰ سَنَنِ التعديد، لتكونَ كلّ واحدةٍ من الجُملِ مستقلّةً في تقريع الَّذِين أنكروا الرَّحمنَ وآلاءَه، كما يُبكَّتُ مُنكِرُ أيادي المُنعِم عليه من النَّاسِ بتَعدِيدها عليه في المثالِ الَّذي قدّمتهُ، ثُمَّ ردَّ الكلامَ إلىٰ منهاجِه بعد التَّبْكِيتِ في وصلِ ما يجبُ وصْلُه للتَّناسُب والتَّقارُبِ بالعَاطِفْ.

قوله: (بُـكِّتَ بتلكَ الجملِ الأُول) يعني: أنَّ الكفَّار كانوا مُقرِّين بأنَّه عزَّ وجلَّ خالقُ السَّماواتِ والأرض، وأنَّه مُولي النِّعم جَلائِلها ودقائِقها، فعَدلَ من مُقتَضى العطفِ والانتظامِ في سلك التأليفِ بحرفِ النَّسَقِ إلى أسلوبِ التَّعديد، للإيذانِ بأنَّ النِّعمَ غير مُتناهيةٍ، وغير دَاخلةٍ تحت الضَّبطِ والإحْصَاءِ، وإنَّما يُعدُّ بعضُها عَدًّا فذكر منها ما هو في أعلى مَراتِبها، وأَقْصَى مَراقِيها اكتفاءً به، وبعد التَّنبيهِ على هذه الدَّقِيقة، رجَعَ إلى مُقتَضَى الظَّاهِرِ من عَطْفِ الشَّيءِ على ما يضمّه المفكرة بجامِعِ العَقْل، أو الوَهمِ، أو الخيالِ، على منهاج التَّرصِيعِ، نحو: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]، وإليه الإشارةُ بقولِهِ: «ثُمَّ ردَّ الكلام إلى منهاجه، بعد التبكيت في وَصْلِ ما يجبُ وَصْله».

الانتصاف: خُصَّتِ الجُملُ الأُولُ بكونِها تَـبْكِيتًا للإنسانَ لالتِصاقِ مَعانيها به، لأنّه مذكورٌ فيها نُطقًا وإضمارًا، ومحذوفًا مُرادًا؛ نُطقًا في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، مُضمرًا في: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ محذوفًا مَـدْلولًا عليه في: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُـرْءَانَ﴾، فإنَّه المفعولُ الثاني، وقوله: الشَّمسُ والقَمرُ والنَّجمُ والشَّجرُ، فليس فيه للإنسان ذكر البتَّة[1].

---

(١) «الانتصاف» (٤: ٤٤٣) بحاشية «الكشاف».

فإن قلتَ: أيُّ تناسبٍ بين هاتين الجُمْلتين، حتىٰ وسَّط بينهما العَاطفَ؟

قلتُ: إنَّ الشمسَ والقمرَ سَماويان، والنَّجمَ والشَّجَر أرضيان، فبين القَبِيلين تناسبٌ من حيثُ التَّقابُل، وأنَّ السَّماءَ والأرضَ لا تزالان تُذكَران قَرِينَتين، وأنَّ جَرْيَ الشَّمسِ والقمرِ بحسبانٍ من جنس الانقيادِ لأمرِ الله، فهو مناسبٌ لِسُجودِ النَّجمِ والشَّجَرِ.

وقيل: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ جعله علامةً وآيةً. وعن ابن عبَّاس رضي الله عنه: الإنسانُ آدمُ. وعنه أيضًا: محمدٌ رسول الله ﷺ. وعن مجاهِدٍ: النَّجم: نُجوم السَّماء.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾: خلقها مرفوعةً مَسْمُوكةً، حيثُ جعلها منشأَ أحكامِه، ومصدرَ

قوله: (﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾: خَلقَها مَرْفُوعةً)، قال ابن جِنِّي: هو عطفٌ على قوله: ﴿يَسْجُدَانِ﴾ وحدها، وهي جملةٌ من فِعلٍ وفاعلٍ، نحو قولك: قام زيدٌ وعمرًا ضَربتُه، أي: وضربتُ عَمْرًا[١]. ومضى تقريره في الفتح.

وقال صاحب «الكشف»: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ جاء بالنَّصب عن الأئمةِ، لأنَّك إذا قُلت: زيدٌ لقيتُه، وعمرًا كلمتُه، نختار نصبَ عمرًا، وإذا أُريدَ الحملُ على لقيتُه فمعك جُملتان؛ صُغرى وكُبرى، أي: لقيته، وزيدٌ لقيتُه، هذا مذهب سِيْبوَيه، واعْتُرِض عليه أنَّه لو عُطِف على محلِّ لقيتُه كان التَّقديرُ: عمرًا كلمته؟ ويؤُول المعنى إلى معنى: زيدٌ كلمتُ عمرًا، وهو فاسدٌ، إذ لا عَائدَ في الجُملة إلى زيد. وأجاب أبو عليٍّ أنَّ المعْطُوفَ على الشَّيْءِ لا يُعتَبر فيه حال ذلكَ الشَّيء وتلا باب قولهم:

مُتقلِّدًا سيفًا ورُمحا

وزعم أنَّ الإعرابَ لم يظهرْ في موضعِ لقيتُه وما لا يظهر إلى اللفظ كان كالمطَّرح، وفزع إلى باب التَّسمية ببابٍ ودار، وأنَّهما مصرُوفانِ بخلاف قدمٍ وفخِذٍ[٢].

---

(١) «المحتسب» (٢: ٣٠٢).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٣٠٤).

قضاياه، ومُتنزَّلَ أوامرِه ونواهِيه، ومَسكنَ ملائكتِه الذين يَهبِطُون بالوحيِ علىٰ أنبيائِه؛ ونبَّه بذلِك علىٰ كبرياءِ شأنِه ومُلكه وسُلطانِه.

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ وفي قراءة عبد الله: (وخفَّضَ الميزان). وأراد به كلّ ما تُوزَن به الأشياءُ، وتُعْرفُ مقاديرُها؛ من مِيزانٍ وقَرسطُونٍ ومِكيالٍ ومقياسٍ، أي خَلْقهُ موضوعًا مخفُوضًا علىٰ الأرض: حيث علَّق به أحكامَ عِبادِه وقَضَايَاهُم، وما تَعَبَّدهم به من التَّسْوية والتَّعْديل في أخْذِهم وإعْطَائِهم.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾: لئلا تَطْغوا. أو هي (أنْ) المفسِّرةُ. وقرأ عبد الله: (لا تَطْغَوا) بغير (أن)، علىٰ إرادَة القَولِ.

﴿وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾: وقوِّمُوا وَزْنكُم بالعَدْلِ، ﴿وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾ ولا تُنقِصوه؛ أمرَ بالتَّسويةِ ونهىٰ عن الطُّغْيانِ الّذي هو اعْتِداءٌ وزِيادةٌ، ....

وقلت: الظَّاهِرُ أن يعْطِف على جملةِ قولِه: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ليؤذِنَ بأنَّ الأصلَ أجرىَ الشَّمسَ والقَمَر، وأسجد النَّجم والشَّجَر، فَعَدلَ إلى معنى دَوامِ التَّسْخِير والانقيادِ في الجُملتين الأُولَيين، ومعنى التَّوكيدِ في الأخيرة، فدل الاخْتِلافُ في الأخبارِ المتوالية لـ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ على مَعانٍ تبهرُ ذا اللبِّ.

قوله: (ونبَّه بذلك) أي: برفعِ السَّماء المُنبئ عن هذهِ المعاني.

قوله: (حيث عَلَّق به أحْكامَ عِبادِه)، قال أولاً: «حيث جَعَلَها منشأ أحكامه»، ليُشير به إلى تعليلِ وصْفِ السماءِ بالرَّفع، وقال ثانياً: «حيثُ علّق به أحكامَ عبادِه» تعْليلاً لِوَصْفِ الميزانِ بالخَفْضِ والوضع، فالمعنى: أنزل من السَّماءِ الكِتابَ وأمرَ فيه بالقِسطِ والحُكْمِ بالعَدْلِ في كُلِّ شيءٍ، والتَّجافي عن الجَوْر، وجعل مِعياره في الأرضِ المَوازين ليَقُوموا فيهِ بالقِسطِ ظاهراً وباطناً، ولهذا السِّرِّ وُصِفَ الميزانُ بالقِسطِ في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]

وعن الخُسْران الّذي هو تَطْفيفٌ ونُقْصانٌ. وكرَّر لفظَ الميزانِ تشديدًا للتَّوصِية به، وتقويةً للأمرِ باسْتِعمالِه والحَثِّ عليه. وقُرِئ: (والسَّماءُ) بالرَّفع.

كأنها عينُ القِسطِ وذاتُه، وَوُضِعَ القِسط موضِعَ الميزان في حديث أبي موسى: «يخفض القِسْطَ ويَرْفَعُه»، بدليل حديثِ أبي هُريرة: «وبيده الميزانُ، يَخفِضُ ويَرْفَعُ» أي الميزان، وروى الأوّل مُسْلم[١]، والثّاني مُتّفَقٌ عليه[٢].

وجمع بينه وبين الكِتاب في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وفيه دليلٌ على أنَّ قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ حَمْلُه على التَّعليل أرجَحُ من التَّفسير، ولأنَّ فيه إجراء «وَضَع» مجرى «وصّى» المؤوَّل بالقول، لاسْتِقامة تفسير ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ لـ«وَضَع»، وبهذا يظهر معنى قوله: بالعَدلِ قامتِ السَّمواتُ والأرْضُ[٣].

قوله: (كرَّر لفْظَ المِيزان) أي: أقيم المظهران مقامَ المضمرين في الموضعِين، فقوله: «تَشْديدًا للتَّوصيَة» معناه: قيل أولًا: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ امتِناناً وتوصيةً في شأنه، ثم عقّب: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ﴾[٤] وكان من الظَّاهر أن «لا تَطْغوا» فيه، أي في حقِّه وشأنِه، فوضَع موضِعه الميزان، تشديدًا للتَّوصية بشأن الميزانِ.

قوله: (تقويةً للأمرِ باستعمالِه) معناه: أنّه أمر أولًا بقولِه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾، ثُمَّ عَقَّب بالنَّهي عن ضدِّه في قوله: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ وأُقيمَ المُظْهر مقامَ المُضْمرِ بقولِه: للأمرِ باستعمالِ القِسطِ فيه.

---

(١) يريد بذلك حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن الله لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، يَخْفِض القِسْطَ ويرفَعُه، يُرفَع إليه عملُ الليل قَبْلَ عَمَلِ النَّهار...»، والحديث عند مسلم (١٧٩).

(٢) انظر: البُخَاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

(٣) من قوله: «قوله: حيث عَلَّق» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف) وأثبته من (ط).

(٤) من قوله: «امتنانًا» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف)، وأثبته (ط).

(ولا تَخْسِرُوا) بفتح التَّاء وضمِّ السِّين وكسرِها وفتحِها. يقال: خَسِر الميزان يَخْسَرَه ويُخْسِره، وأمّا الفتحُ فعلىٰ أنَّ الأصلَ: ولا تَخْسَروا في المِيزان، فحَذفَ الجارَّ وأوصل الفعلَ. و﴿وَضَعَهَا﴾ خفضَها مَدْحوّةً علىٰ الماءِ. ﴿لِلْأَنَامِ﴾ للخلقِ، وهو كلُّ ما علىٰ ظهر الأرضِ من دابةٍ. وعن الحسنِ: الإنسُ والجنُّ، فهي كالمِهَادِ لهم يتَصرَّفُون فوقَها.

﴿فَٰكِهَةٌ﴾: ضُروبٌ مما يُتفكَّه به، و﴿ٱلْأَكْمَامِ﴾ كلُّ ما يُكَمُّ، أي: يُغطَّىٰ من لِيفهِ وسَعْفِهِ وكفرّاهُ، وكلُّه مُنتفَعٌ به كما يُنتفعُ بالمكمُومِ من ثمرِه وجُمَّارِه وجُذوعِه.

وقيل: الأكمامُ أوعيةُ الثَّمَرَ، الواحدُ: كِمّ، بكسر الكاف.

الرَّاغب: في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ يجوزُ أن يكون إشارةً إلى تحرِّي العَدَالة في الوزنِ وترك الحيف فيما يتعاطاه بالوزن، ويجوزُ أن يكون ذلك إشارةً إلى تعاطِي ما لا يكون به في القِيامَة خاسِرًا، فيكون ممن قال فيه: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨]، وكلا المعنيين مُتلازِمان، وكلُّ خُسرانٍ ذكرَه الله في القرآنِ فهو على المعنى الأخيرِ، دونَ الخُسران المتعلِّق بالمُقْتَنيات الدُّنْيويَّة والتِّجاراتِ البَشريَّة[١].

قوله: (﴿وَضَعَهَا﴾: خفضَها مَدْحوةً)، الراغب: الوضعُ: أعمُّ من الحطِّ، ومنه الموضع، ويُقال: ذلكَ في الحَمْل والحِمْل، وقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ والوَضْع: عبارة عن الإيجاد والخَلْق، ووضعتُ الحمل فهو موضوع، ووضعتِ المرأةُ الحملَ[٢]، ووَضْعُ البيتِ بناؤه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٩٦] ووضْعُ الكتابِ إبرازُ أعمالِ العِبادِ، والوضع في السَّير استعارةٌ، والوَضِيعة: الحَطِيطةُ من رأسِ المال، وقد وضع الرَّجل في تجارته، ورجل بَيِّنُ الضَّعةِ، في مقابلةِ رفيعٍ بيِّن الرِّفْعة[٣].

قوله: (وسَعْفِهِ) وهو غُصنُ النَّخْل، والكُفَرَّ: بضمِّ الكافِ وفتحِ الفاءِ وتشدِيد الرَّاء: كُمُّ

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٢٨٢.

(٢) من قوله: «والوضع» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف)، وأثبته من (ط).

(٣) «مفردات القرآن» ص ٨٧٤.

و ﴿ٱلْعَصْفِ﴾ ورقُ الزَّرْعِ، وقيل: التبن، ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ **الرِّزْق وهو اللّب، أراد فيها** ما يُتلذَّذ به من الفَواكه، والجامع بين التَّلذُّذِ والتَّغذِّي وهو ثَمرُ النَّخلِ، وما يُتغذَّىٰ به وهو الحبُّ. ....

النَّخل، لأنَّه يسترُ ما في جَوفِه، والجُمَّار: شحمُ النَّخلِ، وعن بعضهم: الأصل كُفَراه بالتَّخفيفِ، وهو ما يُغطِّي القِنْوَ، وهو الشِّمراخُ، من كَفَرهُ: إذا سَترَه.

قوله: (﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ **الرِّزْق وهو اللّب**)، يعني: الرَّيْحان يُطلقُ على الرِّزقِ، والمُراد هاهنا اللُّبُّ.

النهاية: الرَّيحان الرِّزقُ والرَّاحةُ، وكل نبتٍ طيِّبِ الرِّيحِ من أنواعِ المَشْمُومِ، فبالرِّزقِ سُمِّي الولد ريحانًا.

الراغب: الرَّيحانُ: ما له رائحةٌ، وروي: «الولدُ ريحانٌ»، وذلك كنحوِ ما قال الشاعر:

يـا حَبـذَا ريـحُ الولَـدْ ريـحُ الخُزامـىٰ في البلَـدْ[١]

وقيل: الريحَان الرِّزق، ثُمَّ يُقالُ للحبِّ المأكولِ: ريحانٌ، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾، وقيل لأعرابي: إلى أين؟ فقال: أطلبُ من ريحانِ الله، أي: من رزقِه، ومنه سُمِّي الولدُ رِزقًا[٢]. وإنمَّـا قُيِّد باللُّب ليُطابِق العَصْفَ، تَدُلُّ عليه قِراءة حمزة: «الرَّيحانِ» بالخَفْضِ حملاً على «ذو»، كأنَّه قيل: والحبُّ ذو العَصْفِ[٣] وهو التِّبْن رزقًا للدَّواب، وذُو الرَّيحانِ، أي: اللُّب، رزقًا للنَّاسِ كقوله تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ [السجدة: ٢٧]، فدلَّ عطفُ «والنَّخلِ» على «فاكهةٍ» بأنَّـه أشرفُ أنواعِ الفَواكِه، لأنه جامعٌ بين التَّلذُّذِ والتَّغذي، ثُمَّ عَطفَ عليه الحبَّ، وبيَّن أنَّه أيضًا جامعٌ بين رزقِ النَّاس والأنعام.

---

(١) البيت لأعرابية في «ربيع الأبرار» للزمخشري (٣: ٥٢١).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٣٦٩- ٣٧٠.

(٣) من قوله: «تدل عليه» إلى هنا، ساقط من (ح) و(ف)، وأثبته من (ط).

وقرئ: (والرِّيحان)، بالكسر. ومعناه: والحبُّ ذو العَصْفِ الذي هو عَلَف الأنْعَام، والرَّيحان الذِي هو مَطْعمُ الناسِ. وبالضم علىٰ: وذُو الرَّيحان، فَحُذِف المضافُ وأُقِيم المُضاف إليه مَقامَه. وقيل: معناه: وفيها الرَّيحان الَّذِي يُشمُّ، وفي مَصَاحفِ أهل الشام: (والحبَّ ذا العَـصْفِ والرَّيحانَ)، أي: وخَلَق الحَبَّ والرَّيحان، أو: وأخُصُّ الحبَّ والرَّيحانَ. ويجوزُ أن يُراد: وذا الرَّيحان، فيُحذفُ المضافُ ويقامُ المضافُ إليه مقامَه.

والخطابُ في ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ للثَّقَلين بدَلالةِ «الأنامِ» عليهما، وقوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾.

[﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ * وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ١٤-١٦]

الصَّلْصال: الطِّينُ اليابِس، له صَلصَلةٌ. والفَخَّارُ: الطِّينُ المطبوخُ بالنَّار وهو الخزَفُ.

فإن قلت: قد اخْتلفَ التَّنزيلُ في هذا، وذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٨، ٣٣]، ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] ﴿مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

قلت: هو مُتَّفقٌ في المعنىٰ، ومفيدٌ أنَّه خلقه من تُرابٍ: جعله طِينًا، ثُمَّ حمأً مسنوناً، ثمَّ صَلْصَالاً.

و﴿ٱلْجَآنَّ﴾ أبو الجِنّ. وقيل: هو إبليسُ. والمارِجُ: اللَّهبُ الصَّافِي الذي لا دُخانَ فيه. وقيل: المختلطُ بسَوادِ النَّار، من مَرجَ الشَّيءُ: إذا اضْطرَبَ واخْتلَط.

قوله: (قُرِئ: «والرِّيحانِ» بالكَسرِ) ابن عامر: «والحبَّ ذا العصفِ والرَّيحانَ» بالنَّصب في الثلاثة، وحمزة والكِسائي: «والرِّيحانِ» بالكَسرِ، وما عَداه: بالرَّفعِ، والباقُون: برفعِ الثَّلاثةِ[1].

قوله: (أو: وأخصُّ الحبَّ والرَّيحان) أي: هو مَنصُوبٌ بِمُضمرٍ إمّا بفعلٍ خاصٍّ أو على الاختصاص.

(١) «التيسير في القراءات السَّبع» ص١٣٢.

فإن قلتَ: فما معنىٰ قوله: ﴿مِّن نَّارٍ﴾ قلتُ: هو بيانٌ لِمَارِجٍ، **كأنه قِيل: من صافٍ من نارٍ، أو مُختلطٍ من نارٍ**، أو أرادَ من نارٍ مخْصُوصةٍ، كقوله تعالىٰ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤].

[﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ١٧-١٨]

قرئ: (ربِّ المشرقين وربِّ المغربين) بالجرِّ بدلًا من ﴿رَبِّكُمَا﴾، وأراد مشرقَي الصَّيفِ والشِّتاءِ ومَغْرِبَيْهما.

[﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ١٩-٢٣]

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أرسلَ البحرَ المِلح والبحرَ العَذب مُتجاوِرَين مُتلاقيَين، لا فَصْلَ بين الماءَين في مرأىٰ العَين. ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ **حَاجِزٌ من قُدْرةِ الله تعالىٰ**، ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ لا يتَجاوزَان حَدَّيْهما، ولا يَبْغي أحدُهما علىٰ الآخرِ بالمُمازَجةِ.

قوله: (**كأنه قِيل: من صافٍ من نارٍ، أو مُختلط من نَارٍ**) هذا الوجهانِ مبنيان على تفسيره المارج تارةً باللَّهب الصَّافي، وأُخرى بالمُختلِط بسوادِ النَّار، وعلى التَّقدِيرين جُرِّد من النَّار، إمَّا اللَّهبُ الصَّافي أو المُختلِطُ أو التَّنكيرُ في نارٍ للنَّوعِ أي: المعلومِ في عُرفِ الشَّرعِ، ولهذا استشهدَ بقوله: ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤].

قوله: (﴿بَرْزَخٌ﴾: **حاجزٌ من قُدرةِ الله**)، **الراغب**: البَرْزَخُ: الحاجِزُ، والحدُّ بين الشَّيْئَين، والبَرْزَخُ أيضًا: الحائلُ بين الإنسانِ وبين بُلوغِ المنازِلِ في الآخِرَة، وذلك إشَارةٌ إلى العَقبة المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] وتلكَ العَقبةُ، موانعُ من أحوالٍ لا يَصِل إليها إلَّا الصَّالحون[1].

---

(١) «مفردات القرآن» ص ١١٨.

قُرِئَ: (يُخْرَج) و﴿يَخْرُجُ﴾ من: أخرجَ وخَرجَ. و(يُخرِج) أي: الله عزَّ وجَلّ (اللؤلؤَ والمرجانَ) بالنَّصبِ. و(نُخرِج) بالنون. واللؤلؤ: الدرُّ. والمَرْجان: هذا الخرزُ الأحْمَر وهو البُسَّذُ. وقيل: اللؤلؤُ: كبارُ الدُّرِّ، والمرجانُ: صِغارُه.

فإن قلت: لم قال: ﴿مِنْهُمَا﴾ وإنَّما يخرُجان من المِلح؟

قلتُ: **لَمَّا التقيا وصَارا كالشَّيءِ الواحدِ: جَازَ أنْ يُقال: يخْرُجان منهما**، كما يقال: يخرُجَان من البحر، ولا يخرُجان من جَميعِ البحرِ ولكن من بَعْضِه. وتقول: خَرجتُ من البَلدِ، وإنَّما خَرجتَ من محَلةٍ من محَالِّه، بل من دَارٍ واحدةٍ من دُوره. **وقيل: لا يخرجان إلا من مُلتقىٰ المِلح والعَذْبِ.**

قوله: («يُخْرَجُ» و﴿يَخْرُجُ﴾) نافع وأبو عمرو: «يُخْرَجُ» بضم الياء وفتح الراء، والباقون: بفتحها[١].

قوله: (**لما التَقَيا وصَارا كالشَّيءِ الواحدِ جَاز أن يُقال: يَخْرجان**)، يعني أنَّه تعالى جَمَعَهُما في الذِّكرِ، فإذا خَرج من أحدِهما، يستَقِيم أن يُقال خَرج منهما، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٥-١٦] والقمر في السَّماءِ الدنيا.

الانتصاف: مِثله ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ [الزخرف: ٣١]، وإنَّما يُخرج من بعضِه، يُقال: فلانٌ من أهلِ دِيارِ مصرَ، وهو من محلَّةٍ واحدةٍ منها[٢].

قوله: (**وَقيل: لا يَخْرجَانِ إلا مِنْ ملتقى العَذْب والمِلحِ**[٣])، **الانتصاف**: هذا القول تردّه المُشاهدة، والأوّل أصحّ[٤].

---

(١) «التيسير في القراءات السَّبع» ص١٣٢.

(٢) «الانتصاف» (٤: ٤٤٦).

(٣) في «الكشاف»: «الملح والعذب»، والأمر فيه سهل.

(٤) المصدر السَّابق (٤: ٤٤٦) وهو تتمة لذات الانتقاد، لكن المصنف فرَّقهما هنا.

[﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٢٤-٢٥]

﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السُّفُن. وقرئ: (الجَوارُ) بحذف الياء ورفع الراء، ونحوه:

لَهَا ثَنَايَا أَرْبَـعٌ حِـسَانُ وَأَرْبَـعٌ فَكُلُّهَـا ثَـمَانُ

و﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ المَرْفوعاتُ الشُّرُع وقرئ بكسر الشِّين: وهي الرَّافعاتُ الشُّرع، أو: اللاتي يُنشئْنَ الأمواجَ بجَرْيهنَّ. والأعلامُ: جمعُ علَمٍ، وهو الجبل الطويل.

[﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٢٦-٢٨]

﴿عَلَيْهَا﴾ علىٰ الأرْضِ، ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ذاتُه، والوَجْه يُعبَّر به عن الجُمْلة والذَّات، ومَسَاكينُ مَكَّة يقُولون: أين وجهٌ عربيٌّ كريمٌ يُنقِذُني من الهَوانِ؟!

و﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ صفةُ الوجهِ. وقرأ عبد الله: (ذي) علىٰ: صفةِ ربِّك. ومعناه: الذي يُجلُّه المُوَحِّدون عن التَّشبيه بخَلقِه وعن أفْعالهم. ....

قوله: (فكُلُّها ثَمانُ) يعني: أجرى النُّونَ في «ثمانِي» مَجرى حرف الإعرابِ، نحو: الجَوارُ[1].

قوله: (الشُّرُع) جَمعُ الشِّراع، الجوهري: الشِّراعُ شراعُ السَّفينةِ.

قوله: (وقُرِئ بِكسرِ الشِّينِ)، قال صاحب «المُطلع»: أسند الإنشاء إلى السُّفُنِ مَجازًا، وإن كان الفعل لأصحابها، لأنَّها محالُّ الشُّرُع.

قوله: (و﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ صفةُ الوجهِ) والصِّفتان لله تعالى، إمَّا باعتبار أنَّه يُجلُّه الموحدون، أو باعتبار أنه يُجِلّ المُخلِصين الموحدين، والأوّل إمّا مقولٌ للبعض دون البعض، فهو المُراد من قولِه: «الذي يُجلّه الموحدون»، أو أنه في نفسهِ تعالى كذلك؛ سواء يُجِلُّه أحدٌ أو

---

(١) ولم أهتدِ إلى البيت عند غير الزمخشري.

....

لا، وهو المُراد بقولِه: «الذي يُقال له: ما أجَلَّك»، وإلى الثاني أشار بقولِه: «أو من عنده الجلال والإكرام»، فاعتبر فيه معنى المُضاف، أي: ذو، وفيه مُسحة من معنى ما رواه مُسلمٌ عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ: «حجابه[١] النُّور، لو كَشَفه لأحرقتْ سُبُحات وجهِه ما انتهى إليه بَصرُهُ من خَلْقِه»[٢].

قال الشيخ محيي الدين النَّواوي: سبحات وجهه بضم السِّين والباء: نورهُ وجلاله وبهاؤه، والمراد الحجاب المانع من رؤيته، سُمِّي النُّورُ حِجابًا لأنَّه يمنع من الإدراك لشعاعه، والـمرادُ بالوجِه الذَّاتِ، «ومِن» لبيانِ الجنس، والمعنى: أنَّه لو زال المانِعُ من رؤيتِهِ وهو الحِجابُ المُسمَّى نورًا، وتجلى لخلقه لأحرق جلال ذاته جميعَ مخلوقاته، والمراد بـ«ما انتهى إليه بصرُه من خلقه»: جميع المخلوقات، لأنَّ بصرَهُ سبحانه وتعالى محيطٌ بجميعِ الكائناتِ[٣].

وفي «شرح المظهري»[٤]: الضَّمير في «إليه» يعود إلى الوجهِ، وفي «بصرهِ» إلى الموصولِ، و«من» بيانُ «ما» و«بصره» فاعل. انتهى.

والموصولُ مع الصِّلة مفعولُ أحرقت، يعني: لو رفعَ حِجابَه لاحتَرَقَتْ خلقُه، لأنَّه لا طاقةَ لهم أنْ ينظُروا إلى ذاتِه في الدُّنيا.

الراغبُ: ولما كان الوجْهُ أولَّ ما يستقبِلُك، وأشرفَ ما في ظاهرِ البدنِ، استُعمل في مستقْبَلِ كلِّ شيءٍ، وفي أشرفِه ومبدئه، فقيل: وجهُ كذا، ووجهُ الـنَّهارِ، ويقال للقَصْدِ: وجهٌ،

---

(١) من قوله: «قوله: وذو الجلال» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف) وأثبتّه من (ط).

(٢) مسلم (١٧٩).

(٣) لعله يقصد به «المفاتيح على المصابيح» وهو شرحٌ لمظهر الدين الحسين بن محمود على «مصابيح» البغوي، وهو مفقود.

(٤) «المنهاج شرح صحيح مسلم» (٣: ١٣- ١٤).

أو الَّذي يُقال له: ما أجلَّك وأكرمَك! أو: مَنْ عِندَهُ الجَلالُ والإكرامُ للمُخْلصِين من عِبادِه، وهذه الصِّفةُ من عظيم صِفَاتِ الله؛ ولقد قال رسول الله ﷺ: «**أَلِظُّوا بيا ذا الجلالِ والإكرام**» ....

وللمقصد جِهةٌ ووُجهةٌ، وهي حيث ما يُتوجَّه، و«لكلٍّ وجهةٌ هو مُولِّيها» [البقرة: ١٤٨] إشارة إلى الشريعة، ووجَّهتُ الشَّيءَ: أرسلتُه في جهةٍ واحدةٍ، فتوجه، وفلان وجيهٌ: ذو جاهٍ، وأحمقُ ما يَتوجَّه بفتح الياء وحذف به عنه، أي: لا يستقِيمُ في أمرٍ من الأُمُور لحُمْقه، وأحمق ما يتوجه به: كناية عن الجهل بالتَّغوُّط. وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩] قيل: أريد بها الجارحةُ واستُعير للمذهب والطَّريق، نحو: فعلت كذا بيدي، وقيل: أريد بالإقامة تحرِّي الاستقامة، وبالوجه التَّوجُّه، أي: أخلصوا العبادة لله في الصَّلاةِ، وعليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢] وربما يُعبَّر به عن الذَّاتِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٨] و﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩] قيل: أُرِيدَ بالوجه التَّوجُّه إلى اللّٰـهِ بالأعمالِ الصَّالِحة، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] قيل: الوجه في كل هذا زيادةٌ(١).

ورُويَ أنَّه قيلِ ذلك لأبي عليٍّ الرِّضَا، فقال: سبحان الله، لقد قالوا عظيمًا! إنما أعني الوجه الذي يؤتَى منه، ومعناه: كل شيء من أعمالِ العباد هالكٌ وباطِلٌ، إلا ما أُرِيد به الإخلاص.

قوله: (**أَلِظُّوا بيا ذَا الجلالِ والإكرام**) رواه التِّرمذيُّ(٢) عن النَّبيِّ ﷺ، ورواه أحمد بن حنبل عن ربيعة بن عامر عن النبي ﷺ.

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٨٥٥- ٨٥٦.

(٢) في «جامعه» (٣٥٢٤) وقال: هذا حديثٌ غريب.

وعنه عليه الصَّلاة والسَّلام: أنَّه مرَّ برجلٍ وهو يُصلِّي ويقول: يا ذَا الجلالِ والإكرامِ، فقال: «قد اسْتُجِيب لك».

النهاية: أَلِظُّوا: الزَموا واثْبُتوا عليه، وأكثروا من قوله والتَّلفُّظِ به في دعائكم، ويقال: أَلَظَّ بالشَّيء، يُلِظُّ إلظَاظًا، إذا لَزمه وثَابَر عليه.

قال حُجّة الإسلام: لا جَلال ولا كَمال إلا وهُو لَهُ، ولا كَرامة ولا مَكْرُمَة إلا وهي صَادرةٌ منه، فالجلال في ذاتِه، والمكرمة فائِضةٌ منه على خَلْقِه، وفنون إكرامه خِلعَة لا تكاد تُحصى وتَتَناهى، وعليه دَلَّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠][١].

قوله: (مَرَّ برجلٍ وهو يُصلِّي ويقول) رُوِّينا عن أبي دَاودَ والتِّرمذيِّ والنَّسائِيِّ عن أنس أنَّه كان مع رسول الله ﷺ ورجلٌ يُصلِّي ثُمَّ دعا فقال: اللهم إنِّي أسألك بأنَّ لكَ الحمد لا إله إلا أنت، المنانُ بديعُ السَّماواتِ والأرض، ذو الجلالِ والإكرام، يا حيُّ يا قيومُ، فقال ﷺ لأصحابه: «أتدرون بما دعا»؟، قالوا: الله ورسولُه أعلم، قال: «والَّذي نَفْسِي بيدِه؛ لقد دعَا الله باسْمِه الأعْظَم، الَّذي إذا دُعي به أجابَ، وإذا سُئل به أعْطَى»[٢].

الراغب: الجلالُة: عِظمُ القَدْرِ، والجلالُ بغيرِ الهاء: التَّناهي في ذلك، وخُصَّ بوصفِ الله تعالى، فقيل: ذو الجلالِ والإكْرامِ، ولم يُستعمل في غيرِه، والجليلُ: العظيمُ القَدْرِ، ووصفُه تعالى بذلِكَ، إمّا لخلقِه الأشياءَ العظيمةَ المُستدلّ بها عليه، أو لأنَّه يَجلُّ عن الإحاطِة، وموضوعه للجسمِ العَظيمِ الغَليظِ، ولمُراعاة معنى الغِلْظَة فيه، قوبل بالدَّقيق، وقُوبِل العظيمُ بالصَّغيرِ، فقيل: جليلٌ ودقيقٌ، وعظيمٌ وصَغيرٌ، وقيل للبعيرِ: جليلٌ، وللشَّاةِ: دقيقٌ، لاعْتبارِ أحدِهما بالآخر.

---

(١) «المقصد الأسنى» ص١٤١ للغزالي عند شرح اسم الله تعالى: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٤٤)، وأبو داود (١٤٩٥)، والنَّسائي (١٣٠٠) وغيرهم.

فإن قلتَ: ما النِّعْمةُ في ذلك؟

قلتُ: أعظمُ النِّعمة؛ وهي مجيءُ وقتِ الجزاءِ عَقيبَ ذلك.

[﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٢٩-٣٠]

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كُلٌّ من أهل السَّموات والأرض مُفتقِرونَ إليه، فيسألُه أهلُ السَّمواتِ ما يتعلَّق بدينِهم، وأهلُ الأرضِ ما يتعلَّق بدينِهم ودُنياهم.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ أي: كلَّ وقتٍ وحينٍ يُحدثُ أمورًا، ويجدِّد أحوالًا، كما رُوي عن رسول الله ﷺ أنَّه تلاها فقيل له: وما ذلك الشأنُ؟ فقال: «من شأنِه أن يغفِرَ ذنبًا ويفرِّجُ كربًا، ويرفعَ قومًا ويضَعَ آخرين»، وعن ابن عُيَيْنة: الدَّهرُ عند الله تعالىٰ يومانِ، أحدهما: اليوم الذي هو مدَّةُ عمرِ الدُّنيا، فشأنه فيه الأمرُ والنَّهيُ والإماتةُ والإحْياءُ والإعطاءُ والمنعُ. والآخرُ: يومُ القِيامةِ، فشأنه فيه الجَزاءُ والحسابُ.

فقيل: ما أجلَّني ولا أدقَّني، أي: ما أعْطَاني بعيرًا ولا شاةً، ثُمَّ صارَ مَثلاً في كُلِّ صغيرٍ وكبيرٍ، وخُصَّ الجلالة بالنَّاقةِ الجَسيمَةِ، والجلَّة بالمَسَانِّ منها(١).

قوله: (ما النعمة في ذلك؟) ذلك إشارةٌ إلى مجموع قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ يعني: أنَّه تعالى رتَّبَ بالفَاء قوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ على تلك الآية تأنيبًا وتوبيخًا على كُفرانهم هذه النِّعمة السَّنِية، كقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي: يُنكر رزقكم، فأيُّ نعمةٍ في بقاءِ الحقِّ بعد إفْناءِ الخلقِ، وأجاب بأنَّ المُرادَ من الآية ملزومُ معناها، لأنَّها كنايةٌ عن مجيءِ وقتِ الجزاءِ، وهو من أجلِّ النِّعم، كما سبق في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥] ولذلك خَصَّ الوصْفَين بالذِّكر يعني: الجلالَ والإكرامَ، لأنَّهما يدُلان على الإثابةِ والعِقابِ.

(١) «مفردات القرآن» ص ١٩٨.

وقيل: نَزَلت في اليَهودِ حين قالوا: إنّ الله لا يقْضِي يومَ السَّبتِ شيئًا.

وسأل بعضُ الملوك وزيرَه عنها فاستمْهَله إلىٰ الغدِ وذهبَ كئيبًا يفكِّر فيها، فقال غلامٌ له أسودُ: يا مولاي، أخبِرني ما أصَابَك لعلّ الله يُسهِّل لك علىٰ يَديَّ، فأخبره فقال له: أنا أفسِّرُها للملك فأعْلمه، فقال: أيها الملك شأن الله أنْ يُولجَ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُولجَ النَّهارَ في اللَّيلِ، ويخرجُ الحيَّ من الميتِ، ويُخرجَ الميِّتَ من الحيِّ، ويشفي سَقيمًا، ويُسقِمَ سليمًا، ويبتلي معافىً، ويُعافي مُبتلىً، ويُعزَّ ذليلًا، ويُذلَّ عَزيزًا، ويُفْقِر غنيًّا، ويُغني فقيرًا؛ فقال الأمير: أحْسَنت، وأمرَ الوَزيرَ أن يَخْلَع عليه ثِيابَ الوِزارة، فقال: يا مَولاي هذا من شَأنِ الله!

وعن عبد الله بن طاهرٍ أنَّه دعا الحسين بن الفَضْلِ وقال له: أشكلتْ عليَّ ثلاثُ آياتٍ، دعوتُك لتكْشِفها لي: قولُه تعالىٰ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١] وقد صحَّ أنَّ النَّدمَ توبةٌ، وقولُه تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾، وقد صحَّ أنَّ القلم قد جفَّ بما هو كائنٌ إلىٰ يوم القيامةِ، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩] ....

فإن قلتَ: لِـمَ لَـمْ يقُلْ: كُلّ شيءٍ فانٍ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ كقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]؟

قلتُ: قد سبقَ أنَّ قوله: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مُرتبٌ على الآيةِ السَّابقةِ، فوجب تخْصيْصُه بالعُقلاءِ، ثُمَّ بالثَّقلَين، أي: الجنِّ والإنسِ، ومن ثَمَّ حسُنَ جعلُ الضَّمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ للأرض، لأنَّهما ثَقَلا الأرضَ.

فإنْ قُلتَ: كيف أفرد الضَّمير في قوله: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ ﴾، وثنَّـاه في: ﴿رَبِّكُمَا ﴾، والمخاطَبُ واحدٌ؟

قلت: اقتضى الأولُ تعميم الخطابِ لكلِّ من يصلُح للخِطابِ لعِظَمِ الأمرِ وفَخامَتِه، ويندرج فيه الثّقلان أوليًّا، ولا كذلك اثنان فتركَه على ظاهرِه.

فما بال الأضْعَاف؟ فقال الحسينُ: يجوزُ أن لا يكونَ النَّدمُ توبةً في تلك الأمّة. ويكون توبةً في هذه الأمّة؛ لأنَّ الله تعالىٰ خصَّ هذه الأمّةَ بخصائصَ لم تُشاركهم فيها الأمم، وقيل: إنَّ ندَم قَابيل لم يكن علىٰ قتلِ هابيلَ، ولكن علىٰ حملِه، وأمَّا قوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ فمعناه: ليس له إلا ما سعىٰ عَدْلًا، ولي أن أجْزيَه بواحدةٍ ألفًا فضلًا، وأما قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فإنها شُؤونٌ يُبْديها لا شُؤونٌ يَبْتَدئها، فقام عبد الله وقبّل رأسه وسوَّغ خراجَه.

[﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٣١-٣٢]

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ مُسْتعارٌ من قول الرَّجلِ لمن يتهدَّده: سَأفْرغ لك، يريد: سأتجرَّدُ للإيقاعِ بكَ من كُلّ ما يَشْغَلُني عنك، حتىٰ لا يكون لي شغلٌ سواه، والمراد: التَّوفُّر علىٰ النّكايةِ فيه والانْتِقام منه، ويجُوز أن يُرادَ: ستَنْتهي الدُّنيا وتَبْلُغُ آخِرها، وتَنْتهي عند ذلك

قوله: (فما بالُ الأضْعَاف) إشارة إلى مَا وُرِد في الحديثِ: «مَنْ هَمَّ بحسَنةٍ فلم يَعْملها كتبها اللهُ لَهُ حَسَنة كامِلةً، فَإنْ هَمَّ بِها وعَمِلَها كَتَبَها اللهُ لَه عِنْدَه عَشْرَ حَسناتٍ إلى سَبعِ مئةِ ضَعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ»، الحديث أخرجه البُخَاريُّ ومسلمٌ عن ابن عباس(١).

قوله: (إلا ما سعَى عدلًا)، «عَدْلاً»: نُصِبَ ظرفًا وكذا «فضْلاً»، أي: في عدلِ اللّـهِ وفضْلِه، كقولك: هذا سائغٌ شرعًا.

قوله: (وسَوَّغَ خَراجَه) أي: سَهَّل وعيَّن، من: سَاغ الشَّراب يَسُوغُ سَوْغًا، أي: سهَّل مدخله في الحَلْقِ.

قوله: (ويجُوزُ أن يُراد: ستنتَهِي الدُّنيا وتبلغُ آخِرَها) قال الزَّجاجُ: الفراغ في اللُّغة على

---

(١) البخاري (٦١٢٦)، ومُسلم (١٣١).

شُؤونُ الخلقِ التي أرادها بقولِه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، فلا يبقىٰ إلا شأنٌ واحدٌ وهو جزاؤُكم، فجعل ذلك فراغًا لهم علىٰ طريقِ المثلِ، وقُرِئَ: (سيَفْرُغ لكم)، أي: الله تعالىٰ، و(سأفرُغُ لكم) و(سنَفرَغ) بالنون مفتوحًا ومكسورًا وفتح الرَّاءِ، و(سيَفرَغ) بالياء مفتوحًا ومضمومًا مع فتح الراء، وفي قراءة أُبيّ: (سنَفرُغُ إليكم)........................

ضربين: أحدهما: الفراغ من شُغل، والآخر القصدُ لِشيءٍ، تقول: قد فَرغْتُ مما كنت فيه، أي: زال شُغلي به، وتقول: سأتفرَّغ لفُلان، أي: سأجْعله قَصْدي[1].

وقلت: الوجه الأوَّل في الكتاب محْمولٌ على مُجرَّد القَصد، فهو كناية عن التَّوفر على النِّكاية، ثُمَّ اسْتُعيرَ هذه العبارة للخالِق عزَّ شأنُه، لذلك المعنى، وإليه أشار بقوله: «﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ مُستعارٌ من قولِ الرَّجل لمن يتهدَّده: سأفْرُغ لك»، والوجه الثاني مُنزَل على الفَراغ من الشُّغْل، لكن على سبيل التَّمثيل، شبَّه تدبيره تعالى أمرَ الآخِرةِ من الأخْذ في الـجَزاءِ، وإيْصَال الثَّواب والعِـقَاب إلى الـمُكَلَّفين، بعد تدبيره تعالى لأمرِ الـدُّنيا بالأمْرِ والنَّهي، والإماتة والإحياء، والمنع والإعطاء، وأنَّه لا يشغَله شأنٌ عن شأنٍ بحالِ مَنْ إذا كانَ في شغل يشغَلُه عن شُغلٍ آخرَ، إذا فرغ من ذلك الشُّغْل شرع في آخر، وقد ألم به صاحب «المُفتاح» حيث قالَ: الفراغ الخلاصُ عن المهامِّ، والله عز وجل لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ[2]، وقع مُستعارًا للأخذِ في الجَزاءِ وحدَه[3]. وهو المُراد من قوله: «فجَعل ذلك فَراغًا لهم على طريق المَثل».

قوله: («سيَـفْرغ لكم») حمزة والكِسائي: بالياء، والباقون: بالنون[4].

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٥: ٩٨).

(٢) من قوله: «بحال» إلى هنا ساقط من (ط)، وأثبته من (ح) و(ف).

(٣) «مفتاح العلوم» للسكاكي ص٣٩٨.

(٤) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٢.

بمعنىٰ: سنقصد إليكم، والثَّقلان: الإنسُ والجنُّ، **سُميا بذلك لأنَّهما ثِقَلا الأرض.**

[﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ **٣٣-٣٦**]

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾ كالتَّرجمةِ لقوله: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾، ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ أن تهرُبوا من قَضائي وتَخرُجوا من مَلَكُوتي ومِن سَمائي وأرضي، فافعَلوا، ثُمَّ قال: لا تقْدِرون علىٰ النُّفوذِ ﴿إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ يعني بقوّةٍ وقَهْر وغَلَبةٍ، وأنىٰ لكم ذلك؟ ونحوه: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

ورويَ: أنّ الملائكةَ عليهم السَّلام تنزل فتُحيط بجَميعِ الخَلائِق، فإذا رآهم الجنُّ والإنْسُ هَربوا، فلا يأتون وَجْهًا إلا وجَدوا الملائكةَ أحاطت به.

قُرِئَ: **﴿شُوَاظٞ ﴾ و «نُحاسٌ» كلاهما بالضَّمِّ والكسر؛** ....

قوله: (**سمِّيا بذلك لأنَّهما ثِقَلا الأرض**) عن بعضهم: جُعلت الأرضُ كالحَمولةِ والجنُّ والإِنس شُبِّها بِثقَل الدَّابة، وفي الحديثِ: «تركتُ فيكم الثَّقلَين كتابَ الله وعترتي»[1]، سمّاهما بذلك لأنَّ الدِّين يعْمُر بهما، كالأرض، تعمرُ بالإنس والجنِّ.

قوله: (**﴿شُوَاظٞ ﴾ و«نُحاسٌ» كلاهما بالضَّمِّ والكَسر**) ابن كثير: بكسر الشّين، والباقون: بضمِّها. و«نُحاسٍ» بالخفْضِ: ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو، والباقون: بالرَّفع[2].

قال صاحبُ «الكشفِ»: من رفع «نحاسٌ» عطفه على ﴿شُوَاظٞ ﴾، ومن جرَّ لم يجُزْ له حمله،

---

(١) أخرجه النسائي (٨١٤٨)، وأحمد (٣: ١٧) وغيرها.

(٢) «التيسير في القراءات السَّبع» ص١٣٢.

والشُّواظُ: اللَّهبُ الخالِصُ. والنُّحاسُ: الدُّخان؛ وأنشد:

تُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيْـ ـطِ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فِيهِ نُحَاسَا

وقيل: الصُّفر المُذاب، يُصبُّ علىٰ رُؤوسِهم. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: إذا خَرجوا من قبورِهم ساقهم شُواظٌ إلىٰ المحشرِ. وقرئ: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ مرفوعًا، عطفًا علىٰ ﴿شُوَاظٌ﴾، ومجرورًا عطفًا علىٰ ﴿نَّارٍ﴾. وقرئ: (ونُحُسٌ) جمع نُحاسٍ، وهو الدُّخان، نحو لِحافٌ ولُحُفٌ. وقرئ: (ونَحُسُّ) أي: ونقْتُلُ بالعذابِ. وقُرِئ: (نُرسِلُ عليكما شُواظاً مِن نارٍ ونحاساً)، ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ فلا تمتنعان.

[﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٣٧ – ٤٠]

﴿وَرْدَةً﴾: حَمراءَ ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ كدُهْنِ الزَّيتِ، كما قال: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨]، وهو دُرْدِيُّ الزَّيتِ، وهو جمعُ دُهْنٍ، أو اسم ما يُدَّهنُ به، كالحِزَامِ والإِدامِ. قال:

على قوله: ﴿مِّن نَّارٍ﴾، لأنَّ شُواظًا لا تكُون من النُّحاس، فيقدر: شواظٌ من نار وشَيءٌ من نُحاسٍ، فحُذِف الموصوفُ لدَلالةِ ما قبله عليه(١).

قوله: (وقُرِئ: «ونَحُسُّ») قال ابن جِنّي: قرأ ابن أبي بَكْرة: «ونَحُسُّ» بفتح النون وضم الحاء وتشديد السِّين، أي: نقتل بالعَذابِ، يقال: حَسَّ القوم يَحُسُّهم حَسًّا: إذا استأصَلَهم، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: تقتُلونهم قتلاً ذريعًا(٢).

---

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٣٠٦).

(٢) «المحتسب» (٢: ٣٠٤).

كـأنَّهُما مَزادَتـا مُتَعَجِّـلٍ فَرِيَّانِ لَـمّا تُدْهَنا بِدِهانِ

وقيل: الدِّهان: الأديمُ الأحمرُ.

وقرأ عمرو بن عُبيدٍ (وردةٌ) بالرفع، بمعنىٰ: فحصَلت سماء وردة، **وهو من الكلام الذي يسمىٰ التَّجْريد**، كقوله:

فَلَـئِنْ بَقِيـتُ لأَرْحَلَـنَّ بِغَـزْوَةٍ تَحْوِي الْغَنَائِمَ أَو يَمـوتَ كَـرِيمُ

﴿إِنسٌ﴾ بعضٌ من الإنسِ، ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾ أريد به: ولا جِنٌّ: أي: ولا بعضٌ من الجِنِّ، فوضع الجَانَّ الذي هو أبو الجِنِّ موضع الجِنّ، كما يقال: هاشمٌ، ويُراد ولدُه.

وإنَّما وحَّد ضميرَ الإنسِ في قوله: ﴿عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ لكونهِ في معنىٰ البعضِ. والمعنىٰ: لا يُسألون لأنَّهم يُعْرَفون بِسِيما المجرِمين، وهي سَوادُ الوُجوهِ وزُرقَةُ العُيُونِ.

قوله: (**كأنَّهما مَزادتا مُتعجِّلٍ**) البيت، أي: كأنَّ عينيه في انسكابِ الدُّموعِ مَزادتانِ خَرَزَهُما متعجِّلٌ فما أحكم خَرْزهما، فهما يَكِفان ماءً[1].

قوله: (**وهو من الكلام الّذي يُسمّى التَّجْريد**) وهو: أنْ يُنتزعَ من أمرٍ ذي صِفةٍ آخرُ مثله فيها لكمالِها فيه[2]، جَرَّد هَاهنا من السَّماءِ شيئًا يُسمَّى وردة، وهي هي، كما جرّد الشاعر من نفسه صفة الكَرم وجعلها بمنزلة شخص لكمالِها فيه، وعلى المشهورة تشبيهٌ محضٌ، أي: كانت السَّماءُ كالوردةِ.

قوله: (**وحَّد ضميرَ الإنس في قوله: ﴿عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ لكونه في معنى البَعضِ**)، قيل: هذا إضمارٌ عن غيرِ مذكورٍ، والـذَّنبُ يدلُّ على المُذنب لا يُسأل عن ذنبِ المُذنبِ إنسٌ ولا جَانٌّ، أي: لا

---

(١) البيت لامرئ القيس، وانظر شرحه في «مشاهد الإنصاف» للمرزوقي (٤: ٤٤٩) مع «الكشاف».

(٢) انظر: «التعريفات» للجُرجاني ص٥٢.

فإن قلتَ: هذا خِلافُ قوله تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤].

قلتُ: ذلك يومٌ طويلٌ وفيه مَواطنُ، فيُسألون في مَوطِنٍ ولا يُسألون في آخر: قال قَتَادة: قد كانت مسألة، ثم خُتِم علىٰ أفواهِ القومِ، وتكلَّمت أَيْدِيهم وأرجُلُهم بما كانوا يعملون. وقيل: لا يُسأل عن ذنبه ليُعْلم من جهتِه، ولكن يُسْأَلُ سؤال تَوبِيخٍ. وقرأ الحسن وعمرو بن عُبيد (ولا جأنٌ) فرارًا من التِقاءِ السَّاكنين، **وإن كان علىٰ حَدِّه**.

[﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٤١ ـ ٤٥]

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ عن الضَّحَّاكِ: يُجمع بين ناصِيتِه وقدمِه في سِلسلةٍ من وراءِ ظهرِه، وقيل: تَسْحبهم الملائكةُ؛ تارةً تأخذُ بالنَّواصي، وتارةً تأخذ بالأقدام.

يؤخذُ أحدٌ بذنبِ غيرِه. وقال صاحبُ «الإيجاز»: لا يُسأل عن ذنبِه، لا يُسألُ أحدٌ عن ذنب أحدٍ[1]، والظَّاهرُ أنَّ التقدير: لا يُسأل إنسٌ ولا جانٌّ عن ذنبٍ كل واحد منهما، لأنَّ المرادَ البعضُ المُجرمُ منهم خاصَّةً، يدل عليه الاستئناف بقوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾، فمعنى السؤال لا يُسأل أحدٌ عن أنَّه مذنب، أم لا، لأنَّ سيماهم وهي سوادُ الوجوهِ وزُرقةُ العُيون دالٌّ على ذلك.

قوله: (وإنْ كان على حَدِّه) وحدُّه: أنْ يكونَ الأولُ حرفَ لينٍ والآخرُ مُدغمًا.

---

(١) «إيجاز البيان عن معاني القرآن» (٢: ٧٨٩).

﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ ماءٍ حارٍّ قد انتهىٰ حرُّهُ ونُضْجُه، أي: يُعَاقب عليهم بين التَّصْلية بالنَّار وبينَ شُرْبِ الحَميم. وقيل: إذا اسْتغاثُوا من النَّار جُعل غِياثُهم الحَميمَ. وقيل: إنَّ واديًا من أوْدِية جَهنَّم يَجتمِعُ فيه صَديدُ أهْلِ النَّار فيُنطلَقُ بهم في الأغلالِ، فيُغْمَسون فيه حتىٰ تَنْخلِعَ أوصَالُهم؛ ثُمَّ يُخرَجون منه وقد أحدثَ الله لهم خَلقًا جديدًا. وقرئ: (يُطَوَّفون) من التَّطْويفِ، و(يطَّـوَّفون)، أي: يتطوَّفُونَ، و(يُطَافون). وفي قراءة عبد الله: (هذه جهنَّم التي كُنتما بها تُكذِّبانِ تَصْلَيان، لا تمُوتَانِ فيها ولا تحْيَيان، يَطُوفون بينها). **ونِعْمةُ الله فيما ذكرَه من هولِ العذابِ: نجاةُ النَّاجي منه برَحْمتِه وفَضلِه، وما في الإنْذار به من اللُّطفِ.**

[﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٤٦-٥٥]

قوله: (**ونعمةُ اللهِ فيما ذكرَه من هَولِ العذابِ: نجاةُ النَّاجِي منه**)، قال الراغب في «غُرَّة التأويل»[1]: أنَّ الله تعالى منعمٌ على عبادِه نعمتين: نعمةَ الدُّنيا ونعمةَ الدِّين، وأعظمُهما في الأخرى، واجتهادُ الإنسانِ رهبةً مما يُؤلِـمُه أكثر من اجتهادِه رَغْبةً فيما يُنعِّمه، فالترهيبُ زجرٌ عن المعاصِي، وبعثٌ على الطَّاعاتِ، وهو سببُ النَّفع الدَّائم، فأيَّة نعمةٍ أكبر إذن من التَّخويف بالضَّررِ المؤدِّي إلى أشرفِ النِّعم، فكما جاز عند ذكر ما أعدَّه للمُطيعين أن يقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ جازَ أن يقول عند ذكر ما خوَّفنا فيه مما يَصرِفُنا عن معصيته إلى

---

(١) كذا نسب المصنف هذا الكتاب للراغب، وقد تكرر منه هذا كلما ذكره، والأصح أنه للخطيب الإسكافي، على خلافٍ طويلٍ في ذلك. وانظر ما نقله هنا في «درة التنزيل وغرة التأويل» للخطيب الإسكافي (٣: ١١٥٧-١١٥٨).

﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ موقِفَه الذي يقِفُ فيه العبادُ للحسابِ يومَ القيامةِ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] ونحوه: ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ [إبراهيم: ١٤] ويجوزُ أنْ يُرادَ بمقامِ ربِّه: أنَّ الله قائمٌ عليه؛ أي: حافظٌ مُهيمنٌ، من قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، **فهو يُراقِب** ذلك فلا يَجْسُر علىٰ مَعْصيتِه. وقيل: هو مُقْحمٌ، كما تقول: أخافُ جانبَ فلانٍ، وفعلتُ هذا لمكانِك. وأنشد:

ذَعَرْتُ بِهِ الْقَطَا وَنَفَيْتُ عَنْـه ... مَقَامَ الذئْبِ كَالرَّجُـلِ اللَّعِـينِ

يريد: ونفيتُ عنه الذِّئبَ.

فإن قلتَ: لِمَ قال: ﴿جَنَّتَانِ﴾؟

قلت: الخطابُ للثَّقَلين؛ فكأنَّه قيل: لكلِّ خائفَين منكما جَنَّتانِ؛ جنَّةٌ للخائفِ الإنسيِّ، وجَنَّةٌ للخائفِ الجنيِّ. ويجوزُ أن يُقال: جنةٌ لفعلِ الطَّاعاتِ، وجنَّةٌ لتركِ المَعاصي؛ لأنَّ التَّكْليف دائرٌ عليهما، وأنْ يُقال: جنةٌ يُثابُ بِها، وأُخرىٰ تُضمُّ إليها علىٰ وجهِ التَّفَضُّل، كقوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

طاعتِه التي تُكسِبُنا نعيمَ جنَّتِه، لأنَّ هذا أشوَقُ إلى تلك الكرامةِ من وصف ما أعدَّ فيها من النِّعمة.

قوله: (**فهو يراقب**)، مُتَّصِلٌ بقوله: «إنَّ الله قائمٌ عليه».

قوله: (**ونَفَيتُ عنه**)، قبله:

وماءٍ قد وَرَدتُ لِوصلِ أَرْوى ... عليـه الطَّـيرُ كـالوَرَقِ اللَّجِـينِ

ذعرتُ به القَطَا ونَفيـتُ عنـه ... مقامَ الـذئب كالرَّجـل اللَّعـينِ(١)

مضى شرحُه في سورة السَّجْدة.

---

(١) البيتان للشماخ في «ديوانه» ص ٩١.

خُصَّ الأفنانُ بالذِّكر ـ وهي الغِّصَنةُ التي تتشعَّبُ من فُروعِ الشَّجرةِ ـ لأنَّها هي التي تُورِقُ وتُثْمرُ، فمنها تمتدُّ الظِّلالُ، ومنها تُجتَنىٰ الثِّمارُ.

وقيل: الأفنان: ألوان النِّعَمِ؛ ما تَشْتَهي الأنْفُسُ وتَلذُّ الأعينُ. قال:

وَمِنْ كُلِّ أَفْنَـانِ اللَّـذَاذَةِ وَالـصِّبَا ... لَهَوْتُ بِهِ والعَيْشُ أخضَـرُ نـاضِرُ

﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ حيثُ شَاؤوا في الأعَالي والأسافِلِ. وقيلَ: تجريان من جبلٍ من مِسكٍ. وعن الحسن: تجريان بالماءِ الزُّلال: إحداهما التَّسنيمُ، والأُخرىٰ: السَّلسَبيلُ.

﴿زَوْجَانِ﴾: صنفان. قيل: صنفٌ معروفٌ، وصنفٌ غريبٌ.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ نُصبَ علىٰ المدْحِ للخَائفِين، أو حالٌ منهم، لأنَّ «من خافَ» في معنىٰ الجَمْعِ، ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ من ديباجٍ ثَخِينٍ، وإذا كانت البَطائِنُ من الإستبرق، فما ظنُّكَ بالظَّهائِرِ؟ وقيل: ظهائِرُها من سُندُسٍ. وقيل: من نور، ﴿دَانٍ﴾ قريبٌ ينالُه القَائمُ والقَاعِدُ والنَّائِمُ. وقرئ: (وَجِنَىٰ)، بكسر الجيم.

قوله: (وهي الغِصَنَة) بكسر الغين المعجمة وفتح الصَّاد المهملة؛ جمع غُصْنٍ.

قوله: (تُجْتَنىٰ الثِّمارُ)، الراغب: جَنيتُ الثَّمرةَ واجتَنيْتُها، والجَنَى والجَنيُّ: المُجتَنَىٰ من الثَّمر والعَسل، وأكثر ما يُستعمل الجَنيُّ فيما كانَ غضًا، قال تعالى: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٣٥] وأجنَى الشَّجَر: أدرك ثَمَره، والأرضُ: كثر جناها، واستُعير من ذلك جَنى فلانٌ جنايةً، كما استُعِير اجترَمَ(١).

قوله: (إحداهما التَّسنيم)، الجَوْهري: هو اسم ماءٍ في الجنَّة، سُمِّي بذلك لأنَّه يجري فوقَ الغُرَفِ والقُصورِ.

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٢٠٧.

[﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٥٦-٦١]

﴿فِيهِنَّ﴾ في هذه الآلاءِ المَعْدودةِ من الجنَّتين، والعَينين والفَاكِهة والفُرش والجَنىٰ. أو في الجنتين، لاشتمالِهما علىٰ أماكنَ وقُصورٍ ومجالسَ، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ نساءٌ قصَرنَ أبصارَهُنَّ علىٰ أزواجِهنَّ: لا يَنْظُرن إلىٰ غيرهم. لم يَطْمِثِ الإنسيّاتِ منهنَّ أحدٌ من الإنس، ولا الجنِّيات أحدٌ مِن الجنِّ، **وهذا دليلٌ علىٰ أنَّ الجِنَّ يَطمِثُون** كما يَطْمِثُ الإنس، **وقُرِئَ: (لم يَطمُثهنَّ) بضم الميم**. قيل: هنّ في صَفاءِ اليَاقوتِ، وبياضِ المَرجان.

وصِغار الدُّرِّ أنصَعُ بياضًا. قيل: إنّ الحَوْراء تلبسُ سبعينَ حُلَّةً، فيُرىٰ مُخُّ ساقِها من وَرَائِها كما يُرىٰ الشَّرابُ الأحمرُ في الزُّجاجةِ البيضاءِ.

قوله: (**وهذا دليلٌ على أنَّ الجنَّ يَطْمِثُون**)، **الانتصاف**: يشيرُ بذلك إلى الرَّدِّ على من زَعمَ أنَّ الجِنَّ المؤمنين لا ثوابَ لهم، وإنما جَزاؤُهم تركُ العقوبةِ، وجعلُهم ترابًا[(١)].

ووجهه أنَّ الخِطاب بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ للجنِّ والإنسانِ للامْتِنان عليهم، بِحُورٍ موصوفاتٍ تارةً بـ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، وأخرى بـ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾، وبكونهن ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾، فالواجب أن يَرِد كلٌّ بما يُناسِبُه.

قوله: (**وقرئ: «لم يَطْمُثهن» بضم الميم**)، **الكسائي**[(٢)]، روى الوَاحِدي عن الفَرَّاء: الطَّمْث: الافْتِضاضُ، وهو النِّكاح بالتَّدمية[(٣)].

قوله: (**وصِغارِ الدُّرِّ أنصَعُ بياضًا**)، جوابٌ عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ، تقريرُه: لِمَ عَدَل عن

(١) «الانتصاف» (٤: ٤٥٣).

(٢) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٢.

(٣) «الوسيط» (٤: ٢٢٧)، وفي «معاني القرآن» للفراء (٣: ١١٩): نكحها وذلك لحال الدم.

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في العملِ ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ في الثَّوابِ؟ وعن محمد بن الحَنفيَّة: هي مُسْجَلةٌ للبَرِّ والفاجِرِ. أي: مُرْسَلة، يعني: أنَّ كلَّ من أحسنَ أُحسن إليه، وكلَّ من أساءَ أُسِيء إليه.

[﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٦٢-٦٩]

﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ ومن دونِ تَينِكَ الجنَّتينِ الموعُودتين للمُقرَّبين، ﴿جَنَّتَانِ﴾ لمن دُونَهم من أصْحَابِ اليَمين.

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ قد ادهَامَّتا من شدَّةِ الخُضْرةِ، ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ فوَّارتَانِ بالماءِ. والنَّضخُ أكثرُ من النَّضْح، لأنَّ النَّضْحَ ـ غير معجمةٍ ـ مِثل الرَّشِّ.

فإن قلتَ: لِمَ عطفَ النَّخْلَ والرُّمَّان على الفَاكهةِ وهُما منها؟

قلتُ: اختصاصًا لهما وبيانًا لفَضْلِهما، كأنَّهما لِما لهما من المَزيَّة جِنسان آخران، كقوله تعالىٰ: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] أو لأنَّ النَّخلَ ثمرُه فاكِهةٌ وطعامٌ، والرُّمان فاكهةٌ

اللؤلؤ والدُّرِّ إلى المَرْجان، وهو أشرف من المرجان؟ وجوابه: القصدُ هاهنا إلى صَفاءِ اللَّونِ لوُقوعهِ مُقارنًا للياقُوتِ، وهو أنصعُ الجواهر حُمرةً، فينبغي أن يكون هذا أنصع اللآلئ بياضًا.

قوله: (مُسْجَلةٌ للبَرِّ والفَاجِر) أي مُرسَلةٌ، يعني: مُطلَقة غيرُ مقيَّدة، الجوهريُّ عن الأصمَعِي: لم يُشترط فيها برٌّ دُون فاجرٍ، يقالُ: أَسْجَلتُ الكلام، أي: أرسلتُه.

قوله: (قد ادْهامّتا مِنْ شِدَّةِ الخضرة) الراغب: الدُّهمةُ: سوادُ اللَّيل، ويُعبَّر بها عن سوادِ الفَرَس، وقد يُعبر بها عن الخُضْرَةِ الكاملةِ اللَّونِ، ويُعبَّر عن الدُّهمةِ بالخُضْرة إذا لم تَكُن كاملةَ اللَّون، وذلك لتَقاربهما باللَّونِ(١).

(١) «مفردات القرآن» ص ٣٢٠.

ودَواءٌ، فلم يخْلُصا للتَّفَـكُّه. ومنه قال أبو حَنيفة رحمه الله: إذا حَلَف لا يأكل فاكهةً فأكل رمَّانًا أو رُطَبًا: لم يحْنَث، وخَالفَه صاحِباهُ.

[﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ٧٠-٧٨]

﴿خَيْرَٰتٌ﴾: خيِّراتٌ، فخُفِّفت، كقوله عليه السَّلام: «هيْنُونَ ليْنُون»، وأما خَيْر الذي هو بمعنىٰ أخيَر، فلا يُقال فيه: خيْرُون ولا خَيْرات. وقُرِئَ: (خَيِّراتٌ) علىٰ الأصل. والمعنىٰ: فاضلاتُ الأخلاقِ، حِسانُ الخَلْق.

﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ قُصِرْنَ في خُدُورِهِنَّ، يُقال: امرأةٌ قصيرةٌ وقصورةٌ ومقصورة: مُخدَّرة، وقيل: إن الخيمةَ من خيامِهنَّ دُرَّةٌ مجوَّفة.

﴿قَبْلَهُمْ﴾ قبلَ أصْحابِ الجنَّتين، دلَّ عليهم ذِكْرُ الجنَّتين، ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ نصبٌ علىٰ الاختصاصِ. والرَّفْرفُ: ضَرْبٌ من البُسُطِ. وقيل: البُسُطُ، وقيل: الوَسائِدُ، وقيل: كُلُّ ثوبٍ عَريضٍ رَفْرفٌ. ويقال لأطرافِ البُسُطِ وفُضول الفُسطَاط: رفَارفُ، ورَفرفُ

قوله: («خَيِّراتٌ» على الأصْلِ)، الراغب: الخَيِّر: الفاضِلَ المختصُّ بالخَيْر، فإنه خِيارٌ، ويُقال: ناقةٌ خَيار وجَملٌ خيارٌ، ويُقال: رجلٌ خَيِّرٌ وامرأة خَيِّرةٌ، وهذا خَيرُ الرِّجالِ، وهذه خيرة النِّساءِ، والمراد بذلك المُختارات، أي: فيهن مختاراتٌ لا رُذْل فيهن[1].

قوله: (والـرَّفْرفُ: ضَربٌ من البُـسُطِ)، الراغب: الـرَّفْرفُ: ضربٌ من الثِّياب مُشبه

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٣٠١.

السَّحابِ: هَيْدبُهُ، والعَبْقريُّ: منسوبٌ إلىٰ عَبْقر، تزعُمُ العربُ أنَّه بَلَدُ الجِنِّ؛ فينْسِبُون إليه كلَّ شيءٍ عجيبٍ. وقُرِئَ: (رفَارفُ خُضُر) بضمَّتين. و(عَباقِريّ)، كمدائنيّ: نسبةٌ إلىٰ عَباقِر في اسم البلدِ: وروىٰ أبو حاتم: (**عَباقَريَّ**)، **بفتح القاف ومنع الصَّرْف، وهذا لا وَجه لصِحَّتِه**.

فإن قلتَ: كيف تَقاصَرت صِفاتُ هاتينِ الجنَّتينِ عن الأولينِ حتَّىٰ قيل: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾؟

بالرياض، وقيل: الـرَّفْرف: طَرَفُ الفُسطاطِ، والـخِبَاءِ الواقعُ على الأرض دُون الأَطْنابِ والأَوْتادِ[1].

قوله: (**هَيْدَبه**)، **الجوهري**: هَيْدبُ السَّحابِ، ما تهدَّبَ منه إذا أراد الوَدْقَ كأنَّه خيوطٌ.

قوله: («**عَباقَريَّ» بفتح القاف ومنع الصَّرْف، وهذا لا وجه لصحَّتِه**)، قال الزَّجاج: هذه القراءةُ لا مَخْرجَ لها، لأنَّ الجمعَ الذي بعد ألفه حرفان، لا يجوز أن يكون فيه مثل عَباقَريّ، لأنَّ ما جاوز الثلاثة لا يُجمع بياء النَّسب، فلو جُمعت عَبقري تجمعه عَباقِرة، نُحو: مُهلَّبي ومَهالِبَة، ولا تقول: مَهالِبيّ[2].

وقال ابن جِنِّي: أمَّا تَرْكُ صَرْف عَباقريّ فشاذٌّ في القِياس، ولا يُستنكر شذوذُه مع استعماله، وإذا كان قد جاء عنهم عَناكِيب، كانَ عَباقِريُّ أسهلَ منه، للتَّشديد على أنَّه في آخر الكلمة كـ«زَرَابِيُّ»[3]. وفي «النهاية»: قيل: إن عَبْقَر قريةٌ يسكنُها الجنُّ فيما يزْعُمون، فكلَّما رأوا شَيئًا فائقًا غريبًا، مما يَصْعُب عَملُه ويدِقُّ، أو شيئًا عَظيمًا في نفسِه نَسَبُوهُ إليها، ثمَّ اتَّسَعَ فسمَّوا به السَّيِّدَ الكبيرَ. وفي الحديثِ: «فلمَ أرَ عَبْقريًّا يَفْرِي فَرْيَهُ»[4]، يريد عمر رضي الله عنه.

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٣٥٩.

(٢) «معاني القرآن» (٥: ١٠٣-١٠٤).

(٣) «المحتسب» (٢: ٣٠٦).

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٨٢) وغيره.

قلتُ: ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾ دونَ ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾، و﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ دون ﴿تَجۡرِيَانِ﴾، و﴿فَٰكِهَةٞ﴾ دونَ ﴿كُلِّ فَٰكِهَةٖ﴾. وكذلك صفةُ الحُورِ والـمُتَّكأ. وقُرِئَ: (ذو الجلال) صفةً للاسم.

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الرَّحمن أدّىٰ شُكرَ ما أنعم الله عليه».

قوله: (﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾ دون ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾)، بيانٌ لكيفيَّةِ تقاصُرِ الجنَّتينِ الأُخْرَيَيْن عن الأُولَيين، وفي «المطلع»: الأُولَيَان للمقرَّبين، وهاتان لأصحاب اليمين. قاله ابنُ عباسٍ.

ورُوِّينا عن البخاريّ ومسلم والتِّرْمذيِّ وابنِ ماجَه والدَّارمي عن أبي موسى أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «جَنَّتانِ من فِضَّةٍ آنيتُهما وما فيهما، وجَنَّتانِ من ذَهبٍ آنيتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يَنْظروا إلى ربِّهم، إلّا رِداءُ الكِبْرياءِ على وجهِه، في جنَّةِ عَدَن»[1].

قوله: (وقُرِئ: «ذُو الجلالِ»)، ابن عامر[2].

تمت السورة

حامدًا لله تعالى ومصليًا على رسولِ الله ﷺ.

* * *

(١) البخاري (٤٨٧٨) ومسلم (١٨٠)، والتِّرمذي (٢٥٢٨)، وابن ماجه (١٨٦)، والدارمي (٢٨٢٥) باختلاف في اللفظ.

والحديث كذلك عند النسائي رقم (٧٧٦٥) وهو أولى بالعزوِ إليه من ابن ماجه والدَّارمي.

(٢) «التيسير في القراءات السبع» للداني ص١٣٢.

سورة الواقِعة
مكيَّة، وهي سبع وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا * وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ ١-٧]

﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ كقولِك: كانتِ الكائِنةُ، وحَدثتِ الحادثَةُ، والمرادُ: القِيامةُ؛ وُصِفت بالوُقُوع لأنَّها تقعُ لا مَحالة، فكأنَّه قيل: إذا وقَعَت التي لا بدَّ من وُقُوعِها، وَوُقوعُ الأمر: نُزولُه. يقال: وقع ما كنتُ أتوقَّعه، أي: نزل ما كنتُ أترقَّبُ نزولَه.

سُورةُ الوَاقِعة
مَكيّة وهي ستٌّ وتسْعُونَ آية(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (ووُقوعُ الأمر: نُزُولُه)، الرَّاغِب: الوُقوعُ: ثُبوتُ الشَّيءِ وسقوطُه، يقال: وقعَ الطَّائرُ وُقوعًا، والوَاقِعةُ لا تقال إلَّا في الشِّدَّة والمكروهِ، وأكثرُ ما جاء في التَّنزِيلِ من لفظِ وقعَ، جاء في العذابِ والشَّدائِد، قوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ [النمل: ٨٥] أي: وجَبَ العذاب الذي وُعِدوا لظُلمِهم، وقوله: ﴿وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] وقعَ هنا

---

(١) في (ط): «وهي تسع وتسعون آية»، وهي في عَدِّ الكوفيين: ست وتسعون آية، وفي عَدِّ البصرين: سبع وتسعون، وفي عَدِّ غيرهم: تسع وتسعون.

فإن قلتَ: بِمَ انْتَصبَ إذن؟ قلتُ: بـ«لَيْسَ»؛ كقولك: يومَ الجُمعةِ ليس لي شَغْلٌ، أو بمحذوفٍ؛ يعني: إذا وقعتْ كان كَيتَ وكَيْتَ: أو بإضْمارِ اذكُرْ.

﴿ كَاذِبَةٌ ﴾ نفسٌ كَاذِبة، أي: لا تكونُ حينَ تقعُ نفسٌ تكذِبُ على الله، **وتكْذِبُ في تكْذِيبِ الغَيبِ**؛ لأنَّ كلَّ نفسٍ حِينئذٍ مُؤمنةٌ صادِقةٌ مصدِّقةٌ، وأكثرُ النُّفوسِ اليوم كَواذبُ مُكذِّباتٌ، كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ ﴾ [غافر: ٨٤]، ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الشعراء: ٢٠١]، ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ [الحج: ٥٥] **واللام مثلُها في قوله تعالى:** ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ [الفجر: ٢٤]، **أو ليسَ لها نفسٌ تُكذِّبُها وتقول لها: لم تكوني، كما لها**

تأكيدًا للوُجوبِ والإيقَاع، يُقالُ في الإسقاطِ، وفي شنِّ الحربِ، ويُكنَّى عن الحربِ بالوَقْعةِ، وكُلُّ سقوطٍ شديدٍ يُعبَّر عنه بذلك، وعنه استُعِيرَ الوَقيعةُ في الإنسانِ، والتَّوقيع: أثرُ الدَّبَرِ بظهرِ البَعير، وأثرُ الكتابةِ في الكِتابِ، ومنه استُعِيرَ التوقيعُ في القَصص(١).

قوله: (**وتكْذِبُ في تكْذِيبِ الغيبِ**)، أي: لا يكون في القِيامةِ نفسٌ تُنسبُ إلى الكَذب، وتسمَّى كاذِبةً لأجل تكْذِيبِها للغَيبِ، كما في الدُّنيا، وهو المُرادُ بقوله: «وأكثرُ النُّفوسِ اليومَ كواذبُ مُكذِّباتٌ»، لأنَّ كُلَّ من يُكذِّبُ الحقَّ فهو كاذبٌ، لأنَّهُ يقول بخلافِ ما هو كائنٌ.

قوله: (**واللامُ مثلُها في قولِه تعالى:** ﴿ قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾(٢)) أي: وقتَ حياتي، المعنى في الوقتِ الَّذي كنتُ حيًّا، قال صاحب «التقريب»: هو لام التَّاريخ.

قوله: (**أو ليسَ لها نفسٌ تُكذِّبُها وتَقول لها: لَمْ تكُوني**)، هذا يُحتملُ أنْ يكونَ صادِرًا عن اللسانِ، وأنْ يكونَ قد فعل ما يُلابِسُ التَّكْذيبَ، وإنْ صدَّقَ باللسان. قال في «الفَائق» في قوله: «كذَبَ، عليكَ الحجُّ»: «كذبَ» كلمةٌ جَرتْ مجرَى المثل في كلامِهم، وهي في معنى الأمر. كأنَّه يريدُ أنَّ كَذَب هاهنا، تمثيلٌ لإرادة: اترُكْ ما سوَّلتْ إليكَ نفسُكَ من التَّواني في

---

(١) «مفردات القرآن» ص٨٨٠.

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفيه اختصار عما في «الكشاف».

اليوم نفوسٌ كثيرةٌ يُكذِّبْنَها، يقُلنَ لها: لنْ تَكُوني. **أو هيَ من قولِهِم: كَذَبتْ فلانًا نفسُهُ في الخطبِ العظيمِ: إذا شجَّعْته** على مباشرتِه وقالت له: إنك تُطيقُه وما فوقَه، فتعرَّضْ

الحجِّ، ثم استأنَفَ بقولِه: اقصِدِ الحجَّ، فشبَّه إيجابَ الحجِّ عليه بسببِ تهيُّؤ أسبابِه ووجوبِ استطاعتِه، ثُم تقاعدِه عنه، كأنه يقول: لم يجبْ عليك الحجُّ، فقيل: كَذَب، عليك الحجّ، على سبيل التأكيد، كذلك من يُباشِر ما ينَافِي الرُّجوعَ إلى الله، ويتمادَى في الغَفلةِ والاشتغالِ بالدُّنيا مع ظهورِ الدَّلائلِ السَّاطِعَةِ على مجيءِ القِيامةِ، كأنَّه يقولُ لها: لن تكُوني.

قوله: (**أوْ هيَ من قولِهِم: كَذَبَتْ فلانًا نفسُهُ في الخَطْبِ العظيمِ: إذا شجّعته**) وإنَّما خُصَّ في الدُّنيا لمن لتَمادِيهم في العِنادِ أو في الغفلةِ، ولأنَّ بانتِفاء نفي غيرِ المؤكَّد في الآخرةِ، ينتفي المؤكّد بالطَّريقِ الأَولى، بخلافِ إثباتِ نفي المؤكّدِ في الدُّنيا، فإنَّه لا ينْتفي غيرُ المؤكَّدِ[1].

وقال في «الفائقِ»: المرادُ بالكذبِ التَّرغيبُ والبعثُ، من قولِهم: كذَبتهُ نفسُه، إذا منَّته الأمانيَّ وخَيَّلت إليهِ من الآمالِ ما لا يكادُ يكون، وذلك ما يُرغِّب الرَّجُل في الأمورِ، ويبعثُه على التَّعرُّض لها. ويقولونَ في عكسِ ذلكَ: صدَقَتْه، إذا ثبَّطَتهُ، وخَيَّلت إليه المُعجزةَ والنَّكدَ في الطَّلَبِ[2]، وهو من باب التَّجريدِ؛ جرَّد من نفسِه شخصًا وهو يحاوره، كقولِ القائلِ:

أقولُ لها وقد جَشَأتْ وجَاشَتْ ... مَكانَكِ تُحمَدِي أو تَسْتَريحِي[3]

وأنشدَ الميدانيُّ[4] للبيدِ:

واكْذِبِ النَّفْسَ إذا حدَّثْتَها ... إنَّ صدقَ النَّفسِ يُزْرِي بالأملْ

أي: لا تُحدِّثْ نفسكَ بأنَّك لا تَظفَر، فإنَّ ذلكَ يُثبِّطُكَ.

---

(١) من قوله: «وإنما خُصَّ» إلى هنا ساقطٌ من (ط) وأثبته من (ح) و(ف)، وأخَّر فيهما «في الخطب العظيم إذا شجّعته» إلى ما بعد الزيادة.

(٢) «الفائق في غريب الحديث» (٣: ٢٥٢) (الكاف مع الذال).

(٣) من قوله: «وهو من باب التجريد» إلى هنا ساقطٌ من (ط) وأثبته من (ح) و(ف). البيت لعمرو بن الأطنابة. انظر: «الكامل في الأدب» للمبرد (٤: ٥٧).

(٤) «مجمع الأمثال» (٢: ١٢٩). وانظر «ديوان لبيد» ص١٤١.

له ولا تبالٍ به، على معنى: إنَّها وقْعَةٌ لا تُطاق شدَّةً وفَظَاعةً، وأنْ لا نفسَ حينئذٍ تحدِّثُ صاحبها بما تُحدِّثه بـه عند عظائِم الأُمـور، وتُزيِّنُ لـه احتمالَها وإطاقَتهـا، لأنَّهم يومئذٍ أضعفُ من ذلكَ وأذلُّ. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] والفراشُ مَثَلٌ في الضَّعْفِ. وقيل: ﴿كَاذِبَةٌ﴾ مَصدر؛ كالعَاقِبة، بمعنى التَّكْذيب، من قولك: حَمَلَ على قِرْنِه فما كَذَّب، أي: فما جَبُن وما تَثَبَّط. وحقيقته: فما كذَّب نَفْسه فيما حدَّثته به من إطَاقَتِه له وإقْدَامه عليه. قال زهير:

.... إذا ما اللَّيْثُ كَذَّبَ عن أَقْرانِهِ صَدَقا

قوله: (حَمَلَ عَلى قِرْنِه فما كَذَّب، أي: فَما جَبُن)، وقال الزَّجَّاجُ: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، أي: لا يردّها شيءٌ، كما تقول: قد حَمَل فلانٌ فما كَذَّب، أي: لا يَردُّ حملته شيءٌ، وهو مَصْدرٌ نحو عافية وعاقِبةٌ وهذه أسماءٌ في موضع المصادِر، وقال في الفَائق: حمَل فلانٌ ثُمَّ كَذَّبَ أي: جَبُن ونكَل، ومعناه: كذَّب الظَّنَّ بِهِ، أو جَعل حَمْلتَهُ كاذِبةً غَير صادِقَةٍ[1].

قوله: (إذا مَا الليثُ كذَّب عن أقرانِه صَدَقًا)، صدرُهُ:

ليثٌ بِعَثَّرَ يصطادُ الرِّجالَ

يمدح شجاعًا،وعَثَّرُ: اسمُ موضع، أي: إذا جَبُن الشُّجاعُ عن قِرْنِه بَسُلَ هو وأقدمَ غير مبالٍ ولا مُكْترِثٍ، وقال أبو علي: الكذبُ ضربٌ من القولِ، فكَما جازَ أن يتَّسِع في القول في غير نُطقٍ نحو:

قد قالت الأنســاع للبطن الحقِ

جَازَ في الكذب أنْ يُجعل في غيرِ نُطقٍ، نحو:

كـذب القراطِـف والقُروف

فيكون ذلك انتفاءً لها، كما إذا أخبر عن الشَّيءِ على خلاف ما هو به، كان انتفاءً للصِّدقِ

---

(١) في الأصول الخطية: «صادقة غير كاذبة» وهو خطأ من النُّساخ، والله أعلم، وهذا النقل من «الأساس» للزَّمخشري، وليس في «الفائق» له .

أي: إذا وقعتْ لم يكُن لها رجعةٌ ولا ارتدادٌ، ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ على: هي خَافِضةٌ رافعةٌ، ترفعُ أقوامًا وتَضَعُ آخرين: إمَّا وصْفًا لها بالشِّدّة؛ لأنّ الواقِعاتِ العِظامَ كذلك؛ يرتَفعُ فيها ناسٌ إلى مراتِبَ، ويتَّضِعُ ناسٌ، وإمَّا لأنَّ الأشقياءَ يُحطُّون إلى الدَّرَكاتِ، والسُّعداءَ يرفعُون إلى الدَّرجَاتِ؛ وإمَّا أنَّها تُزلزِلُ الأشياءَ وتُزيلُها عن مقارِّها، فتخْفِضُ بعضًا وترفَعُ بعضًا؛ حيث تسقط السَّماءُ كِسَفًا، وتَنتَثرُ الكَواكبُ وتَنكَدِرُ، وتَسيرُ الجبالَ، فتمرُّ في الجوِّ مرَّ السَّحابِ. **وقُرِئَ: (خَافِضةً رافعةً) بالنَّصبِ على الحالِ.**

فيه، وقيل في قولِ الأعرابيِّ، وقد نظر إلى جَمَل نِضْوٍ: كذب عليك القَتُّ والنَّوى، معناه: أنَّ القَتَّ والنَّوَى ذكَرا أنك لا تَسْمَن بهما فقد كَذَبا عَلَيْكَ، فعليك بِهما، فإنك تَسْمَنُ بهما، ثمَّ اختارَ أنَّهما كلمةٌ جرتْ مجرى المثلِ[1].

وحاصلُ الوُجوه: أنَّ ﴿كَاذِبَةٌ﴾ إمَّا أنَّها صِفةُ موصوفٍ محذوفٍ، أو هي محمولةٌ على الواقِعةِ مجازًا، والأوّل على وجوه:

أحدها: أنَّ المعنى ليس هناك نفسٌ تصيرُ كاذبةً بتكْذِيبها اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ لا بعثَ ولا إعادَةَ، كما في الدُّنيا، وعليه وَرد الحديث القُدسي: «كذَّبني ابنُ آدمَ ولم يكن له ذلكَ»، إلى قوله: «ولنْ يُعيدَني كما بدأني»[2].

وثانيها: ليس هناك نفسٌ تُكذِّب نفسَ السَّاعةَ، بأنْ تَقُول لها: لن تكوني، إمَّا قولًا أو فعلًا، كما كانت تفعلُ في الدُّنيا.

وثالثها: لا تُكذِّبُ النَّفسُ الشَّخصَ حينئذٍ وتُمنِّيه الأباطيل، وإليه أشار بقوله: «لا نفسَ حينئذٍ تُحدِّثُ صاحِبَها بما تُحدِّثُ به. والثاني: وهو أنْ يكونَ الضَّميرُ في ﴿كَاذِبَةٌ﴾ راجعًا إلى الواقعةِ، ويُراد بالكذِبِ الكذبُ بالفعلِ دون القولِ، كما قال: «أي إذا وقعتْ لم يكنْ لها رجعةٌ»، ويُروى «راجعة»، وهو من قول الزَّجَّاجِ، أي: لا يردُّها شيءٌ كما تقول: حَمل فلانٌ فما كَذَب.

قوله: (**وقُرئَ: «خافضةً رافعةً» بالنَّصبِ على الحالِ**)، قال ابن جِنِّي: وهي قراءةُ الحسنِ

---

(١) انظر هذا كله عند الزَّمَخْشري في «الفائق في غريب الحديث» (٣: ٢٥٠) (الكاف مع الذال).
(٢) البُخَاري (٤٤٨٢).

﴿رُجَّتِ﴾ حُرِّكتْ تَحريكًا شَديدًا، حتى ينهدِمَ كُلُّ شيءٍ فوقَها من جبلٍ وبناءٍ، ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ﴾ وفُتِّتَتْ حتى تعودَ كالسَّويق، أو سيقَتْ؛ من بَسَّ الغنمَ: إذا ساقَها. كقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ: ٢٠].

واليزيدي[١] والثَّقَفيّ، وهذا منصوبٌ على الحالِ، وقوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ حالٌ أخرى قبلَها، أي: إذا وقَعت الواقِعةُ صادقَةَ الوعدِ خافضةً رافعةً، مثلُه: مررتُ بزيدٍ جالسًا متكِئًا ضاحِكًا، كما لك أنْ تأتي للمبتدأ من الأخْبارِ بما شئتَ، كذلك الأحْوالُ، لأنَّ الحال ضَرْبٌ من الخبرِ. ويجوز أن يكون قوله ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ خبرًا عن ﴿إِذَا﴾ الأولى، ونظيرُه إذا تزورني إذا يقومُ زيدٌ، أي وقتُ زيارَتِك إيَّاي وقتُ قيامِ زيدٍ، وجاز لـ«إذا» أن تُفارق الظَّرفيةَ وترتفعَ بالابتداءِ، كما جازَ لها أن تخرج بحرفِ الجر عن الظَّرفيَّةِ كقول زهير[٢]:

حتَّى إذَا أَلْقَتْ يـــدًا في كَافرٍ وَأَجَنَّ عَوراتِ الثُّغُورِ ظَلَامُهـا

الضَّميرُ في «أَلْقَتْ» للشَّمسِ، أي: بدأت في المَغِيبِ، والكافرُ: الليلُ لتغْطِيتِهِ الأشياءِ بِظُلْمتِه، وعَـوْرات الثُّغُور: المَواضِـع التي تؤتي المخافة، وقـوله تعـالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [يونس: ٢٢] فـ﴿إِذَا﴾ مجرورٌ عند أبي الحسن بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾، وذلك مُخرجٌ من الظَّرْفيَّة[٣].

قوله: **(حتى تَعودَ كالسَّوِيق) الأساس**: بُسَّتِ الجبالُ: فُتَّتْ كالدَّقيق والسَّوِيقِ، ومنه

---

(١) في (ح) و(ف): «التِّرْمذي»، وهو تصحيف، وما في «المحتسب» لابن جني موافق لما في (ط)، وهو الصواب إن شاء الله تعالى.

(٢) البيت ليس لزُهير، وإنما هو للبيد بن ربيعة، وهو في «ديوان لبيد» ص٢١٥، وعزاه له كُلُّ من ذكر البيت من أهل اللّغة، ولعل الوهم تَسَرب للمؤلف من صنيع ابن جِنِّي حيث قال: كقوله دون أن ينسب البيت، وقبل ذلك بصفحة ذكر بيتًا لزُهير، فظنّ المؤلف أنَّ هذا البيت لزُهير أيضًا، والحال أنَّ ابنَ جِنِّي قد ذكر هذا البيت في سورة (ص) (٢: ٢٣٣) ونسبه للبيد، وهو بيت من معلقته التي مَطْلعها:

عَفَتِ الدِّيــارُ محلّهــا فَمُقامُهـا بِمِنًى تأبَّــدَ غَـولُهـا فَرِجَامُها

(٣) «المحتسب» (٢: ٣٠٧-٣٠٨).

﴿مُّنۢبَثًّا﴾ مُتفرِّقًا. وقُـرِئَ بالتَّـاءِ أي: مُنقَطِعًا. وقُـرِئَ: (رَجَّت)، و(بَسَّت) أي: ارتجَّت وذهبت. وفي كلامِ بنتِ الخُسِّ: عينُها هاجٌّ، وصَلاها راجٌّ. وهي تمشِي وتَفاجُّ.

فإن قلتَ: بم انتصَبَ ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾؟

قلتُ: هو بـدلٌ من ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾. ويجـوز أن ينْتصِبَ بـ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾. أي: تخفِضُ وترفعُ وقتَ رجِّ الأرضِ وبسِّ الجبالِ، لأنَّه عند ذلك ينخفضُ ما هو مرتفعٌ، ويرتفِعُ ما هو مُنخفِضٌ، ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصْنَافًا، يقال للأصْنافِ التي بَعضُها مع بعضٍ، أو يُذْكرُ بعضُها مع بعضٍ: أزواجٌ.

[﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۞ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ ٨-٩]

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ الذيـن يُـؤتَـوْن صَحَـائفَهم بأيمانِهم، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ الذين يُؤتَوْنَها بشَمائِلهم، أو أصحابُ المنزلةِ السَّنِيَّةِ وأصحَابُ المنزلةِ الدَّنِيَّةِ، من

قيل لِلسَّويقِ الملتُوتِ: البَسِيسَة، وقيل: البَسِيسَةُ هي أن يُلَتَّ السَّوِيقُ أو الدَّقِيقُ أو الأَقطُ المطحونُ بالسَّمْنِ أو الزَّيتِ.

قوله: (وفي كِلامِ بنت الخُسِّ) بالخاءِ المُعجمة مَضمومةٌ والسِّين المُهْملة. **الأساس**: تقوُل: أين بنتُ الخُسِّ من فصاحة قُسّ، وكلاهما من إيادٍ[1]، وفي حاشية «الصِّحاح»: قال أبو محمد الأسود: هي بنتُ الخُسِّ من العَمالِيقِ الإيادية[2]. تصِفُ ناقةً. عين هاجّة، أي: غائرة، والصَّلا: ما عن يمين الذَّنَبِ وشِماله، وهما صَلَوان، ورُجَّ فارتجَّ، أي. حُرِّك فتحرَّك، وتفاجَّت النَّاقة: إذا فرَّجت بين رِجليها.

---

(١) «أساس البلاغة» ص١١٠.

(٢) ذكر ذلك أيضًا: الصَّاغاني في «العُباب الزَّاخر»، حرف السِّين، ص١٢٢. وعزاه لابن الأعْرابي في «النّوادر» عن أبي محمد الأسود.

قولِك: فُلانٌ مِنّي باليمينِ، وفلانٌ مِنّي بالشِّمال: إذا وصفتَها بالرِّفعةِ عندَكَ والضَّعةِ؛ وذلك لتيمُّنِهم بالمَيَامِن، وتَشاؤُمِهم بالشَّمائِل، ولتَفاؤلِهم بالسَّانِح وتطيُّرِهم من البارِحِ، ولذلك اشتقُّوا لليمين الاسم من اليُمْن، وسمَّوُا الشَّمائل الشُّؤْمى.

وقيل: أصحابُ الميمنةِ وأصحابُ المشْأمةِ: أصحاب اليُمْنِ والشُّؤْمِ؛ لأنَّ السُّعَداءَ مَيامينُ على أنفسِهم بطاعَتِهم، والأشقياءُ مشائِيمُ عليها بمَعْصِيتِهم. وقيل: يؤخَذ بأهل الجنَّةِ ذاتَ اليمينِ وبأهلِ النَّار ذاتَ الشِّمال.

[﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ * جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ ١٠-٢٦]

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ المُخلِصُون الذين سبقُوا إلى ما دَعاهُم الله إليه، وشَقُّوا الغُبارَ في طلبِ مَرضاةِ الله عزَّ وجَلَّ، وقيل: النَّاسُ ثلاثةٌ؛ فرجُلٌ ابتكر الخيرَ في حَداثةِ سِنِّه، ثُمَّ داوَمَ عليه حتى خَرج من الدُّنيا؛ فهذا السَّابِقُ المُقرَّبُ، ورجلٌ ابتكر عُمرَه بالذَّنبِ وطوَّلَ الغَفْلَةَ، ثُمَّ تراجَع بتوبةٍ؛ فهذا صاحبُ اليمينِ، ورجلٌ ابتكر الشَّرَّ في حَداثةِ سِنِّهِ، ثُمَّ لم يَزل عليه حتى خرج من الدُّنيا، فهذا صاحِبُ الشِّمال.

﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾؟! ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾؟ تعجيبٌ من حالِ الفريقينِ في السَّعادة والشَّقاوة. والمعنى: أيُّ شيء هُم؟ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾، يريد: والسَّابقُون

قوله: (فرجلٌ ابتكَر) الفاء تفصيليَّة في قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ والمُفصَّل: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾، والواو للحالِ و«قد» مقدرة، والعاملُ الفِعلُ السَّابق، ويجوز أن تكون حالًا مقدرة لقوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

قوله: (تعجيبٌ من حالِ الفَريقَيْن في السَّعادَةِ والشَّقاءِ) قال القاضي: والجُملتانِ

من عَرفتَ حالَهم وبَلغكَ وصفُهُم، كقوله: و«عبدُ الله عَبدُ الله». وقول أبي النَّجْم:

وشِعْري شِعْري ...

كأنَّه قال: وشِعْري ما انتهى إليك وسمعتَ بفصاحتِه وبراعتِه. وقد جُعِلَ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ تأكيدًا. و﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ خبرًا، **وليس بذاك**. ووقفَ بعضهم

الاسْتِفهامِيَّتانِ خبرانِ لما قَبْلَهما، بإقامةِ الظَّاهرِ مقامَ الضَّميرِ، ومعناهُما: التَّعَجُّبُ من حالِ الفريقَيْن(١).

قوله: (**وشِعْري شِعْري**)، تمامُه:

أنا أبو النَّجم وشِعْري شِعْري ... لله درِّي ما أجَنَّ صدري

تنام عيني وفؤادي يَسْري ... مع العَفاريت بأرضٍ قفرِ(٢)

إنَّما أوقَع «أبو النَّجم» خبرًا لتَضَمُّنه نوع وَصْفية الكمال واشْتهاره به، كما أطلق اسمه بادرت الصِّفةُ في الذِّهنِ، وهو المُراد من قوله: «مَنْ عَرفتَ حالَهم وبلَغكَ وصْفُهم»، المعنى: أنَا ذلك المعروفُ الموصوفُ بالكَمالِ، وشِعْري هو المشهورُ في الفَصاحَةِ والبلاغةِ.

وقدر صاحبُ «المرشد»: والسَّابقون إلى طاعةِ الله هُمُ السَّابِقون إلى رحْمَتِه. وروينا عن الإمام أحمد بن حنبل عن عائشةَ رضيَ الله عنها عن رسولِ الله ﷺ: «أتَدْرُونَ مِن السَّابقُونَ إلى ظِلِّ الله عَزَّ وجَلَّ يومَ القِيامَةِ؟» قالوا: الله ورَسُولُه أعلمُ، قال: «الذِينَ إذَا أُعطُوا الحقَّ قَبِلوهُ، وإذا سُئِلوه بَذلُوهُ، وحَكموا للناس كحُكْمِهم لأنْفُسِهم»(٣).

قوله: (**ولَيْس بذاك**) أيْ: بذاك القول الّذي يعُوَّل عليه، لأنَّه يُفوِّتُ تلك المُبالغة

---

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٢٨٤).

(٢) من أرْجُوزة أبي النَّجم العِجْلي، انظر: «خِزانة الأدب» للبغدادي (١: ٤٣٩).

(٣) الحديث ضعيفٌ، أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٦: ٦٧، ٦٩) وفيه ابن لَهيعَة، وأخرجه في «الزهد» أيضًا ص٤٠٠، وابن حجر في «الأمالي المطلقة» ص١١٣ من طريق أحمد بن حَنْبل، وفي ص٢٠٣ وقال: وابن لَهِيعَة وإنْ كان سَيئ الحفظ فحديثه أولى بالقَبول من حديث المَلَطي.

على: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وابتدأ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، والصَّوابُ أن يُوقَف على الثَّاني، لأنَّه تمامُ الجملةِ، وهو في مقابَلة ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾، و﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾.

﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الذين قَرُبتْ دَرجاتُهم في الجنَّةِ من العَرْشِ، وأُعلِيت مراتبُهم. وقُرِئَ: (في جنَّةِ النَّعيمِ)، والثلة: الأمَّةُ من النّاس الكَثيرة. قال:

وجاءَتْ إلَيْهِـــم ثُلَّةٌ خِنْدِفِيَّةٌ ... بجَيْشٍ كتيَّارٍ مِن السَّيْلِ مُزْبِدِ

التي سبقَتْ في جَعْلِ الخبرِ نَفسَ المبتدأ، أو تلك المُقابلةُ التي بينَه وبين أصحابِ المَيْمَنةِ، استئنافُ جملةٍ أُخرى على تَقْديرِ سؤالِ سائلٍ عند ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

قوله: (وهو في مُقابلة ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾) وكان يَنبغِي أن يُقال: السَّابقون، إلّا أنَّه أُريد أنْ يَصِفهم بوَصفٍ لا يُكْتَنَهُ كُنْهُه، والفرق: أنّ الجُملتينِ واردتان على التَّعَجُّبِ، أي: مَا عرفتَ حالَهم؟ أيَّ شيءٍ هُم؟ فاعْرفها وتعجَّب منها، وأمَّا الأخيرةُ فمعناها أنَّك عَرفتَ حالَهم وصِفتَهم ومَزِيَّتَهم، فلا يُحتاج إلى التَّقرير، فعلى هذا المرادُ بالمقابلة: الطباق بين القرائن الثلاث، وإن أُريدَ بالمقابلة التّضادُّ، فالمقابلة حينئذٍ باعتبار المعنى، بحسب التقدّم والتأخر[1] والأُسلوبُ من بابِ اسْتِيفَاءِ أقسام الشَّيءِ، لأنَّ النَّاسَ من بين سابقٍ ومُقتصِدٍ وظَالِمٍ، كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢] وهذا مانعٌ آخرُ من جَعْلِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ خبرًا، و﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ تأكيدًا، وأنت إذا استَنْشَقْت جُلَّ فَقراتِ هذه السُّورةِ الكَريمةِ، من مُفتَتحِها إلى مُختَتمِها شَمَمتَ منها رائحة مثلثات كأنها:

أُذِيفَ عليها المِسكُ حتّى كأنّها ... لَطِيمَةُ دَارِيٍّ تفتَّـــق فَارُهـا[2]

قوله: (وجاءت إليهم ثُلَّة) البيت[3]، خِنْدفيَّة: منسوب إلى خِنْدِف؛ امرأةِ إلياسَ من

---

(١) من قوله: «فعلى هذا» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف) وأثبته من (ط).

(٢) البيت لكُثيرِّ عَزّة، وانظر: «ديوانه» ص٤٣٠، وفيه «أفيد»، ويُروى «أُديف» بالمهملة.

(٣) لم أهتدِ إلى قائله.

وقولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ **كَفى بِهِ دَليلًا على الكَثْرةِ**، وهي من الثَّـلِّ وهو الكَسْر، كما أنّ الأمّة من الأمّ وهو الشَّجُّ، كأنَّها جماعةٌ كُسِرت من النَّاسِ وقُطِعَتْ مِنهم. والمعنى: أنَّ السَّابقينَ من الأوّلين كثيرٌ، وهمُ الأمم من لَدُن آدمَ عليه السَّلام إلى محمدٍ ﷺ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ وهم أمّة محمد ﷺ. وقيل: ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من مُتقدِّمي هذه الأمّة، و﴿مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ من متأخِّريها. وعن النَّبي ﷺ: «الثُّلتان جميعًا من أمّتي».

فإن قلتَ: كيف قالَ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٤]، ثُمَّ قال: «﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ٤٠]؟»

قلتُ: هذا في السَّابقينَ، وذلك في أصحابِ اليمين؛ وأنَّهم يتكاثَرون من الأوّلين

مُضَـر، واسمُها ليلى، نُسبَ ولد إلياس إليها وهي أمُّهم، والتَّيَّارُ: الموجُ، مُزْبِدٌ: كثيرُ الزَّبَدِ، والمراد: كَثرةُ الجيشِ.

قوله: (كَفَى به دَليلًا على الكَثْرةِ) يعني: وقوعُ «قليلٍ» في مُقابِل ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ دليلٌ على كَثرةِ المُقَابِلِ، يُعرِّضُ بقولِ الزَّجَّاج: ويجُوز أنْ تكونَ الثُّلةُ بمعنى: قليل، أي قَليلٌ من الأولين، وقَليلٌ من الآخِرين، لأنَّ اشتِقَاقَ الثُّلَةِ من القِطْعةِ، فالثُّلَّةُ نحوُ الفِرقة والفِئةِ والقِطْعةِ(١).

الراغب: الثُّلَّةُ: قطعةٌ مجتمعةٌ من الصُّوفِ، ولذلكَ قيل للغَنَم: ثُلّةٌ، ولاعتبار الاجتماع قيل: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾، أي: جماعةٌ، وثَلَلْتُ كذا: تناولتُ ثُلّةً مِنه، وثَلَّ عرشَهُ أسقطَ ثُلّةً مِنه(٢).

قوله: (كيفَ قَالَ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾) يعني: ذكرتَ أنَّ الثُّلَّةَ هي الأمَّةُ الكَثِيرة، وتمسَّكتَ بقولِه: ﴿وَقَلِيلٌ﴾، فكيفَ قال أولًا: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، فوَصفهُم بالقِلّةِ، ثُمَّ قال: ﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾، فوصَفَهم بالكَثرةِ؟ وأجاب: أنَّ ذلكَ في قومٍ، وهذا في قومٍ، ولما وَرَدَ الحديثُ مُخالِفًا لهذا التَّأويل ردَّهُ لأنَّ قَضِيةَ هذا الخبر: «فما زَال رسولُ الله ﷺ يُراجِعُ ربَّهُ»،

---

(١) «معاني القرآن» (٥: ١٠٩).

(٢) «مفردات القرآن» ص١٧٦

والآخِرين جَميعًا. فإن قُلت: فقد رُوي أنَّها لَّما نزلت شقَّ ذلك على المسلمين، فما زَال رسولُ الله ﷺ يُراجِعُ ربَّه حتى نزلت ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ٣٩، ٤٠].

قلتُ: هذا لا يَصحُّ لأمرين، أحدُهما: أنّ هذه الآية واردةٌ في السَّابقين وُرُودًا

فوجبَ أنْ تكـون الجماعةُ واحـدةً، أي: كانت الجماعةُ قليلةً فسـأل أنْ يُزِيلَ عنهم القِـلَّةَ، ويَكسُوَهُم الكَثْرَةَ.

قوله: (هَذا لا يَصحُّ لأمْرين) وقلت: صحّ، ورواه الإمامُ أحمد في «مُسنده» عن أبي هُريرَة: ولَّما نزلت: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾، شقَّ ذلك على المسلمينَ، فنزلت: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾، فقال: «أنتم ثُلثُ أهلِ الجنّة، بل أنتم نِصفُ أهْلِ الجنَّة، وتُقاسِمونهم النِّصفَ الثَّاني»[1]، ووُرُودِ الآية الأولى في السَّابقين والثَّانية في أصحابِ اليمين لا يَردُّ مقْتَضى هذا الحديث، فإنَّه صلواتُ الله عليه حين أخْبَرَ الصَّحابة بهذه الآية حَسِبوا أنَّ الخِطابَ مع جميع هذه الأمّة، فَشَقَّ ذلك عَلَيهم، فنزلت الآيةُ الثالثة ليُعْلَم أنَّ

---

(١) «مسند الإمام أحمد»: (٢: ٣٩١).

قلت: أما رواية أحمد فلم تصحَّ بمفردِها، لوجود شَريك بن عبد الله، وهو كثيرُ الخطأ والوهم، وشيخُه وشيخ شيخِه مستوران لا يكادان يُعرَفان، لذا ضَعَّف الأرناؤوط هذا السَّند، إلَّا أنه حكم على الحديث بأنه حسن لغيره.

أمّا رواية الثُّلثين التي ذكرها الزَّمَخشري وردّها فقد صرّح ابن حجر في «الفتح» (١١: ٣٨٧) بعدم صحّة هذه الزِّيادة عند شرحه لحديث رقم (٦٥٢٨) وفيه: «إني لأرجو أن تكونوا شَطْر أهل الجنة»، فقال: وزاد الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في نحو حديث أبي سعيد، «وإني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، بل أرجو أن تكونوا ثُلثي أهل الجنة»، ولا تصح هذه الزِّيادة لأنَّ الكَلبي واهٍ، ثُمّ ذكر رواية أحمد التي سبق تخريجها، وخرّجه أيضًا من عند الطَّبراني عن أبي هُريرة بلفظ: «أنتم رُبع أهل الجنة، أنتم ثلث أهل الجنة، أنتم نصف أهل الجنة، أنتم ثلثا أهل الجنة»، وأخرج الخطيب في «المبهمات» من مرسل مجاهد نحو حديث الكلبي، وفيه مع إرساله أبو حذيفة إسحاق بن بشر أحد المتروكين.

وحديث الثلثين رواه أيضًا ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (٧: ٤٢٦) معضلًا فالزيادة ضعيفة وإن كان يشهد لها حديث بريدة عند أحمد (٢٢٩٤٠): «أهل الجنة عشرون ومئة صف، أنتم منهم ثمانون صفًا».

ظاهرًا، وكـذلك الثَّانية في أصحـابِ اليمين. ألا تـرى كيف عَطَف أصحـابَ اليمينِ وَوَعْدَهم، على السَّابقين وَوَعْدِهم. والثَّاني: أنّ النَّسخَ في الأخبارِ غيرُ جائزٍ، وعن الحسنِ رضي الله عنه: سـابِقُو الأممِ أكثرُ مـن سابقي أمّتنا، وتابعُو الأمـم مثـلُ تابعي هذه الأمّة. وثُلةٌ: خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: هم ثُلَّةٌ.

﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ مَرْمُولةٍ بالذَّهبِ، مُشَبَّكةٍ بالدُّرِّ والياقُوتِ، قد دُوخِلَ بعضُها في بعضٍ كما تُوضَنُ حِلَقُ الدِّرعِ. قال الأعشى:

ومِنْ نَسْجِ داودَ مَـوضُـونَـة

الأولى فيهم وفي أمثالِهم مِنَ المُقرَّبين والتَّابِعينَ لهم بإحسانٍ، والثَّانيةُ في من يَلْحَقُ بهم من أصْحابِ اليمينِ، واندفَع بهذا أيضًا لُزومُ النَّسْخِ في الأخبارِ، لأنّ السِّياق في الشَّفاعة على طريق التَّدرُّج لمزيد السُّرور والتبجُّح.

ويُؤيِّـدُهُ ما رُوِّينـا عن البُخَاريِّ ومُسلِمٍ والتِّرمِـذِيّ عن ابنِ مسعُودٍ قال: كنا مع رسولِ الله ﷺ في قُبةٍ في نحوٍ من أربعينَ، فقال: «أترضَونَ أنْ تكُونوا رُبع أهلِ الجنَّةِ؟ قلنا نعم: قال: «أترضَونَ أن تكونوا ثُلثَ أهلِ الجنَّةِ؟ قالوا: نعم، قال: «والذي نَفْسِي بيدِهِ إنِّي لأرْجُو أنْ تكُونوا نِصفَ أهلِ الجنة»، الحديثَ[1].

قوله: (مَرْمُولةً بالذَّهب) **الجَوْهَرِيُّ**: رملتُ الحصيرَ، أي: سَفَفتهُ، وأرملته: مثله، قال: سَفِيفَةٌ من خوصٍ، نسيجةٌ من خُوصٍ، وقد سَفَفْتُ الخوص أسفُّهُ بالضَّمِّ سَفًّا، وأسْفَفْتُه أيضًا: نسجتُه.

قوله: (ومِنْ نَسْجِ داودَ مَوْضُونة) أنشد الزَّجّاجُ تمامَه:

تُساقُ مع الحيِّ عَيْرًا فَـعَيْرا[2]

---

(١) البُخاري (٦٥٢٨)، ومُسلم (٢٢١)، والترِّمذي (٣١٦٨).

(٢) «معاني القرآن» (٥: ١١٠)، وانظر أيضًا: «لسان العرب» (١٣: ٤٥٠) وفيه: وردعٌ موضونة: مضاعفة النَّسج.

وقيل: مُتواصِلة، أدنى بعضُها من بعضٍ. ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ **حالٌ** من الضَّمير في ﴿عَلَىٰ﴾، وهو العاملُ فِيها، أي: استقَرُّوا عليها مُتَّكِئين. ﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ لا يَنْظُر بعضُهم في أقْفَاءِ بعض. وُصِفوا بحُسنِ العِشْرةِ وتَهذيبِ الأخلاقِ والآدابِ.

﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ مُبْقون أبدًا على شَكْلِ الوِلْدان **وحَدِّ الوصافة لا يتحوّلون عنه**. وقيل: مُقرَّطُون، والخَلْدَةُ: القُرْطُ. وقيل: هم أولاد أهلِ الدُّنيا: لم تكن لهم حسناتٌ فيُثابوا عليها، ولا سيئاتٌ فيُعاقَبوا عليها. روي عن علي رضي الله عنه وعن الحسن، **وفي الحديث: «أولادُ الكفَّارِ خُدَّام أهلِ الجنةِ»**.

الجَوْهَري: عَيرُ القَومِ: سَيّدُهُم، وقولهم: «عَيْرٌ بعَيرٍ، والزّيادة عَشْرة».

قوله: (﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ **حالٌ**) أبو البَقـاء: في ﴿ثُلَّةٌ﴾ وجهـان؛ أحدُهما: هـو مبتدأٌ، والخبرُ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾، والثَّاني: هو خبرٌ، أي: هُمْ ثُلَّةٌ، و﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حالٌ من الضَّميرِ في ﴿عَلَىٰ﴾، و﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ حالٌ من الضَّميرِ في ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، ويطوفُ يجوزُ أن يكونَ مُستَأنفًا، وأنْ يكونَ حالًا[1].

وقلتُ: قولُ المصنِّف وأبو البَقاء: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حالٌ من الضَّميرِ في ﴿عَلَىٰ﴾ معناه: حالٌ من ﴿عَلَىٰ﴾ في ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ لأنَّ قولَه: ﴿عَلَيۡهَا﴾ كما ظنَّ، لأنَّ الظَّرفَ لا يعمل في الحالِ متقدمة، وقد مَرَّ فيه كلامٌ في سورةِ المُؤمن.

قوله: (**وحَدِّ الوَصَافة لا يَتحوَّلونَ عنه**) **الجَوْهَري**: الوَصيفُ: الخادِمُ غُلامًا كان أو جَاريةً، يقال: وَصُفَ الغلامُ إذا بلغَ حدَّ الخِدمة، فهو وَصِيفٌ بَيِّنُ الوَصَافةِ.

قوله: (**وفي الحديثِ: «أولادُ الكُفَّار خُدَّام أهلِ الجنَّة»**)[2]، قلتُ: هذا لم يَصحّ، وورد

---

(١) «إملاء ما من به الرحمن» (٢: ٢٥٣-٢٥٤).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في «الكاف الشاف» (٤: ٤٥٩) مع «الكشّاف»: أخرجه البزار والطبراني في «الأوسط» من رواية عباد بن منصور عن أبي رجاء العطاردي عن سمرة بن جندب، ورواه البراز من رواية على زيد بن جدعان، والطيالسي والطبراني وأبو يعلى من رواية يزيد عن أنس.

قلت: أما رواية البزار والطبراني فقد قال الهيثمي عنها في «مجمع الزوائد» (٧: ٢١٩) فيه عبّادُ بنُ منصور =

....

ما يَدْفَعُه، رُوِّينا عن البُخَارِيِّ وأبي داودَ والنَّسائي عن عائشة، قالت: تُوفِي صبيٌّ، فقلتُ: طُوبى له عُصفورٌ من عَصافيرِ الجنَّة، فقال ﷺ: أولا تَدْرينَ أنَّ الله خلقَ الجنَّةَ وخَلق النَّار، فخلقَ لهذه أهلًا ولهذه أهلًا»؟ وفي روايةٍ: «خَلقَهُم لَها وهُم في أصْلابِ آبائِهِمْ»[1].

وعن أبي دَاوُد عن عَائِشةَ قالت: قُلتُ: يا رسول الله ذَرارِي المؤمنين؟ فقال: «مِن آبائِهم»، فقلتُ: يا رسول الله بلا عملٍ؟! قال: «اللهُ أعلم بما كانوا عاملين»، قلتُ: يا رسول الله، فَذَراري المُشرِكين؟ فقال: «من آبائهم»، فقلتُ: بلا عمل؟! قال: «الله أعْلمُ بما كانوا عَامِلينَ»[2]، وقلت: من قولِه «من آبائِهم» اتِّصاليَّة، كقوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ

= وثَّقَهُ يحيى القطان وفيه ضعف، ورواية البزَّار فيها علي بن زيد وهو ضعيفٌ، أما الطريقة الأخيرة ففيها يزيد الرَّقاشي وهو ضعيف أيضًا.

وقال البُوصيري في «إتحاف المهرة» (٨: ٢٨١) رقم (٧٩٥١) عن يَزيد الرَّقاشي قال: قلت لأنس رضي الله عنه: ما تقولُ في أطفال المشركِين؟ فقال: قال سول الله ﷺ: «لم يكن لهم حسناتٌ يجازون بها فيكونوا من أهل الجنة، ولا سيئات فيعاقبوا عليها، فيكونوا من أهل النار، هم خُدّام أهل الجنة». رواه أبو داود ـ يعني الطيالسي ـ وأحمد بن منيع، وأبو بكر بن أبي شيبة، وعنه أبو يَعْلى، ومدار أسَانيدهم على الرَّقاشي.

فطرق الحديث كلها فيها ضعف والله أعلم، وهذا ما حكم به ابن حجر في «فتح الباري» (٣: ٢٤٦)، عند سرده أقوال العلماء في أطفال المشركين: رابعها: خَدَم أهل الجنة، وفيه حديث عن أنس ضعيف أخرجه أبو داود الطَّيالسي وأبو يَعْلى، وللطَّبَراني والبَزَّار من حديث سَمُرة مرفوعًا: «أولادُ المشركين خَدمُ أهلِ الجنّة» وإسناده ضعيف.

(١) مسلم (٢٦٦٢)، وأبو دَاود (٤٧١٣)، والنَّسائي (١٩٤٧). ولعل ذكر البُخَاري وهمٌ من المُصنِّف، ولا يصح أن يُجعل هذا الحديث معارضًا لحديث «خُدّام أهل الجنة» إذ ليس ثمّة معارضة واضحة، وقال النَّووي في الجواب عما في هذا الحديث كما في «شرح صحيح مسلم» (١٦: ٢٠٧): أجمع من يُعتدُّ به من علماء المسلمين على أنَّ من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنّة، لأنّه ليس مُكَلَّفًا، وتوقف فيه بعض من لا يُعتد به لحديث عائشة هذا، وأجاب العلماء: بأنّه لعله نهاها عن المُسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليلٌ قاطع.

(٢) أبو داود (٤٧١٢).

الأكوابُ: أوانٍ بلا عُرَى وخَراطِيم، والأباريقُ: ذواتُ الخَراطِيم.

﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: بسببها، وحقيقتُـه: لا يَصْـدُر صُـدَاعهم عنها، أو لا يُفرّقـون عنها. وقـرأ مجـاهد: (لا يَصَّدَّعُون)، بمعنى: لا يَتصـدَّعُون لا يتفرَّقُون، كقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، و(يُصَدِّعون)، أي: لا يُصدِّع بعضُهم بعضًا، لا يفرّقونهم ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ يأخُذون خيرَه وأفضلَه، ﴿يَشْتَهُونَ﴾ يتمنَّون. وقُرِئَ: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾

بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال الخَطابِي: أي إنَّهم كفارٌ يلحَقُون في الكُفر بآبائِهم، لأنَّ الله قد عَلِم أنَّهم لو بقُوا أحياءً حتى يَكبُروا، لكانوا يَعملُون عمَلَ الكفَّارِ، ويدلُّ عليه قولُه صلوات الله عليه، قال: «الله أعلمُ بِما كانُوا عامِلين»، في جوابِ عائشةَ: يا رسول الله ﷺ بلا عَملٍ[1]؟!

وقال ابنُ المبارك: فيه أن كلَّ مولودٍ من البشرِ، إنَّما يُولدُ على فِطرَتِه التي جُبِل عليها من السَّعادَة والشَّقَاوةِ، وعلى ما سَبق له من قَدرِ الله، وتَقدَّمَ من مشيئَتِهِ فيه من كفر أو إيمانٍ، فكلٌّ منهم صائرٌ في العاقِبَةِ إلى ما فُطِر عليه، وخُلِق له، وعامل في الدُّنيا بالعملِ المُشاكِلِ لفطرَتهِ في السَّعادَةِ والشَّقاوةِ، فمن أمارات الشَّقاوةِ للطِّفلِ أنْ يُولدَ بين نصـرانيين أو يهودِيَّين، فيحمِلانه لشَقاوتِه على اعتقادِ دينِ اليهود والنَّصَارى. أو يعلِّمانِه اليهُوديَّة والنَّصرانيَّةِ، أو يموتَ قبل أن يَعْقِلَ فيصف الدين، فهو محكومٌ له بحكم والديه، وتبعٌ لهما في حُكمِ الشَّرعِ[2].

قوله: (لا يُفرِّقُونهم) أي: لا يُفرِّقون عنهم، فحذف الجار وأَوْصَل.

---

(١) «معالم السنن» (٧: ٧٧-٧٨) مع «مختصر المُنْذِري» و«شرح ابن القَيِّم». وردّ ابن حجر هذا وقال في «الفتح» (٣: ٢٤٦): وأما حديث: هم من آبائهم أو منهم فذاك وَرَد في حُكم الحَرْبِيِّ.

(٢) هذا ليس كلام ابن المبارك رحمه الله تعالى، وإنما هو للخطّابي كما في «معالم السنن» (٤: ٣٢٦) حيث نقل كلام ابن المبارك فقال: وفيه وجه ذهب إليه عبد الله بن المبارك حين سُئل عنه، فقال: تفسير قوله حين سُئل عن الأطفال فقال: «الله أعلم بما كان عاملين»، يريد والله أعلم أنَّ كلَّ مولودٍ...، فبقية الكلام للخطابي. وهذا واضحٌ، وكذا نقله عنه البغوي في «شرح السنة» (١: ١٥٩)، وكلام ابن المبارك الذي نقل خلاصته الخطابي ذكره بتمامه أبو عُبيد في «غريب الحديث» (٢: ٢٢)، وليس فيه كلمة مما عزاه المصنف له، فهو وهمٌ منه رحمه الله، والله أعلم.

قُرِئَ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالرَّفع، على: وفيها حورٌ عِينٌ، كبيتِ الكِتاب:

إِلَّا رَوَاكِـدَ جَمْرُهُـنَّ هَبَـاءُ

وَمُـشَجَّـجٌ ....

قوله: (قُرِئَ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالرَّفع) حمزةُ والكَسائيُّ: بكسرِهما، والباقُون: برفعِهما[1].

قال الزَّجَّاجُ: الرَّفعُ أحسنُهما لأنَّ المعنى: يطوفُ عليهم وِلْدانٌ مخلَّدُون بهذِه الأشياءِ، ولهم حُورٌ عِينٌ، ومثلُه ما يدلُّ على المعنى، قول الشاعر:

بـادَت وغَيَّرَ آيَهُنَّ مـع البلى إلّا رواكـدَ جَمْرُهـن هبـاءُ
ومشجَّـجٌ أمّـا سـواءُ قَذَالِـه فَبَدا وغيَّـبَ سارَه المعزاءُ[2]

لأنَّه لَمّا قال: «إلّا رَواكدَ» فحَمل «ومشجَّج» على المعنى، أي: هناك مشجَّجٌ، ومن قرأ بالرَّفع كَرِهَ الخَفْضَ؛ لأنه عطفٌ على قولِه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ .... بِأَكْوَابٍ﴾، فقالوا: الحورُ العين ليس ممَّا يُطافُ به، ولكنَّه مخفوضٌ على معنى: يطوفُ عليهم وِلدانٌ مخلَّدونَ بأكوابٍ يُنعَّمُون بها، وكذلك يُنَعَّمُون بلحمِ طيرٍ، وكذلكَ يُنَعَّمُون بِحُورٍ عِينٍ. وقد قُرئت: «وحُورًا عينًا» بالنَّصبِ على الحَمْل على المعنى أيضًا، لأنَّ المعنى يُعطَوْنَ هذه الأشياءَ، ويُعطَوْن حُورًا عينًا، إلا أنَّ هذهِ القراءةَ تخالف المُصحف الذي هو الإمامُ. وأهلُ العلم يكرهُون القِراءَة بما يُخالفُ الإمام[3]. وقال ابنُ جِنِّي: وهي قراءةُ أُبي بن كعبٍ وابنِ مسعود[4].

(١) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٢.
(٢) «معاني القرآن» (٥: ١١١). والبيت الأوّل من شواهد سيبويه في «الكتاب» (١: ١٧٣)، وهُو للشاعر الكبير: غيلان بن عُقبة المعروف بذي الرُّمَّة، وانظر البيتين في «ديوانه» ص٩.
(٣) قال البيهقي في «السنن الكبرى» (٢: ٣٨٥): لا يجوز مُخالفة المُصحف الذي هو إمام، ولا القِراءات التي هي مَشهورة، وإنْ كان ذلك سَائغًا في اللغة، وقال ابن عبد البر رحمه الله في «الاستذكار» (٨: ٤٧، ٤٨): الذي عليه جماعةُ الأمْصار من أهلِ الأثر والرأي أنّه لا يجوز لأحدٍ أن يقرأ في صلاته ـ نافلةً كانت أو مكتوبةً ـ بغير ما في المُصحفِ المُجتمع عليه، سواء كانت القراءة المخالفة له منسوبة لابن مَسعود، أو إلى أُبيّ، أو إلى ابن عبّاس، أو إلى أبي بكر، أو عمر، أو مُسندة إلى النَّبيِّ ﷺ.
(٤) «المحتسب» (٢: ٣٠٩).

أو للعطف على ﴿وِلْدَٰنٌ﴾، وبالجرِّ: عطفًا على جنّاتِ النَّعيم، كأنَّه قال: هم في جَنَّاتِ النَّعيم، وفاكهةٍ ولحمٍ وحورٍ، أو على أكواب، لأنَّ معنى ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ ينْعمون بأكوابٍ، وبالنَّصب على: ويُؤتَون حُورًا. ﴿جَزَآءًۢ﴾ مفعولٌ له، أي: يُفعل بهم ذلكَ كلّه جزاءً بأعمالِهم.

﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ إمَّا بدلٌ من ﴿قِيلًا﴾ بدليل قوله ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾

وأمّا معنى البيتين فقوله: بادت، أي: هلكت، آيهُنَّ: علامتَهنَّ، والرَّواكد: أحجارُ الأُثفيّةِ، وهبَا الرَّمادُ يهبو: إذا اختلَط بالتُّراب، ومُشَجَّح: الوتد قد شُجَّ رأسُه من الدَّقِّ، وسارَه[1]: بقيتُه، والمَعَز: الصَّلابةُ من الأرضِ، وأرضٌ مَعْزاء: بَيِّنةُ المَعْزِ، وعَطَفَ ومَشَجَّجٌ على رواكدَ من حيثُ المعنى، أي: وفيها مُشَجَّجٌ، وكان ينبغي أن يقولَ: مُشجّجًا، لأنَّ الرَّواكدَ منصوبٌ، يقول: لم يبقَ من آثارِ منازلِ الأحبةِ سوى أحجارِ الأثافي، ورمادِها المختلِطِ بالتُّرابِ، ووتدِ الخِباءِ المكسورِ الرَّأس المُتغيِّرِ بطُولِ بقائِه في الأرضِ.

قوله: (﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ إمَّا بدلٌ من ﴿قِيلًا﴾) قال الزَّجَّاجُ: ﴿سَلَٰمًا﴾ منصوبٌ من جهتين: أحدهما: أنَّه نعتٌ من ﴿قِيلًا﴾، أَيْ: لا يَسمَعُونَ فِيها إلا قِيلًا قيلًا، يَسْلمُ من اللغوِ والإِثم، وثانيهما: أنَّه منصوبٌ على المَصْدرِ، أي: لا يسمعونَ فيها إلا أنْ يقولَ بعضٌ لبعضٍ سلامًا، نحوُ قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣][2].

وقال أبو البقاءُ: هو استثناءٌ منقطِعٌ، و﴿سَلَٰمًا﴾ بدلٌ أو صِفةٌ، وقيل: هو مفعولٌ، وقيل: هو مَصْدرٌ[3].

وقلت: الأحسنُ أن يكونَ من بابِ الإبدالِ من غيرِ الجنسِ، نحو قوله:

وبَلْـــدةٍ لَيسَ بهـــا أَنِـيسُ إلا اليَعَافِــيرُ وإلا العِيسُ[4]

---

(١) سار وسائر واحدٌ، فأراد بـ«ساره» سائره.

(٢) «معاني القرآن» (٥: ١١٢).

(٣) «إملاء ما من به الرحمن» (٢: ٢٥٤).

(٤) البيت من شواهد سيبويه (٢: ٣٢٢)، وقد نسبوا البيت لجران العَودِ النُّميري، وهو في «ديوانه» ص٥٢ بسياق مختلفٍ قليلًا عما هو هنا.

[مريم: ٦٢] وإما مفعولٌ بِهِ لـ﴿قِيلًا﴾، بمعنى: لا يَسْمعون فيها إلا أنْ يَقُولوا: سلامًا سلامًا. والمعنى: أنَّهم يُفْشونَ السَّلام بينهم، **فيسلِّمُون سلامًا بعد سلام**. وقرئ: (سلامٌ سلامٌ)، على الحكاية.

[﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ ٢٧-٤٠]

﴿سِدْرٍ﴾ السِّدْر: شجرُ النَّبْقِ. والمخْضُودُ: الذي لا شوكَ لَه، كأنَّما خُضِدَ شوكُه.

وعن مجاهدٍ: **المُوْقِر** الذي تَثْني أغصانَه كثرةُ حَمْلِهِ، من خَضَد الغُصْنَ: إذا ثَناهُ وهو رَطْبٌ. والطَّلْحُ: شجرُ المَوزِ. وقيل: هو شجرُ أمِّ غَيلانَ، وله نُوَّارٌ كثيرٌ طيِّبُ الرائحة.

وعن السُّدِّي: شجرٌ يُشبِه طَلْحَ الدُّنيا، ولكن له ثمرٌ أحلى من العَسلِ.

وعن علي رضي الله عنه أنه **قرأ: (وطلعٍ)، وما شأنُ الطَّلْح**؟ وقرأ قوله: ﴿لَّهَا طَلْعٌ

ويؤيِّدهُ قولُه في موضعٍ آخرَ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢].

قوله: (**فيسلمون سَلامًا بعدَ سَلامٍ**) يعني: التَّثْنيةُ في ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ للتكرير، نحو: لبَّيكَ وسَعْديك.

قوله: (**المُوقِر) الجَوهَري**: أَوْقَرتِ النَّخْلةُ: إذا كثُر حملُها، يقال: نخلةٌ مُوقِرةٌ ومُوقَرَةٌ، وحُكيَ مُوقَرٌ، وهو على غيرِ القياسِ، لأنَّ الفعلَ ليس للنَّخلةِ، وإنَّما قيلَ: مُوقِر - بكسر القاف - على قِياس: امرأة حَامل، لأنَّ حملَ الشَّجرِ مُشبَّهٌ بحَمْلِ النِّساءِ، فأمَّا مُوقَر - بالفتحِ - فشاذٌّ.

قوله: (**قرأ: «وطَلْع» ومَا شأنَ الطَّلْح**؟) أي: لا يليق الطَّلْحُ بهذا الموضع، ثمَّ قرأ اسْتِشهادًا لِما اختارَه من القراءة، قوله: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠] فقيل له: أتُحوِّلُ القراءةَ

نَّضِيدٌ ﴾ [ق: ١٠] فقيل له: أوَ تُحوِّلُها؟ فقال: آيُ القرآن لا تُهاجُ اليومَ ولا تُحوَّل. وعن ابن عباس نحوُه.

أو الكلمةَ أو الآيةَ؟ فقال: آياتُ القرآنِ لا تُهاجُ اليوم[1]، أي: استقر كلّ آية في مكانها، فلا ينبغي أنْ تُحوَّل.

وفيه: لولَا اسْتِقرَارُها وثُبُوتُها في المَصاحِف وصُدُور النّاس لجاز هذه الرواية، وأمثالها مما يجب أنْ تُردَّ أبْلَغ ردٍّ، لأنّه تعالى صان هذا الكتاب المجيد من مثل هذه التَّحريفات، وقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] والعَجبُ من المصَنِّفِ كيفَ ردَّ الحديثَ[2] في قوله: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ١٣-١٤]! وقبل هذا؟!

قال الزَّجّاجُ: جاز أن يَعْني به الطَّلْح، لأنَّ له نورًا طيِّبَ الرَّائحةِ جِدًّا فخُوطِبوا ووُعِدوا بها يُحِبُّون مثلَهُ، إلا أنَّ فَضْلَه على ما في الدُّنيا، كفضلِ سائرِ ما في الجنَّةِ على ما في الدُّنيا[3].

وقلت: والله أعلم، إن النظم يقتضي أن يحمل قوله: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ على معنى التَّظْلِيلِ وتكاثُفِ الأشجارِ على سبيلِ التَّرقِّي، لأنَّ ذكرَ الفواكهِ مُستغنىً عنه بقوله: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾، وليُقابل قولُه: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ قولَه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ فإذنْ لا مَدْخَل لحديثِ الطَّلْعِ في معنى الظِّلِّ وما يتَّصلُ به!.

---

(١) يُشير إلى الرِّاوية المَرْوِيَّة عن علي رضي الله عنه في إنكاره لفظة «الطَّلح»، وقراءته: «بطَلْع»، وقد أخرج روايته هذه ابن جَرير الطَّبري في «جامع البيان» (٢٧: ٢٣٤)، عن يحيى الأموي عن أبيه، عن مُجالد، عن الحسن بن سعد عن قيس بن عبَّاد عن علي، وذكر القُرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٧: ٢٠٨) أنَّ ابن الأنباري رواه وأسنده عن أبيه عن الحسن بن عرفة عن عيسى بن يُونس عن مُجالِد به. ومُجالدٌ ضعيفٌ بغضّ النظر عمن في السَّنَد غيره، فضعفها ثابت من جهة السَّنَد أولًا.

(٢) أي كيف ردّ الحديث في الموضع المشار إليه وسكت عن مثل هذه الرِّوايات، التي يُشمّ منها الطَّعن في القرآن أو في جمعه؟!

(٣) «معاني القرآن» (٥: ١١٢).

والمَنْضُود: الذي نُضِّدَ بالحَملِ من أسْفلِه إلى أعلاه؛ فليسَتْ له ساقٌ بارزةٌ.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ممتدٌّ منبسطٌ لا يتقلَّص، كظلِّ ما بين طُلوع الفَجر وطُلوع الشَّمس.

﴿مَّسْكُوبٍ﴾ يُسكب لهم أين شَاؤوا وكيف شاؤوا، **لا يتعَنَّون فيه**. وقيل: دائمُ الجَرْية لا ينقطعُ. وقيل: مَصْبوبٌ يجري على الأرضِ في غير أخْدودٍ.

﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ هي دائمةٌ لا تَنْقَطعُ في بعضِ الأوقـاتِ كفواكِه الدُّنيا، ﴿وَلَا

وينصُرُ هذا التأويلَ ما رُوِّينا عن البُخَاريِّ ومُسلم والتِّرمذيِّ وابنِ ماجَه والدَّارِميِّ عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إن في الجنَّةِ شجرةً يسيرُ الرَّاكبُ في ظِلِّها مئة عام لا يَقْطَعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾، ولقابُ قوس أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب».

وفي رواية التِّرمذي: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها[١]، هي شَجَرةُ الخُلْدِ»[٢].

الراغب: السِّدْرُ: شجرٌ قليلُ الغَنَاءِ عندَ الأكلِ، ولذلك قال: ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦]، وقد يُخْضَدُ ويُستظلُّ به، فجُعل ذلك مثلًا لظلِّ الجنةِ في قوله: ﴿سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ لكثرة غنائِه في الاستظلالِ بهِ، وقولُه تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٦] فأشارَ إلى مكانٍ اخْتصَّ النبيُّ ﷺ فيه بالإفَاضَةِ الإلاهيةِ والآلاءِ الرَّبوبية[٣].

قوله: (**لا يَتعَنَّونَ فيهِ**) قال الزَّجَّاجُ: يعني بـ﴿مَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾: أنَّه ماءٌ لا يَتْعبُون فيه، ينْسكِبُ لهم كما يُحبُّون[٤].

---

(١) من قوله: «اقرؤوا إن شئتم» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف) واستدركته من (ط).

(٢) البُخاري (٣٢٥٢) ومسلم (٢٨٢٦)، والتِّرمذي (٢٥٢٣)، وابن ماجه (٤٣٣٥)، والدَّارمي (٢٨٩٤).

(٣) «مفردات القرآن» ص٤٠٣.

(٤) «معاني القرآن» (٥: ١١٢).

﴿مَمْنُوعَةٍ﴾ لا تُمنَع عن مُتناولِها بوجهٍ، **ولا يُحظَرُ عليها** كما يُحظَر على بساتينِ الدُّنيا. وقُرِئَ: (فاكهةٌ كثيرةٌ)، بالرَّفع على: وهُناكَ فاكهةٌ، كقوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾.

﴿وَفُرُشٍ﴾ جمع فِراش. وقُرِئَ: (وفُرْشٍ) بالتَّخفيفِ. ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ نُضِّدَت حتى ارتفعت، أو مرفوعة على الأسرَّة، وقيل: هي النِّساءُ، لأنَّ المرأةَ يُكنَّى عنها بالفِراش. ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ على الأرائِك. قال الله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦]، ويَدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً﴾، **وعلى التَّفسير الأوَّل أُضمِرَ «لهنّ»**، لأنّ ذكر الفُرُش وهي المَضاجِعُ دلّ عليهن.

﴿أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ [الواقعة: ٣٥]، أي: ابتدأنا خَلْقَهن ابتداءً جديدًا من غير ولادةٍ، فإمَّا أن يُراد: اللاتي ابتُدِئ إنشاؤهن؛ أو اللاتي أُعيد إنشاؤهن.

قوله: (**ولا يُحْظَر عَليها**)، **الأسَاس**: حَظرَ عليه كذا: حِيلَ بينه وبينه، وهذا محظورٌ: غيرُ مباحٍ.

قوله: (**وعلى التَّفسير الأوّل أُضْمِرَ «لهُنَّ»**) لأنَّ المُراد بالفُرُشِ: الفُرُش الحقيقيَّةُ، وفي قوله: «أُضمرَ لهنَّ» إيهامٌ، لأنَّه يُحتمل أنْ يرادَ أضمر للنِّساءِ ضميرًا، وأضمر لفظةَ لهُنَّ.

قال صاحبُ «التَّقريبِ»: فالتَّقديرُ: أنشَأْناهُنَّ لهن، لأنَّ ذِكرَ الفُرُشِ دلَّ عليهِنَّ، ويمكنُ أنْ يقال: إنّ إضمارَ لهنَّ[1] في القرينةِ الأُولى أنسبُ، لأنَّ الضَّميرَ في ﴿أَنشَأْنَـٰهُنَّ﴾ للنِّساءِ قطعًا، وهو القَرينةُ للإضمارِ، ولتأويل الفُرُشِ بالنِّساءِ لأنه إذا لم يُفسّر الفُرُش بالنِّساءِ أو لم يُقدرْ هناك ضميرُ النِّساءِ لم يبق بين القَرينتينِ ارتباطُ العلَّةِ والمعلولِ، لأنَّ قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ علَّةٌ لارتفاعِهنَّ على الأرائِكِ والسُّررِ، ولأنَّ ﴿أَنشَأْنَـٰهُنَّ﴾ للأزواجِ لا للفُرُشِ، كأنه قيل: وأصحابُ اليمينِ مُستقرِّين في فُرُشٍ مرفُوعةٍ لزوجاتِهم كالأسِرَّة والأرائِكِ، لأنّا أنشَأْناهنَّ إنشاءً. ولهذا قالَ في التَّفسيرِ الثاني: «وقيل: هي النِّساء، ويدلُّ عليه؛ ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً﴾».

وقال أبو البقاء: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ﴾ الضَّميرُ للفُرُشِ، لأنَّ المرادَ بها النِّساء[2]، ويكونُ قوله:

---

(١) من قوله: «قال صاحب التقريب» إلى هنا ساقط من (ح).

(٢) «إملاء ما منّ به الرحمن» (٢: ٢٥٤).

وعن رسول الله ﷺ: أنّ أمّ سلمةَ رضي الله عنها سألته عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ فقال: «يا أمَّ سلَمة هنَّ اللواتي قُبِضن في دارِ الدُّنيا **عَجَائزَ شُمْطًا** رُمْصًا، جعلهنّ الله بعد الكِبَر أترابًا على مِيلادٍ واحدٍ في الاستواءِ، كلَّما أتاهنَّ أزواجهنّ وجدُوهنَّ أبكارًا»، فلمَّا سمعت عائشةُ رضي الله عنها ذلك من رسول الله ﷺ قالت: **واوجَعَاه!** فقال رسول الله ﷺ: «ليْسَ هُناك وَجَعٌ».

وقالت عجوزٌ لرسولِ الله ﷺ: ادعُ الله أنْ يُدخلنيَ الجنَّة، فقال: «إنَّ الجنَّة لا تدخُلها العجائِزُ»، فولَّت وهي تبكي، فقـال عليه الصَّـلاة والسَّـلام: «أخبروها أنَّها ليست يومئذٍ بعجوزٍ» وقرأ الآية ﴿عُرُبًا﴾.

«لأصحابِ اليمين» مُظهرًا، أُقيم مَقام المُضمرِ، إمَّا للإشعَارِ بالعِلّيةِ أو أُعيدَ للطُّول.

قولُه (**عجائزَ شُمْطًا**) الحديثُ من روايةِ التِّرْمذيِّ عن أنس في قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾، إنَّ المنشآتِ اللاتي كنَّ في الدُّنيا عجائزَ عُمشًا رُمْصًا[1].

الجَوْهَري: الرَّمَصُ بالتَّحرِيك: وسخٌ يجتمعُ في المُوْقِ، فإنْ سَالَ فهو غَمَصٌ، وإنْ جَمُدَ فهو رَمَصٌ.

قوله: (**واوجَعاه**) الهاءُ تظهرُ في الوقفِ ولا تُحرَّك، وفي الوصلِ تُحذف.

قولـه: (**فقالت**[2] **عَجُوزٌ**) روى صاحِبُ «الجامع»[3] عن رَزِينٍ عن رسـولِ الله ﷺ

---

(١) التِّرمِذي (٣٢٩٦) وقال: هذا حديثٌ غريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث موسى بن عُبيدة، وموسى بن عُبيدة ويزيد بن أبَان الرَّقاشي يُضعفان في الحديث.
ولكن الرِّواية التي ذكر الزَّمَخشري ليست هذه، وإنَّما رواية أم سَلَمة أنَّها سألت النَّبيَّ ﷺ عن قول الله تعالى ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ فقال: «يا أم سلمة، هنَّ اللواتي قُبضن في دار الدُّنيا عجائز شُمْطًا رُمُصًا...». فكان الأولى بالمصنِّف أنْ يُخرِّج حديثَ أم سَلَمة هذا، لا أن يأتي بحديث أنسٍ ـ رضي الله عنه ويُخرِّجه!!. وحديثُ أمّ سلمة عَزاه الحافظ ابن حجر ـ في «الكافي الشاف» (٤: ٤٦١) مع «الكشاف» ـ للثَّعْلبي في «تفسيره».

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي الكشاف: «وقالت».

(٣) «جامع الأصول» لابن الأثير (١١: ٥٤) بعد نصّ رقم (٨٥٢٣).

وقُرِئَ: (عُرْبًا) بالتَّخفيفِ، جمع عَرُوب وهي المتحبِّبة إلى زَوْجها الحسنة التبعُّل.

﴿أَتْرَابًا﴾ مُستوياتٍ في السِّنّ؛ بنـاتِ ثلاثٍ وثلاثين، وأزواجُهنّ أيضًا كذلك.

وعن رسول الله ﷺ: «يَدخُلُ أهلُ الجنّةِ الجنّـةَ جُرْدًا مُرْدًا بِيْضًا جِعَادًا مُكحَّلِين أبناءَ ثلاثٍ وثَلاثِين». واللّام في ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ من صِلةِ «أنشأنا» و«جَعَلنا».

[﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ * وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ ٤١-٥٦]

قال لامـرأةٍ عجـوزٍ: «إنَّه لا يدخُل الجنَّة عَجُـوزٌ»، فقالت: ومـا لهنَّ؟ فقال لها: «أمَا تقرئين: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾».

قوله: (وقرئ: «عُرْبًا» بالتّخفيفِ) أبو بكر وحمزة، والباقُون: بضمِّ الرَّاءِ[(١)].

قوله: (مُسْتَوياتٍ في السِّنِّ) الرَّاغِب: تشبيهًا في التَّساوِي والتَّماثُل بالتَّرائِبِ، التي هي ضُلوعُ الصَّدرِ، أو لوقُوعِهنَّ معًا على الأرضِ[(٢)].

قوله: (يدخُلُ أهلُ الجنةِ الجنّةَ جُرْدًا مُرْدًا) عن التِّرمِذي عن مُعاذٍ قال: «يدخُلُ أهلُ الجنّةِ جُرْدًا مُرْدًا مُكحَّلِين أبناء ثلاثين أو ثلاثٍ وثَلاثِينَ»[(٣)].

قال صاحب «الجامعِ»: الجُرْدُ: جمعُ أَجْرَدَ وهو الذي لا شَعْرَ عليه[(٤)].

---

(١) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٢.

(٢) «مفردات القرآن» ص١٦٥.

(٣) التِّرمِذي (٢٥٤٥) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(٤) «جامع الأصول» (١٠: ٥٢٨). رقم (٨٠٨٠).

﴿فِى سَمُومٍ﴾ في حرِّ نارٍ ينفذُ في المَسام، ﴿وَحَمِيمٍ﴾ وماءٍ حارٍّ مُتناهٍ في الحرارة، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ من دُخانٍ أسودَ بهيم، ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ نفيٌ لِصفتَي الظِّلِّ عنه، يريد: أنَّه ظِلٌّ، ولكن لا كسائرِ الظِّلالِ: سمَّاه ظِلًّا، ثُمَّ نفى عنهُ بردَ الظِّلِّ ورَوْحَه ونفعَه لمن يأوِي إليه من أذى الحرِّ، **وذلك كرمُهُ** ليمحَقَ ما في مدلولِ الظِّلِّ من الاستِرواحِ إليه.

والمعنى: أنَّه ظلٌّ حارٌّ ضارٌّ، **إلا أنَّ للنَّفي في نحو هذا شأناً ليس للإثبات**. وفيه تهكُّمٌ بأصحابِ المشأمةِ، وأنَّهم لا يستأهِلون الظِّلَّ الباردَ الكريمَ، الذي هو لأضدادِهم في الجنَّة. وقُرِئَ: (لا باردٌ ولا كريمٌ) بالرَّفع، **أي: لا هو كذلك**.

قوله: (**وذلك كَرَمُه**) أي: كرمُ الظِّلِّ، قال في الشُّعَراء: «والكريم صفةٌ لكلِّ ما يُرضَى ويُحمَد في بابِه»[1]. **الراغب**: كل شيءٍ يَشْرف في بابه، فإنه يُوصَفُ بالكرم[2] و«كَرمُ الظِّلِّ»: ما ذكرهُ، وهو بردُه من روحِه ونفعِه لمن يأوِي إليه من أذى الحَرِّ.

قَال في «الكبير»: الأقوى أنْ يُقال: إنَّ الظِّلَّ يُطلَبُ لأمرٍ يرجعُ إلى الحِسِّ، وهو بُرودَتُه، ولأمرٍ يرجعُ إلى العقلِ، وهو كرامتُه، كأنَّه قِيل: لا بردَ ولا كَرامةَ[3].

قوله: (**إلا أنَّ للنَّفي في نحوِ هذا شأناً ليس للإثباتِ**) يعني: كان من حقِّ الظاهرِ أنْ يُقال: وظِلٌّ حارٌّ ضارٌّ، فعَدَل إلى قوله: ﴿وَظِلٍّ﴾، لِيتبادَر منه إلى الذِّهنِ أولًا الظِّلُّ المُتعارَفُ فيطمعُ السَّامِعُ، فإذا نفَى عنه ما هو المطلوبُ من الظِّلِّ، وهو البَرْدُ والاسترواحُ، جاءت السُّخريةُ والتَّهكُّمُ والتَّعريضُ بأنَّ الذي يسْتَأهِلُ الظِّلَّ الذي فيه بردٌ وإكرامٌ غيرُ هؤلاء، فيكونُ أشْجَى لحُلوقِهم وأشدّ لحسرتِهم.

قوله: (**أيْ: لا هُو كذلِك**) أي: إذا قُرِئا بالرَّفع كانا خبرينِ لمبتدأٍ محذوفٍ، فيكون عطفُ جملةٍ على جملةٍ، فيقْوَى الاهتمامُ بما قُصِد بهما.

---

(١) «الكشاف» (١١: ٣٢٠).

(٢) من قوله: «الراغب» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف) وأثبته من(ط).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٩: ٤١٣).

و«الحِنْثُ» الذَّنبُ العَظيمُ. ومنه قولُهم: بلغ الغُلام الحِنثُ، أي: الحُلْمَ ووقتَ المؤاخَذةِ بالمآثم. ومنه: حَنِثَ في يمينِه، خلافُ: برَّ فيها. ويقال: تحنَّث، إذا تأثَّم وتحرَّج.

﴿أَوَءَابَآؤُنَا﴾ دخلت همزةُ الاسْتِفهامِ على حرفِ العَطفِ.

فإن قلتَ: كيف حَسُن العطفُ على المُضمرِ في ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ من غَير تَأكيدٍ بنحن؟

قلتُ: حَسُن للفاصلِ الذي هو الهمزةُ، كما حَسُن في قوله تعالى: ﴿مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] لفصلِ ﴿لا﴾ المؤكِّدة للنفي. وقُرِئَ: (أوْ آباؤنا)، وقُرِئَ: (لمُجَمَّعون)، ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ إلى ما وُقِّتَ به الدُّنيا من يوم مَعْلومٍ، والإضافةُ بمعنى مِن، كَخَاتم فضةٍ. والمِيقَات: ما وُقِّت به الشَّيءُ، أي: حُدَّ. ومنه مواقِيتُ الإحرام: وهي الحُدودُ التي لا يتجَاوزُها من يريدُ دُخولَ مَكّة مُحرِمًا.

﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن الهُدى ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ بالبَعثِ، وهم أهلُ مكَّةَ ومَن في مِثل حالهم. ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾: ﴿مِن﴾ الأولى لابتداءِ الغايةِ، والثانية لبيان الشَّجرِ وتفسيره. **وأنَّثَ ضميرَ الشَّجرِ على المعنى، وذكَّرهُ على اللَّفظ في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ و﴿عَلَيْهِ﴾** ومن قرأ: ﴿مِن شَجَرَةٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ فقد جعل الضَّمِيرين للشَّجرةِ، وإنَّما ذكَّر الثاني على تأويل الزَّقُّومِ، لأنَّه تفسيرُها وهي في معناه.

قوله: (وقُرِئ: «أوْ آباؤنا») قالون وابن عامر: بإسكانِ الواوِ، والباقون: بفتحِها[1]، فيكونُ عطفًا على محلِ اسمِ «إنَّ» بعد مُضيِّ الخبرِ.

قوله: (**وأنَّثَ ضميرَ الشَّجَرِ على المعنى، وذكَّرهُ على اللَّفظِ في قوله ﴿مِنْهَا﴾ و﴿عَلَيْهِ﴾**)، **الانتصاف**: لو أعادَه على الشَّجر باعْتبارِ كونِه مأكولًا؛ لكونِه قال: ﴿لَأَكِلُونَ... فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي: على أكْلِهِمْ لكان أحسنَ[2].

---

(١) «التيسير في القراءات السبع» ص١٢١ في سورة الصافات.

(٢) لم أجد هذا النقل عن ابن المنير فيما هو مطبوع بحاشية «الكشاف»، لكن نسب له هذا القول أيضًا الشهاب الخفاجي في «حاشيته» على البيضاوي (٨: ١٤٤)، فلعله سقط من المطبوع، والله أعلم.

﴿شُرْبَ الْهِيمِ﴾ قُرِئَ: بالحركاتِ الثلاثِ، فالفتحُ والضَّمُ مصدران. وعن جعفر الصَّادق رضي الله عنه: «**أيام أكلٍ وشَرْب**»، بفتح الشِّين، وأمَّا المكسور فبمعنى المشرُوب، أي: ما يشربُه الهِيم؛ وهي الإبلُ التي بها الهُيام، وهو داءٌ تشرب منه فلا تَرْوَى: جمع أَهْيَم وهَيْماء. قال ذو الرمّة:

فأصبَحْتُ كالهَيْماءِ لا الماءُ مُبْرِدٌ صَدَاها ولا يَقْضِي عَلَيْها هُيَامُها

وقيل: الهِيمُ: الرِّمال. ووجهُه أن يكون جَمْع الهَيام بفتح الهاء، وهو الرَّمل الذي

قوله: (**﴿شُرْبَ الْهِيمِ﴾، قُرِئ: بالحركاتِ الثّلاث**)؛ بالضَّمِ: نافعٌ وعاصمٌ، وبالفتح: الباقُون، وبالكسر: شاذٌّ[1].

قال الزَّجَّاجُ: فالشَّربُ بالفتح المصدرُ، وبالضَّمِّ: الاسم، وقيل: مُصْدرٌ أيضًا.

قوله: (**أيامُ أكلٍ وشَرْب**) رُوِّينا عن أبي دَاودَ والتِّرمِذيِّ والنَّسائيِّ عن عُقبة بن عامرٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «يومُ عرفةَ ويومُ النَّحْر وأيامُ التَّشريقِ عِيدُنا أهلَ الإسلامِ، وهي أيامُ أكلٍ وشُرب»[2]، ورَوى مختصرًا منه مُسلِمٌ عن نُبيشَة الهُذَليِّ[3].

قوله: (**فأصبَحْتُ كَالهَيماء**) البيت[4]، صَدَاها: عَطَشُها، ولا يَقْضي عليها، أي: لا يقْتلها العطشُ.

قوله: (**وقيل: الهِيمُ: الرِّمالُ**) فعلى هذا تقديرُه: فشارِبُون مشروبَ الهِيمِ، فهو من إضافةِ الصِّفة إلى الموصوفِ، أي: الهيمِ المشروبِ.

فإن قلتَ: أيُّ مناسبةٍ في جَعلِ الهيمِ مَشروبًا؟

---

(١) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٢.
(٢) أبو داود (٢٤١٨) والترْمذي (٧٧٣) والنسائي (٣٠٠٤).
(٣) مسلم (١١٤١) بلفظ: «أيام التشريق أيام أكل وشُرب».
(٤) البيت لذي الرُّمة، انظر: «ديوان ذي الرُّمة» ص٢٨٠.

لا يتماسك، جُمِع على فُعْلٍ كسَحابٍ وسُحُب، ثُمَّ خُفِّف وفُعِل به ما فُعل بجمعِ أبيض.
والمعنى: أنه يُسلَّط عليهم من الجُوع ما يَضْطرُّهم إلى أكلِ الزَّقُّوم الذي هو كالمُهل؛ فإذا مَلؤوا منه البُطون يُسلَّط عليهم من العطش ما يَضْطرُّهم إلى شُربِ الحَميمِ الذي يُقطِّع أمعاءَهم، فيَشْربونه شُربَ الهِيم.

فإن قلتَ: كيف صحَّ عطفُ الشَّارِبين على الشَّارِبين، وهما لذواتٍ متَّفِقة، وصفتان متَّفِقتان، فكان عطفًا للشَّيءِ على نفسِه؟

قلتُ: ليْستا بمُتفقتين، من حيث إنَّ كونَهم شارِبين للحميمِ على ما هو عليه من تَناهي الحرارةِ وقطع الأمعاءِ أمرٌ عجيبٌ، وشُربَهم له على ذلك كما تَشربُ الهيمُ الماءَ: أمرٌ عجيبٌ أيضًا، فكانتا صِفتين مُختلفتين.

النُّزُل: الرِّزق الذي يعدُّ للنَّازِل تكرِمةً له. وفيه تهكُّمٌ، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] وكقول أبي الشّعر الضَّبِّي:

وكُنَّا إذا الجبَّـارُ بالجيْشِ ضَافَنا جَعَلْنا القَنَا والمُرهَفاتِ لَهُ نُزْلَا

وقرئ: (نُزْلُهم) بالتَّخْفيف.

[﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ *

قلت: لَمَّا اعتُبِرَ معنى السَّيَلان فيه كالمائِع، جُعِلَ مشروبًا تهكُّمًا، ألا ترى كيف قال: «هو الرملُ الّذي لا يتماسَك».

قوله: (ما فُعِل بجمْع أبيض) الجَوْهري: جمع الأبيضِ: بِيْضٌ، وأصله: بُيْضٌ بضم الباء، نحو أحمرُ حمْرٌ، وإنَّما أبدلوا من الضَّمِّ كسرةً لِتَصحَّ الياءُ.

قوله: (وكُنَّا إذا الجبَّارُ) البيت، الجبارُ: الذي لا يقبلُ موعظةً، والعاتِي: على ربِّه أيضًا.

قولـه: (ضَافَنا)، أي: نـزل بنا ضيفًا، يقـول: إذا الملكُ الجبـارُ ضَافَنا، جعلنا نُزلَـه مـن الرِّمـاحِ والسُّيوفِ، وفيه تهكُّمٌ.

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [٥٧-٦٢]

﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ تَحْضيضٌ على التَّصديقِ؛ إمَّا بالخلقِ لأنَّهم وإن كانوا مُصدِّقين به، إلا أنَّهم لما كـان مَذْهبُهم خـلافَ ما يَقْتضيه التَّصْديق، فكأنَّهم مُكذِّبُون بـه. وإمَّا بالبعثِ؛ لأنَّ من خَلقَ أولًا لم يمتنع عليه أن يَخلُق ثانيًا.

﴿مَّا تُمْنُونَ﴾ ما تُمْنونه، أي: تَقْذِفونه في الأرْحام من النُّطَفِ، وقرأ أبو السَّمّال بفتح التَّاء، يقال: أمنى النُّطفة ومناها. قال الله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٦].

﴿تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ تقدِّرونهَ وتصوِّرُونه. ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ تقديرًا وقسَمْناه عليكم

قوله: (وإمَّا بالبعثِ) يعني قوله: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ مطلقٌ لم يُقيَّد بهاذا يُصدِّقُون، فيحتملُ أن يُقيَّد بما يدلُّ عليه قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أو بما قبلَه وهو قولهُم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ والذي يرجِّحُ تقديرَ الخَلقِ شيئانَ؛ أحدُهما: قربُ الدَّليل، ثمَّ التَّفصيل بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ وثانيها: أنَّ قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ إلى آخر الآيات نوعٌ آخرُ من الرَّدِّ على مُنكري الحشرِ، فإنَّ قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ﴾ إثباتُ البعثِ بطريق النَّصِّ القاطعِ والوعدِ الصَّادقِ، وقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ إثباتٌ له بحسبِ البرهانِ الباهرِ، ألا ترى كيفَ فصَّل ذلك بقولِه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ و﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣] و﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ [الواقعة: ٦٨] و﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ [الواقعة: ٧١].

قوله: (﴿مَّا تُمْنُونَ﴾ ما تُمْنُونَه، أي: تَقْذِفُونه في الأرحام)، اعلم أنَّ الإمام بيَّن في البقرةِ وجهَ الاستدلالِ بهذه الأنواع المذكورة وأحسن فيها كل الحُسنِ، وأمَّا وجهُ الاستدلالِ بهذه الآية، فأن يُقال: إن المني إنَّما يحصلُ من فضلةِ الهَضْمِ، وهو كالطَّلِّ المُنْبثِّ في أطرافِ الأعضاءِ، ولهذا تَشترك الأعضاءُ بالْتِذاذِ الوِقَاع لحصولِ الانْحلالِ عنها كلِّها، ثمّ إنَّ الله سبحانَه وتعالى سلَّط قوَّةَ الشَّهوةِ على البنيةِ حتَّى إنَّها تجمعُ تلك الأجزاءَ الطَّلِّيَّة، فالحاصلُ أنَّ تلكَ الأجزاءَ كانت متفرِّقةً جدًّا، أولًا في أطرافِ العالَمِ، ثمَّ إنَّه تعالى جمعَها في بدنِ ذلك الحيوانِ، فتفرَّقت في أطرافِ بدنِه، ثمَّ جمعَها الله في أوعيةِ المني، فأخْرجها ماءً دافقًا إلى قرارِ

قِسمةَ الرِّزقِ، على اختلافٍ وتفاوتٍ كما تَقْتَضيه مَشِيئَتُنا، فاخْتَلفتْ أعمارُكم من قَصِيرٍ وطَويلٍ ومتوسِّطٍ. وقُرِئ: (قَدَرْنا) بالتَّخفيف.

سبقتُه على الشَّيء: إذا أعجزتَهُ عنه وغلبْتَه عليه ولم تُمَكِّنْه منه، فمعنى قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾: إنّا قادِرون على ذلك لا تغلِبُونني عليه، و﴿أَمْثَٰلَكُمْ﴾ جمعُ مِثْل: أي على أنْ نُبدِّل مِنكم وَمَكَانكم أشباهَكم من الخَلقِ، وعلى أن نُنشِئكم في خِلقٍ لا تعلمُونَها وما عهدتم بمثلها، يعني: إنّا نقدِرُ على الأمرين جميعًا: على خلقِ ما يُماثِلُكم، وما لا يُماثِلُكم؛ فكيف نعجزُ عن إعادتِكم؟!.

ويجوزُ أن تكون ﴿أَمْثَٰلَكُمْ﴾ جمعَ مَثَل، أي: على أن نبدّل ونغيِّر صِفاتِكم التي أنتم عليها؛ في خِلَقِكم وأخْلاقِكم، ونُنْشِئكم في صفاتٍ لا تعلمُونها.

قُرِئ: ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ و(النَّشاءة). وفي هذا دليلٌ على صحَّةِ القياسِ حيث جهَّلَهم في ترك قياس النَّشأةِ الأُخْرَى على الأولى.

الرَّحمِ، فإذا كان قادرًا على جَمْع هذه الأجْزاءِ المتفرِّقة، وتكوينِ الحيوانِ منها، فإذا افترقَت بالموتِ مرَّةً أُخرَى لم يَمتنِع عليه جَمعُها وتكوينها مرةً أُخرَى؟! هذا تقريرُ هذه الحُجَّةِ[١].

قوله: (لا تَغلِبُونَني عليه) المُغرب: غُلِبَ فلانٌ على الشَّيءِ: إذا أُخذَ منه بالغَلَبةِ[٢].

قوله: (ويجوز أن تكونَ ﴿أَمْثَٰلَكُمْ﴾ جمعَ مَثَل) عطفٌ على قولِه: «﴿أَمْثَٰلَكُمْ﴾ جُمعُ مِثْل» اعلم أنَّه قد سبقَ غيرَ مرَّةٍ أنَّ التَّبديلَ: التَّغييرُ، فيجوزُ تبديلُ الذَّاتِ وتبديلُ الصِّفات، وأنَّ المِثْلَ بمعنى النَّظِير وبمعنى الصِّفة، فالتَّفسير الأوَّلُ مبنيٌّ على تبديلِ الذَّات، والمِثْلُ: بمعنى النَّظير، والثّاني: على تبديل الصِّفاتِ، والمِثْل: بمعنى الوَصْف.

قوله: (قُرِئ ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ و«النَّشاءة») ابن كثيرٍ وأبو عَمرو: «النَّشَاءة» بفتح الشِّين وألفٍ بعدها، والباقُونَ: بإسْكانِها من غيرِ ألفٍ[٣].

---

(١) «مفاتيح الغيب» (١: ٢٧٦).

(٢) «المغرب في ترتيب المعرب» لابن المطرّز (٢: ١٠٧). (الغين مع اللام).

(٣) «التيسير في القراءات السَّبع» للداني ص١١٤.

[﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ٦٣-٦٧]

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ من الطَّعام، أي: تبذُرون حبَّه وتعملونَ في أرضِه، ﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ ﴾ تُنْبتُونه وتَرُدُّونه نباتًا يَرفّ ويَنْمى إلى أن يبلغَ الغايةَ. وعن رسول الله ﷺ: «لا يَقولنَّ أحدُكم: زرعتُ، وليقلْ: حرثتُ»، قال أبو هُريرة: أرأيْتُمْ إلى قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ الآية؟ والحُطَام: من حَطَم، كالفُتَات والجُذَاذ من فَتَّ وجَذّ، وهو ما صارَ هشيمًا وتحطَّم ﴿فَظَلْتُمْ﴾ وقُرئ بالكسر، و«فَظَلَلْتُم» على الأصل ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تَعجبُون. وعن الحسن رضي الله عنه: تَنْدمُون على تعبكم فيه وإنفاقِكم عليه. أو على ما اقترفتُم من المعاصِي التي

قوله: (يَرِفُّ) النهاية: قولهم: يَرِفُّ رَفِيفًا: يَقْطرُ نداه، يقال للشَّيء إذا كثُر ماؤهُ من النِّعمةِ والغَضَاضةِ، حتى يكادُ يهتزُّ: رفّ يَرِفّ[١].

قوله: (قال أبو هُريرة: أرأيتُم إلى قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾)[٢] يعني: أخبروني كيف أسندَ الحَرْثَ إلى الخلقِ، والزَّرعَ إلى نفسِه، ثمَّ أوْعَدهم بجعلِه حُطامًا وبيَّن تحسُّرَهم بقوله: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، ليُؤذِنَ بأنْ ليس بأيدِيهم سوى أنْ يَبْذُروا الحبَّ، ويعملوا في الأرضِ.

الراغبُ: الحرثُ: إلقاءُ البذْرِ في الأرضِ وتهيئَتها للزَّرعِ، ويُسمّى المَحْروثُ حرثًا، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾[٣]. وقال: إذا نُسِب الزَّرعُ إلى العبدِ فلكونِه فاعلاً لأسبابِه التي هي سببُ الزَّرع، كما تقول: أنبتُّ إذا كنتَ من أسبابِ نباتِه، والزَّرعُ في الأصل مصدرٌ وعُبِّر به عن المَزْروع في قولِه: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ [السجدة: ٢٧][٤].

(١) في الأصول: «حتى كاد يهتزُّ ويرفُّ» وأثبتنا ما في «النهاية»، وهو الصواب كما لا يخفى.
(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥٧٢٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦: ٢٢٨).
(٣) «مفردات القرآن» ص٢٢٦.
(٤) المصدر السابق ص٣٧٩.

أُصِبتُم بذلك من أجلِها. وقُرِئَ: (تَفكّنون) ومنه الحديث: «مثلُ العالِم كمثلِ **الحَمَّة** يأتيها البُعداءُ ويترُكها القُرَباءُ، فبَينا هم إذ غارَ ماؤُها فانتفع بها قومٌ وبقي قومٌ يتفكنون» أي: يتندَّمون. ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ لملزمُون غرامةَ ما أنفقنا. **أو مُهلَكون لهلاكِ رزقِنا**، من الغَرام: وهو الهلاكُ، ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ قومٌ ﴿مَحْرُومُونَ﴾ **مُحارَفُون مَحْدُودون**، لا حَظَّ لنا ولا بَخْتَ لنا؛ ولو كنا مجدُودِين، لما جرى علينا هذا.

قوله: (**أُصِبتُم بذلكَ من أجلِها**[1]) أي: أُصبتم بذلك البلاءِ من جعلِ زرعِكم هَشيماً من أجل معَاصِيْكم.

قوله: (**كمثل الحَمَّة**) **النهاية**: الحَمَّة: عين ماء حارٍّ يَستَشْفِي بها المرضى، ومنه حديثُ الدَّجالِ: «أخبروني عن حَمَّة زُغَر»[2] أي: عَيْنها، زُغَر: موضعٌ بالشَّام، وقال: إذا غاضَ ماؤها.

قوله: (**أو مُهلكون لهلاكِ رزقنا**) لو قال: لمهلكون لما ارتكبْنَا من المعاصي، لأنَّ المعاصِي من المُهلِكات كانَ أليَق، ليكونَ قوله: «لمُلزمون غرامة ما أنفقنا»، مُتفرِّعًا على قولِه: «على تعبِكم فيه، وإنفاقِكم عليه»، وقوله: «أو مُهلَكون» على قوله: «أو على ما اقترفتُم من المعاصِي»، لأنَّ قولَه: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ مقولًا لقولهم كالبيان لما يصدُر من النَّادِم عند خَيْبتِه من الكلماتِ الدَّالةِ عليها، أي: فظَلْتُم تندَمُون على تعبِكم فيه، وإنفاقِكُم عليه، أو على ما اقْتَرفتُم من المعاصِي قائلين: إنَّا لمُغْرمون، وقوله: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ إنْ جُعل مُطلقًا على نحوِ: فلانٌ يُعطي ويمنع كان المعنى ما قال: «مُحارَفون»، فيدخلُ المعنَيانِ فيه على البَدَلِ، وإن قُدِّر متعلَّقه كان المعنى: محرُومونَ رزقَنا كما قدَّره القاضي[3].

قوله: (**مُحارَفُون**) المُحارَف: الممنوعُ من البَخْت.

---

(١) في الأصول الخطية: «أجلهم»، والمثبت من «الكشاف»، وهو الصواب.

(٢) ذكره الخطابي في «غريب الحديث» (١: ١٥٣)، ولم يُسنده، وعنه ذكره أصحابُ الغريب.

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٥: ٢٩٠).

وقُرِئَ: (أئنَّا).

[﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ٦٨-٧٠]

﴿ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ يُريد: الماءَ العَذبَ الصَّالح للشُّرب. و﴿ٱلْمُزْنِ﴾ السَّحاب: الواحدةُ مُزنَةٌ. وقيل: هو السَّحابُ الأبيضُ خاصَّةً، وهو أعذبُ ماء.

﴿أُجَاجًا﴾ مِلْحًا زَعاقًا لا يُقدَرُ على شُرْبه.

فإن قلتَ: لمَ أُدخلتِ اللامُ على جوابِ ﴿لَوْ﴾ في قوله: ﴿لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥] ونُزِعت منه هاهنا؟

قلت: إنّ ﴿لَوْ﴾ لما كانت داخلةً على جُملتين، معلَّقةً ثانيتُهما بالأولى، تَعلُّق الجزاءِ بالشَّرطِ، ولم تكن مُخلصَةً للشَّرطِ كـ«إنْ» و«لا» عاملة مثلها، وإنما سرى فيها معنى الشَّرط اتِّفاقًا من حيث إفادَتها في مضمُوني جملتيها، أنّ الثاني امتَنع لامتناع الأوّل: افتقرت في جوابها إلى ما يُنصب علمًا على هذا التَّعلُّق، فزِيْدت هذه اللام لتكون عَلَمًا على ذلكَ، فإذا حُذِفت بعد «ما» صَارت عَلَمًا مشهورًا مَكانُه، **فلأنَّ الشَّيء إذا عُلِمَ** وشُهِر موقِعُه وصارَ مألوفًا ومأنوسًا به: لم يبالَ بإسقاطِه عن اللَّفظ، استغناءً

قوله: (وقرئ: «أئنّا») قرأ أبو بكر: بهمزتين مُخفَّفتينِ، والباقون: بواحدةٍ مكسورةٍ[1].

قوله: (ولم تكُن مُخلصَةً للشَّرْطِ) كأن قيل: لأنَّ أمرَ الشَّرْطِ في «لو» تقديريٌّ، لأنَّ الشَّرطَ إنَّما هو توقيفُ أمرٍ على أمرٍ، وذلك إنَّما يتحقَّقُ في الاسْتِعجالِ، و«لو» للمُضيّ، فلا تكون شرطيّة تحقيقيةً.

قوله: (فلأنَّ الشّيءَ إذا عُلِمَ) قيل: هو جوابُ «إذا». وقلت: نعم، إذا قُدِّر محذوفٌ،

---

(١) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٢.

بمعرِفة السَّامِع. ألا ترى إلى ما يُحكى عن رؤبةَ أنه كان يقول: خيرٍ، لمن قال له: كيف أصبحتَ؟ فحَذف الجارّ لعلمِ كُلِّ أحدٍ بمكانِه، وتساوي حَالَي حَذْفِه وإثباته لشُهرة أمرِه. وناهيك بقول أوْس:

حَـتى إذا الكـلَّابُ قـالَ لها كاليَـوْمِ مَطْلُـوبًا ولا طَلَبَا

وحَذْفِه «لم أرَ»! فإذنْ حَذْفها اختصارٌ لفظيٌّ وهي ثابتةٌ في المعنى، فاستوى الموضعان بلا فَرقٍ بينهما؛ **على أنْ تَقدُّمَ ذِكرِها** والمسافة قصيرةٌ مُغنٍ عن ذكرها ثانيةً ونائبٌ عنه. ويجوزُ أن يقال: إنّ هذه اللام مُفيدةٌ معنى التَّوكيد لا مَحالَة، فأدخلت في آية المَطْعُوم دونَ آيةِ المشروب، **للدَّلالة على أنَّ أمرَ المَطعُوم مُقدَّمٌ على أمرِ المشروبِ، وأنَّ الوعيدَ بِفَقْدِهِ أشدُّ** وأصعبُ، من قِبَل أنَّ المشروب إنَّما يُحتاج إليه تَبَعًا للمَطْعُوم.

لأنَّ التَّقديرَ: إذا حُذِفت بعدما صارت عَلَمًا فلا بأس به، لأنَّ الشَّيء إذا عُلِم وشُهِر موقِعُه لَم يبالَ بإسقاطِه.

قوله: (**حتَّى إذَا الكلّابُ**) البيت، المعنى: لم أر مطلوبًا مثل مطلوبٍ أراهُ اليوم، قُدِّمت الصِّفةُ وهي «مثل مطلوب» أراه اليومَ على الموصوفِ الذي هو «مطلوبًا»، فصارَ حالًا، ثمَّ حُذفتِ الصِّفةُ التي هي «أراهُ»، ثمَّ حُذِفَ موصُوفُها الذي هو «مطلوبٌ» ثمَّ وُضِع الكافُ موضِعَ المَثَل. فصارَ كما تَرى! قال: ذلك حينَ كان الثورُ الوحْشِيُّ يَجِدُّ في الهربِ من كلابِ الصَّيدِ، وهو الذي يُغري الكلبَ على الصَّيدِ، مُتعجِّبًا، أي: ما رأى ولا شاهدَ مطلوبًا مثل هذا الثَّورِ من شدَّةِ الفِرارِ، ولا طالبًا مثلَ هذا الكلّاب من شدَّةِ العَدْوِ. وطَلَـبًا جمعُ طالبٍ، كخادمٍ وخَدَم.

قوله: (**على أنْ تَقدُّمَ ذِكْرِها**) أي: ذكرِ اللام في قولِه: ﴿لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾.

قوله: (**للدَّلالةِ على أنَّ أمرَ المَطعُوم مُقدَّمٌ على أمرِ المَشْرُوب، وأنَّ الوعيدَ بفَقْده أشدُّ**) وقلت: ولذلك رتَّب على أمرِ المَطْعومِ[1] قولَهُ: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾

---

(١) من قوله: «مقدَّم على» إلى هنا ساقط من نسخة (ح).

ألا ترى أنك إنَّما تَسقي ضيفَك بعد أن تُطْعِمَه، ولو عَكَستَ قعدت تحتَ قولِ أبي العلاء:

وعلى أمرِ المشروبِ قولَهُ: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، والأوّل أدَلُّ على التَّوبيخِ والتَّعييرِ على كُفرانِ النِّعم، لمجيئهِ إخباريًّا مفصَّلًا فيه تصويرَ خَيْبَتِهم وتحسُّرِهم.

روى الواحِديُّ عـن أبي عَمـرٍو والكِسـائي: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾: هـو التَّلهف عـلى ما فَـات، ويقولون: إنَّنَّا لمُغْرَمون، أي: إنَّا قد غرمنا الذي بَذَرنا، فذهبَ من غيرِ عوضٍ، بل نحن محرومُون ممّا كُنّا نطلبُه من الرَّيع في الزَّرْعِ[1].

وأما المعنى الثاني فتقريره: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾، أي: شديدَ المُلوحةِ كما البحرُ، فهلا تشكرون أنْ جعلناهُ عَذْبًا؟

وأمَّا الراغب[2] بعدَ أنْ فسرَّ ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ بهذا، فقد جعَلَه مقابِلاً لقولِـه: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، حيثُ قـال: إنَّما قـدَّم قولَـه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾، لأنَّ الأولى هو خلقُ الإنسانِ من نُطْفةٍ، والنَّعمةُ في ذلكَ قبل النِّعمة في الثلاثةِ التي بَعْدَها، فوجبَ تقدِيمُه، ثُمَّ بعده ما به قَوام الإنسانِ من فائدة الحرثِ، وهو الطَّعام الذي لا يستَغنِي عنه الجسدُ الحيُّ، وذلك الحبُّ الذي يُختبَزُ، فيحتاجُ بعد حصولِه إلى حصولِ الماءِ فيُعجَنُ ثُمَّ إلى النَّارِ تعِدّه خُبزًا. فإن قيلَ: فقد قال في الأول: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وفي الثاني: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، فما الفائدةُ؟ قلنا: تنبيهٌ على البِعثةِ والإعادةِ، فحمل على التَّذكُّرِ ليتفكَّر في البدءِ، وليثبت الإعادةَ، وأمَّا ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، فإنه بعدَ قولِه: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾، أي: شديدَ المُلوحةِ كماء البحر، فلولا تشكرون أنْ جعلَه عذبًا؟ فكلُّ مكانٍ لاق به ما ذُكر. ذكره في «غُرر التأويل»[3].

وقلت: لو كان مُقابِلًا لقولِه: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لكانَ اللائقُ أنْ يُذكَر بعد ذكرِ النَّارِ على ما رتَّب الكلامَ.

---

(١) «الوسيط» (٤: ٢٣٨).

(٢) يعني: في «درة التنزيل»، وتقدم الكلام في نسبته إلى الراغب، وأن الأصح أنه للخطيب الإسكافي.

(٣) «درة التنزيل وغُرة التأويل» للخطيب الإسكافي (٣: ١٢٦٥-١٢٦٦).

إِذَا سُقِيَتْ ضُيُوفُ النَّاسِ مَحْضًا سَقَوْا أَضْيافَهُمْ شَبِماً زُلَالَا

وسُقِي بعض العرب فقال: أنا لا أشربُ **إلا على ثميلة**؛ ولهذا قُدِّمت آيةُ المطعومِ على آية المشروبِ.

[﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ * نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ ٧١-٧٤]

﴿تُورُونَ﴾: **تَقدَحُونها** وتَسْتخرِجُونها من الزِّنادِ، والعَربُ تقدَحُ بعودين تَحُكُّ أحدَهما على الآخر، ويُسمُّون الأعلى: الزَّنْد، والأسفل: الزَّندة؛ شبَّهوهُما **بالفَحْلِ والطَّرُوقَة**.

قوله: (**إذا سُقِيَتْ ضُيوفُ النَّاسِ مَحْضًا**) البيت، محضًا، أي: خالصًا، والشَّبِمُ: الباردُ، والزُّلالُ: الصَّافي، يصفُ قومًا بالبُخلِ، ويقول: إذا سُقِيتِ الضُّيوفُ لبنًا محضًا خالِصًا، فإنَّهم يَسقُونَ أضْيَافَهم الماءَ الصُّراحَ.

قوله: (**إلا على ثَمِيلة**) **الأساس**: وأنا لا أشربُ إلا على ثميلةٍ، وهي بقيةُ العَلَفِ في البَطنِ. وفي «النِّهايةِ»: أصلُ الثَّمِيلةِ: ما يبقَى في بطنِ الدَّابَّةِ من العَلفِ والماءِ، وما يَدَّخرُه الإنسانُ من طعامٍ أو غيرِه، وكُلُّ بقيةٍ ثَميلةٌ.

قوله: (**﴿تُورُونَ﴾ تَقدَحونها**) **الرَّاغب**: وَرَى الزَّنْدُ يرى وَرْيًا، إذا خَرجت نارُهُ، وأصلُه أن تخرج النَّار من وراءِ المِقْدَحِ، كأنَّما تُصوِّر كُمُونُها فيه، قال:

كَكُمُــونِ النَّــارِ في حَجَــرِهْ

ويقال: فلانٌ وارِي الزَّنْد إن كان مُنجِحًا، وكَابِي الزَّنْد إذا كان مُخْفِقًا[1].

قوله: (**بالفَحْل والطَّرُوقَة**) **الجَوْهريُّ**: طَرُوقَةُ الفحلِ: أنثاهُ، يُقال: ناقةٌ طَرُوقةُ الفَحلِ: التي بَلغتْ أنْ يضرِبَها الفحلُ، ووجهُ الشَّبهِ ما في كُلِّ من الزَّنْدِ والزَّندةِ من كُمونِ قُدرةِ الله تعالى، كأنَّها طالبةٌ من صاحِبتها اللِّقاحَ الذي هو الاقْتِداحُ لِتَوخي النَّتِيجةِ.

---

(١) «مفردات القرآن» ص٨٦٧.

﴿شَجَرَتَهَآ﴾ الَّتي منها الزِّنادُ، ﴿تَذْكِرَةً﴾ تذكيرًا لنارِ جهنَّم، حيث علَّقنا بها أسبابَ المعايشِ كلِّها، وعمَّمنا بالحَاجةِ إليها البَلوى، لتكونَ حَاضِرةً للنَّاسِ يَنظُرون إليها، ويذكرون ما أُوعِدوا به. أو جَعَلناها **تذكرةً وأُنموذجًا** من جهنَّم، لِمَا روي عن رسول الله ﷺ: «**نَارُكم هذه** الَّتي يَوقِدُ بنو آدمَ جُزءٌ من سبعينَ جُزءًا من حرِّ جهنَّم».

﴿وَمَتَٰعًا﴾ ومَنْفعةً ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ للَّذين ينزِلُون القَواءَ وهي القَفْر. **أو للذين خَلتْ بُطونُهم أو مَزاوِدهم من الطَّعامِ**. يقال: أقويتُ من أيامٍ، أي لم آكلْ شيئًا.

قوله: (**تَذكرةً وأُنموذَجًا**) ﴿تَذْكِرَةً﴾: على التَّفسيرِ الثَّاني من التَّذكيرِ والموعِظَةِ، وعلى الأولِ من الذِّكْرِ نقيضِ النِّسيانِ.

قوله: (**نارُكم هذه**) الحديثُ من رِواية البُخاريِّ ومُسلِمٍ ومالكٍ والتِّرمذيِّ عن أبي هريرة: «نَارُكم هذه التي تُوقِدونَ جُزءٌ من سبعينَ جُزءًا من نارِ جهنَّم»[1]. الحديث.

قوله: (**أو للذين خَلَتْ بُطونُهم أو مَزاوِدُهُم من الطَّعام**) هذا لا طائل تحته! قال الواحِديُّ: المُقْوِي: الذي يَنْزِلُ بالقَواءِ، وهي الأرضُ الخاليةُ، أي: ينْتَفِعُ بها أهلُ البوادِي والأسفارُ، ومنفعتُهم بها أكثرُ من منفعةِ المُقيم، لأنَّهم يُوقِدُونَها ليلًا لتهربَ السِّباعُ، ويَهتدِيَ بها الضَّالُّ.

وقال عكرمةُ ومجاهدٌ: المُقْوِين: المُستَمتِعينَ بها من النَّاس أجمعين؛ المُسَافِرين والحَاضِرين، يَسْتضِيئون بها في الظُّلْمةِ، ويصْطَلون من البردِ، وينتَفِعون بها في الطَّبخِ والخَبْزِ، وعلى هذا القول: المُقوِي من الأضدادِ، يقال للفقير: مُقْوٍ لخلوِّه من المال، والغَنِيُّ: مقوٍ لقُوَّتِه على ما يُريد، يقال: أقوى الرجلُ: إذا صارَ إلى حالِ القُوَّةِ، والمعنى: متاعًا للأغنياء والفُقراءِ لأنَّه لا غنىً لأحدٍ عنها.

ولمَّا ذكر الله تعالى ما يدلُّ على توحيدِه، وما أنْعَم به عليهم، قال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: فنزِّه اللهَ ممَّا يقولون في وصفِه.

---

(١) البُخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣) والتِّرمذي (٢٥٨٩) ومالك (١٨٠٤).

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ **فأحدِث** التَّسبيحَ بذكرِ اسمِ ربِّك، **أو أرادَ بـ«الاسم»: الذِّكر**، أي: بذكرِ ربِّك. و﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفةٌ للمضافِ أو للمضافِ إليه.

والمعنى: أنَّه لما ذَكر ما دلَّ على قُدرتِه وإنعامِه على عبادِه قال: فأحدِثِ التَّسبيحَ،

قوله: (**فأحدث**) قيل: إنَّما قال: أحْدِثْ لأنَّه ﷺ كانَ مشتغِلًا بالتَّسبيحِ غيرَ معرضٍ عنه، والمراد بالإِحداث: الاستمرارُ.

وقلت: هذا عكسُ ما يقتَضِيه لفظُ الإِحداث، ولكنَّ المراد: إذا أحطتَ بها ذُكر لك من بيانِ القدرةِ الكاملةِ، وبما أنعَمَ به على الخلقِ، فجدِّد التَّسبيح لذلك تنزيهًا لجلالةِ شأنِه أو تعجُّبًا من كُفرانِ إنعامِه، أو شكرًا على ما أولاهُ من إحسانِه.

وبيانُه: أنَّ لفظَ التَّسبيحِ من حيثُ وضعِهِ بإزاء التَّنزيهِ عن النَّقائِصِ وعمَّا يصفُه الجاهلون تنزيهٌ، ولمَّا كان وُرودُ هذا الكلام في الرَّدِّ على منكِري الحشرِ والنَّشرِ، ومُنكِرُه منكرٌ لقُدرتِه الكاملةِ وعلمِه الشَّاملِ، ومكذِّبٌ لِما نصَّ ووعَدَ وأوْعَد، على ما ورد في الحديث القدسي[1]: «كذَّبني ابنُ آدمَ...» إلى «أن يُعيدَني كما بدأني». كان تنزيهًا عما يقولُ الظَّالمون.

ومن حيثُ المفهومِ والاستعمالِ وأنَّهم يسبِّحُون الله عند رؤيةِ كلِّ عجيبٍ من صنائعهِ كان كلمةَ تَعجيبٍ، وما يُتعجَّب منه في هذا المقام: إمَّا تقريرُ خلقِ الإنسانِ من ماءٍ مهينٍ، وإخراجُ الزَّرْعِ من ماءِ المُزْنِ، ووَرْيُ النَّارِ من الزَّندِ، وإمَّا غمطهم هذه النِّعمَ الجسيمةَ والأياديَ الظاهرة، ومن حيثُ النَّظر إلى كونِه ذِكرًا لله عزَّ وجل ووصفًا له بالجلالِ والعَظَمةِ والملكوتِ بعد عدِّ النِّعم المُتكاثِرةِ، كان حمدًا له وشكرًا لأياديه. والله أعلم.

قولـه: (**أو أرادَ «بالاسم»: الذِّكر**) عن بعضِهم: البـاءُ سَببيَّةٌ لا صِلـةٌ ولا زائـدةٌ، وحاصِلهُ: إمَّا إضمارٌ أو مجازٌ.

وقلتُ: تقديره: نَزِّهِ الله إمَّا بواسِطةِ ذكرِ اسمِه تعالى، أو بواسطةِ ذكرِه، ويَجوزُ أن يُجرى على ظاهرِهِ من غيرِ إضْمارٍ ولا مَجازٍ، قالوا في قولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]:

---

(١) رواه البخاري (٤٤٨٢) وغيره.

وهو أن يقول: سبحانَ الله، إمّا تنزيهًا له عما يقول الظَّالمون الذين يَجْحَدون وحْدانيَّته ويَكفُرون نعمتَه، وإمَّا تعجُّبًا من أمرِهم في غَمْط آلائِه وأياديه الظَّاهرة، وإمَّا شكرًا لله على النِّعم التي عدَّها ونبَّه عليها.

[﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ٧٥-٨٠]

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ معناه: فأُقسمُ. و«لا» مزيدةٌ مؤكِّدة مثلُها في قوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩]. وقرأ الحسَن: (فَلَأُقْسِمُ)، ومعناه: فَلَأَنا أُقسِم، اللام لامُ الابتداءِ دخلت على جملةٍ من مبتدأ وخبر، وهي: أنا أُقسِم، كقولك: «لَزيدٌ منطلقٌ» ثُمَّ حُذِف المبتدأ، ولا يَصحّ أن تكونَ اللامُ لامَ القسم لأمرين، أحدُهما: أنَّ حقَّها أن تُقْرَن بها النُّون المؤكِّدة، والإخلالُ بها ضَعيفٌ قَبيحٌ. والثَّاني: أنَّ «لأفعلن» في جوابِ القسم للاستقبالِ، **وفعلُ القَسم يجبُ أن يكون للحالِ.**

كَما يجبُ تنزيهُ ذاتِه وصفاتِه تَعالى عن النَّقائصِ، يجبُ تنزيهُ الألفاظِ الموضُوعةِ لها عن سُوءِ الأدبِ، وهذا أبلغُ، لما يَلزمُ ذلك بالطَّريقِ الأوّلي على سبيلِ الكِنايةِ الرَّمزيَّة.

[قوله:] ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾، «لا» زائدة، ويجوزُ أن يكون ردًّا لما يقُوله الكافرُ في القرآنِ؛ من أنَّه سحرٌ وشِعرٌ وكَهانةٌ، ثُمَّ استأْنفَ القَسَمَ على أنَّه قرآنٌ كريمٌ. تَمَّ كلامُ الواحِديِّ رحمه الله تعالى[1].

قوله: (**«فَلَأُقْسِمُ»، ومعناه: فَلَأَنا أُقسِمُ**) إنَّما قدَّرَ المبتدأ لأنَّ لام الابتداءِ لا تدخُل على الجُملةِ الفعليَّة.

قوله: (**وفعلُ القَسمِ يجبُ أنْ يكونَ للحالِ**) قال ابنُ جِنّي: «لأقسِمُ» قراءةُ الحسنِ والثَّقفيِّ أي: لَأَنا أقسِمُ؛ فإنَّ جميعَ ما في القرآنِ من الإقسامِ إنَّما هو على حاضِرِ الحالِ، لا

---

(١) «الوسيط» (٤: ٢٣٨-٢٣٩). وهذه الفقرة في الأصول قبل فقرة: «قوله: فأحدِثْ» السابقة، وموضعُها هنا.

﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ بمَساقِطِها ومغَاربِها، **ولعلَّ لله تعالى في آخرِ اللَّيل إذا انحطَّتِ النُّجومُ إلى المغربِ أفعـالًا مخصُوصةً عظيمةً**، أو للملائكةِ عباداتٍ موصوفةً، أو لأنَّـه وقـتُ قيـامِ المُتهجِّدين والمُبتَهِلين إليـهِ مِن عِبـادِه الصَّالحين، ونُـزولِ الرَّحمة والرِّضوان عليهم؛ فلذلك أقسمَ بمواقِعها، واستَعظَمَ ذلك بقوله: **﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ**

على وعدِ الإقسام، نعم لو أُريدَ الفعلُ المستقبلُ لَزمتْ فيه النونُ، فقيل: لأُقْسِمنَّ، وحذفُها ضعيفٌ جدًّا[١].

قوله: (**ولعلَّ لله تعالى في آخرِ الليلِ، إذا انْحطَّتِ النُّجُومُ إلى المغربِ، أفعالًا مخصوصةً عظيمةً**)، وقلتُ: ولذلكَ وردَ عن الصَّادِقِ المَصْدُوقِ: «ينزلُ ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى سَماءِ الدُّنيا، حينَ يَبْقَى ثلثُ الليلِ الآخِرُ، فيقولُ: من يَدْعُونِي فأستَجيبَ لَهُ، من يَسألُنِي فَأُعطِيَه، مَنْ يَستَغفِرُني فأَغْفِرَ لهُ». أخرجَهُ البُخاريُّ ومُسلمٌ عن أبي هُريرةَ[٢].

وروى التِّرمِذيُّ عن أبي أُمامَةَ: قيل: يا رسولَ الله أيُّ الدُّعاءِ أَسْمعُ؟ قال: «جَوفَ الليلِ الآخِرِ، ودُبُرَ الصَّلواتِ المَكْتُوباتِ»[٣].

قال صاحبُ «الجامعِ»: النُّزولُ والصُّعُودُ والحركةُ والسُّكُونُ من صفاتِ الأجسامِ، والله تَعالى يتقدَّسُ عن ذلك، والمُرادُ بهِ نُزولُ الرَّحمةِ والأَلْطافِ الإلهيةِ، وقُربها من العبادِ وتخصيصُهُ لها بالثُّلثِ الآخِرِ من اللَّيلِ، لأنَّ ذلكَ وقتُ التَّهجُّدِ وقيامِ الليلِ، وغفلةِ النَّاسِ عمَّن يتعرَّضُ لِنَفحَاتِ رحمةِ الله تعالى، وعند ذلك تكونُ النِّيةُ خالصةً، والرَّغبةُ إلى الله تعالى مُوفَّرة، فهو مَظنَّةُ القَبُولِ والإجَابةِ[٤].

---

(١) «المحتسب» (٢: ٣٠٩).

(٢) البُخاري (١١٤٥)، ومُسلمٌ (٧٥٨).

(٣) الترمذي (٣٤٩٩) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ.

(٤) «جامع الأصول من أحاديث الرسول» (٤: ١٤١).

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله حاكيًا مذاهب العلماء في النّزول في «فتح الباري» (٣: ٣٠): ومنهم من أجراه على ما ورد مؤمنًا به على طريق الإجمال، منزِّهًا اللهَ تعالى عن الكيفيَّة والتَّشبيه، وهم جمهورُ السَّلفِ، ونقله البَيْهقيُّ وغيره عن الأئمة الأربعة والسُّفيانَين والحمَّادَين والأوزاعي والليثِ وغيرهم.

تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أو أرادَ بمواقِعها: منازِلَها ومَسايرِها، ولهُ تعالى في ذلك من الدَّليل على عَظيم القُدرةِ والحِكمةِ ما لا يُحيطُ به الوصفُ. وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ **اعْتِراضٌ في اعْتِراض**؛ لأنه اعتَرَض به بين القَسَمِ والمُقسَمِ عليه، وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ﴾ واعترضَ بـ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ بين الموصوفِ وصِفتِه.

وقيل: مواقعُ النُّجُومِ: أوقاتُ وقوعِ نُجُومِ القرآنِ، أي: أوقاتُ نزولِها.

﴿كَرِيمٌ﴾ **حَسَنٌ مَرْضيٌّ في جنسِه** من الكُتب، **أو نفَّاعٌ جَمُّ المَنافِع**، أو كريمٌ على الله.

﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾ مصونٍ من غير المُقَرَّبين من الملائِكة، لا يطَّلِعُ عليه من سَواهُم، وهم المطهَّرُون من جميعِ الأدْناسِ، أدناسِ الذُّنوبِ وما سِواها: إن جعلتَ الجملةَ صفةً لِـ﴿كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾ وهو اللَّوحُ. **وإن جَعَلتَه صفةً للقرآنِ؛ فالمعنى: لا يَنبَغي أنْ يمسَّه إلا من هُو على الطَّهارة** من النَّاس، يعني مسَّ المكتوبِ منه، ومن النَّاس من حَمله

قوله: (اعْتِراضٌ في اعْتِراضٍ) فإنَّ قولَه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ﴾، اعْتِراضٌ بين القَسَمِ وجوابِه مُقرِّرٌ للتَّوكيدِ، وتعظيمٌ للمحلوف بِهِ، وقوله: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ اعتراضٌ بين الصِّفةِ والمَوصُوفِ توكيدٌ لذلك التَّعْظِيمِ، أي: لو علمَ ذلك لوفَّى حقَّه من التَّعظِيمِ.

قوله: (﴿كَرِيمٌ﴾ حَسَنٌ مَرْضِيٌّ في جِنسِه) هذا على أنَّ الكريمَ صفةٌ لكلِّ ما يُرضَى ويُحمَدُ في بابِه، كقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧].

وقوله: (أو نفَّاعٌ جَمُّ المنافع) هذا على أنْ يُستَعارَ الكريمُ ممَّن يقومُ به الكريمُ من ذَوِي العُقولِ لغيرِهم، وقوله: «أو كريمٌ على الله»، هذا على أنَّ مُتعلَّقَ ﴿كَرِيمٍ﴾ محذوفٌ.

قوله: (وإن جعلتَهُ صفةً للقرآنِ فالمعنى: لا ينبغي أنْ يمسَّه إلا من هو على الطَّهارةِ)، وكيفيَّةُ الاسْتِدلالِ على هذا المطلوبِ: هو أنَّه تعالى لمَّا أقسَم على أنَّ القرآن في نفسِه كريمٌ مرضيٌّ في جنسِه، ثُمَّ وصفَه بأنَّه بمنزلةٍ عظيمةٍ عنده، حيثُ صانَه عن كُلِّ وصْمةٍ ونَقِيصَةٍ،

على القِراءةِ أيضًا، وعن ابن عمر: أحبُّ إليَّ أن لا يَقرأ إلا وهو طاهرٌ، وعن ابن عبّاس في رواية أنهُ كان يُبيحُ القِراءة للجُنبِ..........................

ثم أتبَعَ الكُلَّ بقولِه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: مالكِ السَّماواتِ والأرضين، ووسَّطَ بينَهما قولَه: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾، دلَّ على أنَّ هذهِ الصِّفاتِ ثابتةٌ له ذاتِيَّةٌ، ومن شأنِه أن يكونَ كذلك، ولا ينبغي غيرُ ذلك، وعليه ما وَردَ: «المُسلمُ أخو المُسلمِ؛ لا يَظْلِمُه» الحديث(١).

فهو إخبارٌ في معنى الأمرِ كما في قوله: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ [النور: ٣]، والمعنى على الوجهِ الأوَّلِ: إنَّ هذا الكتابَ كريمٌ على الله تعالى، ومن كرمِه أنَّه أثبتَه عندَه في اللَّوحِ المحفوظِ وعَظَّم شأنَه بأنْ حَكَم أنْ لا يَمَسَّهُ إلا الملائكةُ المقرَّبونَ، وصانَه عن غيرِ المُقرَّبين، فيجبُ أنْ يكونَ حكمُهُ عندَ النَّاسِ كذلك، بناءً على أنَّ ترتُّبَ الحُكمِ على الوصْفِ المُناسبِ مُشْعِرٌ بالعِلِّيّة، لأنّ مساقَ الكلام لِتَعظيم شأنِ القرآنَ، وعلى كرمِهِ وردَ الإقسامُ، ومجيءُ ذِكر الكتابِ المكنونِ تابعٌ لذكرِه، يدلُّ عليه قولُه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾، أي: بمثلِ هذا العَظِيمِ الشَّأنِ، الموصوفِ بصِفَاتِ الكمالِ أنتُم مُتهاونون؟

رُوِّينا عن الإمامِ مالكٍ عن عبدالله بن أبي بكر بن عَمرو بن حَزْم قال: إنَّ في الكتابِ الّذي كتبَه رسولُ الله ﷺ لعَمْرِو بن حَزم: «أن لا يمسَّ القرآنَ إلا طاهرٌ»(٢)، وقال مالك: لم يُكره ذلك لأنه يُدَنسه الأيدي، وإنما كَرِهَ ذلك إكرامًا للمصحف بأن يحمله غير طاهر، وأحسن ما سمعتُ في معنى هذه الآية أنها بمنزلة قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٦](٣).

وعن الدَّارمِي عن عبدالله بن عَمرٍو أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «القرآنُ أحبُّ إلى الله من السَّماواتِ والأرضِ ومن فِيهنَّ»(٤).

---

(١) الحديث رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٢) «الموطأ» (١: ١٦٥) رقم (٦٩).

(٣) من قوله: «قال مالك» إلى هنا سقط من (ح) و(ف) وأثبته من (ط).

(٤) الدارمي في «السنن» (٢: ٤٤١) رقم (٣٤٢١).

ونحوُه قول رسول الله ﷺ: «المُسلمُ أخـو المُسلم لا يَظْلمه ولا يُسْلِمه» أي: لا ينبَغي لـه أن يظْلِمه أو يُسْلِمُه.

وقرئ: ﴿المُتطَهِّرون﴾، و(المُطَّهَّرون) بالإدغام. و(المُطْهَرون)، من: أطهَرَه بمعنى طَهَّره، و(المُطَهِّرون) بمعنى: يُطهِّرُون أنفسَهم أو غيرَهم بالاستغفَار لهم.

والوحي الذي ينزلونه ﴿تَنزِيلٌ﴾ صفةٌ رابعة للقرآنِ، أي: منزلٌ من ربِّ العالمين، أو وصفٌ بالمصدرِ؛ لأنه نزل نُجومًا من بين سائِر كُتب الله تعالى، فكأنَّه في نفسه تنزيلٌ؛ ولذلك جَرى مجرَى بعضِ أسمائِه، فقيل: جاء في التَّنزيل كذا، ونطقَ به التَّنزيلُ. أو هو تنزيلٌ على حَذْف المبتدأ، وقُرِئَ: (تنزيلًا) على: نُزِّل تنزيلًا.

[﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ٨١-٨٢]

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القُرآنَ ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أي: مُتَهاوِنُون به، **كمَن يُدْهِنُ في الأمرِ، أي: يَلينُ جانبُه** ولا يتصلَّب فيه تَهاونًا به ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ على حذفِ المُضاف، يعني: وتجعلون شكرَ رزقكم التَّكذيب، أي: وضعتُم التَّكذيب موضعَ الشُّكر. وقرأ عليٌّ رضي الله عنه: (وتجعلونَ شُكْرَكم أنكم تُكذِّبون) وقيل: هي قراءةُ رسول الله ﷺ، والمعنى: وتجعلونَ شُكْرَكُم لنِعْمةِ القرآنِ أنكم تُكذِّبون بِه.

قوله: (**ونحوُه**) أي: نحوُه في الأسْلوبِ، وأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾: لا ينبغِي أن يمسَّهُ، والحديثُ من روايةِ البُخَاريِّ ومُسْلِم وأبي دَاود والتِّرْمِذيِّ عن أبي هُريرة[1]، مضى تمامُه في الحُجراتِ. «لا يُسلِمُهُ»، أي: لا يَخْذلُه ولا يتركُه بيدِ العدوِّ. الجوهري: أسلمه: أي خذله.

قوله: (**كمَن يُدْهِنُ في الأمر، أي: يَلينُ جَانِبُهُ**) **الرَّاغبُ**: الإدْهَان في الأصل مثل التَّدهين، لكن جُعِل عبارةً عن المُدَاراةِ والمُلايَنةِ وترك الجَدِّ، كما جُعِل التَّقريد، وهو نزعُ القُرادِ عن البَعِيرِ، عبارةً عن ذلِك[2].

---

(١) مضى تخريجه في الصفحة السابقة.

(٢) «مفردات القرآن» ص٣٢٠

وقيل: نزلت في الأنواء ونسَبتِهم السُّقْيا إليها. والرِّزْق: المطر، يعني: وتجعلونَ شكر ما يرزُقكم الله من الغَيثِ أنكم تُكذِّبون بكونِه من الله، حيثُ تنسِبونَه إلى النُّجومِ. وقُرِئ: (تكذِبون) وهو قولهم في القرآنِ: شعرٌ وسِحرٌ وافتراءٌ. وفي المطرِ: هو من الأنواءِ، ولأنَّ كُلَّ مكذِّبٍ بالحقِّ كاذبٌ.

[﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ ٨٣-٩٦]

ترتيبُ الآية: فلولا تَرْجِعونَها إذا بَلَغتِ الحُلقومَ إنْ كُنتم غيرَ مَدِينين. ﴿فَلَوْلَآ﴾ **الثَّانية مُكرَّرةٌ للتَّوكيدِ،** ....

قوله: (وقيلَ: نَزلت في الأنواء) عن التِّرمذيِّ عن علي رضي الله عنه قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، قال: «شُكرَكُم؛ تقولون: مُطِرنا بِنَوءِ كَذا وكَذا، وبِنَجْمِ كَذا وكَذا»[١]، وعن البُخاريِّ ومُسلِمٍ ومالكٍ وأبي داودَ والنَّسائيِّ عن زيدِ ابن خالدٍ قال: صلّى بِنَا رسولُ الله ﷺ صلاةَ الصُّبْحِ بالحُدَيْبِيَة، في إثْرِ سماءٍ كانت من الليلِ، فلمّا انْصَرَفَ أقبلَ على النَّاسِ، فقال: «هل تَدْرُونَ ماذا قالَ ربُّكم؟» قالوا: الله ورسولُه أعلمُ، قال: «قد أصبحَ من عِبادِي مؤمنٌ بِي وكافِرٌ، فأمَّا من قالَ: مُطِرنَا بفضلِ الله ورحمتِه، فذلكَ مؤمنٌ بي كافرٌ بالكواكبِ، وأمَّا من قَال: مُطِرنَا بنوءِ كَذا وكَذا، فذاكَ كافرٌ بِي مُؤمنٌ بالكَواكبِ»[٢]. وتفسيرُ النَّوءِ قد ذكرناه فيما سبق.

قوله: (﴿فَلَوْلَآ﴾ الثَّانيةُ مكرَّرةٌ للتَّوكيدِ) قال أبو البقاء: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ جوابُ «لولا»

(١) التِّرمِذي (٣٢٩٥) وقال: هذا حديثٌ حسن غريبٌ صحيحٌ.
(٢) البخاري (٨٤٦) ومسلم (٧١) ومالك في «الموطأ» (٤٥١)، وأبو داود (٣٩٠٦) والنسائي (١٨٣٣).

....

الأولى، وأغنَى ذلك عن جوابِ الثَّانِية، وقيل: عكسُ ذلكَ، وقيل: «لولا» الثانية تكريرٌ[١].

وقيل: ﴿إِن كُنتُمْ﴾: شرطٌ دخل على شرطٍ، فيكونُ الثاني مقدّمًا في التَّقديرِ، أي: إنْ كُنتم صَادِقين، إن كُنتم غيرَ مملُوكين، فأَرجِعُوا أرْوَاحكَم إلى أبْدانِكم ممتَنعينَ عن الموتِ.

والمصنفُ جعلَ الشَّرطَ الأوَّلَ الأصلَ على ما عليهِ الظَّاهِرُ ،حيثُ قدَّر: «إنْ لم يكن ثمَّ قابضٌ، وكنتم صَادِقين في تَعْطِيلكُم»، فعطفَ الثاني عليه لِيُؤذِنَ بأنَّ الشرطَ الثَّاني كالبيانِ والتوكيد للأوَّلِ، فيكونُ أصلُ الكلامِ على تقديرِه: فهلّا إذا بلَغَت روحُ المُحتَضَر حُلقومَه، يا أهلَ البيت، تَرجِعُونها إلى مَقامِها إنْ كُنتم صَادقين، أنَّكُم غيرُ مَربُوبين، بل مُهملُون مُعطَّلُون،.ثمَّ قرن بقولـه: ﴿بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾، قولـه: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ حالًا لتتَمِيم[٢] معنَى العَجْزِ عن القُدرةِ على الرَّجْعِ مع كونِهم حاضِرينَ ناظِرينَ، ثمَّ قرَنَ به: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ حالًا أخرى لتَتْمِيم معنى أنَّ قُربَهم لا ينفعُ وأنَّهم غيرُ قادِرينَ على الرَّجعِ، وقدَّم أحدَ الشَّرطَينِ على جوابِ «لولا» للاهتمامِ كما ترى.

وأمَّا الواحِـديُّ فلخَّصَ المعنى وقَال: إنْ كان الأمـرُ كما تقُولون: إنَّـه لا بعثَ ولا حسابَ ولا جزاءَ، ولا إلهَ يحاسبُ ويُجازي، فهلا تَردُّونَ نَفْسَ من يَعِزُّ عليكُمْ إذا بلغتِ الحُلقومَ؟ وإذا لم يُمكِنُكم ذلك بوجهٍ فاعْلَموا أنَّ الأمرَ إلى غيرِكم، وهو الله تَعالى، ثُمَّ ذكرَ طبقاتِ الخَلقِ عندَ الموتِ بقوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ الذي بلغتْ رُوحُه الحُلقومَ ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله، فله روحٌ إلى قوله: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ أي: المُتوفَّى ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: أي بالبعث، ﴿فَنُزُلٌ﴾، أي: فنزلُه ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾[٣].

وقلت: النَّظمُ يساعدُ هذَا القولَ، لكن إنَّما يتمُّ إذا قُلنا: إن المُنكِرين للبعثِ، ما أنكرُوه بِطَريقِ إيرادِ الشُّبَهِ كالدَّهريَّةِ والطَّبيعيِّينَ، بل لأنَّه ألهاهُمُ التَّنعُّمُ في الدُّنيا، والتَّرفُ بلذَّاتِها

---

(١) «إملاء ما من به الرحمن» (٢: ٢٥٤).

(٢) من قوله: «معنى العجز» إلى هنا ساقط من (ح).

(٣) «الوسيط» (٤: ٢٤١-٢٤٢).

والضَّميرُ في ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ للنَّفس وهي الـرُّوحُ، وفي ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ للمُحتَضَر ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ غير مَرْبُوبين، من دان السُّلطانُ الرعية، إذا سَاسَهم. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يا أهلَ الميِّت، بقُدْرتِنا وعِلْمنا، أو بملائِكة الموتِ.

والمعنى: إنَّكم في جُحودِكم أفعالَ الله تعالى وآياتِه في كلِّ شيءٍ، إن أنزل عليكم كتابًا مُعْجزًا قلتم: سِحرٌ وافتراءٌ، وإن أرسلَ إليكم رسولًا قُلتم: ساحرٌ كذّاب، وإنْ رزَقكم مطرًا يُحييكم به قُلتم: صدقَ نـوءُ كـذا، على مذهبٍ يؤدِّي إلى الإهمالِ

عن التَّزوُّدِ لدارِ الجزاءِ، بدليلِ قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾، أي: يحلِفُون ويُصِرُّون عليه أنْ لا بعثَ ولا حسابَ، ويقولون: نحنُ الآن نستوفي لذاتِنا من الدُّنيا، كقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٥] أي: لِيَدومَ على فُجُورِه فيما بين يَدَيه من الأوقاتِ لا تُنْزَعُ عنهُ.

وفي كلامِ المُصنِّف: «إنَّكم في جُحودِكم.... على مذهبٍ يؤدي إلى الإهمالِ والتَّعْطِيل» إشعارٌ بهذا المعنى. فالفاءُ في قولِه: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ مُسبَّبة عمَّا قبلها، وكذا الفاء في: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾، وفي: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾، وهلُمَّ جرًّا إلى الفاءاتِ المُصدَّرات بهمزةِ الإنكار في: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ و﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ إلى أن يَتَّصِلَ بقوله: ﴿كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾، فلما وُبِّخوا على قولِهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وهُدِم باطلُهم بأنواعٍ من البراهين القَاطعة وعُدِّ قبائِحُهم، قيل لهم: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾، يعني: إنْ كان الأمر كما تقولون: إنَّه لا بَعْثَ ولا حسابَ ولا جزاءَ، ونحن الآن طيِّبون، فهلّا تَرُدّون نفْسَ مَن يعزُّ عليكم إذا ﴿بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ إليه وإلى ما هو فيه من السَّكرات، هل تَقْدِرُون أنْ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ إلى مَقامِها ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّكم غيرُ مدينين؟؟ وإليه الإشارةُ بقولِه: «إنْ لم يكن ثَمّ قابضٌ، وكنتُم صادِقين في تَعْطِيلِكم وكفرِكُم بالمُحْيي المُميتِ».

قوله: (إذا سَاسَهم) الجَوْهَري: سُسْتُ الرَّعيةَ سياسةً، وسُوِّسَ الرَّجلُ أمورَ الناسِ على ما لم يُسمَّ فاعِلُه، إذا مَلك أمرَهُم.

والتَّعْطيلِ، فما لكم لا تَرجِعون الرُّوح إلى البدنِ بعد بُلوغهِ الحُلقومَ إنْ لم يكن ثَمَّ قابضٌ **وكنتم صادقين في تعطيلكم** وكفرِكم بالمُحيي المُميت المُبدئ المُعيد؟!

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ المُتوفَّى **﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾** من السَّابِقين **من الأَزْواج الثلاثةِ المذكورةِ في أوَّلِ السُّورة** **﴿فَرَوْحٌ﴾** **فله استراحةٌ**.

قوله: (**وكنتم صادقين في تعطيلكم**) فإن قلتَ: كيف يصحُّ هذا الاسْتدلالُ؟ فإنَّ من قال بالتَّعطيلِ يُحيلُ الموتَ إلى الطَّبيعةِ، لا إلى القادرِ المُختارِ، فلا يقال لهم: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾؟ قلتُ: الطَّبيعِيُّ يزعُم أنَّه قادِرٌ على تغييرِ الطَّبيعةِ بالمعالجة، فقيل لهم: فهلا تَرجِعُون الرُّوحَ من الحُلقوم إنْ كنتُم صَادِقين في ذلك؟ قال الإمامُ: الطَّبيعيُّ عنده أنّ البقاءَ بالغذاءِ، وأنَّ الأمراضَ زوالُها بالدَّواءِ مُمكنٌ[١].

قوله: (**من الأَزْواج الثَّلاثةِ المذكورةِ في أوَّلِ السُّورة**) إشارةٌ إلى أنَّ الخاتِمة ناظرةٌ إلى الفاتِحة، فينبغي أن يُراعَى النَّظمُ على ما قرّرنا.

قوله: (**فلَه استِراحَةٌ**) فإن قلتَ: دلَّ هذا على أنَّ قولَه: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾، جزاءٌ للشَّـرْطِ، وقد مضى شَرطانِ «أما» و«إن» فجوابُ أيِّهما هو؟

قال صاحب «الكشف»: تقديرُ هذا الكلام: مهما يكنْ من شيءٍ فرَوحٌ وريحانٌ إنْ كان من المُقرَّبين، فحذفَ الشَّرطَ الذي: هو «يكُنْ من شَيءٍ»، وأقامَ «أمّا» مقامَ «مهما» ولَمْ يَحسُن أن يَلِي الفاء أما، فأوقعَ الفَصْل بين «أمّا» والفاء بقوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ لتحسينِ اللفظِ، كما يقعُ الفصلُ بينهما بالظَّرف والمفعولِ في قولهم: أمّا اليوم فزيدٌ خارجٌ، وقال سيبويه: أمَّا غدًا فلكَ درهمٌ[٢]، فالفاءُ في ﴿فَرَوْحٌ﴾ وأُختَيها جوابُ «أمّا» دون «إنْ»، وقال أبو البقاء: جواب أما ﴿فَرَوْحٌ﴾، وأمّا «إن» فاستغنى بجوابِ «أمّا» عن جوابها لأنَّ جواب «إن» يُحذفُ كثيرًا[٣].

---

(١) «مفاتيح الغيب» للرازي (٢٩: ٤٣٨).

(٢) «الكتاب» لسيبويه (٣: ٧٩).

(٣) انظر: «كشف المشكلات» للباقولي (١٣١٨-١٣١٩)، و«إملاء ما مَنّ به الرَّحمن» (٢: ٢٥٥).

وروت عائشةُ رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ: (فرُوحٌ)، **بالضَّمِّ**. وقرأ به الحسن وقال: الرُّوح: الرَّحمة، لأنَّها كالحياةِ للمرحُومِ. وقيل: البقاءُ، **أي: فهذان له معًا**، وهو الخلودُ مع الرِّزقِ والنَّعيمِ. والرَّيْحان: الرِّزْقُ.

﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: فسلامٌ لك يا صاحبَ اليمينِ **من إخوانك** أصحابِ اليمين، أي: يُسلِّمُون عليك. كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٦].

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦] وقُرِئَ بالتَّخْفِيف.

قوله: («فرُوحٌ» بالضَّمِّ) عن التِّرمذيِّ وأبي داودَ عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ يقرأ: «فرُوحٌ وريحانٌ»[1]. قال ابن جِنِّي: معنى هذهِ القِراءة يَرجِعُ إلى معنَى الرُّوحِ، فكأنَّه قيل: فله ممسكُ رُوحٍ، ومُمسكها هو الرَّوح، كما تقول: الهواءُ هو الحياةُ، وهذا السَّماع هُو العيشُ[2].

قوله: (أي: فَهَذان لَـه معًا) يعني قوله: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أخبارُها محذوفةٌ وهي «لَهُ».

فإن قلتَ: هاهنا أشياءُ ثلاثةٌ لِمَ جعَلها شَيئينِ، حيث قال: و«هو الخُلودُ مع الرِّزقِ والنَّعيم»، وعَبَّر عنها بـ«هذان»؟

قلت: كأنَّه لَمَّح إلى معنى قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٣] قال: وقيل: أراد دوامَ الرِّزقِ ودُرورهُ، فالرَّوْح المتأوَّل بالبَقاءِ، والرَّيحان المُفسَّـر بالرِّزقِ، بمعنى دوامِ الرِّزقِ ودرُورِه، و«جنَّةُ نعيمٍ» مثل كلمةِ ﴿فِيهَا﴾ أي: في جناتِ عدنٍ.

قوله: (من إخوانِكَ) مِنْ: للابتداءِ، وفي قوله: «يا صاحبَ اليمينِ» إشارةٌ إلى الاختِصاصِ المُسْتفادِ من الالتِفَاتِ في الآيةِ، ونظيرُه في الالتِفَاتِ قولُه تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ [النور: ٦٤].

---

(١) التِّرمذي (٢٩٣٨) وقال: هذا حديث حسن غريبٌ، وأبو داود في «السنن» (٣٩٩١).

(٢) «المحتسب» (٢: ٣١٠).

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ قُرئت بالرَّفع والجرِّ عَطْفًا على «نُزُلٌ» وَ«﴿حَمِيمٍ﴾»، ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الَّذي أنزل في هذه السُّورة، ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: الحقُّ الثابتُ من اليقين.

عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم: «من قرأ سورةَ الواقعة في كلِّ ليلةٍ لم تُصِبْهُ فاقةٌ أبدًا».

قوله: (﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ قُرئتْ بالرَّفعِ والجرِّ)، الرَّفعُ هي المشهورةُ، والجرُّ شاذٌّ.

قوله: (أي: الحقُّ الثابتُ من اليقينِ) الرَّاغِب: اليَقينُ: سكون النَّفْسِ مع ثَباتِ الحُكم، وهو من صِفةِ العِلم، يقال: عِلمُ يقينٍ، ولا يُقال: مَعرفةُ يَقينٍ[١].

وأنشد صاحب «التيسير»:

لَقدْ أقوت عليكَ دِيارُ عبسٍ عرفتَ الدَّارِ عِرفانَ اليقينِ[٢]

وقيل: هو كقولِهم: نفسُ الحائِطِ، أي: النَّفسُ التي هي الحائطُ، ولذلك قال: «أي: الحقُّ الثابتُ من اليقينِ»، وقال البصريون: التقديرُ حقُّ الأمرِ اليقينِ، واليقينُ: علمٌ يحصل بِهِ ثَلَجُ الصُّدورِ، قيل: هو علمٌ يحصل بالدَّليل، وقال صاحب «المطلع»: هو اسمٌ للعلمِ الذي زالَ عنه اللَّبس، و﴿حَقُّ﴾ تأكيدٌ، كما تقول: حقٌّ يقينٍ، ويقينٌ حَقٌّ.

وقال الزَّجَّاجُ: إنَّ هذا الذي قَصصنا عليكَ في هذه السُّورةِ لَليقينُ حقُّ اليقينِ، كما تقول: إن زيدًا لعالمٌ حقُّ عالِمٍ، وإنَّه العالم حقُّ العالِم، إذا بالغتَ في التَّوكيد[٣].

قوله: (من قرأ سورةَ الواقعة) الحديثُ رواه صاحبُ «الجامِع»[٤] عن رَزِينٍ عن ابنِ

---

(١) «مفردات القرآن» ص٨٩٢

(٢) أورده الفراء في «معاني القرآن» (٢: ٢٠٨) ولم ينسبه، بل قال: وأنشدني بعضهم، وذكره الطَّبري في «جامع البيان» (١٣: ١٠٦).

(٣) «معاني القرآن» (٥: ١١٨).

(٤) «جامع الأصول» (٨: ٤٨٢) رقم (٦٢٥٧)، والمؤلف دائم الاعتماد على «جامع الأصول» في تخريج الحديث، ولهذا فوّت العَزوَ إلى من هو أولى من رزينٍ ومُتناوَلُهُ أقرب، كابن السُّني في «عمل =

....

مسعودٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «من قَرأ كلَّ ليلةٍ سورةَ الواقعةِ لم تُصبْهُ فاقةٌ، وفي المسبِّحاتِ: آيةٌ كألفِ آيةٍ».

تمّت السُّورةُ

حامِدًا لله تعالى ومُصلّيًا على رسُولِ الله ﷺ.

* * *

= اليوم والليلة»، والبَيْهقي في «شعب الإيمان»: (٢: ٤٩٢) رقم (٢٤٩٨، ٢٥٠٠)، وعزاه ابن حجر في «الكاف الشاف» (٤: ٤٧١) إلى ابن وهب في «جامعه» أيضًا، وأبو عُبيد في «فضائل القرآن» والحديث ضعيفٌ، بل مُنكر: قال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١: ١١٣): قال أحمد بن حنبل: هذا حديثٌ منكر، وشجاعٌ والسُّري لا أعرفهما.

سورة الحديد
مدنيَّة، وهي تسعٌ وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ * يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ١-٦]

جاءَ في بعضِ الفَواتِح: ﴿سَبَّحَ﴾ علىٰ لفظِ الماضِي، وفي بعضها علىٰ لفظ المُضارِع، وكلُّ واحدٍ منهما معناه: أنَّ مِن شَأنِ مَن أُسنِد إليه التَّسبيحُ أن يُسبِّحَه، ....

سورةُ الحديد
مكّية، وهي تسعٌ وعشرون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله: (جاء في بعضِ الفَواتِح: ﴿سَبَّحَ﴾ على لفظِ الماضِي)، وقلت: وجاءَ في «بني إسرائيلَ»: بلفظ المصدر، وفي «الحديدِ» و«الحشرِ» و«الصَّفِّ»: بالماضي، وفي «الجمعةِ» و«التَّغابُنِ»:

وذلك هِجِّيراهُ ودَيْدَنُه، وقد عدَّىٰ هذا الفعلَ باللَّام تارةً، وبنفسِه أُخرَىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح: ٩] وأصله: التَّعدِّي بنفسِه، لأنّ معنىٰ سبَّحتُه: بعَّدتُه عن السُّوءِ، منقولٌ من سَبَح: إذا ذَهَب وبَعُدَ، فاللّام لا تَخلُو إما أنْ تكونَ مثل اللّام في: نصحتُه، ونصحتُ لَهُ، وإما أنْ يُراد بسبَّح لله: أحدَثَ التَّسبيحَ لأجلِ الله ولوجهِهِ خالصًا.

﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ما يتأتَّىٰ منه التَّسبيحُ ويَصحُّ.

فإن قلتَ: ما محلُّ ﴿يُحْيِۦ﴾؟

قلتُ: يجوز أنْ لا يكون لَه محلٌّ، ويكون جملةً برأسِها؛ كقوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧] وأنْ يكونَ مرفوعًا علىٰ: هو يُحيي ويُميتُ، ومنْصُوبًا حالًا من المجرور في ﴿لَهُۥ﴾ والجارّ عاملًا فيها. ومعناه: يُحيي النُّطَف والبيض والموتىٰ يومَ القِيامة، ويُميت الأحياءَ.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ هو القَدِيمُ الّذي كانَ قبلَ كُلِّ شيءٍ ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الذي يبقَىٰ بعد هَلاكِ كُلِّ شيءٍ، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ بالأدلَّةِ الدَّالةِ عليه، ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ لكونِه غيرَ مُدرَكٍ بالحواسِّ.

فإن قلتَ: فما معنىٰ الواو؟

بالمُضارع، وفي ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾: بالأمر، فاستوعبَ جميعَ جهاتِ هذه الكلمِة، إعلامًا بأنَّ الـمُكوَّنات من لَدُنْ إخراجِها من العَدمِ إلى الوجودِ إلى الأبد، مُسبِّحةٌ مُقدِّسةٌ لذاتِهِ سُبحانَه وتعالى قَولاً وفِعلاً، طوعًا وكَرْهًا، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وإليه الإشارةُ بقوله: «إنَّ مِن شأنِ مَنْ أُسنِدَ إليه التَّسبيحُ أن يُسبِّحَه»، والضَّميرُ الـمُستَترُ راجعٌ إلى ﴿مَا﴾ في ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وكذا في «هِجّيراهُ ودَيْدنه».

قوله: (أحدَث التَّسْبيحَ لأجلِ الله) قطعَ ﴿سَبَّحَ﴾ عن متعلّقِه، وأجراه علىٰ إطلاقِه، وجعلَ اللامِ للتَّعليلِ، وعلى الأوَّلِ اللام متعلِّـقٌ به، ولذلك اسْـتَشهد بقوله: «نصحتُه ونصحتُ له».

قُلتُ: **الواو الأولىٰ** معناها الدَّلالةُ علىٰ أنَّه الجَامعُ بين الصِّفتَين الأوليَّة والآخِريَّة، والثالثةُ علىٰ أنَّه الجَامِع بين الظُّهورِ والخَفاءِ. وأمَّا الوُسطىٰ، فعلىٰ أنَّه الجامعُ بين مجموعِ الصِّفتين الأُولَيَينِ ومجْمُوعِ الصِّفَتين الأُخْرَيَين، فهو المُستمرُّ الوجودِ في جميعِ الأوقاتِ، الماضيةِ والآتيةِ، وهو في جميعِها ظاهرٌ وباطنٌ: جامعٌ للظُّهورِ بالأَدِلَّةِ والخَفاءِ، فلا يُدركُ بالحواسِّ. وفي هذا حجةٌ علىٰ من جوّز إدراكَه في الآخرةِ بالحاسَّةِ.

قوله: (**الوَاو الأولىٰ**) يريدُ أنَّ الواواتِ الدَّاخلةُ بينَ الصِّفاتِ تُفيدُ معنىٰ الجَمْعيَّة، لكنَّ الواوَ المُتوسِّطةَ بينَ «الأوَّل» و«الآخِرُ» جامعةٌ بين الأَوَّليَّةِ والآخِريَّة، فالأَوَليَّةُ والآخِريَّةُ صارَتا كصفةٍ واحدة، وكذا المتوسِّطةُ بين «الظّاهر» و«البَاطن»، وأمَّا الواوُ الداخِلةُ بين هاتين القَرينتين، أفادت معنىٰ امْتِزاجِ تَيْنِكَ الصِّفَتينِ بهاتينِ الأُخْرَيَيْن، فإذاً لا انْقِطاعَ لوَصْفيَّتِه سبحانَه وتعالىٰ من الظَّاهريَّةِ والباطِنيَّة، أزلاً وأبدًا، كما أنَّه تعالىٰ باطنٌ في الدُّنيا لا يُرىٰ، كذلك باطنٌ في العُقبىٰ لا يُرى، وإليهِ أشار بقوله: «هو في جميعِها ظاهرٌ وباطنٌ» إلىٰ قوله: «وفي هذَا حجةٌ علىٰ من جَوّزَ إدراكَه في الآخرةِ بالحاسَّةِ».

الانتصاف: لا دَليل في الآيةِ على ما قال، فيجوزُ أن يُحمل علىٰ عدم الإدراكِ بالحاسَّة في الدُّنيا وفي الآخرةِ للكُفَّار، ولنا في الرّؤيةِ كالمعتزلةِ لقوله[١]: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] فإن قيل: التَّخصِيصُ خلافُ الظَّاهر، قلنا: المسألةُ قطعيَّة، فيكفينا التشكيك[٢]، وأيضًا فإنَّ اللهَ لم يظهرْ بالأدلةِ لكلِّ أحد، وقد خصَّصْنَا الظَّاهِرَ أيضًا، فَجازَ تخصيصُ الباطن[٣].

وقال حُجَّةُ الإسلام في «المقصد الأسنىٰ»: اعلم أنَّ الأوَّل يكون أولاً بالإضافةِ إلىٰ شيءٍ، والآخِرَ آخِرًا بالإضافةِ إلىٰ شيءٍ واحدٍ، وهما مُتناقِضان فلا يُتصوّر أن يكون الشيءُ

---

(١) كذا في الأصول الخطية، ولفظه في «الانتصاف»: «المراد عدم الإدراك بالحاسة في الدنيا لا في الآخرة، ونحن نقول به، أو في الآخرة والمراد الكفار والجاحدون للرؤية كالقدرية، ألا ترى إلى قوله».

(٢) في «الانتصاف»: «الاحتمال» وهو أوجَهُ من قوله: «التشكيك».

(٣) «الانتصاف» (٤: ٤٧٢) مع «الكشاف».

وقيل: الظَّاهرُ: العَالي علىٰ كُلِّ شيءٍ الغالبُ لَهُ، من ظهرَ عليه إذا علاه وغلبَه. والباطن: الذي بَطَنَ كُلَّ شيءٍ، أي عَلِم باطِنَه: وليس بذاكَ مع العُدولِ عن الظَّاهِرِ المفهُومِ.

الواحد من وجهٍ واحدٍ بالإضافة إلى شيء واحدٍ[١] أولاً وآخِرًا جميعًا، بل إذا نظرت إلى ترتيبِ الوجود ولاحظت سلسلةَ الموجُوداتِ المُترتِّبة، فاللهُ تعالى بالإضافةِ أول، إذ الموجوداتُ كلُّها استفادَت الوُجودَ منه، وأمّا هو فموجودٌ بذاتِه، وما استفادَ الوجودَ من غيرِه فهو متأخِّرٌ عنه، ومهما نظرتَ إلى ترتيبِ السُّلوكِ، ولاحَظْتَ منازِلَ السَّالِكينَ السَّائرينَ إليه فهو آخرُ ما يرتقي إليه درجاتُ العارفين، وكلُّ معرفةٍ تحصلُ قبل معرفتِه فهي مَرْقَاةٌ إلىٰ معرفتِه، والمنزلُ الأقصى هو مَعرِفةُ الله، فهو آخرٌ بالإضافةِ إلى السُّلوك، أولٌ بالإضافةِ إلى الوُجودِ، فمنه المبدأُ أوّلاً، وإليه المرجعُ آخِرًا، وكذا القولُ في قولِه: «الظَّاهِرُ والباطِنُ» والله تعالىٰ باطِنٌ إن طُلِب من إدراكِ الحواسِّ، وخِزانةِ الخيالِ، ظاهرٌ إن يُطلب من خِزانةِ العقلِ والاسْتِدْلالِ، وقال أيضًا: إنَّهُ تعالى إنّما خفيَ مع ظُهورِه لشِدَّة ظُهورِه، وظهورُه سببُ بُطونِه، ونُورُه هو حجابُ نُورِه، وكلُّ ما جاوزَ حدَّهُ انعكس ضدَّه[٢].

وقال الأزهري: «أوّل»: أفعل، وهو تذكيرُ «أُولىٰ»: فُعْلىٰ وأصله من: آلَ يؤولُ، أي: عاد ورجعَ، وأوّل كان في الأصل: أَأْوَل، فقُلِبتْ إحدى الهمزتين لما اجتمعتا واوًا، وأُدغمت إحداهُما في الأُخرى فصار: أوَّل، والدَّليل عليه قولُهم: أولى، لأنَّ الأَلِفَ في الأُولى فاءُ الفعلِ والهمزتان في «أأْوَل» إحدَاهما ألفُ أَفعل، والثانيةُ فاءُ الفِعل.

وقال أبو إسحاقُ[٣]: هو الأوَّلُ قبلَ كلِّ شيءٍ، والآخِرُ بعدَ كُلِّ شيءٍ، والأوَّل هو السَّـابِقُ

---

(١) من قوله: «وهما مُتناقضان» إلى هنا ساقط من (ف).

(٢) «المقصد الأسنى» للغزالي ص١٣٥ - ١٣٦ عند شرحه لأسماء الله: الأول والآخر، والظاهر والباطن.

(٣) لعلّه أراد الزجاج، والزجاج لم يذكر في «المعاني» (٥: ١٢٢) إلا الجملتين الأوليين.

[﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۞ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ٧-٨]

للأشياءِ كُلِّها، وكان تَعالى موجُودًا لا شيء معه، ثُمَّ أوجَدَ مَا أرادَ، ثم يفنىٰ الخَلقُ كُلُّهم، فيبقَىٰ تعالَىٰ وحدَه كما كان في القَديمِ، فيكونُ آخِراً كما كَان أولاً.

وقال الأزْهَريُّ: وقد يكونُ الظَّاهرُ الباطِنُ بمعنىٰ العَالِمِ لـما ظَهَر وبَطَن، وذلك أنَّ من كان ظاهرًا احتجبَ عنه الباطِنُ، ومن كان باطنًا استَتر عنه الظَّاهرُ، فإن أردتَ أنْ تصِفَه بالعلمِ قلتَ: هو ظاهرٌ باطنٌ، مثله قولُه تعالىٰ: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥]، أي: لا شرقيَّة فقط، ولا غَربيَّة فقط، ولكنَّها شرقيةٌ غربيةٌ، فظهر علىٰ علمِ كُلِّ شيءٍ بعلمِه وبطَنَ علمَ كلِّ شيءٍ بخبره، ويقال: ظهرتُ على فلان: إذا غَلَبتَه، وظهرتُ على السَّطح: إذا عَلوتَهُ، وظهرتُ على سرِّ فلانٍ: إذا عثرتَ عليه.

وقلتُ: هَذا هو الوجهُ وإنْ قال: «وليس بذاك»، بعدما قال: «الظَّاهر: العالي علىٰ كلِّ شيءٍ، الغالب له»، وينصره ما رُوِّينا عن الإمام أحمد ومسلمٍ والتِّرمِذيِّ وأبي دَاودَ وابنِ مَاجَه عن أبي هُريرة عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «أعُوذُ بك من شرِّ كلِّ ذي شرٍّ أنت آخذٌ بناصيتِه، أنت الأوّل فليس قبلكَ شيءٌ، وأنتَ الآخِرُ فليسَ بعدكَ شيءٌ، وأنتَ الظَّاهِرُ فليس فوقَكَ شيءٌ، وأنتَ الباطِنُ فليس دُونَك شيءٌ، اقضِ عنِّي الدَّينَ وأغنني من الفقر»(١).

فالمعنيُّ بالظاهر في التَّفسيرِ النَّبَويِّ: الغَالِبُ الذي يَغلِبُ ولا يُغْلَب، فيتصرَّف في المكوَّنات علىٰ سبيلِ الغَلبةِ والاستيلاءِ، إذ ليس فوقَه أحدٌ يمنَعه، وبالباطِنِ أنْ لا ملجأ ولا مَنْجَىٰ دونَه يلتجئُ إليه مُلتجئ، وهذه الأوصافُ التي أُجريت علىٰ الاسمِ الجامعِ بعدَ الحكم بأنَّ الكائناتِ بأسرِها مُسبِّحةٌ لهُ طَوعًا وكَـرْهًا، وفعلاً وقولاً، دلَّتْ على علِّيتَها، وكـرَّر ضميرَ

---

(١) مسلم (٢٧١٣)، والتِّرمِذي (٣٤٠٠)، وأبو داود (٥٠٥١)، وابن ماجه (٣٨٧٣)، وأحمد (٢: ٣٨١).

﴿مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ يعني أنَّ الأَموالَ التي في أَيْديكُم إنَّما هي أموالُ الله بخَلقِه وإنشائِه لها، وإنَّما موَّلكم إيَّاها، وخَوَّلكم الاسْتِمتَاع بها، وجَعَلَكُم خُلفاء في التَّصرُّفِ فيها، فلَيست هي بأموالِكم في الحَقيقةِ، وما أنتم فيها إلا بمنزلةِ الوُكلاءِ والنوَّاب، فأنفقُوا منها في حقوقِ الله، وليَهُن عليكم الإنفاقُ منها، كما يَهُون علىٰ الرَّجُلِ النَّفقةُ من مالِ غيرِهِ إذا أذِنَ لهُ فيه. أو ﴿جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ﴾ ممَّن كان قَبْلكُم فيما في أيْدِيكُم: بتوريثِه إيَّاكُم، فاعْتَبِروا بِحالِهِم حيثُ انتقلَ منهم إليكُم، وسَينْتقل منكُم إلىٰ مَنْ بَعدَكُم؛ فلا تَبخلوا بِه، وانْفَعُوا بالإنفاقِ منها أنفسَكُم.

﴿لَا تُؤۡمِنُونَ﴾ حالٌ من معنىٰ الفعلِ في «ما لكم»، كما تقول: ما لَكَ قائمًا، بمعنىٰ: ما تَصنعُ قائماً، أي: ومَا لكُم كافِرين بالله. والواو في ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ﴾ واو الحالِ، فهما حالانِ مُتداخِلتَانِ. وقُرِئَ: (وما لكم لا تُؤمِنونَ بالله ورسولِهِ والرسولُ يَدْعوكم). والمعنىٰ: وأيُّ عذرٍ لكم في تركِ الإيمانِ والرَّسولُ يدعُوكُم إليه ويُنبِّهُكم عليه، **ويتلو عليكمُ الكتابَ النَّاطِقَ بالبَراهينِ والحُجَجِ**، ....

المرفوعِ ليَدلّ على استقلالِ كُلِّ فقرةٍ صَدرتْ به علىٰ سبيل استبدادِها تعليلاً، وما ترك فيه العاطِف جعل الرابطَ معنويًّا، وهو الاستئناف.

قوله: (**وَيتْلُو عليكم الكتابَ النَّاطِقَ بالبراهين**)، فسر ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ به ليجمعَ بين دليلَي النَّصِ القَاطِع، والعقلِ الهادِي، لأنَّ المرادَ بقوله: ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾ ما رَكَّب فِيهم مِن العُقول، فقوله: «وقبل ذلك» مُؤذِنٌ بأن قوله: ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾، حالٌ من الضَّميرِ المنصوبِ في ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾، ويُحتَمل العطفُ علىٰ الجملةِ برأسِها، فيكونُ حالاً معطوفةً علىٰ مثلِها لا مُتداخِلتانِ، فلا يُقدَّرُ «قبل ذلِك»، أي: ما لَكُم لا تؤمنونَ بالله والحالُ هذهِ وهذه، ويكون تقديمُ دليلِ السَّمْعِ على العقلِ لشرفِه والتَّعْويل عليه كما سبقَ مرارًا.

وقبلَ ذلكَ قد أخذَ اللهُ ميثاقكم بالإيمانِ: حيثُ ركَّبَ فيكم العُقولَ، ونَصَبَ لكمُ الأدِلَّةَ،

أمَّا قولُه: «بعد أدلَّةِ العُقولِ وتنبيهِ الرَّسول ﷺ»، فَمُخالِفٌ لهذا لأنَّه مبنيٌّ علىٰ مذهبه، وعلىٰ التَّقدير الذي قدَّره، وينصر ما ذكرنا مِن أنَّ التَّعويلَ علىٰ الدَّليلِ السَّمْعِيِّ، وأنَّه هو الهادِي المُرْشد، والعقليُّ تابعٌ، تعقيبُ الآية بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ امتنانًا وتقريراً للاهتمام، وأنَّه لولاهُ لما حصلَ الإيمان، وفي قوله: «ليخرجكم الله بآياته من ظُلمات الكُفر إلى نور الإيمان»، إشارةٌ إلىٰ هذا المعنىٰ.

قوله: (حيث ركَّب فيكم العقولَ) الانتصاف: ولا عَليه أن يحمل العَهد علىٰ حقيقته، وهو المأخوذ يوم الذَّرّ، وكُلّ ما أجازَه العقلُ وورِدَ بِهِ الشَّرعُ وجَب الإيمانُ به[1].

وقال مُحيي السُّنة: أي أخذَ مِيثاقَكُم حين أخْرَجكُم من ظهر آدم بأنَّ اللهَ ربُّكم لا إله لكم سِواهُ. قال مجاهدٌ: وقيل: أخذنا ميثاقكم بإقامةِ الحُجج والدَّلائل التي تدعُو إلى متابعةِ الرَّسول ﷺ[2].

وقلت: يمكنُ أنْ يُقال إن الضَّميرَ في «أخذ» إنْ كان لله تعالىٰ، فالمناسبُ أنْ يُراد بالمِيثاقِ ما دل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ إلى آخرِه [البقرة: ٣٨]، لأنَّ المعنىٰ: «فإمَّا يأتينَّكم مني هُدىً برسولٍ أبعثه إليكم، وكتابٍ أُنزلُه عليكُم» كما صرَّحَ المصنِّفُ في تفسيرِه، يدلُّ علىٰ الأوَّلِ قوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟﴾ وعلى الثاني: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إنْ كانَ للرَّسُولِ ﷺ فالظَّاهِرُ أنْ يُراد بالميثاقِ ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١] على أنْ يُضافَ الميثاقُ إلى النَّبيِّينَ إضافته إلى المُوثِّق لا الموثَّق عليه، أي: المِيثاقُ الذِي وثَّقه الأنبياءُ على أُممِهم، وهو الوجهُ لأنَّ الخطابَ مع الصَّحابةِ.

(١) «الانتصاف» (٤: ٤٧٣) بحاشية «الكشاف» بسياق أفضل مما ذكر المصنف.

(٢) «معالم التنزيل»: (٥: ٢٧).

....

والمرادُ بالإنفاقِ: الإنفاقُ في سبيلِ الله، يدلُّ عليه قوله: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ﴾ ولَعلَّ الميثاقَ نحوُ ما رُوِّينا عن الإمام أحمد بن حَنبلٍ عن عُبادَةَ بن الصَّامِت: بايعنا رسول الله ﷺ على السَّمعِ والطَّاعةِ، في النَّشاطِ والكَسل، وعلى النَّفقةِ في العُسْرِ واليُسر، وعلى الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكر، وعلى أنْ نقولَ في الله ولا نخافَ لومةَ لائم، وعلى أنْ نَنْصُر رسولَ الله ﷺ، الحديث(١).

وأمَّا قضيةُ النَّظْمِ فإنَّه تعالى لما قال: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ ووضعَ موضعَ: مما رزقْناكُم، كما في سائرِ المواضعِ قوله: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ تسهيلاً على بذلِها وإيذانًا بأنَّ الأموال عَواري ودُولٌ، كما قيل:

وحسبُك قولُ النَّاس فيها ملكــتَهُ ... لقد كان هـذا مـرّةً لفُـلانِ(٢)

فصَّلَهُ بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وبقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾ إلى آخرِه، وكان التَّقابُل الحقيقي: والّذين لم يُؤمنوا ولم يُنفقوا لهم عِقابٌ أليمٌ، ولـمّا أنَّ الكلام في الحثِّ والتَّعريض والتَّوبيخ على التَّهاوُنِ في الإنفاقِ، قيل: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وأوقع للأوّل قوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾، حالاً مُقرّرةً لجهةِ الإشكال. وقوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ حالٌ أخرى كذلك، على سبيل التَّداخلِ، والثاني قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو يَنظرُ إلى قولِه: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي: مالكم لا تُنفقون وإنَّ الله سوّلكم إيَّاها وخوَّلكُم الاستمتاع بها بعد أنْ أهلكَ غيرَكُم، وأعطَاها إيَّاكم، ثُمَّ في العاقبةِ هو مُهلِكُكُم ووارثُها، فأيُّ غرضٍ لكم في تركِ الإنفاقِ في سبيلِ الله والجهادِ معَ رسولِ الله ﷺ؟! والله أعلم.

---

(١) «مسند الإمام أحمد» (٥: ٣٢٥) رقم (٢٢٧٦٩).

(٢) لم أظفر بقائل هذا البيت، لكنه وجد على تملكات بعض النُّسخ الخطية.

ومكَّنكُم من النَّظرِ، وأزاحَ عِلَلكُم، فإذ لم تبْقَ لكم عِلَّةٌ بعد أدلةِ العُقولِ وتنبيهِ الرَّسول، فما لكم لا تُؤمِنون.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لموجبٍ ما؛ فإنَّ هذا المُوجبَ لا مَزيدَ عليه.

وقُرِئَ: ﴿أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ على البناءِ للفاعلِ، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ.

[﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ٩]

﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ اللهُ بآياتِه من ظُلماتِ الكُفر إلىٰ نُورِ الإيمانِ، أو ليُخرِجكُم الرَّسولُ بدعوتِه. (لَرَؤُفٌ) وقُرئ: ﴿لَرَءُوفٌ﴾.

[﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ ١٠-١١]

قوله: (لموجِبٍ ما) أي: موجبٍ من دَليلَي النَّقْلِ والعَقْلِ، قال الواحِديُّ: إنْ كُنتم مُؤمنين بالحُجَّةِ والدَّليل، فقد بَانَ وظَهر على يدِ محمدٍ صلواتُ الله عليه، ببعثِه وإنزالِ القُرآنِ عليهِ[1].

وقلت: ويمكن أن يُجرى الشَّرط علىٰ التَّعليلِ الذي يجيءُ به الموثَق بأمره، المتحقَّق بصحَّته، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] لأنَّ الكلامَ مع المُؤمنين علىٰ سبيلِ التَّوبيخِ والتَّقريع، يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

قوله: (وقُرئ: ﴿لَرَءُوفٌ﴾)، كلُّهم إلا أبا عَمروٍ وأبا بكر وحمزة والكسائي.

---

(١) «الوسيط» (٤: ٢٤٥).

﴿أَلَّا تُنفِقُوا۟﴾ في أنْ لا تُنفِقُوا ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَرِثُ كُلَّ شيءٍ فيهما، لا يبقَىٰ منه باقٍ لأحدٍ من مالٍ وغيرِه، يعني: وأيُّ غَرَضٍ لكمْ في تركِ الإنفاقِ في سَبيلِ الله والجهادِ مع رسولِه، واللهُ مُهلِكُكُم فوارِث أموالِكُم؟! وهو من أبْلَغِ البَعثِ علىٰ الإنفاقِ في سبيلِ الله. ثُمَّ بيَّن التَّفاوتَ بين المُنفِقين منهم فقال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ﴾ قبلَ فتحِ مكَّة قبل عِزِّ الإسلامِ وقوّةِ أهلِه، ودُخولِ النَّاسِ في دينِ الله أفواجًا، وقلَّةِ الحاجةِ إلىٰ القِتالِ والنَّفَقةِ فيه، ومن أنْفَقَ من بعدِ الفَتْحِ، فحُذِف لوُضوحِ الدَّلالَةِ، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين أنفقُوا قبلَ الفتحِ ـ وهمُ السَّابِقونَ الأولونَ من المُهاجرين والأنصارِ الَّذين قال فيهم النَّبيُّ ﷺ: «لَوْ أَنْـفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بلغَ مُدَّ أَحدِهم وَلا نَـصِيْـفَهُ» ـ ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾. وقُرِئَ: (قَبْلَ الفَتْحِ).

﴿وَكُلًّا﴾ وكلَّ واحدٍ من الفَرِيقَين ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبةَ الحُسنىٰ، وهي الجنَّـةُ مع تفاوت الدَّرجاتِ.

وقُرِئَ بالرَّفع؛ علىٰ: وكُلٌّ وعدَهُ اللهُ. وقيل: نَزلَتْ في أبي بكرٍ رضي اللهُ عنه، لأنه أوَّلُ من أسْلمَ، وأوَّلُ من أنْفَقَ في سبيل الله.

القَرضُ الحَسَنُ: الإنفاقُ في سَبيلِه، شَبَّه ذلكَ بالقَرْضِ علىٰ سَبيلِ المجاز، لأنَّه إذا أعْطىٰ مَالَه لوجهِه فكأنَّه أقرضَه إيَّاه.

قوله: (لو أنفق أحدُكُم مِثلَ أُحدٍ ذهبًا) الحديث من رواية البُخَاريِّ ومُسلم وأبي دَاوُدَ والتِّرمذيِّ عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا أصحَابي فَلوْ أنَّ أحدَكُم أنْفَقَ مِثلَ أُحُدٍ ذهبًا مَا بَلغَ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيْفه»[1].

النهاية: نَصِيْفَه: هُو النِّصْفُ، كالعَشِير في العُشْر.

قوله: (وقُرِئ بالرَّفعِ؛ علىٰ: وكلٌّ وعَدَه الله) ابنُ عامرٍ، والباقون: بِنَصْبِ اللام[2].

---

(١) البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠)، وأبو داود (٤٦٥٨)، والتِّرمذي (٣٨٦١).

(٢) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٢.

﴿فيُضاعِفُه لَهُۥ﴾ أي: يُعطِيه أجرَه علىٰ إنفاقِه مُضاعفًا أَضْعَافًا مِن فضلِه، ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ يعني: وذلك الأجرُ المَضمومُ إليهِ الأَضعافُ كريمٌ في نفسِه.

وقُرِئَ: (فيُضَعِّفُه)، وقُرِئا مَنْصوبينِ علىٰ جَوابِ الاستفهامِ، والرَّفعُ عطفٌ علىٰ ﴿يُقْرِضُ﴾، أو علىٰ: فهو يُضاعِفُه.

قوله: (وذلكَ الأجرُ المضْمومُ إليهِ الأَضْعاف) يريد أنّ قولَه: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ﴾، هو الأجرُ السَّابِقُ الذِي ضُمِّن في قولِه:﴿ فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾، وأُعيدَ المعنىٰ ليُعلَّقَ به صِفةُ الكريم، وفيه تَعسُّف؛ لأنَّ العَطْفَ يقْتـضِي المُغايرة نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠] وقد فسَّرَ المضَاعَفةَ بقولِه: «يُضَاعِفْ ثوابَها لاستِحقَاقِها عِندَه علىٰ سبيلِ التَّفضُّل عطاءً عظيمًا»[(١)]، وسمّاه أجرًا لأنَّه تابعٌ للأجر، وهو بناءً علىٰ مذهبه، وسبَق ما عليه، وذكرنا أنَّ المُناسِبَ أن يُفسِّرَ المُضَاعفَةَ بمُضَاعفة الحسنةِ نَفْسِها، والأجرَ بما هو المُتعارفُ منه.

ورُوِّينا في «صحيحِ البُخَاريِّ» عن أبي هُريرة قال: قال رسُول الله ﷺ: «إذا أحسَنَ أحدُكم إسْلامَه، فكُلُّ حَسَنةٍ يعْمَلُها تُكتَب لهُ بِعَشرِ أَمثالِها إلى سبع مئة ضِعْـفٍ، والسَّيئةُ بمِثْـلِها»[(٢)]، وفي روايةٍ: «إلّا أنْ يَتجاوَزَ اللهُ عنْها»[(٣)]، والله أعلم.

قوله:(كريمٌ في نَفسِهِ) أي: وُصِفَ الأجرُ بالكرمِ بناءً علىٰ أنَّ الكرِيمَ يُقال لِكلِّ ما يُرضَىٰ ويُحمدُ في بابه.

قوله: (وقُرِئ: «فيُضَعِّفه») ابن عامر، و«يُضاعفَه» بالنَّصبِ: عاصمٌ، والباقون: بالرَّفع[(٤)].

---

(١) من قوله: «وقد فسَّر» إلى هنا ساقط من (ط)، وأثبته من (ح) و(ف).

(٢) البخاري (٤٢) وفيه: «وكلُّ سيئةٍ يعملها تُكتب له بمثلها».

(٣) هي راوية أبي سعيد عند البخاري أيضاً (٤١).

(٤) قال الداني في «التيسير»: ص٦٥: «عاصم وابنُ عامر ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ هنا [البقرة: ٢٤٥] وفي الحديد بنصب الفاء، والباقون برفعها».

[﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ١٢].

﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ظرفٌ لقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، أو مَنصُوبٌ بإضمارِ «اذكر» تَعْظيمًا لذلكَ اليومِ. وإنَّما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ لأنّ السُّعَداء يُؤتَون صَحائِفَ أعمالِهم من هاتَين الجِهتين؛ كما أنَّ الأشقِياء يُؤتَونها مِن شَمائِلهم ومن وراءِ ظُهورِهم، فجعلَ النُّورَ في الجِهتينِ شِعارًا لهم وآيةً؛ لأنَّهم هُم الّذين بحَسناتِهم سُعِدوا، وبِصَحائِفهم البِيْضِ أفلَحُوا، فإذا ذُهِبَ بهم إلىٰ الجنَّة، ومَرُّوا علىٰ الصِّراطِ يَسْعَون، **سعَىٰ بسعْيِهم ذلكَ النُّور جَنِيبًا لهم** ومتقدِّمًا، ويقولُ لهم الذين يتلقَّونَهم من الملائكة: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾. وقُرِئَ: (ذلك الفَوْزُ).

[﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۞ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ١٣-١٥]

﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ بدلٌ من ﴿يَوْمَ تَرَى﴾، ﴿ٱنظُرُونَا﴾ انتَظِرونا، لأنَّهم يُسرَعُ بهم إلىٰ الجنَّة كالبرُوقِ الخاطفةِ علىٰ ركابٍ تَدِفُّ بهم، وهؤلاءِ مُشاةٌ. وانظُروا إلينا؛ لأنَّهم إذا نظَرُوا..

قوله: (سَعىٰ بِسَعْيِهم **ذلكَ النُّور جَنيبًا لَهم**) «سعىٰ» جواب «إذا»، و«يَسْعَون» حالٌ من ضميرِ «مرُّوا»، قالَ المصنِّفُ: عَرَفنا أنَّهم يَسْعَونَ بقولِه: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، لأنَّهم لو مَشَوا لما سَعىٰ النُّور بينَ أيْدِيهم، لأنَّه إذا سَعَى وهُمْ يَمْشُون الهُوَينا لم يَكُن سَعْيًا بينَ أَيْدِيهِم لأنَّه يخْلِفُهم.

قوله: (تَدِفُّ بِهم) الأساس: الدَّفيفُ: السَّيرُ اللَّيِّن.

إليهم استقبلُوهم بوجوهِهم والنُّورُ بين أيديهم فَيستَضِيئون به. وقُرِئَ: (أَنْظِرُونا) من النَّظِرةِ وهي: الإمهالُ، جُعِلَ اتِّئادُهم في المُضيِّ إلىٰ أن يَلحَقُوا بهم إنْظَارًا لهم.

﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ نُصِبْ مِنْهُ؛ وذلك أنْ يَلْحقُوا بهم، فيستَنِيروا به ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ طَرْدٌ لهم وتَهكُّمٌ بِهم، أي: ارجعُوا إلىٰ المَوْقِفِ إلىٰ حيثُ أُعطِينا هذا النُّورَ فالتمِسُوه هنالك، فمِن ثَمَّ يُقتبَس. أو ارجِعُوا إلىٰ الدُّنيا، فالتَمِسُوا نورًا بتَحْصيلِ سببِهِ وهو الإيمانُ. أو ارْجِعُوا خائبينَ وتَنحَّوا عنَّا، فالتَمِسُوا نوراً آخر، فلا سَبِيلَ لَكم إلىٰ هذا النّورِ، وقد عَلِموا أنْ لا نُـورَ وراءَهم؛ وإنَّما هو تخـيـيبٌ وإقناطٌ لهم.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ بين المؤمنينَ والمُنافقينَ بِحَائطٍ حَائلٍ بين شِقِّ الجنَّةِ وشِقِّ النَّارِ. وقِيل: هو الأعرافُ، لذلك السُّورِ، ﴿بَابٌ﴾ لأهلِ الجنةِ يدخُلونَ منه ....

قوله: (وقُرئ: «أَنظِرُونا» من النَّظِرَة) حمزة: «أَنظِرُونا» بقطْعِ الهمزةِ وفتْحِها في الحالين، وكَسْرِ الظَّاء، والباقون بألفٍ موصولةٍ ويَبتدِئونها بالضَّمِّ، وضمِّ الظَّاء[1].

قوله: (جُعل اتِّئادُهم في المُضيّ إلى أن يَلْحقُوا بهم إنْظَاراً لَهم) يقال: اتأد في مشيتِه، افتعلَ من التُّؤَدة، يعني وضَع أَنْظِرُونا الذي هو بمعنىٰ المُهْلةِ وإنظارِ الدَّائنِ مَدْيونَه، موضع اتِّئادِ الرفيق، والهُوينا في المَشْي لرَفيقه على سبيلِ الاستعارةِ بعد سبق تشبيهِ الحالةِ بالحالةِ، مُبالغَةً في العجز وإظهار الافتقار.

وقال المَهْدويُّ: ﴿ٱنظُرُونَا﴾، وأَنْظِرونا معناهُما سواءٌ، وهما من الانتظار، تقول العَربُ: نَظَرتُ كذَا وانتَظَرتُ، بمعنىً واحد، والمعنى: نَفِّسُونا وأَمهِلُونا نقتَبِسْ من نُورِكم.

قوله: (وقد عَلِمُوا أنْ لا نورَ وراءَهم وإنَّما هو تخييب)، نَظِيرُه في المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦].

---

(١) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٣.

﴿بَاطِنُهُۥ﴾ باطنُ السُّورِ أو البابِ، وهو الشِّقُّ الذي يَلي الجنةَ. ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ ما ظَهَر لأهلِ النّارِ ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ من عندهِ ومن جِهتِه ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ وهو الظُّلمةُ والنّارُ.

وقرأ زيدٌ بن عليٍّ رضي الله عنهما: (فضَرَبَ بيْنَهم) علىٰ البناءِ للفاعل.

﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يُريدُون مُوافقَتَهم في الظَّاهرِ ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ محنْتُموها بالنِّفاقِ وأهلَكْتُموها، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنينَ الدَّوائرَ، ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ طُولُ الآمالِ والطَّمعُ في امْتِدادِ الأعْمارِ، ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وهو الموتُ ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ وغرّكم الشيطانُ بأنّ الله عفوٌّ كريمٌ لا يعذِّبكُم. وقُرِئَ: (الغُرُور) بالضَّمِّ.

﴿فِدْيَةٌ﴾ ما يُفتَدىٰ به ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ قيل: هي أولىٰ بكم، وأنشد قول لَبيدٍ:

فغَدَتْ كِلا الفَرْجَيْنِ تَحسِبُ أنّه ... مَـوْلىٰ المَخافَـةِ خَلْفَهـا وأمَامَهـا

قوله: (وقُرئَ «الغُرُور» بالضَّمِّ) قال ابن جِنِّي: قرأها سِماك بن حَرب، وهو كقوله: وغرّكم بالله الاغْترار، وتقديره علىٰ حَذْفِ المُضافِ، أي: وغرَّكم بالله سَلامة الاغْترار، ومعناه: سلامَتكم منه [مع] اغْتِرارِكم[1].

قوله: (فَغَدَتْ كلا الفَرْجَيْنِ) البيت[2]، يَصِفُ بقرةً وحشيةً نَفَرتْ من صوتِ الصَّائد، ولمْ تَقِفْ لتَنْظُرَ أنَّ قاصِدَهَا خلفَها أمْ أمَامَها، فَغَدَت فَزِعةً مَذعُورةً لا تعرفُ مَنْجَاها من مَهْلِكِها، الفَرْجين: الجانبين وهو الخَلْفُ والقُدّام، أي: غَدتْ علىٰ حالةٍ كِلا جانبيـها مَخُوف، وقيل: الفَـرْجُ: الثَّغر وموضِع الـمَخافَةِ. وقيل: الفَـرْجُ ما بَينَ قوائِم الدَّوابِّ، فَما بين اليَدينِ فَـرْج، وما بين الرِّجْلَين: فَـرْج، أي: تَحسِبُ كُلَّ فَرْجٍ مِنْ فَرْجَيْها أولىٰ المَخافَة، أي: مَوضِعَ

---

(١) «المحتسب» (٢: ٣١١-٣١٢)، و«مع» زيادة منه.

(٢) البيت للشاعر الكبير لبيد بن ربيعة في مُعلَّقته المشهورة، انظر: «ديوان لبيد» ص٣١١.

وحقيقة ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾: مَحْرَاكُم ومَقْمنُكُم. أي: مَكَانُكم الّذي يُقال فيهِ: هو أولىٰ بِكم، كما قيل: هو مَئِنَّة لِلكرم، أي مكانٌ؛ لقولِ القائلِ: إنَّه لكريمٌ. ويجوزُ أن يُرادَ: هي ناصِرُكم، أي لا نَاصِرَ لكُمْ غيرُها. والمرادُ: نفيُ النَّاصِر علىٰ البتاتِ. ونحوه قولُهم: أصيبَ فلانٌ بكذا فاستَنْصَر الجَزَعَ. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾، وقيل: تتولاكم كما تولَّيتُم في الدُّنيا أعمالَ أهلِ النَّارِ.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ١٦]

الـمَخافَةِ، ومعنىٰ مَوْلَىٰ: أَوْلَى، والضَّمِيرُ الذي هو اسْمُ «أنَّ» عائدٌ إلىٰ «كِلا» لأنَّهُ مفردُ اللَّفظِ، كقوله تعالىٰ: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: ٣٣]، و«مَولىٰ الـمَخافَةِ» خبرُ «إن»، و«خَلْفَها وأَمَامَها» خَبرانِ لمبتدإٍ محذوفٍ، ويجوز أن يكون تفسيراً لكلا الفَرْجين، أو بَدلاً مِنه، وتَقْديرُه: فغَدَت كلا الفَرْجَين خَلفَهَا وأَمَامَها، تحسب أنَّها مَولىٰ المخَافَةِ. من كلام الزَّوْزَني.

قوله: (ومَقْمَنُكُم) من القَمين: الجَدِير.

قوله: (كَما قِيلَ: هو مَئِنَّة الكِرام) أي: «موْلى» مَفْعَل من أَوْلىٰ، كما أنَّ «مَئنةً» مَفْعَلةً مِنْ «إنَّ» التي للتَّحْقِيق، غَيْرَ مُشتقَّةٍ مِنْ لَفْظِها؛ لأنَّ الحُروفَ لَا يُشتقُّ منها، وإنَّما ضُمِّنَتْ حُروفها دَلالةً علىٰ أنَّ معْنَاهَا فِيهَا[1]، وكما يُقَال: «مَئِنة» موضع «إنَّ»، يقال فيه: إنَّ التَّحقِيقية، كذلك معنى ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾: مكانُكم الذي يُقال فيه: هو أَولىٰ بِكُم، وقوله: «مَئنَّةُ الكَرمِ» كنايةٌ رمزيةٌ، نحوُ قولِهم: الكرمُ بين بُرْدَيه، والمجْدُ بين ثَوْبَيه.

قوله: (فَاسْتَنْصَر الجَزَعَ) أي: طَلَبَ النَّصر، ولمْ يَجدْ سِوَى الجزَع، والجَزَعُ ليسَ ينصُر، فإذن لا نصَر لَهُم البَتَّة.

---

(١) انظر مع ما سبق: «الفائق في غريب الحديث» (١: ٦٣) (الهمزة مع النون).

﴿أَلَمۡ يَأۡنِ﴾ من: أَنَىٰ الأمرُ يأنِي، إذا جاء إِنَاهُ، أي: وقْتُه. وقُرِئَ: (أَلم يَئِنْ) من: آنَ يئينُ، بمعنىٰ: أَنىٰ يأني، و(أَلـمّا يأن)، قيل: كانوا مُجدِبين بمكةِ، فلمّا هاجروا أصابُوا الرِّزقَ والنِّعمة ففتَروا عمّا كانوا عليه، فنزلت.

وعن ابن مسعود: ما كانَ بينَ إسلامِنا وبين أنْ عُوتِـبتا بهذِهِ الآية إلا أربعُ سنين. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ الله استبْطَأَ قُلوبَ المؤمنينِ فعاتَبهم علىٰ رأسِ ثلاثَ عشرةَ من نزولِ القرآن. وعن الحسنِ رضي الله عنه: أما والله لقد استبطَأَهُم **وهم يقرؤون من القرآنِ أقلَّ مما تقرؤون.** فانظُروا في طولِ ما قرأتُم منه وما ظَهر فِيكُم من الفِسْقِ.

قوله: (و«أَلـمّا يأنِ») قال ابن جِنِّي: وهي قِراءةُ الحسنِ، وقال: أصلُ لَمَّا: لَمْ، ثُمَّ زِيدتْ عَليها «ما» فَصارَتْ نفيًا لقولِه: قَدْ كَان كَذا، و«لم» نفيُ فعلِ المؤكَّد، تقول: قامَ زيدٌ، فيقولُ المُجيبُ بالنَّفي: لـمْ يَقُمْ، فإنْ قَال: قَدْ قَامَ، قلتَ: لـمَّا يَقُم، لـمَّا زادَ في الإثباتِ «قد»، زادَ في النَّفي «ما»، إلّا أنَّهم لـمَّا رَكَّبُوا «لـم» مَعَ «ما» حدَثَ معها معنًىٰ ولفظ.

أمَّا المَعْنىٰ فإنَّها صارَت في بعضِ المواضِع ظَرْفًا، فقالوا: لَمَّا قُمْتَ قامَ زيد، أي: وَقْتَ قيامك قامَ زيد، وأمَّا اللَّفظُ فإنَّه جازَ أنْ تَقِفَ عليها دُونَ مَجْزُومِها كقولك: جِئتُ ولـمّا، أي ولـما تَجِئْ، ولو قُلتَ: جئتَ ولَـمْ، لَـمْ يَـجُزْ[1].

قوله: (وهُمْ يَقرؤون مِن القُرآنِ أقلَّ ممَّا تقرؤون) يعني: أنّ الله تَعالى استبطأَ خُشوعَ قُلوبِ الصَّحابةِ رضوانُ الله عليهم وعَاتَبهم على عَدمِ تأثيرِ القرآنِ فيهَا سريعًا، معَ ما كانوا عَليهِ مِن الخُشوعِ، وكانت قِراءتُهم أقلَّ من قراءَتكُم، فتفكَّروا أنتُم في حالِكم، وما أنتُم عليه من الفِسقِ مع كَثرةِ القِراءةِ! فهو شهادةٌ بأنَّ قُلوبَهم كالحِجارةِ أو أشدُّ قسوة.

---

(١) «المحتسب» (٢: ٣١٢).

وعن أبي بكر رضي الله عنه أنَّ هذه الآية قُرئت بين يديه وعنده قومٌ من أهل اليمامةِ، فبكوا بكاءً شديدًا، فنظر إليهم فقال: **هكذا كنّا حتَّىٰ قَست القُلوب**.

وقُرِئَ: (نُـزِّلَ) و(نَـزَّلَ) و(أنزلَ). ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ عطفٌ علىٰ ﴿تَخْشَعَ﴾، وقُرِئَ بالتَّاء علىٰ الالتفاتِ، ويجوزُ أن يكونَ نهيًا لهم عن مماثلةِ أهلِ الكتابِ في قسوةِ القلوبِ بعد أنْ وُبِّخُوا، وذلك أنّ بني إسرائيلَ كان الحقُّ يحولُ بينهم وبينَ شهواتِهم، وإذا سمعوا التَّوراةَ والإنجيلَ خشَعوا لله ورقَّتْ قُلوبُهم، فلمَّا طالَ عليهمُ الزَّمانُ غلبهُم الجَفاءُ والقَسْوةُ، واختلفوا وأَحْدثُوا ما أَحْدَثُوا من التَّحريفِ وغيره.

فإن قلتَ: ما معنىٰ: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾؟

قلت: يجوز أن يُراد بالذِّكر وبما نَزل من الحَقِّ: القرآنُ؛ لأنَّه جامعٌ للأمرينِ: للذكر والموعظة، وأنَّه حقٌّ نازلٌ من السماءِ، **وأن يُـراد خُشوعُها** إذا ذُكِـر الله وإذا تُلِي القرآن

قوله: (**هَكذا كُنَّا حتىٰ قَسَت القُلوبُ**) قال شيخُنا شيخُ الإسلامِ أبو حَفْصٍ السُّهرَوَرْدِي قدَّس الله سِرَّه: معناه: تَصلَّبت وأَدْمنَتْ سماعَ القُرآن، وألِفتَ أنوارَه فما استغربته حتَّىٰ تتغيَّر كما تَغيَّر هذا السَّامِع.

قـوله: (وقُـرِئ: «نُـزِّل») نافِـعٌ وحَفْص: ﴿وَمَا نَزَلَ﴾ مـخفَّفًا معـروفـاً، والباقـون: مُشدَّدًا[١].

قوله: (**وأنْ يُراد خُشوعها**) فعلىٰ هَذا ذِكرُ الله غيرُ القُرآن، فإنَّ كلَّ واحدٍ من ذكرِ الله وتلاوةِ القرآنِ سَببٌ لخُشوعِ القَلْب، كأنَّه قِيلَ: أَلم يَـقْـرُب للمُؤْمِنينَ أنْ تَـخْشَع قُلوبُهم لهذَينِ المُوجِبين فإنَّه لا مَزيدَ عَليْهِما، وعلىٰ الأوَّلِ هُو من بابِ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ [البقرة: ٥٣] يعني: الجامِعَ بين كونِه كتابًا مُنْزلاً وفُرقَانًا يَـفْرُقُ بين الحَقِّ والبَـاطِلِ، يعني التَّوراةِ كقولِك: رأيتُ الغيثَ والـلَّيْثَ، أي: الـرَّجُلَ الـجَامِعَ بين هَذين الوَصْفَين.

---

(١) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٣.

....

وقلت: ويمكِنُ أنْ يُحمَل الذِّكرُ علىٰ القُرآنِ، وما نَزَلَ من الحقِّ علىٰ نُزولِ السَّكِينَةِ معه، أي الوَارِداتِ الإلهيَّة.

ويعضُدُه ما رُوِّينا عن البُخَارِيِّ ومُسْلمٍ والتِّرْمذيِّ عن البراء: كانَ رجلٌ يقرأ سُورةَ الكَهْفِ وعِندَهُ فرسٌ مَربُوطةٌ بشَطْنَين، فغَشِيَتهُ سَحَابةٌ فجعلتْ تَدنُو، وجَعَل فرسُهُ يَنفرُ مِنْها، فلمَّا أصبحَ أتىٰ النَّبيَّ ﷺ فذكَر له ذلك، فقال: «تِلك السَّكينة تنزِلُ للقُرآنِ»[1]. وفي روايةٍ: «اقرأْ فلانُ فإنَّها السَّكينةُ تَنزِلُ عِندَ القُرآنِ» أو «لِلقُرآن».

وروىٰ السُّلَمِي عن أحمد بن الحَوارِي، قال: بينما أنَا في بعضِ طُرقَاتِ البَصْرةِ إذ سمعت صَعْقَةً، فأقْبَلتُ نحوَها فرأيتُ رجلاً قَدْ خرّ مغشِيّاً عليه، فقلتُ: مَا هذا؟ فقالوا: كان رجُلاً حاضِرَ القلبِ، فسمع آيةً من كتاب الله فخرَّ مغشياً عليه، فقلتُ: ما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فأفاق الرَّجلُ عند سماع كلامنا، فأنشأ يقولُ:

أمــا آنَ للهِجْــرانِ أن يَتَــصرَّما ... وللغُــصْنِ غُــصْنِ البــانِ أن يَتَبَسَّما

وللعاشِقِ الصَّبِّ الذي ذاب وانْحنىٰ ... ألم يــأنِ أن يُبكــىٰ عليــه ويُرْحــما

كتبــتُ بــماءِ الــشَّوق بــينَ جَــوانِحي ... كتابًا حَكى نَقْشَ الوَشِيِّ الــمُنَمْنَما[2]

ثُمَّ قال: أشكال أشكال أشكال، فخرَّ مَغْشيّاً عليه، فحرَّكناه فإذا هو ميِّت.

---

(١) البخاري (٣٦١٤)، ومسلم (٧٩٥)، والترمذي (٢٨٨٥).

(٢) السُّلمي في «حقائق التفسير» (٢: ٣٠٩) وروى هذه القصة الثعلبي أيضاً في كتاب «قتلى القرآن»: ص٩٥- ٩٦ عن شيخه السلمي، وانظر القصة عند: السّراج في «مصارع العشاق» (١: ١٠٩) لكن أسندها وعزاها لعبد الرحمن الصُّوفي!!.

كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأنفال: ٢] . أراد بالأمدِ: الأجلَ، كقوله:

إذا انتَهىٰ أَمَدُهْ

وقُرِئ: (الأمدُّ)، أي: الوقتُ الأطولِ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن دِينِهم رافضونَ لِـمَا في الكِتابين.

[﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ١٧]

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ قيل: **هذا تمثيلٌ لأثرِ الذِّكرِ في القُلوب، وأنَّه يُحيِيها كما يُحيي الغيثُ الأرضَ.**

[﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ ١٨]

﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ المُتصدِّقين. وقُرِئ علىٰ الأصل، و(الـمُصَدِّقِين)؛ من: صدَّقَ، وهمُ الذين صدَّقوا اللهَ ورسولَه، يعني المؤمنين.

فإن قلتَ: علامَ عطف قولَه ﴿وَأَقْرَضُوا۟﴾؟

قوله: (**إذا انتهى أمده**)، أوله:

كُلّ حيٍّ مُستكمِلٌ مُدَّةَ العُمْـــــرِ وَمُـودٍ إذا انتهـىٰ أمَـدُهْ

قوله: مُودٍ من أودى إذا مات، مضى شرحه في البقرة.

قوله: (**هذا تمثيلٌ لأثرِ الذِّكرِ في القُلوب، وأنَّه يُحيِيها كما يُحيِي الغيثُ الأرضَ**) يعني: لَمَّا استبْطأ خُشُوعَ قُلوبِ المُؤمنين عِندَ سماعِ القُرآنِ، أرْشَدهم إلى إزَالةِ تِلكَ القَسوةِ التي مَنَعتْ القلبَ عن تأثيرِ الذِّكر فيه، وإنزالِ تلك السَّكِينةِ عليه باللَّجأ إلىٰ الله واسْتِنزالِ ما يستَعِدُّون به لقَبولِ تلك المواهبَ الرَّحمانيَّةِ، فأعلمَهم أنَّه وَحدَه هو القَادرُ علىٰ ذلك، كمَا أنه وحدَه يُحيي الأرضَ بعد مَوتِها، وفيه إشارةٌ إلىٰ نفي الحَولِ والقُوةِ مِن الغَيْر.

قلتُ: علىٰ معنىٰ الفعل في ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾؛ لأنّ اللام بمعنىٰ الذين، واسم الفاعل بمعنىٰ اصَّدَّقوا، كأنه قيل: إنَّ الذينَ اصَّدَّقُوا وأقْرَضُوا.

والقَرضُ الحسنُ: أنْ يتصدَّق من الطيِّبِ عن طِيبةِ النَّفسِ وصِحَّةِ النِّيَّةِ علىٰ المُستحقِّ للصَّدَقةِ. وقُرِئَ: (يُضَعِّف) و(يضَاعِف)، بكسرِ العين، أي: يُضاعِفُ اللهُ.

قوله: (كأنّه قِيلَ:إنَّ الَّذِين اصَّدَّقُوا وأَقْرَضُوا) فإن قيل: ما فائدةُ العُدول؟ فهلّا قِيل: إنَّ المُصَدِّقِينَ والمُقْرِضِين؟ قلتُ: فائدتهُ تصويرُ معنىٰ التَّصدُّق، ومَزِيدُ تَقريرِ التَّمثِيل بالإقراضِ.

قال صاحب «التقريب»: وفي عطف «أقرضُوا» علىٰ صِلة اللام نظر، لِلُزوم الفَصْل بين أجزاءِ الصِّلةِ بأجنبي، وهو المُصدِّقات، فإمَّا أنْ يُحمل علىٰ المعنىٰ، إذ التَّقديرُ: إنّ النَّاسَ المُصَّدِّقِينَ والمُصَّدِّقاتِ وأقرضُوا، أوْ لا يُجعل عَطْفًا، بل اعْتِراضًا، فيجوزُ الفَصْلُ به كما بَين الموصُولِ والصِّلةِ في مثل:

ذاك الـذي وأبيـك يعـرفُ مالكًـا والحقُّ يـدفَع تُرَّهـات الباطِـل

وقِيلَ: هو من بابِ كُل رجلٍ وصَنْعته، أي: إنَّ المُصَّدِّقين مَع المُصَّدِّقاتِ في الثَّوابِ والمنْزِلة، أو يُقدّر خبر أي: إنَّ المُصدِّقِين والمُصَّدِّقاتِ يُفلِحُون فيقعُ بعدَ تمامِ الجُملة. وأقرضوا في الوَجهين ليسَ عَطفًا علىٰ الصِّلةِ، بل مُستأنفٌ، ويُضَاعَفُ في الوجْهين صفةُ ﴿قَرْضًا﴾ أو استئنافٌ، وكأنَّ اسْتِقَامةَ المعْنَىٰ والإعراب علىٰ حَذْفِ الموصُولِ بتقديرِ: والَّذينَ أقْرَضُوا، إن جُوِّزَ كما هُو مذهبُ الكُوفيين.

قلت: الوجهُ القويُّ هو الاعتراضُ علىٰ سبيلِ الاسْتِطْراد، فإنَّ المُصَّدِّقَاتِ لَو لم تُذكرْ لكانَتْ مُندَرجةً تحتَ المُصَّدِّقين علىٰ سَبيلِ التَّغْلِيب، كما أنَّ قَولَه: «وأقْرَضُوا اللهَ» عامٌّ في الرِّجالِ والنِّساء، فَذَكرَ المُصَّدِّقَاتِ لمزيدِ التَّقريرِ كما في قولِه تعالىٰ: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

قوله: (وقُرِئ: «يُضعِّف») ابن كثيرٍ وابن عامرٍ[1]، و«يُضاعِف» بكسرِ العين: شاذٌّ.

---

(١) التيسير في القراءات السبع: ص ٦٥.

[﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ ١٩]

يُريدُ أنّ المؤمنينَ بالله ورسُلِه **هُم عند الله بمنزلةِ الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ**؛ وهم الذي سَبَقوا إلىٰ التَّصديقِ واستُشهِدوا في سبيلِ الله ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: مثلُ أجرِ الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ، ومثلُ نورِهم.

فإن قلتَ: كيف يُسوِّي بينهم في الأجرِ ولا بدَّ من التفاوتِ؟ قلتُ: **المعنىٰ أنّ الله يُعطي المؤمنين أجْرَهم** ويُضاعِفُه لهم بِفَضلِه، حتَّىٰ يُساوي أجرُهم مع أضعافِه أجرَ أولئكَ. ويجوزُ أن يكونَ ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مبتدأً، و﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ خبرَه.

قوله: (**هُمْ عندَ الله بمنزِلةِ الصِّدِّيقين والشُّهداءِ**) ثُمَّ قوله: «لهم مثلُ أجرِ المُصَدِّقِين»(1)، مُؤذنٌ بأنّه لا يجوز حَمل الصِّدِّيقين علىٰ المُؤمنينَ، فيجبُ الحملُ علىٰ التَّشبيه، نحوُ: زيدٌ أسدٌ، وذلك أنَّ اسمَ الإشارةِ دالٌّ علىٰ أن ما بعدَه جَديرٌ بمن سبَق ذكْرُه، لاكتسابِه الخِصَالَ التي اسْتَحقَّ بها ذلك، ولا ارْتِيابَ أنَّ مَنْ آمنَ بالله ورسولِه لا ينالُ دَرجةَ الصِّدِّيقينَ الذينَ درجَتهُم دونَ درجةِ الأنبياءِ، وفوقَ درجةِ الخَواصّ، ولا يُقال: درجةُ من مات حَتْفَ أنفِه دَرجةُ من استُشهِد في سبيلِ الله في صفِّ الكُفّارِ، إلا بالإلحاق، وأنْ يُقال: هُم مِثْلُهم وأجْرُهم مثلُ أجْرِهم، لا سيما وقد وسَّط بين المبتدأ والخبر ضَمِيرَ الفَصْل المُفيدَ لحصْرِ المُسندِ علىٰ المُسندِ إليهِ، ويجوزُ قطعُ «الشُّهداء» عن هذا الحُكم، لاستقَامتِه مع من اقْتَرن بِهِ أن يكون جملة معهُ، وإليه أشار بقوله: ويجُوز أن يكونَ «الشهداءُ» مبتدأً.

وأما سؤالُه: كيف يُسوِّي بينهم في الأجر ولا بد من التَّفاوُت؟ فليس بذاك، لأنّا إذا قُلنا: إنَّ الكلامَ مَبنيٌّ علىٰ التَّشبيه والإلحاق للمُبالَغةِ ترغِيبًا، عُلِم عدم المُساواة.

قوله: (المَعنىٰ: أنَّ الله يُعطي المؤمنينَ أجْرَهُم) وخُلاصتُه: أنَّ لِكلِّ مُكلَّف أجرًا يَستحقّه

---

(1) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «الصديقين».

....

بسببِ العَمَل، وله زيادةٌ عليه وفضل، فإذا اعتُبر جزاءُ المؤمنين مع تلك الزِّيادَةِ يُساوي أجرَ الصِّدِّيقين وَحْدَه، فينبغي لهم الفَضْلُ عليهم بما يُزادُ على الجزاءِ، بناءً علىٰ قاعدةِ الاعتِزال، هذا لعمري تكلُّف، وركوبٌ علىٰ التَّعَسُّف.

ويُمكنُ أنْ يُقال: إنّ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ مقابل لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، وآياتُنا جمعٌ مُضافٌ يفيدُ الاستغراق، فيتناوَلُ جميعَ آيات الله المختلفةِ الأنواع، ومُكذِّبها يكونُ مُفرِطًا في الكَذْب لكثرةِ ما كذَّب بِه، فينبغي أنْ يُفسَّر ما يُقابله من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ بالشُّمولِ والاسْتِغرَاق، ولِذلكَ جَمعَ الرُّسُلَ لأنَّ مَنْ آمنَ بالله، وبجميع ما يَجبُ أنْ يُؤمن بِه من صِفَاتِه وأفْعالِه، وبجميع ما يضاف ويُنسبُ إليهم، يَكُون مُفْرِطًا في الصِّدْق لكثرةِ ما صدَّقَ به، فحِينئذٍ يَصحُّ حملُ الصِّدِّيقينَ علىٰ أولئكَ، ويقعُ ضميرُ الفَصْلِ مَوْقِعَه تَعْريضًا بالمُكذِّبين، ويكونُ المرادُ بالشُّهداء: القَائمَ بالشَّهادةِ، كما في قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وأما قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ فقد وقَع مُقَابلاً لقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ فيجبُ أنْ يُقدَّر في كلٍّ من المُتقابِلَينِ ما هو مَذكورٌ في الآخر، ويؤيِّد هذا التَّأويل ما رواه الواحديُّ[1]: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ قال مجاهدٌ: كُلُّ من آمنَ بالله ورُسلِه فهو صِدِّيق، ثُمَّ قرأَ هذه الآية. وقال المقاتلانِ: هم الذينَ لم يَشُكُّوا في الرُّسُلِ حين أخبَرُوهم ولم يُكذِّبوهُم ساعة، وقال مسروقٌ: هذه الآيةُ للشُّهداءِ خاصَّة، وهم الأنبياءُ الذين يشهدون للأُممِ وعَلَيْهم، وهو قولُ مقاتلِ بنِ حيان[2] واختيارُ الفرَّاءِ[3] والزَّجَّاجِ[4].

---

(١) «الوسيط» (٤: ٢٥١).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٥: ٣١).

(٣) «معاني القرآن» للفراء (٣: ١٣٥).

(٤) «معاني القرآن» للزجاج (٥: ١٢٦).

[﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ ٢٠]

أراد أنَّ الدُّنيا ليست إلا مُحقَّراتٍ من الأمورِ؛ وهي اللَّعبُ واللَّهوُ والزِّينةُ والتَّفاخُر والتَّكاثُر. وأمَّا الآخرةُ فما هي إلا أمورٌ عظامٌ، وهي: العذابُ الشَّديدُ والمغفرةُ ورِضوان الله. وشبَّه حالَ الدُّنيا وسُرعةَ تقضِّيها مع قلةِ جَدواهَا بنباتٍ أنبته الغيثُ فاستَوىٰ واكتَهل وأُعجِبَ به الكُفارُ الجَاحِدون لنِعمةِ الله فيما رَزَقهُم من الغيثِ والنباتِ، فبعثَ عليه العَاهَة فهاجَ واصفرَّ وصارَ حطامًا؛ عقوبةً لهم علىٰ جُحُودِهم، كما فُعِل بأصحابِ الجنَّة، وصَاحِبِ الجنَّتَين. وقيل: ﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾ الزُّرَّاعُ. وقرئ: (مُصْفَارًّا).

[﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ ٢١]

﴿سَابِقُوٓاْ﴾ سارِعوا مُسارعةَ المُسابِقينَ لأقرانِهم في المِضمارِ، إلىٰ جنَّةٍ ﴿عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

قوله: (واكْتَهل) وقوي. **الأساس**: واكْتهل النَّباتُ، تمَّ طُوله وتكهَّل، ونبات كَهْل.

قوله: (كَما فُعِل بأصحابِ الجنَّة) يعني: في سُورةِ ﴿نٓ﴾. «وصاحِبُ الجنَّتَينِ»، يعني: في سُورةِ الكَهف، وقيل: في سبأ.

قوله: (في المِضمارِ)، **الجَوْهَري**: تَضْمِير الفَرَس: أنْ تَعْلِفَه حتَّىٰ يَسْمَن، ثم تردَّه إلىٰ القُوت، وذلكَ في أربعينَ يومًا، وهذه المُدَّة تُسمَّىٰ بالمِضمارِ، والمَوضِع الذي يُضَمَّر فيه الخيلُ أيضًا. وفي «مقدمة الأدب»: المِضمارُ والحَلَبة: موضِعُ طِراد الخيل.

قال السُّدِّي: كعرض سبع السَّموات وسبعِ الأرْضِين، وذُكِر العرضُ دونَ الطُّولِ؛ لأنَّ كلَّ ما لَهُ عرضٌ وطُولٌ، فإنّ عرضَه أقلُّ من طُولِه، فإذا وُصِفَ عَرضُه بالبَسطَةِ: عُرِفَ أنّ طولَه أبسطُ وأمدُّ. ويجوزُ أن يُراد بالعَرضِ: البَسطةَ، كقوله تعالىٰ: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]. لمّا حقَّر الدُّنيا وصَغَّر أمرَها وعَظَّم أمرَ الآخرةِ: بعث عبادَه علىٰ المُسارَعةِ إلىٰ نيلِ مَا وعَد من ذلك: وهي المغفرةُ المُنجيةُ من العذابِ الشَّديدِ، والفوزُ بدخولِ الجنَّةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموعود من المغفرةِ والجنَّة ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾: عطاؤه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ وهم المُؤمنون.

[﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ٢٢-٢٤]

المصيبةُ في الأرضِ: نحو الجَدْبِ وآفاتِ الزُّروعِ والثِّمارِ. وفي الأنفسِ: نحُو الأدواءِ والموتِ ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ في اللَّوحِ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ يعني الأنفس أو المصائب ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إنّ تقديرَ ذلك وإثباتَه في كتاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وإن كان عَسيرًا علىٰ العبادِ، ثُمَّ علَّل ذلك وبيَّن الحكمةَ فيه فقال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ ... وَلَا تَفْرَحُوا۟﴾ يعني: **أنكم إذا علمْتُم أنّ كلَّ شيءٍ مُقدَّرٌ مكتوبٌ عندَ الله قلَّ أَساكُم علىٰ الفائتِ وفرحَكم علىٰ الآتي؛**

قوله: (**يَعني: أنكم إذا عَلِمْتُم أنَّ كُلَّ شيءٍ مُقدَّرٌ مَكْتوبٌ عند الله، قَلَّ أساكُم علىٰ الفَائتِ وفَرحَكُم علىٰ الآتِي**) رُوِّينا عن التِّرمِذيِّ وابنِ ماجه عن أبي ذَرٍّ أن رسولَ الله ﷺ قال: «ليستِ الزَّهادةُ في الدُّنيا بتحريمِ الحَلال، ولا إضاعةِ المال، ولكنَّ الزُّهدَ أنْ تكونَ بما في يدِ الله أوثقَ منك بما في يَدَيْك، وأن تكونَ في ثوابِ المُصيبةِ إذا أُصبْتَ بها أرغبَ منك فِيها

لأنّ من عَلِم أنَّ ما عندَه مفقودٌ لا محالةَ: لم يتفاقَم جَزعهُ عند فقدِه، لأنَّه وطَّن نفسَه على ذلك، وكذلك من عَلمَ أنَّ بعضَ الخيرِ واصلٌ إليهِ، وأنَّ وصولَه لا يفوتُه بحالٍ: لم يَعظُم فرحُه عندَ نيلِه.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ لأنّ من فَرِحَ بحظٍّ من الدُّنيا وعَظُم في نفسِه: اختالَ وافتخرَ به وتكبَّر على النَّاس. قُرِئَ: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ و(أتاكم)، من الإيتاء والإتيان. وفي قراءةِ ابن مَسعودٍ: (بما أوتيتم).

لو أنَّها بقيت لك»[(١)]. ورُوِيَ: لأنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

قوله: (وافْتخرَ بهِ وتكبَّر علىٰ النَّاسِ)، الراغِب: الفَخْرُ: المباهَاة في الأشياءِ الخَارجَة عن الإنسان، كالمالِ والجاه، ويقال له: الفَخْر، ورجل فَاخِرٌ وفَخُورٌ وفِخِّير على التَّكثِير، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨][(٢)].

وقيل: المُختالُ أخصُّ من الفَخور، لأنَّه في الفِعْل، والفَخُور في العقل وغيره.

الرَّاغب: الفخَّار: الجِرار، وذلك لصوتِه إذا نقَر، كأنما تصوَّر بصورة من تكثير التَّفاخر، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤][(٣)] فظهر من هذا أن التَّفاخر بالقول لا بالفعل[(٤)].

قوله: (قُرِئَ: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ و«أتاكُم») أبو عَمرو: بالقَصْرِ، والباقُون: بالمدّ[(٥)].

---

(١) التِّرمذي (٢٣٤٠) وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعَمرو بن واقد منكر الحديث. ورواه ابن ماجه في «السنن» رقم (٤١٠٠).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٦٢٧.

(٣) المصدر السابق ص ٦٢٧.

(٤) من قوله: «وقيل: المختال» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف) وأثبته من (ط).

(٥) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٣.

فإن قلتَ: فلا أحدَ يملكُ نفسَه عند مَضَرةٍ تنزلُ به، ولا عِند منفعةٍ ينالُها أن لا يحزنَ ولا يفرح.

قلتُ: المراد: الحزنُ المخرجُ إلىٰ ما يُذهِل صاحبَه عن الصَّبرِ والتَّسليمِ لأمرِ الله، ورجاءِ ثوابِ الصَّابرينَ، والفرحُ المُطْغِي المُلْهي عن الشُّكرِ؛ فأمَّا الحزنُ الذي لا يكادُ الإنسان يخلُو منه، مع الاستسلامِ والسُّرورِ بنعمةِ الله والاعتداد بها مع الشُّكر، فلا بأس بهما.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿كُلَّ مُخۡتَالٍ فَخُورٍ﴾ كأنَّه قال: لا يُحبُّ الذين يَبْخلُون، يريد: الذين يَفرحُون الفَرحَ المُطغِي إذا رُزِقُوا مالًا وحظًّا من الدُّنيا فلحُبِّهم له وعزَّتِه عندهم وعِظَمِه في عيُونِهم: يَزْوُونَه عن حقوقِ الله ويبخَلونَ به، ولا يكفِيهم أنَّهم بخِلُوا حتىٰ يحمِلُوا النَّاس علىٰ البُخل ويُرغِّبُوهم في الإمساكِ ويزيِّنُوه لهم، وذلك كلُّه نتيجةُ فرحِهم به، وبَطرِهم عندَ إصابتِه، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن أوامرِ الله ونواهيه، ولم ينْتَهِ عمَّا نُهي عنهُ من الأسىٰ علىٰ الفائِت، والفرحِ بالآتي: فإنّ اللهَ غنيٌّ عنه. وقُرِئ: (بالبَخَل)، وقرأ نافعٌ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ ٱلۡغَنِيُّ﴾، وهو في مصاحِفِ أهلِ المدينة والشَّام كذلك.

[﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ ٢٥]

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾ يعني الملائكةَ إلىٰ الأنبياءِ، ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالحُججِ والمُعجزاتِ ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: الوحيَ، ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾.

قوله: (﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ بدل من قوله: ﴿كُلَّ مُخۡتَالٍ فَخُورٍ﴾) أي: بدل الكُلِّ، لأنَّهما واقعان تذييلاً لقوله: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ لأنَّ من شأن الفَرحِ أن يكون مُختالاً فخوراً، ولذلك فسَّر ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ بـ«الذين يَفرحون الفرح المُطغي»، وقال بعده: «وذلك كلّه نتيجة فرحهم به وبطَرهم عند إصابته».

رُوي أنّ جبريلَ عليه السَّلامُ نزل بالميزانِ فدفَعه إلىٰ نوح وقال: مُرْ قومَك يَزِنُوا به، ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ قيل: نزل آدمُ من الجنَّةِ ومعه خمسةُ أشياءٍ من حديدٍ: السَّندانُ، والكَلْبَتَانِ، والمِيْقَعةُ، والمِطْرقَةُ، والإبرةُ. ورُوِيَ: ومعه الـمَرُّ والمِسْحَاة. وعن النبي ﷺ: «أنَّ اللهَ تَعالىٰ أنزَل أربعَ بَركاتٍ مِنَ السَّماءِ إلىٰ الأرضِ: أنزلَ الحَدِيدَ، والنارَ، والماءَ، والمِلحَ».

وعن الحسنِ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾: خَلَقناه، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الزمر: ٦٠]، **وذلك أنّ أوَامِرَه تنزلُ من السَّماء وقَضاياهُ وأحكامَه.**

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وهو القِتالُ به ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ في مَصالِحِهم ومَعايِشِهم وصَنائِعِهم، فما مِن صِناعةٍ إلا والحديدُ آلةٌ فيها؛ أو ما يُعملُ بالحديدِ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ **باستعمالِ السُّيوفِ** والرِّماحِ وسائِرِ السِّلاحِ في مجاهدةِ أعداءِ الدِّينِ، .....

قوله: (**والمِيْقَعة**)، **النهاية:** في حديث ابن عبَّاس: نزلَ مع آدمَ عليه السَّلام المِيقَعةُ والسندان والكَلْبَتان، المِيقَعة: المِطْرَقَة التي يُضربُ بها الحديدُ وغيره، والجمع المَواقِع، والميمُ زائدة، والياءُ بدلٌ من الواوِ قُلبت لكسرةِ الميم.

وقيل: الـمَرُّ: البَيْل الذي يعتمل به، وفي البَيْل قال: البَيْل وإن جُمع أبيالاً وبَيلة، فإنَّه ليس بعربي، وعربيُّه المر، وقيل: يراد بالمر الحبل شامل، وقيل: نزل آدم بالباسنة، وهي اسم جامع لهذه الأشياء.

قوله: (**وذَلك أنَّ أوامِرَه تَنْزِل من السماء وقَضاياه وأحكامَه**) هذا تعليلٌ لِصحَّةِ استعمال «أنزلنا» في المعاني الثَّلاثة، والمرادُ بالأوامر: الخطابُ المُشتمل عليها الكتاب، وبالقَضايا والأحْكَام ما هي مَنُوطَةٌ بالمِيزان واستِعمالِ الحديد.

قوله: (﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ **باستِعمالِ السُّيوفِ**)، ظاهره مشعِرٌ بأنَّ «لِيَعلم» عَطفٌ علىٰ عِلَّةٍ محذُوفِه متعلِّقةٍ بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾أي: أنزلناه لِيَسْتعمله المُكلَّفُ في الجهادِ في سبيلِ الله، ونصرةِ دينِه، وليعلمَ اللهُ من يَنصرُه، قال في قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] أي: «فعلنا ذلك ليكونَ كَيْتَ وكَيْتَ، وليَعلَم».

....

قال الواحِديُّ: «ليَعلم» معطوفٌ على ﴿لِيَقُومَ﴾، أي: ليُعَاملوا بالعدل، وليَعلمَ اللهُ من ينصرَه، وذلك أنَّ الله تعالى أمرَ في الكتابِ الذي أنزلَ بنُصرَةِ دينِه ورُسلِه، فمن نَصرَ دينَه ورُسلَه عَلِمهُ ناصراً، ومن عَصَى عَلِمَهُ بخلاف ذلك[١].

ويمكنُ أن يُقال: أَصلُ الكلامِ: أنزلنا الكتابَ والميزانَ والحديدَ، لتُجاهِدوا مع الشَّيطانِ والنَّفسِ بإقامةِ حقوقِ الله من أداء عبادته، وامتثالِ أوامرَه وانتهاءِ نواهيَه، وحقوقِ العباد، باستعمالِ العدلِ والنَّصَفةِ مَعَهُم، وتُجاهدوا مع أعداءِ الدِّين باستعمالِ السُّيوفِ والرِّماح وسائِر السِّلاح، ليكونَ الدِّينُ كُلُّه لله، ويعلمَ اللهُ من ينْصُرَ دينَه ورُسلَه، وإنَّما تركَ ذكر عائدة «الكتاب» لاحتوائِه علىٰ ما لا نِهايةَ لَهُ، وكرَّر أنزَلنا، وذكرَ إحدىٰ خواصِّ الحديدِ، ثمَّ أجمل بقوله: منافعَ، ليُؤذِن بأنَّ تمْشِيةَ أمرِ الكتابِ والميزانِ متوقِّفةٌ عليه.

رُوِّينا عن التِّرمِذيِّ عن مُعاذ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «رأسُ الأمْرِ الإسلام، وعَمودُه الصَّلاة، وذُروةُ سنامِه الجهاد»[٢]. ولله درُّ العُتْبيِّ حيثُ قال: إنَّ الكتابَ قَانونُ الشَّريعةِ، ودستورُ الأحكام الدِّينيَّة، يتضمَّن الأحكامَ والحُدود، حُظِر فيه التَّباغِي والتَّظالُم، ودُفِعَ التَّعادِي والتَّخاصُم، ومِمَّا حُكم فيه من دفع التَّخاصُم والأمرُ بالتَّعادُل، وضْعُ آلةِ العَدلِ تنبيهًا بِهِ علىٰ موقِعِ فائدةِ العَدْلِ، وعائِدةِ السَّويَّة.

ثمَّ إنَّ من المعلوم أنَّ ذلك الكتابَ الجامعَ للأوامِر الإلهيةِ وذلكَ التعامل بالعَدْلِ والسَّويَّة، إنَّما يحفظُ النَّاس على اتِّباعهما، ويضْطَر العالَـمَ إلى إلزامِ أحكامها السَّيفُ الذي هو حُجَّةُ الله على من جَحَد وعَنَدَ ونَـزَع من صَفْقةِ الجماعةِ اليدَ، هذا هو الحديدُ الذي وصفه الله تعالى بالبأسِ الشَّديدِ، فجمعَ بالقولِ الوَجيزِ، معانيَ كثيرةَ الشُّعوبِ مُتدانيةِ الجيوب[٣].

---

(١) «الوسيط» (٤: ٢٥٤).

(٢) الترمذي (٢٦١٦) وانظر أحمد أيضاً في «المسند» (٢: ٣٢٦).

(٣) ذكر الشهاب الخفاجي في «حاشيته» على البيضاوي (٨: ١٦١) أن العتبي قال هذا في بداية «تاريخه». وانظر شرحه المسمى «الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي» (١: ٢٥-٢٨) لمن أراد التَّوسع، فإنه نفيسٌ.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ غائبًا عنهم، قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: ينصُرُونه ولا يُبْصِرونه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ غنيٌّ ـ بقُدرتِه وعِزَّتِه في إهلاكِ من يُريدُ هلاكَه ـ عنهم، وإنَّما كلَّفهم الجهادَ لينتفِعوا بِه، ويَصلوا بامتثالِ الأمرِ فيه إلىٰ الثَّوابِ.

[﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ٢٦]

﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ والوحي. وعن ابنِ عباسَ: الخطّ بالقَلمِ، يقالُ: كتبَ كتابًا وكتابة.

﴿فَمِنْهُم﴾ فمن الذُّريةِ أو مِنَ المُرسلِ إليهِمْ، وقد دلَّ عليهم ذكرُ الإرسالِ والمُرْسَلين. وهذا تفصيلٌ لِحالِهم، أي: فمنهمْ مُهتدٍ ومِنْهم فاسقٌ، والغلبةُ للفُسَّاقِ.

[﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ٢٧]

قرأ الحسن: (الأَنجيل) بفتح الهمزةِ، وأمرُه أهونُ من أمرِ ....

قوله: (عَنْهم) صلة «غنيّ»، والضميرُ راجعٌ إلى «من ينصُرُه»، يدلُّ عليه قولُه: «وإنّما كلَّفَهُم الجهادَ»، والباء في «بقدرتِه» نحو «الباءِ» في: كَتبتُ بالقلم.

قوله: (قرأ الحسنُ: «الأَنجيلَ» بفتحِ الهمزةِ) قال ابن جِنِّي: هذا لا نَظيرَ له، وهو من نَجلتُ الشَّيءَ إذا استخرجتَه، لأنَّه يَستخرَج حالَ الحلالِ من الحرام، كما قيل لنَظيرِه: «التوراة»، وهي فَوْعَلة، من: وَرَى الزَّنْد يَرِي، إذا أخرجَ النَّار، ومثلُهُ: الفُرقانُ، من: فَرَّق بين الشَّيئين.

وغَالبُ الظَّنِّ[1] أنّه ما قرأه إلا عن سماعٍ، وشُذوذه كما حَكىٰ بعضُهم في البِرطِيل: البَرطِيلَ، ونحوُهما ما حكاه أبو زيدٍ من قولِهم: السَّكِّينةُ بفتح السِّين وتشديد الكاف، وربما

---

(١) في «المحتسب»: «وغالب الظن وأحسنه به» أي: أحسنه بالحسن الذي قرأ هذه القراءة.

«البَرطِيلِ» و«السَّكِّينة» فيمن رواهما بفتح الفاء، لأنَّ الكلمةَ أعجميةٌ لا يلزم فيها حفظُ أبنيةِ العربِ. وقُرِئَ: (رآفَة) علىٰ: فعالَة، أي: وفَّقْناهُم للتَّراحُم والتَّعاطُفِ بينهم. ونحوُه في صفةِ أصحابِ رسول الله ﷺ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

والرَّهبانيَّةُ: تَرهُّبهُم في الجبالِ فارِّينَ من الفِتْنَةِ في الدِّينِ، مُخلِصينَ أنفُسَهم للعبادَةِ، وذلك أنَّ الجبَابِرة ظَهَرُوا علىٰ المؤمنينَ بعدَ موتِ عيسىٰ، فقاتَلوُهم ثلاثَ مَراتٍ، فقُتِلوا حتَّىٰ لم يبقَ منهم إلا القليلُ، فَخافُوا أن يُفتَنوا في دِينهم، فاخْتارُوا الرَّهبَانيَّةَ، ومعناهُ: الفِعلةُ المَنْسُوبة إلىٰ الرَّهْبانِ، وهو الخائِفُ؛ فَعلانٌ من: رَهِبَ، كَخَشْيانٍ من: خَشِيَ.

وقُرِئَ: (ورُهْبَانيَّة) بالضَّم، كأنَّها نسبةٌ إلىٰ الرُّهبانِ: وهو جَمعُ راهبٍ كَراكِبٍ...

ظَنَّ الإنجيلُ أعجمياً فأُجري عليه تحريف مثالِـهِ[١].

قوله: (البِرْطِيل) البِرطِيلُ بِكسرِ الباءِ: الحجرُ المُستَطِيلُ وهو الشَّائِعُ المشهورُ، وفتْحُها شاذٌّ، وهو عَربِي، وإذا فَتح البَاء خَرج عن أوزانِ العرب.

قوله: (بعدَ موتِ عيسى) في جميعِ النُّسخِ، والصَّحيحُ: بعد رفعِ عيسى عليه السَّلام.

قوله: (وقُرِئَ: «رُهبانية»[٢] بالضَّمِّ كأنَّها نسبةٌ إلى الرُّهبانِ) الانتصاف: فيه إشكال، فالنَّسَبُ إلى الجمعِ على صيغتِه غيرُ مقبول، حتى يُردَّ إلى المُفردِ، إلا أن يُقال: لـمَّا صارَ الرُّهبانُ طائِفةً مخصُوصين صَار هذا الاسمُ وإنْ كان جمعًا كالعَلَم، فالتحق بأنصاريٍّ ومدائِنيٍّ وأعرابيٍّ[٣]. الراغب: الرَّهبةُ والرَّهْبُ: مَخافةٌ مع تحرُّزٍ واضطِرابٍ، قال عزَّ وجل: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم﴾ [الحشر: ١٤] والتَّرهُّبُ: التَّعبُّد، وهو استعمالُ الرَّهبةِ[٤].

---

(١) «المحتسب» (٢: ٣١٣).

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «ورُهْبانية» بالواو.

(٣) «الانتصاف» (٤: ٤٨١).

(٤) «مفردات القرآن» ص ٣٦٦.

ورُكبْانٍ، وانتصابُها بفعلٍ مُضْمرٍ يُفسِّره الظَّاهِر، تقديرُه: وابتدعوا رهبانيَّةً، ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ يعني: وأحْدَثُوها من عندِ أنفُسِهم ونَذَرُوها ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ لم نَفْرِضْها نحنُ عليهِم ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناءٌ مُنقطِعٌ، أي: ولكنَّهم ابتدَعُوها ابتغاءَ رضوانِ الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ كما يجبُ على النَّاذِرِ رعايةُ نَذْرِه؛ لأنَّه عهدٌ معَ الله لا يحلُّ نكثُه ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يريدُ: أهلَ الرَّحمةِ والرَّأفة الذينَ اتَّبعُوا عيسىٰ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ الذينَ لم يحافِظوا علىٰ نَذْرِهم.

وقال: رهَبوت خيرٌ من رَحَموت، والرَّهبَانيَّةُ غلوٌّ في تحمُّل الرَّهبة، والرُّهبان يكون واحداً وجمعاً.

قوله: (لَمْ نَفْرِضْها نحنُ عَلَيْهم) وعن أبي داودَ عن أنسٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا تُشدِّدُوا علىٰ أنفُسِكُم، فيُشدِّد اللهُ عليكُم، فَتلكَ بقاياهُم في الصَّوامِع والدِّيار، رهبانيَّةً ابتَدعُوهَا ما كَتبناها عَلَيْهم»[1].

ورُوِّينا عن مُسلمٍ وأحمدَ والتِّرمذيِّ وابن ماجه عن جابرٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أما بعدُ، فإن خَيرَ الحديثِ كتابُ الله، وخَيرَ الهَدي هديُ مُحمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ مُحدثاتُها، وكُلَّ بدعةٍ ضَلالة»[2].

قال صاحبُ «جامع الأصول»: محدثاتُ الأمورِ: ما لـم يكن معروفًا في كتابٍ ولا سُنَّةٍ ولا إجماع. الابتداع: إذا كان من الله وحدَه فهو إخراجُ الشَّيءِ من العَدمِ إلى الوُجودِ، وهو تكوينُ الأشياءِ بعدَ ما لم تكُن، فَليس ذلك إلا إلى الله تعالى، فأمَّا الابتداعُ من المخلُوقين، فإن كان في خلافِ ما أمر اللهُ بِهِ ورسولُه، فهو في حَيِّز الذَّمِّ والإنكار، وإنْ كان واقعًا تحتَ عمُوم ما ندبَ اللهُ إليه، وحضَّ عليه أو رسولُه، فهو في حَيِّزِ المدْحِ وإن لم يكن مثالُه موجوداً كنوعٍ من الجودِ والسَّخَاء وفعلِ المعروفِ، فهذا فعلٌ من الأفعالِ الـمحمودةِ لم يكن الفاعلُ

---

(١) أبو داود في «السنن» (٤٩٠٤).

(٢) مسلم (٨٦٧)، وأحمد في «المسند» (٣: ٣١٠)، والترمذيُّ (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٥).

ويجوزُ أن تكون «الرَّهْبانيَّةُ» مَعْطُوفةً علىٰ ما قبلِها، و﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾: صفةٌ لها في محلِّ النَّصب، أي: وجَعَلنا في قلوبِهِم رأفةً ورحمةً ورهبانيةً مبتدعةً من عِندِهم، بمعنىٰ: وفَّقْناهم للتَّراحُم بينهم ولابتداعِ الرَّهبانيَّةِ واستِحْدَاثِها، ما كَتبناها عليهم إلا ليبتَغُوا بها رضوان الله، ويستَحِقُّوا بها الثَّواب، علىٰ أنَّه كتبَها عليهم وألزمَها إيَّاهم ليتخلَّصُوا من الفِتَن، ويَبتَغُوا بذلك رِضَا الله وثَوابه، ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ جميعًا ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾؛ ولكنْ بعضُهُم، ﴿فَـَٔاتَيْنَا﴾ المؤمنين المُراعِين مِنهم للرَّهبانيَّـةِ ﴿أَجْرَهُمْ﴾، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ وهمُ الذين لم يَرْعَوْها.

قد سُبِقَ إليه، ولا يجوزُ أن يكونَ ذلك في خلافِ ما وردَ الشَّرعُ به، لأنَّ رسولَ الله ﷺ قد جعل له في ذلك ثوابًا، فقال: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حسَنةً كانَ لهُ أجرُها، وأجرُ من عَمِلَ بها»، وقال في ضِدِّه: «مَن سنَّ سُنَّةً سيئةً كانَ عَليهِ وِزْرُها ووزرُ من عَمِلَ بها»، وذلكَ إذا كان في خلافِ ما أمرَ اللهُ به ورسولُه. ويعضدُ ذلكَ قولُ عمرَ بن الخطَّابِ في صلاة التَّراويحِ: نِعْمتِ البِدْعة، هذا لما كانتْ من أفعالِ الخير، وداخلةً في حَيِّزِ المَدْح، سمَّاها بدعةً ومَدَحَها[1].

قال مُحيي الدِّين النَّواوي في «شرحِ صحيحِ مُسلمِ»: قال العُلماء: البدْعةُ خمسةُ أقسام؛ واجبةٌ ومندوبةٌ ومحرَّمةٌ ومكروهةٌ ومباحة، فمن الواجب: تعلُّمُ أدلَّةِ المتكلمينَ للرَّدِ على الملاحِدةِ والمُبتدعين، وشِبْهُ ذلكَ، ومن المندوبَةِ تصنيفُ كُتبِ العِلمِ وبناءُ المدارسَ والرُّبَطَ وغيرُ ذلك، ومِن المُباح: التَّبسُّطُ في ألوانِ الأطعِمةِ وغيرُ ذلك، والحرامُ والمكروهُ ظاهِران[2].

فعلم أنَّ الحديثَ من العَامِّ المخصُوص، ويؤيِّدُهُ ما قُلناه قولَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في التَّراويح: نِعْمتِ البِدعةُ، والله أعلم.

قوله: (**ويجوز أن تكونَ «الرَّهبانيَّةُ» معطوفةً علىٰ ما قَبلها**)، عطفٌ علىٰ قولِه: «وانتصَابُها بفعلٍ مُضمرٍ».

---

(١) «جامع الأصول» (١: ٢٨٠-٢٨١).

(٢) «شرح صحيح مسلم» (٦: ١٥٤-١٥٥).

[﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ٢٨]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يجوزُ أن يكونَ خطابًا للذين آمنوا من أهلِ الكتابِ والذين آمنوا من غَيرِهِم، فإنْ كان خطابًا لمؤمني أهلِ الكتاب؛ فالمعنىٰ: يا أيُّها الذين آمنوا بموسىٰ وعيسىٰ آمِنوا بمحمدٍ ﴿يُؤْتِكُمْ ﴾ اللهُ ﴿كِفْلَيْنِ ﴾ أي: نَصِيبَينِ ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لإيمانكم بمحمدٍ وإيمانِكُم بمن قَبْله ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ يوم القيامةِ ﴿نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ وهو النُّور المذكور في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ [الحديد: ١٢]. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما أسلَفتُم من الكُفْرِ والمَعاصِي.

الانتصاف: منعَ أبو عليٍّ الفارسيُّ العطفَ، تعليلاً بأنَّ الرَّهبانيَّة لا تكونُ مجْعولةً لله تعالى، مع قوله: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا ﴾، فوقَع في البِدْعة. والزَّمَخشريُّ أجازَ العطف، لكنْ حَرَّف الجَعْل إلى التَّوفِيق(١) اعتمادًا مِنهما أنَّ ما يبتدعونه لا يَجعلُه الله تعالىٰ، وكفَىٰ بهذه الآيةِ دليلاً عليهما مع الأدلَّةِ القَطعيَّة.

وقوله: ﴿فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾، تأكيدٌ لخلقِ هذه الأفعالِ والمعاني بذكرِ محلّها، وعلىٰ مذهَبِهما لا يبقَىٰ لقولِه: ﴿فِى قُلُوبِ ﴾ فائدة، ويأبىٰ كتابُ الله أن يشتملَ علىٰ ما لا مَوقع له(٢).

قوله: (أي: نَصِيبَينِ ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾)، الرَّاغبُ: الكِفْل: الحظُّ الذّي فيه الكِفاية، كأنَّه

---

(١) لأن الزمخشري وأبا علي الفارسي معتزليان فقد أعربا هذه الكلمة بما يوافق مذهب الاعتزال، فأبو علي لم يرَ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ معطوفة على ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾، وإنما جعلها منصوبة بفعل مقدر هروباً من القول بأن الله خلق فيهم هذه الرَّهبانية المبتدعة، وهذا هدم لمذهبهما في هذا الجانب، أما الزمخشري فبعد أن ذكر كلام الفارسي قال: ويجوز أن تكون معطوفة، لكنه حمل هذا العطف بأن الله وفقهم للتراحم ولابتداع الرهبانية! هروباً أيضاً من حمل الجعل على الخلق وإنما على توفيقهم!

(٢) «الانتصاف» لابن المُنيِّر (٤: ٤٨١-٤٨٢).

[﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ٢٩]

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ لِيَعْلم ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذين لَمْ يُسلِمُوا. و«لا» مَزيدةٌ، ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ أنْ مخففةٌ من الثَّقيلةِ، أصله: أنَّه لا يَقْدِرُون، يعني: أنَّ الشَّأن لا يَقْدِرون ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يَنالُون شيئًا ممَّا ذُكر من فَضْلِه من الكِفْلَين والنُّورِ والمَغْفِرة، لأنَّهم لم يُؤمِنوا برسولِ الله، فَلَمْ ينفَعْهُم إيمانُهم بِمن قَبلَهُ، ولم يُكسِبْهُم فضلًا قطُّ.

وإن كان خِطابًا لِغيرِهم، فالمعنىٰ: اتَّقوا اللهَ واثبُتوا علىٰ إيمانِكم برسولِ الله، يؤتِكُمْ ما وَعد من آمنَ من أهلِ الكتابِ مِنَ الكِفْلَين في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤] ولا يُنقِصُكم من مثل أجرِهم، لأنَّكم مِثلَهُم في الإيمانَين، لا تُفرِّقون بين أحدٍ من رُسلِه.

رُوي: أنَّ رسولَ الله ﷺ بعثَ جَعْفرًا رضي الله عنه في سبعينَ راكبًا إلىٰ النَّجاشي يَدعُوه، فقَدِم جعفرٌ عليه فدعَاه فاستجابَ لَهُ، فقال ناسٌ ممن آمنَ من أهلِ مملكتِه وهم أربعُونَ رجلًا: ائذن لنا في الوِفَادةِ علىٰ رسولِ الله ﷺ، فأَذِن لهم، فقدِمُوا مع جعفر وقد تهيَّأ لوقْعةِ أُحُد، فلمَّا رأوا ما بالمُسلِمِين من خصَاصَةٍ، استأذنوا رسولَ الله ﷺ، فرجَعُوا وقَدِمُوا بأموالٍ لهم، فآسَوا بها المسلمين، ....

تكفَّلَ بأمرِه، قال تعالى: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، والكِفل: الكَفِيل، قال تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾، أي: كِفْلَين من نِعمتِه في الدُّنيا والآخرة، وهما المرغوبُ إلى الله فيهما، بقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١][1].

(١) «مفردات القرآن» ص ٧١٧.

فأنزل الله ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤]. فلما سَمِعَ من لم يُؤمن من أهل الكتاب قوله: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: ٥٤] فَخِروا علىٰ المسلمين وقالوا: أمَّا من آمن بكتابِكم وكتابنا فلهُ أجرهُ مرَّتين، وأمَّا من لم يُؤمن بكتابِكم فلهُ أجرٌ كأجْرِكُم، فما فَضْلُكم علينا؟ فنزلت.

وروي أنَّ مؤمني أهلِ الكتابِ افتَخَروا علىٰ غيرهِم من المؤمنِين بأنَّهم يُؤتَون أجرهم مرَّتينِ، وادَّعوا الفَضْل عليهم، فنزلت.

وقُرِئَ: (لكي يَعْلم)، و(لكيلا يَعْلم)، و(ليَعْلم)، و(لأنْ يعلم)؛ بإدغام النون في الياء، و(لِيَنْ يعلم)، بقلب الهمزةِ ياءً وإدغامِ النُّون في الياء. وعن الحسن: (لَيْلا يَعْلم)، بفتحِ اللَّامِ وسكونِ الياءِ. ورواه قُطْرُب بكسرِ اللام. وقيل في وجهها: حُذِفت همزةُ (أن)، وأُدغِمت نُونها في لام (لا)؛ فصار (لِلَّا) ثُمَّ أُبدِلت من اللام المُدغَمةِ ياءً، كقولهم: دِيوانٌ، وقِيراطٌ. ومن فَتحَ اللَّام فعلىٰ أنَّ أصلَ لام الجرِّ الفتحُ، كما أنشد:

أُرِيدُ لأنسَىٰ ذِكْرَها

قوله: (﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾) أي: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾، إلى آخر ثلاث آياتٍ في سورةِ القَصص.

قوله: (دِيوانٌ وقِيراطٌ) أصل الدِّيوانِ: دِوَّانٌ، فعُوِّض من إحدىٰ الواوين ياءٌ لأنَّه يُجمَعُ على دَواوِين، ولو كانتَ الياءُ أصليةً لقيل: دَياوِين، وأصلُ قِيراطٍ: قِرَّاط، لأنَّ جمعه قَرارِيط، فأُبدل من إحدى حَرفي تَضْعِيفِه ياءٌ، والدِّينارُ كذلك.

قوله: (أُرِيدُ لأنسَىٰ ذِكْرَها[1])، تمامُه:

أريدُ لأنسَى ذكرَها فكأنَّما ... تَـمثَّـلُ لي لَيلى بكلِّ سبيلِ

---

(١) ذكر في «مشاهد الإنصاف» (٤: ٤٨٣) مع «الكشاف» أنه لقيس بن الملوح مجنون ليلى، وقيل: لكثير صاحب عزة. انظر: «ديوان كثير» في الأبيات المنسوبة ص٢٢٣.

وقُرِئَ: (أنْ لا يقدروا) بِيَدِ الله في ملكه وتَصرُّفه، واليدُ مَثَلٌ، ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ **ولا يشاء إلا إيتاءَ من يستحقّه.**

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الحديد كُتِبَ من الذين آمنوا بالله ورُسِلِه».

قوله: (**ولا يشاءُ إلا إيتاء من يستحقه**) مذهبه.

تمّت السُّورةُ

حَامِدًا لله تعالىٰ ومُصلِّيًا علىٰ رسول الله ﷺ .

* * *

سورة المجادلة

مدنيةٌ وهي ثنتانِ وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ ١]

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ قالت عائِشَة رضي الله عنها: الحمدُ لله الذي وَسِعَ سَمْعُه الأصواتَ! لقد كلَّمتِ المُجادِلةُ رسولَ الله ﷺ في جانِب البَيتِ وأنا عندَه لا أسمعُ، وقد سَمِعَ لها. وعن عُمرَ أنَّه كان إذا دَخلتْ عليه أكرَمها ....

سورة المُجادلة

مدنيةٌ وهي ثنتانِ وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قولُه: (الحمدُ لله الذي وسِعَ سمعُه الأصواتَ)، عن البُخاريِّ وأحمد بن حَنْبَل والنَّسائيِّ وابنِ ماجه[1] عن عائشةَ رضي اللهُ عنها قالت: الحمدُ لله الذي وسعَ سمعُه الأصواتِ، لقد

(١) البخاري في «الصحيح» معلقاً، باب قَوْلِ الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، قبل حديث رقم (٧٣٨٦)، وأحمد في «المسند» (٦: ٤٦)، والنسائي في «السنن» (١١٥٠٦)، وابن ماجه في «السنن» (١٨٨).

وقال: **قَدْ سَمِعَ اللهُ لها**. وقُرِئَ: (تحاوِرُك) أي: تُراجِعُكَ الكلامَ. و(تحاوِلُكَ)، أي: تُسائِلُكَ، وهي خَولةُ بنتُ ثَعْلبَة امرأةُ أَوْس بن الصَّامتِ أخِي عُبادةَ، رآهَا وهِي تُصَلِّي وكانت حَسَنةَ الجِسمِ، فلمّا سلّمتْ راوَدَها فأبَتْ، فغضِبَ وكان به خِفّةٌ ولـمَمٌ، فظَاهَرَ مِنها، فأتَتْ رسولَ الله ﷺ فقالت: إنَّ أوْسًا تزوَّجَني وأنا شابّةٌ مَرغوبٌ فِـيَّ، فلَمّا خَلا سِنّي ونَثرتُ بَطْنِي أي: كَثُر وَلَدِي، جعَلنِي عليه كأمِّه.

ورُوِي أنّها قالت له: إنَّ لي صبيةً صغارًا، إنْ ضَممْتُهم إليه ضَاعُوا، وإنْ ضمَمْتُهم إليَّ جاعُوا. فقال: ما عِنْدِي في أمرِكِ شَيْءٌ. ورُوِيَ أنّه قال لها: «حَرُمتِ عليه»، فقالت: يا رسولَ الله، ما ذكرَ طَلاقاً وإنّما هو أبو وَلَدِي وأحبُّ النّاسِ إليَّ، ....

جاءت المُجادِلةُ خولةُ إلى رسولِ الله ﷺ وكلَّمتهُ من جانبِ البيتِ، وما أسمعُ ما تقولُ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

وفي روايةِ ابن ماجه: «قالت: يا رسولَ الله، أكل شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كَبِرَ سنِّي، وانقطعَ ولدي، ظَاهَر منِّي، اللهم إنِّي أشكو إلى الله»[1].

النهاية: وفي أسماءِ الله تعالى السَّمِيعُ، وهو: الذي لا يَغِيبُ عن إدراكِهِ مسموعٌ وإنْ خفيَ، فهو يسمعُ بغيرِ جارحةٍ.

قلت: معنى وسِع سمعُه الأصواتَ، نحوَ قولِه: وسِعَ كلَّ شيءٍ رحمتُك وعِلمُك، وأنَّه أصلٌ لقوله: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

الراغب: السَّمعُ قوّةٌ في الأُذنِ بها تُدركُ الأصواتُ، فإذا وُصفَ اللهُ تعالى بالسَّمعِ فالمرادُ به علمه بالمسموعات وتحريه للمجازاة به، نحو: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾[2].

قولُه: (قد سمِعَ [الله] لها)، أي: أجابها، كقولك: سمعَ اللهُ لمن حمِدَه.

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٠٦٣).

(٢) «مفردات القرآن» ص٤٢٥.

فقالَ: «حَرُمْتِ عليه»، فقالتْ: أشكُو إلىٰ الله فَاقَتي ووَجْدِي، كلّما قال رسولُ الله ﷺ: «حَرُمْتِ عليه»، هَتَفتْ وشَكَتْ إلىٰ الله، فنزَلتْ. ﴿فِي زَوْجِهَا﴾ في شأنِه ومعناهُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ يَصِحُّ أنْ يسْمعَ كلَّ مَسموعٍ ويُبْصِرَ كُلَّ مُبْصَرٍ.

فإنْ قلتَ: ما معنىٰ ﴿قَدْ﴾ في قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾؟ قلتُ: معناهُ التَّوقُّع؛ لأنَّ رسولَ الله ﷺ والمُجادِلة كانا يتوقَّعانِ أنْ يَسمعَ اللهُ مُجادَلتَها وشكْواها ويُنزِلُ في ذلك ما يُفرِّجُ عَنها.

[﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٢-٤]

في ﴿مِنكُم﴾ تَـوبيخٌ للعـربِ وتَهْجِينٌ لعادَتِهم في الظِّهار، لأنَّه كانَ من أيمانِ أهلِ جاهِلِيَّتِهم خاصَّةً دونَ سائرِ الأمَمِ.

قولُه: (هَتفَت وشَكَت)، النهاية: قد هَتفَ يَهْتِفُ هَتْفاً، وهَتَفَ به هِتافاً، إذا صاحَ به ودعاه، وفي الحديثِ: «فجعَل يَهْتِفُ بربِّه» أي: يَدعُوه ويُناشِدُه.

قولُه: (في ﴿مِنكُم﴾ توبيخٌ للعربِ وتهجينٌ لعادتِهم)، يعني: الظَّاهرُ أن يُقالَ: الذين يُظاهِرون من نسائِهم، أقحم ﴿مِنكُم﴾ ليُدمجَ فيه تهجينَ عادة العرب.

الانتصاف: استدلَّ بعضُهم على أنَّه لا يَصحُّ ظِهارُ الذِّمِّي[1] بقوله: ﴿مِنكُم﴾، وليس بالقَويِّ، لأنَّه غير المقصود[2].

---

(١) كما عند الحنفية، انظر: «المبسوط» للسرخسي (٦: ٢٣١).

(٢) «الانتصاف» (٤: ٤٨٤) بحاشية «الكشاف».

﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ﴾ وقُرِئَ بالرَّفعِ علىٰ اللُّغتَينِ الحِجَازيّةِ والتَّميميَّةِ. وفي قِراءةِ ابنِ مَسعُودٍ: (بأمّهاتِهم) وزيادةُ الباءِ في لغةِ مَن يَنصُب.

والمعنىٰ أنَّ مَن يقولُ لامرأتِه: أنتِ عليَّ كظَهْرِ أمّي، **مُلحِقٌ في كلامِه** هذا للزَّوجِ بالأمِّ، وجاعلُها مِثلَها. وهذا تشبيهٌ باطِلٌ لتبايُنِ الحالَين.

﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ﴾ يُريدُ أنَّ الأمَّهاتِ علىٰ الحقيقةِ إنَّما هُنَّ الوالِداتُ، وغيرُهُنَّ ملحَقاتٌ بِهنَّ لدُخولِهنَّ في حُكْمِهِنَّ، فالمُرضِعاتُ أمّهاتٌ؛ لأنَّهنَّ لمّا أرضَعنَ دخلنَ بالرَّضاعِ في حُكمِ الأمَّهاتِ، وكذلك أزواجُ رسولِ الله ﷺ أمّهاتُ المؤمنين؛ لأنَّ اللهَ حرَّمَ نِكاحَهُنَّ علىٰ الأمَّةِ فدخَلنَ بذلِكَ في حُكمِ الأمَّهات.

وأمّا الزَّوجاتُ فأبعدُ شيءٍ من الأُمومَة لأنَّهنَّ لَسنَ بأمَّهاتٍ علىٰ الحَقيقةِ، ولا بداخلاتٍ في حُكمِ الأمَّهاتِ، فكانَ قولُ المُظاهِر منكرًا من القَولِ، تُنكِرهُ الحقيقةُ وتُنكِرهُ الأحكامُ الشرعيَّةُ، وزُورًا وكَذِبًا باطِلًا مُنحَرِفًا عن الحَقِّ.

قولُه: (**على اللُّغتَين**)، قال صاحب «الكشف»: ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ﴾ حِجازيَّة، وقرأ المفضَّل برفعِ التاء، وجعلها تميميَّة[1].

قولُه: (**مُلحِقٌ في كلامِه**)، خبر «أنّ»، وقوله: «وهذا تشبيهٌ باطلٌ»، معنى قوله: ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ﴾، وفيه إشعارٌ بأنَّ خبر ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾ محذوفٌ، أي: مُخطِئون، وقوله: ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ﴾ إلى آخره، بيانٌ لخطئهم، كأنّه قيل: الذين يُشبِّهُون نساءهم بأمهاتهم في قوله: أنتِ عليَّ كظَهْرِ أمي مخطئون، ما هن أمهاتهم، أي: هو تشبيهٌ باطلٌ لتباين الحالين. وذهب صاحب «الكواشي» إلى أنَّ الخبرَ: ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ﴾.

---

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٣٢٩).

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ لِما سلَفَ مِنه إذا تِيبَ عنه ولم يُعَدْ إليه.

ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ يعني: **والذينَ كانت عادتُهم أنْ يَقولوا هذا القولَ المنكرَ فقطَعوهُ بالإسلامِ، ثمَّ يعودُون لمثلِه، فكفّارةُ من عادَ أنْ يُحرِّرَ رقبةً ثمَّ يماسَّ المُظاهَرَ مِنها، لا تحلُّ له مماسَّتها إلّا بعدَ تقديمِ الكفّارة.**

قولُه: (**والذين كانت عادتُهم أنْ يقولُوا هذا القولَ المُنكرَ**)، إشارةٌ إلى أنَّ التَّعريفَ للعَهدِ، والمعهودُ ما دلَّ عليه «توبيخٌ للعربِ وتهجينٌ لعادَتِهم، لأنَّه كان من أيْمانِ أهلِ جاهليتهم»، وفي إتْيانِ المُضارعِ إرادةُ معنى الاستمرار فيما مضى وقتاً فوقتاً، وهذا معنى قوله: «عادتهم».

الانتصاف: هذا الوجه يُلزِمُ الكفَّارة بمجرَّد لفظِ الظِّهارِ حتى لو أرْدَفه بالطَّلاقِ، أو ماتت المُظاهَرِ منها لزمتْهُ الكفَّارةُ، لأنَّ العَوْدَ حينئذٍ ليس إلا قولَ الظِّهار في الإسلام بخِلافِه في الوجُوهِ، لأنَّه إنَّما تجب الكفَّارة حينئذٍ بالعَودِ بعدَ الظِّهارِ، وهو قولُ علماءِ الأمْصَار[1].

الراغب: العادةُ اسمٌ لتكريرِ الفعلِ أو الانفعال حتّى يصيرَ ذلك سهلاً تعاطِيه كالطَّبعِ، ولذلكَ قيلَ: العادةُ طبيعةٌ ثانيةٌ، وإعادَةُ الشَّيءِ كالحديثِ وغيرِهِ: تكريْـرُه، قال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١]، والعيدُ: كلُّ حالةٍ تُعاوِدُ الإنسانَ، والعَائِدةُ: كلُّ نفعٍ يرجِعُ إلى الإنسانِ من شيءٍ ما، والعَودُ: الرُّجُوعُ إلى الشَّيءِ بعد الانصِرافِ عنه، إمَّا انْصِرافاً بالذَّاتِ أو بالقولِ أو العَزِيمة[2].

وأمَّا قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ فعندَ أهلِ الظَّاهِرِ هو أنْ يقولَ ذلك للمرأةِ ثانياً[3]، فحينئذٍ تلزمُه الكفَّارةُ، وعند أبي حَنيفة رضي الله عنه: العَودُ في الظِّهار هو أن يُجامِعها بعد الظِّهار[4]، وعند الشافِعيِّ رضي الله عنه: هو إمْسَاكُها بعدَ وقُوعِ الظِّهارِ مدةً

---

(١) «الانتصاف» (٤: ٤٨٦).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٥٩٤.

(٣) انظر: «المحلى» (٩: ١٨٩).

(٤) انظر: «بدائع الصنائع» (٣: ٢٣٥).

ووجهٌ آخَر: ثمَّ يعودُون لِما قالوا: ثُمَّ يتدارَكونَ ما قالوا؛ لأنَّ المتدارِكَ للأمر عائدٌ إليهِ. ومنهُ المثَلُ: عادَ غيثٌ علىٰ ما أفسَدَ، أي: تدارَكَه بالإصلاح.

والمعنىٰ: أنّ تدارُكَ هذا القولِ وتلافِيَهُ بأنْ يُكفِّر حتىٰ ترجِعَ حالُهما كما كانت قبلَ الظِّهار.

يُمكِنه أنْ يطلق فيها فلم يفعل[1]، وقال بعضُ المُتأخِّرين: المُظاهَرة يمينٌ، كقولِك: امرأتي عليَّ كظَهرِ أُمّي إن فعلتُ كذا، فمتى فعلَ ذلك وحنث، يلزَمه من الكفَّارةُ ما بيَّنَه اللهُ تعالى في هذا المكان. وقوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ يحملُه على فعلِ ما حلَفَ له أن لا يفْعَل، وذلك كقولِك: فلانٌ حلف ثمَّ عاد إذا فعلَ ما حلف عليه.

قال الأخفَش: قولُه: ﴿لِمَا قَالُوا﴾[2] متعلقٌ بقولِه: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[3].

قولُه: (عادَ غَيثٌ على مَا أفْسَدَ)، قال المَيْدانيُّ: قيل: إفسادُه: إمساكُه، وعَودُه: إحْياؤه، وإنَّما فُسِّر على هذا الوجه لأنَّ إفْسادَه يصوبه لا يُصلِحه عودُه، وقد قيل غير هذا، وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ الغيثَ يحفر ويُفسِدُ الحِياضَ ثمَّ يعفى على ذلك بما فيه من البركة، يُضرَب للرَّجل فيه فسادٌ ولكنَّ الصَّلاحَ أكثر[4].

الجوهري: عَفَى على ما كان، إذا أصْلَح بعدَ الفَساد.

قال أبو علي الفارسي في «الحجة» في تفسير قوله تعالى في البقرة: ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: فأمَّا من ذهب من المُتأخِّرين إلى أنَّ الظِّهار لا يقعُ في أوّلِ مَرَّة حتَّى يُعيد المُظاهرة

---

(١) انظر: «مغني المحتاج» (٣: ٣٥٥-٣٥٦).

(٢) في الأصول الخطية: «لما عادوا»، وصوبناه بحسب السياق.

(٣) قال أبو حيان في «البحر المحيط» (٨: ١٧٦): وقال الأخفش: فيه تقديم وتأخير، والتقدير: فتحرير رقبة لما قالوا، وهذا قول ليس بشيء لأنه يفسد نظم الآية.

(٤) «مجمع الأمثال» (٢: ١٨).

ووجهٌ ثالثٌ: وهو **أن يُرادَ بـ(ما قالوا) ما حرَّموه علىٰ أنفُسِهم بلفظِ الظِّهارِ**، تنزيلًا للقولِ منزلةَ المقولِ فيه؛ نحو ما ذكَرْنا في قولِه تعالىٰ: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٨٠] ويكونُ المعنىٰ: ثُمَّ يُريدُونَ العَودَ للتَّماسِّ.

مرَّةً أُخرَى، فيقول: أنتِ عليَّ كظَهرِ أُمِّي، فإنَّ الظِّهارَ ليسَ في ذلك ظاهِراً، وذلك لأنَّ العَوْدَ على ضربين؛ أحدهما: أن يصيرَ إلى شيءٍ قد كان عليه قبلُ فتركَه ثمَّ صارَ إليه، والآخر: أن يصيرَ إلى شيءٍ وإنْ لم يكن على ذلك قبلُ، وهذا عندَ من خُوطِبَ بالقرآنِ مثلُ الأوَّل في الظُّهورِ، وأنَّهم يعرفُونَه كما يَعرِفُون ذلك، فمن ذلك قوله[١]:

إذا السَّبعُون[٢] أقْصَدني سُراها ... وسَارت في المَفاصِلِ والعِظَامِ
وصِرتُ كأنني أقتادُ عيراً ... وعَادَ الرَّأسُ مِنِّي كالثَّغامِ

أي: صار لونُ رأسِي كلونِ الثَّغام[٣]. وهو نَبْتٌ أبيضُ إذا يَبِس يصيرُ كالشَّعْر الأبيض، يقال: أقصد السَّهْم: أصَاب فقتَلَ على المكان.

واعْلَم أنَّ حاصِلَ معنى العَوْدِ - على المُختارِ - راجِعٌ إلى أنْ يُمْسكَها زَمَاناً يُمْكنُه أن يُطلِّقَها فلا يُطلِّقُها، هذا في المُطلَق، وأمَّا في المؤقَّتِ فأنْ يطأَ في المدَّةِ، وفي الرجعية الرَّجْعَة كما ذكَرُوه، وفي «ثُمَّ» الدَّلالة على أنَّ العَودَ أشدُّ تبعةً وأقوى إثماً من نفسِ الظِّهار، ألا تَرى أنَّ الكفَّارةَ تتعلَّق بالعَودِ لا بالظِّهار مُطلقاً؟

قولُه: (**أنْ يُراد بـ«ما قالوا» ما حرَّمُوه على أنفُسِهم بِلفْظِ الظِّهَار**)، يعني من الكَفِّ عن الاستِمتَاع بالمرأةِ من جِماعٍ أو لمسٍ بشَهْوةٍ، لأنَّه هو المقُول فيه بلفظِ الظِّهار، كقولِه تعالى:

---

(١) قال أبو علي الفارسي: «فمن ذلك ما أنشده أبو عُثمان أو الرِّياشِي»، ولم أقف على القائل.

(٢) في «الحجة»: «التِّسعون».

(٣) «الحجة للقراء السبعة» (٢: ١٣٦ - ١٣٧).

والمُمـاسَّةُ: الاستِمْتاعُ بها من جِماعٍ، أو لَمسٍ بشَهوةٍ، أو نَظَرٍ إلىٰ فَرْجِها بشهوة، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الحُكْمُ ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ لأنَّ الحُكمَ بالكَفّارةِ دليلٌ علىٰ ارتكابِ الجِنايةِ، فيجبُ أن تتّعِظوا بهذا الحُكمِ حتّىٰ لا تعودُوا إلىٰ الظِّهارِ وتخافُوا عِقابَ الله عليه.

فإن قُلتَ: هل يَصِحُّ الظِّهارُ بغيرِ هذا اللَّفظ؟

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٨٠] أي: نَزْوي عنه ما زَعَم أنَّه يَنالَه في الآخرة، أي: نسمي ما يقول وهو: المالُ والوَلَدُ.

الانتصاف: هذا يُقوِّي أنَّ العَودَ هو الوَطْءُ، وهو من أقْوال مالك، وجعل داودُ العَودَ إعادة لفظِ الظِّهار، ومن رأى العَودَ العَزْمَ على الوَطء قال: العَودُ إلى القول عَودٌ بالتَّدارُكِ لا بالتَّكرار، وتَدارُكَه نقضُه بنقِيضِه الذي هو العَزمُ على الوَطءِ، ومَن حَمَلَه على الوَطءِ قال: هو المَقصودُ بالمنعِ، ويحمل قولَه: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي: مرةً ثانيةً، ورأى أكثرُ العلماءِ قولَه: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ منعاً من الوَطءِ قبل التَّكفِير، حتّى كأنَّه قال: لا يُـماسَّ حتّى يُكفِّر[١].

وقال الوَاحِديُّ: كثُر الاختِلافُ في معنى العَودِ هَاهُنا من المُفسِّرين والفُقَهاء[٢].

وقلت: القولُ المُحصّل ما ضَبطه المُصنِّفُ في الوُجُوهِ الثلاثَةِ، وهو أنَّ ﴿يَعُودُونَ﴾ إمَّا مُجرىً على حقِيقته، أو محْمُولٌ على التَّدارُكِ مجازاً، إطلاقاً لاسم المُسَبِّبِ على السَّببِ، لأنَّ المُتدارِكَ للأمر عائدٌ إليه، وأنَّ ما قالوا إمَّا عِبارةٌ عن القولِ السَّابِق، أو عن مُسَمّاه وهو تحريمُ الاسْتِمتَاع، والوجْه الأوَّلُ في «الكشّاف» اللفْظان فيه مُستعملان في موضُوعِهما، وعلى القولِ الثاني واردٌ على الظَّاهِر والمجازُ في العَود، والثّالثُ عكسُ الأوّل، لِوُرودِهما مجازين، وهاهنا وجهٌ رابعٌ عكسُ الثّاني كما يُقال: ثمَّ يَعُودُونَ لِما حرَّمُوه على أنفُسِهم من التَّماسِّ والجِماع.

---

(١) «الانتصاف» (٤: ٤٨٦) بحاشية «الكشاف».

(٢) «الوسيط» (٤: ٢٦٠).

....

والوجْهُ الأوَّل: قولُ مُجاهِدٍ والثَّورِيِّ، قال مُحْيي السُّنَّة: ذهبا إلى أنَّ الكَفَّارة تجبُ بنَفْسِ الظِّهَار، والمُرادُ بالعَودِ العَودُ إلى ما كانوا عليه في الجاهِليَّة من نفسِ الظِّهَار.

وقال أهْلُ الظاهِر: العَودُ هو إعادَةُ لفظِ الظِّهَار، وإن لم يُكرِّر اللفظ فلا كفَّارةَ عليه، وهو قَولُ أبي العَالِية[1].

والوجْهُ الثَّالثُ: قولُ مالِك وأصْحابِ الرَّأي، قال مُحيي السُّنَّة: قال قومٌ: هو العَزمُ على الوَطْء، وهو قولُ مالِكٍ وأصحابِ الرَّأي[2].

قال الوَاحِدي: قالوا: لو عَزم على الوَطءِ كان عَوْداً فيَلزمُه الكَفَّارة[3].

وقال الإمامُ: العَودُ عند أبي حَنيفَة عِبارةٌ عن اسْتِباحة الوَطء والمُلامَسة والنَّظَر إليها بشهوة، لأنَّه لـمَّا شبَّهها بالأمِّ في حُرمَة هذه الأشياء فعِندَ اسْتِباحَتها كان مُناقِضاً لقولِه: أنتِ عليَّ كظَهْر أمِّي[4].

والوجْه الرَّابع: قولُ الحَسن وقَتادَة وطَاووس والزُّهْري قالوا: لا كفَّارَة عليه مَا لم يطأها. وقال الإمام: هذا خطأٌ لأنَّ تعقِيبَ قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ بالفَاءِ يُوجبُ كون التَّكفِير بعدَ العَوْد، ويقْتَضي قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أنْ يكون الجِماعُ بعد التَّكفِير[5].

ولعَلَّ المُصنِّفَ إنَّما أهْمَل هذا الوجْه لهذا، وإن اعْتذَر له صاحبُ «الانتصاف» ذلك العُذْر البَعِيد، والوجْهُ الثَّاني عليه قولُ ابن عبّاس قال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾: ثمّ يندَمُون فيَرجِعُون إلى الألفة[6]؛ لأنَّ النَّادِمَ والتَّائِبَ مُتدارِكٌ لـما صَدَر عنه بالتَّوبَة والكَفَّارة، وأقرَب الأقوالِ إلى هذا

---

(١) «معالم التنزيل» (٥: ٣٩ – ٤٠).

(٢) المصدر السابق (٥: ٤٠).

(٣) «الوسيط» (٤: ٢٦٠).

(٤) «مفاتيح الغيب» (٢٩: ٤٨٣).

(٥) المصدر السابق (٢٩: ٤٨٤).

(٦) انظر قول ابن عباس في: «معالم التنزيل» للبغوي (٥: ٤٠)، و«الوسيط» للواحدي (٤: ٢٦٠).

....

ما ذَهَب إليه الشَّافِعي. قال مُحْيي السُّنَّة: ذهَب الشَّافِعيُّ إلى أنَّ العَوْدَ هو الإمْسَاك عُقَيب الظِّهَار زمَاناً يُمكنه أن يُفارِقها فلَم يَفعَل، فإن طلَّقَها عُقَيب الظِّهَار في الحال أو مات أحدُهما في الوقْتِ فلا كَفَّارَة عليه، لأنَّ العَود للقول هو المُخالفة، وقال الفَرَّاء: يُقال: عَادَ فُلانٌ لِما قال، أي: فيما قال، وفي نقض ما قال، يعني: رجَع عمّا قال[1]، وذلك يُبيِّن ما قال الشَّافِعي، وذلك أنَّ قَصْدَه بالظِّهار التَّحرِيم، فإذا أمْسَكها على النِّكاحِ فقَد خالَف قولَه ورجعَ عمَّا قاله وتلزمُه الكَفَّارَة[2].

وقلت: تمامُ تقريرِه: أنَّ حقِيقةَ العَوْدِ أنْ يَصِيرَ الرَّجلُ إلى ما قد كان عليه قَبل مُباشَرةِ هذا الفِعل الطَّارِئ، ولا شكَّ أنَّ الظِّهَار تغييرُ حال كان عليه الرَّجل من التَّحليل، فإذا دام على ما يَقتَضِيه الظِّهَار من التَّحْريم بأن يَعقُبه الطَّلاقُ، فقد جَرَى على ما ابتدأ به فلا كفَّارَة، وأمَّا إذا سَكَت فقد أذِنَ بالرُّجُوع إلى ما كان عليه قبل الظِّهَار من إبْقَاءِ النِّكَاح، كأنَّه قيل: والَّذِين يعزِمُون على المُفارَقة والتَّحريم، ويتكلَّمُون بذلك القول الشَّنِيع، ثمَّ يُمسِكون عنه زمَاناً أمارةً على العَوْدِ إلى ما كانوا عليه قبل الظِّهَار[3]، فكفارة ذلك كذا.

وقال الوَاحِديُّ: قال أصحَابُنا: العَودُ المذْكُورُ هاهنا صالِحٌ للجِماع كما قال مَالِكٌ، والعَزمُ على الجِماعِ كما قال أهلُ العراقِ، ولترك الطَّلاقِ كما قال الشَّافِعيُّ، وهو أوَّلُ ما ينطلق عليه اسمُ العَوْدِ، فوجَب تعلُّقُ الحكم به لأنَّه الظَّاهِر، وما زادَ عليه يُعرَف بدليلٍ آخر[4].

وقلت: بناءً على هذه القضِيَّة ينبَغِي أن يكونَ الوجهُ الأوَّل أولى الوجوه، لا سيما قولُ أهلِ الظَّاهر، لكنَّ القولَ القَويَّ هو ما اقْتَضاه المقامُ وساعَدَه النَّظمُ الفَائِق، وهو قولُ حَبرِ الأمَّة

(١) «معاني القرآن» (٣: ١٣٩).

(٢) «معالم التنزيل» (٥: ٤٠).

(٣) من قوله: «إبقاء النكاح» إلى هنا ساقط من (ح).

(٤) «الوسيط» (٤: ٢٦٠ – ٢٦١).

قلتُ: نعَم إذا وَضَعَ مكانَ (أنتِ) عضوًا مِنها يُعبَّر به عن الجُملةِ، كالرَّأسِ والوَجهِ والرَّقبةِ والفَرجِ، أو مكانَ الظَّهرِ عُضوًا آخرَ يحُرمُ النَّظَرُ إليهِ من الأمِّ كالبطنِ والفَخذِ. أو مكانَ الأمِّ ذاتَ رحِمٍ محرَمٍ منه؛ من نَسبٍ أو رِضاعٍ أو صِهْرٍ **أو جِماعٍ**، نحوُ أن يَقولَ: أنتِ عليَّ كظهرِ أُختِي من الرَّضاعِ، أوعمَّتي مِن النَّسبِ، أو امرأةِ ابني أو أبي، أو أمِّ امرأتي أو بنتِها، فهو مُظاهِرٌ، وهو مذهَبُ أبي حَنيفةَ وأصحابِه. وعنِ الحسنِ والنَّخعِيِّ والزُّهْرِيِّ والأَوْزاعِيِّ والثَّورِيِّ وغيرِهِم رضوان الله عليهم نحوُه.

وقال الشافِعيُّ: **لا يكونُ الظِّهارُ إلّا بالأمِّ وحدَها**، وهو قَولُ قَتادةَ والشَّعبيِّ.

وعنِ الشَّعبِيِّ: لم ينسَ اللهُ أن يذكرَ البناتِ والأخواتِ والعمّاتِ والخالاتِ؛ إذ أخبر أنّ الظِّهارَ إنّما يكونُ بالأمَّهاتِ الوالداتِ دونَ المُرضِعاتِ. وعن بعضِهم: لا بدَّ من ذِكر الظَّهْرِ حتّىٰ يكونَ ظِهارًا.

ابنِ عبّاس رضي الله عنهما، لأنَّ ما قَبلَه وهو قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ كما سَبق وارِدٌ على الذَّمِّ على ما كانوا عليه في الجَاهِليَّة، وعلى أنَّ ذلك كان منكراً من القَولِ وزُوراً، وكذلك ما بعدَه أي قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ تَخْويفٌ شديدٌ لمن ارتَكبَ تلك الجِنايَة، وكَما قال المُصنِّف: «الحكم بالكفارة دَليلٌ على ارْتِكَابِ الجِنَاية»، كأنّه قيل: الّذِين يرتكِبُون تلكَ الجِنَاية، ويقُولُون ذلك القَول المُنكر والزُّور ثُمَّ يرجِعُون يَنْدمون لأجل ذلك القول، فكَفَّارتُه ما ذُكر، ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيُجَازِيكم عليه، ثمَّ قول الإمَام الشَّافِعي لقُربِه منه من حَيث المعنى.

قولُه: (**أو جِمَاع**)، يُريدُ به قولَ أبي حَنيفَة رحمه الله تعالى: البنتُ المخْلُوقة من ماءِ الزَّاني يحرُم وطْؤها على الـزَّاني خلافاً للشَّافِعي رضي الله عنه، وأمَّا قـولُه: «**أو صِهْرٍ**» فيُحـمَلُ على النِّكاحِ الصَّحِيح والشُّبْهَة كما عِند الشَّافِعي.

قولُه: (**لا يكُونُ الظِّهَارُ إلا بالأمِّ وحْدَها**)، هذا خلافُ ظاهِـر المذْهَب، وفي «الحاوي»:

فإن قلتَ: فإذا امتنَع المُظاهِرُ من الكفّارةِ، هل للمرأةِ أن تُرافِعه؟

قلتُ : لها ذلك، وعلىٰ القاضي أن يُجبِرَه علىٰ أن يُكفِّر، وأن يحبِسَه؛ ولا شيءَ من الكفّاراتِ يُجبَرُ عليه ويُحبَسُ إلّا كفارةُ الظِّهار وحْدَها، لأنهُ يَضُرُّ بها في تركِ التكفيرِ والامتناعِ من الاستِمْتاعِ، فيَلزَمُ إيفاءُ حقِّها. فإن قُلتَ: فإن مسَّ قبل أنْ يُكفِّر؟ قلتُ: عليه أن يستغفِرَ ولا يعودَ حتّىٰ يكفِّر، لـِما رُوي أنّ سلَمةَ بنَ صخرٍ البَياضِيّ قالَ لرسولِ الله ﷺ: ظاهرتُ من امرأتِي ثمّ أبصرتُ خِلخالَها في ليلةٍ قَمْراءَ فواقَعْتُها، فقال عليه الصّلاةُ والسّلامُ: «استغفرْ ربّك ولا تَعُد حتىٰ تُكفِّر».

تشبيه المكلف غير البائنة وجزئها كالشعر بجزء محرم أنثىٰ لم تكن حِلًّا، أي: كالأم والجدات والأخوات والعمات وغيرهنّ ظهارٌ.

قولُه: (لما رُوي أنَّ سَلَمةَ بنَ صَخْرٍ البَيَاضِيّ)، حديثُه من رواية التِّرْمِذِيِّ وابنِ ماجَه والدَّارِميِّ عن سَلَمةَ[1] قال: كنتُ امْرَأً أُصِيبُ من النِّساء ما لا يُصِيبُ غَيْري، فلمَّا دخل

---

(١) الترمذي (١١٩٨)، (١٢٠٠)، وابن ماجه (٢٠٦٢)، والدارمي (٢٢٧٨)، ورواه كذلك أبو داود (٢٢١٣) وهو أولى بالعزو إليه من جميع من ذكر المصنِّف.

ويجدر بالذكر أن الحديث الذي خرجه المُصنِّف يختلف عن الحديث الذي ذكره الزمخشري حيث ذكر: أنَّ سلَمة بن صخر البيَاضِي قال لرسول الله ﷺ: ظاهَرتُ من امرأتي ثمَّ أبصَرتُ خِلخَالها في ليلةٍ قمراء فواقَعْتُها، فقال عليه الصلاة والسلام: «استغفر ربك ولا تعد حتى تكفر». وقال ابن حجر في «تخريجه» (٤: ٤٨٨) بحاشية «الكشاف»: «لم أره بهذا اللفظ، وهو في السنن الأربعة من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس: أن رجلاً ظاهر من امرأته، ثم واقعها قبل أن يكفِّر، فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «ما حملك على ما صنعت»؟ قال: رأيت بياض ساقها في القمر. قال: «فاعتزلها حتى تكفِّر عنك» وللتِّرمذي قال: رأيت خلخالها في القمر. قال: «فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله» أخرجوه من رواية الفضل بن موسى عن معمر عنه موصولاً، وأبو داود والنَّسائي من رواية عبد الرزاق عن معمر مرسلاً. قال النسائي: هذا أولى بالصواب. ولأبي داود والترمذي من حديث سلَمة بن صخر بن البياضي قال: كنت امرأً أستكثر من النساء. فذكر القصة مطوَّلة، وليس فيها «استغفر الله» إلى آخره».

فإنْ قلتَ: أيُّ رقبةٍ تُجزئُ في كفّارةِ الظِّهار؟

قلتُ: المُسلِمةُ والكافِرةُ جميعًا، لأنّها في الآيةِ مطلَقةٌ. وعندَ الشافعيِّ رضي الله عنه لا تُجزئُ إلّا المُؤمنةُ لقولِه تعالىٰ في كفّارةِ القَتْلِ: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ [النساء: ٩٢] ولا تُجْزِئُ أمُّ الولدِ والمُدبَّر والمُكاتَبُ الذي أدّىٰ شيئًا، فإن لم يؤدِّ شيئًا جازَ. وعند الشّافِعيِّ: لا يجوزُ.

فإن قلتَ: فإن أعتَقَ بعضَ الرَّقبةِ، أو صامَ بعضَ الصِّيام ثمَّ مَسَّ؟

قلتُ: عليهِ أن يستأنِفَ، نهارًا مسَّ أو ليلًا، ناسِيًا أو عامِدًا عندَ أبي حنيفةَ، وعِندَ أبي يوسُفَ ومُحمّدٍ: عِتقُ بعضِ الرَّقبةِ عِتقُ كُلِّها فيُجزِئُه، وإن كانَ المسُّ يُفسدُ الصّومَ استقبلَ، وإلّا بنىٰ.

فإن قلتَ: كم يُعطىٰ المسكينُ في الإطعامِ؟

قلتُ: نصفَ صاعٍ من بُرٍّ، أو صاعًا من غيرِه عند أبي حَنيفةَ، وعندَ الشّافِعيِّ مُدًّا من طعامِ بلدِه الذي يُقتاتُ فيه.

فإن قلتَ: ما بالُ التّماسّ لَم يُذكَر عِندَ الكفّارةِ بالإِطعام، كما ذكَره عِندَ الكفّارَتَين؟

شَهرُ رمضَان خِفتُ فظاهرتُ حتّى يَنْسَلخَ شَهرُ رَمضَان، فبينا هي تخْدِمُني ذات ليلةٍ إذ انْكَشَف لي مِنها شيءٌ، فما لَبِثت أن نَزَوتُ عليها، فأخبَرتُ النّبيَّ ﷺ قال: «حَرِّرْ رَقَبَةً» قُلتُ: وَالّذي بَعثَك بالحَقِّ ما أمْلِكُ رَقَبةً غَيْرَهَا، وضَربتُ صَفحةَ رَقَبتي، قال: «فَصُمْ شَهْرَين مُتَتابِعَين» قلتُ: وهَلْ أصبتُ الّذي أصَبْتُ إلا من الصِّيامِ؟ قال: «فأطْعِم وَسَقاً مِن تَمْرٍ سِتينَ مِسْكيناً»، قلتُ: والّذي بَعَثَك بِالحَقِّ نبياً لَقد بتنا وَحْشَين ما أمْلِك لنا طَعَاماً، قال: «فَانْطَلِق إلى صَاحِب صَدَقَة بَني زُرَيق فَلْيَدفَعها إليك فأطْعِم سِتِّينَ مِسْكيناً وَسَقاً من تَمرٍ، وَكُلْ أنتَ وَعِيالُك بقِيَّتها» الحديث. بنو بَيَاضَة بطْنٌ من بني زُرَيق.

النهاية: يقال: رجُلٌ وَحْشٌ ـ بالسُّكون ـ من قَومٍ أوْحَاشٍ؛ إذا كان جَائِعاً لا طَعَامَ له، وقَد أوْحَش؛ إذا جَاع.

قلتُ: اختُلِفَ في ذلك، فعندَ أبي حَنيفةَ: أنّه لا فَرقَ بينَ الكفّاراتِ الثّلاثِ في وجوبِ تقديمِها علىٰ المِساسِ، **وإنّما تُرِكَ ذِكرُه عندَ الإطعامِ، دلالةً علىٰ أنّه إذا وُجِد في خلالِ الإطْعـامِ لم يُستأنفْ كما يُستأنفُ الصّومُ** إذا وقَعَ في خِلالِه، وعند غيرِه: لم يُذكَر للدَّلالةِ علىٰ أنّ التّكفيرَ قبلَهُ وبعدَهُ سواءٌ.

فإن قلتَ: الضَّميرُ في ﴿أَن يَتَمَآسَّا﴾ إلامَ يَرجِعُ؟

قولُه: (وإنَّما تُركَ ذِكْرُه عِندَ الإطْعَامِ، دَلالةً على أنّه إذا وُجِد في خِلالِ الإطْعَام لم يُسْتَأنفْ كما يُسْتَأنف الصَّوم)، الانتصاف: يُقال له: إذا جَعلتَ ذِكرَ التَّمـاس في بعضِها، وترك ذكْره في بعضِها موجباً للفَرق، فَلِم جعلْتَه مؤثِّراً في أحدِ الحُكْمين دون الآخَر؟ وله أنْ يقول: اتَّفَقنا على التَّسْويَة بين الثَّلاثِ في هذا الحُكْمِ، وقد نطقت الآيةُ بالتَّفرقة، فلَم يُمكِن صَرفُه إلى ما وقع الاتِّفَاق على التَّسويَة فيه، فتعَيَّن صَرفه إلى الآخَر.

فإنْ قيل: فكان تَقْييده بالتَّماسِّ في موضعٍ واحدٍ، ليُحْمل عليه المُطْلقان الباقِيَان كافياً، فما فَائدة ذكْرُه بعد الصَّوم؟

والجواب: أنَّ ذكْرَه معَ العِتْقِ يُفِيدُ تَحْريم الوَطْء قبله، ولا يُتَصوَّر الوَطْء في أثْناءِ العِتْق، إذ لا يَتبعَّض ولا يَتفرَّق، وإنَّما احْتِيجَ إلى الصِّيام الوَاقِع على التَّوالي ليُفِيدَ[1] تَحْريم الوَطْءِ قَبل الشُّروعِ وبَعْد الشُّروع إلى التَّمام، ولو لم يُذكَر لذَهَب الوَهْمُ إلى تَحْريمه قَبل الشُّروع خاصَّةً، واستُغْنِي عن ذِكْرِه في الطَّعَام بِذكْرِه في الصِّيام، لأنَّه مِثلُه في التَّعَدُّد والتَّوالي، وإمكَان الوَطْء في خِلالِه، هذا على أنَّ العِتق لا يَتجزَّأ، وعن ابن القَاسِم: من أعْتَق شِقْصاً من عَبدٍ يملكُ جَمِيعَه ثمَّ إن أعتَق بَقِيَّته عن الكَفَّارة جَاز، وهو خِلافُ القَواعِد.

فإنْ قيل: ارتفاع التَّحْريم بالكَفَّارة بعد التماسِّ أما إن يُشْتَرط فيه عدمُ التَّماسّ أو لا، فإنْ كان الأوَّل فلا يرتفع التَّحْريمُ بالكَفَّارة، وإنْ كان الثّاني لَزِمَ ارتِفَاعُ التَّحْريم بالكَفَّارة التي يَتخلَّلها التَّماسّ.

---

(١) من قوله: «تحريم الوطء قبله»، إلى هنا ساقط من (ط)، وأثبته من (ح) و(ف).

قلتُ: إلىٰ ما دَلَّ عليهِ الكلامُ من المُظاهِرِ والمُظاهَرِ منها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ البيانُ والتَّعليمُ للأحْكامِ والتَّنبيهُ عليها لِتُصدِّقُوا ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في العمَلِ بشرائِعِه التي شَرَعها من الظِّهارِ وغيرِه، ورفضِ ما كُنتم عليه في جاهِلِيَّتِكُم ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي لا يجوز تعدّيها ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ الذينَ لا يتّبِعُونها ولا يعملُونَ عليها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

[﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ ٥ - ٦]

﴿يُحَآدُّونَ﴾ يُعادُون ويُشاقّونَ ﴿كُبِتُوا۟﴾ أُخْزوا وأُهْلِكوا ﴿كَمَا كُبِتَ﴾ مَن قَبْلَهم من أعداءِ الرُّسُلِ. قيل: أُرِيدَ كَبْتُهم يومَ الخَنْدقِ، ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ تَدُلُّ علىٰ صِدقِ الرَّسولِ وصِحّةِ ما جاءَ به، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ بهذهِ الآياتِ ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يَذهبُ بِعزِّهم وكِبْرِهم. ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾ منصوبٌ بـ«لهم»، أو بـ﴿مُّهِينٌ﴾، أوْ بإضْمارِ «اذكُر» تعظيمًا

فجَوابُه أنَّ التَّماسَّ مُنافٍ لصِحَّة الكَفَّارة واعْتِبارِها في رَفع التَّحْريم، فإنْ وقَع قبل الشُّروعِ في الكَفَّارة تَعذَّر الحُكمُ بِبُطلانِ الكَفَّارة، لأنَّ مَحلَّ الحُكْمِ الَّذي هو الكَفَّارة لم يُوجد، أمَّا إنْ وَقعَ في أثنائها، فالمَحلُّ المَحْكُوم فيه بِعَدم الصِّحَة قائمٌ، فوَجب الحُكْمُ به، فهو كالحَدَثِ إذا كان قَبلَ الطَّهارةِ لا يُبْطِلُ شَيئاً لم يُوجَد، وإنْ وَقَع في أثْنائها أبطَلها، تم كلامه(١).

قولُه: (أوْ بإضْمارِ «اذكُر» تَعظيمًا)، اعْلم أنَّ قَولَه: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ إمَّا تَتْميمٌ أو تَذييلٌ، كقَوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] قال المُصنِّف: «﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي عليهم، وَضْعاً للمُظْهر مَوضِع المُضمَر، للدَّلالة على أنَّ الَّلعْنَة لَحِقتْهم لِكُفرِهم، والَّلامُ للعَهدِ، ويجُوز أن تكُونَ للجِنْس، فيدْخُلوا فيه دُخُولاً

(١) «الانتصاف» (٤: ٤٨٦).

لليومِ، ﴿جَمِيعًا﴾ كلُّهم لا يُترَكُ منهم أحدٌ غيرَ مَبعوث. أو مُجتَمِعينَ في حالٍ واحدةٍ، كما تقول: حيٌّ جميعٌ ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ تَخْجِيلًا لهم ....

أولياً»، كذلك هاهنا إذا جعل اللام في ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ للعَهْد، كان ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ وضْعاً للمُظْهر مَوضِع المُضْمر، والمعنى ما قال:(١) «للكافرين الّذين لا يَتَّبِعُونها ولا يعْمَلون عليها»، أي: لا يَكْدحُون منها، ويَكون ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾ مُتعَلِّقاً بالجارِّ والمَجْرُور، وإليه الإشَارَة بقولِه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾ منْصُوبٌ بـ «لهم»، فوضع المُضْمَر مَوضِع «الكافرين»، فيكون تَتمِيماً، وإذا جعل اللام للجِنْس ليَدخُل فيه أولئك المُحادُّون دُخُولاً أوّلياً يكونُ تَذييلاً، ويَنْتصِب الظَّرف بإضْمارِ «اذْكُر» لِتَمامِ الكلامِ هناك، فَتستَقِلّ دَلالةُ الجُملة المُبتَدأة، فيَعْظُم شَأنُ اليومِ، ويَجْتمعُ لهم ذُلُّ الدَّارَين؛ لأنَّ المُراد بقولِه: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: الذُّلّ والصَّغارَ في الدُّنيا، كما قال: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يَذهَبُ بِعِزِّهم وكِبْرِهم»، والكَبتُ: ما جَرى عليهم يومَ الخَنْدق.

الراغب(٢): قال: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لأنَّ قبلَه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فقد جعل الكَبْتَ جَزاء من آثَر حِزْباً غَيرَ حِزْبِ الله ورسُولِه، وحَدّاً غيرَ حَدِّهما، والكَبْتُ: الإذْلالُ قبل الغَلَبِ والقَهْر والتَّخْييب، فلمَّا أخبرَ الله تعالى بالكَبْت عمَّن حادَّ الله ورسولَه وجانَبَهُما وصار في حدٍّ غير حَدِّهما، وصَف العَذاب الذي ينزل به بالإذْلال والهَوان، ويَشهد لذلك ما جاء في خَاتمة السُّورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾(٣).

قولُه: (حيٌّ جميعٌ)، الأساس: هو جميعُ الرَّأي، وجَميعُ الأمر، وحَيٌّ جميعٌ ورجل مُجتمع: اسْتَوت لِحْيتُه وبلغت غاية شبابِه.

---

(١) من قوله: «للكافرين للعهد» إلى هنا ساقط من (ح).

(٢) كذا في الأصول الخطية، والنقل من «درة التنزيل وغرة التأويل»، وقد تقدم التنبيه إلى الخلاف في نسبته، وأن الأصح أنه للخطيب الإسكافي.

(٣) «درة التنزيل وغرة التأويل» للخطيب الإسكافي (٣: ١١٧٥).

وتوبيخًا وتَشْهيرًا بحالِهم، يتمنَّونَ عندَه المُسارَعةَ بهم إلىٰ النَّارِ، لِما يَلحَقُهم من الخِزْيِ علىٰ رؤوسِ الأشهاد، ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أحاطَ به عددًا لم يفُتْه مِنهُ شَيءٌ، ﴿وَنَسُوهُ﴾ لأنَّهم تهاوَنوا به حينَ ارتكبُوه، لم يُبالوا به لِضراوَتِهم بالمعاصِي، **وإنّما تُحفَظُ مُعظَّماتُ الأُمور**.

[﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ٧]

﴿مَا يَكُونُ﴾ **مِنْ (كانَ) التامّةِ، وقُرِئَ بالياءِ والتّاءِ**، والياءُ علىٰ أنّ النَّجوىٰ تأنيثُها غيرُ حقيقيٍّ و﴿مِن﴾ فاصِلةٌ؛ أو علىٰ أنّ المعنىٰ ما يكونُ شيءٌ من النّجوىٰ، والنّجْوىٰ: التّناجِي، فلا تَخْلو إمّا أن تكونَ مُضافةً إلىٰ ثلاثةٍ، أي: من نَجْوىٰ ثلاثةِ نَفرٍ. أو مَوْصوفةً بها، أي: مِن أهلِ نَجوىٰ ثَلاثةٍ، فحَذفَ الأهلَ. أو جعلوا نجْوىٰ في أنفُسِهم مبالغةً، كقولِه تعالىٰ: ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] وقرأ ابن أبي عَبْلَةَ: (ثلاثةً وخَمسةً)، بالنَّصْبِ علىٰ الحالِ بإضْمارِ «يَتناجَوْن»؛ لأنّ ﴿نَجْوَىٰ﴾ تَدُلُّ عليه، أو علىٰ تأويلِ ﴿نَجْوَىٰ﴾ بـ«مُتناجِين»، **ونصبِها من المُستكِنِّ فيه**.

قولُه: (**وإنما تُحفظُ معظّمات الأمور**)، بيان لتعليل ﴿نَسُوهُ﴾ بقوله: «لأنهم تهاونوا به».

قولُه: (﴿مَا يَكُونُ﴾، **مِن «كان» التّامّة، وقُرئ بالياءِ والتّاءِ**)، قال ابن جِنِّي: بالتّاء: أبو جعفر وأبو حَيّة، والتَّذكيرُ الذي عليه العامّة هو الوَجه، لما فيه من الشّياعِ وعُمومِ الجِنْسيَّة، كقولك: ما جَاءني من امْرأة، وما حَضرني من جَارية، وأمَّا التَّأنيثُ فلاعْتِبار اللفظ، كما تَقول: ما قامَت امْرَأةٌ ولا حَضرت جارية، و﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾[1].

قولُه: (**ونَصْبِها**)، بالجرِّ عَطْفٌ على «تأويل»، أو بالرَّفع فهو مُبتدأٌ، خبره «مِن المُسْتكِن»،

---

(١) «المحتسب» (٢: ٣١٥).

فإن قلتَ: ما الدّاعي إلىٰ تخصيصِ الثّلاثةِ والخَمْسةِ؟

قلتُ: فيه وجْهان، أحدُهما: أنّ قومًا مِن المنافقين تحلّقُوا للتّناجِي مُغايَظةً للمُؤمنين علىٰ هذين العَدَدين: ثَلاثةً وخَمْسةً، فقيلَ: ما يَتناجَىٰ مِنهم ثَلاثةٌ ولا خَمسةٌ كما تَرَوْنَهم يتَناجَوْن كذلكَ ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن﴾ عَدَدَيْهم ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا﴾ واللهُ معهم يسمَعُ ما يقولونَ، فقد رُوِيَ عن ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: أنّها نزلَتْ في رَبيعَةَ وحَبيبِ ابنَي عَمْرٍو وصَفْوانَ بنِ أميّةَ: كانوا يومًا يَتحدّثونَ، فقالَ أحدُهم: أتَرىٰ أنّ اللهَ يعلَمُ ما نَقول؟ فقال الآخَرُ: يعلَمُ بعضاً ولا يعلَمُ بعضاً. وقالَ الثالثُ: إنْ كانَ يعلَمُ بعضًا فهُوَ يعلَمُ كُلَّه، وصَدَقَ؛ لأنّ مَن عَلِمَ بعضَ الأشياءِ بغيرِ سببٍ فقد عَلِمَها كُلَّها؛ لأنّ كونَه عالِمًا بغيرِ سبَبٍ ثابتٌ له معَ كُلِّ مَعْلومٍ، والثّاني: أنهُ قَصَد أنْ يذكُرَ ما جرَتْ عليهِ العادةُ مِن أعدادِ أهلِ النّجْوىٰ، والمُتَخالِّينَ للشّورىٰ، والمُنْدَّبونَ لذلِكَ لَيْسُوا بِكُلِّ أحَدٍ، وإنّما هُم طائفةٌ مُجتباةٌ مِن أُولي النُّهىٰ والأحْلام، ورَهْطٌ مِن أهْلِ الرّأيِ والتّجارِبِ، وأوّلُ عددِهم: الاثنانِ فصاعِدًا إلىٰ خَمسةٍ إلىٰ ستّةٍ إلىٰ ما اقْتَضَتهُ الحالُ، وحَكَم به الاستِصْوابُ. ألا تَرىٰ إلىٰ عُمَرَ بنِ الخَطّابِ رضيَ اللهُ عَنْه كيف تركَ الأمرَ شُورىٰ بين ستّةٍ ولَم يتَجاوزْ بها

يعني يجُوز أن يكون ﴿نَجۡوَىٰ﴾ بمَعنى مُتَناجِين، ويكون نَصْبُ «ثلاثةً» على الحال من الضَّمير المُسْتكِن في النجوى.

قولُه: (بغَير سَبَبٍ)، أي: بغير سَبَبٍ خَارِجيٍّ، يعني أنَّ سَبَب العِلم بذلك هو ذاتُه.

قولُه: (والمُنَدَّبون لذلك)، أصله: المُنْتدَبون، فقُلِبت التّاء دالاً وأُدْغِم، أي: مُدعَون للشُّورى، يقال: نَدَبه لأمرٍ فَانْتَدَب له، أي: دَعاه له فأجَاب.

الأساس: نَدَب لِكَذا أو إلى كذا، وفُلانٌ مَنْدوبٌ لأمرٍ عظيمٍ ومُنَدَّبٌ له.

قولُه: (كيفَ تَركَ الأمْرَ شُورى بين سِتّة)، قال صاحِبُ «الكامل في التاريخ»: إنَّ عمرَ ابن الخطّاب لما طُعن قيل له: يا أميرَ المُؤمِنين لو استَخْلَفت؟ قال: لو كان أبو عُبَيدة حياً

إلىٰ سابع؟ فذكَرَ عزَّ وعَلا الثّلاثةَ والخَمسةَ وقال: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ **فَدَلَّ علىٰ الاثنينِ والأربَعة**، وقالَ ﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ فدلّ علىٰ ما يلي هذا العدَدَ ويُقارِبُه. وفي مُصحَفِ عبدِ الله: إلّا اللهُ رَابعُهم، ولا أربَعةٌ إلّا اللهُ خامِسُهم، ولا خَمسةٌ إلّا اللهُ سادِسُهم، ولا أقلُّ من ذلك ولا أكثرُ إلّا اللهُ معَهم إذا انتَجَوا. وقُرِئَ: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ﴾، **بالنّصْبِ** علىٰ أنّ «لا» لنَفـيِ الجِنسِ. ويجوزُ أن يكونَ: (ولا أكثـر)، بالرّفْعِ **مَعطوفًا علىٰ محلّ «لا»** مع ﴿أَدۡنَىٰ﴾،

لاسْتَخلفتُه، ولو كان سالم مَولى أبي حُذَيفة حياً لاسْتَخْلفتُه، وقيل له: عبد الله بن عمر؟ قال: كيف أسْتَخلِفُ رجلاً عَجَز عن طلاقِ امرأتِه؟! ثمّ قال: إن أسْتَخْلِف فقد اسْتَخْلَفَ من هو خيرٌ مِنّي، وإنْ أترك فقد تَرك من هو خيرٌ مِنّي، ثمّ قال: اجْتمعتُ بعد مَقالَتي أنَّ أولّيَ رجلاً هو أحْرَاكُم أنْ يَحْملكُم على الحقّ، وأشار إلى عليٍّ رضي الله عنه، فرَهِقَتْني غَشْيَةٌ فرأَيْتُ رجُلًا دخَلَ جَنَّةً، فَجعَل يَقْطِفُ كُلَّ غَضَّةٍ ويَانِعَةٍ فيَضُمُّهُ إلَيْهِ وَيُصَيِّرُهُ تَحْتَهُ، فَعلمتُ أنَّ الله غالِبٌ على أمْرِه، فما أردتُ أنْ أتحمَّلها حيًّا وميتًا، عليكُم بهؤلاء الرَّهْط الذين قال رسُولُ اللّـه ﷺ: «إنّهم من أهل الجنَّة»، وهُم: عليٌّ، وعثمانُ، وعبد الرَّحمن، وسعد، والزُّبير بنُ العوَّام، وطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ الله، فَلْيَخْتَارُوا مِنهُمْ رَجُلًا، فلمّا أصبحَ عُمرُ دعَاهُم رُضوان الله عليهم وقال: إنّي نظرتُ فوجَدْتكم رُؤساء النّاسِ وقَادَتهم، ولا يكون هذا الأمرُ إلا فيكم، وقد قُبِضَ رسولُ الله ﷺ وهو عنكُم راضٍ، فانهَضُوا إلى حُجْرة عائشة بإذْنِها فتَشَاوَروا فيها... القصة بتمامها[1].

قوله: (**فدَلَّ على الاثنَينِ والأربعة**)، فيكونُ التقدير: ولا اثنَينِ إلا هو ثالثُهما، ولا أربعةٍ إلا هو خامسُهم.

قولُه: (﴿وَلَآ أَكۡثَرَ﴾ **بالنَّصب**)، وهي المشهُورة، وبالرَّفْعِ شَاذَّةٌ.

قولُه: (**مَعْطوفًا على مَحلّ «لا» مَع ﴿أَدۡنَىٰ﴾**)، قال:

لا أمَّ لي إنْ كان ذاك ولا أب

---

(١) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٢: ٤٤١).

كقولِك: لا حَولَ ولا قُوّةٌ إلّا بالله، بفَتْح الحَوْلِ ورَفْعِ القُوّة، ويجوزُ أنْ يَكونا مَرفوعَيْنِ علىٰ الابْتِداءِ، كقَولِكَ: لا حولٌ ولا قُوّةٌ إلّا باللهِ، وأنْ يَكونَ ارتفاعُهما عَطْفًا علىٰ محلِّ ﴿مِن نَّجۡوَىٰ﴾ كأنه قيل: ما يكون أدنىٰ ولا أكثرَ إلّا هو معهم. ويجوز أن يكونا مجرورين عطفاً علىٰ ﴿نَّجۡوَىٰ﴾، كأنّه قيل: ما يكونُ مِن أدْنىٰ ولا أكثرَ إلّا هو مَعَهم. وقُرِئَ: (ولا أكبَرُ) بالباء.

ومَعنىٰ كونِه مَعَهم: أنّه يعلمُ ما يتناجَوْن به ولا يَخفىٰ عليهِ ما هُم فيهِ، فكأنّه مُشاهِدُهم ومُحاضِرُهم، وقد تعالىٰ عن المكانِ والمُشاهَدَة. وقُرِئَ: (ثُمّ يُـنْبِئُهم) علىٰ التّخفيف.

[﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ٨]

كانت اليَهودُ والمنافقون يَتناجَونَ فيما بينَهم، ويتَغامَزونَ بأعيُنِهم إذا رأَوُا المؤمِنين، يُريدونَ أن يُغيظوهم، فنهاهُم رسولُ الله ﷺ فعادوا لِمثل فِعلِهم، وكانَ تَناجِيهم بما هو إثمٌ وعُدوانٌ للمؤمنين، وتَواصٍ بمعصِيةِ الرَّسولِ ومخالفتِه.

وقرئَ: (يَنتَجُون بالإثمِ والعِدْوان) بكَسْرِ العَيْنِ، و(مَعصِياتِ الرَّسولِ).

﴿حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يعني أنّهم يقولونَ في تحيّتِك: السّامُ عليكَ يا محمَّد، ....

و«لا» الثّانية على هذا مُؤكِّدةٌ غيرُ عامِلة، كقولك: ليس زيدٌ ولا أخوه مُنْطَلقين، أي: ليس زيد وأخوه منطلقين، فـ«لا» مَزيدةٌ للتّأكيد.

قولُه: (وقُرئ: «يَنتَجون»)، حمزة: بنون ساكنة بعد الياء، وضم الجيم، والباقون: بتاءٍ مفْتوحَةٍ بين الياءِ والنون وألفٍ بعد النون وفتْحِ الجيم[١].

قولُه: (أنّهم يَـقُولُون في تَحِيَّـتِك: السَّامُ عَلَيك)، عن البُخاريِّ ومُسْلمٍ والتِّـرْمذيِّ عن

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» للداني، ص١٣٣.

والسَّام: السموتُ، واللهُ تعالىٰ يقول: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٦٧] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾: [الأنفال: ٦٤].

﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ كانوا يقولون: ما له إنْ كان نَبيًّا لا يَدْعُو علَينا حتّىٰ يُعذِّبَنا اللهُ بِما نقولُ، فقالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذابًا.

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ٩-١٠]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ خِطابٌ للمُنافِقينَ الذينَ آمَنوا بألسِنَتِهم، ويجوزُ أن يكونَ للمُؤمِنينَ، أي: إذا تَناجَيْتُم فلا تَتشبّهوا بأولئكَ في تناجِيهم بالشَّرِّ ﴿وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾. وعن النبي ﷺ: «إذَا كُنْتُم ثلاثةً فلا يَتناجَ اثنانِ دونَ صاحِبِهما فإنّ ذلك يُحزِنُه»، ....

عَائِشة[١] رضي الله عنها قالت: أتى النَّبيَّ ﷺ ناسٌ من اليهود فقالوا: السَّامُ علَيك يا أبا القَاسِم، فقال: «وعَلَيكُم» الحديث.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عَمرو[٢]: أنَّ اليهودَ أتَت النَّبي ﷺ فقالت: السَّام عليكم، وقالوا في أنفُسهم: لولا يُعذِّبُنا الله بِما نَقُول، فأنزل الله تعالى الآية.

قولُه: (إذَا كُنْتُم ثلاثةً فلا يَتَناجَ اثْنان)، رُوِّينا عن البُخاريِّ ومُسْلِم والتِّرمِذيِّ وأبي دَاودَ عن ابنِ مَسْعودٍ[٣] أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَ اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ،

(١) البخاري (٢٩٣٥)، ومسلم (٢١٦٥)، والترمذي (٢٧٠١).

(٢) «مسند الإمام أحمد» (٢: ٢٢١).

(٣) هكذا ورد تخريج هذا الحديث في «جامع الأصول» (٦: ٥٣٥) حيث تم عزوه لمن ذكرهم المصنِّف، والمصنف يعتمد اعتماداً كبيراً على «جامع الأصول» في العزو والتَّخريج، ولكنني لم أجد هذا الحديث =

وروي: «دون الثّالث». وقُرئَ: (فَلا تَناجَوْا)، وعن ابنِ مَسْعودٍ: إذا انْتَجَيتُم فلا تَنْتَجوا.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ اللامُ إشارةٌ إلىٰ النّجوىٰ بالإثمِ والعُدوان، بدليلِ قَولِه تعالىٰ: ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ والمعنىٰ: أنّ الشيطانَ يُزَيِّنُها لهم، فكأنّها منه لِيَغيظَ الذينَ آمَنوا ويَحزُنَهم ﴿وَلَيْسَ﴾ الشّيطانُ أو الحُزنُ ﴿بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

فإنْ قُلتَ: كَيفَ لا يَضرُّهم الشيطانُ أو الحُزنُ إلّا بإذنِ الله؟

حَتّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ، ولا تُباشِرِ امْرأةٌ امْرأةً فَتَصِفَها لزَوْجِها كأنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا» لا تُباشِر، أي: لا تَنظُر إلى بَشَرتِها، لقولِه: فتَصِفَها.

قوله: (بدليل قوله: ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾)، أي: التَّعريف مِنه للعَهْد، والمَعْهودُ شيئان أحَدُهما: قولُه: ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾، وثانيهما قولُه: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ فلا تتناجوا بالإثم والعُدوان، والذي يَدُلُّ على أنّ المُرادَ الأوّلُ قولُه: ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، يعني إنّما يحْزَن المؤمِنون من تَناجي اليهود والمُنافِقين، ويَعْضُده جَواب السُّؤال: «كانوا يُوهِمون المؤمِنين».

قولُه: (كيفَ لا يَضُرُّهم الشَّيطانُ والحُزنُ إلا بإذْنِ الله؟)، أي بخلقه وتقديره، كذا قدر الإمام[1]، وقال الوَاحِدي: أي ليس الشَّيطانُ بِضَارِّهم شِيئاً إلا بِما أَرادَ الله ذلك، كان المؤمِنون إذا رَأوهم مُتَناجين قالوا: لعَلَّهم يَتَناجَون بما بَلَغَهُم عن إخوانِنا الّذين خَرجوا في السَّرايا مِن قَتْلٍ أو مَوتٍ أو هَزِيمةٍ، قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بما أراد الله[2].

= عند أغلب من تم العزو إليهم بالرغم من بذل الجهد، فقد أخرج هذا الحديث البخاري في «صحيحه» (٦٢٩٠) ومسلم في«الصحيح» (٢١٨٤)، والترمذي في «الجامع» (٢٨٢٥)، وأبو داود في «السنن» (٤٨٥١) كلهم اقتصر على الشطر الأول منه! بالرغم من أن الحميدي في «الجمع بين الصحيحين» (١: ١٢٢) رقم (٢٦٥) ذكر الحديث بشِقَّيه كما ذكر المصنِّف!

(١) «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي (٢٩: ٤٩٢).

(٢) «الوسيط» (٤: ٢٦٥).

قلتُ: كانوا يُوهِمونَ المُؤمِنينَ في نَجْواهُم وتغامُزِهم أنّ غُزَاتهم غُلِبوا، وأنّ أقارِبَهم قُتِلوا، فقالَ: ولا يَضرُّهُم الشيطانُ أو الحَزَنُ بذلك المُوهِم إلّا بإذنِ الله، أي: بمَشيئتِه، وهو أنْ يَقضِيَ الموتَ علىٰ أقارِبِهم أو الغَلَبةَ علىٰ الغُزاة. وقُرِئَ: ﴿لِيَحْزُنَ﴾ و(لِيُحزِن).

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ ١١]

﴿تفَسَّحُواْ فِي المَجْلِس﴾ تَوَسَّعُوا فيه ولْيَفْسَح بعضُكم عن بَعْض، من قولِهم: افسَحْ عنّي، أي: تَنَحَّ؛ ولا تَتضامُّوا. وقُرِئَ: (تفاسَحُوا)، والمُرادُ: مجلسُ رَسولِ الله، وكانوا يَتضَامُّون فيه تَنافُسًا علىٰ القُربِ منه، وحِرْصًا علىٰ استماعِ كَلامِه، وقيل: هُوَ المجلسُ من مَجالِسِ القِتالِ، وهي مَراكِزُ الغُزاةِ، كقَولِه تعالىٰ: ﴿مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] وقُرِئَ: ﴿فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ قيل: كانَ الرَّجُلُ يأتي الصّفَّ فيقولُ: تَفَسَّحُوا، فيأبَوْن لِحِرْصِهم علىٰ الشّهادة. وقُرِئَ: (في المَجْلَسِ) بفَتْحِ اللّام: وهو الجُلوسُ، ......

قولُه: (وقُرئ: ﴿لِيَحْزُنَ﴾ و«لِيُحْزِن»)، الثّانيةُ: لنافِع، والأولى: للباقين[١].

قولُه: (وقُرئ: «تَفاسَحُوا»)، قال ابن جِنّي: وهي قِراءةُ الحسن، وهذا لائِقٌ بالغَرَض لأنّه إذا قيل: تَفَسَّحوا لم يكن فيه صُراحٌ، بدليل: «ليَفسَح بعْضُكم عن بَعْض»، وإنّما ظاهِرُ معناه: لِيكُن هناك تَفسُّح، وأمّا التّفاسُح فتَفاعُل، فهو لِـما فوقَ الواحِد[٢].

قولُه: (﴿فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾)، عاصم، والباقون: «في المَجْلِس» بكسر اللام، والفَتْحُ شاذ[٣].

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» للداني، ص٧٠.

(٢) «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (٢: ٣١٥).

(٣) «التيسير في القراءات السبع» للداني، ص١٣٣.

أي: توسَّعوا في جُلوسِكُم ولا تَتضايَقُوا فيه، ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ مطلقٌ في كُلِّ ما يَبْتَغي النَّاسُ الفُسْحةَ فيه من المكانِ والرِّزقِ والصَّدرِ والقَبرِ وغَيرِ ذلك.

﴿ٱنشُزُواْ﴾ انْهَضوا للتَّوْسِعَة علىٰ المُقْبِلين، أو انهَضوا عن مجلسِ رسولِ الله إذا أُمِرتُم بالنُّهُوضِ عنه، ولا تُمِلّوا رسولَ الله بالارتكازِ فيه، أو انْهَضُوا إلىٰ الصَّلاةِ والجِهادِ وأعمالِ الخَيرِ إذا استُنْهِضتُم، ولا تَثبَّطُوا ولا تُفرِّطوا. ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ﴾ المُؤمنينَ بامْتِثالِ أوامِره وأوامِرِ رَسولِه، **والعالِـمين مِنهم خاصّة ﴿دَرَجَٰتٍ﴾**، ....

قولُه: (والعَالِـمين منهم خاصَّةً ﴿دَرَجَٰتٍ﴾)، **الانتصاف**: وقَع في الجَزاء رفعُ الدَّرجَات مُنَاسَبةً للعَمل، لأنَّ المأمُورَ به تَفْسيحُ المَجَالِس، لئلا يَتنافَسوا في القُرْب من المكان المُرْتَفِع بِحُلول الرَّسول فيه، فالمُفْسِح حَابِسٌ لِنَفسِه عَمّا يتنافس فيه من الرِّفْعة تواضُعاً فَجُوزي بالرِّفعة، كقوله: مَن تَواضَع لله رَفَعَه الله، ثمَّ لـمّا عِلم أنَّ أهلَ العِلمِ يَستوجِبُون رَفْع المَجْلس خَصَّهُم بالذِّكْر لِيَسْهل عَلَيهِم تَرْكُ مَا لَهُم من الرِّفْعة في المَجْلِس تَواضُعاً لله تعالى، يُريد أنّه مِن باب «ملائكته ... وجِبريل».

وقلت: وفي إدْخَالِ الّذين أُوتوا العِلم في حُكمِ رَفْعِ المَنْزلة بسببِ امتثال الأوامر مع الذين آمنوا، ثم في إخْراجِهم عَنهم والعَطْف عَليهم مستقلة، إيْذَانٌ بأنَّ العَمَل الواحِد تَتفاوتُ درجةُ فاعِلِه بحسبِ التَّخَلِّي عن العِلْم والتَّحَلِّي به إلى غَاياتٍ بَعِيدةٍ، وأنَّ العَمل مع عُلوِّ رُتْبَتِه يَكْتَسي من العلم المَقْرون به من الرِّفْعة ما لا يَكْتَسِبُه إذا انفرد عنه، وقدّر القاضي: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾: بالنَّصْر وحَسُن الذِّكْرِ في الدُّنيا، وإيْوَائِهم غُرف الجِنَانِ في الآخِرة، ويرفَع العُلماء منهم خَاصَّةً دَرجَاتٍ بما جَمعوا بين العِلْم والعَمَل(١)، ويَعْضُدُه ما روىٰ الدَّارِميُّ عن ابن عبّاس قال(٢): يَرْفَع الذين أُوتُوا العِلم على الذين آمنوا دَرجات.

---

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ٣١٢).

(٢) «سنن الدارمي» (١: ١٠٠) (٣٥٣).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قُرِئ بالتّاء والياء. وعن عبد الله بنِ مَسعودٍ رضيَ اللهُ عنه: أنّه كانَ إذا قرأها قال: يا أيُّها الناسُ افهموا هذه الآيةَ ولتُرغِّبْكُم في العِلم. وعن النبيِّ ﷺ: «بَينَ العالِمِ والعابِدِ مئةُ دَرجةٍ بينَ كُلِّ دَرجَتينِ حُضْرُ الجوادِ المُضَمَّرِ سبعينَ سَنةً». وعنهُ عليهِ السّلامُ: «فضْلُ العالِمِ علىٰ العابِدِ كفَضْلِ القَمرِ ليلةَ البَدْرِ علىٰ سائرِ الكَواكِبِ»، ......

وروى مُحيي السُّنَّة عن ابنِ مَسْعُودٍ أنَّه قال: يا أيُّها الذين آمنوا افْهَموا معنى هذه الآية، ولِتُرغِّبْكُم في العِلم، فإنَّ الله يَرفَعُ المُؤمِنَ العَالِمَ فوقَ الّذي لا يَعْلَم(١).

ورُوعِيَت في هذا التَّرْكيبِ لَطِيفَةٌ وهي أنَّ من يشهد مَجْلِسَ رسُولِ الله ﷺ من المُؤمنين أحدُ رَجلين؛ عَامِلٌ يَسْمعُ للعَمَل، وعَالِمٌ عَامِلٌ يَسْمَعُ للعَملِ والاسْتِنْباط والتَّعْليم، فأراد الله سُبحانَه وتَعالى مَدْحَ الفَريقَين، وتَفْضيلَ أحدِهُما على الآخَر مِن حَيثُ لا يَلزَم منه نَقْصُه، أتى بالعَام وعَطَف عليه الخَاصّ، وأبْرَزَهُما في مَعْرض الجُملتين، فيكونُ من بابِ عَطْفِ التَّقدير لا الانسِحاب، فالدَّرجَاتُ ظَرفٌ للفِعْل المُقدَّر، ويُضمَرُ للمَذْكُور أحَظّ منه مما ناسب المَقام كما قدّره القاضي، وهو على أُسْلُوب قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ قُصِد فيه إلى بَيانِ فَضْل الذَّكر على الأُنثى دُون حَظِّ مَنزِلَةِ الأُنثى، إذْ لو قِيل: للأُنثى نِصفُ حَظِّ الذَّكر كان القَصْد إلى تَنقِيص الأُنثى.

قولُه: (﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، قُرِئ بالتَّاء) وهي المَشْهُورة، وبالياء التَّحْتانِيَّة: شاذَّة.

قولُه: (حُضْرُ الجَوادِ المُضَمَّرِ)، النهاية: الحُضْر بالضَّم: العَدْو، وأحْضَر يُحْضِر، فهو مُحْضِرٌ: إذا عَدَا، وتَضْمير الخَيل: هو أن يُظَاهر بالعَلَفِ حتّى تَسْمَن، ثَمَّ لا تُعْلَف إلا قُوتاً لِتَخِفّ.

قولُه: (فَضْلُ العَالِمِ على العَابِد كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلى سَائِرِ الكَوَاكِبِ)، الحديثُ بِطُولِه أخْرجَه التِّرمِذيُّ وأبو داود وابن ماجَه والدَّارِميُّ عن أبي الدَّرْدَاء(٢).

---

(١) «معالم التنزيل» (٥: ٤٦).

(٢) التِّرْمذي في «الجامع» (٢٦٨٢)، وأبو داود في «السنن» (٣٦٤٢)، وابن ماجه في «السنن» (٢٢٣)، والدارمي في «السنن» (١: ٩٨) (٣٤٢).

وعنه عليهِ السَّلامُ: «يَشْفَعُ يومَ القِيامةِ ثلاثةٌ: الأنبياءُ ثُمّ العُلَماءُ، ثمّ الشُّهَداء» فأَعْظِمْ بمَرتبةٍ هيَ واسِطةٌ بينَ النُّبوَّةِ والشّهادةِ، بشَهادةِ رسولِ الله! وعن ابنِ عبّاسٍ: خُيِّرَ سُلَيمانُ بَينَ العِلمِ والمالِ والمُلْكِ، فاختارَ العِلمَ فأُعطِيَ المالَ والمُلكَ معَه. وقالَ عليهِ السّلامُ: «وأَوْحَىٰ اللهُ إلىٰ إبْراهيمَ: يا إبراهيمُ، إنّي عَليمٌ أُحِبُّ كُلَّ عَليم». وعن بعضِ الحُكَماء: ليتَ شِعري أيَّ شيءٍ أدرَكَ مَن فاتَه العِلمُ! وأيّ شَيء فاتَ من أدركَ العِلمَ! وعنِ الأحنفِ: **كادَ العُلَماءُ يكونونَ أرْبابًا**، ....

وعن الدَّارِميِّ عن عَمرو بن كَثيرٍ عن الحسن أنَّه قال[1]: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ جاءَه المَوتُ وهو يَطْلُبُ العِلْمَ ليُحيِيَ به الإسْلامَ، فبينَه وبين النَّبيين دَرَجةٌ واحِدةٌ».

قولُه: (**كَادَ العُلَماءُ يَكُونُون أرْبَاباً**)، هذا من الغُلُوِّ، ويُمكن أن يُذهَبَ بهذا الحُكْم إلى معنى الإلحَاق، كما تقول: كادَ زَيدٌ يكونُ أسداً، أي: قَـرُب أنْ يُلحَق بالأسَدِ لما فيه من الجُرْأة، وأن يُراد التَّحْويل نَحو: كادَ زَيدٌ أنْ يكونَ أميراً.

والإلحَاقُ لا يَستَدعي المُساوَاةَ مِن كُلِّ الوُجُوهِ، والعُلماءُ إذا تَخَلَّقُوا بأخْلاقِ الله بِقَدْر اسْتِعْدادِهم لِكَونهم دُعَاةً للخَلْقِ إلى دِين الله هُدَاةً قَادَةً إلى صِراطِه المُسْتَقيم صَحَّ أنْ يَتَخصَّصُوا به، وقد وَرَد عن رسولِ الله ﷺ: «فإذا أحْبَبْتُه كُنْتُ سَمْعَه الّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الذي يَبْطِشُ بِها...» الحديثُ أخْرَجَه البُخَاريُّ عن أبي هُريرة[2]، هذا إذا اعْتُبر في الرَّب معنى التَّربِيَة، وهي تَبليغُ الشَّيء إلى كَمالِه شَيْئاً فَشَيئاً، لأنَّ الناسَ مُفْتقِرُون إليهم في أمُورِ مَعَاشِهم ومَعَادِهم، وهم خُلفَاء الله في أرضِه، وأمَّا إذا نُظِر إلى معنى المالِكيّة فيُحْمَل الحُكْم على التَّحْويل، أي: كَادُوا يَكُونون مُلُوكاً وأُمَراءَ لما بأيْدِيهم أزِمَّة الحَلِّ والعَقْد، كما جاء في تفسير قوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] عن ابن عبّاس:

---

(١) الدارمي في «السنن» (٢: ١٠٠) رقم (٣٥٤)، والحديث ضعيف لأنه مرسل، وفيه مجاهيل.

(٢) البخاري (٦٥٠٢).

وكُلُّ عِـزٍّ لم يُوطَّدْ بعِلمٍ فإلىٰ ذُلٍّ ما يَصير. وعن الزُّبَيريِّ: العِلمُ ذَكَـرٌ فلا يُحبُّه إلّا ذُكورةُ الرِّجال.

[﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۞ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ ١٢-١٣]

﴿بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ﴾ استعارةٌ ممّن له يَدان. والمعنىٰ: قَبلَ نَجْواكُم كقَولِ عُمَر: من أفضلِ ما أوتيتْ العَربُ الشِّعرُ، يقدِّمُه الرّجُلُ أمامَ حاجَتِه فيَسْتَمطِر به الكَريم ....

أولو الأمْرِ: الفُقَهاء والعُلَماء، الّذين يُعَلِّمُون النَّاسَ مَعالِمَ دِينِهم، في «المعالم»[1].

وعن الدَّارِميِّ عن عَطاء: أولو الأمر: أولو العِلْم[2]، ويَعْضُد هذا الوجه قوله: «وكُلُّ عِزٍّ لم يُوطَّد بِعِلمٍ فإلى ذُلٍّ ما يَصِيرُ».

قولُه: (لمْ يُوَطَّدْ)، قال ابن الأثير: يُقَال: وَطَدْتُ الأرْض أطِدُها؛ إذا دُسْتَها لتَتَصلَّب. الجوهري: وَطَدْتُ الشَّيء أطِدُهُ وَطْداً، أي: أثبَتُّه وثَقَّلْتُه، والتَّوْطِيدُ مِثلُه.

قولُه: (العِلْمُ ذَكَرٌ)، أي: العِلْمُ صِفَة كَمالٍ لا يُنْتِجه إلا الكَمَلَةُ، لأنّه مَرْكُوزٌ في الجِبِلَّةِ كَمالَ الذَّكَر ونُقْصان الأُنثى، ومِن ثَمَّ يقولون: هو الرَّجُل، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾، عِيبَ عَلَيهِنَّ صِفةُ النساء، من النَّشَاءِ في الزِّينَة والنُّعُومَة، وَسَلبَ عَنهُنَّ صِفَةَ الرِّجَال من البَيان في المَقَال، ومُجَارَاة الخُصُومِ في القِتَال.

---

(١) أي «معالم التنزيل» للبغوي (١: ٦٥٠).

(٢) الدارمي في «السنن» (١: ٧٢) (٢١٩).

ويَستَنْزِلُ بِهِ اللّئيمَ، يُريدُ: قبل حاجته، ﴿ذَٰلِكَ﴾ التَّقديمُ خيرٌ ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ في دينِكم ﴿وَأَطۡهَرُ﴾ لأنّ الصَّدَقةَ طُهرةٌ.

رُوِيَ أنّ الناسَ أكثروا مُناجاةَ رَسولِ الله ﷺ بما يُريدونَ حتّىٰ أَمَلُّوه وأبْرَموه، فأُريدَ أنْ يكفُّوا عن ذلِك، فأُمِروا بأنّ من أرادَ أن يُناجِيَه، قدّم قبلَ مُناجاتِه صدقةً.

قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنه: لـمّا نزلَتْ دَعاني رسولُ الله ﷺ فقال: «ما تقولُ في دينارٍ؟» قلتُ: لا يُطيقونَه. قال: «كم؟» قلتُ: حَبّةً أو شعيرةً؛ قال: «إنّك لَزهيد»، فلمّا رَأَوا ذلك اشْتَدَّ عليهِم فارتَدَعوا وكفُّوا، أمّا الفَقيرُ فلِعُسْرتِه، وأمّا الغَنيُّ فلِشُحِّه.

وقيل: كانَ ذلك عشرَ لَيالٍ ثُمّ نُسِخَ. وقيل: ما كان إلّا ساعةً من نهارٍ. وعن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه: إنّ في كتابِ الله لَآيةً ما عَمِلَ بها أحدٌ قَبلي ولا يَعمَلُ بها أحَدٌ بعدي كان لي دينارٌ فصرفتُه، فكنتُ إذا ناجَيتُه تصَدَّقتُ بدِرهَم. قال الكَلْبيُّ: تصَدَّقَ به في عَشرِ كَلماتٍ سألهنّ رسولَ الله ﷺ. وعن ابنِ عُمَرَ: كان لِعَليٍّ ثلاثٌ لو كانتْ لي واحدةٌ مِنهنَّ كانت أحَبَّ إليَّ من حُمُرِ النَّعَم: تزويجُه فاطمةَ، وإعطاؤُه الرايةَ يومَ خَيبَر، وآيةُ النّجوىٰ.

قال ابنُ عبّاس: هي منسوخةٌ بالآيةِ التي بعدَها، وقيلَ: هيَ منسوخةٌ بالزّكاةِ.

قولُه: (قال عليٌّ: لـمّا نَـزَلتْ)، الحديث، أخرجه التِّرمذيُّ عن عليٍّ رضي الله عنه[1] إلى قوله: «إنَّك لزَهِيدٌ»، قال: فنزلَت: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ﴾ الآية، قال: فبي خَفَّفَ الله عن هذه الأُمّة. وروى رَزين عنه: ما عَمِل بهذه الآيةِ غيره[2].

لزَهِيدٌ، أي: إنّك قليلُ الرَّغْبةِ في الدُّنيا، فلا جَرَم قدّرتَ على حَسَبِ رَغْبَتِك فيها.

---

(١) الترمذي (٣٣٠٠).

(٢) انظر: «جامع الأصول» لابن الأثير (٢: ٣٧٩) رقم (٨٣٦).

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ أَخِفتُم تقديمَ الصَّدَقاتِ لـِما فيهِ منَ الإنفاقِ الذي تكرهُونَه، وأنَّ الشيطانَ يَعدُكمُ الفقرَ ويأمُرُكم بالفَحشاءِ ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أُمِرتُم به وشَقَّ عليكم، و﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وعذَركُم ورخَّص لكُم في أن لا تفعَلوه، **فلا تُفرِّطُوا في الصَّلاةِ** والزّكاةِ وسائرِ الطّاعاتِ. ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ قُرِئَ بالتّاءِ والياء.

[﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ * اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ١٤-١٩]

كان المُنافِقون يَتولَّونَ اليَهودَ وهُم الذينَ غَضِبَ اللهُ علَيهم في قولِه تعالىٰ: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] ويُناصِحونَهم ويَنـقُلونَ إليهم أسـرارَ المؤمـنين،

قولُه: (فَلا تُفرِّطُوا في الصَّلاة)، أشْعَرَ بِأنّه جعل: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ جواباً لقولِه: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ قال أبو البقاء: قيل: إذْ بمعنى إذا، وقيل: هي بمعنى «إنْ» الشَّرطيَّة، وقيل: هي على بابها ماضية، والمعنى: أنّكم تركتم ذلك فِيها مضى فتَداركُوه بإقامَةِ الصَّلاة[١].

وقلت: إنَّما قال: لا تُفرِّطُوا في الصَّلاة، لأنَّ معنى الإقامة تَوْفِيةُ حُدودها وإدَامتها. **الراغب**: وفي تخصيص الإقَامة تنبيهٌ على أنّه لم يُرد إيْقَاعها فقط، ولهذا لم يُؤمر بالصَّلاة ولم يُمْدح بها إلا بِلفظِ الإقَامة، وكثير من الأفعَال التي حَثَّ الله على تَوفية حقِّه، ذكره بلفظ الإقَامة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٦] ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ﴾ [الرحمن: ٩][٢].

---

(١) «إملاء ما منّ به الرحمن» (٢: ٢٥٨).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٦٩٣.

﴿مَا هُم مِّنكُمْ﴾ يا مُسلِمون ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ ولا من اليَهودِ، كقولِه تَعالىٰ: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ أي يقولون: واللّٰهِ إنّا لَـمُسلمونَ، فيَحلِفونَ علىٰ الكَذِبِ الذي هُوَ ادّعاءُ الإسلام ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّ المحلوفَ علَيه كذِبٌ بَحتٌ.

فإنْ قلتَ: فما فائدةُ قولِه: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؟

قلتُ: الكذِبُ: أن يكونَ الخبرُ لا علىٰ وفاقِ المُخبَر عنه، سواءٌ علِم المُخبِرُ أو لم يعلَم، فالمعنىٰ: أنّهم الذين يُخبِرونَ، وخبرُهم خلافُ ما يُخبِرونَ عنه، وهم عالِمون بذلك مُتعَمِّدونَ له، كمَن يَحلفُ بالغَموسِ. وقيل: كانَ عبدُ الله بن نَبْتَلٍ المُنافِقُ يُجالِسُ رَسولَ الله ﷺ، ثمّ يَرفعُ حديثَه إلىٰ اليَهود، فبَينا رسولُ الله في حُجرةٍ من حُجَرِهِ إذْ قالَ لأصحابِه: «يَدخُل عليكم الآنَ رَجُلٌ قلبُه قلبُ جَبّار وينظرُ بعَينِ شَيطانٍ»، فدَخل ابنُ نَبتَل وكانَ أزْرَقَ، فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ: «علامَ تَشتُمُني أنتَ وأصحابُك؟» فحلفَ بالله ما فعَل، فقال عليهِ السّلامُ: «فعلتَ» فانطلقَ فجاءَ بأصحابِه، فحلَفوا بالله ما سبُّوه، فنزَلت.

﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ نوعًا من العَذابِ مُتفاقِمًا، ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يعني أنّهم كانوا في الزّمانِ الماضي المُتطاوِلِ علىٰ سوءِ العَمَل مُصِرّين علَيه. أو هِيَ حكايةُ ما يُقالُ لهم في الآخِرة. وقُرِئَ: (إيمانَهم) بالكَسْر، أي: اتّخذُوا أيْمانَهم التي حلَفوا بها، أو إيمانَهم الذي أظهَرُوه ﴿جُنَّةً﴾ أي: سُترةً يَتستّرونَ بها مِن المؤمنين ومِن قَتْلِهم ﴿فَصَدُّوا۟﴾ الناسَ في خلالِ أمنِهم وسلامَتِهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وكانوا يُثبِّطونَ من لَقُوا عن الدُّخولِ في الإسلامِ ويُضْعِفونَ أمرَ المُسلِمين عندَهم.

قولُه: (وقُرِئ: «إيمانَهم»، بالكَسْر)، قال ابن جِنّي: قرأَهَا الحسن، هذا على حَذْفِ المُضَاف، أي: اتَّخَذوا إظْهَار إيمَانِهم جُنَّة[1]، وفيه لَفٌّ ونَشْر.

---

(١) المحتسب (٢: ٣١٥).

وإنّما وَعَدهم اللهُ العذابَ المُهينَ المُخزِي لكُفرِهمْ وصَدِّهمْ، كقولِه تَعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عَذابِ الله ﴿شَيْـًٔا﴾ قَليلًا من الإغناء. ورُوِيَ أنّ رَجُلًا منهم قال: لنُنصَرنّ يومَ القِيامةِ بأنفُسِنا وأموالِنا وأوْلادِنا. ﴿فَيَحْلِفُونَ﴾ لله تعالىٰ علىٰ أنّهم مُسلِمونَ في الآخِرة ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدُّنيا علىٰ ذلك، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من النّفعِ، يعني: ليس العَجَبُ من حلِفِهم لكم، فإنّكُم بشرٌ تَخفىٰ عليكُم السّرائرُ، وأنّ لهم نفعًا في ذلك: دَفعًا عن أرواحِهم، واستجرارَ فوائدَ دُنيويّة، وأنّهم يَفعلونَه في دارٍ **لا يُضْطَرُّون فيها إلىٰ عِلم ما يُوعَدون**، ولكنّ الغجَبَ من حَلِفِهم لله عالمِ الغَيبِ والشّهادةِ مع عدَمِ النّفعِ والاضْطِرارِ إلىٰ عِلم ما أنْذَرتْهم الرُّسُل، والمرادُ: وصفُهم بالتّوغُّلِ في نِفاقِهم **ومُرُونِهم عليه**، وأنّ ذلكَ بعدَ مَوتِهم وبَعثِهم باقٍ فيهم لا يَضمَحِلُّ، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقد اختَلفَ العُلماءُ في كَذِبهم في الآخِرة، والقرآنُ ناطقٌ بثَباتِه نُطقًا مَكشوفًا كما تَرىٰ في هذه الآيةِ وفي قولِه تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۞ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣-٢٤] ونحوُ حُسبانِهم أنّهم علىٰ شَيءٍ منَ النّفعِ إذا حَلَفوا استِنْظارُهم المُؤمِنينَ ليَقتَبِسُوا من نورِهم، **لحُسبانِ أنّ الإيمانَ** الظّاهر ممّا ينفعُهم. وقيل: عند ذلك يَختِمُ علىٰ أفواهِهم.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ يعني أنّـهم الغايةُ التي لا مَطْمَحَ وراءَها في قولِ الكَذِبِ،

قولُه: (**لا يُضطَرّون فِيها إلى عِلْمِ ما يُوعَدون**)، يعني: أنّهم في الدُّنيا إذا أُوعِدوا بِشيءٍ من العَذابِ لا يَقِفُون على حَقِيقَتِه ضَرورةً، بِخِلافِه في الآخِرة.

قولُه: (**ومُرونِهم عَليه**)، الجوهري: مَرَنَ على الشّيء يَمْرُن مُروناً ومَرَانةً: تعوَّده واسْتمرَّ عليه.

قولُه: (**لحُسْبَانِ أنّ الإيمانَ**)، عِلَّة لحُسْبَانهم أنّهم على شيءٍ.

حيثُ استَوتْ حالُهم فيه في الدُّنيا والآخِرة ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ﴾ استوْلَىٰ عليهم، من: **حَاذَ الحِمارُ العانةَ**: إذا جمَعَها وساقَها غالبًا لها. ومنه: **كانَ أحْوذيًّا نَسيجَ وَحْدِه، وهو أحدُ ما جاءَ علىٰ الأصل**، نحو: اسْتَصْوَبَ واستَنْوَقَ، أي: مَلَكهمُ ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ لِطاعَتِهم له في كُلِّ ما يُريدُه منهم، حتىٰ جَعَلهم رعيَّتَه وحِزبَه ﴿فَأَنسَىٰهُمْ﴾ أن يَـذْكُروا الله أصْلًا، لا بقُلوبِهم ولا بألْسِنَتِهم. قال أبو عُبيدةَ: حِزبُ الشَّيطانِ: جُندُه.

قولُه: (من: حَاذَ الحِمارُ العَانَة)، **الراغب**: الحَوْذ أن يتبع السَّائِق حَاذي البَعِير، أي: أدْبار فَخديه فيُعنِّف في سَوْقه، وقوله: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: اسْتَاقَهم مُسْتَولياً عليهم، أو مِن قولِهم: اسْتَحْوَذ العَيْرُ على الأَتان، أي: اسْتَولى على حَاذيها أي: جانِبي ظَهْرِها، ويُقال: اسْتَحَاذ وهو القِياس، واسْتِعَارةُ ذلك كقولهم: اقتعدهُ الشَّيطان وارْتَكبَه، والأحْوَذي: الخَفيفُ الحَاذِقُ بالشيء من الحَوْذ أي: السَّوْق[1].

قولُه: (ومنه: كان أحْوَذِياً)، **الأساس**: ومن المَجَاز: رجل أحْوَذيٌّ يَسُوقُ الأمُورَ أحسَنَ المَسَاق لِعِلمِه بها.

قولُه: (نَسِيْجَ وَحْدِه)، **النهاية**: في حديث عمر رضي الله عنه: يَدُلُّني على نَسِيجِ وَحْدِه، يُريد رجُلاً لا عَيْبَ فيه، وأصْلُه أنَّ الثَّوْبَ النَّفِيس لا يُنْسَجُ على مِنْوَالِه غَيْرُه، وهو فَعِيلٌ بمعنى مَفْعُول، ولا يُقالُ إلا في المَدْح.

قولُه: (وهو أَحَدُ ما جَاء على الأَصْل)، قال **الزَّجَّاجُ**: اسْتَحْوذ: اسْتَولى، يُقال: حُذتُ الإبِلَ وحُزتُها إذا اسْتَوليتَ عليها وجَمَعْتَها، وهذا ممّا خرج على أصلِه، ومثله: أحوَذتُ وأطيَبْتُ، والأكثر: أحَذتُ وأطَبْتُ، إلا أنَّ اسْتَحْوذ، جاء على الأصل لأنَّه لم يَقل: على حَاذ، لأنَّه إنَّما بنى استفْعَل في أول وَهْلةٍ، كما بنـى افتَقر على افْتَعل من الفقر، ولم يَقُل: منه فَـقُر، ولا اسْتُعمِل بغير

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٢٦٢.

[﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ ٢٠]

﴿فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ في جُملةِ مَن هُو أذلُّ خلقِ الله لا ترىٰ أحَدًا أذلَّ منهم.

[﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ ٢١]

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ في اللَّوحِ ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ بالحُجّةِ والسَّيف، أو بأحدِهما.

[﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ٢٢]

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾ من بابِ التَّخْييل. خَيّل أنّ من المُمْتنِع المحالُ: أنْ تَجدَ قومًا مُؤمِنينَ يُوالونَ المُشرِكينَ. والغَرضُ به أنهُ لا يَنبَغي أن يكونَ ذلك، ....

زِيادَة، ولم يَقُلْ: حَاذَ عليهم الشَّيطان، ولو جاء اسْتَحَاذَ لكان صَواباً، ولكن اسْتَحْوَذَ هاهنا أَجْوَد، لأنَّ الفعل في هذا المعنى لا يُستَعمل إلا بزِيادَة[1].

قولُه: (مِن بابِ التَّخْييل)، أي: من تَنْزِيل الموجود الكائن مَنزِلَةَ المعدوم الّذي لا يمكن تَصوُّره إلا في خِزانَة الخَيال. قال الشَّاعر[2]:

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ الشَّقِيـ ـقِ إِذَا تَصوّبَ أَوْ تَصَعَّدْ
أَعْلامُ يَاقُوْتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

---

(١) «معاني القرآن» (٥: ١٤٠ - ١٤١).

(٢) البيتين للشاعر أحمد بن محمد، أبو القاسم الصنوبري، وهما في «ديوانه»، ص٤٧٧ (القسم المستدرك)، وانظر: «محاضرات الأدباء» (٢: ٨٢).

وحَقُّه أن يَمتَنِع ولا يُوجد بحالٍ، مُبالغَةً في النَّهْيِ عنهُ والزَّجْرِ عن مُلابَستِه، والتَّوصِيةِ بالتَّصلُّبِ في مُجانبةِ أعداءِ الله ومُباعَدتِهم والاحتراسِ من مُخالطَتِهم ومُعاشَرَتِهم، وزادَ ذلك تأكيدًا وتشديدًا بقولِه: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ وبقولِه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ وبمُقابَلةِ قولِه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المجادلة: ١٩] بقولِه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ فلا تجدُ شيئًا أَدخَلَ في الإخلاصِ من مُوالاةِ أولياءِ الله ومُعاداةِ أعدائِه، بل هو الإخلاصُ بعينِه. ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أثبتَه فيها بما وفَّقهم فيه

وإليه أشار بقولِه: «حقه أنْ يُمنَع ولا يوجد بِحالٍ مُبالغة». ويجوز أن يكون من باب الكِناية، فنَفى الوجدان لانْتِفاء المَوْجُودين، كما نفى العلم في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ [يونس: ١٨] لانتفاء المعلوم، ولأنَّ الخطاب عامّ، كأنَّه قيل: أيها المُخاطَب، إنك إذا تَقصَّيت في الدنيا قَوماً قوماً، لا تجد قوماً يجمع بين الإيمان بالله، وبين موادّة أعدائه[1].

قولُه: (﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾، أثبته فيها بما وَفَّقَـهُم فِيه)، جعل الكَتْبَ بمعنى الإِثْبَات بِسَبب توفيق الطَّاعَات وقِيامِهم عِلَيها، قال القَاضي: وهو دَليلٌ على خُروجِ العمل من مَفْهُوم الإِيمان، لأنَّ أعمالَ الجَوارِح لا تَثْبُت فيها[2].

قُلت: وقد نَقلنا عن «شرح السُّنَّة» أنَّ مَذهَب السَّلَف الصَّالح أنَّ الأعْمـال دَاخِلةٌ في مُسَمَّى الإِيمان، فَمعنى الآية أنْ يُقَال: إنّ ذِكر القلب وثُبوتُ الإِيمانِ هاهنا، كَذِكْره وثبوت الإِثْم فيه في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] لأنَّه رئِيسُ الأعْضَاء، وحُصُول الإِيمان فيه كحُصُوله في سَائِر الجَسَد، لأنَّه المُضْغة التي إذا صَلَحَت صَلَح الجَسدُ كُلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَد الجَسَدُ كَلُّه، ولا ارْتِيَاب أنَّ رُسُوخَ الإِيمان في القَلْب إنَّما يكون بآدَابِ الجَوارِح في الأعْمال الصَّالِحة ومُواظَـبَتِها عليها، ألا تَرى كيف أتى باسمِ الإشَارة بَعد أن وَصَف القَوم

---

(١) من قوله: «ويجوز أن» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف)، وأثبته من (ط).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ٣١٥).

....

بالتَّصلُّب في دينِ الله ومُجانَبة أعداءِ الله، ومُباعدةِ الأقَارب وإنْ كانوا آباءَهم والاحْتِراس عن مُعَاشَرَتِهم! فكَيف يَسْتَتِبُّ ذلك بمجرد التَّصْديق؟!

الراغب: الكَتْبُ: ضَمُّ أدِيمٍ إلى أدِيمٍ بالخِيَاطَة، وفي التَّعارُف ضَمُّ الحُرُوف بَعْضِها إلى بَعْضٍ بالخَطِّ، والأَصْلُ في الكِتَابة النَّظْم بالخطِّ وفي المُقالِ النظم باللفظ، ويُعبَّرُ عن الإثبات والتَّقدير والإيجاب والفَرْض بالكتابة، ووجْه ذلك: أنَّ الشيء يُراد ثمَّ يُقَال ثُمَّ يُكتب، فالإرادَة مبتدأ والكِتابَة مُنْتَهى، ثُمَّ يُعبّر عن المُراد الّذي هو المَبْتَدأ إذا أُرِيد به تَوكِيدُه بِالكِتابَة التي هي المُنْتَهى، قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢] فيه إشَارةٌ إلى أنَّهم بِخِلافِ ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨]، لأنَّ معنى ﴿أَغْفَلْنَا﴾ مِن أغْفَلتُ الكِتاب: إذا جَعَلْتَه خالياً من الكتابة ومن الإعْجَام. وقوله: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤] إشارة إلى أن ذلك مُثبَتٌ له ومُجازًى به[1]. انتهى كلامه.

فإنْ قلت: أيُّ الكَتْبتَين ـ أعْنِي: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ و﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ ـ أبلغ؟

قلت: كُلٌّ منهما مُدْلٍ بنوعٍ من التَّوكِيد، وبِضَربٍ من التَّقرير، فالأولى: مُؤكَّدة بلام القَسَم والنُّون وبالضَّمير المرْفُوع، لأنَّ أصل الكلام: قَضَى الله وأراد أن يَغْلِب رسُلَه، فجيء بالتَّوكِيد وبالضَّمير تمهيداً لِذِكر المُرسلين على مِنْوال قوله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٧] أي: يُؤذون رَسُولَه، وإلّا فالله الغَالِبُ أبداً، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٦٩٩.

وشَرحَ له صُدورَهم ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ بلُطفٍ من عندِه حَيِيتْ به قُلوبُهم.

ويجوزُ أن يكونَ الضَّميرُ للإيمان، أي: بروحٍ من الإيمان، علىٰ أنهُ في نَفسِه روحٌ لحياةِ القُلوبِ به. وعن الثّوريِّ أنهُ قال: كانوا يرونَ أنّها نزلتْ فيمَن يصحَبُ السُّلطان. وعن عبد العزيز بنِ أبي رَوّاد: أنه لَقِيه المنصورُ في الطّوافِ فلمّا عرَفَه هَربَ منه وتلاها. وعن النبيِّ ﷺ: أنهُ كانَ يقول: «اللهُمَّ لا تجعلْ لفاجِرٍ ولا لِفاسِقٍ عِندي نعمةً، فإنّي وجدْتُ فيما أوْحيتَ إليَّ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾». ورُويَ أنّها نَزلتْ في أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنه،

وأمّا الثَّانية: فَبِذكْر القُلُوب وإثْبَات الإيمان فيه، ثُمَّ التَّوفيق بتَأييدِهِم بِرُوحٍ من الله، وإدْخَالِهِم دارَ النَّعِيمِ والخُلْدِ المُقِيم، ثمَّ حُلُول الرِّضْوَان، وَرِضْوان مِن الله أكْبر، وتسميتهم بحزب الله ووسْمُهم بِسِمَة حقِيقَة الفَلاحِ والفَوْز بالمَباغي. اللهم اجْعَلنَا من الفَائِزين وأدْخِلنا في عِبَادِك الصَّالحين.

قولُه: (بِلُطفٍ مِن عِنْدِه)، قال القاضي: وهو نُورُ القَلْبِ أو القُرْآن أو النَّصر على أعداءِ الله[1]. قال سهل رحمه الله: حياة الرُّوح بالذِّكر، وحياة الذِّكر بالذَّاكر، وحياة الذَّاكر بالمذكور[2].

قولُه: (وعَن عبد العَزيز بن أبي رَوَّاد)، ويُروىٰ «ورَّاد» ويروىٰ «روَّاح»، ولعل الصحيح الأول، قال صاحب «الكاشف» في كتاب «أسمـاء الرجال في معرفة من له ذكرٌ في الكتب الستـة»: عبد العزيز بن أبي روَّاد ـ بفتح الرَّاء وتَشديد الواو ـ مولى المُهَلَّب بن أبي صَفرة، روى عن عكرمة وسالم، وكان ثقة عابدًا معمرًا مات سنة ثلاثين ومئة[3].

---

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٣: ٣١٥).

(٢) «تفسير القرآن» المنسوب لسهل التُّستري، ص١٦٤.

(٣) «الكاشف» للذهبي (١: ٦٦٥)، وفيه: ثقة عابد مرجئ!! ووفاته سنة ١٥٩هـ وليس ١٣٠.

وذلك أنّ أبا قُحافةَ سبَّ رسولَ الله ﷺ، فصَكَّه صَكَّةً سقَطَ مِنها، فقال له رسولُ الله: «أوَ فعَلتَه؟» قال: نعم، قال: «لا تَعُد» قال: والله لو كان السَّيفُ قَرِيبًا منّي لقَتَلتُه. وقيل في أبي عُبَيدةَ بنِ الجرّاح: قتَل أباه عبدَ الله الجرّاحَ يومَ أُحُد. وفي أبي بَكرٍ: دعا ابنَه يومَ بدْرٍ إلىٰ البِراز، ....

قولُه: (أنَّ أبا قُحافةَ سبَّ رسولَ الله ﷺ)، هذا لم أجدْه في الكُتب التي يُعتَمد عليها(١)، وفي «الاسْتِيعاب»(٢) أنَّ أبا قُحَافة عُثمان بن عامر، والد أبي بكر رضي الله عنهما، أسلم يوم فتح مكّة، وفي «الجامع»(٣) وعاش إلى خِلافة عمر رضي الله عنه، وأمَّا قَتْل أبي عُبَيدة أباه فرُوِّينا عن البُخَاري ومُسْلمٍ عن أنس قال: كان قَـتَل أباه وهو من جُملة أسارى بدر ببدر بيدِه لمّا سمِع منه في رسول الله ﷺ ما يكره، وَنَهاهُ فلم يَنْتَه(٤).

---

(١) أما أنه غير موجود في الكتب التي يُعتمد عليها فلا، فقد أورده الواحدي في «أسباب النزول»، ص٣٨٢، عن ابن جُريج قال: حُدثت أن أبا قحافة...، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٨: ٨٦) لابن المنذر في «التفسير»، وكلا الكتابين من الكتب التي يُعتمد عليها. أما أنه بإسناد يُعتمد عليه أم لا؟؟ فهذا شأنٌ آخر: إذ إن ابن جُريج وهو من تُبّع الأتباع ذكره بلفظ: حُدثت، فهو من قبيل المُعضل أو أسوأ، فلا اعتبار بهذه الرِّواية.

(٢) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر (٣: ١٠٣٦).

(٣) أي «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ٥٩٧).

(٤) هذه الرواية ليست في البخاري ولا في مسلم، والمصنِّف كما بينت أكثر من مرة يعتمد على «جامع الأصول»، وابن الأثير روى في «جامع الأصول» (٩: ٢٠ – ٢١) عن البخاري ومسلم أن رسولَ الله ﷺ قال: «إن لكلِّ أمّة أميناً... »، وذكر بعدها رواية أخرى ثم قال: وزاد رَزين في الأولى: «وفيه نزل ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ...﴾ [المجادلة: ٢٢] وكان قَتَلَ أباه ـ وهو من جملة أُسارى بدر ـ بيده، لما سمع منه في رسولِ الله ﷺ ما يكره، ونهاه فلم يَنْتَهِ». فهو من زيادَاتِ رَزِين على روايتَي البُخاري ومُسلم وليس في أصلهما!! ولهذا استدركه الحاكم عليهما في «المستدرك» (٣: ٢٦٥).

وقال لرسول الله: دَعني أُكرّ في الرَّعْلةِ الأولىٰ: قال: «متِّعْنا بنَفْسِك يا أبا بَكر، أمَا تَعْلم أنّك عندِي بمنزلةِ سَمْعِي وبَصَري!». وفي مُصعَبِ بنِ عُمَير: قتَل أخاه عبيدًا بنَ عميرٍ يومَ أُحُدٍ. وفي عُمرَ بن الخطاب: قتَل خالَه العاصَ بنَ هشامٍ يومَ بَدرٍ. وفي عليٍّ وحمزةَ وعُبيدةَ بنِ الحارث: قتَلوا عتبةَ وشيبةَ ابنَيْ ربيعةَ والوليدَ بنَ عتبةَ يومَ بدر.

عن رسول الله ﷺ: «مَن قرَأ سورةَ المُجادِلة كُتِبَ من حزبِ الله يومَ القِيامة».

قولُه: (في الرَّعْلة الأولى)، النهاية: يُقال للقَطِيعة من الفُرسان: رَعْلَة، ولجماعة الـخَيْل: رَعِيل.

قولُه: (وفي عليٍّ وحمزةَ وعبيدة بن الحارث)، روى أبو دَاود عن علي رضي الله عنه[1]: لـمّا كان يومُ بدر تقدَّم عُتْبة بن رَبيعَة ومعه ابنُه وأخوه، فنادى من يُبارز؟ إلى قوله: فقال رسولُ الله ﷺ: «قُم يا حَمزَة، قُم يا علي، قُم يا عُبَيدة بن الـحَارث» فأقبل حَمزةُ إلى عُتْبَةَ، وأقبَلتُ إلى شَيْبة واختَلَفتْ بين عُبَيدة والوَليد ضَرْبتان فأثخَن كُلٌّ واحدٍ منهما صاحِبَه، ثُمَّ مِلنا على الوليد فقَتلناه واحْتَمَلنا عُبَيدة.

وفي رِواية رَزِين[2]: قال علي: فأمّا أنا وحمزة فأنْجَزنا صَاحِبَيْنا، وأمّا عُبيدة والوليد فأثْخَن كُلٌّ واحدٍ منهما صاحِبه. الحديث.

قولُه: (كُتِبَ من حِزبِ الله)، روى السُّلمي عن أبي عُثمان: «حِزْبُ الله: من يغضَبُ لله ولا تأخُذُه في الله لومَة لائمٍ».

تمّت السُّورة

حامداً لله تعالى ومُصلياً على رسوله ﷺ.

---

(١) أبو داود في «السنن» (٢٦٦٥).

(٢) انظر: «جامع الأصول» (٨: ٢٠١).

سورة الحشر

مدنية، وهي أربع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

[﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ١-٢]

صالَحَ بنو النّضيرِ رسولَ الله ﷺ علىٰ أنْ لا يكونوا عليه ولا لَه، فلمّا ظهَر يومَ بدرٍ قالوا: هو النَّبيُّ الذي نَعْتُه في التَّوراةِ لا تُرَدُّ لهُ رايةٌ، فلمّا هُزِمَ المُسلمونَ يومَ أُحُدٍ ارتابوا

سورة الحشر

مدَنيّة وهي أربعٌ وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نَستَعين

قولُه: (لا تُرَدُّ له رَايةٌ)، كِنايةٌ عن نُصْرتِه، وعَدم خذْلان من عَقَد له رايةً من أُمَراءِ السَّرايا، ومُضِيِّ أمْرِه، ونُفوذِ سُلطَانِه، وعُلو مرتَبَتِه وشَأنِه، قال الحُطَيئةُ[1]:

---

(١) البيت للشَّمَّاخ بن ضِرار الغَطَفاني رضي الله عنه، والبيت في «ديوانه» ص٩٧، وقد نسبه أغلب من صنف في اللغة والأدب للشَّمَّاخ، ولم ينسبْه أحدٌ فيما رأيت للحُطَيئة سوى الجَوْهَري في «الصحاح»، وتابعه المصنِّف هنا.

ونكثوا، **فخَرَجَ كَعْبُ بنُ الأَشْرَف في أَرْبَعينَ راكِبًا إلىٰ مكَّةَ فحَالَفوا عليه قُرَيشًا عندَ الكَعبةِ فأَمَر** عليه السَّلامُ محمَّدَ بنَ مسلَمةَ الأنصاريَّ **فقتَل كعبًا غِيلةً** وكانَ أخاهُ من الرَّضاعةِ، **ثُمَّ صَبَّحَهم بالكَتائبِ** وهُو علىٰ حِمارٍ مَخْطُومٍ بليفٍ، فقال لهم: اخرُجوا من المدينة، فقالوا: الموتُ أحَبُّ إلينا من ذاك، فتَنادَوا بالحَرب. وقيل: استَمْهَلوا رسولَ الله عشرةَ أيَّامٍ ليَتَجهّزوا للخُروجِ، فدسَّ عبدُ الله بنُ أبيٍّ المُنافقُ وأصحابُه إليهم: لا تَخرُجوا من الحِصْنِ، فإن قاتَلُوكم فنحْنُ معكم لا نَخذُلُكم، ولئِنْ خَرجتُم لنخرُجَنّ معكم، ...

إذا ما رايَةٌ رُفِعَت لِمَجدٍ   تَلَقَّاهـا عَرابـةُ بـاليَمِين

قولُه: (**فَحَالَفُوا عليه**)، أي: على ضَررِه صلوات الله عليه، **الجوهري**: حَالَفه: عاهده وتَحالفُوا: أي: تَعاهَدوا، وضَمَّن حَالَفوا معنى الاجْتِماع، أي: اجْتَمعوا عليه مُحَالِفين.

وعن بعْضِهم: وحَالَفوا عليه، أي: تألّبوا عليه، واجْتَمعوا على خِلافِه.

قولُه: (**فَقَتل كَعْباً غِيْلةً**)، **النهاية**: وهي أن يُخْدع ويُقتَل في مَوضِعٍ لا يَراهُ فيه أحدٌ، والغِيْلةُ: فِعْلةٌ من الاغْتيال، وكان من حديثِ قَتْله على الاخْتِصَار من روايةِ البُخاريِّ ومُسْلمٍ وأبي دَاودَ عن جابر [1] أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن لِكَعب فإنّه آذى الله ورسولَه؟» قال محمد ابن مَسْلَمة: أتحبُّ أنْ أقْتُلَه؟ قال: «نعم» قال: ائذَن فَلأَقُل، قال: «قل»، فأتاه وتَكلَّم بها شاء من الكَذِب، ووَاعَدَه أنْ يأتِيَه بالحارث وأبي عَبْسٍ بن جبر وعَبّاد بن بِشـر، فجاؤوا ليلاً ودَعُوه، فقالت امْرَأتُه: إنّي لأسْمَعُ صوتَ دَمٍ، قال: إنّما هو محمد رَضِيْعي أبو نائِلة، إنَّ الكريمَ لو دُعِي إلى طَعْنةٍ لَيلاً لأجاب، فلمّا نَزَل قَتلوه.

قولُه: (**ثُمَّ صَبَّحَهُم بِالكَتَائِب**)، يعني رسُول الله ﷺ.

قولُه: (**فَدَسَّ**)، الدَّسُّ هو إخْفَاء المكْر والخَدِيعَة، أي: بعث إليهم خِفْيَةً هذا القَول.

---

(١) البُخاري (٢٨٦٧)، ومسلم (١٨٠١)، وأبو داود في «السنن» (٢٧٦٨).

فَدَرَبُوا علىٰ الأزِقّةِ وحَصَّنوها فحاصَرَهم إحدىٰ وعشرينَ ليلة، فلمّا قذَفَ اللهُ الرُّعبَ في قُلوبهم وأيِسُوا من نصْرِ المُنافقين: طلَبوا الصُّلحَ، فأبىٰ عليهم إلّا الجلاء؛ علىٰ أنْ يَحمِلَ كُلُّ ثلاثةِ أبياتٍ علىٰ بعيرٍ ما شاؤوا من مَتاعِهم فجَلَوا إلىٰ الشّام إلىٰ أريحا وأذْرِعات، إلّا أهلَ بَيتينِ منهم: آلَ أبي الحُقَيق وآلَ حُيَيّ بن أخْطَب، فإنّهم لَحِقُوا بخَيْبَر، ولحِقتْ طائفةٌ بالحِيْرة.

اللّام في ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ تتعلّقُ بـ﴿أَخْرَجَ﴾، وهي اللّامُ في قوله تعالىٰ: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] وقولُك: جِئتُه لوقتِ كذا. والمعنىٰ: أخْرَجَ الذين كَفَروا عندَ أوّلِ الحشر. ومعنىٰ أوّلِ الحَشر: أنّ هذا أوّلُ حَشْرِهم إلىٰ الشّام، وكانوا من سِبْطٍ لم يُصبْهُم جلاءٌ قَطُّ، وهم أوّلُ من أُخرِجَ من أهلِ الكتابِ من جزيرةِ العرَبِ إلىٰ الشّام. أو هذا أوّلُ حَشرِهم؛ وآخِرُ حَشرِهم: إجلاءُ عُمَر إيّاهم من خَيبرَ إلىٰ الشّام. وقيل: آخِرُ حشرِهم حشرُ يومِ القيامة؛ لأنّ المَحشَرَ يكونُ بالشّام. ....

قولُه: (فدَرَبُوا عَلى الأزِقَّة)، النهاية: يقال: الدَّرَب ـ بفتح الرَّاءِ ـ للنَّافِذِ مِن المَدْخَل، وبالسُّكُون؛ لِغَير النَّافِذ.

قولُه: (وهي اللام في قَولِه تعَالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤])، أي: لِوقَت حَياتي. الانتصاف: كأنّه يُشِير إلى لامِ التّاريخ، كَقَولِه: كتَبْتُه لِعامِ كَذا أو لشهر كَذا[(١)].

قولُه: (مِن جَزيْرَة العَرَب)، روي الزَّجّاجُ عن الخليل أنّه قال: جَزيرةُ العَرَب مَعْدِنها ومَسْكَنها، وإنَّما سُمِّي بها لأنَّ بحر الحَبَشة وبحر فَارِس والفرات ودِجْلة قد أحَاطَت بها وهي أرضُها ومَعْدِنُها[(٢)]، قد سَبَق في أوّل البقرة فيها كَلامٌ مُشْبَعٌ.

---

(١) «الانتصاف» (٤: ٤٩٩) بحاشية «الكشاف».

(٢) «معاني القرآن» (٥: ١٤٤).

وعن عِكْرمة: من شكَّ أنّ المَحْشَر هاهُنا ـ يعني الشّام ـ فليقرَأْ هذه الآية. **وقيل: معناه أخرَجَهم** من ديارِهم لأوّلِ ما حُشر لِقِتَالِهم؛ لأنّهُ أوّلُ قتالٍ قاتلَهم رسولُ الله ﷺ.

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ لشدَّةِ بأسِهِم ومَنَعتِهم، ووثاقةِ حُصونِهم، وكثرةِ عدَدِهم وعُدَّتِهم، وظَنّوا أنّ حُصونَهم تَمنعُهم من بأسِ الله ﴿فَأَتَىٰهُمُ﴾ أمرُ الله ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ من حيثُ لم يَظنّوا ولم يَخطُر ببالِهم: وهو قتلُ رئيسِهم كَعْب بن الأشْرَف **غِرّةً** علىٰ يدِ أخيه، وذلك ممّا أضعَفَ قوَّتَهم وفَلَّ من شوكَتِهم، وسَلبَ قلوبَهم الأمنَ والطّمأنينةَ بما قذَفَ فيها من الرُّعبِ، وألهمَهُم أن يُوافِقوا المؤمنينَ في تخريبِ بُيوتِهم ويُعينوا علىٰ أنفُسِهم، وثَبّطَ المُنافِقينَ الذين كانوا يتولّونَهم عن مُظاهرتِهم. وهذا كُلُّه لم يكن في حُسبانِهم. ومنه أتاهُم الهلاك.

فإنْ قلتَ: أيُّ فرقٍ بينَ قولِك: وظَنّوا أنّ حُصونَهم تمنَعُهم أو مانِعتُهم، وبينَ النَّظم الذي جاء عليه؟

قولُه: (**وقيل: مَعْناه أخْرَجَهم**)، عَطْفٌ على قولِه: «أخرَجَ الذين كفروا عِنْد أوَّل الحَشْر»، على الأوَّل مَنْسوبٌ إلى اليَهود، وعَلى الثاني إلى رسول الله ﷺ.

النهاية: في الحديث: «انْقَطَعَت الهِجْرةُ إلا مِن ثَلاثٍ؛ جِهادٍ أو نِيَّةٍ أو حَشْرٍ» أي: جهاد في سبيل الله، أو نِيَّة يُفَارق بها الرَّجُلُ الفِسْقَ والفُجُور إذا لم يقدر على تغييره، والحَشر هو الجَلاء عن الأوْطَان بها يَنال النّاس من الـخَطْب، وقيل: أراد بالحَشْر الخُروج في النَّفير إذا عمّ.

قولُه: (**غِرَّة**)، **الأساس**[1]: الغِرَّة: الغَفْلة، يقال: اغْتَررتُ الرَّجل: إذا طَلَبْتَ غِرَّتَه، أي: غَفْلَته.

---

(١) هذا نص ابن الأثير في «النهاية» وليس في «الأساس»، فلعلَّ المصنِّف وَهِم.

قلتُ: في تقديمِ الخبَرِ علىٰ المُبتدأِ دَليلٌ علىٰ فَرْطِ وُثوقِهم بحَصانتِها ومَنْعِها إيّاهم؛ وفي تَصْييرِ ضَميرِهم اسمًا لـ«أنّ» وإسنادِ الجُملةِ إليه: دَليلٌ علىٰ اعتقادِهم في أنفُسِهم أنّهم في عِزّةٍ ومنَعةٍ، لا يُبالىٰ معَها بأحَدٍ يَتعرَّضُ لهم أو يطمعُ في مُعازَّتِهم؛ وليسَ ذلكَ في قولِك: وظَنّوا أنّ حُصونَهم تمنعُهم. وقُرِئَ: (فآتاهُمُ اللهُ) أيْ: فآتاهُمُ الهلاكَ.

قولُه: (في تَقْديم الخَبر على المُبتدأِ دَليلٌ على فَرْطِ وُثُوقِهم بِحَصانَتِها)، قال صاحب «الفرائد»: وليس بذلك، بل ﴿حُصُونُهُم﴾ مُرْتَفِعةٌ بـ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ لأنَّ اسمَ الفاعل إذا كان مُعتَمِداً عَمِلَ، وهو خبر أنَّ مع مرفوعها، مثله عن صَاحب «الفَلَكَ الدَّائِر» قال: إنَّ ﴿حُصُونُهُم﴾ لا ترتفع بأنَّه مُبتدأ كما ظَنَّه إلا على وَجْهٍ ضَعِيفٍ، والصَّحِيح أنَّه فَاعِلُ ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾، فـ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ اسمُ فَاعِلٍ مُعتَمد على ما قَبله، لأنَّه في الحقيقة خَبر المُبتدأ، فيَعمل فيما بَعدَه عَمَل الفِعْل، نحو: زَيْدٌ قَائِمٌ أبوه[١]. وكَذا عن صَاحِب «الكَشْف»[٢].

وقلت: صاحبُ المَعَاني لا ينظُر إلا إلى أصْل المعنى، ثُمَّ إلى فَائِدة عدوله عن أصْلِه، ولا شكَّ أنَّ أفعالَ القُلوبِ من دَواخِل المبتدأ والخبر، وأنَّ الأصْل: ظَنُّوا أنْ لا يَخْرُجوا لقوله: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ بناءً على قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لِيُطَابِق ما قَبْله بإيقاعِ النَّاصِبة للفِعْل بعدها، فَخُولِف لِيُؤذِن بأنَّ ظنَّ المؤمنين كان على الرَّجَاء والطَّمْع، وظنّهم على العِلم واليَقِين؛ فعُلِم من التَّاسيس أنَّ بناء أمْرِه على الجزم والثُّبوت، ثُمَّ في المرتَبة الثَّانية، ظَنُّوا أنَّ حُصُونَهم تَمنعهم نظراً إلى كلام أوسَاط النَّاس كما يُعلم من مفهوم سؤالِه، ثُمَّ لما أُريد مزيد التَّوكيد قيل: ظَنُّوا أنَّ حُصُونَهم مَانِعَتُهم لإرادَةِ الثُّبوت في الدَّرجة الثَّانية، ثمَّ في المرتبةِ الثَّالثة ظَنُّوا أنه[٣] مانِعَتُهم حُصُونُهم لإفادَةِ التَّخصيص، وأنْ ليس لِحُصونِهم صفةٌ سوى المَنْع، وأنَّه

---

(١) «الفلك الدائر في المثل السائر» للمرتضى (٤: ٢٥٢).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٣٣٣).

(٣) من قوله: «حصونهم تمنعهم» إلى هنا ساقط من (ح).

....

لا بُدَّ منه، وإليه أشار بقَولِه: «دليلٌ على فَرْطِ وُثُوقِهم بحصانتها»، ثمّ في المرتبة الرابعة ظنُّوا أنَّهم مَانِعتهم حُصُونهم ليتقوى الحُكم لإفَادة تكثير الإسناد، وهو المُراد من قوله: «دليلٌ على اعْتِقَادِهم في أنفُسِهم أنَّهم في عِزَّةٍ ومَنَعَةٍ لا يُبَالى معها بأحدٍ يَتعرَّضُ لهم»، وإن لم يُرِدْ ما ذُكر فما بَالُ التَّرتيب لم يُترك على أصْلِه وهو: ظنوا أن لا يخرجوا؟!

وأمّا قوله: إنَّ حُصُونَهم لا تَرتَفِع بأنَّه مُبتدأ كما ظنَّه إلا على وجهٍ ضعيفٍ، فيُقَال: إنَّ صاحب المعاني كم له اخْتِيارُ الوجه الضَّعيفِ عند التَّحرِّي لاعْتِبار المعنى القَوي، ألا تَرى إليهم كيفَ حَمَلوا قولَه: «رجلٌ عرف» على التَّقْديم بِناءً على اللغَة الضَّعِيفَة وهو: أكَلوني البراغيث، والنَّحويُّ لا يُثْبِتُه! وإلى قول المَرْزُوقِي في قوله:

وإنْ لَمْ يَكُن إلا مُعَـرَّجُ سَـاعَةٍ　　　قَليلاً فَإنِّي نـافِعٌ لي قَلِيلُهـا[1]

يجوز أنْ يكُون «قليلها» مبتدأ و«نافِعٌ» خبَرٌ له مُقَدَّم عليه، والتَّقْدير: فإني قليلها نافع لي[2]. فسلك أبو مُسْلم في هذه الآيةِ هذا المَسْلَك.

فإن قلتَ: كيف دلَّ ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ على تَقَوِّي الحكم، لأنَّ ليس مثل: «هو عرف» و«زيد عرف»، في تكَرُّر الإسناد؟

قلتُ: تكَرُّر الإسناد كما يكون من جهة تكرر المُسْند إليه قد يكونُ من جهة غيرِه، كما تقول: ضربتُ زيداً ثمَّ زيداً ضربتُه، فالثاني تكَرَّر فيه الإسناد وقَوي الحكم فيه بخلاف الأوَّل.

قال ابن جنِّي: قالوا: زيدٌ ضربته، فقدَّموا المفعول؛ لأنَّ الغَرَض هاهنا ليسَ ذِكْر الفاعل،

---

(١) البيت لذي الرُّمَّة في «ديوانه» ص٢٤٤.

(٢) «شرح الحماسة» للمرزوقي ص٩٩٦.

والرُّعْبُ: الخوفُ الذي يُرعِبُ الصّدرَ، أي يَملَؤه؛ وقذفُه: إثباتُه ورَكْزُه، ومنه قالوا في صِفةِ الأسَدِ: مُقَذَّفٌ، كأنّما قُذفَ باللَّحمِ قَذْفًا لاكْتِنازِه وتداخُلِ أجزائِه. وقُرِئَ: (يُخَرِّبون) و﴿يُخْرِبُونَ﴾، مثقَّلًا ومُخَفَّفًا. والتَّخريبُ والإخرابُ: الإفسادُ بالنَّقْضِ والهَدْم. والخربةُ: الفسادُ، كانوا يُخرِبون بواطِنَها والمُسلِمون ظواهِرَها: لمّا أرادَ اللهُ من استئصالِ شأفَتِهم، وأن لا يَبقَىٰ لهم بالمدينةِ دارٌ ولا منهم دَيّارٌ، والذي دَعاهُم إلىٰ التَّخْريبِ: حاجتُهم إلىٰ الخَشَبِ والحِجارةِ ليسُدّوا بها أفواهَ الأزِقّة. وأنْ لا يتحَسّروا بعد جلائِهم علىٰ بقائِها مساكنَ للمُسلِمين، وأن ينقُلوا معهم ما كانَ في أبنيتِهم من جَيِّدِ الخشَبِ والسّاجِ المَليح. وأمّا المؤمِنونَ فداعِيهم إزالةُ مُتحَصَّنِهم ومُتَمنَّعِهم، وأن يتَّسِعَ لهم مجالُ الحَرب.

وإنّما هو ذِكْرُ المفعُول، فَقُدِّم عنايةً بذكره، ثم لم يقنَع بذلك حتى أزالوه عن لفظ الفَضْلَة، فجَعلوه ربَّ الجملة لفظاً، فرفَعُوه بالابتِداء، وصار قولُه: «ضربتُه» ذَيلاً له، وفَضْلَةً مُلْحقةً به[١].

قولُه: («يُخَرِّبُون» و﴿يُخْرِبُونَ﴾)، أبو عَمرو: مُثقَّلاً، والباقُون: مُخَفَّفاً[٢].

قولُه: (مِن اسْتِئْصَالِ شَأفَتِهم)، الجوهري: الشَّأفَة: قُرحةٌ تَخْرُج في أسْفَل القَدَم فتُكْوى فتَذْهب. وفي المَثَل: استَأصَل الله شأفَته، أي: أذْهبه الله كما أذْهب تلك القُرْحَة بالكَيِّ.

قولُه: (وأمّا المُؤمنون فَدَاعِيهم)، عَطفٌ على قَولِه: «والّذي دَعاهُم إلى التّخْريب»، إلى آخره، و«أمّا» والفاء مُقَدَّران في الجُملة الأُولى لِكَونها تفصيليّة، وقد سَبق في أوّل آل عمران كلامٌ فيه، وهما لَفٌّ ونَشرٌ لِـمَا لُفَّ، في قوله: «كانوا يُخْربون بَواطِنَها والمُسْلمون ظَواهِرها».

---

(١) من قوله: «فإن قلت» إلى هنا ساقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

(٢) «التيسير في القراءات السبع» للدّاني ص١٣٣.

فإنْ قلتَ: ما معنىٰ تَخريبِهم لها بأيدي المؤمنين؟

قلتُ: لـما عرَّضوهم لذلك وكانُوا السَّببَ فيه فكأنَّهم أمرُوهم به وكلَّفُوهم إيّاه، ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ﴾ بِما دَبَّرَ اللهُ ويَسَّرَ من أمرِ إخراجِهم وتسليطِ المُسلمين عليهم من غيرِ قتالٍ.

وقيل: وعَدَ رسولُ الله ﷺ المُسلِمينَ أنْ يُوَرِّثَهُمُ اللهُ أرضَهُم وأموالهم بغَيرِ قِتالٍ، فكانَ كما قالَ.

قولُه: (لـمّا عَرَّضُوهم لِذَلِك)، أي: عَرَّضَ اليهودُ المؤمنين، فكانَ اليَهودُ هُم السَّبَبَ، الجَوْهري: عرَّضت فلاناً كذا، فتعرَّضَ هو له.

قولُه: (﴿فَٱعۡتَبِرُواْ﴾ ما[1] دبَّر الله)، قال القاضي: فَاتَّعِظُوا بحَالِهم فلا تعتذروا ولا تَعْتَمِدوا على غَير الله، واسْتُدِل به على أنَّ القِياس حُجَّةٌ مِن حَيث إنَّه تَعالى أمَر بالمُجَاوزَة من حَالٍ إلى حَال، وحَمَلَها عَليها في الحُكم لـما بَيْنهما من المُشَاركَة المُقْتَضية له، كما تَقَرَّر في الكُتب الأصُوليَّة[2].

وقال الوَاحِدي: معنى الاعْتِبار: النَّظَر في الأمُور ليُعْرف بِها شيءٌ آخرُ من جِنْسها، والمعنى: تَذَكَّروا وانْظُروا فيما نَزل بِهم يا أهل اللُّبِّ والعَقْل والبَصائِر[3].

قال الرَّاغِب: العِبرة: ما يُعْبَر به من الجَهْلِ إلى العِلْم، ومن الحِسِّ إلى العَقْل. وأصْلُه من عُبُور النَّهر، ومن العِبارة لأنَّها جُعِلت كالمَعْبَر لتأْدِية المعنى من نَفْس القائل إلى نَفْس السَّامع، وخُصَّ التَّعبير بنفس الرؤيا[4].

قولُه: (وقِيل: وَعَد رسولُ الله ﷺ)، عَطْفٌ على قولِه: «بما دبَّر الله» من حيث المعنى، أي:

---

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «بما».

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٣١٧).

(٣) «الوسيط» (٤: ٢٧٠).

(٤) «تفسير الراغب» (٢: ٤٤٣).

[﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ ٣-٤]

يعني: أنّ اللهَ قدْ عزَمَ علىٰ تطهيرِ أرضِ المَدينةِ مِنهُم وإراحةِ المُسلمينَ مِن جِوارِهم وتَوريثِهم أموالَهم، **فلولا أنهُ كتَبَ عليهِمُ الجلاءَ** واقتَضَتْه حِكمَتُه **ودعاهُ** إلىٰ اختيارِه أنهُ أشقُّ عليهِم من المَوت ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقَتلِ كما فعَلَ بإخوانِهم بني قُريظَةَ. ﴿وَلَهُمْ﴾ سواءٌ أُجْلوا أو قُتِلوا ....

فانْـظُروا إلى هذه الـمُعْجِزة وصِدْق إنْجَاز الله ما وَعَدكُم رسولُه، وقِيْسوا عليه جميع ما وَعَدكُم(١) اللهُ ورَسُولُه.

قولُه: (فَلولا أنّه كَتَب عَلَيْهمُ الجَلاءَ)، وَضَع هذه «الفاء» بَدَل «الواو» في التِّلاوَة لِيُؤذِن بِارْتِباطِ هذه الآية بما قَبْلها، فإنَّ قَوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ إلى آخره، دلَّ على أمْرٍ عَظِيمٍ، وعلى عَزْمَةٍ من عَزَمَات الله، وهي إرادةُ تَطْهير أرضِ الحِجاز من الأنْجَاسِ والأرْجَاس، وإرَاحَة المؤمنين البتة، فلولا الجَلاءُ لكان القَتْلُ لازِماً، فأخْبَرَ الله تعالى عن الأمْرَين وفَوَّض التَّرْتيب إلى الذِّهْن.

قولُه: (ودعاه) قيل: فاعِله «أنّه أشق»، والضَّمير المَنْصُوب عائِدٌ إلى الله تَعالى، أي: دَعا اللهَ تَعالى إلى اختيار الجَلاء لهم دُون القَتْل أنَّ الجلاءَ أشقّ عليهم.

وقلت: يَجُوز أنْ يَكون فَاعِل «دعا» ما دلَّ عليه «اقْتَضَته الحكمة» لأنه عطفٌ تفسيري، وقوله: «أنه أشق» تعليل، أي: دعاه داعي الحكمة إلى اختيار حُكم الجلاء لأنَّ ذلك أشق عليهم من الموت.

---

(١) من قوله: «على قوله بها» إلى هنا ساقط من نسخة (ف).

﴿عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ يعني: إنْ نَجَوْا من عذابِ الدُّنيا لم يَنجُوا من عذابِ الآخِرة.

[﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ٥]

﴿مِّن لِّينَةٍ﴾ بيانٌ لما قَطَعتُم. ومحلُّ ﴿مَا﴾ نَصبٌ بـ﴿قَطَعْتُم﴾، كأنهُ قال: أيَّ شيءٍ قطَعتُم، وأنّثَ الضّميرَ الرّاجعَ إلىٰ ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ لأنهُ في معنىٰ اللِّينة. واللِّينةُ: النَّخلةُ من الألوانِ، وهي ضُروبُ النّخلِ ما خَلا العَجْوة والبُرْنيّة، وهما أجودُ النّخيل، وياؤها عن واوٍ ....

قولُه: (إنْ نَجَوا من عَذَابِ الدُّنيا لم يَنْجُوا من عَذَاب الآخِرة)، يُريدُ بِعذَاب الدُّنيا القَتْلَ والسَّبْي.

فإنْ قلتَ: هذا يُؤْذِن أنَّ الجلاءَ أدْونُ حَالاً من القَتْل، وأنّه ليس بِعَذابٍ، وقَد قال هاهنا أنّه أشَقّ عليهم من الموتِ وأنْشَد في البَقَرة[1]:

لَقَتْلٌ بِحَدِّ السَّيْفِ أحْسَنُ مَوْقِعاً | على النَّفْسِ مِن قَتْلٍ بِحَدِّ فِراقِ

قلتُ: لا شك أنَّ جَعْلَ الجلاء أشَدَّ من القَتْل من باب الادِّعاء، وإلحاق الناقِص بالكَامِل، وأمّا قوله: «ولَهم سواءٌ أُجلوا أو قُتِلوا عذابُ النَّار»، فَبيانٌ للفَرق بين التَّرْكِيبين، أعني قوله: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾، وأنَّ الأوّل امتناعي لا ثبات له كالشَّرط، قال في سورة يوسف: «لو لا، وجوابها في حكم الشرط»، والثاني جملة اسمية قطعية، لكنه أهمل بيان فائدة تقديم الخبر على المبتدأ من الاختصاص، وأن المعنى: أنهم مخصوصون بهذا الحكم لكونهم شاقوا الله ورسوله، فيُعلم منه أن من لم يشاقّ الله ورسوله حكمه مُباينٌ لهذا.

(١) انظر: «الكشاف» (٣: ٢٦٣).

قُلبت لكسرةِ ما قَبلها، كالدِّيمة. وقيل: اللِّينة: النخْلةُ الكَريمةُ، كأنَّهم اشتقّوها من اللِّينِ.

قال ذو الرُّمَّة:

كَأَنَّ قُتُودِي فَوْقَها عُشُّ طائِرٍ   علىٰ لِينَةٍ سَوْقاءَ تَهْفُو جَنُوبُها

وجمعُها لِيْنٌ. وقُرِئَ: (قُوَّمًا)، و(علىٰ أُصُلِها). وفيه وجهان: أنه جَمْعُ أصلٍ كَرَهْنٍ ورُهُنٍ، أو اكتُفِيَ فيه بالضَّمّةِ عن الواو. وقُرِئَ: (قائمًا علىٰ أصولِه) ذهابًا إلىٰ لفظِ ﴿مَا﴾.

﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فقَطْعُها بإذنِ الله وأمرِه.

قولُه: (كأنَّ قُتودي) البيت [١]، القَتَدُ: خَشَبُ الرَّحْل، فالجَمْع: أَقْتادٌ وقُتُود. سَوْقَاء: طَويلة السَّاق، تهفو: تهب، واللينة: النَّخْلة الكريمة، شَبَّه خِفَّة رَحْل ناقته بِعُشِّ طائرٍ، وطول قَامتها بنَخْلَةٍ طَويلةِ السَّاق، وتحرُّكَهُ فوقها بحركة النَّخلة عند هُبوبِ الرِّيح الجَنُوبي.

قولُه: (قَطْعُها بإذْنِ الله وأمْرِه)، الانتصاف: والظَّاهر أنَّ الإذْنَ عامٌّ في القَطْع والإبْقَاء، لأنَّه جوابُ الشَّرط المضمَّن لهما جميعاً، فيكونُ تعليلُ إخْزاءِ الفاسِقين بهما جَميعاً [٢]، فقطعها يُحسِّرهم على ذَهابِها، والتَّرك يُحسِّرُهم لِبقائِها للمُسلمين [٣].

وقلت: قد أحسن بما قال، ورُوِّينا عن التِّرْمِذيِّ عن ابن عبّاس [٤] في قول الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ الآية. قال: أُمِروا بِقَطْع النَّخْل، فَحكَّ ذلك في صُدُورِهم، فقال المُسْلمُون: قد قَطَعْنا بَعْضاً وتَرَكنا بَعْضاً، فلنسألنَّ رسولَ الله ﷺ: هل لنا فِيما قَطَعْنا مِن أجْرٍ؟

---

(١) «ديوان ذي الرمة» ص٣٧.

(٢) من قوله: «وتحركه فوقها» إلى هنا ساقط من (ط)، وأثبته من (ح) و(ف).

(٣) «الانتصاف» لابن المنير (٤: ٥٠٠) بحاشية «الكشاف».

(٤) الترمذي في« الجامع» (٣٣٠٣).

﴿وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ وليُذِلَّ اليَهودَ ويَغيظَهُم أَذِنَ في قَطْعِها، وذلك: أنّ رسولَ الله ﷺ حين أمرَ أن تُقطَّعَ نَخْلُهُم وتُحرَّقَ قالوا: يا محمَّد، قد كنتَ تَنهىٰ عن الفَسادِ في الأرضِ، فما بالُ قَطْعِ النَّخلِ وتَحْرِيقِها؟ فكان في نفسِ المؤمنينَ من ذلكَ شيءٌ. فنَزلتْ.

يعني: إنّ الله أَذِنَ لهم في قَطْعِها ليَزيدَكم غَيْظًا، ويُضاعِفَ لكم حَسرةً إذا رأيتُموهُم يتحكَّمونَ في أموالِكم كيف أحبُّوا ويتصرَّفُون فيها ما شاؤوا.

واتّفَق العُلماءُ أنّ حُصونَ الكَفَرةِ وديارَهُم لا بأسَ بأنْ تُهدَمَ وتُحرَّقَ وتُغرَّقَ وتُرمىٰ بالمجَانِيق، وكذلك أشجارُهم لا بأس بقَلعِها مُثمرةً كانت أو غيرَ مُثمِرة. وعن ابنِ مسعودٍ: قطَعُوا منها ما كان موضِعًا للقِتال.

فإنْ قلتَ: لم خُصَّتِ اللِّينةُ بالقطع؟

قلتُ: إنْ كانت من الألوانِ فليَستَبْقوا لأنفُسِهم العَجْوةَ والبُرنيّةَ، ....

وهل عَلَينا في ما تَركنا وِزْرٌ؟ فأنْزَل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعۡتُم﴾ الآية، ورواه الإمَامُ أحمد بن حَنْبل عن ابن عُمر(١).

وقولُ المُصنِّف: «ويتصَرَّفون فيها ما شَاؤوا»، إشارةٌ إلى هذا المعنى.

قولُه: (وليُذِلَّ اليَهود ويَغيظَهم)، هذا تأويلٌ لِقوله: ﴿وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، وفيه(٢) أنَّ ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ مُظْهَرٌ وُضِع مَوْضِعَ المُضمَر، والمُعَلّل محْذُوفٌ بِدَلالةِ سِياق الآية، والجُملةُ مَعطوفةٌ على ما قَبْلها.

قولُه: (فَلْيَسْتَبْقُوا)، قيل: لامُ التَّعْليل والأمر تَسْكن بعد الفاء والواو، وتُحرَّك بعد «ثُمَّ».

---

(١) لم أقف عليها، وهناك رواية لأسامة بن زيد عند أحمد، ورواية ابن عمر أخرجها ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢: ٦٢).

(٢) من قوله: «قول المصنِّف ليذل» إلى هنا ساقط من (ح) وأثبته من (ف) و(ط)، وكلمة «ليذل» تحرفت إلى: «دليل» في (ف).

وإن كانت منْ كِرامِ النّخْلِ فَلِيكونَ غَيْظُ اليَهودِ أشدَّ وأشَقَّ.

ورُوِيَ: أنَّ رجُلَينِ كانا يَقْطعان: أحدُهما العجْوةَ، والآخَرُ اللّونَ، فسألهما رسولُ الله ﷺ فقالَ هذا: تركتُها لِرسولِ الله، وقال هذا: قطعْتُها غَيظًا للكُفّار. وقد استُدِلّ به علىٰ جَوازِ الاجتهاد، وعلىٰ جَوازِه بحضرةِ الرّسولِ ﷺ؛ لأنّهما بالاجتهادِ فعلا ذلك، واحتَجَّ به من يقول: كُلُّ مُجتهِدٍ مُصيبٌ.

[﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ ۞ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ ٦-٧]

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ جعَلَه له فيئًا خاصّةً. والإيجافُ من الوَجيفِ؛ وهو السَّيْرُ السَّريعُ، ومنه قولُه عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ في الإفاضةِ من عرَفات: «ليس البِرُّ بإيجافِ الخَيلِ ولا إيضاعِ الإبلِ، علىٰ هِينَتِكُم».

قولُه: (في الإفَاضَة مِن عرَفَات)، الحديثُ من رِواية البُخَاري عن ابن عبّاس قال[1]: دَفَع النَّبيُّ ﷺ يومَ عَرَفة، فَسَمِعَ وراءهُ زَجْراً شديداً، وَضَرْباً للإبلِ، فَأشَارَ بالسوط إليهم، وقال: «يا أيّها النَّاسُ عَلَيْكُم بالسَّكينة، فإنَّ البِرَّ لَيس بالإيْضَاع». وفي روايةِ أبي داودَ[2] قال: «يا أيّها النَّاس عَلَيكُم بالسَّكِينة، فَإنَّ البِرَّ ليس بإيْجَافِ الخَيْل والإبل».

النهاية: وَضَع البَعِيرُ يَضَعُ وَضْعاً، وأوْضَعَه راكِبُه أيضاً؛ إذا حَمَلهُ على سُرْعَة، وكذا الإيْجَاف، وقد أوْجَفَ دَابّته يُوجِفُها إيْجَافاً؛ إذا حَثَّها.

قولُه: (على هِينَتِكُم)، الجوهري: يُقال: امْشِ على هِيْنَتِك، أي: على رِسْلِك، أي: اتَّئِد فيه.

(١) البخاري (١٦٧١)، وأخرجه كذلك مسلم (١٢٨٢).

(٢) أبو داود في «السنن» (١٩٢٠).

ومعنىٰ ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾: فما أوْجفتُم علىٰ تحصيله وتغنُّمِهِ خيلًا ولا رِكابًا، ولا تَعِبتُم في القتالِ عليه، وإنّما مَشيتُم إليهِ علىٰ أرجُلِكم.

والمعنىٰ: أنّ ما خَوَّل اللهُ رسولَه من أموالِ بَني النّضيرِ شيءٌ لم تُحَصِّلوه بالقِتالِ والغَلَبةِ، ولكنْ سلَّطهُ اللهُ عليهِم وعلىٰ ما في أيديهِم كما كانَ يُسلِّط رُسلَه علىٰ أعدائِهم، فالأمرُ فيه مفوَّضٌ إليه يضعُه حيثُ يشاء.

يعني: أنه لا يُقسَمُ قسمةَ الغَنائِم التي قُوتِل عليها وأُخِذت عُنوةً وقَهْرًا، وذلك أنّهم طَلبُوا القسمةَ، فنزلتْ.

لم يدخل العاطفُ علىٰ هذه الجملة؛ لأنّها بيانٌ للأُولىٰ، **فهي منها غيرُ أجنبيّةٍ عنها**.

بُيِّنَ لرسولِ الله ﷺ ما يصنعُ بها أفاءَ اللهُ عليه، وأمرَه أن **يضَعَه حيثُ يضعَ الخُمسَ من الغنائِم** مقسومًا علىٰ الأقسامِ الخمسة.

قولُه: (**فَهي مِنها غَيرُأجْنَبيّةٍ عَنْها**)، و«هي مَنها» جُملةٌ من مُبتدأ وخَبَر، وقوله: «غير أجنبية عنها» خبر آخر، و«مِنْ» في «مِنْها» اتِّصاليَّة، أو «غَيرُ أجْنَبيَّةٍ عنها» خبرُ مبتدأ محْذُوف، والجُمْلة مُبَيِّنةٌ للأولى، أي: وهي مُتَّصِلة بها كائنة منها، وهي غَيرُ أجْنَبيَّة عنها، وإنَّما كانت بياناً لأنَّ قولَه: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ جُملةٌ اسْمِيَّةٌ شَرْطيَّةٌ مَعْطُوفةٌ على مثلِها، وكِلْتاهُما وارِدَتان على الإخْبارِ والإعْلام، أي: اعْلَموا أنَّ ذلك القَطْع والتَّرك كان بإذنِ الله، وذلك الفَيء كان بِتَسليطِ الله لا بِسَعْيكُم، لكن لم يُعلم كيفيَّة قسمتِه فبَيَّن بهذه الآيةِ القِسْمة.

قولُه: (**أنْ يَضَعَه حَيثُ يَضع الخُمْسَ من الغَنائِم**)، ومَذْهَبُ الشّافِعيِّ بِخِلافِه، فَعِنْدَه أنْ يُجْعلَ الفَيءُ خَمسَةَ أخْماسٍ، والخُمْسُ الواحِد يُخَمَّسُ ويُوضَعُ حَيثُ يُوضَعُ الخُمْسُ مِن

....

الغَنائِم، وبَيانُ ذَلك ذَكرهُ صَاحِبُ «البَحْر» قال [١]: الأصْلُ في الغَنِيمةِ قولُه تعالى: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية [الأنفال: ٤١]، والأصْلُ في الفَيء قولُه تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية [الحشر: ٧].

واعلم أنَّ الغَنَائم كانت في شَرْع مَن قَبلَنا لله تعالى، لا تَحِلُّ لأحَدٍ، فتَنْزلُ نارٌ من السَّماء فتأخُذها، فَخُصَّ النَّبيُّ ﷺ من بينِهم بأنْ أُحِلّت له، قال ﷺ: «أُحِلّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، ولمْ تُحَلَّ لأحدٍ قَبْلي» [٢]، فكانت في صَدْرِ الإسلامِ له خاصَّةً ينْفَردُ بِها، وكذا كانت غَنائِمُ بدرٍ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١] ثم نُسخ ذلك بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ الآية [الأنفال: ٤١] [٣]، واستَـقرَّ أمرُها على أنَّ له منها الصَّفِي، فيَصْطَفي من الغَنِيمة ما شاء من جَاريةٍ وثَوبٍ وعَبْدٍ وفَرَسٍ ونحو ذلك، ويكون أرْبعة أخْماسِها للغَانمين، وخُمُسُها لأهل الخُمْس، فيُقْسم على خَمْسةِ أسْهُم، ثُمَّ يُقْسَم خُمْسُها على خَمْسةِ أسْهُم؛ منها سَهْمٌ للرَّسولِ ﷺ، وسَهْمٌ لذَوِي القُرْبى، وسَهْمٌ لليَتَامى، وسَهْمٌ للمَسَاكين، وسَهْمٌ لابنِ السَّبِيل.

والآن يجب أنْ يُقْسمَ الفَيء على خَمسَة أسْهُم كما ذُكِر في الغَنيمة، وخُمْسُه وخُمُسُ الغَنيمةِ الّذي كان للنَّبيِّ ﷺ انتقل بموتِه إلى المصَالِح، وأمّا أربَعةُ أخْماسِه فالأصَحّ أنّها للمُقاتِلين.

---

(١) أظنه يريد بصاحب «البحر» الرُّوياني في كتابه «بحر المذهب»، وأظن الكتاب طُبع ناقصاً، إذ جاء في نهاية المجلد الثالث عشر ما نصه: تم الجزء ويتلوه في الذي يليه جامع السير، وفي المجلد الرابع عشر ابتدأ بالعتق! والعتق ليس كاملاً فيه؛ إذ نبه المحقق على إضافة بداية العِتق ومعه عدد من الفصول من كتاب «الحاوي الكبير» للماوردي، ومظنة هذه المسألة فيما سقط من النسخة وضاع، والله أعلم.
وانظر هذا النقل عند الماوردي في «الحاوي الكبير» (٨: ٣٨٧) فما بعدها، فكأنه أخذ هذا التقرير عن «البحر» للرُّوياني، والله أعلم.

(٢) البخاري (٢٩٥٢)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر.

(٣) انظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي عُبيد القاسم بن سلام ص٢١٧.

....

وقلت: حَاصِل هذا التَّقرير أنَّ ما في الحشر مَنْسُوخٌ بقولِه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال:٤١] وهو مُشْكِلٌ لأنَّ ما في الأنْفَال سَابِقٌ زمَاناً على ما في الحَشْر، فلا يُنسخ به. نقل الوَاحِدِيُّ عن المُفسِّرين أنَّ بني النَّضِير لـما أُجْلوا عن أوْطَانِهم وتَركوا رباعهم وضياعَهُم طَلَب المسلمون من رسولِ الله ﷺ أنْ يُخَمِّسَها كما فعل بغنَائِم بَدرٍ، فأنْزَل هذه الآية. وفي رِوايه مُحيي السُّنَّة: كما فُعِل بغنَائِم خَيبَر، ويَبْعُد من حَيْث النَّظْم والتَّأليف أنْ يُقال: إنَّ قولَه: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ عَطْفٌ على ما في الأنْفَال، لِيَكونَ خُمُسُه أيضاً مُخَمَّساً، وأدْنى ما يُبْطِله: الضَّمير في ﴿مِنۡهُمۡ﴾، لأنَّه رَاجِعٌ إلى ما تَرْجِعُ إليه الضَّمائِرُ في الآياتِ وهي لبَني النَّضِير، وما في الأنْفال في قضيةٍ أُخرى، بل الجُمْلة ـ أعني ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ ـ عَطْفٌ على مِثْلِها، أي: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ﴾، وجُمْلَةُ قولِه: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ بيَانٌ للجُملةِ السَّابِقة كما ذَهب إليه المُصَنِّف، ولهذا عُزِلَت عن العَاطِف، كأنَّه لمَّا قِيل: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي: ما خَوَّل اللهُ رسُولَه من أمْوالِ بني النَّضِير شيءٌ لم يُحصِّلُوه بِالقِتَالِ والغَلَبَة، فلا يُقْسَم قِسْمةَ الغَنَائِم، قِيل: فكيفَ يُقسم؟ فَقِيل: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ إلى آخِره، على أنَّ ذلك العطْف أيضاً لا يُجْدي فيما ذُكِر، لأنَّ حُكم تلك الآية ثَابتٌ قَبل هذه.

وأقْصَى ما يُقال من جانب الشَّافِعيِّ رحمه الله تعالى أنَّ «ما أفاء الله» الأوَّل إخبارٌ مِن الله تعالى لا جوابٌ عن قولِ الصَّحابة، والثاني: بَيانٌ له لكنَّه مُطْلَقٌ مُبْهمٌ، وما في الأنفال مُقيّدٌ بقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ فيُحمل عليه، وما ذَكره المُفسِّرون ليس يَثْبُت.

فإنْ قلت: فما فائِدة هذا الإخْبار؟

قلت: نفي ما سَنَح في خَواطِر المُسلمين أنَّهم سَعَوا في تحصيل تلك الأموال بالقِتال، كما قال في «التفسير الكبير»: إنَّ أموال بني النَّضِير أُخِذت بعد القِتال، لأنَّهم حُوصِروا أياماً وقاتَلوا وقُتلوا ثمَّ صَالحوا على الجَلاء [1]، وفي كلامِ المُصنِّف في أوّل السُّورة إشْعَارٌ بذلك.

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٩: ٥٠٦).

....

وقال تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني أنَّ سَعْيكُم ذلك لم يكُن له مَزِيد تأثيرٍ، بل جَرَت عادةُ الله في تَسْليط جميع رُسلِه على من يَشاء، وهذا من جُملةِ ذلك، ومِن ثَمَّ جِيء بِصيغَة المُضارع الدَّالّة على الاسْتِمرار، وجَمَعَ الرُّسلَ، فمعناه قَريبٌ من معنى قولِه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وعلى هذا معنىٰ الجُملة الأولى: لأنَّ المسلمين لما قَطَعوا النَّخيل وحَرَّقُوها خطَر بِبالِهم أنَّ ذلك فَسَاد في الأرضِ ـ كما قال المصنف ـ وكان في أَنْفُس المسلمين من ذلكَ شيءٌ فنزلت، فقيل لهم: كان ذلك بإذن الله وأمْرِه، وما يأذن اللهُ ويأمر به لا يكون فَساداً في الحِقيقة.

فإنْ قلتَ: كيف يُحمل على تَقييد المُطْلق؟ فإنَّ مَفْهومَ الغَنيمة أخصّ من مَفْهومِ الفَيء، لأنهُ أعمُّ تناولاً منه.

قال الجَوْهري: الفَيءُ: الخَراجُ والغَنيمة، تقول منه: أفاءَ الله على المسلمين مَال الكُفَّار يُفِيءُ إفَاءةً.

وفي «المغرب»: قال أبو عُبَيْد[1]: الغَنيمة: مَا نِيلَ من أهْل الشِّـرك عَنْوةً والحَربُ قائِمةٌ، وحُكْمه أنْ يُخَمَّس، وسَائِر ما بَعد الخُمسِ للغَانِمين خَاصَّةً، والفَيء: ما نِيل منهم بَعد ما تَضَعُ الحربُ أوزَارَها، وتَصير الدَّارُ دارَ الإسلام، وحُكْمهُ أنْ يكونَ لكافَّةِ المُسلمين ولا يُخَمَّس. والنَّـفَل: ما نُفِله الغَازي أي: يُعْطَاه زائداً على سَهمِه، وهو: أنْ يقولَ الإمامُ أو الأمير: «من قَتَل قَتِيلاً فَلَه سَلَبه»، أو قَال للسَّرِيّة: ما أَصَبْتُم فهو لكم، أو نصفه أو ربعه، ولا يُخَمَّس. وعن علي بن عيسى: الغَنِيمةُ أعَمُّ من النَّـفَل، والفيء أعم من الغنيمة، لأنَّه اسمٌ لِكلِّ ما صار للمُسلمين من أمْوالِ أهلِ الشِّـرْك. قال أبو بكر الرازي[2]: فالغنيمة فيء، والجزية فَيءٌ، ومالُ

---

(١) في (ط) و(ف): «عُبيدة»، وليس بصواب، والصواب ما في (ح)، وهو الموافق لِما في «المُغرب»، والمقصودُ أبو عُبيد القاسم بن سلام، وقولُه في كتاب «الأموال» له ص ٣٢٠، وينتهي عند «ولا يخمّس»، والتتمّة للمطرِّزي.

(٢) هو الجصّاص أبو بكر أحمد بن علي، وشهرته بالجَصَّاص أكثر من شُهرتِه بالرَّازي.

والدَّوْلةُ والدُّولةُ ؛ بالفَتْحِ والضَّمّ ، وقَد قُرِئَ بهما: ما يَدُولُ للإنسانِ، أي يَدورُ من الجَد. يقال: دَالتْ له الدَّولة، وأُديل لفلان.

ومَعنىٰ قولِه تعالىٰ: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾: كيْلا يكونَ الفيءُ الذي حقُّه أنْ يُعطَىٰ الفُقراءَ لِيكونَ لهم بُلغةً يَعيشونَ بها جَدًّا بين الأغنياءِ يتكاثَرُون به. أو كَيلا يكونَ دُولةً جاهليّةً بينَهم. ....

أهل الصّلح فَيءٌ، والخَراجُ فَيءٌ، لأنَّ ذلك كلَّه ممّا أفَاء اللهُ على المسلمين من المشـركين، وعند الفُقَهاء: كلُّ ما يَحِلُّ أخْذُهُ من أمْوالِهم فهو فَيءٌ[1]. تمَّ كلامُه.

ويُمكن أنْ تُنَزّل عِبارة «الحاوي» على هذا المعنى، بأنْ يُقَال: إنَّ قولَه: «ما حَصَل من الكفّار» عامٌّ خُصَّ منه البَعضُ، بعَطْف «غَلَّة عَقَارِهم» بعد أن وَقَف على «ما حَصَل»، وبعضٌ آخر بقوله: «وما حَصَل بإيجَافِ خيلٍ فِلمُسْلم»، من حيثُ عطْف الجُملة بقي في ذلك العامّ: «ما جَلُوا عنه خَوفاً من المسلمين إذا سَمِعوا خَبَرهم، أو بذَلوه كفّاً عن قِتالِهم، وكالجِزْية وعُشُور تجاراتِهم ونحوها».

قلت: لـما كان مفهوم الغَنيمةِ داخِلاً في مفهوم الفَيءِ وقد قُيِّدت الخُمْس في تلك الآية، فَينبغي أن يُقاس عليها سائرها لجامِع كونِها أموالَ الكفّار صارت إلى المسلمين، إلى أن يَنْتَهِض الصّارِفُ القويُّ، نحو: «مَنْ قَتَل قَتِيلاً له عَليه بَيِّنةٌ فلَه سَلَبه» هذا ما يُمكن أنْ يُقال، والله أعلم بحقيقة الحال.

قولُه: (**والدَّوْلة والدُّولة بالفَتْح والضَّمِّ**)، فالضَّمُّ: المشْهُورة، وبالفتحِ: شاذ، وقيل: هي رواية هِشام عن ابن عَامر. وقال ابن جِنّي: وهي قراءة أبي جَعْفر، منهم من لا يَفْصل بين القِراءتين، ومنهم يقول: الفتح في المُلك والضَّم في المِلك، «وكان» تامّة، أي: كيلا تقع دُولة أو تحدث.

(١) «المغرب في ترتيب المعرب» للمطرزي ص٣٤٦ – ٣٤٧.

ومعنىٰ الدُّولةِ الجاهليّةِ: أنَّ الرؤساءَ منهم كانوا يستأثرونَ بالغَنيمةِ لأنّهم أهلُ الرِّياسةِ والدَّولةِ والغَلَبة، وكانوا يقولون: «مَن عزَّ بَزَّ». والمعنىٰ: كَيلا يكونَ أخذُه غلبةً وأَثَرةً جاهِليّة. ومنه قولُ الحسن: اتّخذوا عبادَ الله خَوَلًا، ومالَ الله دُوَلًا، يريدُ: من غَلبَ منهم أخذَه واستأثَر به.

وقيل: الدُّولةُ: ما يُتداوَلُ، كالغُرْفة: اسم ما يُغترَف، يعني: كَيلا يكونَ الفَيءُ شيئًا يتداوَلُه الأَغنياءُ بينَهم ويتَعاورونَه فلا يصيبُ الفُقَراء. والدَّولةُ ـ بالفتح ـ: بمعنىٰ التَّداوُل، أي: كَيْلا يكونَ ذا تَداوُلٍ بينَهم، أو كيلا يكونَ إمساكُه تداوُلًا بينهم، لا يُخرجونه إلىٰ الفقَراءِ، وقُرِئَ: (دُولةٌ) بالرَّفع علىٰ (كان) التامّة كقولِه تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] يعني كيْلا تقَعَ دُولةٌ جاهليّةٌ ولينقطِعَ أثرُها، أو كَيْلا يكونَ تداولٌ له بينهم، أو كيلا يَكونَ شيءٌ متعاوَرٌ بينَهم غيرُ مُخرَجٍ إلىٰ الفُقَراءِ. ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ من قِسمةِ غَنيمةٍ أو فَيْءٍ ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ﴾ عن أخْذِه منها ....

وقولُه: ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ﴾ يجوز أن يكونَ صِفةً لِـ﴿دُولَةً﴾، وأن تكون مُتعلِّقة: أي: تَداوُلٌ بين الأغْنياء مِنكم [١]. وقال الزَّجّاجُ: الدُّولةُ بالضَّمّ: اسمُ الشّيء الذي يُتَداوَلُ، وبالفتح: الفِعْلُ والانْتِقال من حالٍ إلى حال [٢].

قولُه: (مَنْ عَزَّ بَزَّ)، الميداني: أي: من غَلَبَ سَلَب، قالت الخَنْساءُ:

كــأنْ لَمْ يَكُونــوا حِمــىً يُتَّقــى إذِ النّــاسُ إذْ ذاكَ مَــن عَــزَّ بَــزَّا [٣]

قولُه: (ويَتَعاوَرُونَه)، بيانٌ لقولِه: «يَتَداوَلُهُ الأغْنياءُ».

(١) «المحتسب» (٢: ٣١٦).

(٢) معاني القرآن (٥: ١٤٦).

(٣) «مجمع الأمثال» للميداني (٢: ٣٠٧)، والبيت في «ديوان الخنساء» ص٦٩.

﴿فَٱنتَهُوا۟﴾ عنهُ ولا تتبَعْه أنفسُكُم، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أن تُخالِفوهُ وتتهاوَنوا بأوامرِه ونَواهِيه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمَن خالفَ رسولَه، **والأجوَدُ أنْ يكونَ عامًّا في كُلِّ ما آتى رسولُ الله ﷺ ونَهىٰ عنه**، وأمرُ الفيءِ داخلٌ في عُمومِه.

وعن ابنِ مَسعودٍ رضيَ اللهُ عنه: أنه لَقِيَ رجُلًا مُحرِمًا وعليه ثيابُه فقالَ له: انزع عنكَ هذا. فقالَ الرّجُل: اقرأ عليَّ في هذا آيةً من كتابِ الله. قال: نعم، فقرأَها عليه.

[﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ ٨]

﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ بدَلٌ مِن قولِه: ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ والمعطوفُ عليه **والذي مَنع الإبدالَ من: «للّـهِ وللّرسولِ» والمعطوفِ عليهما**، ....

قولُه: (**والأجْوَدُ أن يكونَ عامّاً في كُلِّ ما آتى رسولُ الله ﷺ ونهى عنه**)، لأنَّ الواو فيه ليْست بعاطِفة ولا تَصِحُّ، فالجُملة تَذييل ولذلك عقَّبه بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وأطْلَقه ليَشْمل كُل ما يجب أن يُتَّقى، ويدخلُ في ما سِيق له الكلامُ دُخولاً أوّلياً، ويَنْصُرُه ما رُوِّينا عن البُخاريِّ ومُسلم وأبي دَاود والتِّرمِذيِّ (١) عن ابن مَسْعُود قال: لَعَنَ اللهُ الْواشِماتِ، والمستوشِمات، وَالْمُتَنَمِّصاتِ والمفلجات لِلْحُسْنِ، الْمُغَيِّراتِ لخلق الله، فبلغَ ذلكَ امرأةً مِنْ بَني أَسَدٍ، وكانت تَقرأ القرآن ـ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ ـ فأتَتْه فَقَالَتْ: ما حَديثٌ بَلَغَني عَنكَ أَنَّكَ قُلتَ: كَذا وَكَذا؟ فَقَالَ عبد الله: مَا لِي لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ، وهو في كِتابِ الله!! فقالت: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحَي الْمُصحف فما وجَدْتُ فيهِ مَا تَقُولُ قالَ: إنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لوجدتهِ، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ الآية.

قولُه: (**والّذي مَنَع الإبدَال من: «لله وللرَّسُولِ» والمعْطُوفِ عَليهما**)، يعني من المجموع وهو جَوابٌ عن سؤالٍ مُقدَّر، يعْني: لـمَ خصَّصْت الإبْدال بِقولِـه: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، والمَعْطُوف

---

(١) البُخاريُّ (٤٨٨٦)، ومُسلم (٢١٢٥)، وأبو داود (٤١٦٩)، والتِّرْمِذي (٢٧٨٢).

....

داخِلٌ في حُكمِ المَعْطوفِ عَلَيه بِحُكمِ الانْسِحابِ؟ فقال: أخرجه الدَّليل.

وقوله: «وإن كان المعنى لرسول الله ﷺ» معناه: وإنْ صحَّ أن يُبدل من الرسول، ويكون ذكر الله للتبرك والتمهيد، لكن الله تعالى رفع منزلته من أن يسميه بالفقير.

قال الراغب: المَشْهور عند العَامَّة أنَّ الفقر الحاجة، وأصْله كَسْر الفِقَار، مِن قَولِهم: فَقَرتُه، نحو كَبَدتُه، وبهذا النَّظَر سمّى الحاجَة والدَّاهِية فَاقِرة[1].

والفَقْر: أرْبعَةٌ؛ فَقْدُ الحَسَناتِ في الآخِرَة، وفَقْدُ القَناعَةِ في الدُّنيا، وفَقْدُ المُقْتَنى. والغِنى بِحسَبِه، فَمَن فَقَد القَناعة والمُقْتنى فهو الفقير المُطْلق على سبيل الذَّم، ومن فَقَد القَناعَة دُون القِنْية فهو الغَنِيُّ بالمجَاز الفَقِير بالحَقِيقة، ومَنْ فَقَد القِنْية دُون القَناعة فإنَّه يُقال له: غَنيٌّ وفقير، وقَد ورد: «ليس الغنى بكثرة العرض، وإنما الغنى غنى القلب»، وقوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ دليلٌ علىٰ أنَّ الفقرَ مذموم، وقال صاحب «التَّقريب»: وفي أنْ يكون بدلاً من «لذي القربى» نظرٌ، لأنّه لا بدَّ من اشتراط الفقر في ذوي القربى، وليس بشرط، فليجعل بدلاً فيما بعده.

الانتصاف: مَذْهب الإمام أبي حَنيفة أنَّ اسْتِحقَاق ذَوي القُرْبى للفَيء مَشْروطٌ بالفَقْر[2]، قال إمام الحرمين: أغْلَظ الشَّافِعي الرَّدَّ على هذا المَذْهب[3] بأنه تعالى عَلّق الاسْتِحقَاق بِالقَرابَة، ولم يَشْترط الحاجَة، فاشْتِراطُها وعَدمُ اعْتِبَار القَرابَة مُضادَّةٌ ومُحادَّةٌ، واعْتَذَر إمامُ الحَرمين للحَنَفِيَّة بأنَّ الصَّدَقاتِ لـمّا حُرِّمت عليهم كانت فائِدةُ ذِكرِهِم في خُمُس الفَيء والغَنائِم أنه لا يَمْتَنعُ صَرْفُ ذلك إليهم امْتِنَاعَ صَرْف الصَّدَقات.

---

(١) «مفردات القرآن» ص٦٤٢.

(٢) انظر: «الهداية» للمرغيناني (٢: ٣٩٠).

(٣) انظر: «الأم» للشافعي (٤: ١٥٦-١٥٨).

....

ثم قال: لا نغتر بالاعتذار بأنَّ الآيةَ نصٌّ على ثُبوتِ الاسْتِحقاق تشريفاً لهم، فمن عَلَّله بالحاجةِ فَوَّت هذا المعنى، ثُمَّ عظَّمه عليهم بأنَّهم يرون اشتِراط الإيمان في رقَبة الكَفَّارة زيادةً على النَّصِّ، وهو نَسْخٌ لا يَصِحُّ بالقِياس.

قال الإمام: وكذا اشْتِراطُ الفَقْر في القَرابَة يكونُ زِيادَةً على النَّصِّ، هذا وجْهُ كلام الإمام، وهو مُتَوجِّهٌ إن أثْبَتُوه قِياساً، وقد أخَذُوا التقييد من البدل المذكور في الآية، فنقول ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ بدلٌ من «المساكين» لا غير، لأنَّه تعالى أراد وَصْف المساكين بما يُبَيِّن اسْتِحْقاقَهم وبَعْثَ الأغنياء على إيثارهم، وأنْ لا يجدوا في صُدُورِهم حاجةً مّما أوتوا، وقد فَصل عنهم قوله: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ﴾ إلى ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، طوى ذِكرَهُم توطئةً للصفات فذُكروا بصفة أخرى مناسبة للأولى، فاشتمل على وصفهم بالمسكنة والفقر جميعاً، ثم تُليت صفاتهم بعد بأنهم أُخرجوا من ديارهم إلى آخرها، فهذا الذي يُرشد إليه السياق، وأولوا القربى ذكروا على الإطلاق، فالأَولى بقاؤهم على ذلك، ويؤيد ذلك أن الحنفية يرون الاستثناء إذا تعقب جُملًا اختص بالأخيرة، فكذا البدل يكفي في صحَّة عوده إلى الأخير، ولأنه إذا جُعل من «ذوي القربى» كان بدلَ بعضٍ من الكل، إذ فيهم أغنياء، وإن جُعل بدلاً من «المساكين» أيضاً كان بدل الشيء من الشيء وهما لِعَين واحدة، فيكون البدل محتوياً على نوعَي البدل، وهو مُتَعذِّر لتَغَايرهما، إذ كل واحدٍ يتقاضى ما يأباه الآخر، وعلى هذا إعراب الزجَّاج الآية، فجعلها[1] بدلاً من «المساكين» خاصَّة[2].

وقلت: مَذْهبُ المُصنِّفِ أنَّ الجُمَل المُتعقّبة بِقيْدٍ لا تختص الأخيرةُ منها به، بل الكلُّ سواءٌ، إلا أنْ يَقُوم الدَّليل بالاخْتِصاص كما نحن بِصَدَدِه، يدل عليه قوله في سورة النور في الاستثناء:

---

(١) من قوله: «إذ جعل من ذوي القربى» إلى هنا ساقط من (ف) وأثبته من (ح) و(ط).

(٢) «الانتصاف» (٤: ٥٠٣) بحاشية «الكشاف»، باختلاف وتقديم وتأخير واختصار مُخِلّ أحياناً.

....

«والّذي يَقْتَضيه ظاهِرُ الآية ونَظْمُها أنْ تكون الجُمَل الثّلاث بمَجْمُوعهنَّ جزاءً للشَّرْط»، وقولُه هاهنا: «إنَّ الله عزّ وجل أخْرَج رسولَه من الفُقَراء، وقولُه: وأنَّ الإبدال على ظَاهِر اللفظ من خِلاف الواجِب في تَعْظيم الله تعالى» فنقول نحن أيضاً: إنَّ فِعْلَ رسولِ الله ﷺ والصَّحَابة أخْرَج ذَوي القُربى من حُكم الفُقراء.

روى مُحْيي السُّنَّة في سورة الأنْفَال[1]: أنَّ النبي ﷺ أجْرى عطاءَ العَبَّاس بن عبد المُطَّلِب مع كَثْرةِ مالِه، والخُلفاءُ بعدَه كانوا يُعطُونَ الأغْنياءَ ولا يُفَضِّلون الفَقيرَ على الغَنِي. ويُمكن أنْ يُجعَل إبْدَالاً بأنْ نَبْتدأ من قولِه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾. قال صاحب «المرشد» والكواشي[2]: إنَّ الوقْفَ على ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تامٌّ. وفي الكوّاشي: قالوا: وأراهُ حَسَناً إنْ أضمرت فعلاً أي: اعْجَبوا ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾، ولا يَجُوز اخْتِياراً إن أبدل ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ من «لِذي القُربى» وذلك أنَّ سِياق الآياتِ في مَدْح المُهاجرين والأنصار وبَذْل أرْوَاحِهم وأمْوالهم في سبيل الله، ومَدْح التَّابعين لهم بإحْسانٍ، وكيف وقد مَدَح المُهاجرين بأنّهم يَبْتغُون فَضْلاً مِن الله ورِضوانًا؟ وعَطْفُ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ على ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾؟ وفيه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، وكذا عَطْفُ قول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ كُلُّ هذا إنَّما يَحْسُن إذا ابْتُدئ منه، وتكون الآيات مُتَّصِلات بقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾؛ لأنّه لـمّا أمَر باتّبَاع سُنَّة الرَّسول ﷺ، عجب الناس باتّبَـاع هؤلاء السَّادة سُنَّة الرَّسول ﷺ بالمُهاجَرة من أوْطَانِهم والمُفَارَقةِ عن أَهَالِيْهم وأمْوالِهم،

---

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٢: ٢٩٤).

(٢) كذا ذكر المُصنِّف وفيه إيهامٌ بأن «المرشد» و«الكواشي» كلاهما اسم لكتاب، والواقع ليس كذلك، فالمرشد يعود لاسم كتاب، أمّا الكوّاشي فهو جزء من اسم المؤلِّف، ولهذا فجَمْعُهما في سياقٍ واحِدٍ غيرُ صَوابٍ، والمصنِّف يكرر هذا فيقول: صاحب «الكوَّاشي» ويقول: قال في الكوَّاشي!

وإن كانَ المعنىٰ لِرسولِ الله ﷺ: **أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أخرجَ رسولَه من الفُقَراءِ في قوله: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وأنهُ يترفَّعُ برسولِ الله عن التّسميةِ بالفَقير، وأنّ الإبدالَ علىٰ ظاهرِ اللَّفظِ** من خلافِ الواجِبِ في تعْظيمِ الله عزَّ وجَلّ، **﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾** في إيمانِهم وجهادِهم.

وبالتَّبوءِ بالدَّارِ والإيْمان، وبالتَّسْوية بما اخْتصَّ بهم حتى بأزْوَاجِهم، كما قال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وكَذا عطفُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ على الـمُهاجرين المَعْنيّ بهم «التَّابِعون لهم بإحْسَان» مَانِعٌ من الإبدال، والّذي يُؤيِّد تَقْدير فعل التَّعجُّب ـ كما ذَكره أبو البقاء [١] وتَبِعَه صاحب الكَوّاشي ـ مجيءُ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ﴾ الآيات، مُصَدَّراً بـ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وهي كلمة التَّعَجُّب لكون ذكْرِهم جاء مقابلاً لِذكْرِ أضْدَادِهم.

قولُه: (**أنَّ الله عزَّ وجَلَّ، أخْرَج رَسُولَه من الفُقَراء في قوله: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾**)، يعني لو كان داخلاً فيهم لم يصحّ قوله: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، لئلا يَلزَم أن يكون الرَّسول ناصِراً لِنفْسِه [٢].

قولُه: (**وأنه يُترفَّع برسُولِ الله ﷺ عن التَّسْمية بالفقير**)، كما لا يجوز أنْ يُوصف الله تعالى بعَلّامةٍ، لأجْلِ التَّأنيث لفْظاً، لأن فيه سوءَ أدَبٍ.

قوله: (**وأن الإبدال على ظاهر اللفظ**) يعني: وإنْ صحَّ إبدالُ قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ من قوله: «لله» من حيث ظاهر اللفظ، لكن لا يصحّ من حيث المعنى؛ لِـمَا يؤدي إلى خلاف تعظيم الله [٣].

---

(١) انظر: «إملاء ما من به الرحمن» (٢: ٢٥٨).

(٢) من قوله: «قوله: أن الله» إلى هنا ساقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

(٣) من قوله: «قوله: وأن الإبدال» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف) وأثبته من (ط).

[﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ٩]

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، وهُم الأنْصارُ.

فإنْ قلتَ: ما معنىٰ عطفِ الإيمانِ علىٰ الدّار، ولا يقالُ: تبوَّؤا الإيمان؟

قلتُ: معناه **تَبوَّءوا الدّارَ وأخلَصوا الإيمانَ**، كقولِه:

عَلَفْتُها تِبْنًا وماءً بارِدًا

أو: وجعلوا الإيمانَ مُستقَرًّا ومُتوَطَّنًا لهم لتمَكُّنِهم منه واستِقامَتِهم عليه، كما جَعَلوا المدينةَ كذلك. أو أرادَ دارَ الهِجرةِ ودارَ الإيمانِ، فأقامَ «لام التعريف» في ﴿ٱلدَّارَ﴾ مقام المُضافِ إليه، وحذفَ المضافَ من دارِ الإيمانِ ، ووضعَ المُضافَ إليه مقامَه، أو سمّىٰ المدينة لأنّها دارُ الهِجرةِ ومكانُ ظُهورِ الإيمان بالإيمانِ، ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قَبلِ المهاجرين؛ لأنّهم سَبقوهُم في تبوُّؤِ دارِ الهجرةِ والإيمان. ....

قولُه: (**تَبوَّءوا الدَّارَ وأخْلَصوا الإيمانَ**)، وحَاصِلُ الوجوه الأربعة يعود إلى عَطْف الإيْمان على الدَّار إمّا من باب التَّقدير أو الانْسِحاب، والإيْمان إما مُجْرىً على حَقيقتِه أو اسْتِعارة، ففي الوجه الأوّل: الإيْمان حقيقةٌ والعَطف من باب التَّقْدير، لكن يُقدَّر بحسب السَّابق، (الانسحاب)، والإيْمانُ على الوجْه الثَّاني اسْتَعارةٌ مَكْنيَّة[1]، وعلى الثاني والرابع العطف للانسحاب، وعلى الثَّالث مجَازٌ أضيفَ بأدْنى مُلابَسة، وعلى الرَّابع اسْتِعارة مُصَرَّحة تحقيقية.

فإنْ قُلتَ: بيِّن لي مخرج الاسْتِعارَتين وتَصْحيحَهما.

قلتُ: شُبِّه في الوَجْه الأوّل الإيْمان من حَيْث إنَّ المؤمنين من الأنصار تَمكَّنوا فيه تَمكُّن المالك

---

(١) من قوله: «والإيمان على» إلى هنا سقط من (ط)، وأثبته من (ح) و(ف).

....

المتسلط في مكانه ومستَقره، بمدينة من المدائن الحَصِينة، بتوابِعها ومَرافِقِها، ثُمَّ خُيِّل أنَّ الإيمانَ مدينةٌ بعيْنها تَخيْيلاً مَحْضاً، فأطْلَق على المُتَخيَّل اسمَ الإيْمان المُشبَّه، وجُعِلت القَريْنة نسبة التَّبَوّء اللازم للمُشبَّه به إليه على سبيل الاسْتعارة التَّخْييلية، لتكون مانعةً لإرَادة الحقيقة، وعلى الرَّابع شُبِّهت طَيْبَةُ ـ أي: مَدينةُ خَيرِ الرُّسل صلوات الله عليه لِكَوْنِها دارَ الهِجْرة ومَكانَ ظُهورِ الإيمانِ ـ بالتَّصْديق الصَّادِر من المخلص المُحلى بالعَمل الصَّالح، ثُمَّ أَطْلَقَ اسمُ الإيمانِ على مدينةِ الرَّسُول ﷺ بوساطَة نِسبة التَّبَوّء إليه، وهي اسْتِعارةٌ مُصرِّحةٌ تحقيقية، لأنَّ المُشبَّه المتروك وهو المدينة حِسِّيٌّ، والجامعُ النَّجَاةُ من مَخاوِف الدَّارين؛ ففي الأوّل المبالَغَة والمدح يعُود إلى سكان المدِينة أصالةً، وفي الثّاني العكس، والأوّل أدْعى لاقْتِضَاء المقام، لأنَّ الكلامَ وَارِدٌ في مَدْح الأنْصَار الّذين بَذَلوا مُهَجَهُم وأمْوالَهم في نُصرة الله ونُصْرة رسُولِه، وهم الّذين آوَوْه ونَصرُوه.

فإنْ قُلتَ: يَلْزمُكَ من القَول بالانْسِحاب اسْتِعمالُ الكلمَةِ الواحِدَة في الحَقيقة والمَجازِ معاً.

قلتُ: أجعلها مجَازًا في مُطْلَق اللُّزوم والثَّبات ولا أبالي بذلك كما مَرَّ مِراراً.

فإن قُلتَ: فَما تَصْنع بقوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ فإنَّه يُؤدّي إلى أنَّ الأنصار سَبَقوا المهاجرين في الإيمان، ولذلك قال المُصنِّف: «سبقُوهم في دَارِ الهِجْرة والإيْمان»، أيْ: دَارِ الإيمان.

قلتُ: قال الوَاحِديُّ: تَقْدير الآية: والذين تبوَّءوا الدار من قبلهم والإيمان، لأنَّ الأنْصَار لم يؤمنوا قبل المهاجرين [1]، ويُمكن أنْ يُقال: إنّا ذَكَرنا أنَّ التَّقْدير أنَّهم تمكّنوا في الإيْمان تَمكُّن المالك في مُلكِه لا يُزْعِجُهم عنه مُنازِعٌ، ولا شكَّ أنَّ المُهاجِرين قبل الهِجرة كانوا في تَقِيَّـةٍ وخوفٍ من الـمُشْركين، ولذلك هَاجَروا الـهِجْرتين، ولم يُوجَد لهم ذلك التَّمكُّن إلا بعدَ الاسْتِقرار في

(١) «الوسيط» (٤: ٢٧٣).

وقيل: من قَبلِ هِجرتِهم، ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾: ولا يعلَمُونَ في أنفُسِهم ﴿حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أي: طلبَ مُحتاجٍ إليه ممّا أوتِيَ المهاجِرونَ من الفَيءِ وغيرِه، والمُحتاجُ إليهِ يُسمّىٰ حاجةً؛ يُقالُ: خُذ منه حاجتَكَ، وأعطاهُ من مالِه حاجتَه، يعني: أنّ نفوسَهُم لم تَتبَع ما أُعطوا، ولم تطمَح إلىٰ شيءٍ منهُ تَحتاجُ إليهِ ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: خَلّةٌ، وأصلُها: خَصاصُ البيت، وهي فُروجُه؛ والجُملةُ في مَوضعِ الحالِ، أي: مَفروضةً خَصاصتُهم وكانَ رسولُ الله ﷺ قَسّم أموالَ بني النّضيرِ علىٰ المُهاجِرينَ، ولم يُعطِ الأنصارَ إلّا ثلاثةَ نَفرٍ مُحتاجين: أبا دُجانَة سِماكَ بن خَرشة، وسَهْل بن حَنيفٍ، والحارث بن الصِّمّة.

دارِ الهِجْرة، وإليه أومأ المُصنِّف بقوله: «وقيل: من قَبل هِجْرتهم»، ولذلك لم يَزالوا بعد الهِجْرة في قِلّةٍ وفَقْرٍ حتى آسَاهم الأنْصار بأموالهم، وآثَروهُم بأثْمارِهم، على ما رُوِّينا عن البُخاريِّ ومُسلِمٍ عن أنس قال[1]: قَدِم المُهاجِرون من مكّةَ المدينةَ، قَدِموا وليس بأيْديهم شيءٌ، وكانت الأنْصار أهْلَ الأرْضِ والعَقَار، فَقَاسَمُوهم حتّى أنْ أعْطَوْهم أنْصافَ أثْمار أمْوالهم كلّ عامٍ، ويكفونهم العَمَلَ والمؤونَة.

وكافيك بحال أغنى المهاجرين وأكثرهم ثروة عبد الرَّحمن بن عَوْف حين قَدِم المدينة شاهداً على ذلك، رُوِّينا في «صحيح البُخَاريِّ» عن ابن عَوْف[2] قال[3]: آخَى رسولُ الله ﷺ بيني وبين سَعْد بن الرَّبيع، فقال لي سعد: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقَاسِمك مَالي شَطْرين، ولي امْرأتان فانْظرْ أيّتهما شِئت حتى أنْزِل لك عنها، فإذا حلّت تَزَوّجتها، فقلت: لا حَاجة لي في ذلك، دلُّوني على السُّوق. الحديث، ومن ثَمّ حَسُن التّعجُّب بالفَقْر في صدر هذه الآية.

قولُه: (﴿خَصَاصَةٌ﴾ أي: خَلّة)، **النهاية**: الخَصَاصةُ: الجُوعُ والضّعْف، وأصْلُها الفَقْر والحَاجَة إلى الشّيء، والجُملة في مَوضِع الحال، يعني قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

---

(١) البخاري (٢٤٨٧) ومسلم (١٧٧١).

(٢) من قوله: «حين قدم» إلى هنا ساقط من (ح) واستدركته من (ف) و(ط).

(٣) البخاري (٣٧٨٠).

وقالَ لهم: «إنْ شِئتُم قَسَمْتُم للمُهاجِرين من أموالِكُم ودِيارِكُم وشارَكْتُموهُم في هذهِ الغَنيمةِ، وإن شِئتُم كانتْ لكُمْ ديارُكم وأموالُكم ولم يُقسَم لكمْ شيءٌ من الغَنيمة»، فقالت الأنصارُ: «بل نقسِمُ لهم من أموالِنا وديارِنا ونؤثِرُهم بالغَنيمةِ ولا نُشارِكُهم فيها» فنزلت.

الراغب: خَصَاصُ البيت: فُرَجُه، وعُبِّرَ عن الفَقْر الذي لم يُسدَّ بالخَصَاصَةِ، كما عُبِّرَ عنه بالخلَّة، والخُصُّ: بَيْتٌ من قَصَبٍ أو شَجرٍ، وذلك لما تَرى فيه من الخَصَاصة[1]، قال: وسُمِّي انْثِلامُ الحالِ خَصَاصًا وخَصاصةً على التَّشبيه، كما سُمِّي انثلاماً واختلالاً وشعثًا، وخَصَصْت فلاناً وخصَّني أوْلَيتُه خصاصَتي نحو: خَلَلْته وقولهم: وقَفْتُهم على عُجْري وبجري، وخُصَّان الرَّجل: خلّانه، ثُمَّ جعل الخاص مقابلاً للعامِّ في التعارف.

قولُه: (بل نَقْسِمُ لهم مِن أمْوالِنا ودِيارِنا ونُؤْثِرُهم بالغَنيمةِ ولا نُشَارِكُهم فيها فنزلت)، والأصَحُّ: أنَّها نَزلت في أنصاريٍّ اسمه أبو طَلْحة، على ما رُوِّينا عن البُخَاريِّ ومُسْلمٍ والتِّرْمذيِّ عن أبي هُريرة قال[2]: جاء رجلٌ إلى رسولِ الله ﷺ، فقال: إني مَجْهُودٌ، فأرسَل إلى بعضِ نِسائِه، فقالت: والذي بعَثَك بالحَقِّ، ما عِندي إلا ماء، ثمَّ أرسَل إلى أُخرى، فقالت: مثلَ ذلك، وقُلْن كُلُّهنَّ مثلَ ذلك، فقال رسولُ الله ﷺ: «مَن يُضيفه يرحمه الله؟» فقام رجلٌ من الأنْصار يقال له: أبو طَلْحة، فقال: أنا يا رسول الله، فانْطَلَق به إلى رَحْله، فقال لامرأته: هل عِنْدكِ شيء؟ قالت: لا، إلا قُوتُ صِبياني، قال: فعَلّليهم بشيء ونَوِّميهم، فإذا دخل ضَيْفُنا فأريه أنَّا نأكل، فإذا أهْوى بيدِه ليأكل فقومي إلى السِّراج كي تُصلِحيه فأطْفِئيه، فَفَعلتْ، فَقَعدوا فأكل الضَّيف، وبَاتا طَاوِيَيْن، فلما أصْبَح غَدا إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «لقد عَجِبَ الله» ـ أو «ضَحِكَ الله» ـ «من فُلانٍ وفُلانة».

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٢٨٤.

(٢) البخاري (٤٨٨٩) ومسلم (٢٠٥٤)، والترمذي (٣٣٠٤) لكن بسياق مختلف ومختصر جداً!!

«الشُّحُّ» بالضَّمِّ والكَسر، وقد قُرِئَ بهما: اللُّؤم، وأن تكونَ نفسُ الرَّجُلِ كَزّةً حَريصةً علىٰ المَنْع، كما قال:

يُمارِسُ نَفْساً بَيْنَ جَنبيْهِ كَزَّةً إذا هَمَّ بِالمَعروفِ قالتْ لهُ: مَهْلا

وقد أضيفَ إلىٰ النَّفْس؛ لأنّه غَريزةٌ فيها، وأمّا البُخلُ فهو المنعُ نفسُه، ومنهُ قولُه تعالىٰ: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ ومَن غَلب ما أمرتُه به منه، وخَالَف هَواها بمَعونةِ الله وتوفيقِه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الظّافِرونَ بما أرادوا. وقُرِئَ: (ومَن يُوقَّ).

وفي روايةٍ نحوه، وفيها: فأنزل الله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

قولُه: («الشُّحُّ» بالضَّم والكَسْر)، بالضَّم المشهورة، وبالكَسر شَاذّة.

قولُه: (يمُارِس نَفْساً)، البيت[2]، يقال: رجلٌ كزٌّ أي: قليلُ المُواتاة، قليلُ العَطاء. الكَزازةُ: الانْقبَاض واليُبْس، رجُلٌ كَزُّ اليدين: نَحِيلٌ: مثل: جَعْد اليدين. يقول: هذا الرَّجل إذا هَمَّ يوماً أنْ يتسمح بمعروفٍ قالت له نَفْسُه: مَهْلاً، فَيطِيعها ويَمتَنِع من الخير.

قولُه: (وقَد أُضِيفَ إلى النَّفْس؛ لأنّه غَريزةٌ فِيها، وأمّا البُخْل فهو المَنْعُ نَفْسُه)، اعلم أنَّ الفَرْق بين البُخْل والشُّحّ عَسِرٌ جداً، وقد آذن بالفَرق في هذا المقام، وأنَّ الشُّحَّ: اللؤمُ، وهو غريزة، وأنَّ البخل: المنعُ نفسه، فهو أعمّ، لأنه قد يوجد البخل ولا شح ثمة، ولا ينعكس، وعليه ما ورد في «شرح السُّنَّة»: جاءَ رجُلٌ إلَى عبد الله بن مسْعُودٍ، فقال: إنِّي أَخافُ أَنْ أَكُونَ قَدْ هلكتُ، فقال: ما ذاك؟ قال: أَسْمَعُ اللهَ، يقُولُ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحَشْر: ٩] وأنا رجُلٌ شحيحٌ لَا يكادُ أَنْ يخرُجَ من يدي شيْءٌ، فقال عبدُ الله:

---

(١) من قوله: «وفي رواية» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف)، وأثبته من (ط).

(٢) أورده الزمخشري أيضاً في «أساس البلاغة»، مادة (كزز).

....

ليس ذاك بِالشُّحِّ الَّذي ذكره الله، إنَّما الشُّحُّ أَنْ تأكُل مال أَخيكَ ظُلْمًا، ولكن ذاكَ البُخْلُ، وبِئْسَ الشَّيءُ البُخْلُ.

وقال ابن جُبَيْرٍ: الشُّحُّ: إِدْخالُ الحرام، ومنعُ الزَّكاة[1].

وعن مُسلم عن جابر[2] أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «اتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَن كَان قَبلَكم، حَمَلَهُم على أَنْ سفكوا دِمَاءَهُم وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُم»، وعن النَّسَائيِّ عن أبي هُريرة قال[3]: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يَجْتَمِع الشُّحُّ والإِيْمانُ في قَلْبِ عبدٍ أبداً».

فإِذَنْ الشُّحُّ صِفةٌ راسِخةٌ يَصْعُب مَعَها على الرَّجل تأتّي المعْرُوف، وتَعَاطي مَكَارم الأَخْلاق، ويفتقر في التَّخَلُّص مِنه إلى مَعُونَة الله وتَوفيقه كما أومأ إليه المُصنِّف.

ورُوِّينا عن البُخَاريِّ ومُسلمٍ والنَّسائيِّ[4] عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ «مَثَلُ المُنْفِق والبَخِيل، كمثلِ رجلين عليهما جُنَّتان أو جُبَّتان من حَدِيد، من لَدُن ثدييهما إلى تراقيهما، فإذا أراد المنفِق أن ينفِق: اتَّسعت عليه الدِّرْعُ، أو مرَّت حتى تُجِنَّ بَنَانَه، وتَعفُوَ أثرَه، وإذا أراد البَخِيل أن يُنْفِق: قَلَصَتْ، ولَزِمت كلُّ حَلْقة موضِعَها حتى أَخذته بتَرْقوَته أو برقبته».

وإذا صَحّ أنَّ الشُّحَّ أمُّ الخَبائِث وأُسُّ الرَّذائلِ، كان قولُه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تَذْييلاً لِقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ومعناه ما قال المُصنِّف: «ومَنْ غَلَب ما أَمَرَته به نفسُه، وخَالَف هَواها بِمَعُونة الله وتَوْفِيقِه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾» أي: الّذين إنْ تُصُوِّرتْ صِفةُ المُفْلِحين وتُحقِّقُوا ما هُم، فَهُم هُم، لا يَعْدُون تلك الحَقيقَة.

---

(١) «شرح السُّنَّة» للبَغَوي (١٤: ٣٥٧).

(٢) مُسلم (٢٥٧٨).

(٣) النَّسائي في «السنن» (٦: ١٣) (٣١١٠)، وفي «السنن الكبرى» (٣: ١٠) (٤٣١٨-٤٣١٩).

(٤) البُخَاري (١٤٤٣) ومُسلم (١٠٢١)، والنَّسائي في «السنن» (٢٥٤٧)، وفي «السنن الكبرى» (٢٣٢٧).

[﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ١٠]

﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ عَطفٌ أيضًا علىٰ ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾: وهم الذين هاجَروا من بعد، ....

وقد تحقَّق لك أنَّ مَن جَعَل الإيمان مُتَوطَّناً لِنَفسِه ومُسْتَقرّاً لها، وقَطَع طَمَعه من مال الغير وآثَر ما يَملكه على نَفْسه كان من المُفْلِحين الفائزين بمَباغِيهم.

وفي جَعْلِ قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ كِنايةً عن قَطْع الطَّمَع، إشارَةٌ إلى قطع ذلك الغَريزيِّ من سنخه قَطْعاً لو تكَلَّف التِماسَ أيَّة حاجَةٍ كانت، ما وجد لها أثَراً، وفي تَتْميمه بقولِه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ بُلوغٌ إلى الدَّرجة العليا في الحُرية والفُتُوّة، أي: قطعوا الطَّمع إشارَةً إلى قَلْعِ ذلك عمّا أوْتُوا، ويُؤثِرون على أنْفُسِهم بما مَلكُوا، وأنشد في ذلك:

فتًى غيرُ محجوبِ الغِنَى عن صديقِه ... ولا مُظهِرُ الشَّكوى إذا النَّعلُ زَلَّتِ[1]

قولُه: (﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ عَطفٌ أيضاً على﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾)، فإنْ قلتَ: كيف وُصِفَ الأولون بالمُهاجَرة وابْتِغاء الفَضْل والنُّصرة والصِّدق، والأنصار بالرُّسُوخِ في الإيمان ومَحبَّة الإيواء والسَّخاوة البالغة حَدَّها، والفَلاح في الآجل، واقْتَصر في مَدْح هؤلاء على قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا﴾؟

---

(١) اختُلف في نسبة هذا البيت، ففي «الحماسة البصرية» لأبي الحسن صدر الدين البصري (١: ١٣٥)، نسبه لعبد الله بن الزبير، وقال: يروى لعمرو بن كُميل، وفي «الأغاني» لأبي الفرج (١٤: ٢١٩ – ٢٢٠) نسبه لابن الزبير، لكن الجاحظ في «الرسائل» نسبه لرجل يقال له: محمد بن سعيد، وهو رجل من الجند! وتابعه الأصبهاني في «الزهرة»، وأضاف إلى اسمه: السعدي.

وقيل: التَّابِعون بإحسانٍ. ﴿غِلًّا﴾ وقُرِئَ: (غِمْرًا) وهُما الحِقد.

قلت: كَفَى بهم مَدْحاً أن يُوفِّقَهم على الدُّعَاء لأولئك السَّادَة الكِرام، ويَمْنَحهم مَحبَّتَهم، ويُدْخِلهم في زُمْرَتِهم بأُخوّة الإسلام.

قال الوَاحِديُّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾: يعني التَّابِعين، وهُم الَّذين يَجيئُون بعد المُهاجِرين والأنْصَار إلى يوم القِيامة، فذَكر أنَّهم يَقُولون: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: غِشّاً وحَسَداً وبُغْضاً، وكُلُّ من لم يَتَرَحَّم على جميعِ أصْحابِ مُحمدٍ وكانَ في قَلبِه غِلٌّ على أحدٍ منهم، فإنَّه ليس مِمن عناه الله بهذِه الآية، لأنَّ الله تعالى رتَّب المُؤمنين ثلاثَ مَنازِل: المُهاجِرين، والأنْصَار، والتَّابِعين الموصوفين بما ذَكر، فمن لم يكن من التَّابِعين بهذه الصِّفة كان خَارجاً من أقسام المؤمنين[(١)].

وسمع ابنُ عبّاس رجلاً يَنال من بعض الصَّحابة فقال: أمِنَ المُهاجِرين الأوّلين أنت؟ قال لا، قال: مِن الأنْصار؟ قال: لا، قال: فأنا أشْهد أنَّك لَسْت من التَّابِعين بإحْسانٍ[(٢)].

قولُه: (﴿غِلًّا﴾ وقُرِئ: غِمْراً، وهما الحقد)، الراغب: أصْلُ الغَلَل: تَدرُّعُ الشَّيءِ وتَوسُّطه، ومنه: الغَلَل للماءِ الجاري بين الأشْجَار، فالغُلُّ مُخْتصٌّ بما يُقيَّد به فتُجْعل الأعْضاء وَسَطه، والغِلالة: ما يُلبس من النَّوعين، فَالغِلُّ والغُلُول تَدرُّع الخِيانة والعَداوة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والغُلَّة والغَليل: ما يَتَدرَّعه الإنْسان في داخِله من العَطَش، ومن شِدَّة الوَجْدِ والغَيْظ، يُقال: فُلانٌ شَفَى غَلِيلَه، أي: غَيْظَه، والمُغَلْغَلَةُ: الرِّسالة التي تَتغَلْغَل وسَط القوم[(٣)].

(١) ملمحٌ طيِّب، ووجهة نظر موفقة في تقسيم المؤمنين إلى ثلاثة أقسام، وجعل التابعين لهم طائفة ممتدة إلى يوم القيامة، وهذا مروي عن ابن أبي ليلى أيضاً، ولهذا فكل من لم يترضَّ على المهاجرين والأنصار ويحبهم، فليس داخلاً في سلك المؤمنين، فكيف بمن يَسبُّهم، ويكفِّر كبارهم؟! نعوذ بالله من الخذلان المبين، ونشهده على حب الصحابة أجمعين، ونسأله أن يجمعنا بهم في أعلى عليين.

(٢) «الوسيط في تفسير القرآن» (٤: ٢٧٥).

(٣) «مفردات القرآن» ص ٦١٠.

[﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ١١-١٢]

﴿لِإِخْوَٰنِهِمُ﴾ الذين بَينهم وبينَهم أُخوّة الكُفر، ولأنّهم كانوا يُوالونَهم ويؤاخُونَهم، وكانوا معهم علىٰ المؤمنينَ في السِّرِّ ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ في قِتالِكم ﴿أَحَدًا﴾ من رَسولِ الله والمُسلِمينَ إنْ حمَلْنا عليه. أو في خِذلانِكم وإخلافِ ما وعَدناكُم من النُّصرةِ، ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ أي في مواعيدِهم لليَهود. وفيه دَليلٌ علىٰ صِحّةِ النُّبوّةِ لأنهُ إخبارٌ بالغُيوب.

فإن قلتَ: كيف قيل: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ بعدَ الإخبارِ بأنّهم لا يُنصُرونهم؟

قلتُ: معناه: ولئِنْ نَصروهُم علىٰ الفَرْضِ والتَّقديرِ، كقولِه تعالىٰ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وكما يَعلمُ ما يكونُ، **فهُو يعلمُ ما لا يكونُ، لو كانَ كيفَ يكون.**

والمعنىٰ: ولئن نصَرَ المنافِقُونَ اليهودَ لينْهَزِمنّ المنافقونَ ثُمّ لا يُنصَرون بعدَ ذلك، أي: يُهلِكُهمُ اللهُ تعالىٰ ولا ينفعُهم نفاقُهم لظُهورِ كُفرِهم، أو لينهَزِمنَّ اليهودُ ثمَّ لا ينفعُهم نصرةُ المنافقين.

[﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ....

قولُه: (**يَعْلَم مَا لا يَكُون، لو كَان كَيف يَكُون**) «ما» مَفعولٌ أوّل، و«كيف» مفعولٌ ثانٍ، يعني: أنَّ اللهَ تَعالى يَعْلم المَعْدوم إذا فرِض وُجُوده على أيِّ حالةٍ يُوجَد.

﴿قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ ١٣-١٧]

﴿رَهْبَةً﴾ مصدَرُ «رُهِبَ» المبْنيُّ للمَفعول، كأنَّه قيل: أشدُّ مَرهُوبيَّة. وقولُه: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ دلالةٌ علىٰ نِفاقِهم، يعني: أنّهم يُظْهِرونَ لكمْ في العَلانيةِ خوفَ الله، وأنتم أهيَبُ في صُدورِهم من الله.

فإنْ قُلتَ: كأنّهم كانوا يَرهَبُونَ من الله حتّىٰ تكونَ رهبتُهم مِنهم أشدّ.

قلتُ: معناهُ أنَّ رهْبتَهم في السِّرِّ منكم أشدُّ من رَهبَتِهم من الله التي يُظهِرونَها لكم، وكانوا يُظهِرون لهم رهبةً شديدةً من الله، **ويجوزُ أن يُريد أنّ اليهودَ يخافونَكُم** في صُدورِهم أشدَّ من خوفِهم من الله؛ لأنّهم كانوا قومًا أُولي بأسٍ ونَجْدةٍ، فكانوا يتشجَّعونَ لهم مع إضمارِ الخيفةِ في صُدورِهم، ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لا يَعلمون اللهَ وعظَمتَه حتّىٰ يَخشَوهُ حقَّ خَشيتِه. ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ لا يَقدِرونَ علىٰ مُقاتَلتِكم ﴿جَمِيعًا﴾ مُجتمِعينَ مُتَسانِدين، يعني اليهودَ والمُنافِقين ﴿إِلَّا﴾ كائِنين ﴿فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالخَنادِقِ والدُّروبِ، ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ دُون أن يَصْحَروا لكُم ويُبارِزوكُم،

قولُه: (﴿رَهْبَةً﴾: **مَصْدر «رُهِبَ» المبني للمَفعول)، الانتصاف**: لأنَّ المُخاطَبين مَرْهُوبٌ منهم لا راهِبون.

قولُه: (**ويجُوز أنْ يُريد أنَّ اليَهودَ يخَافُونكم**)، وحَاصِل المعْنى الأوّل: أنّهم يُظْهِرون لكم خَوفَ اللهَ تَعالى، مع أنّهم لا يخَافُونَه تَعالى، والمعنى الثاني: أنّهم يُظْهِرون لُكم أنّهم لا يَخافُونكم، مع أنّهم يخَافُونكم، ويخَافُون اللهَ خَوْفاً لا يُعتدّ به، ولذلك قال: «حَتى يخشَوه حقّ خَشْيته».

لِقَذْفِ الله الرُّعْبَ في قُلوبِهِم، وأنَّ تأييدَ الله تعالىٰ ونُصرتَه مَعكُم. وقُرِئَ: (جُدْر) بالتّخفيف، و(جِدار)، و(جَدْر)، و(جَدَر)، وهما: الجِدار.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يعني أنّ البأسَ الشّديدَ الذي يُوصَفونَ به إنّما هو بينَهم إذا اقتتَلوا؛ ولو قاتَلوكم لم يبقَ لهم ذلك البأسُ والشِّدّة؛ لأنّ الشُّجاعَ يَجبُن، والعزيزَ يَذِلُّ عندَ مُحارَبةِ الله ورَسولِه. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مُجتمِعين ذَوي أُلفةٍ واتّحادٍ، ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ مُتفرِّقةٌ لا أُلفةَ بينَها، يعني: أنّ بينَهم إِحَنًا وعَداواتٍ، فلا يتعاضَدُون حقَّ التَّعاضُدِ، ولا يَرمُونَ عن قوسٍ واحدةٍ. وهذا تَجْسيرٌ للمؤمِنينَ وتَشجيعٌ لقُلوبِهم علىٰ قتالِهم. ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أنّ تَشتُّتَ القلوبِ ممّا يُوهِنُ قُواهُم ويُعينُ علىٰ أرواحِهم.

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثلُهم كمَثَلِ أهلِ بَدْرٍ في زَمانٍ قَريب.

قولُه: (و«جِدَار» و«جَدْر»)، ابنُ كَثِير وأبو عَمرو: «جِدار» بكسر الجيم وفَتْح الدَّال وألف، وأمالَ أبو عَمرو فَتْحَةَ الدَّال، والباقُون: ﴿جُدُرٍ﴾ بضم الجيم والدَّال[١].

وقال ابنُ جِنّي: قرأ أبو رَجاء وأبو حَيّة: جُدْر، بضَمِّ الجِيم وإسْكان الدَّال[٢].

وقال الزَّجّاج: فمن قرأ ﴿جُدُرٍ﴾ فهو جَمع جِدار، مثل: حِمار وحُمُر، ومن قَرأ بتَسكين الدَّال: حَذَف الضَّمَّة لِثِقَلها، كصُحْفٍ وصُحُف، ومن قرأ «جِدار» فهو الواحد[٣].

قولُه: (﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أنَّ تَشَتُّت القُلوب ممّا يُوهِن قُواهم، ويُعِينُ على أرْواحِهم)، أي: على تَوهِين أرْواحِهم وفَسادِها، لأنَّ القَلب مُضْغَةٌ، إذا صَلَحتْ صَلَح الجَسَدُ كُلَّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه[٤]، ثُمَّ يَسْري منه الفَسَاد إلى الرُّوحِ.

---

(١) «التيسير في القراءات السبع» للدّاني ص١٣٤.
(٢) «المحتسب» (٢: ٣١٦).
(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٤٨).
(٤) مقتبس مما أخرجه البخاري (٥٢) من حديث النعمان بن بشير في هذا المعنىٰ.

فإنْ قُلتَ: بِمَ انتصبَ ﴿قَرِيبًا﴾؟

قلتُ: بـ«مثَل»، على: كوجودِ مَثل أهلِ بَدر قَريبًا ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ سوءَ عاقبةِ كُفرِهم وعَداوَتِهم لرسولِ الله ﷺ. ....

الراغب(١): إنَّما خُصَّ الأوّل بـ ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾، والثاني بـ ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾، لأنَّ المعنى: خَوفُهم منكم أشدُّ من خَوفِهم من الله، لأنَّهم يعلمون ظَاهِرَه ولا يَعْرِفون ما استَترَ علَيْهم منه، والفَقيهُ يَسْتدرك من الكلامِ ظاهِرَه الجَليَّ، وغامِضَه الخَفِيَّ، بسُرعَةِ فِطْنَتِه، وجُودَةِ قَرِيحَتِه. فلمَّا رَهِبوا من النَّبي ﷺ ما لم يَرْهَبوا من الله عزَّ وجَلَّ، صاروا كمَن يعْرِف ما يَشْهده، ويَجْهل ما يَغيب عنه، وقيل: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾: لا يَسْتَدرِكون عظَمةَ الله ويُشاهِدون جَلالةَ النَّبي ﷺ، ولا يعْلَمون أنَّ ذلك لجلال الله تعالى.

وأمَّا قولُه: ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾ جاء بعد قولِه: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ ومَعْناه: ليس يَجْمعُهم الحقُّ على طريقةٍ واحدةٍ، بل هم أتْباعُ أهْوائِهم، وهم مُختلِفون باخْتلافِ آرائِهم، ولو عقَلوا الرُّشْد من الغَيِّ لاجْتَمعُوا على الحَقِّ، فاخْتِلافُهم لأنَّهم لا يَعْقِلون ما يدعو إلى طاعَة الله، ويَهْدي إلى الصِّراط المُسْتقيم، فالحقُّ سَبِيلٌ واحِدٌ مُسْتقيمٌ، والباطِلُ سُبُلٌ كثيرةٌ يحمل عليها أهْواء مُتَشعِبة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(٢) [الأنعام:١٥٣].

قولُه: (بـ«مَثَل»، على: كَوجُودِ)، أي: ﴿قَرِيبًا﴾ مُتعَلِّق بـ«مَثَل» في ﴿كَمَثَلِ﴾، على تقْدِير المُضَاف وهو العَامل، أي: مثَلهم كوجُود مَثَلِ أهل بدرٍ قَريباً، وذلك المثل هو: ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقال أبو البقاء: ﴿كَمَثَلِ﴾ أي: مَثَلُهم كَمَثَلِ الذين من قبلهم، و﴿قَرِيبًا﴾ أي: اسْتَقروا مِن قبلِهم زَمناً قَريباً، أو ذَاقوا وَبَال أمْرِهم قَريباً، أي: عن قَريب(٣).

---

(١) يعني: في «درة التنزيل» وتقدم الكلام في نسبته إلى الراغب، وأن الأصح أنه للخطيب الإسكافي.

(٢) «درة التنزيل وغرة التأويل» للخطيب الإسكافي (٣: ١١٨١-١١٨٢).

(٣) «إملاء ما مَنّ به الرحمن» (٢: ٢٥٩).

من قولهم: «كلأٌ وَبيلٌ»: وَخيمٌ سيّئُ العاقِبة، يعني ذاقُوا عذابَ القَتلِ في الدُّنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخِرةِ عذابُ النّار. مَثَلُ المنافقين في إغرائِهم اليهودَ علىٰ القِتالِ ووَعْدِهم إيّاهم النَّصْرَ، ثُمَّ مُتارَكتِهم لهم وإخلافِهم ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ إذِ استَغوىٰ الإنسانَ بكيْدِه ثمّ تبرّأَ منهُ في العاقِبة، والمُرادُ استِغْواؤُه قُرَيْشًا يومَ بَدر؛ وقولُه لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾[الأنفال: ٤٨] وقرَأَ ابنُ مَسعودٍ: (خالدان فيها)، علىٰ أنهُ خبرُ «أنّ»، و﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ لَغوٌ، وعلىٰ القِراءةِ المشهورةِ: الظَّرفُ مُستَقِرٌّ، و﴿خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾: حالٌ. وقُرِئَ: (أنا بَريءٌ) و(عاقبتُهما) بالرَّفع.

قولُه: (كَلأٌ وبيْلٌ)، أي: وَخِيم، الرّاغب: الوَبْلُ والوابِل: المطَر الثَّقيل، قيل للأمر الّذي يُخاف ضَرَره: وَبَالٌ، يُقال: طعامٌ وَبِيلٌ، وكَلأٌ وَبِيلٌ: يُخافُ وَبَاله [1].

قولُه: (والمُرادُ اسْتِغْواؤه قُريشاً يومَ بَدرٍ)، اعلم أنَّ التَّعْريفَ في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ للعهد لا غير، إذ لا يَتَبادَر منه إلا المُتعارف شَرْعاً، وأمّا ما في «الإنسان» فيَحْتمل العَهد، أي: قُريشاً كما قال، ومَعنى قوله: ﴿ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ﴾: قَصَد إغْواءَهم، فدَعاهُم إلى قِتال المُسلمين فغَووا، لا هذا اللّفظ بعينِه، وهو المُراد من قولِه: «المراد استغواؤه» لأنَّ الّذي قال لهم يومَ بدرٍ هو قوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ وقريب منه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، ويَحتَمِل الجِنْس على نحو قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦] في أنْ لم يباشر الفعلَ إلا بعْضُ الجِنْس، وفي معناه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] قال: «ومعنى كُفره بإشْراكهم إيّاه تبرُّؤُهُ منه واسْتِنْكارُهُ له، كقولِه: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤]».

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٨٥٢.

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ١٨-١٩]

كرَّرَ الأمرَ بالتَّقوىٰ تأكيدًا، أو اتَّقوا اللهَ في أداءِ الواجِبات؛ **لأنهُ قُرِنَ بما هو عَملٌ**، واتّقوا اللهَ في تَركِ المعاصي؛ لأنهُ قُرِنَ بما يجري مَجْرىٰ الوعيد.

والغَدُ: يومُ القِيامة، سمّاه باليومِ الذي يَلي يومَكَ تقريبًا له، وعن الحسن: لم يزل يُقرِّبُه حتّىٰ جعلَه كالغَد. ونحوُه قولُه تعالىٰ: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] يريد: تَقريبَ الزَّمانِ الماضي. وقيل: عبَّرَ عن الآخرةِ بالغَدِ كأنَّ الدُّنيا والآخِرةَ نهاران: يومٌ وغَدٌ.

فإنْ قُلتَ: ما معنىٰ تَنكيرِ النَّفْسِ والغَد؟

قلتُ: **أمّا تَنكيرُ النَّفْسِ فاسْتِقلالٌ للأنفسِ النَّواظِرِ** فيما قدَّمْنَ للآخِرة، كأنهُ قال: فلتَنْظُرْ نَفْسٌ واحِدةٌ في ذلك.

ويَعْضُد الوجه الأول مجْمُوع التَّمْثِيل الثَّاني من غير عاطِفٍ لِيكُونَ كالإبْدال من التَّمثيل الأوّل، ولا يَحْسُن الإبْدال إلا على اتِّحادِ موقع التَّمْثِيلين، فَلْيُتَدبَّر فإنَّه دَقيقٌ، ولعلّه لهذه الدَّقيقة ولا يُجاب أن يكون المُشبَّه به أعْرفَ وأبْيَن وأشْهَر من المُشبَّه، اخْتَار هذا الوَجْه على سَائر الوُجُوه التي ذَكَرها المُفسِّرون.

قولُه: (**لأنّه قُرِن بما هُو عَمَلٌ**)، يعني: كرَّر ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إمّا لمُجرَّد التَّأكِيد، أو كرّر ليعلق به ثانياً غير الأوّل، فعلَّق به أوّلاً: ﴿مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ ما قدَّمتُ لِغَدٍ، وهو عِبارة عن أعمال الخير، وثانياً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وهُو عِبارة عن التَّهْديد والوعيد.

قولُه: (**أمّا تَنْكِير النَّفْس فاستقلالٌ للأنْفسِ النَّواظِر**)، أي: عدّهم قليلاً كَقولِه تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، **الانتصاف**: قَال في قولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]: المُراد بالتَّنكير التَّكْثِير، لأنَّ كُلّ نَفس حِينئِذٍ، تَعْلم ما أحْضرت لِقولِه: ﴿يَوْمَ

وأمّا تنكيرُ الغَد فلِتعظيمِه وإبهامِ أمرِه، كأنهُ قيل: لِغَدٍ لا يُعرَفُ كُنْهُه لعِظَمِه. وعن مالكِ ابنِ دينار: مكتوبٌ علىٰ بابِ الجَنّة: وجَدْنا ما عَمِلْنا، رِبحْنا ما قَدَّمْنا، خَسِرنا ما خلَّفنا.

﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ نَسُوا حقَّه، **فجعَلَهم ناسِينَ حقَّ أنفُسِهم بالخِذلان**، حتّىٰ لم يَسعوا لها بما ينفعُهم عندَه. أو فأَراهُم يومَ القِيامةِ من الأهوالِ ما نَسُوا فيه أنفُسَهم، كقولِه تعالىٰ: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ﴾ [آل عمران:٣٠] حتّى قِيل: إنَّه مِن عَكْس الكَلام الّذي يُقْصَدُ به الإفْرَاط، كَقولِه تعالى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الحجر: ٢] وهي بمعنى «كم» فقدَّر هاهنا ما يطابق الواقع في قِلَّة النَّاظِر في المَعاد، فالفعل الذي أُسْنِد إلى ﴿نَفْسٌ﴾ ليس في وُقوع النَّظر بل في طَلَب النَّظَر فهو عام التَّعلُّق بكلِّ نَفْسٍ، قال صاحب «الانتصاف»: إن ما ذكره الزَّمَخشَري أمْكَنُ وأحْسَنُ[(١)].

وقلت: وأصْلُ الكلام: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وانظُروا مَا تُقدِّمُوا لأنفُسِكم لِيومِ القِيامة، فَوُضِع مَوْضِع الضَّمير ﴿نَفْسٌ﴾ مَنْكُورةً تقليلاً لها وتقريعاً على قِلّةِ نَظرِها في العَاقبة، وأُقِيمَ مَقَام يوم القِيامة «غَدٍ» منكوراً، تَهْويلاً كأنّه قِيل: فَلْتَنْظُر نَفْسٌ واحِدةٌ لذلك اليوم الهَوْل، ومِنهُ قولُه: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨].

وقلت: ويُحتمل تَعْظِيمها أي: نفس ناظِرة إلى عَاقِبةِ أمْرِها، فَيَحْصُل التَّرقِّي مِن ذِكْر الإيمان إلى التَّقوى، ثمَّ إلى النَّظَر والتَّفكُّر، ثُمَّ رَشَّحَ التَّقْريع بقَولِه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ﴾. وقال الوَاحِديُّ ومُحيي السُّنّة: لِيَنْظر أحَدُكُم أيْش الّذي قَدَّم لِنَفْسِه؟ أعَملاً صالحاً يُنْجيه أمْ سَيِّئاً يُوبِقه[(٢)].

قولُه: (**فَجَعَلَهم نَاسِين حَقَّ أنْفُسِهم بِالخِذْلان**)، **الانتصاف**: بل خلق فيهم النسيان[(٣)].

---

(١) «الانتصاف» (٤: ٥٠٨) بحاشية «الكشاف».

(٢) انظر: «الوسيط» للوَاحِدي (٤: ٢٧٨)، و«معالم التنزيل» للبَغَوي (٥: ٦٦).

(٣) «الانتصاف» (٤: ٥٠٨) بحاشية «الكشاف».

[﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّـارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ ٢٠]

هذا تنبيهٌ للنّاسِ وإيذانٌ لهم بأنّهم لِفَرطِ غَفلتِهم، وقلّةِ فِكرِهم في العاقِبةِ، وتَهالُكِهم علىٰ إيثارِ العَاجِلةِ واتباعِ الشَّهواتِ، **كأنّهم لا يعرِفونَ الفرقَ** بينَ الجنّة والنّارِ، والبَونَ العَظيمَ بين أصحابِها، وأنّ الفوزَ معَ أصحابِ الجنّة؛ فمِن حَقّهم أن يُعلَّموا ذلك ويُنبَّهوا عليه، كما تقولُ لـمَن يعقُّ أباه: هو أبوك، تجعلُهُ بمنزلةِ من لا يَعْرفه، فتُنبّهه بذلك علىٰ حقِّ الأُبوّةِ الذي يقتَضي البِرَّ والتَّعطُّف.

وقد استدلَّ أصحابُ الشافعيِّ رضيَ اللهُ عنه بهذه الآيةِ علىٰ أنَّ المسلمَ لا يُقتَل بالكافر، وأنّ الكفّارَ لا يملكونَ أموالَ المسلمين بالقَهر.

قولُه: (**هذا تَنْبيهٌ للنَّاسِ وإيْذَانٌ**) إلى آخره: (**كأنّهم لا يَعْرِفُون الفَرْق**)، اعلَم أنَّ هذا التَّمْثِيل، أي: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ﴾ كَالتَّذْيِيل لقولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ إلى آخره، وذَلك أنّه تَعالى لـمّا أمَر المُؤمنين بالتَّقوى التي هي قُصَارى كرامة الله، كما قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وبالنَّظَر والتَّيقُّظ للعَاقِبة، والأخْذ في العمل وما يَسُرُّه الغَدَ إذا لَقِيَه، ثُمَّ نَهاهُم أن يكونوا من الغَافلين الّذين نَسُوا الله وتركوا الحَذَر، فأهْمَلوا العَمَل لِلغَد، فَامْتـهَنَهم اللهُ بالخِذْلان فَأنْسَاهُم أنْفُسهم، حتّى رَأوا في العَاقِبة من الأهْوال ما نَسوا فيها أنْفُسَهم، ذَيَّل الكَلام بِقَولِه: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّـارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مَزيدًا للتَّرغِيب فِيما يُزلِفهُم إلى الله، ويُدْخِلُهم دارَ كَرامَتِه، ويَجْعَلُهم مِنْ أَصْحَابِها، والتَّرْهِيب عمّا يُبْعِدهم مِن الله، ويُدْخِلُهم دارَ الإهَانة ويَجْعَلهُم مِن أصْحَابِها، ومِن ثَمَّ دقَّ ولَطُف اسْتِدلال أصْحَابنا بهذِه الآية على أنَّ المُسْلم لا يُقْتَل بالكَافِر وحَسُن كلامَ القَاضِي حيث قال: لا يسْتَوي الّذين اسْتكْملوا نُفوسَهم فاسْتَأهَلُوا الجَنَّة، والّذين اسْتَمْهَنُوا نُفُوسَهَم فاسْتَحقُّوا النَّار[1].

---

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٢٣).

[﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ٢١]

هذا تمثيلٌ وتخييلٌ، كما مرَّ في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وقد دلَّ عليه قولُه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، والغرضُ توبيخُ الإنسانِ علىٰ قَسوةِ قَلبِه، وقِلّةِ تخشُّعِه عندَ تلاوةِ القُرآنِ وتَدبُّرِ قَوارِعِه وزَواجِره. وقرئَ: (مُصَّدِّعًا) علىٰ الإدغام، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ ﴾ إشارةٌ إلىٰ هذا المثَل وإلىٰ أمثالِه في مواضعَ من التَّنزيل.

[﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ٢٢-٢٤]

قولُه: (كما مَرَّ في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾) أي: في أَحَدِ وجْهيه، وهو: أنْ يُراد ما كُلِّفه الإنسانُ من عِظَمِه وثِقَل محْمَلِه، على أنّه عُرِضَ على أعظمِ خَلْق الله من الأجرام وأقواه فأبىٰ حمله، وكذلك مثَّل حالة عظَمَة كلامِ الله المَجيد وجَلالَة تَنزيله، وأنَّ شأنَ القُرآن كذا وكذا، بالحَالة المَفْرُوضَة للجبال، وهي حُصُول صَدْعِها من خَشْية الله عِند نُزوله.

قال الوَاحِدي: وبَيانُه: لو جُعِل في الجَبَل تمييز وأُنْزِل عليه القرآن لخشَع وتشقّق من خشية الله، والمعنى: أنّ الجبل مع قساوته وصلابته يتشقّق من خشية الله، حذراً من أن لا يؤدّي حقَّ الله في تعظيم القرآن، والكافر مُستخفٌّ بحقِّه، مُعرِضٌ عما فيه من العِبَر كأن لم يسمعها[(١)].

وقلت: هذا معنى قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ أي: خَاسِرٌ به.

---

(١) «الوسيط في تفسير القرآن» (٤: ٢٧٨).

﴿ٱلْغَيْبِ﴾ المَعْدُوم ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: الموجُود المُدرَك كأنه يُشاهِده. وقيل: **ما غابَ عن العِبادِ** وما شاهَدُوه. وقيل: السِّرُّ والعَلانِية. وقيل: الدُّنيا والآخِرة.

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ **بالضَّمِّ والفَتح**، وقد قُرِئَ بهما: البليغُ في النَّزاهةِ عمّا يُستقْبَح. ونظيرُه: السُّبّوح، وفي تسبيحِ الملائكةِ: سُبّوحٌ قُدّوسٌ ربُّ الملائِكةِ والرُّوح. و﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ بمَعنى السَّلامة ....

قولُه: (**ما غاب عن العِبَاد**)، يريد أنَّ الغَيْبَ والشَّهادَة يجُوز أنْ يُنْسبَا إلى الله تعالى وإلى العِباد، فعَلى الأوَّل يُحْمل الغَيْب على المَعْدوم، ولمّا كان المَعْدوم عِندهم عِبارة عن الشيء الّذي يَصِحّ أن يُعْلَمَ ويُخْبَرَ عنه، قال ذلك، وأما الموجُودُ ففيه ما يَصِحُّ أنْ يُشَاهد وما لا يَصِح، فجُعِلت كلّها بمنْزِلة المُشَاهَد لله تعالى، مُبالَغَةً في قولِه: «كأنّه يُشاهِده»، والوَجْه هو الثّاني، لـما يُخالِف الأوّلَ تفسِيرُهُ قولَه تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ [يونس:١٨] في سُورة يونس، وقوله: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ [الرعد: ٣٣] في سورة الرعد، اللهم إلا أنْ يُراد بأحَدِهما المَعْدوم المُمْكِن، وبالآخَر المَعْدوم المُمْتنع، ويُؤَيِّده تفسير صاحب «المفتاح»: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾: أي بما لا ثُبُوت له، ولا علمُ الله متعلق به، نفياً للمَلزوم، وهو المُنبّأ به بنفي لازمه، وهو وجُوب كونِه معْلُوماً للعالم الذّات، لو كان له ثُبُوت بأيِّ اعْتِبار كان[١]. فحينئذ جاء التفصيل في قولهم: المعدوم شيء[٢].

قولُه: (﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ **بالضَّم والفَتْح**)، بالضَّمِّ: المَشْهُورة، والفَتْحُ: شاذٌّ[٣]، قال ابن جِنِّي: فَعُولٌ في الصِّفَة قَليلٌ، وذَكر سِيبَويه: السَّبُّوح والقَدُّوسُ[٤]، وإنّما بابُ الفَعُول الاسم؛ كتَنُّور، وسَفُّود، وعَبُّود[٥].

---

(١) «مفتاح العلوم» للسكاكي ص٢٨٠.

(٢) من قوله: «قوله: ما غاب» إلى هنا ساقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

(٣) قال العُكْبري في «إملاء ما منّ به الرحمن» (٢: ٢٦١): والجمهور على ضم القاف من ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ وقُرئ بفتحها، وهما لغتان.

(٤) انظر: «الكتاب» لسيبويه (٤: ٢٧٥).

(٥) «المحتسب» (٢: ٣١٧–٣١٨).

ومنهُ: ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ و﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الأنعام: ٥٤] وُصِفَ به مُبالغةً في وَصْفِ كونِه سليمًا من النَّقائِص، أو في إعطائِه السَّلامة، و﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ واهِبُ الأَمن. وقُرِئَ بفتح الميم بمعنى المؤمَن به، على حَذفِ الجارّ، كما تقولُ في قومِ موسىٰ من قوله تعالىٰ: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]: المختارُون بلفظِ صفةِ السَّبعين. و﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾: الرَّقيبُ علىٰ كُلِّ شَيءٍ، الحافظُ له، مُفَيعِل من الأمنِ؛ إلا أنّ همزتَه قُلِبت هاءً.

قولُه: (المؤمَن بِه على حَذْف الجَارّ، كما تَقُول في قوم مُوسى من قوله: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]: المُختارون) أي: يقول في شأنِ قوم موسى مُستَنبِطاً من قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾: السبعون المختارون، فجعله صفة لـ«السبعون» ثم يطلق الصفة ويريد الموصوف، كما يُطلق المؤمَنُ ويريد المؤمَنُ به، صفة لله تعالى. «المختارون»[1]، هو مَقُولُ القَوْل، أو نقولُ: إنّك تَصِف قَوم موسى بقولِك: المُخْتَارون، وأنْتَ تُريدُ المُخْتَار منهم، جَرْيًا على ظَاهِر قولِه: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾، قيل: إذا قلت: آمَنتُ بالله فإنَّه مُخرج منه الصِّفة مع إيجاز، فنقول: مُؤمَنٌ به كما في ضَرب من المثال، فإنَّ معنى قولِه: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ أي: من قَومِه، فلو كان حَرف الجَرِّ مُصَرَّحاً به لَقُلتَ في صِفَةِ القَومِ: المختار منهم، وإذا لم يَكُن حَرف الجَرِّ مُصَرَّحاً به لقُلْتَ في صِفَة القَومِ: المختارون منهم.

قولُه: (مُفَيْعِل مِن الأَمْن، إلا أنَّ هَمزتَه قُلِبَت هاءً)، قال الزَّجَّاج: زَعَم بعضُ أهْل اللغة أنَّ الهاءَ بَدَلٌ من الهمزة، وأنَّ أصْلَه: «المُؤيمن»، كما قالوا: إيّاك وهيّاك، والتَّفْسير يشهد لهذا القول، لأنَّه جاء أنَّه الأمِين وجاء أنَّه الشَّهيد، فتأويلُ الشَّهيد: الأمين في شَهادَتِه[2].

قال حُجّة الإسْلام: المُهَيْمِن في حَقِّ الله: أنَّه القَائِم على خَلْقِه بأعْمَالِهِم وأرْزاقِهم وآجَالِهِم، وإنَّما قِيامُه عَلَيهم باطِّلاعِه واسْتيلائِه وحِفْظِه، وكُلُّ مُشْرِفٍ على كُنْه الأمْر مُسْتولٍ

---

(١) من قوله: «أي قول» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف) وأثبته من (ط).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٥١).

و﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ القاهرُ الذي جَبرَ خَلقَه علىٰ ما أراد، أي أَجْبرَه، و﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ البليغُ الكِبرياء والعظَمة. وقيل: المُتكبِّرُ عن ظُلم عبادِه.

عليه، حافِظٍ له، فهو مُهَيْمنٌ عليه، والإشْراف يرجِع إلى العِلم، والاسْتِيلاء على كَمال القُدْرة، والحفظ إلى الفِعْل، والجَامع بين هذه المَعَاني اسْمُه المُهَيْمِن، ولن يجتمع ذلك على الإطْلاقِ والكَمال إلا لله تعالى[1].

قولُه: (و﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾: البَليغُ الكِبْرياء)، قال الأَزْهَريُّ: فإن قيل: التَّفَعل يجيء في باب الصِّفات لمن يَتكَلّف النَّعْت الّذي لا يَسْتَحِقه، كقوله: يَتَعظَّم وليس بِعَظيمٍ، ويَتكَبَّر وليس بِكبيرٍ، ويَتَسَخَّى وليس بِسَخِيٍّ، فكيف جَاز في صِفةِ الخَالق؟

والجواب: أنَّ الفِعل يجيءُ على غير مَعْنى التَّكَلُّف، من ذلك قَولُهم: فلان يَتَظلَّم أيْ يَظْلِم، وفلان يَتَظلَّم أي يَشكُو ظُلامَتَهُ، ويسأل أن يُعان على ظَالِمِه، فإذا جَاز أنْ يكون مُتَفَعِّل في موضع فاعِل، جاز أنْ يكون في مَوضِع فَعِيل فإنه أخوان. وقيل: إنَّ المُتكبِّر من الكِبْرياء الّذي هو عَظَمة الله، لا الكِبْر الّذي يُذَمُّ به المَخْلوق، فاللهُ اسْتَحقَّ الكِبْرياء لأنَّه أكبرُ كبيرٍ وأعْظمُ عظيمٍ، ولا يستحقه المَخْلُوق؛ الّذي هو مُدبَّرٌ مَخْلُوق من نُطْفةٍ قَذِرةٍ ويَعُود بعد مَوْتِه جِيفَةً أقْذَر منها، فهو مُتَعَدٍّ طَوْرَه بادِّعائِه ما ليس له، والله عزَّ وجَلَّ كما وصَفَ نَفْسَه، وفَوْق ما وَصَف، فَهُو مُتكبِّر بِحقٍّ، وغَيْرُهُ مُدَّعٍ مَا لَيس له.

وقال حُجَّة الإسْلام: المتكبر هو: الّذي يَرى الكُلَّ حَقِيراً بالإضَافَة إلى ذَاتِه، ولا يَرى العَظَمة والكِبْرياء إلا لِنَفْسِه، فَيَنْظُر إلى غَيْرِه نَظَر المُلوكِ إلى العَبِيد، فإنْ كانت هذه الرُّؤية صَادِقَة كان التَّكَبُّر حقّاً، وكان صاحِبُها مُتَكَبِّراً حَقّاً، ولا يُتصوَّر ذلك على الإطْلاق إلا لله تَبارَكَ وتَعَالى[2].

---

(١) «المقصد الأسنى» للغزالي ص٧٢.

(٢) المصدر السابق ص٧٥.

و﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾ المقدِّرُ لـما يوجِدُه. و﴿ٱلْبَارِئُ﴾ المميِّزُ بعضَه من بعضٍ بالأشكالِ المُختَلفة. و﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ المُمثِّل. وعن حاطِبِ بنِ أبي بلْتَعةَ أنهُ قرأَ: (البارئُ المصوَّرَ) بفتْحِ الواوِ ونَصْبِ الرّاء، أي: الذي يَبْرَأ المصوَّر، أي: يميز ما يصوِّرُه بتفاوتِ الهيئات.

وقرأ ابنُ مَسعود: (وما في الأرض).

عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه: سألتُ حَبيبي ﷺ عن اسمِ الله الأعظمِ فقال: «عليك بآخِرِ الحَشْرِ فأكْثِر قراءتَه» فأعَدْتُ عليه فأعادَ عليّ، فأعَدْتُ عليه فأعادَ عليّ.

عن رسولِ الله ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ الحشرِ غفرَ اللهُ له ما تقدَّمَ من ذَنْبِه وما تأخَّر».

قولُه: (﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾ المُقدِّرُ لـما يُوجِده)، رُوي عن المُصنِّف: لـمّا كانت إحْدَاثات الله تعالى مُقدَّرةً بمقَادير الحِكْمة عَبَّر عن إحْدَاثِه بالخَلْق.

قولُه: (عَلَيك بآخِرِ الحَشْر)، عن أحمد بن حَنْبَل والتِّرْمِذيِّ (١) عن مَعْقِل بن يَسَار قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قال حِين يُصْبح ثَلاثَ مَرَّاتٍ: أعُوذُ بالله السَّمِيعِ العَليم من الشَّيْطَان الرَّجِيم، وقَرَأَ ثَلاثَ آياتٍ من آخِرِ سُورَةِ الحَشْر، وَكَّل اللهُ به سَبْعِين ألفَ مَلَكٍ يُصَلُّون عليه حَتّى يُمْسي، وإنْ ماتَ في ذلك اليومِ مَاتَ شَهيداً، ومن قال حِينَ يُمْسي كانَ بتِلك المَنْزِلة».

تمّت السُّورة.

* * *

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥: ٢٦)، والترمذي في «الجامع» (٢٩٢٢) وقال: هذا حديثٌ غَريب لا نَعْرفه إلا من هذا الوجه. في إشارة إلى تضعيفه.

سورة المُمْتَحنة

مَدنيّة، وهي ثلاثَ عشرةَ آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ * إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ ١-٢]

رُوِي أنّ مَولاةً لأبي عَمْرِو بنِ صيفيِّ بنِ هاشِم يُقالُ لها سارةُ أتتْ رسولَ الله ﷺ بالمدينةِ وهو يتجهّزُ للفَتْح، فقال لها: «أمُسلمةً جئتِ؟» قالت: لا. قال: «أفَمُهاجِرةً جئتِ؟» قالت: لا. قال: «فما جاءَ بكِ؟» قالت: كنتُم الأهلَ والمواليَ والعَشيرةَ، وقد ذهبَتْ الموالي، تَعني: قُتِلوا يَوم بَدر، فاحْتَجْتُ حاجةً شديدةً. فحثَّ عليها بَني عبدِ المُطَّلِب فكَسَوها وحَملوها وزوَّدُوها، فأتاها حاطبُ بنُ أبي بلْتعةَ وأعطاها عشَرةَ دنانيرَ وَكساها بُردًا، واستَحْمَلَها كتابًا إلىٰ أهلِ مَكّةَ نسختُه: من حاطِبِ بنِ أبي بَلْتعةَ إلىٰ أهلِ مكّةَ، اعلمُوا أنّ رسولَ ﷺ يُريدُكم فخُذوا حِذْرَكُم، فخرجت سارةُ ونزَلَ جبريلُ بالخَبَر، **فبعَثَ رسولُ الله ﷺ**

سورة المُمْتَحنة

ثَلاثَ عَشْرة آية، مدنيَّة بخِلاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قولُه: (فَبَعثَ رسولُ الله ﷺ عَلِيّاً وعَمّارًا وعُمرَ وطَلْحَةَ والزُّبَير والمِقْداد وأبا مَرْثَد)،

عليًّا وعمّـارًا وعُمرَ وطَلحةَ والزُّبيرَ والمقدادَ وأبا مَرْثِدٍ رضوان الله عليهم وكانوا فُرسانًا وقال: انطلِقوا حتّىٰ تأتوا رَوْضَة خاخٍ، فإنّ بها ظعينةً معها كتابٌ من حاطِبٍ إلىٰ أهلِ مَكّةَ، فَخذوه منها وخَلّوها، فإنْ أبَتْ فاضرِبوا عنقَها، فأدْرَكوها فجَحدتْ وحَلَفت، فهمُّوا بالرُّجوعِ فقال عليٌّ رضيَ اللهُ عنه: والله ما كُذِبْنا ولا كُذِبَ رسولُ الله، وسلَّ سيفَه، وقال: أخرِجي الكتابَ أو تَضعي رأسَكِ، **فأخْرَجَته من عِقاصِ شَعْرِها.**

ورُوِيَ أنّ رسولَ الله ﷺ أمّنَ جميعَ الناسِ يومَ الفتْحِ إلّا أربعةً: هي أَحدُهم، فاستحضَرَ رسولُ الله حاطبًا وقال: «**ما حملك عليه؟**» فقالَ: يا رسولَ الله ما كفَرتُ منذُ أسلمت، ولا **غَشَشْتُكَ منذ نَصحتُك**، ولا أحْببتُهم منذُ فارقتُهم؛ ولكنّي كنتُ امرَأً مُلْصَقًا في قريش، ورُوِيَ: **غَريراً فيهِم**، أي: غَريبًا، ولم أكنْ من أنـفُسِها، وكُلُّ مَن معَك

والصَّحيحُ ما رَوى البُخاريُّ ومُسلمٌ والتِّرْمِذيُّ وأبو دَاودُ عن عَليٍّ رضي الله عنه قال[1]: بَعثَني رسولُ الله ﷺ أنا والزُّبَيرُ والمِقْدادُ فقال: انْطَلقوا حتّى تَأْتُوا رَوضَة خَاخٍ، فإنَّ بِها ظَعِينة معَها كتابٌ فَخُذُوه منها، فانْطَلَقْنا تَـتَعَادى بِنا خَيْلُنا حتى إذا أتينا الرَّوْضَـة... إلى آخره، فِيه اخْتِلافَاتٌ، **النهاية**: وأصْلُ الظَّعِيْنة: الرَّاحِلة التي يُرْحل ويُظْعَن عليها، أي: يُسَار، وقيل للمَرْأة: الظَّعِينة.

قولُه: (**مِن عِقَاصِ شَعْرِها**)، **النهاية**: **العَقِيْصَة**: الشَّعْر المَعْقُوص، وهو نَحوٌ من المَضفُور، وأصْل العَقْص: اللّـيُّ وإدْخال أطْرَاف الشَّعْر في أُصُولِه.

قولُه: (**مُنذ نَصَحْتُك**)، **النهاية**: معنى نَصِيحة الرَّسول ﷺ: التَّصْديق بِنبُوَّتِه ورِسالَتِه، والانْقِياد لما أمَر به ونَهى عنه.

قولُه: (**غَرِيراً**)، بالغين المُعْجمة، أي: مُلْصَقاً، ويُروى بالعَيْن والرَّاء المُهْمَلتين، وهو الأصَحُّ.

---

(١) البُخَاريُّ (٢٨٤٥)، ومسلمٌ (٢٤٩٤)، والتِّرمِذيُّ في «الجامع» (٣٣٠٥)، وأبو داود في «السنن» (٢٦٥٠).

من المُهاجِرين لهم قراباتٌ بمكّةَ يَحمونَ أهالِيَهم وأموالَهم غيري، فخشيتُ علىٰ أهلي، فأردتُ أن أتَّخِذَ عندَهم يدًا، وقد علِمتُ أنّ اللهَ تعالىٰ يُنزِلُ عليهم بأسَه، وأنّ كتابي لا يُغني عنهم شيئًا فصَدَّقَه وقَبِلَ عُذْرَه، فقالَ عمرُ: دعني يا رسولَ الله أضرب عُنقَ هذا المنافِقَ؛ فقالَ: «وما يُدريكَ يا عمرُ، **لَعلَّ اللهَ قد اطَّلَعَ** علىٰ أهلِ بَدْرٍ فقالَ لهم: اعمَلُوا ما شِئتُم فقد غَفَرتُ لكُم» ففاضَتْ عينا عُمرَ وقال: اللهُ ورسولُه أعلم، فنزلتْ.

عدّىٰ «اتّخذَ» إلىٰ مَفعُولَيه، وهما ﴿عَدُوِّى﴾، ﴿أَوْلِيَآءَ﴾. والعَدُوّ: فعول، من عَدا؛ كـ«عفُوّ» من «عفا»؛ ولكونِه علىٰ زِنةِ المصدَرِ أُوقِعَ علىٰ الجَمعِ إيقاعَه علىٰ الواحِد.

فإن قلتَ: ﴿تُلْقُونَ﴾ بمَ يتعلّق؟

قلتُ: يجوزُ أن يتَعلَّقَ بـ ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾ حالًا من ضَميرِه؛ وبـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ صفةً له. ويجوزُ أن يكونَ **استئنافًا**.

فإن قلتَ: إذا جعلتَه صفةً لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ وقد جَرىٰ علىٰ غيرِ من هُوَ له، فأينَ الضَّميرُ البارزُ وهُوَ قولك: تُلقونَ إليهِم أنتُم بالمودّة؟

الجَوْهَري: العَـرِير: الغَريب في الحديث[1]، وبالغين المُعْجمة: غير المُجَـرِّب، والأول أصحُّ درايةً.

قولُه: (**لَعَلَّ الله قَدِ اطَّلَع**)، أي: عَلِم أحْوَالَهم في ذلكَ الوَقْت ومقَاديرَ أعمالِهم وما يحصُلُ لهَم من الثَّواب في ذَلِك اليوم، بِحَيث يكون غَافِراً معه جميع ذنوبهم التي ستوجد، لأنَّ ذلك قُطْب الأمر، والمُراد بقوله: «اعْمَلوا ما شِئتم»: الذُّنُوب غير المَنْصُوص عَلَيها.

قولُه: (استئنافاً)، كأنَّه لمّا قِيل: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ قَالوا: كَيْف نَتَّخِذُهم أولياء؟ فقيل: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾.

---

(١) في «الصحاح» للجوهري: «والعَرِير في الحديث: الغريب»، وتصرُّف المصنِّف أعطى معنى آخر.

قلتُ: ذلك إنّما اشترطُوه في الأسماءِ دونَ الأفعال، لو قيل: أولياءَ مُلقين إليهم بالمودّةِ علىٰ الوَصْف لـمَا كان بُدٌّ من الضَّميرِ البارِزِ؛ والإلقاءُ عبارةٌ عن إيصالِ المودّةِ والإفضاءِ بها إليهم، يُقالُ: ألقىٰ إليهِ خَراشِيَّ صدرِه، وأفضىٰ إليهِ بشُقورِه.

والباء في ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إمّا زائدةٌ مؤكِّدةٌ للتّعدّي مثلُها في: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] وإمّا ثابتةٌ علىٰ أنّ مفعولَ ﴿تُلْقُونَ﴾ محذوف، معناه: تُلقونَ إليهِم أخبارَ رسولِ الله بسببِ المودّةِ التي بينكم وبينَهم.

وكذلك قولُه: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: تُفضونَ إليهم بمَوَدَّتِـكُم سرًّا، أو ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم﴾ أسرارَ رسولِ الله بسببِ المودّة.

فإنْ قلتَ: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟﴾ حالٌ ممّاذا؟

قلتُ: إمّا من ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾ وإمّا من ﴿تُلْقُونَ﴾ أي: لا تتولّوهم، أو تُوادُّونَهم وهذه حالُهم. و﴿يُخْرِجُونَ﴾ استئنافٌ كالتّفسيرِ لكُفرِهم وعُتوِّهم، أو حالٌ من ﴿كَفَرُوا۟﴾.

و﴿أَن تُؤْمِنُوا۟﴾ تعليلٌ لـ﴿يُخْرِجُونَ﴾، أي: يُخرِجونكُم لإيمانِكُم، و﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾

قولُه: (ألْقَى إليه خَرَاشِيَّ صَدْرِه)، الأساس: ومِن المَجَاز: هو يُلْقي من صَدْرِه خَرَاشِيَّ مُنْكَرة، وهو النّخَامة والبَلْغَم، وتقول: ألقى إليَّ فُلانٌ خَرَاشيَّ صَدْرِه؛ تريد ما أضْمَره من الأغمار والإحَن وأنْواع البَثّ.

قولُه: (وأفضى إليه بِشُقُورِه)، الجوهري: الشُّقُور: الحاجة، يقال: أقبلته بشُقُوري، كما يُقال: أفْضَيْتُ إليه بعُجْري وبُجْري.

قولُه: (أو ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم﴾ أسْرَار رَسُولِ الله)، هو كقوله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣]، وعلى الأوّل من باب التّـضْمين؛ ضَمَّن ﴿تُسِرُّونَ﴾ معنى: تُفضون، وعُدِّي تَعْديته.

متعلِّقٌ بـ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾، بمعنىٰ: لا تتولّوا أعدائي إن كنتُم أوليائي. **وقولُ النحْوِيّين في مثلِه: هُوَ شرطٌ جوابه محذوفٌ لدَلالةِ ما قبلِه عليه.**

و﴿تُسِرُّونَ﴾ استئنافٌ، ومَعناهُ: أيُّ طائلٍ لكم في إسرارِكُم، وقدْ علِمتُم أنّ الإخفاءَ والإعلانَ سِيّان في عِلمي لا تفاوُتَ بينَهُما، وأنا مُطْلِعٌ رَسولي علىٰ ما تُسِرّون.

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ﴾ ومن يفعل هذا الإسرارَ فقدْ أخطَأَ طريقَ الحقِّ والصوابِ. وقَرأَ الجحدريُّ: (لِـمَا جاءَكم) أي: كفَروا لأجْلِ ما جاءَكم، بمعنىٰ: أنّ ما كانَ يجبُ أنْ يكونَ سببَ إيمانِهم جعَلوه سببًا لكُفرِهم.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ **إنْ يَظفروا بكُم** ويتَمَكّنوا مِنكُم ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ ....

قولُه: (**وقَوْلُ النَّحْويين في مِثْلِه: هو شَرْط**)، إشَارَةٌ إلى التَّفَاوت بين قَولِهم وقوله: «﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ مُتعَلِّق بـ ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾» يعني جوابه محذوف غير منوي، وقد جعل تَتْميماً للكلام السَّابق ومُبَالَغة فيه، كما قال: «لا تَتَولوا أعدائي إنْ كُنْتم أوليائي»، ولو قيل: إنْ كُنْتُم أَوْليائي لا تَتولَّوا أعْدائي لم يَكُن بِذَاك، لأنَّ الشَّرْط في الأوَّل كالتَّعْليل للنهي، وهو يَقْتضي حُصُول مَضْمونه قبل ذلك، وفي الثّاني لِمجرّد التَّعْليق، يَدُلُّ عليه قوله في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١]: «وهو من الشَّرْط الّذي يجيء به المُدِلُّ بأمْرِه، المُتحقِّق لِصِحَّتِه، وهُم كانوا مُتحَقِّقِين أنّهم كانوا أوّل المؤمنين».

فإنْ قُلت: ما محَلّه؟

قلتُ: هو حالٌ من فَاعِلِ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ أي: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ والحالُ حال خُرُوجِكم في سبيلِ الله وابتغائكم مَرْضَاتَ الله، ألا تَرى إلى قوله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [القلم: ١٠ - ١٤] على قراءة: (إن) بالكسر: «أي: لا تُطِع كُلّ حلّاف شَارِطاً يَساره، لأنّه إذا أطَاع كافراً لِغِنَاه، فكأنّه اشْتَرط في الطاعَة الغنىٰ»، كيف صرَّح بالشَّرْط وأبرزه في مَعْرض الحَال والتَّعْليل.

قولُه: (﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾: إنْ يَظْفَروا بِكُم)، الراغب، الثَّقْفُ: الحِذْقُ في إدْراك الشيء وفِعْله،

خالِصي العَداوةِ، ولا يكونوا لكُم أولياءَ، كما أنتُم ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ بالقِتالِ والشَّتْم، وتمنّوا لو ترتدُّونَ عن دِينِكم، فإذَنْ موادَّةُ أمثالِهم ومُناصَحتُهم خطأٌ عَظيمٌ مِنكُم ومُغالَطةٌ لأنفُسِكُم، ونحوُه قولُه تعالىٰ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: ١١٨].

فإنْ قلتَ: كيفَ أورَدَ جوابَ الشّرطِ مُضارِعًا مثلَه ثُمّ قالَ: ﴿وَوَدُّواْ﴾ بلَفظِ الماضي؟

قلتُ: الماضي وإنْ كانَ يَجري في بابِ الشَّرطِ مَجرىٰ المُضارعِ في عِلمِ الإعراب، فإنَّ فيه نكتةً، كأنهُ قيل: وَودّوا قَبلَ كُلِّ شيءٍ كُفرَكم وارتدادَكم، يعني: أنّهم يُريدونَ أن يُلحِقوا بكم مَضارَّ الدُّنيا والدّين جميعًا: مِن قَتلِ الأنفُس، وتَمزيقِ الأعْراضِ، ....

ومنه قيل: رجلٌ ثقفٌ لَقِف، أي: حَاذِق في إدْراك الشيء وفِعله، ومنه استُعير المُثاقَفَة، ورُمْحٌ مُثقَّفٌ: مُقوَّمٌ، يقال: ثَقِفْتُ كذا: إذا أدْرَكْتَه بِبَصرك لِحذْق في النَّظَر، ثُمَّ قال: قد يُتَجوَّز فَيُسْتَعمل في الإدْراك، وإنْ لم يكن معه ثَقَافة، قال تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] (١).

قولُه: (﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾)، يُقال: ألَا في الأمْر يألُو، إذَا قَصَّر فيه، ثم استُعمِل مُعَدّىً إلى مَفْعُولين في قولِهم: لا آلُوك نُصْحاً، ولا آلُوكَ جُهْداً على التَّضْمِين، أي: لا أمْنَعك نُصْحاً ولا أُنقِصُكَه، فالمعنى: لو خَرجُوا فِيكم ما زَادُوكم شيئاً إلا فَساداً وشراً، وهذا يُقَوّي تَقرير الجَزاء المُقَدَّر على ما سَيأتي في قولِه: ﴿وَوَدُّواْ﴾.

قولُه: (**الماضِي وإنْ كان يَجْري في بابِ الشَّرطِ مَجْرى المُضارِع**)، أي: لا فَرْق بين قَولِك: إن تُكْرِمْني أكْرِمك، وبين قولك: إنْ أكْرَمْتَني أكْرَمْتُك.

قولُه: (**كأنَّه قِيل: وودوا قَبْل كُلِّ شيءٍ كُفْرَكُم وارْتِدَادَكم**)، الراغب: الوُد: محبَّة الشَّيء مع تَمَنِّيه، ولـمّا كان لهما استُعمل في كُلِّ واحدٍ منهما، فقيل: وددتُ فلاناً: إذا أحببتَه، ووددت الشيء: إذا تمنيتَه (٢).

---

(١) «مفردات القرآن» ص ١٧٣.

(٢) المصدر السابق ص ٨٦٠.

....

قال صَاحِب «التّلخِيص في المعاني والبيان»[١]: في كلامِ صاحِب «الكشاف» نظرٌ دقيقٌ، ولكن في جَعْلِ «وَدُّوا» عَطْفاً على جَوابِ الشَّرْط نَظَرٌ، لأنَّ وِدادَتهم أنْ يَرْتدُّوا كُفَّاراً حاصِلة، وإن لم يَظْفَروا بِهم، فلا يكون في تقييدها بالشَّرْط فَائِدةٌ، فالأولى أنْ يُجعَل قوله تعالى: ﴿وَوَدُّوا لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ عَطْفاً على الجُملةِ الشَّرْطِيَّـة كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١][٢].

قال المصنف: «عَدَل بقولِه: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] عن حُكم الجَزَاء إلى حُكْم الإخبار ابتداءً كأنَّه قيل: ثمَّ أخْبَرَكم بأنَّهم لا يُنْصرون»[٣].

وأُجِيب عنه بأنَّ الّذي ظَنَنتَهُ جزاءً وهو قولُه تعالى: ﴿يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾، أيضاً لا يصلح لذلك، لأنَّ كَونَهم أعْداءً حاصلٌ، سواءٌ ظَفِروا أو لم يَظْفروا، لقولِه تعالىٰ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ﴾ لكنَّ المُراد: إنْ يَظْفروا بِكُم يَسْتَوفُوا مِنكم مُتمنَّاهم الّذي هو مُقتضى أن يكونوا خَالِصي العَداوة من بَسْط الأيْدي والألْسُن، والرَّدِّ إلى الكُفر، فعطف «يَبْسطوا» و«ودُّوا» على قولِه: ﴿يَكُونُواْ﴾، على طَرِيقةِ: أعْجَبني زيد وكرمه[٤]، فيكون كُلٌّ من بَسْط الأيْدي والألْسُن والرَّد إلى الكُفر[٥] مُتَمنَّاهُم لا الارْتِدادِ فقط، لكن لَمّا كان ردُّهم كُفَّاراً كان أشدّ مُتَمنَّاهم وأهمَّ شيءٍ عِنْدهُم، لانْحِسَام مادّة العَداوة به، صَرَّح بتَمنِّيهم إيّاه، وعَدل إلى لَفْظ الماضي؛ لبيان الأوْلَويَّة والأوّليَّة.

---

(١) يقصد تلخيص «مفتاح» السَّكاكي للقزويني، وهو المعروف باسم «الإيضاح في علوم البلاغة».

(٢) «الإيضاح في علوم البلاغة» للقزويني ص٨٣.

(٣) «الكشاف» (٤: ٢١٧).

(٤) أي: أعجبني كرم زيد، فيكون ذكر «زيد» توطئة لذكر كرمه، وكذلك الحال هنا، فذكر العداوة وهو أمرٌ حاصل جاء توطئة لما يليه من بسط الأيدي والألسن والرد إلى الكفر وهو المقصود، وذكر العداوة الحاصلة توطئة فحسب، والله أعلم.

(٥) من قوله: «فعطف يبسطوا» إلى هنا ساقط من (ح).

ورَدُّكم كُفَّارًا؛ ورَدُّكم كُفّارًا أسبقُ المَضارِّ عندَهم وأوَّلُها؛ لعِلمِهم أنّ الدِّينَ أعزُّ عليكُم من أرواحِكُم، لأنّكم بذّالونَ لها دونَه، والعَدوُّ أهمُّ شيءٍ عندَه أن يقصدَ أعزَّ شيءٍ عندَ صاحبِه.

[﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ٣]

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ أي قَراباتُكُم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ الذّينَ تُوالونَ الكُفّارَ مِن أجْلِهم وتَتقرّبونَ إليهِم **مُحاماةً عليهِم**، ثم قال: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ وبَينَ أقارِبِكم وأولادِكم ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ الآية [عبس: ٣٤]، فما لكم تَرفُضونَ حقَّ الله مُراعاةً لحقِّ مَن يَفرُّ مِنكُم غدًا؟ **خطَّأ رأيَهم** في مُوالاةِ الكُفّارِ بما يَرجعُ إلىٰ حالِ ....

وتحريره: أنّه تَعالى لَمّا نهى المُسلمين عن اتِّخاذِ من يُعادِيهم أولياءَ بقولِه: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وأراد أنْ يُخبِر عن مَطْويِّ سَرائِرِهم مِنْ تَمنِّيهم للمُسلمين مَضارَّ الدُّنيا والدِّين، وانْتِهازِهم الفُرصةَ لِتحقيق مُتَمنَّاهُم قال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ كما قرَّرناه، فَظَهر أنَّ الجزاء مُقدَّر وهذا دالٌّ عليه، وهو من إطْلاق السَّبب على المُسبِّب، وفي كلامِه إشْعارٌ بذلك، وهو قوله: «خَالِصي العَداوة ولا يكُونوا لكم أولياء»، وعن بعضهم الواو للحال لا للعطف[1].

قولُه: (**وتَتَقرَّبُون إلَيْهم مُحاماةً عَلَيْهم**)، تَعْريضٌ بِحاطِب، وقوله: «وكُلُّ من مَعك من المُهاجِرين لَهم قَرابَاتٌ بمكّة يَحْمُون أهَالِيَهم وأموالهم غَيْري، فَخَشِيتُ على أهْلي، فأرَدْت أنْ أتَّخِذ عِنْدَهم يَداً»، وإليه أشار بقوله: «خطَّأ رأيَهم في مُوالاةِ الكُفَّار».

قولُه: (**خطَّأ رَأيَهم**) إلى قولِه: (**أولاً**) و(**ثانياً**)، إشَارة إلى أنَّ قولَه: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ الآية، متصل بِمَجْموعِ الشَّرْط والجَزاء، وكِلاهُما كالتَّعْليل لِقَولِه: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ يَعْني مُوالاة الكُفَّار[2] خَطأ، سَواء نَظَرتُم إلى حَالِكم وحَالِهم أوْ نَظَرْتُم إلى حَالِ أقْربائِكم

---

(١) وقد انتصر ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٢٨: ١٤٠) لهذا الرأي ودافع عنه، واستشهد له.

(٢) من قوله: «قوله خطأ» إلى هنا ساقط من (ح).

مَن والَوْه أوّلًا، ثُمّ بما يرجعُ إلىٰ حالِ مَن اقتَضىٰ تلك المُوالاةَ ثانيًا؛ ليُرِيَهم أنّ ما أقدَموا عليه مِن أيِّ جِهـةٍ نظرتَ فيه وجدْتَه باطلًا.

قُرِئَ: (يُفصَل) و(يُفصَّل)، علىٰ البناءِ للمفعول. و﴿يَفْصِلُ﴾ و(يُفصِّل)، علىٰ البناء للفاعلِ، وهُو اللهُ عزَّ وجلّ، و(نَفصِلُ) و(نُفصِّلُ) بالنّون.

[﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ٤-٥]

وأوْلادِكم التي اقْتَضت تِلك الموالاة، فهو من باب التَّقْسيم الحاضِر، وإليه أشار بقوله: «إنَّ مَا أقْدَموا عليه من أيِّ جِهةٍ نَظَرت فيه وجَدْتَه باطِلاً».

قولُه: (بما يرجعُ)، الباء تَتعلَّق بـ«خطَأ»، أي: أنَّ الله سُبْحانه وتَعالى قال أولًا: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وبيَّن أنَّ مَرْجع مُوالاتِهم أنَّهم إنْ ظَفَروا بِكم وتمكنوا مِنكُم، يَكُونوا لكم أعْداءً خَالِصِي العَداوة... إلخ، ثُمَّ أتْبعه قولَه: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾، وبيَّن أنَّ مَرْجِعَ حَال قراباتِهم وأولادِهم الّذين يُوالُون الكُفَّارَ من أجْلِهم أنَّهم لا يَنْفعُونهم يومَ القِيامَة ويَفِرُّون منهم(١).

قولُه: (قُرِئ:« يُفصَل» و«يُفصَّل»)، قَرأ عاصِم: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾بفَتح الياء وإسْكان الفَاء وكَسْر الصَّاد مُخَفَّفة، وابن عَامِر: بِضمِّ الياء وفَتْح الفاء والصَّاد مُشَدَّدة، وحَمزة والكِسَائي: كذلك، إلا أنَّهما كسرا الصَّاد، والباقُون: بِضمِّ الياء وإسْكان الفاء وفَتح الصَّاد مُخَفَّفة(٢)، والقِراءَتان اللتان بالنون شاذّتان(٣)، ذكرهما الزَّجَّاجُ(٤).

---

(١) من قوله: (قوله بما يرجع) إلى هنا ساقط من (ف).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» للداني ص ١٣٤.

(٣) انظر: «مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه ص١٥٦.

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٥٦).

قُرِئ: ﴿أُسْوَةٌ﴾ و(إِسْوةٌ) وهو اسمُ المؤتَسىٰ به، أي: كان فيهم مذهبٌ حسَنٌ مَرضِيٌّ بأنْ يُؤتَسىٰ به ويُتَّبَعَ أثرُه، وهُو قولُهم لكُفّارِ قومِهم ما قالوا، حيثُ كاشَفُوهم بالعَداوةِ وقَشَروا لهم العصا، وأظهروا البَغْضاءَ والمَقت، ....

قال أبو علي: يذهب أبو الحسن في هذا النَّحو إلى أنَّ الظَّرف أُقيم مَقام الفَاعل، وتُرِك على الفَتْح الَّذي كان يجْرِي عليه في الكلام منْصُوباً، وكذلك يجيء على قياس قوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، قال أبو علي: هو على قولِه مَفْتوحٌ، والمَوضِعُ مَوْضِعُ رَفْعٍ[١].

قولُه: (قُرِئ: ﴿أُسْوَةٌ﴾ و«إِسْوَة»)، بِضمِّ الهمزة: عَاصِم، والبَاقون: بِكَسْرِها[٢].

قولُه: (وهو اسْم المُؤتَسى به)، رُوي عن المُصنِّف أنَّه قال: القُدْوة والأسْوة لِكلِّ واحدٍ منهما مَعْنيان؛ أحدهما: الاقْتِداء والائْتِساء وهو الأصْل، والثاني: المُقتدَى به والمُؤتَسى به، والآيةُ تَحْتمِل الأمْرين.

قولُه: (أيْ: كان فِيهم مَذْهَبٌ حَسَنٌ مَرْضِيٌّ)، أيْ: كان في إبراهيم ومَن مَعَه مَذْهبٌ حَسنٌ، قال المُصنِّف: هو كقوله:

وفي الرحمن للضعفاء كافٍ[٣]

وفي البيضة عشرةُ أَمْناءِ حديدٌ.

قلت: هو من بابِ التَّجْريد، كقولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] جَرَّد من إبراهيم عليه السَّلام ومن مَعه من يُؤْتَسى به، وهم المُؤتَسى به.

قولُه: (وقَشَروا لَهم العَصَا)، قال المَيْداني: يُضْرب في خُلُوصِ الودّ، أي: أظْهَرتُ لَه ما كانَ في نَفْسي، ويُقال: اقْشِرْ له العَصَا، أي: كاشفْه وأظْهِرْ له العَدَاوة[٤].

(١) انظر: «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٣: ٣٦٠-٣٦١)، وأبو الحسن الذي حكى مذهبه هو الأخفش، انظر نسبة هذا القول له في «الدر المصون» للسمين (٨: ٤١).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع»، ص١١٧ سورة الأحزاب، وفي ص١٣٤ إشارة.

(٣) «الكشاف» (٤: ٢٢٨).

(٤) «مجمع الأمثال» (٢: ١٠٢).

وصَرّحوا بأنّ سببَ عداوتِهم وبَغضائِهِمْ ليس إلّا كُفرَهم بالله؛ وما دامَ هذا السببُ قائمًا كانت العداوةُ قائمةً، حتّىٰ إنْ أزالوه وآمَنوا بالله وحدَه انقلبَتْ العداوةُ مُوالاةً، والبغضاءُ محبةً، والمَقتُ مِقةً، فأفصَحوا عن محضِ الإخلاص.

ومعنىٰ ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ وبِما تَعبدونَ من دونِ الله: **أنا لا نعتدّ بشأنِكُم** ولا بشأنِ آلهتِكم، وما أنتُم عندَنا علىٰ شيءٍ.

فإنْ قلتَ: مِمّ استُثنِيَ قولُه: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾؟

قولُه: (**وصَرَّحوا بأنَّ سَبَب عَداوتِهم وبَغْضَائِهم لَيس إلا كُفْرَهم بالله**)، وهو نَظِيرُ ما سَبَق من قولِنا: «لـمّا كان ردُّهُم كُفَّاراً أَشَدَّ مُتَمنَّاهم، وأهمَّ شيءٍ عِندَهم لانْحِسام مادّة العَداوة به»، وفيه[1] إيماءٌ إلى قِصَّة الخليل، والتَّحْريض على الائتساء به وإنَّما جِيءَ بها بياناً للمُكافأة وانْتِهازاً للفُرصَة قبل فُرْصة الكُفَّار، يعني: إذا كان عَداوَتهم والضرب والقتل والشَّتْم لأجْل أنَّكم تَركْتُم دِينَهم وآمَنْتُم بالله، وأنَّهم إنَّما يُعادُونكم لأجْلِ ذلك، وهُم مُتَرصِّدُون إظْهارَ كلّ ذلك، وأهَمّ من ذلك ردّكُم كُفَّاراً لانْحِسَام مَادَّة العَداوة به، فاسْتَبِقوا أنتُم واقْتَدوا بِخليل الله، فكَاشِفُوهم بالعَدَاوة وأظْهِروا البَغْضَاء والمَقْت، وصَرِّحُوا بأنَّ سَبَب عَداوَتنا أيضاً ليس إلا كُفرَكُم بالله، وما دامَ هذا السَّبب قائماً كانت العَداوة قائِمة، حتّى إن أَزَلْتُموه انقَلَبت العَداوةُ مُوالاةً.

قولُه: (**مِقَةً**)، **الجوهري**، المِقَة: المَحبَّة، والهاء عِوضٌ من الواو، وقد وَمِقَه يَمِقُه بالكسر فيهما، أي: أحبَّه، فَهُو وَامِق.

قولُه: (**إنّا لا نَعْتدُّ بِشَأنِكم**)، يُريد أنَّه تعالى أوْقَع كُفْرنا على الكُفَّار وعلى مَعْبُوديهم، والثّاني ظاهِرٌ، نحوه قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، والأوّل مَجاز فينبغي أنْ يُعبَّر بالكفر

---

(١) من قوله: «من قولنا» إلى هنا سقط من نسخة (ف) وأثبته من (ح)، وفي (ط) جاء هذا الكلام في نهايته التّعقيب، ومكانه هنا في الأوّل، والله أعلم.

قلتُ: مِن قولِه: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، لأنهُ أرادَ بالأُسْوةِ الحسَنة قولَهم الذي حقَّ عليهِم أن يأتَسُوا به ويتّخِذوه سُنّةً يستَنّون بها.

فإنْ قُلتَ: فإنْ كانَ قولُه ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ مُستثنىً من القولِ الذي هُو أسْوةٌ حسنةٌ، فما بالُ قولِه: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ وهُوَ غيرُ حقيقٍ بالاستِثْناء؟! ألا ترىٰ إلىٰ قولِه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ١٧]؟

عن مَعْنى يَجْمع المَعْنيـين، ولا يَلْزم إرَادَة الحَقِيقة والمَجَاز معاً من لفظ واحِد، وذلك هو الاعْتِداد؛ لاسْتِلزَام الكُفْر بالشَّيء عَدمَ الاعْتِدَاد به.

قولُه: (مِن قولِه: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، لأنـه أراد بالأُسْوةِ الحَسَنةِ قولَهم)، والظَّاهِر أنَّه اسْتِـثناءٌ مُنـقَطعٌ من «قَوم»، لاختِـلاف القَولين، قال في قولِه: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ [الحجر: ٥٨-٥٩]: «اسْتِثناءٌ مُنقَطِعٌ من ﴿قَوْمٍ﴾؛ لأنَّ القَومَ مَوصُوفون بالإجْرام، فاختَلف لذلك الجِنْسان»[١].

قال أبو البَقاء: ﴿إِلَّا قَوْلَ﴾، هو اسْتِثناءٌ مِن غَير الجِنْس، أيْ: لا تأتسوا به في استغفار الكفار[٢]. قال صاحب «التيسير»: الاستثناء مُنْقَطِعٌ، وتقديره: لكن ﴿قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ الآية، كان لمَوْعِدةٍ وعدهَا إيّاه، فظنَّ أنّه قد أنجزها، فلمّا تبيَّن إصْراره تبرَّأ منه، ولا يَحلُّ لكم ذلكَ مع عِلمِكم، وتحقيقُ القول فيه سبق في سورة مريم.

وقال مُحيي السُّنَّة: لَكُم أُسْوةٌ حَسَنةٌ في إبْراهيم وأُمُورِه، إلا في اسْتِغْفَارِه لأبيه المشرك[٣]، فَعَلى هذا الاسْتِثناءُ مُتَّصلٌ.

قولُه: (وهو غَيرُ حَقيقٍ بِالاسْتِـثناء)، لأنَّ الاقْتِـداءَ في هذا القولِ حَسَـنٌ، ألا ترى إلى

---

(١) «الكشاف» (٩: ٤٤).

(٢) «إملاء ما مَنَّ به الرحمٰن» (٢: ٢٦٠).

(٣) «معالم التنزيل» (٥: ٧٠).

قلتُ: أرادَ استثْناءَ جُملةِ قولِه لأبيه، والقَصدُ: إلىٰ مَوعِدِ الاستغفارِ له، وما بعدَه مَبنيٌّ علَيه وتابعٌ له، كأنهُ قال: أنا أستَغفِرُ لكَ وما في طاقَتي إلّا الاستغفارُ.

فإنْ قلتَ: بمَ اتّصلَ قولُه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾؟

قلتُ: بما قبلَ الاستِثْناء، وهُو من جُملةِ الأُسوةِ الحَسنة.

ويَجوزُ أن يكونَ المعنىٰ: قُولوا: ربَّنا، أمرًا منَ الله تعالىٰ للمُؤمِنينَ بأنْ يَقولوه، وتَعليمًا منهُ لهم، تَتميمًا لِما وصّاهم به مِن قَطعِ العَلائقِ بينَهم وبينَ الكُفّار، والائْـتِساءَ بإبراهيمَ وقومِه في البَراءةِ منهم، وتَنبيهًا علىٰ الإنابةِ إلىٰ الله والاستعاذةِ به من فِتنةِ أهلِ الكُفرِ، والاستغفارِ ممّا فَرَطَ مِنهُم. ....

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ [الفتح: ١١].

قولُه: (أراد اسْتِثناءَ جُملةِ قولِه لأبيه، والقَصْد: إلى مَوْعِدِ الاسْتِغْفار)، يعني: أنَّ الاسْتِثنَاء مجموعُ الكلام، لكنَّ بعضَه مَقْصودٌ بالذَّات، والبَعْض الآخر تابعٌ له، فيكون: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ حالاً وتتميماً لقولِه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ وما عليه من بذل الوُسْع في الاستغفار، ومن ثَمَّ جِيء بها قَسَمِيَّة.

قولُه: (بِما قَبْل الاسْتِثْناء)، وذَلك أنَّهم لَمّا خَاطَبوا القومَ بقولهم: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ ونَبَّهوهم على إظْهار العَداوة، وقَشَروا لهم العصا لأجل الدِّين التَجؤوا إلى الله تعالى من كَيْدِهم ومَكْرِهم، وأَنابوا إليه واسْتَعاذوا من فِتْنَتهم، وحين بُولِغ في التَّوصِية بالتَّأسِّي بِهم ذكر خَصْلةً واحدةً يجب الاجْتِناب عنها، فأَوْرَد في خِلال الكلام اهْتِماماً، وبهذا ظهر وجْه قولِ مُحيي السُّنَّة رَحِمَه اللهُ: لكُم أُسْوةٌ حَسَنةٌ في إبراهيم وأُمُورِه إلا في اسْتِغْفَاره لأبيه، وهذا الاستثناء على حدِّ قول السَّيد الحِمْيري[1]:

---

(١) انظر: «ديوانه» ص٦٥، وهو شاعرٌ رافضيٌّ.

وقُرِئَ: ﴿بُرَءَٰٓؤُا۟﴾ كـ(شُرَكاء)، و(بِراءٌ) كـ(ظِرافٍ)، و(بُراء) على إبدالِ الضَّمِّ من الكَسْرِ، كرُخال ورُباب. و(بَراءٌ) على الوصفِ بالمصدر، والبَراءُ والبَراءةُ كالظَّماءِ والظَّماءة.

[﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ٦]

لَـو خُـيِّرَ المِنْـبرُ فُرْسَـانَهُ ... مَا اخْتَار إلا مِنكُمُ فَارِسا

قال صاحب «المفتاح»: هذا التَّقْديم والتَّأخِير لمَّا اسْتَلزَم قَصْرَ الصِّفَة قَبْل تَمامِها على المَوصُوف، قلَّ دَوْرُه في الاسْتِعمال[1].

وعلى أنْ يكون: ﴿رَّبَّنَا﴾ أمراً للمؤمنين، يكون مُتَّصِلاً بمُفْتَتَحِ السُّورة، وذلك أنَّه تعالى لمَّا حَذَّر المُؤمنين مِن مُوالاةِ أعْدائِه وأعْدائِهم، ونَسب من يفعل مِثل فِعْلِهم إلى الضَّلالةِ، وخَطَّأ رأيَهم بِمُوالاتِهم من جميع الجِهات، وهدَّدَهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وأراد أنْ يُرْشِدهم إلى تَحرّي الصَّواب، والتَّهدّي إلى الطَّريق القَويم قال أولاً: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: كافِحوا الكُفَّار مُكافَحة خليل الله والَّذين معه حيث كَاشَفُوهم بِالعَداوَة، وقَشَروا لهم العَصَا، وأظْهَروا البَغْضاء بَدل المُوالاة والمُصافاة، وثانياً: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾، أي: اعْتَذروا إلى الله بإبْدال التَّوكُّل على الكُفَّار بِالتَّوكُّل على العَزيز الجبّار، وبالإنَابة إليه في كُلِّ حالٍ، والاسْتِعاذَة من فِتْنة أعْداء الدِّين والاسْتِغْفار مما فرَط منهم من المُوالاة.

قوله: (وقُرئ: ﴿بُرَءَٰٓؤُا۟﴾ كـ«شركاء») وهي المشهورة، والبواقي شواذ.

قال الزَّجّاج: ﴿بُرَءَٰٓؤُا۟﴾: على فُعلاء، مثل ظَريفٍ وظُرَفاء، ومن قرأ «بِراء» بالمد، فهو كظَرِيف وظِرَاف، ومن قرأ «بُرَاء»: أبدل الضَّمَّة من الكَسْرة، كرُخْلٍ ورُخَال بضَمِّ الرَّاء، وقال

---

(١) «مفتاح العلوم» ص٢٩٧.

ثُمّ كرَّرَ الحثَّ علىٰ الائْتِساءِ بإبراهيمَ وقومِه تقريرًا وتأكيدًا عليهم، ولذلك جاءَ به مُصَدَّرًا بالقَسَم؛ لأنهُ الغايةُ في التأكيد، وأبدَلَ عن قولِه: ﴿لَكُمْ﴾ قولَه: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ وعقَّبَه بقولِه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فلم يترُكْ نوعًا من التأكيدِ إلّا جاءَ به.

[﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ٧]

ولـمّا نزلتْ هذهِ الآياتُ تشدَّدَ المُؤمنونَ في عَداوةِ آبائِهم وأبنائِهم وجميعِ أقْربائِهم من المُشركين ومُقاطَعتِهم، فلمّا رأىٰ اللهُ عزَّ وجَلَّ مِنهُم الجِدَّ والصَّبرَ علىٰ الوجْهِ الشّديدِ، وطولَ التّمَنّي للسَّبَبِ الذي يُبيحُ لهم المُوالاةَ والمُواصلة، رحِمَهم فوعدَهم تيسيرَ ما تمنَّوه، فلمّا يَسَّرَ فَتحَ مكّةَ أظفَرَهُم اللهُ بأمنِيّتِهم، فأسلمَ قومُهم وتَمّ بينَهم من التَّحابِّ والتّصافي ما تمّ.

بعضهم: رُخَال بضم الراء، ويجُوز «بَرَاءٌ» بفتح الباء، لأنّهم يقولون: أنا البَراء منك، ويقول الاثنان والثّلاثة والمرأة: نحن البَراءُ منك[1].

قولُه: (ثُمَّ كَرَّر الحثَّ على الائْتِساء بإبراهيم عليه السَّلام وقومِه تَكْريراً وتَأكِيداً)، ظاهِرُه أنَّ إرَادَة التَّكْرير لِمُجَرّد التَّأكيد، وذهب الراغب[2] إلى أنَّ التَّكْرير لإنَاطَة معْنى زائِد حيثُ قال: إنَّ الإسْلام بُنيَ أوّله على التبرُّؤ من الآلهة وعبادتها، ومن الأصْنام وعَبَدَتِها، ألا ترى إلى قولِ من يَشْهد بالتَّوحِيد أنّه يَنْفِي الآلهة أولاً بقولِه: «لا إله» ويُثْبت ثانياً بقولِه: «إلا الله» الواحِد، الذي يَحِقُّ له العِبادة، فقالَ في «الأُسْوةِ» الأولى المُتعَلِّقة بالبراءة من الكُفّار ومِن فِعْلِهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وأنّهم يُعادونهم إلى أنْ يُؤمِنوا، فهذِه الأُسْوة تَفْصِل المؤمن من الكافِر، لِيتَميَّز عنه في الظّاهر، ويتَبرّأ من صَداقَتِه ويَتحقَّق بِعَداوته.

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٥٧).

(٢) يعني: في «درة التنزيل»، وقد تقدم الكلام في نسبته إلى الراغب، وأن الأصح أنه للخطيب الإسكافي.

وقيل: تـزَوّجَ رسولُ الله ﷺ أمَّ حبيبةَ، **فلانَتْ** عندَ ذلك **عَريكـةُ أبي سُفيانَ**، واستَرْخَتْ شَكيمتُه في العَداوةِ، وكانتْ أمُّ حبيبةَ قد أسلمَتْ وهاجرَتْ معَ زوجِها عُبَيد الله بنِ جَحشٍ إلىٰ الحَبَشةِ، فتَنَصَّرَ **وأرادَها علىٰ النَّصرانيّة**، فأبَتْ وصبَرتْ علىٰ دينِها، وماتَ زوجُها، فبَعثَ رسولُ الله ﷺ إلىٰ النجاشيِّ **فخطَبَها عليه**، وساقَ عنهُ إليها

والثَّانيةُ معْنَاها: ائتَسُوا بِهم لِتَنالُوا من ثَوابِهم، وتَنْقَلِبوا إلى الآخِرة كانْقِلابِهم مُبَشَّرين بالجَنَّة غير خائِفين[١].

وقلت: إنَّه تعالى لـمّا سَلَّى المُسلمين في قَطع مُوالاة أقْرِبائِهم الكُفَّار بالائْتِسَاء بإبراهيم والذين معه، واسْتَثنى منه اسْتِغْفارَه لأبيه لمّا لم يَظْهر له أمَارَةٌ أو نصٌّ من الله بالبَراءة الكُلّيَّة منه، كما ظَهر للمُسْلمين، بقولِه: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ كما سبَق تَقْريره في سُورة مريم، كرَّر الائْتِساء به وتَركه مُطْلَقاً لِيَكُون صالحاً لجَميعِ ما يَجِب أنْ يُؤتَسى به، يَشْهد له قولُه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ بخِلافِه في الأوّل حيث أبدل من المُؤتَسى فيه قوله: ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾، لِيكون تَعْمِيماً بعد تَـخْصِيصٍ، وهُنا أُبـدِل ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ من ﴿لَكُمْ﴾، لِيَـكون مَزِيد نعت وتَحْريضٍ على الائْتِساءِ بِه، فحَصَل من ذلك التَّأكيد والتَّقْرير مع الشُّمُول والعُمُومِ والله أعلم.

قولُه: (**لانَتْ ... عَرِيْكَةُ أبي سُفيان**)، **النهاية**: العَرِيْكَة: الطَّبيعَة، يُقَال: فُلانٌ لَيِّن العَرِيْكَة: إذا كان سَلِساً مِطْواعاً قليل الخِلاف، وفيه: فُلانٌ شَديد الشَّكِيمة: إذا كان عَزِيْزَ النَّفْس، أبِيّاً قويّاً، وأصْله من شكيمة اللِّجَام، فإنَّ قُوَّتَها تَدُلُّ على قُوَّة الفَرَس.

قولُه: (**وَأرَادَها على النَّصْرانِيَّة**)، **الأساس**: أرَادَه على الأمر: حَمَلهُ عليه.

قولُه: (**فخَطَبها عَليه**)، هذا لَيس من قولِه[٢]: «نَهى أن يَخْطِب الرَّجُلُ على خِطْبَة أخِيْه»

---

(١) «درة التنزيل وغرة التأويل» للخطيب الإسكافي (٣: ١١٨٥).

(٢) جزء من حديث صحيح تعددت طرقه ففي «الصحيحين» عن أبي هريرة وابن عمر وغيرهما. انظر طريق أبي هريرة: البخاري (٤٨٤٩) ومسلم (١٤٠٨).

مَهرَها أربع مئةِ دينار، وبلغَ ذلك أباها فقال: **ذلك الفَحلُ لا يُقدَعُ أنفُه.**

و﴿عَسَى﴾ وعدٌ من الله، علىٰ عاداتِ الملوكِ حيثُ يقولونَ في بعضِ الحوائج: عسىٰ أو لعلّ، فلا تَبقىٰ شبهةٌ للمُحتاجِ في تمام ذلك، أو قصدَ به إطماعَ المؤمنين، ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ علىٰ تقليبِ القُلوبِ وتغييرِ الأحوالِ وتسهيلِ أسبابِ المودّةِ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن أسلَم من المشركين.

وهو أنْ يَخطِبَ الرَّجلُ المرأةَ فتَرْكن إليه ويتّفقا على صَدَاقٍ مَعْلُوم ويَتَراضَيا ولم يَبقَ إلا العَقْد، بل من بابِ التَّضْمين، إذ المعنى: بعَثَ رسولُ الله ﷺ إلى النَّجَاشِيِّ يَطْلُبُ أنْ يُبَاشِر عَقْدَها على رسولِ الله ﷺ خاطِباً له إيّاها، يَدلُّ عليه قولُه: «سَاقَ عنه» ـ أي: سَاق النَّجَاشيُّ عن رسولِ الله ﷺ ـ إلى أمِّ حَبيبة مئةَ دينارٍ[1]. قال صاحب «الجامع»: وقد اخْتُلِف في وقْتِ نِكَاح رسولِ الله ﷺ، إياها، ومَوْضِع العَقْد، وقيل: إنَّه عَقَد عليها بأرْض الحَبَشة سنةَ سِتٍّ، وزَوَّجَها منه النَّجَاشيُّ وأمْهَرها أرْبَع مِئة دينارٍ، وقيل: أرْبعَة آلاف دِرْهمٍ من عِنْدِه، وبَعَث النَّبيُّ ﷺ شُرَحْبيل بن حَسَنة فجاء بها إليه، ودخَل بها بالمدينة[2].

قولُه: (**ذلك الفَحْلُ لا يُقْدعُ أنْفُه**)، **النهاية**: يُقال: قَدَعْت الفَحْل وهو أن يكون غيرَ كَريم، فإذا أرَاد رُكوب النَّاقة الكَريمة ضُرب أنْفُه بالرُّمْح وغَيْرِه لِيَرْتَدع ويَنْكَفَّ، ويُروى بالرَّاء.

ومنه حَديث زَوَاجه صَلوات عليه، قال وَرَقة بن نوفل: مُحمّد يَخْطِب خَديجة، هو الفَحْل لا يُقدع أنْفُه.

---

(١) لم أقف على رواية تذكر أن مهر أم حبيبة كان مئة دينار، وأنّ غالب الروايات تذكر أربعة آلاف درهم كما عند أبي داود والنسائي وغيرهما، أو أربع مئة دينار كما عند الحاكم والبيهقي وغيرهما، وهناك روايات منكرة لا يُلتفت إليها ذكرت أن المهر كان مئتي دينار كما عند الطبراني. انظر: أبو داود في «السنن» (٢٠١٧) (٢٠١٨) والنسائي في «السنن» (٦: ١١٩) (٣٣٥٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤: ٢١ -٢٢). والأصوب ما نقله المصنف عن ابن الأثير.

(٢) «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ١٠٠).

[﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ❁ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ٨ - ٩]

﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾، وكذلك ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ من ﴿ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ﴾، والمعنىٰ: لا يَنهاكُم عن مَبرّةِ هؤلاءِ، وإنّما يَنهاكُم عن تَوَلّي هؤلاء، وهذا أيضًا رحمةٌ لهم لتشَدُّدِهم وجِدِّهم في العَداوةِ مُتقدِّمةٌ لرحمَتِه بتَيسيرِ إسلامِ قومِهم، حيثُ رخَّصَ لهم في صِلةِ مَن لم يُجاهِر منهم بقِتالِ المؤمنينَ وإخراجِهم من دِيارِهم. وقيل: أرادَ بهم خُزاعةَ وكانوا صالَحوا رسولَ الله ﷺ علىٰ أنْ لا يُقاتِلوه ولا يُعينوا عليه.

وعن مُجاهِد: هُمُ الذينَ آمَنوا بمكّةَ ولم يُهاجِروا. وقيل: هُمُ النِّساءُ والصِّبيان. وقيل: قَدِمت علىٰ أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ أمُّها قَتيلةُ بنتُ عبدِ العُزّىٰ وهي مُشركةٌ بهَدايا، فلمْ تَقبَلْها ولم تأذَنْ لها في الدُّخول، فنَزلتْ، فأمَرَها رسولُ الله ﷺ أنْ تُدخِلَها وتَقْبَلَ منها، وتُكرِمَها وتُحسِنَ إليها، وعن قَتادةَ: نَسَختْها آيةُ القِتال.

قال المَيداني: القَدْعُ: الكفُّ، يُضرب للشّريف الّذي لا يُرَدُّ عن مُصاهَرةٍ ومُواصَلة(١).

قولُه: (مُتقَدِّمةٌ لِرَحْمتِه)، إمّا خَبَرٌ بعد خبرٍ لقولِه: «وهذا أيضاً رحْمةٌ»، أو صِفةٌ لـ« رَحْمةٌ»، يعني قوله: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ رحْمةٌ من الله للعالمين مُتقدِّمةٌ على ما وعَدَهم الله تعالىٰ من تَيْسير إسْلامِ قَومِهم بقولِه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ قال فيه: «فلمّـا رأى الله مِنْهم الجدّ والصَّبرَ وطُولَ التَّمنّي للسَّبب الّذي يتيح لهم المُوالاة، رَحِمهم فوَعَدهم تيسير ما تمَنّوه».

قولُه: (قَدِمَت على أَسْماءَ بنتِ أبي بكر)، رضي الله عنهما، عن البُخاريِّ ومُسْلمٍ وأبي دَاود

---

(١) «مجمع الأمثال» (٢: ٣٩٥).

﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ وتُفْضوا إليهم بالقِسطِ ولا تَظْلِموهم، وناهيك بتوصيةِ الله المؤمنينَ أنْ يَستعمِلوا القِسطَ معَ المُشرِكينَ به ويتحامَوا ظُلْمَهم، مترجمةً عن حالِ مُسلمٍ يجتَرِئُ على ظُلمِ أخيه المسلِم.

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ ١٠-١١]

عن أسماء بنت أبي بكر[1] رضي الله عنهما قالت[2]: قدمت عليّ أمّي وهي مُشْرِكَـة في عَهد رسولِ الله ﷺ فاسْتَفْتَيتُ رسولَ الله ﷺ، قلت: قَدِمت عليَّ أمّي وهي رَاغِبة، أفأصِلُ أمّي؟ قال: «نعم صِلي أمّك».

زاد في رِوايةٍ عن البُخاريِّ ومُسلم: فأنزل الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية.

قولُه: (وتُفْضوا إليهم بِالقِسْط)، يريد أنَّ «تُقْسِطوا إليهم» متضمِّنٌ معنى الإفْضاء، وعُدِّي تَعْدِيتَه.

قولُه: (مُتَرْجِمَة)، نَصب تمييزاً، أي: نَاهِيك بِتَوصِية الله مُتَرْجِمَةً، يعني قوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ ثُمَّ تَذْييله بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ حَسْبُك وكَافِيك تَنْبيهاً على قُبحِ صَنيع من يجترئ على ظُلم أخيه المُسلم.

---

(١) البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣)، وأبو داود في «السنن» (١٦٦٨).

(٢) من قوله: «عن البخاري» إلى هنا ساقط من (ح).

﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ سَمّاهنّ مُؤمناتٍ لتَصديقِهنّ بألسِنَتِهنّ ونُطقِهنّ بكَلمةِ الشهادةِ ولمْ يَظهرْ مِنهُنّ ما يُنافي ذلك، أو لأنّهنّ مُشارِفاتٌ لثَباتِ إيمانِهنّ بالامْتِحانِ ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فابْتَلوهُنّ بالحَلِفِ والنّظَرِ في الأَماراتِ ليَغلبَ علىٰ ظُنونِكم صِدقُ إيمانِهنّ.

وكانَ رسولُ الله ﷺ يقولُ للمُمْتَحَنة: «باللهِ الذي لا إلهَ إلّا هُوَ، ما خَرجتِ من بُغضِ زوجٍ؟ باللهِ ما خَرجتِ رَغبةً عن أرضٍ إلىٰ أرضٍ؟ باللهِ ما خَرجتِ التماسَ دُنيا؟ باللهِ ما خَرجتِ إلّا حبًّا لله ولرسولِه؟». ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ مِنكُم لأنكم لا تكسِبونَ فيه عِلمًا تَطمَئِنُّ معَه نفوسُكُم، وإن استَحلَفْتُموهُنّ ورُزْتُم أحوالَهنّ، وعندَ الله حقيقةُ العِلمِ به، ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ العِلمَ الذي تَبلغُه طاقتُكم وهوَ الظّنُّ الغالبُ بالحلِفِ وظُهورِ الأَماراتِ ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ فلا تَردّوهُنّ إلىٰ أزْواجِهنّ المُشركين؛ **لأنهُ لا حِلَّ بينَ المُؤمنةِ والمشرِك**. ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ وأَعْطوا أزواجَهُنّ مثلَ ما دَفعُوا إليهِنّ من المُهور. وذلك أنّ صُلحَ الحُدَيْبيةِ كانَ علىٰ: أنَّ من أتاكُم من أهلِ مكّةَ رُدَّ إليهم، ومَن أتىٰ مكّةَ مِنكُم لـم يُرَدَّ إليكم؛ وكتبوا بذلك كتابًا وخَتموه، ....

قولُه: (**ولَم يَظْهَر**)، قيل: يجوز أن يكون حالاً من فاعل «تَصْديقِهنّ»، وأنْ يكون عَطْفاً على «تَصْدِيقِهنّ».

قولُه: (**لأنّه لا حِلَّ بين المُؤمِنة والمُشْرك**)، **الانتصاف**: يُسْتدَلُّ بهذه الآية على أنَّ الكُفّار مُخاطَبون بالفُروعِ لأنَّ الضّمير الأوّل للمُؤمِنات، والثّاني للكُفّار، وفَرَّ الزَّمَخْشَريُّ مِن ذلك لأنَّ أبا حَنيفَة رضي الله عنه لا يَرى حَمْلها على نَفْي الحِلِّ بين المُؤمنة والكافِر، حتّى لا يَتمحَّضَ نِسبة الحُرْمة لكافر، ولا مَخلص له، فإنَّ الحِلَّ لا بُدَّ أن يُضَاف إلى فِعْل أحَدِهما أو كِلَيْهما، فإنْ تَعَلَّق بكُلِّ واحدٍ مِنْهما حَصَل المَقْصُود، وتَعْليقُه بِفعلِ المَرْأة دُون فِعْل الرَّجُل يُخالِف الآية، فإنَّها صَرَّحت بِنفْي الحِل من الجِهَتين فكان يكْفِي: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. والحقُّ أنَّ كُلَّ واحِدٍ من فِعْلي المؤمنة والكافر يَنْتَفي عنه الحِلّ، أمَّا فِعْل المُؤمنة فَتَعْلَقُ به الحُرْمة لأنَّها مُخاطَبة، وأمَّا

فجاءت سُبيعةُ بنتُ الحارثِ الأسْلَميّة مسلِمةً والنبيُّ ﷺ بالحُدَيْبيَة، فأقبَلَ زوجُها مُسافِرٌ المَخزوميّ ـ وقيل: صَيْفِيُّ بنُ الرّاهبِ ـ فقال: يا محمّد، اردُد عليَّ امرَأتي، فإنّك قَدْ شَرطْتَ لنا أنْ تَرُدّ علَينا مَن أتاكَ منّا، وهذهِ طينةُ الكتابِ لم تجفّ، فنزَلت، بيانًا لأنّ الشّرطَ إنّما كانَ في الرِّجالِ دونَ النِّساء.

وعن الضَّحّاك: كانَ بينَ رسولِ الله ﷺ وبينَ المُشرِكينَ عهدٌ: أنْ لا تأتيكَ منّا امرأَةٌ ليستْ علىٰ دينِكَ إلّا ردَدْتها إلينا، فإنْ دخلتْ في دينِكَ ولها زَوجٌ أن تُرَدَّ علىٰ زَوجِها الذي أنفقَ علَيْها، وللنَّبيِّ ﷺ من الشَّرطِ مثلُ ذلك.

وعن قتادة: ثُمّ نَسخَ هذا الحكمَ وهذا العَهدَ ﴿بَرَآءَةٌ﴾، فاستَحْلَفها رسولُ الله ﷺ فحَلَفتْ، فأعطىٰ زوجَها ما أنفقَ وتزوَّجَها عمر.

فإنْ قلتَ: كيفَ سَمّىٰ الظَّنَّ علمًا في قولِه: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾؟

قلتُ: إيذانًا بأنَّ الظّنَّ الغالبَ وما يُفضي إليه الاجتهادُ والقياسُ جارٍ مجرىٰ العِلم، وأنّ صاحبَه غيرُ داخلٍ في قولِه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فِعْل الكافِر ـ وهو الوَطْء مثلاً ـ فَمَنْفيُّ الحِلِّ بِاعْتِبار أنَّ هذا الوَطْء مُشْتَمل على المَفْسَدة فَلَيس الكُفَّار مَوْرِد الخِطَاب، لكنَّ الأئمّة أو مَن قام مَقامهم مُخاطَبون أنْ يمْنَعوا هذا الفعل من الوُقُوع، لكنَّ المُخاطَب في حَقِّ المُؤمِنةِ هي، وفي حَقِّ الكافِرِ الأئمّةُ، والكافِرِ إذا أظْهَر الفَسَاد بين المُسْلمين وَجَب مَنْعه، لأنَّ الشَّرْع أمَر بإخْلاءِ الوُجُود من المَفَاسِد(١).

وقلت: تحريرُ ما قال: إنَّ قولَه: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، دَلَّ بِمفْهُومِه أنّه لا حِلَّ بين المُؤمِنة والمُشْرِك، فأخَذ المُصنِّف به وتَرك دَلالَةَ مَنْطُوقِه ولا يَنْفعُه ذلك؛ لأنَّ الذَّهَاب إلى دَلالةِ المَنْطُوق أظْهَر، وإليه أوْمَأ بِقولِه: «ولا مخلص له»، إلى آخره.

---

(١) «الانتصاف» (٤: ٥١٧) بحاشية «الكشاف».

فإنْ قُلتَ: فما فائدةُ قولِه: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ وذلكَ مَعلومٌ لا شُبهةَ فيه؟

قلتُ: فائدتُه بيانُ أنْ لا سبيلَ لكُم إلىٰ ما تَطمَئِنُّ به النَّفسُ ويَثْلَجُ به الصَّدْرُ من الإحاطةِ بحَقيقةِ إيمـانِهِنّ، فإنّ ذلك ممّا استأثَر به علّامُ الغُيوبِ، وأنّ ما يؤدي إليه الامتحانُ من العِلمِ كافٍ في ذلك، وأنَّ تَكليفَكُم لا يَعْدُوه. ثُمّ نَفىٰ عنهمُ الجُناحَ في تزوُّجِ هؤلاءِ المُـهاجِراتِ إذا آتوهُنَّ أجورَهُنَّ ـ أي مهورهنّ ـ لأنَّ المَهرَ أجرُ البُضْعِ، ولا يَخلو إمّا أنْ يُرادَ بها ما كانَ يُدفَعُ إليهِنَّ، ليدْفعْنَه إلىٰ أزواجِهِنَّ فيُشتَرَطُ في إباحةِ تزوّجِهنَّ تقديمُ أدائِه، وإمّا أنْ يُرادَ أنّ ذلكَ إذا دُفِعَ إليهِنَّ علىٰ سَبيلِ القَرْضِ، ثُمّ تُزُوجْنَ

فإنْ قلتَ: ما فائِدة التغيير بين الجملتين من جعل المسند في الأولى صفة مشبهة، وفي الثانية مُضارِعاً.

قلت: أسْنَد ﴿حِلٌّ﴾ وهو صِفَة مُشَبَّهة إلى ضَمير ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ إعْلاماً بأنَّ هذا الحُكم ثابِتٌ فيهِنَّ، لا يَجُوز فيه الإخْلال والتغييرمن جَانِبِهنَّ، وأسْنَد ﴿يَحِلُّونَ﴾ وهو مُضارِع إلى ضَمِير ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾ إيْذاناً بأنَّ هذا الحُكم مُستَمِر الامْتِناع في الأزمِنَة المُستَقْبلة، لكن قابِل للتغيير باستبدال الهدى بالضَّلال، ونَظِير هذا الاسْتِمرار ما في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٥] فإنَّه فسّر بقولِه: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ﴾ [التوبة: ١٢٦]، ثُمّ في كُلٍّ من الجُملتَين حُكْمٌ إعْرابي وحُكْمٌ شَرْعي؛ ففي الأولى حَكَمَ بِنَفي الحِل على المُؤمنات وحَظَر على الكَافِرين نِكاحَ المُؤمنات كما تقول: لا يَحِلُّ لزَيدٍ أكلُ مَالِ الغَيْر غَصْباً، وظَهَر منه أنَّ الكفّار مُكلَّفون بهذا الحُكم، وتَقْرير الجملة الثّانية بالعَكْس من ذلك[1].

قولُه: (ولا يَخْلو إمّا أنْ يُراد بها)، وإنَّما نَشَأتْ الوُجُوه الثّلاثة من تَعْليق رَفْع الجُناح بإيْتاء أجُورهن، وتَفْسِير الأُجُور؛ أي: لا بُد مِن تَـقَدُّم إيْتاء الأجُور على عَقْدِ النّكاح، فإذا فُسِّرت

---

(١) من قوله: «وقلت: تحرير» إلى هنا ساقط من (ح).

علىٰ ذلك لم يكُنْ به بأسٌ، وإمّا أنْ يُبيّنَ لهم أنّ ما أُعطِيَ أزواجُهنّ لا يَقومُ مَقامَ المهرِ وأنهُ لا بُدّ من إصْداقٍ. وبه احتجَّ أبو حَنيفةَ علىٰ أنَّ أحدَ الزَّوجَينِ إذا خَرجَ من دارِ الحَربِ مُسلِمًا أو بذِمّةٍ وبَقيَ الآخَرُ حَربيًّا **وقعَت الفُرقةُ**، ولا يَرىٰ العِدّةَ علىٰ المُهاجِرةِ ويُبيحُ نكاحَها إلّا أن تكونَ حاملًا.

﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ والعِصمةُ ما يُعتَصَمُ به من عَقدٍ وسَببٍ، يعني: إيّاكُم وإياهُنّ، ولا يَكُن بينكم وبَينَهُنّ عِصمَةٌ ولا عُلْقَةُ زَوجيّة. قال ابنُ عبّاس: مَن كانتْ لهُ امرأةٌ كافِرةٌ بمكّة **فلا يَعتَدَّنّ بها من نِسائِه**، لأنَّ اختلافَ الدّارَينِ قَطَعَ عِصْمَتَها منه.

الأجُورُ بالمُهُور الّتِي من جانبِ المُسلمين، فيُشْترط سَوْق المَهْر قبل العَقْد ليدْفَعْنَه إلى أزْوَاجِهنّ الكُفَّار، وإذا فُسِّرت الأجُور من جِهَةِ الأزواج الكُفَّار، فهو إمّا أن يُحْمَل ما أُعطي أزواجُهُنَّ على الفَـرْض، ليكونَ بَدلاً عن أُجُورِهنَّ بعد العَقْد، وإليه أشَار بقولِه: «ثُمَّ يُـتَزوجْنَّ على ذلك»، وإمَّا أنْ يُحمَل على الهِبَة فَـيَلزَم المُسلم بعد العَقْد مَهْرُها، وإليه أشَار بقولِه: «وأنّه لا بُدّ من إصْداق»[1].

قولُه: (**وقَعَت الفُرْقة**)، قيل: عند الشَّافِعي رضي الله عنه لا تَقَع الفُرْقَة إلا بإسْلامِها، وأمَّا بِمُجرَّد الخُروج فلا[2]، فَإنْ أسْلَمتْ قَبْل الدُّخول تنجَّزت الفُـرْقَة، وبَعْد الدُّخُول تَوقَّفَت إلى انْقِضَاء العِدَّة، ولَيْس في الآيَة دَلالَة على مَذْهَبِ أبي حَنِيْفَة رضي الله عنه لأنَّها مُقَيَّدة بالإيمان.

قولُه: (**فلا يَعْتَدَّنَّ بِها مِن نِسَائِه**)، قيل: عند الشَّافعي ذلك لأنَّها كافِرة من غَيرِ أهْلِ الكِتابِ أو مُرْتَدَّة.

---

(١) من قوله: «قوله: ولا يخلو» إلى هنا ساقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

(٢) انظر: «بدائع الصنائع» للكاساني (٢: ٣٣٨ – ٢٣٩)، و«المبسوط» للسَّرخْسي (٥: ٥٠). وانظر: «الأم» للشافعي (٧: ٣٨٠)، ولينظر للتفصيل: «الموسوعة الفقهية الكويتية» (٢٠: ٢١٠ – ٢١١)، و«أحكام أهل الذمة» لابن القيم (١: ٤١٤).

وعن النَّخَعِيِّ: هي المُسلِمةُ تَلحَقُ بدارِ الحَربِ فتَكفُر. وعن مُجاهِد: أمَرَهُم بطَلاقِ الباقياتِ معَ الكُفّارِ ومُفارَقَتِهِنَّ ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾ من مُهورِ أزواجِكُمُ اللّاحِقاتِ بالكُفّارِ ﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ من مُهورِ نِسائِهِم المُهاجِرات. وقُرِئَ: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ﴾ بالتَّخفيف، و(لا تُمَسِّكوا) بالتَّثقيل، ولا تَمَسَّكوا، أيْ: ولا تَتَمَسَّكوا ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ يعني جَميعَ ما ذُكِر في هذه الآيةِ ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ كلامٌ مُستأنَف، أو حالٌ مِن ﴿حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ علىٰ حذْفِ الضَّمير، أي: يحكمُه الله، أو جعَلَ الحُكمَ حاكمًا علىٰ المُبالَغة.

رُوِيَ أنها لمّا نزلتْ هذهِ الآيةُ أدّىٰ المؤمنونَ ما أُمِروا به من أداءِ مُهورِ المُهاجِراتِ إلىٰ أزْواجِهِنّ المُشرِكين، وأبىٰ المُشرِكونَ أنْ يُؤدّوا شيئًا من مُهورِ الكَوافِرِ إلىٰ أزْواجِهِنّ المُسلِمين، فنزَلَ قولُه: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ﴾ وإنْ سبَقَكُم وانفلَتَ مِنكُم ﴿شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ أحدٌ منهنَّ ﴿إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾، وهُو في قِراءةِ ابنِ مَسعودٍ: أحدٌ.

فإنْ قُلتَ: هل لإيقاعِ ﴿شَيۡءٞ﴾ في هذا الموقِعِ فائدة؟

قلتُ: نعمْ، الفائدةُ فيه: أنْ لا يُغادَرَ شيءٌ مِن هذا الجِنسِ وإنْ قَلَّ وحَقُرَ، غيرَ مُعَوَّضٍ منهُ تَغليظًا في هذا الحُكمِ وتَشديدًا فيه. ﴿فَعَاقَبۡتُمۡ﴾: من العُقبةِ وهِيَ النَّوبةُ. شبّه ما حُكِم به علىٰ المُسلِمينَ والكافِرينَ من أداءِ هؤلاءِ مُهورَ نِساءِ أولئكَ تارةً، وأولئكَ مُهورَ نِساءِ هؤلاءِ أُخرىٰ بأمرٍ يَتعاقَبونَ فيه كما يُتعاقَبُ في الرّكوبِ وغيرِه. ....

قولُه: (﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ﴾ بالتَّخفِيف)، أبو عَمْرو: بالتَّشْديد، والبَاقُون: بالتَّخْفيف[1].

قولُه: (فَنزل قولُه: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ﴾)، وفي «المطلع»: قال ابن زيد: خَرجَت امْرأة مِن المُسلمين إلى المُشرِكين وأتَتْ امْرأةٌ من المُشركين فَقَال القَوم: هذه عَقبتكم قَد أَتتكم فَنزلت[2].

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» للداني ص١٣٤.

(٢) انظر: «جامع البيان» لابن جرير الطبري (٢٨: ٩٧) عن ابن وهب عن ابن زيد.

ومَعناهُ: فجاءَتْ عُقْبَتُكم من أداءِ المَهر، ﴿فَـَٔاتُواْ﴾ مَن فاتَتهُ امرأَتُه إلىٰ الكُفّارِ مثلَ مَهرِها مِن مَهرِ المُهاجِرة، ولا تُؤتوهُ زوجَها الكافِر، وهكذا عن الزُّهريِّ: يُعطىٰ من صَداقِ مَن لحِقَ بهم. وقُرِئَ: (فأعقبْتُم)، (فعقَّبْتُم) بالتّشدِيد، (فَعقَبتُم) بالتّخفِيف ـ بفَتحِ القافِ وكَسرِها ـ، فمَعنىٰ (أعقبتُم): دَخلتُم في العَقَبة، و(عَقبتُم) من عَقَبه: إذا قَفاه، لأنَّ كُلَّ واحِدٍ من المُتعاقِبينَ يُقَفّي صاحبَه، وكذلك (عقبْـتُم) بالتّخفيف، يقال: عقبَه يَعْقُبه. وعَقِبتُم نحو تَبِعتُم.

وقال الزَّجّاج: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ فأصبتُموهم في القِتالِ بعُقوبةٍ حتّىٰ غَنِمتُم، والذي ذَهبتْ زوجتُه كانَ يُعطىٰ من الغَنيمةِ المهرَ، ....

قولُه: (من فاتته امرأته)، قيل: يعني فاتت امرأة مُسلمٍ إلى الكُفَّار ولم يُعطِ الكُفَّارُ مَهْرَها، فإذَا فَاتَت امرأة كافرٍ إلى المُسْلمين؛ أي: هَاجَرت إلَيْهِم، وجَب على المُسلمين أنْ يُعْطوا المُسْلم الّذي فاتَتْه امْرَأتُه إلى الكُفَّار مثل مهر زوجها الفائتة من مهر هذه المهاجرة، ليكون كالعوض لمهر زوجه الفائتة إلى الكفار[١]، ولا يجوز أن يُعطى مهرُ هذه المهاجرة زوجَها الكافر.

قولُه: (وَلا تُؤْتوه زَوْجَها الكَافِر)، وفي «المطلع»: لِيكُون قِصَاصاً، ولهذا قال مُجَاهِد: معنى ﴿فعَاقَبْتُمْ﴾: اقْتَصَصْتم[٢].

قولُه: (وقُرِئ: «فَأعْقبْتُم»، «فَعقَبْتُم»)، قال ابنُ جِنِّي: «فَعَقَّبْتُم»: قراءة الأعرج، «فَعقَبْتُم» خَفِيفَة: قِراءة النَّخعيِّ والزُّهْرِيِّ، «فَعقِبْتُم» بكَسْر القَاف: قِراءةُ مَسْرُوق، وقِراءَة العَامَّة: ﴿فعَاقَبْتُمْ﴾. قال قُطْرُب: ﴿فعَاقَبْتُمْ﴾: أصَبْتُم عُقْباً مِنهُنّ، يُقال: عَاقَب الرَّجلُ شَيْئاً: إذا أخَذ شَيْئاً، وقَرأ مُجاهِد: «فَأعْقَبْـتُم»، ومَعْناه: صَنَعْتُم بِهم مثل ما صَنَعوا بكم. وعن الأعْمَش: عقبتم: غَنِمْتُم[٣].

(١) من قوله: «مثل مهر» إلى هنا ساقط من (ف).

(٢) انظر: «الأوسط» لابن المنذر (١١: ٣٤٠).

(٣) «المحتسب» (٢: ٣٢٠).

وفسَّر غيرَها من القِراءاتِ: فكانت العُقبَىٰ لكُم، أي: فكانتْ الغَلبةُ لكم حتّىٰ غَنِمتُم.
وقيل: جميعُ مَن لحِقَ بالمُشركينَ من نِساءِ المُؤمنينَ المُهاجِرينَ راجِعةً عن الإسلام ستُّ نِسوة: أمُّ الحكَمِ بنتُ أبي سُفيانَ كانتْ تحتَ عِياضِ بنِ شَدّادٍ الفِهْرِيّ، وفاطمةُ بنتُ أبي أميَّةَ كانَتْ تحتَ عُمرَ بنِ الخطّابِ وهيَ أخْتُ أمِّ سلَمةَ، وبَرْوعُ بنتُ عُقبةَ كانتْ تحتَ شَمّاسِ بنِ عُثمان، وعَبْدةُ بنتُ عبدِ العُزّىٰ بنِ نَضْلةَ وزوجُها عمرُو بنُ عبدِ وُدّ، وهندُ بنتُ أبي جَهلٍ كانتْ تحتَ هِشامِ بنِ العاص، وكُلثومُ بنتُ جَرْوَلٍ كانتْ تحتَ عُمر، فأعطاهم رسولُ الله ﷺ مُهورَ نِسائِهم من الغَنيمة.

[﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ١٢]

قولُه: (وفَسَّر غيْرَها)، أي: وفَسَّر الزَّجّاج غيرَ القِراءَة المَشْهُورة ـ وهي «عاقَبْتُم» ـ من القِراءات الشَّواذ بقولِه: فكانت العُقْبى لَكُم، أي: كانت الغَلَبة لكم حتّى غَنِمتُم[1].

وقلت: والزَّجّاج لَمّا عَدّد القِراءَات قال: وجاء في التَّفْسير: فَغَنِمتُم وتأويلُه في اللغة: فكانَت العُقْبى لَكُم، أيْ: كَانَت الغَلَبة لَكُم حتّى غَنِمْتُم، يعني أنَّ المُفسِّرين أرادُوا بِتَفْسيرِهم «فَعَقِبْتُم» بقولهم: فَغَنِمْتم مِن عَدوِّكُم: أنّه من إقامَة السَّبَب مَقام المُسبَّب، لأنَّ الغَنِيمة إنَّما هِي مُسبَّبة من غَلَبةِ المُسْلِمين، فكأنَّه قيل: إنْ فَاتَكُم شَيْءٌ من أزْوَاجِكُم إلى الكُفّار فَغَنِمْتُم مِن عَدوِّكُم شَيْئاً، فأعْطُوا الأزْواج من تِلك الغَنِيمة مَا أنْفَقُوا عَلَيهِنَّ، وقال أيضاً: مَعْنى ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾: فَأَصَبْتُمُوهُم في القِتَال بِعُقُوبة حتّى غَنِمْتُم. أي: إنْ مَضَت امْرَأَةٌ مِنْكُم إلى الكُفَّار فأتُوا الّذين ذَهَبت أزْوَاجُهم مِثل ما أنْفَقُوا في مُهُورهِنَّ، والّذي ذَهَبتْ زَوْجَته كان يُعْطَى

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٥٩).

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ وقُرِئَ: (يُقتِّلن)، بالتَّشديد، يُريدُ: وأْدَ البَناتِ ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كانَت المرأَةُ تلتَقِطُ المولودَ فتقولُ لزوجِها: هُو وَلدي مِنك، كُنِّي بالبُهتانِ المُفترىٰ بينَ يدَيْها ورِجْلَيها عن الوَلَدِ الذي تُلصِقُه بزوجِها كَذِبًا، لأنَّ بطنَها الذي تحمِلُه فيه بينَ اليَدَينِ، وفَرْجَها الذي تَلِدُه به بينَ الرِّجْلَين.

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ فيما تَأمُرُهُنَّ به من المُحسَّناتِ وتَنهاهُنّ عنه من المُقبَّحات. وقيل: كُلُّ ما وافَقَ طاعةَ الله فهُوَ معروفٌ.

من الغَنيمة الـمَهْر، ولا يُنقص من حِقِّه شَيءٌ، قال ابنُ جِنِّي: رُوِّينا عن قُطْـرُب أنَّه قال: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾: أصَبْتُم عُقْباً مِنهنَّ، يقال: عَاقَب الرَّجل شيئاً: إذا أخَذَ شَيْئاً[1].

قولُه: (لأنَّ بَطنَها الّذي تحملُه فِيه بين اليَدَيْن)، ويُمْكِن أنْ يُقال إنَّما كَنَّى عن الوَلَد الدَّعِيِّ بقوله: ﴿بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ لأنَّ اللّواتي كُنَّ يُظْهِرْنَ البُطُون لأزْواجِهنَّ في بَدء الحَال، إنَّما فَعَلن ذلك امْتِناناً عليهم، وكُنّ يُبْدين في ثاني الحَال عند الطَّلْق حتَّى يَضَعْن الحَمْل بين أرْجُلِهنَّ أنَّهنَّ وَلَدْن لهم، فَنُهين عن ذلك، أي: فلا يَفْعَلن ذلك، فإنَّ ذلك من شعائر الجَاهِليَّة الأولى، وهو مُنافٍ لشِيْمةِ المُسْلمات المُؤْمنات تصويراً لتينِكَ الحَالَـتَين، وتَهْجِينًا لِـمَا كُنَّ يَفْعَلْنَه.

روى الوَاحِديُّ عن ابنِ عبّاس رضي الله عنهما: لا تُلْحِق بِزوجِها وَلَداً ليْسَ مِنْه.

قال الفَرَّاء: كَانت المَرأةُ تَلْتَقِط المَوْلود فتَقول لِزَوْجِها: هَذا وَلَدِي منك، فذلك البُهْتَان المُفْترى بين أيْدِيْهنَّ وأرْجُلِهن[2]. وذلك أنَّ الولد إذا وضَعَتْه الأمُّ سَقَط بين يَدَيها ورِجْلَيها، ولَيس المعنى على نَهْيِهن من أنْ يَأتِين بِولَدٍ من الزِّنىٰ فَتَنْسِبه إلى الأزْوَاج، لأنَّ الزِّنىٰ نُفِي بِقَولِه: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾[3].

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢: ٣٢٠).

(٢) «معاني القرآن» للفراء (٣: ١٥٢).

(٣) «الوسيط» (٤: ٢٨٧).

فإنْ قُلتَ: لو اقتَصَر علىٰ قولِه: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ﴾ فقد عَلِمَ أنَّ رسولَ الله ﷺ لا يَأمرُ إلّا بمَعروف؟

قلتُ: نَبه بذلك علىٰ أنّ طاعةَ المَخلوقِ في مَعصيةِ الخالِقِ جَديرةٌ بغايةِ التَّوقّي والاجتِناب.

ورُوِيَ أنّ رَسولَ الله ﷺ لـمّا فَرغَ يومَ فَتحِ مَكّةَ من بَيعةِ الرِّجال أَخذَ في بَيعةِ النِّساءِ وهُوَ علىٰ الصَّفا وعُمرُ بنُ الخَطّابِ رضيَ اللهُ عنه أسفلَ مِنه، يُبايِعُهُنَّ بأمْرِه ويُبلِغُهُنَّ عنه، وهندُ بنتُ عُتبةَ امرأةُ أبي سُفيانَ مُتقنِّعةٌ متنكِّرةٌ خَوفًا من رسولِ الله ﷺ أن يعرِفَها، فقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «أبايِعكُنَّ علىٰ أنْ لا تُشْرِكْنَ بالله شيئًا» فرفَعتْ هِندُ رأسَها وقالتْ: واللّـهِ لقَدْ عَبدْنا الأصنامَ وإنّكَ لتأخُذُ علينا أمْرًا ما رأيناكَ أخذتَه علىٰ الرِّجالِ، تُبايِعُ الرِّجالَ علىٰ الإسلامِ والجِهادِ، فقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾، فقالتْ: إنَّ أبا سُفيانَ رَجُلٌ شحيحٌ، وإنّي أصَبْتُ من مالِه هَناتٍ، فما أدري، أتَحِلّ لي أم لا؟ فقالَ أبو سُفيان: ما أَصبتِ من شيءٍ فيما مَضىٰ وفيما غَبرَ فهُو لكِ حَلال، ....

قولُه: (نَبَّه بِذلِك على أنَّ طَاعَة المَخْلُوق في مَعْصِية الخَالِق جَدِيرةٌ بغَاية التَّوقِّي)، يعني: إذا قَيّد مَعْصِية الرّسول ﷺ بالمَعْرُوف مع جَلالَة قَدْرِه وعُلُوِّ مَنْزِلتِه، وأنّه لا يأمُر إلا بالمَعْروف، فَما ظَنُّك بِطاعَةِ غَيْرِه في المَعْصِية؟!

قال الزَّجّاجُ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾، قيل: في النَّوْحِ وتَمْزيق الثِّيابِ وخَمْشِ الوُجُوه ومُحادَثة الرِّجَال، والجُمْلة أنَّ المعنى: لا يَعْصِينك في جَميعِ ما تَأْمُرهُنّ بِالمَعْرُوف[1].

قولُه: (وإنَّك لَتأخُذُ عَلَينا أمْراً ما رَأَيْناك أخَذْتَه على الرِّجَال)، أنْكَرَتْ أمْرَ الشِّرك، يعني تقول للرّجال: تؤمنون بالله ورسولِه، وتُجاهِدون، وتَقُول لنا: على أنْ لا تُشْرِكن بالله شيئاً،

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٥٩ – ١٦٠).

فضَحِكَ رسولُ الله ﷺ وعرَفها فقالَ لها: وإنّكِ لهِندُ بنتُ عُتبة؟ قالت: نعم، فاعفُ عمّا سلَفَ ـ يا نَبيَّ الله ـ عفا اللهُ عنك، فقال: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾، فقالتْ: أوَ تَزني الحُرَّةُ؟! وفي روايةٍ: ما زَنتْ مِنهُنّ امرأةٌ قطّ، فقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ فقالتْ: ربّيناهُم صِغارًا وقَتلتَهم كبارًا فأنتم وهُم أعلَم. وكان ابنُها حنظلةُ بنُ أبي سُفيانَ قَدْ قُتِلَ يومَ بَدرٍ!

فضَحك عُمرُ حتّىٰ استَلْقىٰ، وتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ فقال: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ﴾ فقالت: والله إنَّ البُهتانَ لَأمرٌ قَبيح، وما تأمُرُنا إلّا بالرُّشدِ ومَكارِمِ الأخلاقِ، فقالَ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فقالتْ: والله ما جَلَسْنا مَجلسَنا هذا وفي أنفُسِنا أنْ نَعصيَك في شيء.

وقيلَ في كيفيّةِ المبايعةِ: دَعا بقَدَحٍ من ماءٍ فغَمسَ فيه يدَه، ثُمَّ غَمسْنَ أيديَهنّ.

وقيل: صافَحَهُنَّ وكان علىٰ يدِه ثوبٌ قِطْريٌّ. وقيل: كانَ عُمرُ يُصافِحُهُنَّ عنه.

أي: الرجالُ والنِّساءُ عبدوا الأصْنام، ثُمَّ تُعيِّرنا بالشِّرك، ولا تُعيِّر الرِّجال.

قولُه: (**وقِيل في كَيْفيَّة المُبَايعة**)، والصَّحيح ما رُوِّيناه عن البُخارِيِّ ومُسْلِمٍ والتِّرمِذيِّ وابنِ مَاجَه عن عائشة رضي الله عنها[1]: كان النَّبيُّ ﷺ يُبايع النِّساء بالكَلام بِهذِه الآية: ﴿لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ ومَا مَسَّت يَدُ رَسولِ الله ﷺ يدَ امرأة لا يَملكها.

قولُه: (**ثَوْبٌ قِطريٌّ**)، **النهاية**: قَطَوى بالواو، وهو ضَرْبٌ من البُرُود فيها حُمْرةٌ، ولها أعلامٌ فيها بَعْضُ الخُشُونة، وقيل: هي حُلَلٌ جِيادٌ تُحمَل من قِبَل البحرين.

وقال الأزْهري: في أعْراض البحرين قَرْية يقال لها «قَطَر» بالراء، وأحسب الثِّياب القِطْرية نُسِبت إليها فكَسروا القَاف للنِّسْبة وخَفَّفُوا.

---

(١) البُخاري (٧٢١٤)، ومسلم (١٨٦٦)، والترمذي في «الجامع» (٣٣٠٦)، وابن ماجه في «السنن» (٢٨٧٥).

[﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ ١٣]

رُوِيَ أنَّ بعضَ فُقراءِ المُسلِمينَ كانُوا يُواصِلونَ اليَهودَ ليُصيبوا من ثِمارِهم، فقيل لهم: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا﴾ مغضوبًا عليهم ﴿قَدْ يَئِسُوا﴾ مِن أنْ يكونَ لهُم حَظٌّ في الآخِرةِ لعِنادِهم رسولَ الله ﷺ، وهُم يَعلَمونَ أنهُ الرسولُ المَنْعوتُ في التَّوراةِ. ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ﴾ مِن مَوتاهُم أنْ يُبعَثوا ويَرجِعوا أحياءً.

وقيل: ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ بيانٌ للكُفّار، أي: كما يئِسَ الكُفّارُ الذين قُبِروا من خَيرِ الآخِرة؛ لأنّهم تَبيَّنوا قُبحَ حالِهم وسوءَ مُنقَلَبِهم.

قولُه: (كانوا يُـواصِلُون اليهودَ)، الانتصاف: يمكن أنْ تَـكون هذه الآية من باب الاسْتِطْراد، فإنَّه تعالى لمّا ذَمَّ اليهود اسْتَطْرد ذَمَّهُم بِذَمِّ المُشْركين على وجْهٍ لا يُوجد أفْصَح ولا أمْكَن منه(١).

وأقول: إنَّ هذه الآية مُتَّصِلة بخاتمة قِصّة المُشْركين الذين نَـهَى المُؤمنين عن اتِّخاذِهم أوْلياءَ بقولِه: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ﴾ وهي قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أيْ: الكامِلون في الظُّلْم، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ إلى آخره مُسْتَطرِدٌ؛ فإنَّه لـمّا جرى حديث المُعاملة مع الّذين لا يُقاتِلون المسلمين والّذين يُقاتِلونَهم وقَد أخرَجُوهم من دِيَارِهم من الأمْر بِمَبرَّة أولئك، والنَّهي عن مَبرَّة هؤلاء، أتى بحديث المُعامَلة مع نِسائِهم، ولـمّا فَرَغ من ذلك أوْصَل الخاتِمة بالفَاتِحة على مِنْوال ردِّ العَجُز على الصَّدْر من حيث المعنى والله أعلم.

قولُه: (وقيل: ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ بيانٌ لِلكُفّار)، وعلى الأوّل: مُتعلّق بـ﴿يَئِسُوا﴾، وقال صاحب «الكشف»: ذَكَرهما أبو علي(٢).

---

(١) «الانتصاف» (٤: ٥٢١) بحاشية «الكشاف».

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٣٤١ - ١٣٤٢).

عَن رَسولِ الله ﷺ: «مَن قَرأَ سُورةَ المُمتحَنةِ كانَ له المُؤمِنونَ والمُؤمِناتُ شُفَعاءَ يومَ القِيامة».

وقلت: لعَلّ القول الأخير أوجَه، لأنَّ وجْه التَّشْبيه فيه أشْمَل، فإنَّ اليَهُود مَا أنْكَروا الآخِرة، بل أيِسُوا من خَيْرِها لعِنَادِهم كما قال: «قد يَئِسوا من أن يكون لهم حَظٌّ في الآخِرة»، يَدخل فيه تَخْيِيلُ حَالِـهم بالمَوتى في صُورة الآيِسين من رحمة الله سبحانه وتعالى، وتَشْبيهُ يَقِينِهم بِيَقِينِهم، لأنَّ يقين الموتى بالآخِرة ضَرُوري.

تمّت السُّورة

والحمد لله وحْدَه.

* * *

سُورَةُ الصَّفِّ

مكية، وهي أربع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ ١-٤]

﴿لِمَ﴾ هِيَ لامُ الإضافَةِ داخلةٌ علىٰ (ما) الاستفهاميّةِ كما دَخلَ عَليها غيرُها مِن حُروفِ الجَرِّ في قَولِك: بِمَ، وفيمَ، ومِمّ، وعَمَّ، وإلامَ، وعلامَ. وإنّما حُذِفت الألفُ؛ لأنَّ (ما) والحرفَ كشيءٍ واحد، ووَقعَ استعمالُهما كثيرًا في كلامِ المُستَفهِم؛ وقد جاءَ استعمالُ الأصلِ قَليلًا، والوَقفُ علىٰ زِيادةِ هاءِ السَّكتِ، أو الإسكان، ....

سورة الصَّف

مكيةٌ، وهي أربعُ عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قولُه: (والوَقْف على زِيَادة هَاء السَّكْت)، قال الزَّجَّاج: فإذا وقَفْت عليها قلتَ: لِـمَهْ، ولا يُوقَف عليها لِئلا تُخالِف المُصْحَف، ويَنْبغي لِلقَارِئ أن يَصِلَها[1].

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٦٢).

ومن أسكَنَ في الوصْلِ فلإجرائِه مجرىٰ الوَقفِ، كما سُمِع: ثلاثهَ اربعه، بالهاءِ وإلقاءِ حَركةِ الهمْزةِ عليها محذوفة. **وهذا الكلامُ يتناوَلُ الكَذبَ وإخلافَ الموعد.**

ورُوِيَ أنّ المُؤمِنينَ قالوا قَبلَ أنْ يُؤمَروا بالقِتال: لَو نَعلَمُ أحَبَّ الأعمالِ إلىٰ الله تعالىٰ لَعمِلناه ولَبذلْنا فيه أموالَنا وأنفُسَنا، فدَلَّهم اللهُ تعالىٰ علىٰ الجِهادِ في سَبيلِه، فوَلّوا يومَ أُحُدٍ، فعَيَّرَهُم. وقيل: لـمّا أخبرَ اللهُ بثَـوابِ شُهداءِ بَدرٍ قالوا: لئِن لَقينا قِتالًا لنُفْرغَنَّ فيه وُسْعَنا، ففَرُّوا يومَ أُحُدٍ ولم يَفُوا.

وقيل: كان الرَّجُلُ يقولُ: قتَلتُ ولم يَقتُل، وطَعَنتُ ولم يَطْعَن، وضَربتُ ولم يَضرِب، وصَبرتُ ولم يَصبِر.

وقيل: قد آذىٰ المسلمينَ رَجلٌ ونكّىٰ فيهم، فقتَله صُهَيبٌ وانتحَلَ قتلَهُ آخرُ، فقالَ عُمرُ لِصُهَيبٍ: أخبر النّبيَّ عليه السَّلامُ أنّكَ قتَلته، فقالَ: إنّما قتلتُه لله ولرسولِه، فقالَ عُمرُ: يا رسولَ الله قَتلَهُ صُهَيبٌ، قال: كذلك يا أبا يحيىٰ؟ قال: نعم، فنزَلتْ في المُنتَحِل.

وعن الحسن: نزلَتْ في المُنافِقين. ونِداؤُهم بالإيمانِ: تَهكُّمٌ بهِم وبإيمانِهم؛ **هذا مِن أفصَحِ كلامٍ** وأبلغِه في معناه، قُصدَ في ﴿كَبُرَ﴾ التَّعجُّبُ مِن غيرِ لَفظِه كقولِه:....

قولُه: (**وهذا الكلام يتناول الكذب وإخلافَ الموعد**)، لَفٌّ، وقولُه: «قالوا قبل أنْ يُؤمَروا بالقِتال» إلى آخره نَشرٌ للثّاني، وقوله: «كان الرَّجل يقول قَتَلت ولم يَقْتل، وطَعَنتُ ولم يَطْعَن» نَشرٌ للأوّل.

قولُه: (**ونَـكّى فِيْهم**)، **النهاية**: يقال: نَكَيْتُ في العَدوِّ وأنْكِي نِكَايةً فأنا ناكٍ، إذا كثَّرت فيهم الجِراحَ والقَتْل فوَهَنوا لِذلك.

قولُه: (**هذا من أفْصَح الكلام**[1])، «**هذا**» إشارةٌ إلى قولِه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾، وقوله: «في معناه»

---

(١) كذا في الأصول الخطية، وكذا هو في نصِّ «الكشاف» من (ط)، لكن في الأصل الخطي من «الكشاف» وفي المطبوع: «كلام».

.... غَلَتْ نَابٌ كُلَيْبٌ بَوَاؤُها

ومعنىٰ التَّعجُّب: تعظيمُ الأمرِ في قلوبِ السَّامِعين؛ لأنَّ التَّعجُّبَ لا يكونُ إلّا مِن شَيءٍ خارجٍ عن نَظائِرِه وأشكالِه، وأُسندَ إلىٰ ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ ونُصبَ ﴿مَقْتًا﴾ علىٰ تَفسيرِه، دلالة علىٰ أنّ قولَهم ما لا يَفعلونَ مَقْتٌ خالِصٌ لا شَوبَ فيه، لفرطِ تمكّنِ المَقْتِ منهُ؛ واختيرَ لفظُ المَقْتِ لأنهُ أشدُّ البُغضِ وأبلغُه. ....

تنازع فيه «أفصح» و«أبلغ»، وقوله: «قُصِد» إلى آخر الفصل بيانٌ لِبلاغَتِه وفَصَاحتِه[1].

قولُه: (غلت نابٌ كليبٌ بواؤُها)، أوّلُه:

وجارة جسَّاس أَبأْنـا بنابهـا كُليبًا ....

أي: ما أغلى ناباً بواؤها كليب! البواء: السواء، والناب: الناقة المسنة، ومضى شرح البيت غير مرة[2]. ومثاله في «المطلع»: عَظُمَ البطنُ بطنُكَ، ومُؤداه: ما أعظمَ البطنَ بطنُك.

قولُه: (ومَعنى التَّعجُّب: تعظِيمُ الأمْر)، الرَّاغب: التَّعَجُّب: حالةٌ تعرِض للإنسان عند الجَهْل بِسبَب الشَّيء، ويُقال لـما لم يُعْهَد مِثْلُه: عَجب[3].

قولُه: (ونُصبَ ﴿مَقْتًا﴾ على تَفْسِيره)، أي: على تفسير ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ وقيل: على تَفْسير هذا الكلام، أعني: كَبُر أنْ تقولوا؛ لأنَّ هذا تميز عن النِّسبة، ولا يَحْسُن أنْ يعُودَ الضَّمير إلى ﴿أَن تَقُولُواْ﴾، لأنَّ التَّميز ليس عنه، والأوّل هو الظَّاهِر، لأنَّ الضَّمِير في «أُسند» عائدٌ إلى ﴿كَبُرَ﴾ أي: قصد في كَـبُر التَّعجُّب من غير لَـفْظِه، وأُسْند إلى ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ ونصب ﴿مَقْتًا﴾ على تفسير ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ لِيُؤذِن بالإبهام، والتَّفسير: أنَّ قولَهم ذلك مَقْتٌ خَالِصٌ، وإليه

---

(١) من قوله: «قوله هذا» إلى هنا ساقط من (ف).

(٢) مرّ البيت في سورة الفرقان عند تفسير آية رقم ٢١، والبيت للمهلهل بن ربيعة.

(٣) «مفردات القرآن» ص ٥٤٧.

ومنه قيل: نِكاحُ المَقْتِ، **للعقدِ علىٰ الرّابَّة**، ولـم يُقتصَر علىٰ أنْ جُعِلَ البُغْضُ كبيرًا، حتّىٰ جُعِلَ أشدَّه وأفحشَه. و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أبلَغُ من ذلك، **لأنهُ إذا ثَبتَ كِبَرُ مَقتِه عندَ الله فقَدْ تَمَّ كِبَرُه** وشدَّتُه وانزاحتْ عنه الشُكوكُ. وعن بعضِ السَّلَف أنهُ قيل لَه: حدِّثنا، فسكَتَ، ثُمَّ قيل له: حدِّثنا، فقالَ: تأمرونَني أنْ أقولَ ما لا أفعَلُ فأستعجِلَ مقتَ الله!

في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ عقيبَ ذِكرِ مَقتِ المُخلِف: **دليلٌ علىٰ أنَّ المقْتَ قد تعلَّقَ بقَولِ الذين وَعَدوا الثَباتَ** في قِتالِ الكُفّارِ فلم يَفُوا. وقرَأَ زيدُ بنُ عليٍّ: (يُقاتَلون) ـ بفتح التاء ـ. وقُرِئَ: (يُقَتَّلونَ).

أشار بقَولِه: «دَلالة على أنَّ قولَهم ما لا يفعلون مَقْتٌ خَالِصٌ»، فقَدَّم التَّميز في الآية على الفاعل، ومثله جائز، قال:

أرى كُلَّ أرضٍ دمَّنَتْها وإنْ مَضت　　لَهـا حِجَـجٌ يَـزْدادُ طِيْبًـا تُرابُهـا

قال المرزوقي: إن قوله: «طِيْبًا» تميز قدِّم على الفاعل، وليس خلاف في جوازه[1].

قولُه: (للعَقْد على الرَّابَّة)، النهاية: في حَديث مُجاهد: كان يَكْره أنْ يَتزوَّجَ الرَّجل امْرأَةَ رَابِّه، يعني: امْرأة زَوْج أُمِّه، لأنَّه كان يُربِّيه.

قولُه: (لأنَّه إذا ثبت كِبَرُ مَقْتِه عِنْد الله، فقد تَمَّ كِبَرُه)، يريد: أنَّ العُدُول من البُغْض إلى المَقْتِ تَتْميمٌ لِمعْنى إرادة البُغْض، ثُمَّ إنَّ التَّقييد بقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تَتْميمٌ للتَّتْميم ومُبالَغَة فيه.

قولُه: (دَليلٌ على أنَّ المَقْتَ تَعلَّق بقولِ الّذين وَعَدوا الثَّباتَ)، الانتصاف: أي: هو بِساطٌ لهذا، كما يقول: لا تَفْعل ما يُلْصِق بِك العَارَ، لا تُشَاتِم زيداً، ليَقَع النَّهْي مَرَّتين؛ عَامّاً وخَاصّاً، فهو أولى من النَّهي على الخُصُوص مَرَّتين، فإنَّ ذلك تكْرار[2]. وقلت: أراد أنَّه تخْصيصٌ بعد تَعْميمٍ.

---

(١) «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي ص٩٣٠ – ٩٣١.

(٢) «الانتصاف» (٤: ٥٢٣) بحاشية «الكشاف». وانظر أيضاً: «شرح ديوان» الحماسة للمرزوقي ص ٩٣٠.

﴿صَفًّا﴾ صافّينَ أنفُسَهُم أو مَصْفوفينَ ﴿كَأَنَّهُم﴾ في تَراصِّهم من غَيرِ فُرجةٍ ولا خللٍ ﴿بُنْيَـٰنٌ﴾ رُصَّ بعضُه إلىٰ بعضٍ ورُصِف.

اعلم أنَّه لمَّا بُولِغ في بُغْض القَول إبهامًا جِيء بما يحب من الفِعل تَعْريضاً، قُوبِل البُغْض بِالحُبِّ، والقول بالفعل، ووصَفَه بِالبُنيان المَرصُوص، تَعْريضاً بالقول المُتزَلْزِل والوَعد المُخْلَف، وأمَّا كيفيَّة اتِّصالِه به، فإنَّ قولَه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يَدُلُّ على أنَّ ما يلي كَلمة النِّداء والتَّنْبيه من الخِطَاب مَعْنيٌّ به جداً كما سبق في فاتحة البقرة.

والخِطَاب هو قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾، وقوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ تَمْهيدٌ وتَوْطِئة لهذا الخِطَاب، وتَقْدمةُ تنبيهٍ على أنَّ ما يُخالِفه مَبْغُوضٌ عند الله، والتَّقاعد عنه بعد الوَعد مِن أشَدِّ البُغْض، وأكْبَر المَقْت عِنْده، وممّا يَشُدُّ من عَضُد ذلك أنَّ قُطْب هذه السُّورة الكَريمة يَدُور على أمْر الجِهاد، ألا تَرى كيف أُعِيد قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ إلىٰ قولِه: ﴿وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وخُتِمت بقولِه: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَـٰهِرِينَ﴾، وفيه دَلِيلٌ ظاهِر على عُلوِّ شأن الجِهاد ورِفْعة مَنْزلتِه عند الله، لأنَّه ذُروة سَنام الأمْر، وكَفَى به شَاهِداً ما رُوِّيْناه عن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والّذي نَفْسِي بيدِه، لَوَدِدْتُ أنّي أُقَاتِلُ في سَبيلِ الله، فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيا، ثم أُقْتلُ»، وكان أبو هُريرة يقُولهنّ ثلاثاً، أشْهَدُ بِالله. أخْرَجه البُخَاريُّ ومُسلم[1].

قولُه: (رُصَّ بَعْضُه إلى بَعْضٍ ورُصِف)، الرَّاغِب: كأنَّما بُني بالرَّصَاص، ويقال: رَصَصْتُه ورَصَّصْتُه وتَرَاصُّوا في الصَّلاة، أي: تَضَايَقُوا فِيها[2]. والرَّصَفَة بالتَّحْريك واحِدُ الرَّصْف، وهو حِجَارةٌ مَرْصُوفٌ بَعْضُها إلى بعض، يُقال: رَصَفْتُ الحِجَارة في البِناء أرْصُفُها بالضَّمِّ: إذا ضَمَمْتُ بعضَها إلى بَعْضٍ.

---

(١) البُخاري (٦٨٠٠)، ومسلمٌ (١٨٧٦).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٣٥٥.

وقيل: يجوزُ أنْ يُريدَ استواءَ نيّاتِهِم في الثَّباتِ حتّىٰ يَكونوا في اجتماعِ الكلمةِ كالبُنيانِ المَرصوص. وعن بعضِهم: فيه دليلٌ علىٰ فضلِ القِتال راجِلًا؛ لأنّ الفُرسانَ لا يصْطَفُّون علىٰ هذه الصِّفة. وقولُه: ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ﴾ حالان مُتداخِلَتان.

[﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ ٥]

قولُه: (وقيل: يجوز أن يُريد اسْتِواء نِيَّاتِهم في الثَّبات)، وعليه وَرَد قولُه صلوات الله عليه: «المُؤْمِن لِلمُؤْمِن كَالبُنْيان يَشُدُّ بعْضُه بعْضاً» ثُمَّ شَبَّك بين أصَابِعِه، وأخْرجَه البُخَاريُّ والإمام أحمد عن أبي موسى[1]، وهذا أوْجَه لِيُقِيموا الظَّاهِر مع البَاطِن وسَائِر الأحوال، ويَكون تَعْريضاً بما وَعَدوا من الثَّبَات في قِتال الكُفَّار، ويَتَّصِل به قِصَّة موسى عليه السَّلام وقومِه، ويترتَّب عليه قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ولهذا عمَّ الأذى بقولِه: «كانوا يُؤْذُونَه بأنواع الأذَى» لإطلاقِه.

قولُه: (وقَوله: ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ﴾ حَالان مُتَداخِلتان)، الانتصاف: يُريد أنَّ معنى الأولى مُشْتَمِلٌ على الثّانية، فإنَّ هيئةَ التَّراصِّ هي هيئة الاصْطِفَاف[2]. قال صاحب «الإنصاف»: ليس المُراد بالتَّداخُل هذا، بل إنَّ الحال الثَّانية وقَعت جَزاء من الحال الأولى، لأنَّ معنى ﴿صَفًّا﴾: مُصْطفِّين، وفيه ضَمِيرُهُ، وقولُه: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ﴾ حالٌ من الضَّمير المَذْكُور، فالحالُ الثَّانية دَاخِلةٌ في الأولى، وهي كقولِه: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢-٣].

وقلت: فَرْقٌ بين الصُّورَتين، فإنَّ قولَه: ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ مُشَبَّهٌ ومُشَبَّهٌ به، والمُشَبَّه به في الحَقيقة بَيانٌ للمُشبَّه ووَصْفٌ له؟

---

(١) البُخَاري (٤٨١) وأحمد في «المسند» (١٩٦٢٤).

(٢) «الانتصاف» (٤: ٥٢٣) بحاشية «الكشاف».

﴿وَإِذْ﴾ منصوبٌ بإضمـارِ «اذكُر»، أو: وحِينَ قالَ لهُم ما قالَ كانَ كذا وكذا، ﴿تُؤْذُونَنِي﴾ كانُوا يُؤذونَه بأنواعِ الأذىٰ من انتِقاصِه وعيْبِه في نفْسِه، وجُحودِ آياتِه، وعِصيانِه فيما تعودُ إليهِم منافِعُه، وعبادتِهم البقرَ، وطلبِهم رؤيةَ الله جَهرةً، والتكذيبِ الذي هُوَ تَضييعُ حقِّ الله وحقِّه، ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ﴾ في موضِعِ الحالِ، أي: تُؤذُونَني عالمِين عِلمًا يقينًا ﴿أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ وقضيّةُ عِلمِكُم بذلك ومُوجبُه تَعظيمي وتَوْقيري، لا أنْ تُؤذُوني وتَسْتَهينوا بي؛ لأنَّ مَن عرفَ اللهَ وعظَمتَه عَظَّم رسولَه، علمًا بأنّ تعظيمَه في تَعظيمِ رَسولِه، ....

قولُه: (كانوا يُؤذونه بأنواع الأذَى) إلى قوله: (وطَلَبِهم رُؤْيةَ الله جَهْرةً)، أراد أنَّ قَولَه: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ إنْكارٌ لِمطْلق الإيْذاء، فيَصِحُّ حَمْلُه على الإيْذاء في الدِّين وفي النَّفْس، ولذلك أوْقَعَ قولَه: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ حالاً مُقرِّرة لجِهَة الإنْكار، وفَسَّره المُصنِّف بقوله: «وقَضِيةُ عِلمِكُم بذلك ومُوجِبه تَعْظيمي وتَوْقِيري، لا أنْ تُؤْذُوني وتَسْتَهِينوا بي، لأنَّ من عَرف الله وعَظَمتَه عَظَّم رَسُولَه».

وذَكَر الوَاحِديُّ: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ يعني حين رَمَوه بالأُدْرَة[1]. وهو المُراد بقولِه: «من انْتِقَاصِه وعَيْبِه»، وأمَّا الكلام في طَلَب الرُّؤية فانْتِهازٌ لفُرْصَة التَّعَصُّب.

وبَيانُ النَّظْم: هو أنَّ الله تعالى لـمّا وبَّخ المُؤْمنين الّذين ما وَفَوا بما عَاهَدوا، وأخلفوا المواعيد تمْهيداً وبِساطاً، لقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ﴾ حتّىٰ يكُونوا في اجْتِماع الكَلِمة كالبُـنْيان المَرْصُوص في القِتَال، حَذَّرهم ممّا لَقِي قَومُ موسى من إزَاغَة القُلوب، والحِرْمان مِن التَّوفيق بِسَبب الأذَى، وممّا ارْتَكب قومُ عيسى بعد مَجِيئِه بالبيِّنات، مِن تكْذِيبِه وقولِهم فيه: ﴿هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، ألا تَرى كيف جَمَع الكُلَّ في قولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) «الوسيط» (٤: ٢٩٢)، والأُدْرة: نفخٌ بالخِصْية، انظر: «الصحاح» للجوهري (٣: ٥٧٧).

ولأنّ مَن آذاهُ كانَ وعيدُ الله لاحقًا به، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ عن الحقّ ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ بأنْ منعَ ألطافه عنهُم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ لا يَلطُف بهم لأنهُم ليسُوا من أهلِ اللُّطف.

فإنْ قُلتَ: ما مَعنىٰ ﴿قَدْ﴾ في قوله ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ﴾؟

ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: قضية الدّعوى إلى الإسلام تَوقِيرُ من يدعو إليه، وتَوقِير حُرمَتِه، وإجابةُ دَعْوتِه، والتَّفادِي عن إخْلاف المَواعِيد وعمّا يُؤْذيه من القَول والفعْل؟

قولُه: (﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: لا يَلْطُف بِهم)، قال صاحب «الفرائد»: لا يَهْدي من يُـريد الفِـسْق، وهو من باب ذِكْـر الفِعْل وإرادة الإرَادَة، نحو: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقلت: هذا التَّقْدير غير مُفْتَقر إليه، لأنَّ هذه الفَاصِلة تَذْييلٌ للآية، وكالتَّعْليل لقوله: ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾. والمُرادُ بقوله: ﴿زَاغُوٓاْ﴾ أذَى موسى عليه السَّلام.

وبَيانُه: أنَّ القَومَ لـمّا آذَوا موسى عليه السَّلام ورَمَوه بالأُدْرة زَاغُوا وفَسَقوا، وأدّى ذلك إلى أنْ خَذَلهم الله وطَبَع على قُلوبِهم، وهذا التقرير غير ضَارٌ لَمذهَب أهْل السُّنَّة، لأنَّ ذلك الأذَى والفِسْق كان كَسْباً لهم، وقد تَقرَّر أنَّ صغَائِر الذُّنُوبِ مُسْتَجْلِبةٌ لِكَبَائِرها، قال تَعَالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] وأمّا التَّذْييل الثّاني، وهو قولُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهو تَقْريرٌ لِقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾، لأنَّ الظُّلْم: وضْعُ الشَّيءِ في غير مَوْضِعه، وإليه أشار بقوله: «وأيُّ النَّاس أشَدُّ ظُلْماً ممّن يَدْعُوه ربُّه على لِسانِ نَبيِّه إلى الإسلام، فيَجْعل إجَابَتَهُ افْتَراءَ الكَذب على الله»، يعْني كان جزاءُ الدَّاعِي القَبُولَ والتَّصْديق، فَوَضعُوا مَوْضِعه أنْ كَذَّبُوهُ وسَمَّوا ما جَاء به سِحْراً.

وكما رُوعِي في هَذين التَّذْييلين هذه المُناسَبة رُوعِيت في قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وذلك أنَّ الكُفْر في الأصْل السَّتْر والتَّغْطِية، ومن يُحاول إطْفَاء نُور الله يُحاول إخْفاء الـحقِّ

قلتُ: مَعناهُ التّوكيدُ كأنهُ قال: وتعلمُون عِلمًا يَقينًا لا شُبهةَ لكُم فيه.

[﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ٦]

وسِتْره، وكذا في قولِه: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ لأنّه مُقَابِل لِقَولِه: ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، ولَيْس دِينُ الحَقِّ إلا التَّوْحِيدَ ونَفْي الشِّرْك.

وفي الآيات تَـرَقٍّ من وَجْهَين:

أَحَدُهما: من الأذَى، فإنَّ أذَى موسى عليه السَّلام كان في جَسَدِه، وأذَى عيسى عليه السّلام في الدِّين، وأذَى نَبيِّنا صلواتُ الله عليه فيهِما، فإنَّ نُورَ الله عِبارةٌ عنه وعن دِيْنِه، لقولِه تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، وقَدْ سَبَق في التوبة تَقْرير وجْه التشبيه.

وثانيهما: في التَّسْلِية، يَعْني: لا تُبَالِ بأذَى القَوم، ولَك أُسْوةٌ بموسى، ولا بتكْذيب الكافرين والمُشْركين كما لم يَضُر عيسى تَكْذيْبهم، وتمَكَّن من إمْضَاء ما جاء به من الدِّين والبِشَارةِ بِقُدُومِك تَمكُّنَك منه، ويظهرك على الدِّين كلِّه ولوكَرِه المُشْركون والله أعلم.

قولُه: (مَعْناهُ التَّوكِيد)، **الانتصاف:** «قد» إذا صَحِبَت المَاضِي صَحِبَها التَّوقُّع، قال الخليل: هذا خَبرٌ لقوم ينتظرونه، وإذا صَحِبَت المُضَارِع صَحِبَهَا التَّكْثير كربّما، وهو من الكلام الذي قُصِد فيه الإفْرَاطُ والمُبالغة. قال:

قَدْ أترِكُ القِرْنَ مُصْفَرًّا أنامِلُهُ[١]

فإنْ قيل: حَمْلُه على التَّكْثِير في الآية مُتَعَذِّر، لأنَّ العِلم مَعْلُوم التعلق، لا يَتكَثَّر ولا يَتقَلَّل[٢].

قلنا: المُراد تأكِيد الفِعل وتَـحَقُّقُه وبُلُوغُه الغايَةَ في نَوعِه، وكذا في قولِه: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ﴾ [الحجر: ٢] ليس مَعْناها إلا تأكُّدُ ذلكَ الوِدَادة لا كَثْرتُه وتَعَدُّدُه.

---

(١) نُسِب البيت للهُذَلي ولعبيد بن الأبرص وهو في «ديوان عَبيد» ص٥٦، وبقية البيت:

كأنّ أثوابَه مُجّت بفِرْصَادِ

(٢) «الانتصاف» (٤: ٥٢٤) بحاشية «الكشاف».

قيل: **إنّما قالَ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ولم يَقُل: يا قَوم، كما قالَ موسىٰ؛ لأَنَّهُ لا نَسبَ لهُ فيهِم** فيكونُوا قومَه. والمعنىٰ: أُرسِلْتُ إليكُم في حالِ تَصديقي ما تَقدَّمني ﴿مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ وفي حَالِ تبشِيري ﴿بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾ يعني: أنَّ دينيَ التّصديق بكُتُبِ الله وأنبيائِه جَميعًا ممّن تَقدَّمَ وتأَخَّر. **وقُرِئَ:** ﴿مِنۢ بَعۡدِي﴾ **بسكون الياء** وفتحها، والخَليلُ وسيبَويهِ يَختاران الفَتح.

وعن كعبٍ: أنّ الحَوارِيّينَ قالوا لِعيسىٰ: يا رُوحَ الله، هل بعدَنا من أمّة؟ قالَ: نعَمْ، **أمّةُ أحمد**؛ حُكماءُ عُلماءُ أبرارٌ أتقياءُ، كأنّهم من الفِقْه أنبياء، يَرضونَ منَ الله باليَسيرِ من الرِّزق، ويَرضىٰ اللهُ مِنهم باليَسيرِ من العَمَل.

قولُه: (**إنّما قال ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، ولم يَقل: «يا قومِ» كما قال موسى؛ لأنّه لا نَسَب له فيهم**)، **الانتصاف**: هو كقولِه: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٦] لأنّه لم يكن منهم.

وقلت: يَجُوز أن يكون للاستِعْطَاف، لمجِيء قوله: ﴿مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ أي: إنّي أُرسِلتُ إليكم في حَالِ تَصْديقي لِكِتابٍ نزلَ إليكُم يا بني إسْرائيل خاصَّة.

قولُه: (**وقُرِئ: ﴿مِنۢ بَعۡدِي﴾ بسكون الياء**)، بِفَتح اليَاء: نافِعٌ وابنُ كَثير وأبو عَمرو وأبو بكر، والبَاقُون: بِسُكُونِها[1].

قولُه: (**أمّةُ أحمَد**)، رُوِّينا عن البُخاريِّ ومُسْلم ومَالِك والدَّارِميِّ عن جُبَيْر بن مُطْعِم قال[2]: قال رسولُ الله ﷺ: «لي خَمْسة أسْماء؛ أنا محمَّدٌ، وأنا أحْمَدُ، وأنا الحاشِرُ الّذِي يُحْشَرُ النّاسُ

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد ص ٦٣٥.

(٢) البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (١٢٤)، ومالك في «الموطأ» (١٨٢٣)، والدارمي في «السنن» (٢٧٧٨)، كما أخرجه الترمذي في «الجامع» (٢٨٤٠) وهو أولى بالذكر من الدارمي، وابن الأثير مُعتَمَد المصنف ذكره.

فإنْ قُلتَ: بِمَ انتصَبَ ﴿مُّصَدِّقًا﴾ و﴿مُبَشِّرًا﴾؟ أَبِما في الرَّسولِ من معنىٰ الإرسالِ أم بإليكم؟

قلتُ: بل بمعنىٰ الإرسالِ؛ لأنَّ ﴿إِلَيْكُم﴾ صِلةٌ للرَّسول، فلا يجوزُ أن تعملَ شيئًا لأنَّ حروفَ الجرِّ لا تعملُ بأنفُسِها، ولكن بما فيها من معنىٰ الفِعلِ؛ فإذا وقعت صلاتٍ لم تتضمّن معنىٰ فعلٍ، فمِن أينَ تعمل؟ وقُرِئَ: (هذا ساحِرٌ مُبين).

على قَدَمي، وأنا المَاحِي الذِي يَمْحُو الله بِيَ الكُفْرَ، وأنا العاقِبُ الذي ليس بعدي نبيٌّ». وقد سمّاه الله رؤوفاً رحيماً، رواه البُخَاريُّ في تفسير هذه الآية(١).

وعن أحمد بن حَنبَل(٢) عن أبي مُوسى قال: سَمّى لنا رسولُ الله ﷺ نَفْسه بأسْماء منها ما حفظنا قال: «أنا محمَّدٌ، وأحمد، والمُقفِّي، والحَاشرُ، ونَبِيُّ الرَّحْمَةِ» قال يزيد: «ونَبي التَّوبَة، ونَبي المَلْحَمة».

قال مُحيي السُّنَّة والوَاحِديُّ: اسمه أحمد يحتمل معنيين: أحدهما: أنه مبالغة من الفاعل، أي: أنه أكثر حمدًا لله من غيره، والآخر: أنه مبالغة من المفعول، أي: أنه يُحمَدُ بما فيه من الأخلاق والمحاسن أكثر مما يُحمد غيره(٣).

قولُه: (وقُرِئ: «هذا سَاحِرٌ»)، حَمْزة والكِسَائي(٤).

قولُه: (لأنَّ ﴿إِلَيْكُم﴾ صِلَةٌ للرَّسُولِ، فلا يَجُوز أنْ تَعْمل شيئاً)، لا يريد عَمَلَها الذي هو الجُزْء، وإنّما يُريد أنّها لا تَعْمل عمل الفِعل بأنْفُسِها.

---

(١) لم أجد هذا الحديث في المكان الذي أشار إليه المصنف، وهو تفسير سورة الصف، بل لم أجده في مظنة أخرى وهي خواتيم التوبة لما ذكر الله تعالى عنه ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، بل لم أجد الحديث في «صحيح البخاري» أصلاً بعد التنقيب، فلعل المصنف وهم.

(٢) في «المسند» (٤: ٣٩٥) رقم(١٩٥٤٣)، ورواه مسلم في «الصحيح» (٢٣٥٥)، وهو أولى بالعزو من أحمد. و«يزيد» هو يزيد بن هارون الواسطي، أحد رواة هذا الحديث.

(٣) «معالم التنزيل» للبغوي (٥: ٨٠)، و«الوسيط» للواحدي (٤: ٢٩٢).

(٤) «التيسير في القراءات السبع» للداني ص٨١ وص ١٠٤.

[﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ٧]

وأَيُّ النّاسِ أشدُّ ظُلْمًا ممّن يَدعوهُ ربُّه علىٰ لسانِ نبيِّه إلىٰ الإسلامِ الذي لَهُ فيه سَعادةُ الدّارَين، فيَجعلُ مكانَ إجابَتِه إليه افتراءَ الكذبِ علىٰ الله، بقَولِه لكلامِه الذي هُو دعاءُ عبادِه إلىٰ الحقِّ: هذا سِحرٌ، لأنّ السِّحرَ كذِبٌ وتـمويهٌ.

وقَرأَ طَلحةُ بنُ مُصرِّف: (وهُوَ يَدَّعي)، بمَعنىٰ: يُدْعىٰ، دَعاهُ وادَّعاه، نحوَ: لمسَه والتمسَه. وعنه: يَدَّعي، بمعنىٰ يَدعو، وهو اللهُ عزَّ وجَلّ.

[﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ٨]

أصلُه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟﴾ [التوبة: ٣٢] كما جاءَ في سُورة بَراءة، وكأَنَّ هذه اللامَ زيدَت معَ فعلِ الإرادةِ ....

قولُه: (لأنَّ السِّحْرَ كَذِبٌ وتَمْويهٌ)، فيه إشْعارٌ بهذه الآية بقِصَّة عيسى عليه السَّلام، وقولهم في الآيات البيِّنات: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ مكراً وتَمْويهاً، وإخفاءً للحَقِّ الجلي.

وقلت: وفي إيْقَاع الإسْلام مقابلاً لافْتِراء الكذب، إيْذَانٌ باتِّصَالها بقصَّة محمّد صلوات الله عليه، وأنَّ ذِكْر الإسْلام كالتَّخَلُّص من القِصَّة إلى القِصَّة، ولذلك ذُيِّلَت الآيةُ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كأنّه قيل: قد عُلِم ظُلم أولئك الكَفَرة بِرُوحِ الله، وما أرادوا به من المَكْر والكَيْد، وعُرِف أنَّ الله ما هَداهُم إلى ما أَرادوا، بل خَذَلـهُم اللهُ ونَصَر أولياءَه كما قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ فما ظُلم هؤلاء الكَفَرة لحبيب الله، وما مَكْرهم به، وكيف يَفْعل الله به وبهم، قيل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ إلى آخر الآيتين.

قولُه: («وهو يَدَّعي» بمعنى: يُدْعىٰ)، قال ابن جِنّي: قرأ طَلْحَةُ بن مُصَرِّف: «وهو يدَّعىٰ إلى الإسلام»، والظَّاهر: يَدَّعي الإسلام، لكن لـمّا كان معنى« يَدّعي الإسلام»: ينتسب إليه، قال:

تَأكيدًا لَه، لِما فيها مِن مَعنىٰ الإرادةِ في قولِكَ: جِئتُك لإكرامِك، **كما زيدَتِ اللّامُ في: لا أبا لَك؛ تأكيدًا** لمعنىٰ الإضافةِ في: لا أباك.

وإطفاءُ نورِ الله بأفواهِهِم: تهكُّمٌ بهِم في إرادَتِهم إبطالَ الإسلام بقَولِهِم في القُرآنِ: هذا سِحرٌ، مُثِّلَتْ حالُهُم بحالِ مَن يَنفُخُ في نورِ الشّمسِ بفِيهِ ليُطفِئَه (واللهُ مُتِمٌّ نُورَه) أيْ: مُتِمٌّ الحقَّ ومُبلِّغُه غايتَه. **وقُرِئَ بالإضافة.**

[﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ ٩]

و«دينُ الحقِّ» المِلّة الحنفيّة ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ليُعلِيه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ علىٰ جَميعِ الأدْيانِ المُخالِفةِ له؛ ولَعمْري لقَد فعَل، فما بَقِيَ دِينٌ من الأدْيانِ إلّا وهو مَغلوبٌ مَقهورٌ بدِينِ الإسلام. وعَن مُجاهِد: إذا نَزلَ عيسىٰ لم يَكُن في الأرضِ إلّا دينُ الإسلام. وقُرِئَ: (أَرسَلَ نَبِيَّه).

يَدَّعي إلى الإسْلام، حَمْلاً على معناه، كقوله تعالى: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ والاستعمال: هل لك في كذا، لكن لـمّا كان معناه وأدْعُوك إلى أنْ تَزَكّى[1] اسْتُعمل إلى هاهنا تَطَاولاً نحو المعنى[2].

قولُه: (**كَما زِيْدَت اللّام في: لا أَبَا لَك؛ تأكِيْداً**)، قيل: معناه: أي: كُنْت على وجْهٍ لا يُعْرف لك أبٌ.

قولُه: (**وقُرِئ بالإضَافَة**)، ابن كَثِير وحَمْزة والكِسَائي وحَفْص: ﴿مُتِمُّ﴾ بغير تنوين: ﴿نُورِهِۦ﴾ بالخَفْض، والبَاقُون: بالتّنوين والنَّصْب[3].

---

(١) من قوله: «والاستعمال» إلى هنا ساقط من (ح) وأثبته من (ف) و(ط).

(٢) «المحتسب» (٢: ٣٢١).

(٣) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٤.

[﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ١٠-١٣]

﴿تُنجِيكُم﴾ قُرِئَ: مُخَفَّفًا ومُثقّلًا. و﴿تُؤْمِنُونَ﴾ استئنافٌ، كأنّهم قالوا: كيفَ نعمَلُ؟ فقالَ: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾، وهو خَبَرٌ في مَعنىٰ الأمْرِ؛ ولهذا أُجيبَ بقَولِه: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ وتَدُلُّ عليهِ قِراءةُ ابنِ مَسعودٍ: آمِنوا باللهِ ورَسُولِه وجاهِدوا.

فإنْ قُلتَ: لِمَ جيءَ بهِ علىٰ لَفظِ الخبَرِ؟

قلتُ: للإيذانِ بوُجوبِ الامتِثال، وكأنهُ امتُثِلَ، فهُوَ يخبر عَن إيمـانٍ وجِهادٍ مَوجودَين. ونظيرُه قولُ الدّاعي: غفرَ اللهُ لك، ويغفِرُ اللهُ لك: جُعلت المغفِرةُ لقوَّةِ الرّجاءِ، كأنّها كانت ووُجِدت.

فإنْ قُلتَ: هل لقولِ الفـرَّاء: إنهُ جوابُ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ وَجْهٌ؟

قولُه: (﴿تُنجِيكُم﴾ قُرِئ: مُخَفَّفاً ومُثَـقَّلاً)، ابنُ عَامر: مُشَدّداً، والبَاقُون: مُخَفَّفاً[1].

قولُه: (وهو خَبَرٌ في مَعْنى الأمْر)، قال صاحِب «الكَشّاف»: هذا قول سِيبَوَيه.

قولُه: (هل لِقَول الفَرّاء: إنَّه جَوابُ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ وَجْهٌ؟)، قال الزَّجّاج: وقد غَلِط بعض النَّحْويين فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ جَوابُ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾، وذلك أنَّه ليس إذَا دَلَّهم النَّبي ﷺ على ما ينفعهم غَفَر الله لَهُم، إنَّما يَغْفر الله لهم إذا آمنوا وجَاهَدوا، وإنَّما هو جَواب: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ﴾، لأنَّ مَعْناه معنى الأمْر، أي: آمِنوا بالله ورَسُوله وجَاهِدُوا يَغْفِر لَـكُم، أي:

---

(١) «التيسير» ص١٣٤.

قلتُ: وجْهُه أنّ مُتعلّقَ الدِّلالةِ هو التِّجارةُ، والتِّجارةُ مُفَسَّرةٌ بالإيمانِ والجِهاد؛ فكأنهُ قيل: هَل تَتّجِرون بالإيمانِ والجِهادِ يَغفر لكم؟

فإنْ قُلتَ: فما وَجهُ قِراءةِ زيدِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما: (تُؤْمِنُوا) و(تجاهدوا)؟

قلتُ: وجهُها أنْ تكونَ على إضْمارِ لامِ الأمْرِ، كقَولِه:

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ إذَا ما خِفتَ مِنْ أَمْـرٍ تبـالا

إنْ فَعَلتم ذلك يَغْفر لَـكُم، ويَدلُّ عليه قِراءَة ابن مَسْعُود(١).

وخُلاصَة جَواب المُصنِّف: أنَّ قولَه: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى آخره، بيانٌ لجُمْلة قولِه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على سَبيل الاسْتِئناف، وعُلِم أنَّ البَيان والمُبَيَّن واحِدٌ، فبِهَذا الاعْتِبار كان جَواباً.

الانتصاف: هذا التَّأويل لا يُحْتَاج إليه، فإنَّه يَلْحق بقولِه: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١] وأمثاله، وقد تَقدَّم الكلام فيه، وأنَّ المُؤمن الرَّاسِخ في الإيمان لمّا كان مَظِنَّةً لحُصُول الإقامة والامْتِثَال صار كالمُحَقّق منه ذلك(٢).

وقال أبو البُقاء: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ جَوابُ شَرطٍ مَحْذُوف: أي إنْ تُؤْمِنُوا يُغْفِر لَكُم، أو جوابٌ لـمَا دلَّ عليه الاسْتِفْهام، والمعنى: هل تَقْبَلون إنْ دَلَلْتُكم(٣).

قولُه: (مُحمّد تَفْدِ نَفْسَك)، البيت(٤)، أيْ: يا مُحمّد لِتَفْدِ نَفْسَك، فَحذفت اللام من اللفظ

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٦٦)، وقراءة عبد الله بن مسعود: «آمِنوا بالله ورسوله» بصيغة الأمر لا بصيغة المضارع.

(٢) «الانتصاف» (٤: ٥٢٦) بحاشية «الكشاف».

(٣) «إملاء ما مَنَّ به الرحمن» (٢: ٢٦٠ – ٢٦١).

(٤) البيت لأبي طالب، وقيل: للأعشى.

وعن ابنِ عبّاس أنّهم قالوا: لو نَعلَمُ أحَبَّ الأعمالِ إلىٰ الله لعَملْناها، فنزَلتْ هذهِ الآيةُ، فمكَثُوا ما شاءَ الله يقولون: ليتَنا نعلَمُ ما هي، فدلَّهم اللهُ علَيها بقولِه: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ وهذا دَليلٌ علىٰ أنّ ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، وعلىٰ أنَّ الأمرَ الواردَ علىٰ النّفوسِ بعدَ تشَوُّفٍ وتَطَلُّعٍ منها إليه: أوقَعُ فيها وأقربُ من قَبُولِها لهُ ممّا فُوجِئت به.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ يعني ما ذُكِرَ من الإيمانِ والجِهادِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من أموالِكُم وأنفُسِكُم.

فإنْ قلتَ: ما مَعنىٰ قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟

قلتُ: **مَعناهُ إنْ كُنتُم تَعلَمونَ أنهُ خَيرٌ لكُمْ كانَ خيرًا لكم حينَئذٍ**؛ لأنّكُم إذا عَلِمتُم ذلك واعْتقَدتُموهُ أحبَبتُم الإيمانَ والجِهادَ فوقَ ما تُحِبّونَ أنفُسَكُم وأموالَكُم، فتُخْلِصونَ وتُفلِحونَ ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ولكُم إلىٰ هذهِ النِّعمةِ المَذكورةِ من المَغفرةِ والثّوابِ في الآجِلةِ نعمةٌ أخرىٰ عاجِلةٌ محبوبةٌ إليكم، ثمّ فسّرَها بقولِه: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي: عاجِلٌ، وهو فَتحُ مكّة.

وهي مُضْمَرة، ولهذا الفِعْل كان مجْزُوماً فَحُذِف لِكَثْرة الاسْتِعْمال، تَبالاً: أي سُوءُ عاقِبة، والتَّـبال: عَدَاوةٌ يُطْلب بها، يقال: تَبَلَني فُلانٌ وتبَلَهُم الدَّهْر. قال كعب:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبي اليَوْمَ مَتْبُولُ

أي: مُصابٌ بِتَـبْلٍ، وهو الذَّحْلُ والعَدَاوة.

قولُه: (**مَعْناه: إنْ كُنتُم تَعلمُون أنّه خَيرٌ لكُم كان خَيراً لكُم**)، **الانتصاف**: أجْرَى الشَّرْط على حَقِيقته، وليس بالظَّاهِر؛ لأنَّ عِلْمَهم بِذلِك مُحَقَّقٌ، فإنَّهم مُؤْمنون، ولَعلَّه مِثْل قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] كما تقول لمن يَنْتَصر مِن عَدُوِّه: إنْ كُنْت حُرّاً فانْتَصر[١].

---

(١) «الانتصاف» (٤: ٥٢٧) بحاشية «الكشاف».

وقالَ الحسَنُ: فـتْحُ فارِس والرُّوم. وفي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ **شَيءٌ من التَّوبيخِ علىٰ مَحبّـةِ العاجِل.**

فإنْ قلتَ: علامَ عُطِفَ قولُه ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟

وقلت: يريد أنّه من باب المُبالغة والتّتميم، وعليه ظاهِر كلام القَاضي: إنْ كُنتُم من أهْل العِلم، إذ الجَاهِل لا يُعتدُّ بِفعْلِه[1]. وليس بِذاك، لأنَّ شَرْط ذلك الأسْلوب أنْ يكونَ الشَّرْط ثابِتاً في نَفسِه أو عند المُتكلِّم والمُخاطَب، لم يَتعوَّج عن السَّدَاد، ولم يَتحَرَّ سوى الصَّواب، كما مَرَّ في سورة المُمْتَحَنة، وهاهنا الكلامُ على ما سَبق في فاتِحة السُّورَةِ مع أولئك المُؤمنين الّذين قالوا قبل أنْ يُؤمَروا بالقِتَال: لو عَلِمْنا أحَبَّ الأعْمالِ إلى الله لَعَمِلناه، ولَبَذْلنا فيه أمْوالَنا وأنفُسَنا، يَشْهد لَه نَقلُه عن ابن عبّاس في هذا المَقام قالوا: لو نَعْلم أحبَّ الأعْمال إلى الله[2] لَعَمِلناها فنَزلت[3]، فلمّا دَهَّم الله تعالى في يومِ أُحد على المُجَاهَدة في سَبيل الله تَوَلَّوا، وحِين لم يعْمَلُوا بِمُوجَب العِلْم قيل لهم: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وإلَيه الإشارة بِقَولِه: «إذا عَلِمْتم ذلك واعْتَقَدْتُموه، أحْبَبْتُم الإيْمانَ والجِهادَ فَوْقَ ما تُحِبُّون أنفُسَكُم وأمْوَالَكُم»، وفي التَّعْقِيب بِقَولِه: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ والتوبيخ إيماءٌ إلى هذا.

قولُه: (**شَيءٌ مِن التَّوبِيخ عَلى مَحبَّة العَاجِل**)، وذلك أنّه تَعالى عَطَف «أُخرى» من حَيْث المعنى علىٰ النِّعْمَة المَذْكُورة من المَغفِرةِ والثَّوابِ، وقَيَّدَها بقَولِه: ﴿تُحِبُّونَهَا﴾، وفِيه إشَارَة إلى هذا المعنى[4]، لأنَّ الفَتْح والنُّصْرة وإنْ كانَا من الأُمُور الدِّيْنيَّة، لكن فيهمـا حظ النَّفْس؛ لأنَّهما بِظَاهِرهما ممّا تَشْتَهيه النَّفْس، ويَجوز أنْ يكون عطفاً على ﴿تِجَٰرَةٍ﴾؛ أيْ: أبَشِّركم بِتِجَارة أخرى عَاجِلة، بَعد البِشَارة الآجِلة.

---

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ٣٣٤).

(٢) من قوله: «لعملناه» إلى هنا ساقط من (ف).

(٣) انظر: «جامع البيان» للطبري (٢٨: ١٠٧).

(٤) من قوله: «عن النعمة» إلى هنا ساقط من (ف).

قلتُ: علىٰ ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾ لأنّـهُ في مَعنىٰ الأمْرِ، كأنّهُ قيل: آمِنوا وجاهِدوا يُثِبْكُم اللهُ ويَنصُركُم، وبَشِّر يا رَسولَ الله المُؤمنينَ بذلك.

فإنْ قُلتَ: لِمَ نصَبَ مَن قرَأَ (نصرًا من الله وفَتْحًا قريبًا)؟

قلتُ: يجوزُ أنْ يَنصِبَ علىٰ الاختصاص أو علىٰ (تُنصَرونَ نَصْرًا)، و(يُفتحُ لكُم فَتْحًا) أو علىٰ: يَغفِرُ لكُم ويُدخِلُكم جنّات، ويُؤتِكُم أخرىٰ نصْرًا من الله وفَتْحًا.

قولُه: (على ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾ لأنَّه في مَعْنى الأمْر)، قال صَاحِب «المفتاح»: هو عطف على ﴿قُلۡ﴾ مراداً: قبل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[(١)].

وقلت: قدْ سَبق أنَّ ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ مُتَضمِّنٌ مَعْنى الأمر لقوله: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ولأنَّ سِياق الكَلام عليه، فإنَّه تعالى لما نَبَّه عِبادَه على ما يُخَلِّصُهم ممّا يُؤْذِيهم بِقولِه: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ اتَّجه لهم أنْ يَتَضرعُوا إليه: نَعَم يا مَولانا ورَبّنا أرْشِدنا إلى هذه البغْيَةِ! فقِيل لهم: آمِنوا بالله ورَسُولِه وجاهِدوا، ثُمَّ أمَر حَبِيبَه بأنْ يُبَشِّرهم بأنَّ الله سَيُنْجِز ما وَعَد من الثَّوابِ العَظِيم في الآخِرة، والنَّصر القَريب في الدُّنيا، تَقْريراً أو تَشْريفاً، ولِذلك أتَى بما يَدُلُّ على التَّجدُّد وَوَضع ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مَوْضع الضَّمِير، للإشْعَار بأنَّ صِفَة الإيمان هي التي تَقْتضِي هذه البِشارة، وأمّا اتِّحاد المُسند إليه بين المَعْطُوف والمَعْطُوف عَليه فَلَيس بِواجِبٍ كما مرَّ في سورة البقرة: «أنّ قولك: يا بَني تميم احْذَروا عُقُوبة ما جَنَيْتم، وبشِّـر يا فُلان بَني أسَد بإحْساني إليهم»، من فَصِيح الكلام.

ويُمْكن أنْ يُقال: إنَّه تعالى لـمّا أمَر رسولَه ﷺ بأنْ يُخاطِب النَّاس بقولِه: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أرْشَده إلى ما يَقْتضِيه من الجَواب أنّه اتَّجه لِسائِلٍ أنْ يقول: بلى دُلّنا؟ أيْ: قل: آمنوا بالله.. الآية، وبَشِّرهم بعد ذلك بما لا يُكْتَنه كُنْهُه ممّا يَصحّ أن تُـبَشِّر بِه، لإطْلاقِ

---

(١) انظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي، ص٣٢٦.

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ ١٤]

قُرِئَ: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ و(أنصاراً لله). وقرأ ابنُ مسعودٍ: (كُونوا أنْتُم أنْصارَ الله). وفيهِ زِيادةُ حَتمٍ للنُّصرةِ عَليهم.

فإنْ قلتَ: ما وَجهُ صِحّةِ التّشبيهِ، وظاهِرُهُ تشبيهُ كونِهم أنصارًا بقَولِ عيسىٰ صَلَواتُ الله عليه: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟

قلتُ: التّشبيهُ محمولٌ علىٰ المَعنىٰ، وعلَيه يَصِحّ. والمرادُ: كُونوا أنصارَ الله كما كان الحوارِيّون أنصارَ عيسىٰ حينَ قالَ لهُم: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

«بَشِّر»، فعلى هذه «بَشِّر» مَعْطوفٌ على ﴿قُلْ﴾ مُراداً عند قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، ويجوز أن تكون «بشِّر»[1] من الخِطَاب العَام كأنَّه قيل: آمِنوا بالله وبَشِّروا، أي: لِيُبَشِّر كُلُّ من يَتَأتّى منه البِشَارة[2]، فإنَّ هذا الأمر بعظَمته وفَخامَته حَقِيقٌ بأنْ لا يَختص بأحَدٍ دُون أحَد.

قولُه: (قُرِئ: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾)، الكُوفيّون وابنُ عَامِر: ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ بِغَير تَنْوينٍ ولا لام، والبَاقُون: بالتَّنوين ولامٍ مَكْسُورة[3]. أي: في أوّل اسْمِ الله عَزّ وَجلّ.

قولُه: (وفيه زِيادَةُ حَتْمٍ للنُّصْرَةِ عَلَيْهم)، وذلك أنَّ الضَّمير إذا جُعل فَصْلاً لا محَلَّ لَهُ أفاد الاخْتِصَاص، أي: هَذا الأَمْر لِعِظَم مَناله لا يَخْتَص بِه إلا أمْثَالُكم، البَذَّالُون للأرواح النَّاصِرون لله ولِرَسُولِه، وإنْ جُعِل مُبتدأً أفَاد تَقَوِّيَ الحُكْم، وأنَّ النُّصْرةَ مَطْلُوبة البَتَّة.

قولُه: (التَّشْبِيه مَحْمُولٌ على المَعْنى)، أي: على تَقْدير أشْيَاء عِدّة لتَصْحِيح التَّشْبيه، و«مَا» في

---

(١) من قوله: «معطوف» إلى هنا ساقط من (ف) وأثبته من (ط) و(ح).

(٢) من قوله: «من الخطاب» إلى هنا ساقط من (ف).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٤.

فإنْ قلتَ: ما معنىٰ قولِه: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ قلتُ: يجبُ أن يكونَ مَعناهُ مُطابِقًا لجوابِ الحَوارِيِّينَ ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ والذي يُطابِقُه أنْ يكونَ المعنىٰ: مَن جُندي مُتوجِّهًا إلىٰ نُصرةِ الله، وإضافةُ ﴿أَنصَارِيٓ﴾ خلافُ إضافةِ ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ فإنَّ مَعنىٰ ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾: نَحنُ الذينَ يَنصُرونَ الله. ....

﴿كَمَا قَالَ﴾: مَصْدَرية، أيْ: كُونُوا أَنْصارَ الله، مِثل كَوْن الحَوَارِيين أَنْصَار الله وقت قَول عيسى: مَن أَنْصَاري إلى الله؟

قولُه: (يَجب أنْ يكون مَعْناه مُطَابِقاً لجَوابِ الحَوَارِيين)، يُريد أنَّ قَولَه: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لَيس على ظَاهِره لِتَعْدِيتِه بـ«إلى»، ولا يُطابِقُه أيضاً جوابُ الحَوارِيين: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، فالوَاجِب أنْ يُؤَوَّل بما يُطَابِق الجَواب بحيث يُعْلَم منه مَعْنى التَّعْدِية، وتَضْمِين ما يَتَعلَّق به «إلىٰ»، وهو: «مَنْ جُندي مُتوجِّهاً إلى نُصْرة الله».

قولُه: (وإضَافَة ﴿أَنصَارِيٓ﴾ خِلافُ إضَافَة ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾)، قال صَاحِب «الانْتِصاف»: الإضَافَة الأولى مَحْضةٌ، والثَّانية غَيْر مَحْضَة[1].

وقلت: يَشْهَد للأوّل قَولُه: «مَنِ الأَنْصَارُ الّذين يَخْتَصُّون بي؟»، والثّاني قولُه: «نحن الّذين يَنْصُرون الله».

فإنْ قُلتَ: هذا يُخالِف تَقْديره الأوّل: «مَن جُنْدي مُتوجِّهاً إلى نُصْرة الله؟»، لأنَّ «جُنْدي» خَبر «مَن» الاسْتِفْهاميَّة، وفيه ضَمِيرٌ راجعٌ إلى المُبْتدأ، و﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ حَالٌ منه.

قلتُ: عَمَلُه حِينَئذٍ نحو قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ [الأنعام:٣].

فإن قلتَ: ما فَائِدة الاخْتِلاف؟

---

(١) «الانتصاف» (٤: ٥٢٨) بحاشية «الكشاف».

ومَعنىٰ ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ﴾ مَن الأنصارُ الذين يَختصّونَ بي ويَكونونَ مَعي في نُصرةِ الله؛ **ولا يَصِحُّ أنْ يَكونَ مَعناهُ: مَن ينصُرُني معَ الله؟**؛ لأنّهُ لا يُطابِقُ الجَواب. والدّليلُ عليه: **قِراءةُ مَن قَرَأ: (مَنْ أنصارُ الله)**.

والحَوارِيّونَ أصْفِياؤُه، وهُم أوّلُ مَن آمَنَ به وكانُوا اثنَي عَشَر رَجُلًا؛ وحوارِيّ الرَّجلِ: صَفِيُّه وخُلْصانِه، مِن الحوَر وهو البَياضُ الخالِص. **والحوّارىٰ: الدَّرْمَك**. ...

قلت: الإيْذان بأنَّ الّذي يُطْلب منهم هو النُّصْرة الـمُعْتَبرة، وهو اخْتِصَاصهم به وما أخْبَروا به عن أنْفُسِهم، إنْشَاءً للنُّصْرة بل ادِّعاءً مِنْهم أنَّهم الّذين يَنْصُرون الله، ولذلك عَقّب بقولِه: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞ﴾ وقَريبٌ منه قولُه تعالى: ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌ﴾ [النور: ٥٣] فإذا اعْتُبِر المُبْتدأ من جَانب المُسلمين قُدّر: الذي يُطْلب مِنكم طَاعة معروفة فعلاً، وإذا اعْتُبر من جانب المُنافقين قيل: أمْرُكم وشَأْنُكم طَاعَةٌ مَعْرُوفة قولاً.

قولُه: (**ولا يَصِحُّ أنْ يكونَ مَعْناه: من يَنْصُرني مع الله**) وهو قول الزَّجّاج[١]، لأنَّه لا يُطابِق ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، إذ المُطَابِق: نحن أنْصَارُ الله نَنْصُرك مَع الله، على أنَّ «إلى» بِمَعْنى «مع» قَلِيلٌ.

قولُه: (**قِراءَة من قَرَأ: «مَن أنْصَارُ الله»**)، ابنُ عَامر وعَاصِم وحَمْزة والكِسَائي[٢].

قولُه: (**والحَوَارىٰ: الدَّرْمَك**) عن بعضهم: الدرمك: نُقاوةُ الدقيق الذي ليس فيه نخالة، ويقال: الدرهم يكسو النَّرمَق أي: الثوب اللين، تعريب نرمك ويطعم الدَّرمقَ، قال الزَّجَّاج: الذين أُخْلِصوا ونُقُّوا من كلِّ عيب، وكذلك الدَّقيق الحوارىٰ؛ لأنه يُنقَّى من لُباب البُرِّ وخالصه، وتأويله في الناس: أنَّه إذا رجع في اختياره مرّةً بعد أخرى وُجِدَ نقياً من العُيوب، من حار يحور، وهو الرُّجوع والترجيع[٣].

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٦٥).

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع»، ص١٣٤.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٦٥).

ومنه قولُه عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ: «الزُّبَيرُ ابنُ عَمّتي وحَوارِيّي من أُمّتي» وقيلَ: كانوا قصّارين يُحوِّرونَ الثيابَ: يُبيِّضونَها. ونظيرُ الحَواريِّ في زِنَتِه: الحَواليُّ: الكثيرُ الحِيَل.

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ﴾ مِنهُم بعيسىٰ ﴿وَكَفَرَت﴾ به ﴿طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا﴾ مُؤمِنيهِم علىٰ كُفّارِهِم، فظَهَروا علَيهِم. وعن زَيدِ بنِ عليٍّ: كانَ ظُهورُهم بالحُجّة.

عنْ رسولِ الله ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ الصَّفِّ كانَ عيسىٰ مُصلّيًا علَيه مُستغفِرًا لهُ ما دامَ في الدُّنيا وهُوَ يومَ القِيامةِ رَفيقُه».

قال الرَّاغِب: قيل: إنَّما سُمُّوا حَوارِيين لأنَّهم كانوا يُطَهِّرُون نُفُوسَ النَّاس بإفَادَتِهم الدِّيْن والعِلْم[1].

قولُه: (الزبيرُ ابنُ عَمّتي وحَوارِيّي)، الحديث من رِوَاية البُخَاريِّ ومُسْلمٍ والتِّرْمِذيِّ وابنِ مَاجَه عن جَابر[2] قال النَّبي ﷺ: «إنَّ لِكُلِّ نبيٍّ حَوارِيّاً؛ وإنَّ حَوارِيَّ الزُّبَير».

الرَّاغب: تَشْبيهه بهم في النُّصْرة حيثُ قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾[3].

وقلت: ويُؤيِّدُه ما رُوِّينا عن البُخَاريِّ ومُسْلم[4] عن جَابر قال: قال رسولُ الله ﷺ يوم الأحزاب: «مَن يَأتِينا بِخَبر القَوْم؟» قال الزُّبير: أنا، ثم قال: «مَن يَأتِينا بِخَبر القَوم؟» فقال الزُّبَير: أنا، ثُمّ قال في الثَّالثة: «إنّ لكُلِّ نبي حَوارِيّاً، وإنّ حَوارِيَّ الزُّبير».

تـمَّتِ السُّورة.

---

(١) «مفردات القرآن» ص٢٦٣.

(٢) البُخاري (٣٧١٩)، والتِّرمذي في«الجامع» (٣٧٤٤)، وقد أخرجه كل من مسلم وابن ماجه لكن باللفظ الثاني الذي أشار إليه المصنِّف وعزاه لكل من البخاري ومسلم فحسب، لذا خرجته في التالي.

(٣) «مفردات القرآن» ص٢٦٣.

(٤) البُخاري (٢٨٤٧)، ومُسلم (٢٤١٥)، والتِّرمذيُّ في «الجامع» (٣٧٤٥)، وابن ماجه في «السنن» (١٢٢).

سُوْرَةُ الجُمُعَةِ

مدنيّةٌ، وآياتها إحدىٰ عَشْرةَ آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ١-٤]

قُرِئَتْ صِفاتُ الله عَزَّ وعَلا بالرَّفعِ علىٰ المَدْحِ، كأنهُ قيل: هُو المَلِكُ القُدّوسُ، ولَو قُرِئتْ مَنصوبةً لَكانَ وَجهًا، كَقولِ العَرَبِ: الحَمدُ لله أهلَ الحمد.

الأمّيّ: منسُوبٌ إلىٰ أمّةِ العرَبِ؛ لأنّهم كانوا لا يكتُبونَ ولا يَقرَؤونَ من بَينِ الأُمَم. وقيل: بدَأت الكِتابةُ بالطّائفِ، أخذوها من أهلِ الحِيرةِ، وأهلُ الحيرةِ من أهلِ الأنْبار.

سُورة الجُمُعة

إحدى عَشْرة آية، مَدنيَّة بخِلاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قولُه: (وأهْل الحِيْرة من أهْل الأنْبار)، الأنْبارُ: مَوضِعٌ قَريبٌ مِن بَغداد، وجَدْت في بعض كُتب المُحاضرات: أنّ أوّل من اسْتخرج الخط العربي ثلاثة رجال من أهل مُسْكين: وهي

ومَعنى ﴿بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ بَعث رَجُلًا أُمِّيًّا في قَومٍ أُمِّيِّين، كما جاءَ في حَديثِ شعيا: ....

قريةٌ من أعلى الأنبار، يقال لأحدهم: مَرامُر بن مُرَّة، وللآخر: أسْلَم بن سدرة وللثالث: عامر بن جذْرَةَ، نظروا رملاً في شاطئ الفرات فيه آثارُ أرجل البطِّ، فشبَّهُوها بالخطوط، فقالوا: هلمُّوا نستخرجْ منها خطاً غير الخُطوط القديمة، ثمّ فكَّروا في كلام الخَلق فوجَدوا سائر الكلامِ يدورُ على ثمانيةٍ وعشرين حرفاً، وتصّوروا على «أبجد هوز حطّي كَلمن سَعْفَص قَرَشَت» حُروفاً، ووجدوا هذه اثنين وعشرين حرفاً، فعازتهم ستة أحرف؛ الثاء والخاء والذال والضاد والظاء والغين، فصوروها «ثخذ ضظغ» فتمَّ بذلك الكلام، ثمَّ صَرفوا الألفاظَ وألَّفوا بعضها إلى بعض، واصطلحوا على ما يَصِلُونه من الكلام أو يُقَطِّعُونه بالحروفِ المذكورة، فكان منه هذا الخطُّ العَربيّ. والله أعلم بصحَّتِه[1].

قولُه: (ومَعْنى ﴿بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾: بَعَث رجُلاً أُمِّيًّا في قَوْم أُمِّيِّين)، وإنَّما قَال: «رجلاً» و«قوم» على سَوْق المَعْلوم مساق غيرِ المَعْلُوم، لِيُؤذِن بِأنَّ قولَه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وَارِدٌ على سَنَن كَلام الجَبابرة، نَحْو ما جاء في قولِه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ﴾ [الرعد: ١٧] وهو الوَجْه.

قولُه: (في حَديث شعيا)، قال أبو عبد الله الكسائي في كتاب «المبتدأ» ذكر وهب وكعب: إن شعيا بن أمصيا نبيٌّ من سُلالَة بني إسرائيل من ولد هارون وهو الذي بشر قومه بنبينا محمد صلوات الله عليه، وشعيا هو الذي أرسل يونس بن متى إلى قومه من أهل نينوى[2].

---

(١) نقل الأستاذ جواد علي في كتابه الماتع «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»: (١٥: ١٥٧ – ١٦٣) الأقوال في منشأ الخط العربي، وذكر أقاويلَ كثيرةً منها ما ذكره المصنف هاهنا بما لا مزيد عليه من حيث الجمع والتوثيق، وخلاصته أن الأمر مختلَفٌ فيه وأنه لا يُجزم فيها برأي.

(٢) (مخطوط: ١١٣ب جامعة الملك سعود رقم ٩٣٤)، ولم يرد هذا النص في النسخة المطبوعة بليدن عام ١٩٢٣م، فقد جاء بحديث يونس، ثم قفز إلى حديث عيسى عليه السلام.

إنّي أُبعَثُ أعمىٰ في عُميان، وأُميًّا في أمّيِّين، وقيلَ ﴿مِّنْهُمْ﴾، كقولِه تعالىٰ: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] يَعلَمونَ نسَبَه وأحوالَه. وقُرِئَ: (في الأُمِّين) بِحذْفِ ياء النَّسَبِ.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يَقرَؤُها علَيهِم معَ كَونِه أُمِّيًّا مِثلَهُم لَم تُعهَد مِنهُ قِراءةٌ ولَم يُعرَف بتعَلُّمٍ، وقِراءةُ أمّيٍّ بغَيرِ تَعَلُّمٍ آيةٌ بيّنةٌ. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: ويُطَهِّرُهم من الشِّركِ وخَبائثِ الجاهِلِيّة.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: القُرآنَ والسُنّة. و«إنْ» في ﴿وَإِن كَانُوا۟﴾ هيَ المُخَفَّفة من الثَّقيلَةِ، واللّام دَليلٌ علَيها، أي: كانوا في ضَلالٍ، لا تَرىٰ ضَلالًا أعظمَ مِنهُ.

﴿وَءَاخَرِينَ﴾ مجرورٌ عطفٌ علىٰ ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾، يَعني: أنهُ بَعَثهُ في الأمّيِّينَ الذين علىٰ عَهدِه، وفي آخَرينَ من الأُمّيّين لم يَلحَقوا بهم بعدُ، وسَيلحَقُونَ بهم، وهمُ الذينَ بعدَ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهُم.

قولُه: (إني أبعث)، حكاية عن الله تعالى.

قوله: (أعمى)، أي: غَيْر عَالِمٍ بالشرائع، «في عُميان»: في قومٍ غَيرِ عالمين بها، والمُرادُ نبيُّنا صلوات الله عليه وأُمّتُه.

قولُه: (وفي آخَرين من الأُمّيّين)، جَعَل ﴿مِّنْهُمْ﴾ بياناً للآخَرين، قال صاحب «الكشف»: «مِنْ» في ﴿مِنْهُمْ﴾ للنَّبيِّين، ولَيْسَت «من» التي تُستعمل مع أفْعَل، لأنَّ «مِن» تلك لا يجُوز معها جمع الاسم، لا يُقال: الزَّيْدون أفْضَلون من عُمرٍو، لأنَّ «أوّل» و«آخر» وإن كان «أفْعَل» لا يَكاد يُوجَد اسْتِعْمال «من» مَعَها[1].

---

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٣٤٦).

وقيل: لـمّا نزلَتْ قيل: مَن هُم يا رسولَ الله؟ **فوَضعَ يدَهُ علىٰ سَلمانَ ثُمَّ** قال: «لو كانَ الإيمانُ عندَ الثُّريّا لتناوَلَه رجالٌ من هؤلاء»، وقيل: هُمُ الذينَ يَأتونَ مِن بعدِهم إلىٰ يوم القِيامةِ، ويَجوزُ أنْ يَنتَصِبَ عَطفًا علىٰ المَنصوبِ في ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ أي: يُعَلِّمُهُم ويُعَلِّمُ آخَرين؛ لأنّ التّعليمَ إذا تَناسَقَ إلىٰ آخِرِ الزّمانِ كان كلُّه مُستَنِدًا إلىٰ أوَّلِه، **فكأنّه هو الذي تَوَلّىٰ كُلَّ ما وُجِد منه** ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في تَمكِينِه رَجُلًا أُمِّيًّا من ذلك الأمرِ العَظيم، وتَأييدِه عليه، واختِيارِه إيّاهُ من بَين كافّةِ البشر ﴿ذَٰلِكَ﴾ الفضْلُ الذي أعطاهُ مُحَمَّدًا وهو أنْ يكونَ نَبِيَّ أبناءِ عَصرِه، ونَبِيَّ أبناءِ العُصورِ الغَوابِر، هو ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ إعطاءَه، وتَقتضِيهِ حكمَتُه.

قولُه: (**فوَضَع يَدَه على سَلْمان**)، رُوِّينا عن البُخَاري ومُسْلَم والتِّرْمِذيِّ[1] عن أبي هُريرة قال: كنا عند رسول الله ﷺ حين أُنزلت سُورة الجُمعة فتلاها، فلما بَلَغ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ قال رجلٌ: يا رسُولَ الله من هؤلاء الّذين لم يَلْحَقوا بنا؟ فلم يُكَلِّمْه حتى سأل ثلاثًا، قال: وسَلْمان فينا؟ فوضَعَ رسُولُ الله ﷺ يده على سَلْمان وقال: «والّذِي نَفْسي بِيَده لو كان الإيمان بالثُّريّا لتَناوَله رِجَالٌ من هَؤلاءِ».

قولُه: (**فكأنّه هو الّذي تولّى كُلَّ مَا وُجِد منه**)، أي: كانَ رسولُ الله ﷺ هو الّذي تولّى كُلَّ ما وُجِد من[2] التَّعْليم، يعني: يَصحُّ إسْنادُ التَّعْليم إلى رسول الله ﷺ للأمم - الفَائِتة للحصر - إلى انْقِراضِ العالَـم، لأنّه إذا تَناسَقت العَنْعَنةُ من الثِّقات المُتْقِنين الّذين حَمَوُا المتونَ من تَحْريف الزّائِغين، والإسْنادَ من تَوَلّي الكاذِبين، صَحَّ أنْ يُقَال: هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويُعلِّم آخَرين منهم لـمّا يَلْحَقوا بهم، هذا يدلُّ على جَلالَةِ قَدْرِ المُحَدِّثين وعُلوِّ مَرْتبتهم، ولِذلك قال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾. اللهم اجْعَلنا من زُمْرتهم.

---

(١) البُخَاريُّ (٤٨٩٨) ومُسْلم (٢٥٤٦)، والتِّرمذيُّ في «الجامع» (٣٣١٠).

(٢) من قوله: «أي كان» إلى هنا ساقط من (ف) و(ط)، وأثبته من (ح).

....

ولَعْمري إنَّ علم الرِّواية من أقْوى أرْكَان الدِّين، وأوْثَق عُرَى المُتَّقين، لايرغَب في نَشْره إلا كُلُّ صَادقٍ تَقيٍّ، ولا يَزْهد في نَصْرِه إلا كُلُّ مُنافِقٍ شَقِيّ.

قال أبو نصر بن سَلّام: ليس شيءٌ أثْـقَلَ على أهْلِ الإلحاد ولا أبْغَضَ إليهم من سماع الحديث وروايته وإسناده[(١)].

وقال ابن القَطَّان: ليس في الدُّنيا مُبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث[(٢)].

وقال ابن المُبارك: الإسْنادُ من الدِّين، ولولا الإسْنادُ لقالَ من شَاءَ ما شاء[(٣)].

وذكر البَيْهَقيُّ في كتاب «المدخل» عن الشَّافِعيِّ عن ابنِ عيينة: حدَّثني الزُّهْريُّ بحديثٍ فقُلتُ: هاتِه بلا إسْنادٍ، قال: أترْقى السَّطْحَ بلا سُلَّمٍ؟![(٤)].

وقال محمد بن أسْلَم الطُّوسِي: قُرْب الإسْنادِ قُرْبٌ إلى الله تعالى[(٥)].

وقال الحَاكِم النَّيْسَابُوري: لولا كَثرة مُواظَبة طَائِفة المُحدِّثين على حِفْظِ الإسْنادِ لَدَرسَ مَنَارُ الإسْلام، ولَتَمكَّن أهْلُ الإلْحَاد والبِدَع فيه بِوَضْع الأحاديث وقلب الأسَانيد[(٦)].

---

(١) انظر: «معرفة علوم الحديث» للحاكم ص ٤٩. و«شرف أصحاب الحديث» للخطيب ص٧٣.

(٢) «معرفة علوم الحديث» للحاكم ص ٤٩. و«شرف أصحاب الحديث» للخطيب ص٧٣

(٣) رواه مُسلِم في مُقدِّمة «صحيحه»، وانظر: «الجهاد» لابن المبارك ص١٤، والخطيب في «الرحلة في طلب الحديث» ص٨٩.

(٤) ذكره البيهقي في مقدمة «شعب الإيمان»، وذكر أنه في «المدخل إلى السنن الكبرى» له، لكنه غير موجود في الجزء المطبوع، إذ المطبوع لا يُمثل إلا جزءاً من الكتاب، والبقيَّة مفقودة، ومثل هذا مروي عن ابن المبارك، كما في «شرف أصحاب الحديث» ص٤١، و«الكفاية» ص ٤٣٨ للخطيب.

(٥) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب (١: ١٢٣) رقم ١١٥.

(٦) «معرفة علوم الحديث » ص٥١.

[﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ ٥]

شَبَّه اليَهودَ في أنهم حَمَلَةُ التّوراةِ وقرّاؤُها وحُفّاظُ ما فيها، ثُمّ أنّهم غيرُ عامِلِينَ بها ولا مُنتَفِعين بآياتِها، وذلك أنّ فيها نعتَ رَسولِ الله ﷺ والبِشارةَ به، ولم يُؤمنوا به؛ بالحِمارِ حَمَلَ أسفارًا، أيْ: كُتُبًا كِبارًا من كُتُبِ العِلم، فهو يَمشي بها ولا يَدري منها إلّا ما يَمُرُّ بجَنبَيهِ وظَهْرِه من الكَدِّ والتّعَب. وكلُّ مَن عَلِمَ ولم يعمَل بعِلمِه فهذا مَثَلُه، وبئسَ المَثَلُ، ﴿بِئْسَ﴾ مَثلًا ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهُم اليَهودُ الذين كَذَّبوا بآياتِ الله الدّالّةِ على صِحّةِ نُبوّةِ مُحمَّدٍ ﷺ. ومَعنى: ﴿حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: كُلِّفوا عِلمَها والعَمَلَ بها، ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ ثُمَّ لَم يَعمَلوا بها، فكأنّهم لَم يَحمِلوها. وقُرِئَ: (حَمَلوا التَّوراةَ)، أيْ: حَمَلوها ثُمَّ لم يَحمِلوها في الحَقيقةِ لِفَقدِ العَمَل. وقُرِئَ: (يَحمِلُ الأسْفارَ).

فإنْ قُلتَ: (يَحمِل) ما مَحلُّه؟ قلتُ: النَّصبُ على الحال، أو الجَرُّ على الوَصف؛ لأنّ الحِمارَ كاللئيمِ في قولِه:

والإسْنادُ واسِطةٌ بين الحَقِّ والخَلقِ، وهو سُلَّم السَّلامة، ومَرْقاة النَّجاةِ، ومِفتاحُ النَّجاح، فمن رَفَع قَدْرَه ارْتَفع، ومَنْ وَضعَ شَأنَه اتَّضَع.

قولُه: (وذلك أنَّ فيها نَعتَ رسُولِ الله ﷺ)، اعْلَم أنّه تعالى لـمّا أثْبَت التَّوحيدَ والنُّبُوَّة، وبَيَّن في النُّبوَّةِ أنّه ﷺ بُعِث إلى الأمّيِّين، واليهودُ لـمّا أوْرَدوا تلك الشُّبْهة وهي: أنّه صلواتُ الله عليه مَبْعُوثٌ إلى العَرب خاصَّةً وهم أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، ونحن أهْلُ كِتابٍ، أتْبعَه بِضَرْب المَثَل لمن تمسَّك بهذه الشُّبْهة وتَركَ الدَّلائِلَ الواضِحة المَسْطُورة فيما حُمِّلوا واسْتُحفِظُوه، وهي: نَعتُ رَسُولِ الله ﷺ، والبِشَارَة بِهِ ولم يُؤْمنوا به، فَشَبَّهَهُم بالحمار، حُمِّل كُتباً كِبارًا، فهو يمشي بها ولا يَدْري منها ما يمر بجنبيه.

قولُه: (لأنَّ الحِمارَ كاللئيم)، تَعْليلٌ لِتَقْدير الجرِّ على الوَصْف فحَسب، لأنَّ اللئيمَ في البَيْت لا يَحْتمل الحال، لِـما ذكرنا أنَّ الشَّاعِر يَصِفُ نفسَه بالحِلْم والاحْتِمال مِن كُلِّ لئيمٍ صفته

ولَقَد أمرُّ علىٰ اللَّئيمِ يَسُبُّني

[﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ * قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ٦-٨]

هادَ يَهودُ: إذا تَهوَّدَ ﴿أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ كانوا يقُولونَ: نحنُ أبناءُ الله وأحبّاؤه، أي: إنْ كانَ قولُكم حقًّا وكنتُم علىٰ ثِقةٍ ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾ علىٰ الله أنْ يُميتَكُم وينقُلَكم سريعًا إلىٰ دارِ كَرامتِه التي أعدَّها لأوْليائِه، ....

ذاك؛ لا أنهُ مرَّ على لئيمٍ بعينِه حالةَ ذاك، لأنَّ ذلك لا يُثبِتُ له وصْفَ الحلم، وأنه دأْبه وعادته كذلك، شُبِّهت اليهودُ بهذا الجنس من الدَّوابّ إذا كان حاملاً للأسفار.

وأما توجيه الحال في الآية فأن تجعل التَّعريف لاستِغراق الجنس، وأن حُكم كلِّ فَردٍ من أفْراد هذا الجنس كذلك، والبيتُ لا يحتمل هذا.

قولُه: (إذا تَهوَّد)، الجَوْهَري: هَادَ يَهُود هَوْداً: تاب ورجَعَ إلى الحقِّ، فهو هَائِدٌ وقوم هُود[(١)].

قولُه: (كَانُوا يقُولُون: نحن أبْناءُ الله وأحبّاؤه)، آذن بأن الولي بمعنى الحبيب، وهو اسم فاعل اعتمد وعمل في ﴿لِلَّهِ﴾، ومن ﴿مِن دُونِ﴾ حالٌ من الضَّمير الرَّاجع إلى اسم «أنّ»، المعنى: إنْ كُنتم تَزْعُمون أنّكم تُحبُّون الله مُتجَاوِزين عن النَّاس فتَمنّوا الموت، فإنَّ المُحبَّ يُحبُّ لِقاءَ محبوبِه، ولا يَكْره قُربَه، نحوه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ [البقرة: ٩٤].

---

(١) من قوله: «قوله: لأن الحمار» إلى هنا ساقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

ثُمَّ قال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾ بِسبَبِ ما قَدّموا من الكُفرِ، وقد قالَ لهم رَسولُ الله ﷺ: «والذي نَفْسي بِيَدِه لا يَقولُها أحَدٌ مِنكُم إلّا غَصَّ بريقِه»، فلولا أنّهم كانوا مُوقِنينَ بصِدقِ رَسولِ الله ﷺ لَتَمنَّوا، ولكِنّهم عَلِموا أنّهم لو تَمَنَّوا لماتوا من ساعتِهم ولَحِقَهم الوعيدُ، فما تَمالكَ أحدٌ منهم أن يَتمنّىٰ؛ وهي إحدىٰ المعجزات. **وقُرِئَ: (فتَمَنِّوا الموتَ)** بكَسرِ الواو، تَشبيهًا بـ«لو استَطعنا». ولا فرق بين «لا» و«لن» في أنّ كُلَّ واحدةٍ منهما نفيٌ للمستقبَل، إلّا أنّ في «لن» تأكيدًا وتشديدًا ليس في «لا» **فأتىٰ مرّةً بلفظِ التأكيد:**

فإن قلت: لِمَ لَمْ يُضِف «أوْلياء» لله كما أضَاف في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؟ [يونس: ٦٢].

قلت: لِيُؤْذِن بالفَرقِ بين من يَدَّعِي أنّه من أولياء الله، وبين من يَخُصُّه الله بالوَلاية، ونحوه في الإضَافة قولُه: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال: «مَعْنى ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]، أيْ: مَن الأنْصَار الّذين يَختَصُّون بي؟ ويكُونون معي في نُصرة الله؟ ومَعْنى ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾: نحن الذين يَنْصرون الله»، وسبق أنَّ الإضافَة الأولى محْضَة، والثَّانية غيرُ محْضة، وذكَرْنا فائِدة الاختلاف.

قولُه: (**لا يَقُولُها أحدٌ منكم إلا غَصَّ برِيقِه**)، روى الإمام أحمد بن حَنْبل عن ابن عباس: لو أنَّ اليَهودَ تَمَنَّوُا الموتَ لماتوا ولرَأوا مَقَاعِدَهم من النَّار[1].

قولُه: (**وقُرِئ: «فتَمنِّوا الموتَ»**)، بكسر الواو، قال ابنُ جِنِّي: قرأها ابنُ يعمر وابنُ أبي إسْحاق[2].

قولُه: (**فأتَى مَرّةً بِلَفظ التّأكِيد**)، الرَّاغِب[3]: إنَّ قولَه: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ الآية لمّا كان مُفْتَتحاً بِشرطٍ عُلِّقَت صِحَّتُه بِتمنِّي الموت ووَقع

---

(١) الإمام أحمد في «المسند» (٤: ٩٩)، رقم (٢٢٢٥) طبعة الرسالة بتحقيق شعيب الأرنؤوط.

(٢) «المحتسب» (٢: ٣٢١)، و«أصل المسألة» (١: ٥٤).

(٣) يعني: في «درة التنزيل»، وتقدم الكلام في نسبته إلى الراغب، وأن الأصح أنه للخطيب الإسكافي.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ [البقرة: ٩٥]، ومرَّةً بغيرِ لفظِه: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ [الجمعة: ٧]، ثُمَّ قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ ولا تَجسُرون أنْ تتمنَّوْه خيفةَ أنْ تُؤخَذوا بوبالِ كُفرِكم؛ لا تُفوِّتونَه وهُو مُلاقيكُم لا محالةَ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ إلىٰ الله فيُجازيكُم بما أنتم أهلُه من العِقاب. وقرأ زيدُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنه: إنهُ مُلاقِيكُم. وفي قِراءةِ ابنِ مَسعودٍ: تِفرّونَ منه مُلاقِيكُم، وهي ظاهِرة. **وأمّا التي بالفاء، فلتَضَمُّن الذي معنىٰ الشَّرط**، وقد جَعل ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ كلامًا برأسِه في قِراءةِ زيد، أيْ: أنّ الموتَ هو الشيءُ الذي تَفِرّونَ منه، ثمَّ استُؤنِف: إنهُ مُلاقيكم.

هذا الشَّرطُ غَاية ما يَطْلبه المطيع، ولا مطلوبَ وراءه على ما ادعوه لأنفسهم، وهو أنَّ لهم الدَّار الآخِرة خَالِصة من دُونِ غَيرهم وَجَب أنْ يكون ما يُبْطِل تمنِّي الموت المُؤَدِّي إلى بُطْلان شَرْطِهم أقوى ما يُسْتَعمل في بابِه وأبْلَغَهُ في نفي ما ينتفي شرطهم به، فكان ذلك بلفظة «لن» التي للقطع والبَتات، وليس كذلك الشَّرط في سورة الجمعة، إذ ليس زعمهم أنهم أولياءُ لله من دون الناس مثل المطلوب الذي لا مطلوب وراءه وهو الدار الآخرة لأنهم يطلبون بعد ذلك إذا صح لهم هذا الوصف دار الثواب، فلما كان الشرط في هذا المكان قاصراً عن الشرط في ذلك المكان ولم تكن الدعوى غاية المطلوب لم يحتج في نفيه وإبطاله إلى ما هو غاية في بابه(١).

قلت: ويعْضُدُه تخْصيص العَشَرة المُبَشّرة بالجنّة مِن الجَمِّ الغَفِير من بين الصَّحابَة الكِرام.

قولُه: (**وأمّا التي بالفَاء**)، أي: القِراءة التي أتى بالفاء في ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾، فَلِتَضَمُّن ﴿ٱلَّذِى﴾ مَعْنى الشَّرط.

قال أبو البَقَاء: دخَلت في الفَاء لِـما في «الذي» من شَبَه الشَّرط، ومنع منه قوم وقالوا: إنَّما يَجُوز ذلك إذَا كان «الّذي» هو المبتدأ، أو اسم إنَّ، و﴿ٱلَّذِى﴾ هاهنا صِفةٌ، وضعَّفُوه من وجْهٍ آخَر وهو: أنَّ الفِـرارَ من الموت لا يُنْجِي منه فلم يُشبه الشَّرْط، وقال هؤلاء: الفاء زائِدةٌ، وأُجِيب

---

(١) «درة التنزيل وغرة التأويل» للإسكافي (١: ٢٥٨ — ٢٦٠).

[﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ٩-١٠]

يوم الجُمْعة: يوم الفَوجِ المَجموع، كقولهم: ضُحْكةٌ للمَضحوكِ منه. ويومَ الجُمَعة؛ بفَتحِ الميم: يومَ الوَقتِ الجامِع، كقَولِهم: ضُحَكةٌ، ولُعَنةٌ، ولُعَبةٌ؛ ويومُ الجمُعةِ: **تثقيلٌ للجُمْعة**، كما قيل: عُسُرةٌ في عُسْرة. وقُرِئَ بهِنَّ جَميعًا.

فإنْ قُلتَ: «مِن» في قولِه: ﴿مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ ما هي؟

عنه بأنَّ الصِّفة والموصُوف كالشَّيء الواحد، ولأنَّ «الّذي» لا تكون إلا صِفَة، فإذا لم يُذْكر المَوصُوف معها دخلت الفاءُ والمَوْصُوف مُراد، فكَذلك إذا صَرَّح به، وأمَّا ما ذَكروه ثانياً فغَيْر صحيحٍ، فإنَّ خَلْقاً كثيراً يظُنُّون أنَّ الفِرارَ من أسْبَاب الموت يُنْجيهم إلى وقتٍ آخر[1]. وقد جاء هذا المعنى مصرَّحاً به في قوله:

ومن هَـابَ أسْـبابَ المنايـا يَنَلْنَـهُ ... ولو رَامَ أسْبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ[2]

أنشده صاحب «الكشف» مستشهداً[3].

قولُه: (**تَثْقِيلٌ للجُمْعة**)، أبو البقاء: «الجُمُعة» بضمَّتين، وبإسكان الميم مصدرٌ بمعنى الاجتماع، وقيل في المُسكَّن: هو بمعنى المُجْتمع فيه، مثل: رجل ضُحْكة، أي: كثير الضَّحك منه، و﴿مِن﴾ بمعنى: في[4].

---

(١) «إملاء ما مَنَّ به الرحمن» (٢: ٢٦٢).

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى من معلقته المشهورة، انظر: «ديوانه» ص١١١.

(٣) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٣٤٨).

(٤) «إملاء ما مَنَّ به الرحمن» (٢: ٢٦٢).

قُلتُ: هيَ بيانٌ لـ﴿إذَا﴾ وتفسيرٌ له. والنِّداء: الأذانُ. وقالوا: المرادُ به الأذانُ عند قُعودِ الإمامِ علىٰ المِنْبَر، وقد كانَ لِرسولِ الله ﷺ مُؤذِّنٌ واحِدٌ، فكانَ إذا جَلسَ علىٰ المِنبرِ أذَّنَ علىٰ بابِ المَسجدِ؛ فإذا نزَلَ أقامَ الصَّلاةَ، ثمَّ كانَ أبو بَكرٍ وعُمَرُ رَضيَ اللهُ عنهما علىٰ ذلك؛ حتّىٰ إذا كانَ عُثمانُ وكَثُر الناسُ وتَباعدَتِ المنازِلُ زادَ مُؤذِّنًا آخرَ، فأمَرَ بالتَّأذينِ الأوَّلِ علىٰ دارِه التي تُسمّىٰ زَوْراء، فإذا جَلسَ علىٰ المِنبر أذَّنَ المؤذِّنُ الثاني، فإذا نزَلَ أقامَ الصَّلاةَ، فلَم يُعَب ذلك عليْه.

وقيل: أوَّلُ مَن سمّاها جُمعةً كعبُ بنُ لؤَيّ، وكانَ يُقالُ لها: العَروبة.

وقيل: إنّ الأنصارَ قالوا: لليَهودِ يومٌ يَجتمِعونَ فيه كُلَّ سبْعةِ أيّام، وللنَّصارىٰ مِثلُ ذلك؛ فهَلُمّوا نجعلْ لنا يومًا نَجتمعُ فيه فنَذكرُ اللهَ فيه ونُصلّي. ....

قولُه: (حتّى إذا كان عُثمان رضي الله عنه)، عن البُخَاريِّ والتِّرمِذيِّ وأبي دَاود وابن مَاجه[1] عن السَّائب بن يَزيد قال: كان النِّداءُ يوم الجُمُعة أوّله إذا جَلَس الإمامُ على المِنْبر على عَهْد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلمّا كان عُثْمان رضي الله عنهم، وكَثُر النَّاس، زاد النِّداء الثَّالث على الزَّوْرَاء[2].

قوله: (يقال لها: العَرُوبة)، النهاية: هو اسْمٌ قَديمٌ للجُمُعة[3]، وكأنّه ليس بعَربي، يُقال: يوم عَرُوبة، ويوم العَرُوبة، والأفْصَح أنْ لا يَدْخُلها الألف واللام.

---

(١) البخاريُّ (٩١٢)، والتِّرمذيُّ في «الجامع» (٥١٦)، وأبو داود في «السنن» (١٠٨٧)، وابن ماجه في «السنن» (١١٣٥)، والحديث في النسائي وهو أولى بالعزو إليه من ابن ماجه، وذكره ابن الأثير في «جامع الأصول» مُعتَمَدُ المصنف في التخريج

(٢) في رواية ابن ماجه: زاد النِّداء الثّالث على دارٍ في السُّوق، يقال لها: الزَّوْراء.

(٣) في (ف): «لحديث أخرجه مسلم»، والظاهر أن هذه اللفظة مقحمة، فهي ليست في «النهاية»، وليس في مُسلم حديث بهذا المعنى.

فقالوا: يومُ السَّبتِ لليَهود، ويومُ الأحَدِ للنّصارىٰ، فاجْعَلوا يومَ العَروبةِ، فاجتَمَعوا إلىٰ سعدِ بنِ زُرارةَ فصَلّىٰ بهم يومَئذٍ رَكعتَينِ وذكَّرَهم، فسَمَّوه يومَ الجُمُعةِ لاجتماعِهم فيه، فأنزَلَ اللهُ آيةَ الجمُعةِ، فهِيَ أوّلُ جمعةٍ كانتْ في الإسلام.

وأمّا أوّلُ جمُعةٍ جمَعها رسولُ الله ﷺ، فهي: أنهُ لـمّا قدِمَ المدينةَ مُهاجِرًا نَزلَ قُباءَ علىٰ بني عَمرِو بنِ عَوفٍ، وأقامَ بها يومَ الاثنين والثُّلاثاءِ والأربعاءِ والخميسِ، وأسَّسَ مسجِدَهم، ثمَّ خرَجَ يومَ الجمُعةِ عامِدًا المدينةَ فأدرَكَتْهُ صلاةُ الجمُعةِ في بني سالمِ بنِ عَوفٍ في بَطنِ وادٍ لهُم، فخَطبَ وصَلّىٰ الجمُعة.

وعن بعضِهم: **قد أبطَلَ اللهُ قولَ اليَهودِ في ثلاث**: افتخَروا بأنّهم أولياءُ الله وأحِبّاؤه، فكذَّبهم في قولِه: ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]، وبأنّهم أهلُ الكتابِ والعربُ لا كتابَ لهم، فشَبَّهَهُم بالحِمارِ يَحمِلُ أسفارًا؛ وبالسَّبتِ وأنهُ ليسَ للمُسلِمينَ مِثلُه فشرَعَ اللهُ لهم الجمعة.

قولُه: (**قد أبطَل الله تَعالى قَولَ اليَهود في ثَلاث**)، إلى قوله: (**فَشَرع الله لهم الجُمُعة**)، فعلى هذا يكون في قولِه: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ تَعْريضاً باليَهود وأنّهم ما وُفِّقُوا لما سَعِد به المُؤمنون كما وَرَد في الحديث: «هذا يومُهُم الذي فُرِض عليهم» ـ يعني: يوم الجُمُعة ـ «فاخْتَلَفوا فيه، فهَدانا الله له، فالنَّاس لنا فيه تَبَعٌ؛ اليهودُ غداً، والنَّصارى بعد غدٍ»، رواه البُخاري ومُسْلم عن أبي هُرَيرة[1].

ومِن ثَمّ جُعِلت الصِّلَة التي هي ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ عِلّة للسَّعي إلى ذِكر الله، كما جُعِلت الصِّلة في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ لأهل الكِتاب مُقرِّراً للتَّمثيل في قولِه: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ وكذا الصِّلة في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ عَدَل فيها من لَفْظ اليهود إلى

---

(١) البُخاري في «صحيحه» (٨٧٦)، ومسلم في «الصحيح» (٨٥٥).

وعن النَّبيِّ ﷺ: «خيرُ يوم طلَعت فيه الشَّمسُ يومُ الجمُعة، فيهِ خُلِقَ آدمُ، وفيهِ أُدخِلَ الجنَّةَ، وفيه أُهبِطَ إلىٰ الأرضِ، وفيه تَقومُ السَّاعةُ، وهو عِندَ الله يومُ المزيد».

وعنه عليه السَّلامُ: «أتاني جبريلُ وفي كفِّهِ مِرآةٌ بيضاءُ وقال: هذه الجُمُعةُ يَعرِضُها علَيكَ ربُّكَ لِتكونَ لكَ عِيدًا ولأُمَّتِك من بَعدِك، وهو سَيِّدُ الأيّامِ عندَنا، ونَحنُ نَدعوهُ إلىٰ الآخِرةِ يومَ المَزيد».

وعنهُ ﷺ: «إنّ لله تعالىٰ في كُلِّ جُمُعةٍ ستَّ مئةِ ألفِ عَتيقٍ منَ النّار». وعن كَعبٍ: إنّ اللهَ فضّلَ من البُلدان مكّةَ، ومن الشُّهورِ رمَضان، ومن الأيّامِ الجُمُعة، ....

المَوصُول والصِّلة، لِيكُون ذَرِيعةً إلى التعرض بدَعواهم الكاذِبة، حيث سَمَّوا أَنفُسَهم يهوداً، وهو من هَاد، أي: رَجَع إلى الله تعالى وتاب، وإلى تَقْرير معنى قوله: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ كأنَّه قيل: يا أيُّها الّذين ادّعوا أنَّهم رجعُوا إلى الله وتابوا إليه، إنْ زَعَمْتم أنَّكم أولياء الله، لأنَّ التَّائِب إلى الله وليُّ الله، فتَمنَّوا لِقَاء الله، فإنَّ الحَبِيب لا يَكْره لِقاءَ حَبِيبه، ولِقاء الله: المَوت، على ما ورد في الحديث[١]، ففِي كُلٍّ من الأحَاديث الثّلاثة تَعْرِيضٌ في غَاية اللُّطف والدِّقَّة[٢].

قولُه: (خَيْر يَومٍ طَلَعتْ فيهِ الشَّمْس يَومُ الجُمُعة)، الحديث أَخْرجَه مُسلمٌ والتِّرْمِذي وابن مَاجَه والنَّسائي عن أبي هُرَيرة، وليس في آخره: وهو عند الله يوم المزيد[٣].

---

(١) يشير بذلك إلى الحديث الصحيح: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، أنَّ النبي ﷺ قال: «من أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كَرِهَ لقاءَ الله كَرِهَ الله لِقاءه» فقالت عائشة أو بعض أزْواجِهِ: إنَّا لنكرهُ الموتَ، قال: «ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حَضَرَهُ الموتُ بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحبَّ إليه مما أمامه، فأحبَّ لقاءَ الله، فأحبَّ الله لِقاءه، وإن الكافر إذا حُضر بُشِّر بعذاب الله وعُقُوبته، فليس شيء أكْرَهَ إليه مما أمامه، كَرِهَ لِقاءَ الله، وكَرِهَ الله لقاءه»

(٢) من قوله: «قوله: قد أبطل» إلى هنا ساقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

(٣) مسلم (٨٥٤)، والترمذي (٤٨٨)، وقال: حسن صحيح، والنسائي في «السنن» (١٣٦٣)، ولم أجده عند ابن ماجه ولكن رواه أيضاً أبو داود في «السنن» (١٠٤٦)، وهو أولى بالعزو إليه من ابن ماجه.

وقالَ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**مَن ماتَ يومَ الجمُعةِ كتبَ اللهُ له أجرَ شهيد، ووُقِيَ فتنةَ القبر**»، وفي الحديث: «**إذا كانَ يومُ الجمُعةِ قعَدت الملائكةُ علىٰ أبوابِ المَسْجِدِ**؛ بأيديهم صُحفٌ من فِضّةٍ وأقلامٌ من ذَهَب، يَكتبُون الأوّلَ فالأوّل علىٰ مَراتِبِهم»، وكانت الطُّرُقاتُ في أيّامِ السَّلَفِ وقتَ السَّحَرِ وبعدَ الفَجْرِ مُغتصَّةً بالمُبكِّرينَ إلىٰ الجمُعةِ يَمشونَ بالسُّرُجِ. وقيل: أوّلُ بِدعةٍ أُحدِثَت في الإسلامِ: تَركُ البُكورِ إلىٰ الجُمُعة. وعن ابنِ مَسْعودٍ: أنهُ بَكَّرَ فرَأىٰ ثلاثةَ نَفَرٍ سَبقوهُ، فاغْتَمَّ وأخَذَ يُعاتِبُ نفْسَه يَقول: أراكَ رابعَ أربعةٍ، وما رابعُ أربعةٍ بسَعيد!!.

ولا تُقامُ الجمُعةُ عندَ أبي حَنيفةَ رضيَ اللهُ عنهُ إلّا في مِصرٍ جامِعٍ، لقولِه عليهِ السَّلامُ: «**لا جُمعةَ ولا تَشريقَ ولا فِطْرَ ولا أضْحىٰ إلّا في مِصْرٍ جامِعٍ**»، ....

قولُه: (**مَن مَات يَومَ الجُمُعة**)، الحديث من رواية أحمد بن حَنْبل[1] عن عبد الله بن عَمْرو ابن العَاص قال: قال رسُول الله ﷺ: «مَنْ مَات يَوم الجُمُعة أو لَيْلة الجُمُعة وُقِي فِتْنَة القَبْر».

قولُه: (**إذَا كَان يَوم الجُمُعة قَعَدت الملائِكَةُ**)، رُوِّينا عن الإمام أحمد بن حَنْبل عن أبي سعيد وأبي هُريرة عن رسول الله ﷺ: «إذا كان يَوْمُ الْجُمُعَةِ قَعَدَت الملائِكَةُ على أَبوَابِ الْمَسْجِدِ يَكْتُبُونَ مَنْ جاء مِن النَّاسِ على منازِلِهم؛ فرَجُلٌ قَدَّمَ جَزُورًا، ورَجُلٌ قَدَّم بقرَةً، ورَجُلٌ قدَّمَ شَاةً، ورَجُلٌ قدَّمَ دجاجَةً، ورَجُلٌ قدَّمَ عُصْفُورًا، ورَجُلٌ قدَّم بَيْضَةً، فإذا أَذَّنَ المؤذِّنُ وجلس الإمامُ علَى المنبَرِ طَوَوا الصُّحُفَ ودخَلُوا المسجِد يستَمِعُونَ الذِّكر»[2].

قولُه: (**لا جُمُعَـة ولا تَشْرِيق**)، وفي «الهداية» التَّشْريق: التَّكْبير، كذا نُـقِل عن خليل بن

---

(١) أحمد في «المسند» (١١: ٢٢٦) رقم (٦٦٤٦) طبعة الرسالة، والحديث ضعيف، وهو عند الترمذي في «الجامع» (١٠٤٧) بلفظ: «ما من مسلم».

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٢: ٤٨٨) رقم (٧٥١٩) وصحح الأرناؤوط إسناده، وهو عند النَّسائي (٣: ٩٧-٩٨) رقم (١٣٨٥).

والمِصْرُ الجامِع: ما أُقيمَت فيه الحُدودُ ونُفِّذَتْ فيه الأحكام، ومن شُروطِها: الإمامُ أو مَن يَقومُ مقامَه، لقولِه عليهِ السَّلام: «فمَن ترَكَها ولهُ إمامٌ عادِلٌ أو جائرٌ» الحديث، وقولِه ﷺ: «أربَعٌ إلىٰ الوُلاة: الفَيءُ، والصَّدَقاتُ، والحُدودُ، والجُمُعات». فإنْ أَمَّ رَجلٌ بغَيرِ إذْنِ الإمامِ أو مَن ولّاهُ من قاضٍ أو صاحبِ شُرطة لَم يَجُز؛ فإنْ لم يَكُن الاستئذانُ فاجْتمَعوا علىٰ واحدٍ فصَلّىٰ بهم جاز، وهي تَنعقِدُ بثلاثةٍ سوىٰ الإمام، وعِندَ الشافِعيِّ بأربَعين، ولا جُمُعةَ علىٰ المُسافِرينَ والعَبيدِ والنِّساءِ والمَرضىٰ والزَّمْنىٰ، ولا علىٰ الأعْمىٰ عندَ أبي حَنيفةَ، ولا علىٰ الشَّيخِ الذي لا يَمشي إلّا بقائِد.

وقرأَ عُمرُ وابنُ عبّاسٍ وابنُ مَسعودٍ وغيرُهم: (فامْضُوا). وعن عُمرَ رضيَ اللهُ عنه أنهُ سَمعَ رجُلًا يَقرأُ: ﴿فَٱسْعَوْا﴾، فقال: مَن أقرأَكَ هذا؟ قال أُبَيُّ بنُ كَعب، ....

أحمد، وفيها: وهو عُقَيب الصَّلوات المَفْروضَات على المُقِيمين في الأمْصَار في الجَمَاعات المُسْتَحبَّة عند أبي حَنيفَة رضي الله عنه[1].

قولُه: (فَامْضُوا)، روى الإمامُ مَالك[2]: فقال ابن شِهاب: كان عُمر رضي الله عنه يَقْرأ: «فَامْضُوا»، وليس فيه قَول أُبي بن كَعْب: لا يَزال يَقْرأ، إلى آخِره[3].

---

(١) «الهداية في شرح بداية المبتدي» للمرغيناني: (١: ٨٦). أما عن نسبة هذا القول للخليل فلم أجده، بل جاء في «العين» له (٥: ٣٨): واشتِقاقُ أيام التَّشريقِ من تشريقهم اللحم في الشمس بمنى. ويقال: أُخذ من شُروق الشمس وذلك وقت صلاته. ونسب ابن عابدين في حاشيته هذا القول للخليل وللنضر بن شميل، وبالنسبة لصحة هذا النقل عن النضر فقد ذكر المرزوقي في «الأزمنة والأمكنة» ص١٦٨ أنه قال: هو من قولهم: أَشْرِقْ ثبيرُ: أي لتطلُع الشَّمس!

(٢) «الموطأ» للإمام مالك: (١: ١٠٦) رقم (٢٣٩).

(٣) هذه الزيادة ذكرها السيوطي في «الدر المنثور» (٨: ١٦١) وعزاها لأبي عُبيد في «فضائله»، وسعيد بن منصور، وابن أبي شَيْبة وابن المُنْذر، وابن الأنباري في «المصاحف»، وعزاها في «جمع الجوامع» لعبد بن حميد في «مسنده».

فقال: لا يَزال يَقرأُ بالمَنْسوخ! لو كانتْ ﴿فَٱسْعَوْاْ﴾ لسَعيتُ حتّىٰ يسقُطَ رِدائي.

وقيل: المُرادُ بالسَّعي القَصدُ دونَ العَدْوِ، والسَّعيُ: التَّصرُّفُ في كُلِّ عَمَل. ومنهُ قولُه تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]. وعن الحَسَن: ليسَ السَّعيُ علىٰ الأقدام، ولكنّه علىٰ النِّيّاتِ والقُلوب.

وذكَرَ مُحَمَّدُ بنُ الحسَنِ رحمَه اللهُ في «مُوطَّئِه»: أنَّ ابنَ عُمرَ سَمِعَ الإقامةَ وهو بالبَقيعِ فأسْرعَ المشي. قالَ مُحَمَّدٌ: وهذا لا بأسَ به ما لمْ يُجهِد نفسَه. ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ الخُطبةِ والصَّلاة، ولتَسميةِ الله الخُطبةَ ذِكْرًا له، قال أبو حَنيفةَ رحمَه الله: **إن اقتَصَرَ الخَطيبُ علىٰ مِقدارٍ يُسَمّىٰ ذِكرًا لله كقَولِه: الحَمدُ لله، سُبحانَ الله، جاز. وعَن عُثمانَ أنهُ صَعِدَ المِنبرَ فقال: الحَمدُ لله. وأُرتِجَ علَيه**، فقالَ: إنَّ أبا بَكرٍ وعُمرَ كانا يُعِدّانِ لهذا المَقامِ مَقالًا، وإنّكم إلىٰ إمامٍ فَعّالٍ أحوجُ مِنكُم إلىٰ إمامٍ قَوّال، وستأتيكُم الخُطَبُ، ثُمَّ نَزَل، وكانَ ذلك بحَضرةِ الصَّحابَةِ ولمْ يُنكِر عليهِ أحَد. وعِندَ صاحِبَيه والشّافِعيّ: لا بُدَّ مِن كلامٍ يُسمّىٰ خُطبة.

قال ابن جِنّي: هذه القِراءَة تَفْسيرٌ لِقَراءة العامَّة ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: فَاقْصِدوا وتَوجَّهُوا، وليس فيه دَليلٌ على الإسْرَاع[1].

قولُه: (**إن اقْتَصر الخَطيب على مِقْدارٍ يُسَمّى ذِكْراً لله كَقولِه: الحَمْدُ لله، سُبْحان الله، جَازَ**)، **الانتصاف**: لا دَليل فيه؛ لأنَّ العرب تُسمِّي الشَّيء باسم بَعضِه، كما سُمِّيَت الصَّلاة قُرآناً ورُكُوعاً وسُجُوداً، والمُسمَّى خُطبةً عند العَرب يزيد على القَدْر الَّذي اقْتَصر عليه الإمام أبو حَنيفة[2].

قولُه: (**وعن عُثمان أنَّه صَعِد المِنبر فقال: الحمدُ لله وأُرْتِجَ عليه**)، **الانتصاف**: هذا سَهْوٌ

---

(١) «المحتسب» (٢: ٣٢٢).

(٢) «الانتصاف» (٤: ٥٣٥) بحاشية «الكشاف». أما عن قول أبي حنيفة، فقد قال ابن المنذر في «الأوسط» (٤: ٦٢): فأمّا ما قال النُّعمانُ فلا معنى له، ولا أَعلمُ أحدًا سبقَهُ إليهِ، وغيرُ معرُوفٍ عندَ أهلِ المعرفةِ باللُّغَةِ بأنْ يُقال لمن قال: سُبْحَان الله: قد خَطَبَ!

فإنْ قُلتَ: كيفَ يُفسَّرُ ذِكرُ الله بالخُطبةِ وفيها ذِكرُ غَيرِ الله؟

قلتُ: ما كانَ من ذِكْرِ رَسولِ الله ﷺ والثّناءِ علَيه وعلىٰ خُلَفائِه الرّاشِدين وأتْقياءِ المُؤمنين، والمَوعِظةِ والتّذكيرِ فهُوَ في حُكمِ ذِكرِ الله، فأمّا ما عَدا ذلكَ مِن **ذِكرِ الظَّلَمةِ وألقابِهم** والثَّناءِ علَيهِم والدُّعاءِ لهم، وهُم أحِقّاءُ بعَكسِ ذلك، فمِن ذِكرِ الشَّيطانِ، وهُو من ذِكرِ الله علىٰ مَراحلَ.

وإذا قالَ المُنصِتُ للخُطبةِ لصاحِبِه: «صَه» فقَد لَغا، أفَلا يكونُ الخَطيبُ الغالي في ذلك لاغيًا؟! نَعوذُ باللهِ من غُربةِ الإسلامِ ونكَدِ الأيّام.

أرادَ الأمرَ بتركِ ما يُذْهِلُ عن ذِكرِ الله مِن شَواغِلِ الدُّنيا، ....

بلا شَكّ، فذلِك لم يَكُن في خُطْبة الجُمُعة، وعادَةُ العربِ الخُطَب في المُهِمّات[١].

الجوهري: أُرْتِجَ على القَارِئ، على مَا لـم يُسمَّ فَاعِلُه: إذا لم يَقْدر على القِراءة، كأنّه أُطْبِق عليه، كما يُرْتَج الباب، أي: يُغْلَق.

قولُه: (**مِنْ ذِكْرِ الظَّـلَمة وألقَابِهم**)، **الانتصاف**: الدُّعاء للسُّلْطَان الواجِب الطَّاعَة مَشْروعٌ بِكُلِّ حَالٍ، فقِيل لبعض السَّلَف: تَدْعُو لِسُلْطانٍ ظَالِمٍ؟ قال: إنَّ ما يَدْفع الله بِبقائِه أعْظَمُ ممّا يَدْفَع بِزوَالِه، لا سِيَما إذا ضَمَّن الدُّعَاء صَلاحَه وسَدادَه[٢].

الإنصاف: الّذي قالَه الزَّمَخْشَرِيُّ هو الّذي قَالَه صاحِب «الشامل» عن مذهب الشَّافِعي، وهو الأَلْيَق والأشْبه بِسيرة الخُلَفاء الرَّاشِدين، فلا اعتبار بالعذر عما يتورط في أمثاله.

قولُه: (**إذا قال المُنْصِتُ للخُطْبَة لِصَاحِبِه: صَهْ، فَقَد لَغَا**)، عن أبي هُريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ

---

(١) «الانتصاف» (٤: ٥٣٥)، وفيه: «وإنما كان ذلك في ابتداء خلافته وصعوده المنبر للبيعة، وكانت عادة العرب الخطب في المهمات». فإن كان تصرفاً من المصنِّف فقد بتر المعنى، وإن كان من النُّساخ فإنا لله.

(٢) «الانتصاف» (٤: ٥٣٥).

وإنّما خُصَّ البيعُ من بينِها لأنَّ يومَ الجمُعة يومٌ يَهبِطُ النّاسُ فيه من قُراهم وبَواديهم، ويَنصَبّون إلىٰ المِصرِ من كُلِّ أَوْبٍ، ووَقتُ هُبوطِهم واجتماعِهم واغتصاصِ الأسواقِ بِهم إذا انتفخَ النّهارَ وتَعالىٰ الضُّحىٰ ودَنا وقتُ الظَّهيرةِ، وحينَئذٍ تَحِرُّ التِّجارةُ ويَتكاثرُ البَيعُ والشِّراءُ، فلمّا كانَ ذلكَ الوقتُ مَظنّةَ الذُّهولِ بالبيعِ عن ذِكرِ الله والمُضِيِّ إلىٰ المَسجدِ، قيل لهم: بادِروا تجارةَ الآخِرةِ، واتْرُكوا تجارةَ الدُّنيا، واسعَوْا إلىٰ ذِكرِ الله الذي لا شَيءَ أنفعُ منهُ وأربَحُ، ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ الذي نَفعُه يَسيرٌ ورِبحُه مُقارِب.

فإنْ قُلتَ: فإذا كانَ البَيعُ في هذا الوقتِ مَأمُورًا بتَركِه محَـرَّمًا، فهَل هُو فاسِد؟

قلتُ: عامّةُ العُلماءِ علىٰ أنّ ذلك لا يُوجِبُ فسادَ البَيع. قالوا: ....

قال: «إذَا قُلْت لِصَاحِبِك يَومَ الجُمُعَة: أَنْصِت، والإمام يَخْطُب، فقَد لَغَوْت»[1]، ولَفْظُ التِّرْمِذيِّ: «مَنْ قال يَوم الجُمُعة والإمَامُ يَخْطُب فَقَد لَغَا»[2].

قولُه: (انْتَفَخ النَّهار)، الأساس: ومن المَجاز، انْتَفَخَ النَّهارُ: عَلا.

قولُه: (تَحِرُّ التِّجارة)، في نسخة: «تَحَرّ» بفتح التّاء والحاء المُهْملة، وفي أُخرى: بكسر الحَاء، وهو شِدّة إقامة السُّوقِ؛ من الحَرَارة، في حديث عليٍّ لِفاطمة رضي الله عنها: لو أتَيْتِ النبي ﷺ فسَألْتِه خادماً يَقيكِ حَرَّ ما كُنْتِ فيه من العَمَل[3]. يعني: التَّعَب والمَشقَّة من خِدمة البَيْت، لأنَّ الحَرارَةَ مَقْرُونَة بها، كما أَنَّ البُرُودَة مَقْرونَة بالرَّاحة والسُّكُون.

قولُه: (وَرِبْحُه مُقَارِبٌ)، الجَوْهري: قَارَبْته في البَيْع مُقَارَبةً، وَشَيْءٌ مُقَارِب بكسر الرَّاء، أي: وَسَطًا بين الجَيِّد والرَّدِيء، وكَذلِك إذا كان رَخِيْصاً.

(١) رواه البخاري (٨٩٢)، ومسلم (٨٥١).

(٢) الترمذي في «الجامع» (٥١٢).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٢: ٤٣٥) رقم (١٣١٣) طبعة الرسالة.

لأنّ البيعَ لم يُحرَّم لعَينِه، ولكن لِـما فيه من الذُّهولِ عن الواجِب، **فهُو كالصَّلاةِ في الأرضِ المغصُوبةِ** والثَّوبِ المَغصوبِ، والوُضوءِ بماءٍ مَغصوبٍ، **وعن بَعضِ النّاس أنهُ فاسِد.** ثُمّ أطلقَ لهم ما حَظَرَ عليهِم بعدَ قَضاءِ الصَّلاةِ من الانتِشارِ وابتِغاءِ الرِّبحِ؛ معَ التَّوصِيةِ بإكثارِ الذِّكرِ وأنْ لا يُلهيَهم شيءٌ من تِجارةٍ ولا غيرِها عنه، وأنْ تكونَ هِمَمُهم في جَميعِ أحوالِهم وأوقاتِهم مُوكلةً به لا يَنفَضّونَ عنه، لأنّ فَلاحَهم فيه وفوزَهم منوطٌ به. وعن ابنِ عباس: لم يُؤمَروا بطَلَبِ شيءٍ من الدُّنيا، ....

قولُه: (**فَهو كالصَّلاةِ في الأرْضِ المَغْصُوبة**)، أي: يكونُ البَيْع مُحَرَّماً، لكن غَير فَاسِدٍ، كما أنَّ الصَّلاة في الأرْضِ المَغْصُوبة مُسْقِطَةٌ للقَضَاء، لكنَّ إيْقَاعَها فِيها حَرامٌ يستَحِقّ به العِقَاب.

قال الشَيْخ مُحيي الدِّين النَّوَاوي في «شرح صحيح مسلم» في قولِه ﷺ: «مَن أَتى عَرَّافاً فَسَأَلَه عَن شَيءٍ لَن تُقْبَل له صَلاةٌ أرْبعين لَيْلَةً»: مَعْنى عَدَم قَبُول الصَّلاة: أنَّه لا ثَوابَ له فيها، وإنْ كانت مُجْزِئَةً في سُقُوط الفَرْض عنه، ولا حَاجَة معها إلى إعَادَة، ونَظِير هذا: الصَّلاة في الأرْض المَغْصُوبَة، مُجْزِئَة مُسْقِطةٌ للقَضَاء ولكن لا ثَوابَ فِيها، كذا قاله جُمْهور أصْحَابنا، قالوا: صَلاةُ الفَرْض وغَيْرُها من الوَاجِبات إذا أُتِي بها على وَجْهِها الكَامِل تَرتَّب عليها شَيْئان؛ سُقُوطُ الفَرْض عنه، وحُصُول الثَّواب، فإذا أدَّاها في أرْضٍ مَغْصُوبَةٍ حَصَل الأوَّلُ دُون الثّاني، ولا بُدّ من هذا التَّأويل في هذا الحَديث، فإنَّ العُلماء مُتَّفِقُون على أنّه لا يَلْزَم من أتى العَرَّافَ إعَادةُ صلاة أرْبَعين لَيْلَةً[1].

العَرَّاف: هو الذي يَسْتَدِلُّ على الأمُور بأسْبَابٍ ومُقَدِّماتٍ يَدَّعِي مَعْرفتها بها، وقال الخَطّابي: العَرَّاف: هو الّذي يَتَعاطى مَعْرفة مَكان المَسْروق ومَكان الضَّالَّة وغَيْرهما[2].

قولُه: (**وعَن بَعْض النَّاس: أنّه فَاسِد**)، قال مُحيي السُّنَّة في «المعالم»: إنما يحرم البيع والشراء

---

(١) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٤: ٢٢٧).

(٢) «شرح صحيح مسلم» للنووي (٥: ٢٢)، وانظر: «معالم السنن» للخطابي (٣: ١٠٥).

إنّما هُو عِيادةُ المَرضىٰ وحُضورُ الجَنائزِ وزِيارةُ أخٍ في الله. وعَن الحسَنِ وسَعيدِ بنِ المسَيِّب: طلَبُ العِلم، وقيل: صلاةُ التَطوُّع. وعن بَعضِ السَّلَف أنهُ كانَ يَشغَلُ نفْسَه بعدَ الجمُعةِ بشَيءٍ من أمُورِ الدُّنيا نَظَرًا في هذه الآية.

[﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ١١]

رُوي أنّ أهلَ المَدينةِ **أصابَهم جوعٌ وغَلاءٌ شَديد**، فقَدِمَ دِحيةُ بنُ خَليفةَ بتِجارةٍ من زَيتِ الشام، والنَّبيُّ ﷺ يَخطُبُ يومَ الجمُعة؛ فقامُوا إليه، خَشُوا أنْ يُسبقَوا إليه، فما بَقِيَ معَهُ إلّا يَسير. قيل: ثمانيةٌ، وأحَدَ عشر، واثنا عشر، وأربعون، فقالَ عليه السّلامُ: «والذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لو خَرَجوا جَميعًا لأَضرَمَ اللهُ علَيهم الوَادي نارًا»، وكانُوا إذا أَقبلت العِيرُ استَقبَلوها بالطَّبلِ والتَّصفيق، فهو المُرادُ باللَّهو. وعَن قَتادةَ: فَعلُوا ذلك ثلاثَ مَرّاتٍ في كُلِّ مَقدَمِ عِير.

فإنْ قُلتَ: فإن اتّفقَ تَفرُّقُ النّاسِ عن الإمامِ في صَلاةِ الجمُعةِ كيفَ يَصنع؟

عند الأذان[1]. وفي «شرح السُّنّة» عن ابن عبّاس: ﴿إِذَا نُودِيَ﴾ يحرم البَيْع حِينَئذٍ، وقال عَطاء: يحرم الصناعاتِ كلها[2].

قولُه: (**أَصابَهم جُوعٌ وغَلاءٌ شَديد**)، الحديث من رواية البُخَاريِّ ومُسْلِمٍ والتِّرْمذيِّ عن جَابر: بينا نحن نُصلِّي مع النَّبي ﷺ إذ أَقْبَلت عِيْرٌ تَحْمِل طَعَاماً، فَالتَفَتُوا إليها، حتّى ما بَقِي مع النَّبيِّ ﷺ إلا اثْنا عَشَر رَجُلاً، فَنَزلت[3].

(١) «معالم التنزيل» للبغوي (٥: ٨٥) وفيه: الأذان الثاني وهو أوضح وأكمل.

(٢) «شرح السنة» للبغوي (٤: ٢١٧). وقد تصرف الطيبي في عبارة البغوي.

(٣) البخاري (٩٣٦)، و(٢٠٥٨) ومسلم (٨٦٣)، والتِّرْمذي (٣٣١١).

قلتُ: إنْ بَقِيَ وحدَه أو معَ أقَلَّ من ثَلاثةٍ، فعِندَ أبي حَنيفة: يَستأنفُ الظّهرَ إذا نَفَروا عنهُ قَبلَ الرُّكوع، وعَندَ صاحِبَيه: إذا كبَّر وهُم معَه مَضىٰ فيها، وعند زُفَر: إذا نفروا قبلَ التَّشهُّد بَطَلَتْ.

فإنْ قُلتَ: كيفَ قالَ: ﴿إِلَيۡهَا﴾ وقَد ذَكرَ شَيئَين؟

قلتُ: تقديرُه: إذا رأَوْا تِجارةً انفَضّوا إليها، أوْ لَهْوًا انفَضّوا إليه؛ فحَذفَ أحدَهما لدَلالةِ المَذكورِ عليه، وكذلك قراءةُ مَن قرَأ: (انْفَضّوا إليه). وقراءةُ مَن قرَأَ: (لَهْوًا أو تِجارةً انفَضّوا إليها) وقُرِئَ: (إليْهما).

قولُه: (كَيف قَال: ﴿إِلَيۡهَا﴾ وقَد ذَكر شَيئين؟)، الرَّاغب: أُعِيدَ الضَّمِير إلى التِّجَارة دُون اللهو لـمّا كانت سبب انْفِضاضِ الّذين نَزلت الآيةُ فيهم، ولأنّه قد تَشغَل التِّجارة عن العِبادة من لا يَشْغلُه اللهو، وعلى ذلك قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] لـمّا كان حَبْس الفِضَّة عن النَّاس أعْظَم ضَرراً إذ كانت الحاجة إليها أمَسّ، ومَنْعها للمَضَرَّة أجْلَب.

وعلى ذلك أيضاً قولُه تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] خَصَّها بردِّ الضَّمير، لأنّها أرْفَع مَنْزِلةً من الصَّبر، لأنّها تجمع ضروباً من الصبر، إذ هي حَبْس الحَواسّ على العِبَادَة، وحَبْس الخَواطِر والأفكار على الطَّاعة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥][1].

وقلت: ويمكن أن يقال: إنّ «أو» في ﴿أَوۡ لَهۡوًا﴾ مثلها في قول الشاعر:

بَدَت مِثل قَرْنِ الشَّمس في رَوْنق الضُّحى ... وصُـورتُها أو أنـتِ في العـينِ أملـحُ[2]

---

(١) انظر: «تفسير الراغب» (١: ١٧٧-١٧٨)، عند تفسير: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ في سورة البقرة.

(٢) البيت لذي الرُّمَّة، انظر: «ديوانه» ص ٤٩ وهو من مُلحقات «ديوانه».

عَن رَسولِ الله ﷺ: «مَن قرأَ سُورةَ الجمُعةِ أُعطِيَ منَ الأجْرِ عَشرَ حسَناتٍ بعَددِ مَن أتىٰ الجمُعةَ وبعَددِ مَن لم يأتِها في أمْصارِ المُسلِمين».

وقال الجَوْهَري: يُريد: بل أنت، فالضَّمير في ﴿إِلَيْهَا﴾راجع إلى اللهو باعتبار المعنى، والسِّر فيه: أن التجارة إذا شغلت المكلّف عن ذكر الله عُدَّت لهواً، وتُعدُّ فضلاً إن لم تشغله، كما في قوله: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾.

ثُمَّ أرشَدَهُم بَعْد التَّوبيخ والتَّعيير إلى تحرِّي الأصوب، وتَوخِّي المَنْهَج الأقْوَم على سَبيل العُموم، قائلاً: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾، وقدَّم ما كان مؤخَّراً وكـرَّر الجارّة لإرَادَة الإطْلاق في كُلّ واحِدٍ واسْتِقْلالِه فيما قُصِد منه، التخالف السَّابق في اتِّحاد المَعْنى، لأنَّ ذلك في قصَّة مَخْصُوصة كما روينا عن الأئِمَّة[1].

تَـمَّت السُّورَة

بِحَمْدِ الله وعَوْنِه وحُسنِ تَوفِيقِه.

* * *

---

(١) من قوله: «ثم أرشدهم» إلى هنا ساقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

سورة المنافقون

إحدى عشرة آية، مدنيّة بلا خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

[﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ * ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ١-٣]

أرادُوا بقولِهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ شهادةً واطأَتْ فيها قلوبُهم ألسنتَهم. فقالَ اللهُ عَزَّ وجَلّ: قالوا ذلك ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أنَّ الأمرَ كما يَدُلُّ عليه قولُهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾،

سورة المنافقون

إحدى عشرة آية، مدنيّة بلا خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثِقَتي

قولُه: (أرادوا بقَولِهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾) إلىٰ قوله: «أو إنَّهم لَكَاذِبُون فيه».

وقوله: «أو أراد: الله يَشْهد»، فَسَّر ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ لإطْلاقِه واسْتِدعائِه، مُتَعلِّقاً على اتِّحَاد مبناه، على أنَّ مَرْجِع الخَبَر كَونُه صادقاً أو كَاذِباً إلى مُطابَقته الوَاقِع، أو إلى اعْتِقاد المُخْبِر، والتَّفْسير الأوّل والثّاني على الأوّل، والثّالث على الثّاني.

واللهُ يَشهَدُ إنّهُم لَكاذِبونَ في قَولِهِم: نَشهَدُ؛ وادّعائِهم فيه المواطَأة.

أو إنّهم لَكاذِبونَ فيه؛ لأنهُ إذا خَلا عن المُواطَأةِ لمْ يَكنْ شَهادةً في الحَقيقة؛ فهُم كاذِبونَ في تَسميَتِه شَهادة. أو أراد: واللهُ يَشهَدُ إنّهم لَكاذِبونَ عندَ أنْفُسِهم؛ لأنّهم كانوا يَعتَـقِدونَ أنّ قولَهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ كذِبٌ وخَبرٌ علىٰ خِلافِ ما علَيه حالُ المُخبَرِ عنه.

فإنْ قُلتَ: أيُّ فائدةٍ في قولِه تَعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾؟

وبيانه: أنَّ هذا التَّكذِيب إمَّا راجع إلى دَعْواهم، لا إلى كَون المُخاطَب شَاكّاً في كَونِهم كَاذِبين، أو مُنْكِراً، أي: أنَّهم ادَّعوا أنَّ قَولَهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ صَادِرٌ عن صَمِيمِ القَلْب، حيثُ صَدَّروا الجُملة بـ «إنَّ» وأدْخَلوا في الخَبَر اللّام، كأنَّهم قالوا: نَشْهد عن صَمِيم القَلْب إنَّك لَرَسُول الله، فلمّا لم يكن ذلك مُطَابِقاً لِلواقِع كذَّبَهم، يَدُلُّ عليه قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ أنَّ الأمر كما يَدلُّ عليه قَولُهم، أي: مُطَابِقًا لِلواقِع وإنْ لم يَعْتقِدوه. وإمّا إلى لفظ ﴿يَشۡهَدُ﴾ وإبْراز الدَّعْوى وتَخْصِيصها وتَسْميتها به، لأنَّ حَقِيقة الشَّهادَة: ما يَصْدر عن طُمَأْنينة قَلْبٍ وعلمٍ ثابتٍ، قال تعالى: ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١].

قال القاضي: الشَّهادة: إخبَارٌ عن عِلمٍ من الشُّهُود، وهو الحُضور والاطلاع[١].

الراغب: الشَّهادَة المُتَعارفة أَصْلُها الحُضُور بالقَلْب والتَّبيين، ثُمَّ يُقال ذلك إذا عُبِّر عنه باللِّسَان، ولِذلك متى أُطْلِق لَفظ الشَّهادة على ما يَظْهر من اللِّسَان دُون حُضوره في القَلْب عُدَّ كَذباً[٢]. وإمّا راجعٌ إلى مُطَابقة اعْتِقَادهم؛ فإنَّهم اعْتَقدوا أنَّ رسولَ الله ﷺ ليس برسولٍ، فاعتقدوا أنَّ ما قالوه على خِلاف ما عليه حالُ المُخْبَر عنه، فأخبر الله تعالى عن مُعْتَقدِهم، هذا هو الكلام النَّفسي. قال بعض أصْحَابُنا: وجه الاسْتِدلال بالآية أنّه تعالى شهِد بِكَذب المُنافِقين، ومَا كَذَبوا فيما نَطَقوا به وجَرى على ألسِنَتِهم من قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، فَدَلَّ على أنَّهم كَذَبوا فيما اشْتَملت عليه نُفُوسُهم، وتكَلَّمت به قُلُوبُهم، وقد سمّاه الله تعالى كَذِباً، والكَذِب لا يَكُون إلا في الكلام.

---

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ٣٤١).

(٢) «تفسير الراغب الأصفهاني» (١: ١١٧).

قلتُ: لَو قالَ: قالوا نَشهَدُ إنّكَ لَرسولُ الله واللهُ يَشهَدُ إنّهم لكاذِبون، **لَكانَ يُوهِمُ أنّ قولَهم هذا كَذِبٌ**؛ فوسَّطَ بينَهُما قولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ ليُميطَ هذا الإيهام.

وقال القاضي: الصِّدْق: الإخْبار المُطَابق، وقيل: مع اعْتِقاد المُخْبر أنَّه كذلك عن دَلالةٍ أو أمَارةٍ، لأنَّه تعالى كَذَّب المُنافقين في قولِهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ لمَّا لم يَعْتقِدوا مُطَابقَته. وَرُدَّ بِصَرْف التَّكْذِيب إلى قولِهم: ﴿نَشۡهَدُ﴾؛ لأنَّ الشَّهَادة إخْبارٌ عمّا عَلِمه، وهُم ما كانوا عَالِمِين به[1].

الرَّاغِب: الصِّدق يُحَدُّ بأنَّه مُطَابَقة الخَبَر المُخْبَر عَنْه، لكنَّ حَقِيقته وتَمامه أنْ يَتطابَق في ذلك ثلاثة أشياء؛ وُجود المُخْبَر عنه على ما أُخْبِر عنه، واعْتِقاد المُخبِر فيه ذلك عن دَلالةٍ وأمَارة، وحُصُول العِبَارة مطابقاً لهما، فمتى حصل ذلك وُصِف بالصِّدْق المُطْلق، ومتى ارْتَفع ثلاثتُها يُوصَف بالكَذب المُطْلَق، ومتى حصل اللفظ والمُخْبَر عنه والاعْتِقاد بخلافِه صحَّ أنْ يُوصَف بالكَذِب، ألا تَرى أنَّ الله تعالى كَذَّب المُنافِقين في إخبارهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ لمَّا كان اعْتقَادُهم غيرَ مُطابِق لقولِهم، وإذا قال لك من اعْتَقد كون زيدٍ في الدَّار: إنَّ زيداً في الدَّار، ولم يكن فيها، صَحّ أنْ يُقال: كذب، وإنْ كان قوله مطابقاً لاعْتِقاده. ولـمّا كان اللسان تُرْجُمان القَلْب صَحّ أنْ يُقال: صَدق في اعْتِقادِه أو كَذَب[2].

قلتُ: ولعلّ الظَّاهر أنَّ ذلك يَخْتلف باخْتِلاف الأحْوال، لأنَّ المَقام الاجْتِهادي يُخالِف غيرَه، لأنَّ المُجتَهد إذا اجْتَهد وأخْبَر على خِلاف الواقِع فلا يُقال: إنَّه كَذَب، بل أخطأ، قال في قولِه تعالى: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ في الكهف: «هذا جَوابٌ مبْنيٌّ على غَالب الظَّن، وفيه دليل جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب، وأنَّه لا يكون كَذِباً، وإنْ جَاز أن يكون خطأً»[3].

قولُه: (لَـكَان يُوهِم أنَّ قَولَهم هَذا كَذِبٌ) أي: قَولُهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وقَول الله

---

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (١: ٢٣٤).

(٢) «تفسير الراغب» (١: ١١٨)، «مفردات القرآن» ص٤٧٨.

(٣) انظر: «الكشاف» للزَّمَخْشَري (٩: ٤٣٠).

....

بعدَه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ في أنّـك لَرَسُول الله، يُوهِم أنَّ قولَـهم هذا كَذِبٌ، فوسط بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ صِيانَـةً لهذا الوَهْم. هذا نوع من التَّتميم لَطِيف المَسْلك، قال أبو الطَّيِّب(١):

وتَحْتَقِــر الــدُّنْيا احْتِقَــارَ مُجَـرِّبٍ يرى كُلَّ ما فِيها ـ وحَاشَـاكَ ـ فَانِيـا

«وحَاشَاك» تَـتْمِيمٌ، ومِنه أَخَذَ صَاحِبُ «المفتاح» حَيثُ قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ فَصْلٌ في البَيْن، ولو لَم يكن لأوهم ردّ التَّكْذِيب إلى نَفْس الشَّهادة(٢).

الانتِصاف: مضىٰ تنظيرُهُ بقوله عز وجل: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ [الحجرات: ١٤] ولم يقل: لا تقولوا آمنا(٣).

وقلت: ليس منه، لأنَّ ذلك من الألفَاظ التي تُبْدَل بِما هو أولى بِالذِّكْر مِنه، قال تَأَبَّطَ شَرّاً(٤):

يَظَـلُّ بِمَومَاةٍ ويُمْسِي بِغَيْرِها جَحِيْشاً ويَعْرَورِي ظُهُور المَهالِكِ

فإنَّ جَحِيْشًا: نَافِرٌ، وكان له مَنْدُوحة عنه بقوله: فَرِيداً، وما نحن بِصدَدِه من الإطْنَاب الذي يَكْتَسِي به الكَلام حُسْنًا وبَهْجةً ويستزيد به السَّامع هِزَّةً ونشاطاً(٥)، كما قال الآخر(٦):

---

(١) انظر: «شرح ديوان المتنبي» للواحدي (١: ٣١٢)

(٢) «مفتاح العلوم» للسكاكي ص٢٨٢.

(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٣٧٦)، وانظر الإحالة (٤: ٥٣٨).

(٤) «ديوان تأبط شراً» ص١٥٢.

(٥) من قوله: «الذي يكتسي» إلى هنا، سقط من (ح)، وأثبته من (ط) و(ف).

(٦) في «المثل السائر» لضياء الدين ابن الأثير (١: ١٦٨): فإن لفظة «جحيش» من الألفاظ المنكرة القبيحة، ويا لله العجب أليس أنها بمعنى فريد، و«فريد» لفظة حسنة رائقة ولو وضعت في هذا البيت موضع جحيش لما اختل شيء من وزنه، فتأبط شراً ملوم من وجهين في هذا الموضع أحدهما: أنه استعمل القبيح، والآخر: أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنها، وانتقد صاحب «المثل السائر» الصفدي في «نصرة الثائر».

﴿اتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ يجوزُ أنْ يُرادَ: أنّ قولَهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ يمينٌ من أيمانِهم الكاذبةِ؛ **لأنّ الشّهادةَ تَجري مَجرىٰ الحَلفِ** فيما يُرادُ به من التّوكيد، **يَقولُ الرَّجُل:** أشْهَدُ، وأشْهَدُ بالله، وأَعْزِمُ، وأَعْزِمُ بالله في مَوضعِ أُقسِمُ **وأُولي. وبه استشهدَ أبو حَنيفةَ رحمَه اللهُ علىٰ أنَّ «أشهَدُ» يَمين.**

فَسَقَى دِيَـارَكِ ـ غَـيْرَ مُفْـسِدِها ـ صَوْبُ السَّحَاب ودِيْمةٌ تَهْمِي(١)

قوله: «غَير مُفْسِدِها»، فَضْلةٌ وتَتْمِيم للصِّيَانة.

قولُه: (لأنَّ الشَّهادَة تَجْري مَجْرَى الحَلْف) وذَلك أنَّ الشَّهَادَة بعْد الدَّعْوى تَأكِيدٌ لاسْتِحْقاق المُدَّعِي لِـمَا ادَّعَاه، واليَمين كَذلِك، فشُبِّهت الشَّهَادَة باليَمِين لذلك الجَامِع، فأطْلِق اسمُها عَلَيْها: الشَّهَادة، وفي «المطلع»: يُقال: أشْهَد لا أفْعَل كذا، كما يُقال: أحْلِف لا أفْعَل كذا.

وقَولُه: يقول الرَّجل: أَشْهد وأشْهَد بالله، وأعْزِم وأعْزِم بالله، مَعْناه: يقال كلاهُما مَقْرُوناً بالله ومُجَرّداً عن قولِه: «بالله».

قولُه: (وأُولي)، الجَوْهري: آلى [يُؤْلي] إيْلاءً: حَلَف وتَألَّى، مِثلُهُ(٢).

قولُه: (وبه اسْتَشْهد أبو حَنيفة رحمه الله علىٰ أنَّ «أشْهَد» يَمِينٌ)، الانتصاف: لا دَليل فيه، لأنَّه غاية ما في الآية أنَّه سُمِّي يَمِيناً، والكَلام في وُجُوب الكَفارة بِذلِك لا في إطْلاق الاسم، وكلُّ ما يُسمَّى يَمِيناً تَجِب به الكَفَّارة، فلو قال: أحْلِف على كذا، فلا تَجِب عليه الكَفَّارة(٣)، وإنْ كان حَلْفاً(٤).

---

(١) البيت لطرفة بن العبد، انظر: «ديوانه» ص٧٩.

(٢) هذا الفرع جاء متأخراً في (ف) قبل قوله: ولـهم جهارة المناظر! كما جاء متأخراً في (ح) قبل فقرة «قوله: ويجوز أن يكون وصفاً للمنافقين»، وأثبته هنا من (ط).

(٣) من قوله: «بذلك لا..» إلى هنا ساقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

(٤) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٥٣٩).

ويَجوزُ أَنْ يَكونَ وَصفًا للمُنافِقينَ في استِجْنانِهِم بالأَيْمان.

وقرَأَ الحسَنُ البَصريُّ: (إيمانِهِم)، أي: ما أظهَروهُ من الإيمانِ بألسِنَتِهِم. ويعضُدُه قولُه تَعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾.

﴿سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مِن نِفاقِهِم وصَدِّهِم النّاسَ عن سَبيلِ الله. وفي ﴿سَآءَ﴾ معنىٰ التَّعَجُّبِ الذي هو تَعظيمُ أمرِهم عندَ السّامِعين ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ قَولِه: ﴿سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي ذلك القَولُ الشّاهدُ علَيهِم بأنّهم أَسْوَأُ النّاسِ أعمالًا بسَببِ أنّهم ﴿ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ أوْ إلىٰ ما وُصِفَ من حالِهِم في النِّفاقِ والكَذِب والاستِجْنانِ بالأَيْمان، أي: ذلك كلُّه بسَببِ أنّهم آمَنوا ثُمّ كفَروا ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فجَسَروا علىٰ كُلِّ عَظيمة.

فإنْ قُلتَ: المُنافِقونَ لمْ يَكونوا إلّا علىٰ الكُفرِ الثّابتِ الدّائمِ، فما مَعنىٰ قولِه: ﴿ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾؟

قلتُ: فيه ثلاثةُ أوجُه؛ أحدُها: ﴿ءَامَنُوا۟﴾، أيْ: نَطَقوا بكَلِمةِ الشّهادةِ وفَعَلوا كما يَفعَلُ مَن يَدخُل في الإسلام، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ ثُمّ ظَهَرَ كُفرُهم بعدَ ذلك ....

قولُه: (**ويَجُوز أنْ يكونَ وصْفاً للمُنافِقين في استِجْنانِهِم بالأَيْمان**) أي: يُقَال: اسْتَجَنَّ بِجُنَّةٍ أي: اسْتَتَرَ بِسُتْرَةٍ، والسُّتْرَة: ما يَسْتَتِر به الصّائِد وغيره[١]، إظْهاراً لما كانوا عليه من الخُبْثِ والخَدِيعَة، ومَا تَمَرَّنُوا به واعْتَادُوا عَليه، فعَلى هذا تكُون هذه الآية مُسْتَطردة تعداداً لِقَبائِحِهم، وعلى الأوّل: ﴿أَيْمَـٰنَهُمْ﴾ موضوعٌ موضع المضمر، أي: اتَّخذوا شهادتَهم تلك سترة ستروا بها عمّا خافوا على أنفسهم، وفيه إشعارٌ بأنّ وكادتَهم لتلك الشَّهادة بلغت مبلغ الحلف والأيمان، فإذن لا يسمّى كلّ شهادة يميناً.

(١) من قوله: «يقال: استجن» إلى هنا ساقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

وتَبيّنَ بها اطَّلِع عليه من قولِهم: إنْ كانَ ما يَقولُه مُحمَّدٌ حَقًّا فنَحنُ حَمير، وقولُهم في غَزوةِ تَبوكَ: أيَطمَع هذا الرَّجُلُ أنْ تُفتَحَ له قُصورُ كِسرىٰ وقَيصر؟ هَيْهات! ونحوُه قولُه تعالىٰ: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ [التوبة: ٧٤] أي: وظَهرَ كُفرُهم بعدَ أنْ أسلَموا. ونحوُه قولُه تَعالىٰ: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٦]، والثاني ﴿ءَامَنُواْ﴾: أيْ: نَطقوا بالإيمانِ عندَ المُؤمنين، ثمّ نَطَقوا بالكُفـرِ عِندَ شَياطينِهم استِهْزاءً بالإسلام، كقَولِه تَعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلىٰ قولِه تَعالىٰ: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، والثالثُ: أنْ يُرادَ أهلُ الرِّدّةِ مِنهم.

وقُرِئَ: (فطَبَعَ علىٰ قُلوبِهم)، وقرأ زيدُ بنُ عليٍّ: (فطَبَعَ اللهُ).

[﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ ٤]

كانَ عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ رَجُلًا جَسيمًا صَبيحًا، فَصيحًا، ذَلِقَ اللِّسانِ، وقومٌ من المُنافِقينَ في مِثلِ صِفَتِه، وهُم رُؤَساءُ المَدينةِ، وكانوا يَحضُرونَ مَجلسَ رَسولِ الله ﷺ فيَسْتَنِدونَ فيه، ولهم جَهارةُ المَناظِرِ وفَصاحةُ الألْسُن؛ فكانَ النبيُّ ﷺ ومَن حضَرَ يُعجَبون بهَياكِلِهم ويَسمَعونَ إلىٰ كلامِهم.

فإنْ قُلتَ: ما معنىٰ قولِه: ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞ﴾؟

قولُه: (ولَهم جَهارة المَناظِر)، الأساس: جَهَرني فُلانٌ: رَاعَني بِجَمالِه وهَيْئَتِه، وفلان جَهيرٌ بَيِّن الجَهَارة، إذا كان ذا جُهْرٍ ومَنْظر تَجْتَهره الأعين، قال أعرابيٌّ في الرَّشيد(١):

جَهِيرُ الـرُّوَاءِ جَهِـيرُ الكَـلامِ جَهِير العُطَاسِ جَهِـيرُ الـنَّغَمْ

---

(١) نسبه الجاحظ في «البيان والتبيين» (١: ١٢١) للشاعر العماني، بتقديم وتأخير في المقاطع.

قلتُ: شُبِّهوا في استِنادِهم، وما هُم إلّا أجْرامٌ خاليةٌ عن الإيمانِ والخَيرِ، بالخُشُبِ المُسَنَّدةِ إلىٰ الحائط؛ ولأنّ الخَشَبَ إذا انتُفِعَ به كانَ في سَقْفٍ أو جِدارٍ أو غيرِهما مِن مَظانِّ الانتِفاع، وما دامَ مَترُوكًا فارِغًا غيرَ مُنتَفَعٍ به أُسنِدَ إلىٰ الحائطِ، فشُبِّهوا به في عَدَمِ الانْتِفاع. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالخُشُبِ المُسَنَّدة: الأصنامُ المَنحوتةُ من الخُشُبِ المُسَنَّدةِ إلىٰ الحِيطان؛ شُبِّهوا بها في حُسنِ صُوَرِهم وقِلّةِ جَدواهُم؛ والخِطابُ في ﴿رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ﴾ لِرسولِ الله، أو لِكُلِّ مَن يُخاطَب. وقُرِئَ: (يُسمَعُ) علىٰ البِناءِ للمَفعول، ومَوضِعُ ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ﴾ رَفعٌ علىٰ: هُمْ كأنهم خُشُب، أو هو كلامٌ مُستَأنَفٌ لا مَحلَّ له.

قولُه: (في اسْتِنَادهم) الإضَافة مثل التَّعْريف باللام، لأنَّ المُراد ذلك الاسْتِناد، وهو ما قال: «كانوا يَحْضُرون مجلسَ رسُولِ الله ﷺ فَيَسْتَنِدون فيه»، والواو في «وما هم» للحَال.

قولُه: (شُبِّهوا بها في حُسْن صُوَرِهم وقِلّةِ جَدْواهم) هذا الوَجْه أحْسَن من الأوّل، لِزيادة الاعْتبار، فالتَّشْبيه مُركّب في الاعْتِبارين؛ إمَّا عَقْلي، أو وهْمِي.

قولُه: (أوْ هو كَلامٌ مُسْتَأنَفٌ لا مَحلّ لَه) يؤذن بأن له محلًا على الوَجه الأوّل، قال أبو البَقَاء: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ الجُمْلة حالٌ من الضَّمِير المَجْرُور في «قولهم» وقيل: هي مُسْتَأنفة[1].

وقَدَّر القَاضي: تَسْمع لما يقُولونه مُشَبَّهين بأخْشَابٍ مَنْصوبةٍ مُسْتَنِدةٍ إلى الحَائِط، في كَونِهم أشْبَاحاً خالية عن العِلم والنَّظَر[2].

وظَاهِرُ كلامِ الزَّجّاج[3] على ما نَقَله الوَاحِديُّ على الاسْتِئْناف، حيثُ قال: وصَفَهُم بِتَمامِ الصُّوَر وحُسْن الإبَانَة، ثُمَّ أعْلَم أنَّهم في تَرْك التَّفَهُّم والاسْتِبْصار بِمَنْزِلة الخُشُب[4]. وأراد أنَّها ليست بأشْجَار تثمر وتَنْمُو، بل هي خُشُبٌ مُسْتَنِدةٌ إلى الحَائِط، ثُمَّ عابَهم بالجُبْن

---

(١) انظر: «إملاء ما من به الرحمن» (٢: ٢٦٢).

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٤١).

(٣) انظر: «معاني القرآن» (٥: ١٧٦).

(٤) «الوسيط» (٤: ٣٠٣).

وقُرِئَ: (خُشْبٌ) جمعُ خَشَبةٍ، كبَدَنةٍ وبُدْن، و﴿خُشُبٌ﴾، كثَمَرةٍ وثُمُر، وخَشَب، كمَدَرةٍ ومَدَر، وهيَ في قِراءةِ ابنِ عبّاسٍ. وعن اليَزيديِّ أنهُ قالَ في ﴿خُشُبٌ﴾: جَمعُ خَشباء، والخَشباءُ: الخَشَبةُ التي دَعِر جَوفُها: شُبِّهوا بها في نِفاقِهم وفَسادِ بَواطِنِهم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ثاني مَفعولَيْ ﴿يَحْسَبُونَ﴾، أي: يَحسَبون كُلَّ صَيحةٍ واقِعةً عَلَيْهم وضارّةً لهم، لجُبْنِهم وهَلَعِهم وما في قُلوبِهم من الرُّعب، إذا نادىٰ مُنادٍ في العَسكرِ أو انْفلتَتْ دابّةٌ أو أُنشِدتْ ضالّةٌ ظَنّوهُ إيقاعًا بهم. وقيل: كانوا علىٰ وَجَلٍ من أنْ يُنزِلَ اللهُ فيهِم ما يَهتِكُ أستارَهُم ويُبيحُ دِماءَهم وأموالَهم، ومنهُ أخَذَ الأخطَل:

فقال: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ أنْ تـأْمنهم على سِـرِّك لأنَّهم عُيونٌ لأعْدائِك.

وقلت: تَلخيصُ الآيَة: إذا رَأيتَ جَهارةَ مَنْظَرهم وفَصاحَة مَنْطِقهم، حَسِبْتَهم أرْبَاب لُبٍّ وشَجاعَةٍ، وأصْحَابَ عِلْمٍ ودِرايةٍ، وإذا اختبرتهم وقَفْت على خِلافَ ذلك، فلا تَحْتَفِلْ بذلِك. هُمُ العَدو، أي: هُم أولئك الّذين قالوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، ألا ترى كيف عقّب الكَلام بقولِه: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فإذَن التَّعريف في ﴿الْعَدُوُّ﴾ للعَهْد، وإنْ ذَهَب المُصنّف للجِنْس لِقولِه: «هم الكَامِلُون في العَدَاوة».

قولُه: (وقُرِئ: «خُشْبٌ») قُنْبُل وأبو عَمْرو والكِسَائِيُّ: بإسكان الشين، والبَاقُون: بِضَمِّها[1]. **الانتصاف:** قد قرئ: بِضَمِّ الشِّين قِراءةً مُسْتَفِيضةً، فَتَدُلُّ على أنَّ الضَّمَّ أصلٌ، والتَّخْفيفَ فَرْعٌ، وذلك يُبْعدُ كونَها جَمْعَ خَشْباء، فإنَّه يجمع على «فُعْل» ساكن العين لا غير.

قولُه: (دَعِر جَوْفُها)، الجوهري: الدَّعَر - بِالتَّحْريك -: الفَسَاد، والدَّعَر أيضاً: مَصْدر: دَعِر العُودُ - بالكِسر - يَدْعَر دَعْراً، فهو عُودٌ دَعِرٌ، أيْ: عود رَدِيءٌ كثير الدُّخان.

---

(١) «التيسير في القراءات السبع» للداني ص١٣٤.

ما زِلْتَ تَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ   خَـيْلًا تكِـرُّ عَلَـيْهِمُ وَرِجَـالا

يُوقَفُ علىٰ ﴿عَلَيْهِمْ﴾، ويُبتَدأ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾، أي: هم الكامِلونَ في العَداوةِ؛ لأنَّ أعْدىٰ الأعداءِ العَدُوُّ المُداجي الذي يُكاشِرُك وتَحتَ ضُلوعِه الدّاءُ الدَّوِيّ ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾ ولا تَغْتَرِر بظاهِرِهم. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ المَفعولَ الثاني، كما لو طَرَحتَ الضَّمير.

فإنْ قُلتَ: فحَقُّه أنْ يُقالَ: هيَ العدُوّ.

قولُه: (مَا زِلت تَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ) البيت(١).

أي: لا زِلْتَ في وَجَلٍ من الإيْقَاع بِهِم، وإبَاحَةِ دِمَائهم وأمْوالِهم، حتّى تَحْسِبَ ـ للجُبْنِ والهَلَعِ ـ أنَّ كُلَّ شيءٍ «خَيْلاً ورَجّالةً». أبو الطيب(٢):

وضَاقَتِ الأرْضُ حتّى كان هَارِبُهُم   إذا رَأى غَـيرَ شَيْءٍ ظَنَّـهُ رَجُـلا

قولُه: (يُوقَف على ﴿عَلَيْهِمْ﴾)، المُرشِد: وَقْفٌ تامٌّ، كذا في «الكَوّاشِي»، وعليه كلامُ الوَاحِديّ(٣).

قولُه: (هُم الكَامِلون في العَدَاوة) لِتَعْريف الخَبَر بالجِنْس، والضَّمير هاهنا بِمَنْزِلَة اسم الإشَارَة، يُؤْذن بأنَّ ما بَعْده جَدِيرٌ بِمَن قَبْلَه لأجْل تلك الأوْصَاف، وإليه أشَار بقولِه: «لأنَّ أعْدَى الأعدَاء العَدُو المُدَاجِي الّذي يُكَاشِرك وتَحْتَ ضُلُوعِه الدَّاء الدَّوِي».

قولُه: (العَدُو المُدَاجِي)، الجَوْهَري، المُدَاجَاةُ: المُدَاراةُ. يقال: دَاجَيْتُهُ، إذا داريته؛ كأنَّك سَاتَرْتَه بِالعَداوة، والمُكَاشِر: المُجَاهِر، يُقال: كَشَرَ البَعيرُ عن نَابِه، أيْ: كَشَفَ عنها.

الدَّاءُ الدَّوِيُّ، يقال منه: دَوِيَ بالكسر منه أي: مَرِضَ، وَدَوِيَ صَدْرُهُ أي: ضَغِنَ

---

(١) عزاه في «الكشاف» للأخطل في هجاء جرير، كما بين شارح الشواهد، لكن البيت لجرير يهجو الأخطل، كما في «ديوان جرير» ص ٣٦٢!.

(٢) انظر: «شرح ديوان المتنبي» للواحدي (١: ١٤).

(٣) «المرشد» للعماني (٣: ٧٧٩)، حيث وصف الوقف بالتام، رسالة جامعية، جامعة أم القرى، و«الوسيط» للواحدي (٤: ٣٠٣).

قلتُ: مَنظورٌ فيهِ إلىٰ الخبَر، كما ذُكر في ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] وأنْ يُقدَّرَ مُضافٌ محذوفٌ علىٰ: يَحسَبونَ كُلَّ أهلِ صيْحة. ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دُعاءٌ علَيْهم، وطلبٌ من ذاتِه أنْ يَلعَنَهم ويُخزِيَهم، أو تَعليمٌ للمُؤمِنينَ أنْ يَدعُوا علَـيْهم بذلك. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيفَ يَعدِلونَ عن الحَقِّ؟ تَعَجُّبًا من جهلِهم وضَلالَتِهم.

[﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۞ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ ٥-٦]

﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ عطفُوها وأَمَالُوها إعْراضًا عن ذلك واسْتِكبارًا. وقُرِئَ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ للتَّكثير.

النهاية: في حَديث عليٍّ رضي الله عنه: «إلى مَرْعىً وبيٍّ، ومَشْرَبٍ دَوِيٍّ» أي: فيه داءٌ، وهو مَنسوبٌ إلى دَوٍ، من دَوِيَ بالكَسْر يَدْوِي.

قولُه: (كَما ذُكِر في ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾) وقد ذُكر فيه جَعْل المُبتدأ مثل الخبر، لِكَونِهما عِبارةً عن شيءٍ واحدٍ، كقَولِهم: ما جاءت حاجتك.

قولُه: (وطَلَب من ذَاتِه تَعالى أنْ يَلْعَنَهم) يعني: أنَّه من أسلوب التَّجْريدِ، كقِراءَةِ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما في قولِه: «ومَنْ كَفَرَ فأَمْتِعْهُ» على الأمْر[١]، أي: فأَمْتِعْهُ يا قَادِر، قال في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]: «هي من أشْنعِ دَعَواتِهم، لأنَّ القَـتْل قُصارى شَدائِد الدُّنْيا وفظائعها»، كذلك الطَّرْدُ عن رحمةِ الله والبُعْدُ عن جَنابِه الأقْدَسِ، والخِزْيُ: مُنتَهى عَذابِ الله وغَايةِ نَكالِه في الدُّنيا والآخِرة، فجَعل ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ كِنايَةً عن ذلِك، نَعُوذُ بالله منه.

قولُه: (قُرِئ: بالتَّخْفِيفِ والتَّشْدِيدِ) نافِع: «لَوَوْا» بِتَخفيفِ الواو، والباقُون: بتَشْديدها[٢].

---

(١) انظر: «جامع البيان في تأويل القرآن» للطبري (٢: ٥٤).

(٢) «التيسير في القراءات السبع» للداني ص١٣٤.

[﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۞ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٧-٨]

رُوِيَ أنّ رسولَ الله صلّىٰ اللهُ عليه وآلِه وسَلَّمَ حينَ لَقِيَ بَني المُصطَلِق علىٰ المُرَيْسيع وهُو ماءٌ لهُم، وهزَمَهم وقَتَل منهم، ازدَحمَ علىٰ الماءِ جَهْجاهُ بنُ سَعيدٍ أَجيرٌ لعُمرَ يَقودُ فرَسَه، وسِنانُ الجُهَنِيّ حَليفٌ لعَبدِ الله بنِ أُبَيّ، واقْتَتَلا، فصَرَخَ جَهجاهُ: يا للمهاجرين! وسِنانُ: يا للأنصار! فأَعانَ جَهجاهًا جِعالٌ من فُقَراءِ المُهاجِرين ولَطَمَ سِنانًا؛ فقالَ عبدُ الله لِجعال: وأنتَ هُناكَ؟ وقال: ما صَحِبنا مُحَمّدًا إلّا لنُلطَم؟ واللهِ ما مَثَلُنا ومَثَلُهم إلّا كما قال: سَمِّن كلبَك يأكُلْك، أمَا واللهِ لئِن رَجَعنا إلىٰ المَدينةِ ليُخرِجَنّ الأعزُّ منها الأذَلَّ،

قولُه: (حِين لَقيَ بني المُصْطَلِق على المُرَيْسِيع) قال ابنُ الجَوْزي في «الوفا»: المُرَيْسِيع: اسمُ بِئرٍ لِبَني المُصْطَلِق، وكان سَيِّدُهم الحارثَ بن أبي ضِرَار، جَمع لِحَرْب رسولِ الله ﷺ، فَخَرج رسولُ الله ﷺ إليهم، وترامَوا بالنَّبل ساعةً، ثُمَّ أمرَ رَسُولُ الله ﷺ أصْحابَه فحَمَلوا حملةَ رجلٍ وَاحِدٍ، فقُتِل عَشرةٌ من العَدُوِّ وأُسِر الباقُون. ولم يُقتل من المسلمين إلا رجلٌ واحدٌ[1].

قولُه: (وأَنْت هُناك) أيْ: وأنْت في ذلك المَقام والمَنْزلة أنْ يُلْطَم من يَتعَلَّق بي؟ وهو كِنايةٌ.

قولُه: (سَمِّن كَلْبَك يَأكُلْك) قال المَيْداني: أوّل من قال ذلك حازِم بن المُنْذِر الحِمّاني، وقِصّتُه مذكُورةٌ بطولها في «مجمع الأمثال» وقال: قِيل: إنَّ رجُلاً من طَسْم ارتَبطَ كلباً، فكان يُسَمِّنُه ويُطْعِمه رجَاء أنْ يصيدَ بِه، فدَخل عليه يوماً فوثَب عليه فافْتَرسَه، قال عَوف بن الأَحْوَص:

(١) «الوفا بتعريف فضائل المصطفى» (١: ٤٦٧).

عنىٰ بالأعَـزِّ نفْسَه، وبالأذَلِّ رسولَ الله ﷺ، ثم قالَ لقومِه: ماذا فعَلتُم بأنفُسِكم؟ أحْلَلْتُموهُم بلادَكُم وقاسَمْتُموهُم أموالَكُم؛ أمَا والله لو أمْسَكتُم عن جِعالٍ وذَويهِ فضْلَ الطَّعامِ لمْ يَرْكَبوا رقابَكم، ولأَوْشَكوا أنْ يتَحوَّلوا عنكُم، فلا تُنْفِقوا علَيهم حتّىٰ يَنْفَضوا من حَولِ مُحمَّد. فسَمِعَ بذلك زيدُ بنُ أرقمَ وهو حَدَثٌ، فقال: أنتَ واللّـهِ الذَّليلُ القَليلُ المُبغَضُ في قَومك، ومُحمَّدٌ في عِزٍّ من الرَّحْمٰنِ وقوّةٍ من المُسلِمين، فقالَ عبدُ الله: اسكتْ فإنّما كنتُ ألعَب؛ فأخبَرَ زيدٌ رسولَ الله فقالَ عمرُ: دَعني أَضرِب عُنقَ هذا المُنافِقِ يا رسولَ الله، فقال: «إذنْ تَرْعُدُ آنُفٌ كثيرةٌ بيثرب». قال: فإنْ كَرهتَ أن يقتلَه مُهاجريّ، فَأْمُرْ به أنصاريًّا فقال: «فكيفَ إذا تَحدّثَ النّاسُ أنّ محمّدًا يَقتُل أصحابَه؟» وقال عليه الصَّلاةُ والسّلامُ لعَبدِ الله: «أنتَ صاحبُ الكَلامِ الذي بَلغني؟» ....

أرَانِي وعوفاً كالمُسَمِّنِ كَلْبَـهُ فخَدَّشَهُ أنيابُـهُ وأظَـافِرُهْ[1]

قولُه: (تَرْعُدُ آنُفٌ) بالمد، قيل: هو جَمْع أنفٍ، قيل: هو عِبارةٌ عن الاضْطِراب والخَوْفِ، أو عن الغَضَب والارْتعاد، يقال: أرْعَدَه فارْتَعَد، والاسم: الرِّعْدَةُ، وأُرْعِدَ الرَّجُل: أخَذَته الرِّعْدَةُ، وأُرْعِدَت فَرائِصُهُ عند الفزَعِ.

الأساس: ومن المَجازِ: هو أنفٌ من قَومِه، وهم آنفُ النَّاسِ، فعَلى هذا الأنسبُ أنْ يَكُونَ كِنايةً عن غضب الرؤساء، أيْ: يغْضَب علينا ويتعَصَّب أهلُ يَثرِب وما حَوْلها، وتَقَعُ فِتْنَةٌ عَظيمة، يَدلُّ على هذا قولُه: «فإنْ كَرِهتَ أن يقْتُلَه مهاجِريٌّ فأمُرْ به أنصاريّاً، وأمّا حديث عبد الله ابن أُبي وقولُه: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ فقد رواه البُخَاريُّ ومُسلمٌ والتِّرمذيُّ عن زَيد ابن أرْقَم[2]، على غَيرِ هذا الوجه الّذي رواه المُصنِّف، وذكره يطول.

---

(١) «مجمع الأمثال» (١: ٣٣٣-٣٣٥)، وانظر: «الفاخر» للمفضل بن سلمة ص٧٠، وفيهما عزو البيت لقائله.

(٢) البُخاري (٣٣٣٠)، ومسلم (٢٥٨٤)، والتِّرمذي في «الجامع» (٣٣١٢).

قال: والله الذي أنزلَ عَليكَ الكِتابَ ما قُلتُ شيئًا من ذلك، وإنّ زَيدًا لكاذِب ـ وهو قولُه تَعالىٰ: ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَـٰنَهُمۡ جُنَّةً ﴾ [المنافقون: ٢] ـ فقالَ الحاضِرون: يا رسولَ الله، شَيخُنا وكبيرُنا، لا تُصدِّق عليه كَلامَ غُلام، عسىٰ أنْ يكونَ قد وَهِم. ورُوِيَ أنّ رسولَ الله قال له: لَعلّكَ غَضبْتَ عليه؛ قالَ: لا؛ قالَ: فلَعلَّه أخْطأَ سَمعُك؛ قالَ: لا؛ قالَ: فلَعلَّهُ شُبِّه علَيك؛ قالَ: لا. فلَمّا نزلتْ لَحِقَ رسولُ الله زَيدًا من خَلفِه فعَرَكَ أُذُنَه وقال: «وَفَتْ أُذُنُك يا غُلام، إنّ اللهَ قَد صَدَّقكَ وكَذَّب المُنافِقين». ولَمّا أرادَ عبدُ الله أنْ يَدخُلَ المَدينةَ اعتَرَضَهُ ابنُه حُبابٌ ـ وهو عَبدُ الله بنُ عبدِ الله غيَّر رسولُ الله اسمَه، وقال:«إنّ حُبابًا اسمُ شَيطان». وكانَ مُخلِصًا ـ وقال: وراءَك، والله لا تدخُلُها حتّىٰ تَقولَ: رَسولُ الله الأعَزُّ وأنا الأذَلّ، فلم يزَلْ حَبيسًا في يدِه حتّىٰ أمرَهُ رسولُ الله بتَخليَتِه.

ورُويَ أنهُ قال له: لئِنْ لم تُقرَّ لله ورسولِه بالعِزِّ لأضْرِبَنَّ عُنقَك، فقال: ويْحَك، أَفاعِلٌ أنت؟ قالَ: نعم، فلمّا رأىٰ مِنهُ الجِدَّ قال: أَشهَدُ أنّ العِزّةَ لله ولِرسولِه ولِلمُؤمِنين، فقالَ رسولُ الله لابنِه: «جزاكَ اللهُ عن رَسولِه وعَن المُؤمِنينَ خيرًا»؛ فلمّا بانَ كَذبُ عبدِ الله قيل له: قَد نَزلَتْ فيكَ آيٌ شِدادٌ، فاذهبْ إلىٰ رَسولِ الله ﷺ يَستغفِرْ لك، فلوّىٰ رأسَه ثُمّ قال: أمَرتُموني أنْ أُومِنَ فآمنتُ، وأمَرتُموني أنْ أزَكّي مالي فزكّيتُ، ....

قولُه: (وَفَتْ أُذُنُك يا غُلام)، النهاية: كأنّه جَعل أُذُنَه في السَّماع كالضَّامِنَة بِتَصْديق ما حلَّ فيها، فلمّا نَزَل القرآن في تحْقِيق ذلك الخبر، صَارَت الأُذُن كأنّها وافِيةٌ بِضَمانِها، خَارِجةٌ من التُّهمة فيما أَدّته في السَّماع إلى اللسَان.

قولُه: (وَرَاءَك) أي: ارْجِع القَهْقَرى، قال المَيْداني: وفي المثل: وَرَاءَكَ أَوْسَعُ لَكَ، أي: تأَخّرْ تَجِدْ مكاناً أوسَعَ لك، ويُقَال في ضِدّه: أمامَكَ، أي: تَقَدَّمْ[1].

---

(١) انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (٢: ٣٧٠).

فما بَقِيَ إلّا أنْ أسجُدَ لمُحمّدٍ، فنزلتْ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٥] ولم يَلبثْ إلّا أيامًا قَلائلَ حتّىٰ اشتكىٰ ومات. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ الاستِغفارُ وعدَمُه؛ لأنّهم لا يلتَفِتونَ إليه ولا يَعتَدّونَ به لكُفرِهم، أو لأنّ اللهَ لا يَغفِرُ لهم.

وقُرِئَ: (استَغفَرتَ) علىٰ حذفِ حرفِ الاستِفهام؛ لأنّ (أم) المعادَلة تَدُلّ عليه. وقَرَأ أبو جَعفر (آسْتَغفَرتَ)، إشباعًا لهمزةِ الاستِفهامِ للإظْهارِ والبَيان، لا قَلبًا لهَمزةِ الوَصْلِ ألِفًا، كما في: (آلسِّحر) و(آللهُ).

﴿يَنفَضُّواْ﴾ يتفرّقوا، وقُرِئَ: (يُنْفِضُوا) من: أنْفضَ القَومُ: إذا فَنِيتْ أزوادُهم. وحقيقتُه: حانَ لهُم أنْ يَنفَضّوا من أَوْدِهم ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وبِيَدِه الأَرْزاقُ والقِسَم، فَهُو رازِقُهم منها؛ وإنْ أبىٰ أهلُ المَدينةِ أنْ يُنفِقوا علَيهِم، ولكنّ عبدَ الله وأضْرابَه جَاهِلون، ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلكَ فيَهذُونَ بما يُزَيّنُ لهمُ الشيطان.

قولُه: (وقُرِئ: «اسْتَغْفَرت» على حَذْف حرف الاسْتِفْهام) وهي المَشْهورة، قال أبو البقاء: الهمزة في ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ همزة قَطْعٍ، وهمزةُ الوَصْل مَحذُوفةٌ، وقد وصَلَها قومٌ على أنّه حذف همزة الاسْتِفْهام لدلالة ﴿أَمْ﴾ عليه[١].

قولُه: («آسْتَغْفرتَ»، إشْبَاعاً) قال ابن جِنّي: وهي ضَعِيفةٌ لأنَّه أثْبت همزةَ الوَصلِ، وقد اسْتُغني عنها بهمزة الاسْتِفْهام، وأجاب بأنّه إشْبَاعٌ لهمزة الاسْتِفْهامِ، لا قلباً لهمزةِ الوَصْلِ ألِفاً[٢].

قيل: إذا دَخَل همزةُ الاسْتِفْهام على الاسمِ المُعرَّفِ باللام نحو: الحسن، قُلِبت همزةُ الوصْلِ ألفاً، لئلا يِلْتبس الخبرُ بالاسْتِخْبارِ، وأمّا هاهنا فلا لَبْسَ، لأنَّ همزةَ الوصْلِ هاهنا مَكْسُورةٌ.

قولُه: (جَاهِلون ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك فَيَهْذُون)، فإنْ قلت: فُصِلت هذه الآية بقولِـه:

---

(١) «إملاء ما مَنَّ به الرحمن» (٢: ٢٦٢).
(٢) «المحتسب» (٢: ٣٢٢).

....

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ والآية الثالثة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لِمَ قدّر مفعول هذه ولم يُقدِّر مفعول الثالثة؟

قلت: ليُشير الإطْلاقُ إلى إرَادةِ المُبالَغَةِ، وأنَّ المُنافقين عَادِمون المَعْرفة، فاقِدُون العِلم، ولذلك خَفِيَ عنهم أنَّ العِزّة لله جميعاً، يُعِزُّ من يَشاءُ، ويُذلُّ من يَشاءُ، وبالتَّقييدِ: الإشَارةُ إلى أنَّ الأرْزاق والقِسَمَ بيدِ الله تعالى، فهو يَرْزق رسولَ الله ﷺ ومَنْ عِنْدَه، ولمّا كان الثّاني مُسْتَلزِماً للأوّل لا العَكس بُولِغ فيه دُونه.

فإنْ قلتَ: لِـمَ خُصَّ الأوّلُ بـ ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ والثاني بـ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؟

قلتُ: قَد مَرَّ أنَّ إثْباتَ الفقه للإنسان أبلغُ من إثْباتِ العِلم له، فَيكُون نَفي العِلمِ أبلغ من نفي الفِقه، فَأوثِر ما هو أبْلغ لما هو أدْعى له.

الـرَّاغب[1]: معنى قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ يأمُرُونهم بالإضْرار بهم، وحَبْس النَّفَقات عنهم ولا يَفْطَنون، لأنَّهم إذا فَعَلوا ذلك أضَرُّوا بأنْفُسهم، فهم لا يَفْقَهون ذلك ولا يَفْطَنون له.

وقَوله في الثّاني: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بعد قوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ عندهم أنَّ الأعَزَّ من لَه القُوَّة والغَلَبة، على ما كانوا عليه من الجَاهِليّة، ولايَعلمون أنَّ هذه القُدْرة التي يَفْضُلُ بها الإنْسانُ غيرَه، إنّما هي من الله، فهي لله ولمن يَخُصّه بها من عِباده، والمُنافِقون لايعلمون أنَّ الذلة لمن يُقَدِّرون فيه العِزَّة، وأنَّ الله مُعِزٌّ أولياءَه بِطاعَتِهم له، ومذلٌّ أعداءَه بِمُخَالفَتِهم أمره، فقد اخْتَصَّ كُلَّ آيةٍ بما اقْتَضاهُ معناه[2].

---

(١) يعني: في «درة التنزيل»، وتقدم الكلام في نسبته إلى الراغب، وأن الأصح أنه للخطيب الإسكافي.

(٢) «درة التنزيل وغرة التأويل» للخطيب الاسكافي (٣: ١١٩٢).

وقُرِئَ: (**لَيَخْرُجنّ الأعزُّ منها الأذَلَّ**) ـ بفَتح الياء ـ وليُخرجَنّ، على البِناء للمفعول. قَرأَ الحَسنُ وابنُ أبي عَبلةَ: لنُخرِجَنّ، بالنُّونِ ونَصب الأعَزِّ والأذَلّ، **ومعناه: خُروجُ الأذَلّ أو إخراجُ الأذَل أو مِثلَ الأذَلّ**، ﴿**وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ**﴾ **الغلَبةُ والقُوّةُ**، ولِـمَن أعَزَّهُ اللهُ وأيَّدَه من رَسُولِه ومن المُؤمِنين، وهُم الأخِصّاءُ بذلك، كما أنّ المَذلّـةَ والهَوانَ للشّيطان وذَويه من الكافِرينَ والمُنافِقين.

قولُه: (**لَيَخْرُجن الأعزُّ منها الأذلَّ**) هذه القِراءاتُ كُلُّها شواذٌّ، والمشْهورةُ بِضمِّ الياء وسُكون الخاء، وكسر الراء، والأعزُّ فاعِلٌ، والأذَلّ مفعولٌ.

قولُه: (**ومعناه: خُروجُ الأذَلّ، أو إخْراجُ الأذَلّ، أو مِثلَ الأذَلّ**) بيانٌ لِلقِراءةِ المَذْكورة على النَّشْر، وعليه ظَاهِر كلامِ صاحب «التقريب»، فالتَّقْدير: لَيُخرجنَّ الأعزُّ منها خُروج الأذلِّ، لَيُخرجنَّ الأعزُّ منها إخراجَ الأذل، ليخرِجنَّ الأعزُّ منها مثل الأذل، وقيل: «إخراج» متعلق بالقراءة الثانية والثالثة، والنَّصب على هذه القراءات على المصدر، و«مثلَ الأذل» نصبه على الحال على جميع القراءات، ولا يختص بالثالثة كما ذهب إليه صاحب «التقريب»، لئلا يلزم التَّرجيح بلا مُرجِّح[1]، فيكون «أو مثل» عُطِفَ على قوله: «معناه»، يؤيده قول القاضي: والأذَلُّ على هذهِ القِراءاتِ مَصْدرٌ أو حَالٌ على تَقْدير مُضافٍ، كخُروجٍ وإخْراجٍ، أو مثل[2].

وفي الكواشي: «لَيَخرجن» بفتح الياء معلوماً وبضَمِّها مجهولاً، ونصب «الأذل» مفعول حال محذوف أي: مشبهاً الأذلّ، أو حال مثل: أرسلها العراك، و«لنخرجن» بالنون ونصب «الأعز»، و«الأذل»، أي: خروج[3] أو إخراج الأذل.

قولُه: (﴿**وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ**﴾ **الغلَبةُ والقُوّة**)، الراغب: العِزَّةُ: حالةٌ مانِعَةٌ للإنسان أن يُغْلب. من قولهم: أرضٌ عَزازٌ، أي: صُلْبةٌ، وتَعزَّزَ اللّحْمُ: اشْتدّ، وعَـزَّ: كأنّه حصل في عَزازٍ يصْعُب

---

(١) من قوله: «ولا يختص» إلى هنا ساقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٤٣).

(٣) من قوله: «حال محذوف» إلى هنا ساقط من (ح)، وأثبته من (ط) و(ف).

وعن بعضِ الصّالحاتِ ـ وكانت في هيئةٍ رثَّةٍ ـ: ألسْتُ علىٰ الإسلام؛ وهُوَ العِزُّ الذي لا ذُلَّ معَه؛ والغِنَىٰ الذي لا فَقْرَ معه! وعَن الحسَنِ بنِ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما أنّ رَجُلًا قالَ له: إنّ الناسَ يَزعُمونَ أنّ فيكَ تِيهًا؛ قالَ: ليسَ بتيهٍ، ولكنّه عِزّةٌ، وتَلا هذه الآية.

[﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ٩]

﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾ لا تَشغَلْكم ﴿أَمْوَٰلُكُمْ﴾ والتَّصرُّفُ فيها، والسَّعيُ في تَدبيرِ أمرِها، والتَّهالُكُ علىٰ طَلَبِ النّماءِ فيها بالتِّجارةِ والاغْتِلال، وابتِغاءُ النِّتاجِ، والتَّلذُّذُ بها؛ والاستِمتاعُ بمَنافِعِها، ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ وسُرورُكم بهِم، وشَفقَتُكم عليهم، والقِيامُ بمُؤَنِهم، وتَسويةُ ما يُصلِحُهم من مَعايِشِهم في حَياتِكُم وبَعدَ مَماتِكُم، وقَد عَرفتُم قَدرَ مَنفعةِ الأموالِ والأوْلادِ، وأنهُ أهوَنُ شيءٍ وأدْوَنُه في جَنبِ ما عِندَ الله ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ **وإيثاره عليها.**

الوصول إليه، والعَزيزُ: الذي يَقْهَر ولا يُقْهَر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ١٦]، وقَد يُسْتَعار للحَمِيَّة والأنَفَة المَذْمُومة، كما في قولِه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ [البقرة: ٢٠٦] ويقال: عزَّ عليَّ كذا، أي: صَعُب[1].

قولُه: (**ليس بتِيهٍ ولكنَّه عِزّةٌ**) قال شيخُنا شيخُ الإسلام أبو حَفص السُّهْرَوَرْدِي قُدِّس سِرّه: العِزَّة غيرُ الكِبرِ، لأنَّ العِزّةَ مَعْرفَةُ الإنسانِ لحقيقة نفسه، وإكرامُها أنْ لا يَضَعَها لأقسامٍ عاجِلةٍ، كما أنَّ الكِبْرَ جَهْل الإنسانِ بِنَفْسِه وإنْزَالها فوقَ مَنْزلتِها، فالعِزّةُ ضدُّ الذِّلَّة، كما أنَّ الكِبرَ ضدّ التَّواضُع[2].

قولُه: (**﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وإيْثارِه عليها**) أي: لا تَشْغَلْكم أموالُكم ولا أولادُكم عن

---

(١) «مفردات القرآن» ص٥٦٣.

(٢) «عوارف المعارف» ص٧٠ ط دار المعارف، تفصيل أخلاق الصوفية.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يُريدُ الشُّغلَ بالدُّنيا عن الدِّينِ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في تِجارَتِهم حَيثُ باعُوا العَظيمَ الباقي بالحَقيرِ الفاني.

وقيل: ذِكرُ الله: الصَّلواتُ الخمس. وعَن الحسَن: جَميعُ الفَرائضِ، كأنهُ قال: عن طاعةِ الله. وقيل: القُرآن، وعن الكلبي: الجهاد مع رسول الله ﷺ.

[﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ١٠-١١]

اخْتيار ذِكرِ الله على الأموال والأولاد، أي: لا تَغْفُلوا عن هذا الإيْثار، وفيه جواز الاشْتِغال بها مَصُوناً عن الإيثار.

قولُه: (﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يُريد الشُّغْل بالدُّنيا عن الدِّين) يَعْني المَشار إليه بِذلك، هَذا هو المعنى، وهو تلخِيص الآية على أوْجَزِ ما يُمكِن فهو كلامٌ جامِعٌ، عَبّر بالأموال والأولاد عن معبَّر واحد وهي الدُّنيا، لكونهما أرْغَبَ الأشياء منها، قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] وقصد بقوله: ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الشُّمُول والعُموم، حيث فسّره بالدِّين لإطلاقِه وتَناوُله كلّ ما هو مسمّى به، وبما يُناطُ به من أمُورِ الدِّين، قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ الله وَمَا وَالاهُ، وَعَالِمٌ ومُتَعَلِّمٌ» أخرجه التِّرْمذيُّ عن أبي هُريرة[1]، فجمع بين الإطْنَابِ في الأوّلِ، والإيجازِ في الثّاني، وأذِن بنسبة الشُّغْل إلى ذَوِي العِلْم أنَّ النَّهْيَ الوارِدَ في قولِه: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ راجعٌ في الحَقِيقةِ إلى المُخَاطَبين، من بابِ إطْلاقِ المُسببِ على السَّببِ كقولِه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ [الأعراف: ٢] أي: لا تكُونوا بحيث تُلْهيكم الأموالُ والأولادُ من التّهالُك في جَمعِها، وفي التّلذُّذِ بها، والانْهماكِ فيها، والتّعَزُّز بهم، والتّكاثُر بِعدَدِهم.

---

(١) التِّرْمذي في «جامعه» (٢٣٢٢)، وقال: حسن غريب.

﴿مِن﴾ في ﴿مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ للتَّبعيضِ، والمُراد: الإنفاقُ الواجبُ، ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ من قَبلِ أنْ يرىٰ دَلائلَ الموت، ويُعايِنَ ما يُيْأس معَهُ من الإمهال، ويَضيقَ به الخِناقُ، ويَتعذّرُ عليه الإنفاقُ، ويَفوتُ وقتُ القَبول فيتحسَّرَ علىٰ المَنع، ويَعَضَّ أنامِلَه علىٰ فَقْدِ ما كانَ مُتمكِّنًا منه. وعن ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنه: تَصدّقوا قبلَ أنْ يَنزِلَ عليكُم سُلطانُ الموتِ، فلا تُقبَلَ تَوبةٌ، ولا يَنفعَ عمَل. وعنه: ما يَمنَعُ أحدَكم إذا كانَ له مالٌ أنْ يُزكّي، وإذا أطاقَ الحجَّ أنْ يَحُجَّ مِن قَبلِ أنْ يَأتيَه الموتُ، فيَسألَ ربَّه الكَرَّةَ فلا يُعطاها. وعنهُ: أنّها نَزلتْ في مانِعي الزَّكاةِ، وواللهِ لو رَأىٰ خيرًا لَمَا سألَ الرَّجْعةَ، ....

وفي تَخْصيصِ ذكرِ ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ ذلك الإيْثار في معنى الاسْتِبدال، الّذي هو بِمنزلِةِ البَيْع والشِّراء، ثُمَّ في التَّعريف الجِنْسي في ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ وتَوْسيط ضَمير الفَصْل بينه وبين المُبتدأ إشْعارٌ بأنَّ الكامِلين في الخَسارةِ هؤلاء، وأنَّ خَسارَهُم فَوقَ كُلِّ خُسْرانٍ، حيث باعُوا العَظِيم البَاقي، بالحَقيرِ الفاني، وإنْ رِبحُوا في تِجارتِهم الظَّاهِرة، ودخل في هذا العُموم وعِيدُ كُلِّ من ذَهِلَ عن الجِهاد في سبيل الله، وشُغِلَ عن الأمر بالمَعْروف والنَّهي عن المُنكر، وعن طَلَب العِلْم، وعن النَّصِيحة للمسلمين، بسببِ مُراعاةِ شأنِ الأمْوالِ والأولادِ.

وأمّا بيانُ النَّظْمِ، فإنَّ المُنافِقين لـمّا نَـهوْا عن الإنْفَاقِ على من عِند رسولِ الله، وأُريدَ الحثّ على الإنفاق بقولِه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ رغماً لأُنوفِهم، وتَحرِّياً لـما هو الأَصْوب والأَصْلَح، جعِل قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ﴾ تمهيداً وتوطِئة للأمرِ بالإنْفَاقِ وعمّ العِلّة والحُكْم، والله أعلم.

قولُه: (ويَضِيقُ به الخِنَاقُ)، كِناية عن اللزوم وعدم الإمْهَال. الأساس: ومن المَجازِ: أَخَذ منه بالمُخنَّق: إذا لزّه وضَيَّق عليه[1].

---

(١) من قوله: «قوله: ويضيق» إلى هنا ساقط من (ف).

فقيل له: أمَا تتّقي اللهَ! يَسألُ المُؤمنونَ الكرّة؟ قال: نعم، أنا أقرَأُ عليكم به قُرآنًا. يَعني: أنّها نزَلتْ في المُؤمنينَ وهمُ المُخاطَبونَ بها، وكذا عن الحسَن: ما مِن أحَدٍ لم يُزَكِّ ولمْ يَصُم ولَمْ يَحُجَّ إلّا سأَلَ الرَّجْعة. وعن عِكرمةَ: أنّها نَزلتْ في أَهلِ القِبلةِ.

﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾، وقُرِئَ: (أَخَّرْتَنِ)، يُريدُ: هلّا أَخَّرْتَ مَوتي ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ إلىٰ زَمانٍ قَليلٍ؟ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ وقَرَأَ أُبَيٌّ: (فأتَصدَّقَ) علىٰ الأَصل، وقُرِئَ: ﴿وَأَكُن﴾، عَطفًا علىٰ محَلِّ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ كأنهُ قيل: إنْ أخَّرتَني أصَّدّقْ وأكُن. ومَن قرَأَ: (وأكُونَ) علىٰ النَّصبِ، فَعلىٰ اللَّفظِ. وقَرَأ عُبيدُ بنِ عُمَير: (وأكونُ)، علىٰ (وأنا أكونُ) عِدَةً منهُ بالصَّلاح، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ﴾ نفيٌ للتّأخيرِ علىٰ وَجْه التّأكيدِ الذي مَعناهُ مُنافاةُ المَنفيِّ الحِكمةَ.

قولُه: (أمَا تتَّقي اللهَ! يَسألُ المؤمنون الكرَّةَ؟) أي: أمَا تخافُ اللهَ! كيفَ تقول: إنَّها نَزَلت في مانِعي الزَّكاة؟ والحالُ أنَّ المُؤمنين لا يَسْألون الرَّجْعةَ إلى الدُّنيا، بل الكافِرون هُم السَّائلون، فقال ابنُ عبّاس: أنا ما أقولُ من تلقاء نفسي، وإنَّها أقرأ بها قُلتُ قرآناً، لأنَّ قوله: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ عَطفٌ على ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾، والمُخَاطَبون هم المُؤمنون، لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وفيه إشَارةٌ إلى أن من فَسَّر القُرآن ورَاعَى النَّظْم لا يُخطِئ.

قولُه: (وقُرِئ: ﴿وَأَكُن﴾، عَطفاً على محَلِّ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾) أبو عَمْرو: «وأكونَ» بالنَّصب والوَاو، والبَاقُون: بِغَير واوٍ وجَزْم النُّون[1]. قال الزَّجَّاج: من قرأ ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ فـ«أَصَّدَّقَ» جَواب ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾ ومعناه: هلَّا أخَّرْتَـنِي، وجَزم ﴿وَأَكُن﴾ على مَوْضِع ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، لأنَّه على معنى: إنْ أخرتني أصَّدَّقْ[2] وأكُنْ.

قال صاحب «الكشف»: جزم «أكُنْ» بالحمل على موضع ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ لأنَّ مَوضِع الفاء مع الفعل جَزْمٌ. ومن قال: «وأكونَ» حمله على لفظ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ لأنَّ الحَمْل على

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٤.

(٢) «معاني القرآن» (٥: ١٧٨).

والمعنىٰ: إنّـكُم إذا عَلِمتُم أنّ تَأخيرَ المَوتِ عن وَقتِه ممّا لا سَبيلَ إليه، وأنهُ هاجِمٌ لا مَحالة، **وأنّ اللهَ عَليمٌ بأعمالِكُم فمُجازٍ عليها من مَنع واجِبٍ وغيرِه**، لم تبقَ إلّا المُسارعةُ إلىٰ الخُروجِ عن عُهدةِ الواجِباتِ والاستعدادِ لِلقاء الله. وقُرئَ: **﴿تعملون﴾ بالتّاءِ والياء**.

عن رَسولِ الله ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ المُنافِقينَ بَرئَ من النِّفاق».

اللفْظِ عِندَهم أحْسن، إذ لم يَظْهر في الموضِع إعْرابٌ، وما لا يظهر جَرَى مَجْرى المُطَّرَح المَرْفُوض(١).

قولُه: (**وأنَّ اللهَ عليمٌ بأعْمالِكم فَمُجازٍ عَلَيها؛ مِن مَنْعِ واجبٍ وغَيره**) رُوي عن المُصنِّف أنّه قال: ليس في الزَّجْرِ عن التَّفْريطِ في هذه الحُقوقِ أعْظَم من ذلك، فلا أحدَ يُؤخِّر ذلِك إلا ويجوزُ أنْ يأتِيَه الموتُ عن قَريبٍ، فيَلزَمه التَّحَرُّزُ الشَّديدُ من هذا التَّفْريطِ في كُلِّ وقتٍ، وقد أبْطَل اللهُ تعالى قَول المُجْبرة بقوله: ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ الآية. أي: إنْ كان لم يَقْدِر من قَبلِ حُضُورِ الموت على الإنْفَاق، فكيف يتمَنّى تأخِير الأجل؟ ثُمّ قال مُؤيِساً له: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾، وأنَّ عُمُرَه مكتوبٌ لا تأخير فيه، فالواجِبُ على كُلِّ أحَدٍ أن لا يَتكِل على وقتٍ، ويكُونَ على حَذَرٍ في جميعِ أحوالِه وأوقَاتِه، وجوابُه مَرّ مِراراً.

قولُه: (**﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالتّاء واليَاء**) بالياء التَّحْتانيّة: أبو بكرٍ وحْدَهُ(٢).

تمّت السُّورة

بحَمدِ الله وعَوْنِه.

* * *

---

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٣٥٠-١٣٥١).

(٢) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٤.

سُورَةُ التَّغابُن

مختلَفٌ فيها، وهيَ ثمانَ عشْرةَ آيةً

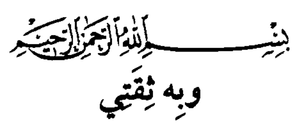
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ١-٤]

قُدِّمَ الظَّرفانِ ليَدُلَّ بتقديمِهما علىٰ مَعنىٰ اختِصاصِ المُلكِ والحَمدِ باللهِ عَزَّ وجَلَّ، وذلك لأنَّ المُلكَ علىٰ الحقيقةِ له؛ لأنهُ مُبدئُ كُلِّ شَيءٍ ومُبدعُه والقائمُ به، والمُهيمنُ عليه؛ وكذلك الحَمدُ، لأنَّ أصولَ النِّعَم وفُروعَها منه. وأمّا مُلكُ غيرِه فتَسليطٌ منهُ واسترِعاءٌ،

سُورَةُ التَّغَابُن

ثَماني عَشْرة آيةً، مَكيَّة بخِلافٍ



وبِه ثِقَتي

قوله: (واسْترِعَاء)، الجوهري: راعَيْته الشَّيءَ، من مُراعاةِ الحُقوقِ، واسْتَرعَيْتُه الشَّيءَ فَرَعَاهُ، وفي المثل: «مَن اسْتَرعَى الذِّئْبَ فَقَد ظَلَم»[1]، والرَّاعِي: الوالي.

---

(١) «مجمع الأمثال» (١: ٢٦٠).

وحَمْدُه اعتدادٌ بأنَّ نِعمةَ الله جَرتْ علىٰ يَدِه. ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ ....

وقوله: (وحَمْدُه اعْتِدادٌ) عَطفٌ على قولِه: «مُلْكُ غَيرِه» أتى بإيرادَين على إثبات اخْتِصاصِ المُلك بالله، واخْتِصَاص الحَمْد به، ولمّا حَذف «أمّا» التَّفْصيليّة من المَعْطوفِ، حَذَف الفاء اللّازمة لها، وقد سبق تَقْريره في قولِه تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ﴾ [آل عمران: ٧][(١)].

وأجاب: أنَّ مُلكَ غيرِه إنْ كان ظالماً، فهو تَسْليط من الله تعالى على الخَلق ابْتِلاءً، وإنْ كان عادلاً فاسْتِرعاءٌ منه امْتناناً.

وأمَّا حَمدُ بعض النَّاس لبعضٍ فإنَّما كان مُعتدّاً به لأنَّه جَرت نعمةُ الله على يدِه، يعني لولا نِعمةُ الله وخَلقُه إيّاها ما جَرى ذلك الإعْطاءُ على يد العَبْد، فإذن: في الحقيقةِ الله هو المحْمُودُ، لأنَّ أُصولَ النِّعَم وفُروعَها منه، كما أنَّ خَازن المَلِكِ إذا أعْطَى الغَير فهو إنما يُحمد لأنَّه باشَر الفِعْل، وفي الحقيقة المَلِك هو المَحمُودُ لأنَّ النِّعْمة منه[(٢)]، وذهَب عنه أنَّ فِعْل الإعْطاء أيضاً في الحقيقة ليس من العبد، ثُمَّ نقول: هَبْ أنَّه خَلص من هذه الوَرْطةِ بهذا العُذر، فأنّىٰ له الخَلاصُ من الحَمْد علىٰ الحمد علىٰ الأفْعَال الاخْتِياريّة؟! وقد قال في فَاتِحةِ الفاتحة: «الحَمْدُ والمَدْح أخوان، وهو الثّناءُ والنِّداءُ على الجميل من نِعْمةٍ وغيرِها». ثُمَّ قال في الحُجُرات: «وكُلُّ ذي لُبٍّ وراجِعٍ إلى بَصيرةٍ وذِهْنٍ، لا يغيب عنه أنَّ الرَّجل لا يُمْدَح بفعلِ غيرِه، وحَمْلُ الآيةِ على ظَاهِرها يؤدِّي إلى أنْ يُثنىٰ عليهم بفضل الله وقد نعىٰ الله هذا على الذين أنزل فيهم ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٨٨]» فإذا لم يَجُز أنْ يُثنَى علَيهم بفِعلِ الله، لم

---

(١) في (ح) جاءت هذه الزيادة: «يقول إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»، ولعلّها مُقْحمةٌ، لأنَّها جزء من حديث موجود في تعقُّبٍ لاحقٍ، ولم ترد في (ط) و(ف)، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

(٢) من قوله: «كما أن خازن» إلى هنا سقط من (ح)، وأثبته من (ف) و(ط).

يَعني: فَمِنكم آتٍ بالكُفرِ وفاعِلٌ له، ومِنكُم آتٍ بالإيمانِ وفاعِلٌ له، كقَولِه تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦] والدَّليلُ عليه قولُه تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أيْ عالِمٌ بكُفرِكُم وإيمانِكُم اللّذَين هُما من عمَلِكم.

يَجُز أن يُثْنى على الله بفعلهم[1]، فلا يَختصّ الحمدُ بالله. وهذا كما ترى كالشَّجَىٰ لا يَسيغ، ولا يَسُوغ التَّكَلُّمُ في الاخْتِصاصِ إلا لمن يقول: الحمد لـمّا كان هو الوصف بالجميل، والله خالِقُ كُلّ جمالٍ وكَمالٍ، وخَالِقُ كُلّ من لَهُ الجمال والكمال، وخالِقُ كُلّ ما يَسْتحقُّ الحمْدَ من الأفْعال، فله الحمد في الحقيقةِ، وإنْ أُضِيف في الظَّاهرِ إلى الغَيْر، وحِينئذٍ تَتطَابقُ القَرِيْنتان، لا إلىٰ أنهما اسمان، فكما حازَ قوله: «له المُلك»، أنواعَ المُلك، جَمعَ «له الحمدُ» أجْناسَ الحَمْدِ، ولله الحَمْدُ على التَّوقِيفِ، وله المِنّة على التَّوفِيق.

قوله: (فمِنكُم آتٍ بالكُفرِ وفاعِلٌ لهُ، ومِنكُم آتٍ بالإيمانِ وفَاعِلٌ له) نظراً إلى اشْتِقَاق اللّفظين، لا إلى أنَّهما اسمان لهذين الفريقين، وجَعْلِهما خَارجين من معنى قولِه: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، يعني أنَّ الله تعالى خلق ذَواتِهم، وهُم الذين أحْدَثوا الإيمانَ والكُفْرَ، واسْتَدلّ على مذهَبِه بقولِه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، فإنَّ كَونَهم فاسقين ليس الغَرَضَ في جَعْلِ الكِتاب فيهم، كذلك كَوْنُهم كافرين ليس المُرادَ في خَلْقِهم، وبقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فإنَّه تهديدٌ ووعيدٌ على أعمالِهم.

فالحَاصِل: أنه جَعل الفاء في ﴿فَمِنكُمْ﴾ وفي ﴿فَمِنْهُم﴾ للتَّرتيب، والغَرَض على سبيلِ الاسْتِعارة، كالكَلامِ في قولِه تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، يَدُلُّ عليه قولُه: «والمعنى هو الّذي تَفَضّل عَلَيكُم..» إلى آخِرِه، والّذي يَدلُّ على أنّه

---

(١) انظر: «الكشاف» (١٤: ٤٧٤).

....

أخرج ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ من مَفْهوم قولِه: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، قولُه بعد ذلك: «فما أجْهَل مَنْ يَمْزِج الكُفْرَ بالخَلْقِ ويجْعله من جُمْلتِه».

والقاضي جعل ما بعد الفاء تَفْصيلاً لقولِه ﴿خَلَقَكُمْ﴾ حيث قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، ثُمَّ شرع في البَيان وقال: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾، أي: مُقدَّرٌ كُفْره، ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ مُقدَّرٌ إيمانه[1].

وقلت: مِثلُه في الإجْمالِ والتَفْصيل: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ [النور:٤٥] خَلقَهُم وقَدّرهم على المَشْي، وما بِهِ يقْدِرون عليه، ثُمَّ أَسْنَدَ المشيَ إليهم، والتَّفْصيلُ إنَّما يُبيِّن ما أُجْمِل في المفصّل في المَعنى، فَعَلِم أنَّ كَونَهم كافِرين ومُؤمِنين مُرادٌ في قولِه: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ وعليه السِّياق، فإنَّ الآياتِ كلَّها وارِدةٌ لِبيَانِ عَظَمة الله في مُلْكِه ومَلكُوتِه واسْتِبْدادِه فيهما، وفي شُمُولِ عِلْمِه المَعْلوماتِ كلِّها، وفي إنْشائِه المُكوَّناتِ ذواتِها وأعراضَها، ولأنَّ قولَه: ﴿خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ بيانٌ لقولِه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ويَعْضُد هذا التَّأويل الأحَاديثُ الكَثيرةُ منها؛ ما رَوى البُخَاريُّ ومُسْلمٌ والتِّرْمذيُّ وأبو دَاود عن ابن مَسْعودٍ قال[2]: حدّثنا رسولُ الله ﷺ وَهوَ الصَّادِقُ المَصدُوقُ: «إنَّ خلقَ أحَدِكُم يُجمَعُ في بَطنِ أمِّه أربَعِين يوماً نُطفَة، ثُمَّ يكونُ علَقَةً مثلَ ذلك، ثُمَّ يكونُ مُضغَةً مثلَ ذلك، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إليه مَلَكاً بأَربعِ كَلِماتٍ؛ يَكتُبُ رزقَهُ وعَمَلَه وأَجلَه، وشَقيٌّ أم سَعيدٌ، فوالَّذي لا إلهَ غَيرُهُ، إنَّ أحَدَكُم لَيَعمَلُ بعمَلِ أهل الجَنَّة حَتَّى ما يكونُ بَينَهُ وبَينَها إلا ذراعٌ، فيَسبِقُ عَليه الكِتابُ فيَعمَلُ بعمَلِ أهلِ النّار فيَدخُلُها، وإنَّ أحَدَكُم ليَعمَلُ بعمَلِ أهلِ النّار، حتَّى ما يكونُ بينَهُ وبَينَها إلا ذراعٌ فيَعمَلُ بعمَلِ أهلِ الجَنَّة فيَدخُلُها».

---

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ٣٤٤).

(٢) البُخَاريُّ في أكثر من موضع منها (٣٢٠٨) و(٣٣٣٢)، ومُسلمٌ (٢٦٤٣)، والتِّرْمذي في «الجامع» (٢١٣٧)، وأبو دَاود في «السنن» (٤٧٠٨).

والمعنىٰ: هو الذي تَفضَّلَ عليكُم بأصْلِ النِّعَم الذي هو الخَلقُ والإيجادُ عن العَدَم، فكانَ يَجِبُ أنْ تَنظُروا النَّظَرَ الصَّحيحَ، وتكونُوا بأجْمَعِكم عِبادًا شاكِرين، فما فَعَلتُم معَ تَمَكُّنِكُم، بل تَشَعَّبتُم شُعَبًا، وتَفرَّقتُم أُممًا؛ ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، وقَدَّم الكُفرَ لأنهُ الأغلبُ عليهم والأكثرُ فيهم، وقيل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ بالخَلقِ، وهمُ الدَّهريّة، ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ به.

ومنها ما رواه مُسلم والتِّرْمِذيُّ وأبو دَاودُ، عن أُبي بن كَعبٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الغُلامَ الذي قتَلَهُ الخَضِرُ طُبِعَ كافراً، ولو عاشَ لأرهَقَ أبَوَيْه طُغْياناً وكُفراً»(١).

قالَ صاحِب «التَّيسير» و«المطلع»: دلَّت الآيةُ على أنّه لا مَنْزلة بين المَنْزلتين.

وقال ابن عبّاس: ليس بين الجنّةِ والنّارِ منزل، وليس بين الطّاعَةِ والمَعصيةِ عملٌ، وليس بين الكُفرِ والإيمانِ اسمٌ.

وقال مُحيي السُّنَّة: إنَّ الله خَلقَ الكافِرَ وكُفْرَه فعلاً له وكسباً، وخلق المؤمنَ وإيمانَه فعلاً له وكسباً، والكُلُّ بِتَقدِيرِ الله ومشيئَتِه. فالمؤمِنُ بعد خَلْقِ الله إيَّاهُ يَختارُ الإيمانَ لأنّ اللهَ تعالى أرادَ ذلك مِنهُ، وهذا طَرِيقُ أَهلِ السُّنَّةِ مَن سَلكَهُ أصابَ الحقَّ وسَلِمَ مِنَ الجَبْرِ والقَدَرِ(٢).

قوله: (الدَّهْرِيَّة) قال حُجَّة الإسلام: الدَّهْريون طَائِفةٌ من الأقْدَمين حَجَدُوا الصَّانِع المُدبِّر العَالِمِ القَادِر، وزَعَمُوا أنَّ العَالَمَ لم يَزَل موجُوداً لذلك بِنَفْسِه لا بِصَانع، ولم يَزَل الحَيْوانُ من النُّطْفةِ، والنُّطْفَةُ من الحَيْوان، كذلك كان وكذلك يكون، فهؤلاء هم الزَّنَادِقةُ خَذَلَهم اللهُ وأبَادَهُم(٣).

---

(١) مُسلم (٢٦٦١)، والتِّرْمذيُّ في «الجامع» (٣١٥٠) وقال: حسن صحيح غريب، وأبو دَاودُ في «السنن» (٤: ٢٢٧)، (٤٧٠٥).

(٢) «معالم التنزيل» للبغوي (٥: ١٠٣).

(٣) «المنقذ من الضلال» للغزالي ص١٢٨ -١٣٣.

فإنْ قُلتَ: نعم، إنّ العِبادَ هُم الفاعِلونَ للكُفر، ولكن قَد سَبقَ في عِلمِ الحَكيمِ أنهُ إذا خلقَهم لم يَفعَلوا إلّا الكُفرَ، ولم يَختاروا غيرَه، فما دَعاهُ إلىٰ خَلقِهم معَ علمِه بما يكونُ منهُم؟ وهل خَلقُ القَبيحِ وخَلقُ فاعلِ القَبيحِ إلّا واحدٌ؟ وهل مَثلُه إلّا مَثَلُ مَن وهَبَ سيفًا باترًا لِمَن شُهِرَ بقَطعِ السَّبيلِ وقَتلِ النَّفْسِ المُحَرَّمةِ فقَتلَ به مُؤمِنًا؟ أمَا يُطبِقُ العُقَلاءُ علىٰ ذَمِّ الواهبِ وتَعنيفِه، والدَّقِّ في فَروَتِه كما يَذُمّونَ القاتلَ؟ بل إنْحاؤُهم باللَّوائمِ علىٰ الواهِبِ أشَدّ؟

قلتُ: قد عَلِمنا أنّ اللهَ حَكيمٌ عالِمٌ بقُبحِ القَبيحِ، عالِمٌ بغِناه عنه، فقَد علِمْنا أنّ أفعالَه كلَّها حسَنةٌ، وخَلقُ فاعِلِ القَبيحِ فعلُه، فوَجبَ أنْ يكونَ حَسنًا، وأنْ يَكونَ لهُ وَجهٌ حسَن؛ ....

قوله: (نَعم، إنَّ العِبادَ هُم الفَاعِلون) إيجابٌ لقوله: «فمنكم آتٍ بالكُفْر وفاعلٌ له، ومُنْكِرٌ آتٍ بالإيمانِ وفاعِلٌ له» إلى آخره، وتقريرٌ له بعد الدلائل، كأنّه قيل: ظَهرَ أنَّ العِبادَ هم الفَاعِلون.

قوله: (والدَّق في فَرْوَتِه)، الأساس: لأسلخنَّ فَرْوةَ رأسِك، وضَربه على أمِّ فَرْوتِه وهي هامتُه، فهي عبارة عن الوقوع فيه وتمزيق عِرْضِه[1].

قوله: (قَد عَلِمْنا أنَّ اللهَ حكيمٌ عالـم) إلى آخره، الانتصاف: اقتحم الزَّمَخْشَري وعرَ المسالك، وهو فيها هالك، فتحذَّق وتَشَدّق، وتفقَّه فتفيهق، هَبْ أنّه نسي أنَّ الله خالقُ كُلِّ شيءٍ، وغَفِلَ عن الأدلَّة العقليَّة، أليس قد اعترف أنَّ خَلق فَاعلَ القَبيحِ كخلق القبيح؟! زعماً منه أنّ ما قَبُح شاهداً، قَبُح غائباً، كما علّل بأنّه يجوز أنْ يكون فيها حكمة استأثر الله بها، فما الذي يمنعه أنْ يقول: أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وفي ذلك حكمة استأثر الله بها؟! ولا فَرق إلا التَّحكُّم واتِّباع الهوى.

---

(١) من قوله: «قوله والدّق...» إلى هنا، ساقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

وخَفاءُ وجْهِ الحُسنِ علينا لا يَقدَحُ في حُسنِه، كما لا يَقدَحُ في حُسنِ أكثرِ مخلوقاتِه جَهلُنا بداعي الحِكمةِ إلىٰ خَلقِها.

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ بالغَرضِ الصَّحيحِ والحِكمةِ البالِغة، وهو أنْ جعَلَها مَقارَّ المُكلَّفينَ ليَعمَلوا فيُجازِيَهم، ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ ـ وقُرِئَ: (صِوَرِكم) بالكسر ـ لتَشكُروا، وإليه مَصيرُكم فجَزاؤُكُم علىٰ الشُّكرِ والتَّفريطِ فيه.

فإنْ قُلتَ: كيفَ أحسَنَ صُورَكم؟

قلتُ: جعَلَهم أحسنَ الحيوانِ كلِّه وأبهاه، بدَليلِ أنّ الإنسانَ لا يَتمنّىٰ أنْ تكونَ صورتُه علىٰ خِلافِ ما يَرىٰ من سائرِ الصُّوَر. ومن حُسنِ صُورتِه أنهُ خُلِق مُنتَصِبًا غيرَ مُنكَبّ، كما قال عزَّ وجَلّ: ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤].

فإنْ قُلتَ: فكم من دَميمٍ مُشوَّهِ الصّورةِ سَمِجِ الخِلقةِ تَقتَحمُه العيون؟

قلتُ: لا سَماجةَ ثَمّ، ولكنّ الحُسنَ كغَيرِه من المعاني علىٰ طَبقاتٍ ومَراتبَ، فلانحِطاطِ بعضِ الصُّورِ عن مَراتبِ ما فوقَها انحِطاطًا بيِّنًا، ....

قوله: (وخَفاءُ وجْهِ الحُسْن عَلَينا، لا يَقْدح في حُسْنِه) قال صاحِب «الانتصاف» في البقرة: ما ذكرتموه إنْ صَلح جَواباً كان جواباً عمّا أعْرَضْتُم، فلم لم تُسلِّم الأمر إلى الله في أوّل الأمر؟!

قوله: (على الشُّكر) مُتعَلِّق بـ«جزاؤكم»، وهو مُبتدأٌ خبَرُه محذوفٌ، والجُملةُ مَعْطوفةٌ على جُملةِ قولِه: «وإليه مَصِيركم» يعني: جعلها مقارَّ للمكلفين ليعملوا، وصَوَّركم فأحسن لتشكروا، وإليه مصيركم[1] فعِنْده جزاؤكم[2] على الشُّكْر والكُفْران، وقيل: «فجَزاؤكم» عَطْفٌ على «مَصيرُكُم»، فكأنّه قيل: إليه مَصِيرُكم فإليه انْتَهى جزاؤكم.

قوله: (فلانحِطَـاط بَعْض الصُّوَر) اللام فيه تَـعْليلٌ لقولِه: «لا يُسْـتَملَح»، والاسْتثناء

---

(١) من قوله: «يعني جعلها» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف)، وأثبته من (ط).

(٢) من قوله: «وهو مبتدأ» إلى هنا ساقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

وإضافتُها إلىٰ المُوفي عليها لا تُستَملَح، وإلّا فهي داخلةٌ في حَيِّز الحُسن، غيرُ خارِجةٍ عن حَدِّه. ألا تَرىٰ أنّك قد تُعجَبُ بصورةٍ وتَستمْلحُها ولا تَرىٰ الدُّنيا بها، ثمّ ترىٰ أملَحَ وأعلىٰ في مَراتِبِ الحُسن منها فيَنبو عن الأولىٰ طَرفُك، وتَستثقِلُ النَّظَرَ إليها بَعدَ افتِتانِك بها وتَهالُكِكَ عليها؟ وقالت الحُكماءُ: شَيئانِ لا غايةَ لهُما: الجَمالُ، والبَيان.

نبَّه بعِلمِه ما في السمٰواتِ والأرض، ثُمّ بعِلمِه ما يُسِرُّه العِبادُ ويُعلِنونَه، ثُمّ بعِلمِه ذواتِ الصُّدور، أنّ شيئًا من الكُلّياتِ والجُزئيّاتِ غيرُ خافٍ عليه ولا عازبٍ عنه، فحَقُّه أن يُتَّقىٰ ويُحذرَ ولا يُجتَرأَ علىٰ شَيءٍ ممّا يُخالِفُ رِضاه. وتكريرُ العِلمِ في مَعنىٰ تكريرِ الوَعيد، وكلُّ ما ذَكَره بعدَ قَولِه تعالىٰ: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾.

في قولِه: «وإلا فهي داخِلةٌ» في معنى الشَّرْط، والفاء علّة، أي: وإن لا يكن انحِطاطُ بعض الصُّور ولا تكن هذه الإضَافة، لـما كان عدم الاسْتِملاحِ، ولَـما اقْتَحمتْه العُيون، لأنَّ هذا البعض داخِلٌ في حَيِّزِ الحُسن، والمُراد بالمُوفي عليها: هي التي أتَمَّ الله حُسْنَها، يقال: وَفَى الشَّيءُ وُفِيّاً على فُعُول: تمَّ وكثر، والباء في قوله: «ولا ترى الدُّنيا بها» بدلية.

قوله: (وَكلُّ ما ذَكَره بَعْد قوله: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾) «كلّ» مُبتدأٌ، والخبرُ «في معنى الوَعِيد»، «وكما ترى» مُتعَلِّقٌ بالخبر، أي: كُلُّ ما ذكَره وارِدٌ في معنى الوَعِيدِ وُروداً كما ترى، هذا تَمسُّكٌ بدلالةِ النَّظْم على مَطْلوبِه، وقد ذكر أنَّ الدَّليلَ على أنَّ قولَه: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ في معنى: «فمنكم آتٍ بالكُفر، ومنكم آتٍ بالإيمانِ وفاعِلٌ له» قولُهُ: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ثُمَّ شَـدَّ عَضُدَه بقولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وقلت: أمّا تَقْريره النَّظم على أنَّ «الفاء» في ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ تَفْصيليَّة، وأنَّ الآياتِ كُلَّها وارِدةٌ لبيانِ عَظَمة الله في مُلْكِه ومَلَكُوتِه، فهو أنّه تعالى لـمّا أثبت لِذاتِه الأقْدس التَّنْزيهَ، وأنَّ كُلَّ شَيءٍ يُنزِّهُه ويُـقدِّسُه عمّا لا يَليق بجلاله، ثُمَّ خَصَّ لها صِفةَ المالِكيَّة على الإطْلاقِ، وخَصَّ

كما تَرىٰ في مَعنىٰ الوَعيدِ علىٰ الكُفرِ وإنْـكارِ أنْ يُعصىٰ الخالِق، ولا تُشكَر نِعمتُه فما أجهَلَ مَن يَمزِجُ الكُفرَ بالخَلقِ ويَجعلُه من جُملتِه، والخَلقُ أعظَمُ نِعمةٍ من الله علىٰ عِبادِه، والكُفرُ أعظَمُ كُفرانٍ من العِبادِ لربِّهم.

[﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ ٥-٦]

أنَّ لها كُلَّ كمالٍ وجَمالٍ، ومِنهُ كُلّ نِعمةٍ وإفضَالٍ، وهو خَالِقُ كُلِّ مُهْتدٍ وضَالٍ، ونَظَمَ دليلَ الآفاقِ مع دَليلِ الأنْفُسِ، وبيَّن أنَّ إليه المَصِيرَ والمـآل، خَتَمها بإثباتِ العِلْمِ الشَّامِلِ للكُلِّيَّاتِ والجُزئيَّاتِ وكرَّره تكْريراً وأكَّده توكِيداً، وكان ذِكْرُ العِلمِ في قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ اسْتِطْراداً لِذكْر الخَلْقِ وتَفْصيله، ولإثْباتِ القَضَاء والقَدَر، ولمّا فَرَغ من ذِكْر بيانِ العَظَمة جاء بالتَّهديدِ والوَعِيدِ، وقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية، والله أعْلَم.

قوله: (فَما أجْهَل من يَمْزج الكُفْر بالخَلْقِ) أيْ: يقول: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ داخِلان تحت[(١)] قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ ومِن جُملتِه كما سَبق، ونقول: هذا قولُ من يَجْهلُ القَدَرَ، ولا يُؤمنُ بالنُّصوصِ القَاطِعة والبَراهِين السَّاطِعَة، والفَرْقِ بين الخَلْقِ والكَسْبِ، ولو لـم يكُن لِـمَزْجِ الكُفْر بالخَلقِ مَدخَلٌ واعْتِبارٌ، وكان تَهديداً صِرْفاً كما ذَكر، لم يَكُن لِذِكْر ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ فائِدةٌ في المتنِ، لأنّه ـ على ما قال ـ وَعِيدٌ على تَعْكيسِ أمْرِهم، حيث وَضَعُوا الكُفْران مَوضِع الشُّكر، نحوُ قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] وهو المعْنِيُّ بقولِه: وكل ما ذكَره في الوَعِيد على الكُفْر وإنْكَار أنْ يُعْصى الخَالِق، ولا يَشْكُر نِعْمتَه[(٢)]، وليس كَذلِك؛ لأنَّ قولَه ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ يأباه.

---

(١) من قوله: «قوله: فما أجهل..» إلى هنا ساقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

(٢) من قوله: «وكل ما..» إلى هنا ساقط من (ح)، وأثبته من (ف) و(ط).

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ الخطابُ لكُفّارِ مكّة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلىٰ ما ذُكِرَ من الوَبالِ الذي ذاقوه في الدُّنيا وما أُعِدَّ لهم من العَذابِ في الآخِرة. ﴿بِأَنَّهُ﴾ بأنّ الشأنَ والحَديثَ ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أنكَروا أنْ تكونَ الرُّسُلُ بَشرًا، ولم يُنكِروا أنْ يكونَ اللهُ حجرًا!! ﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ أُطلِق ليتناوَلَ كُلَّ شيءٍ، ومِن جُملَتِه إيمانُهم وطاعَتُهم.

فإنْ قُلتَ: قولُه: ﴿وَّتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾: يوهِمُ وجودَ التَّولّي والاستِغناءِ مَعًا، واللهُ تعالىٰ لم يزَلْ غنيًّا.

قُلتُ: مَعناه: وظَهرَ استِغناءُ الله حَيثُ لم يُلجِئهُم إلىٰ الإيمانِ ولمْ يَضطَرَّهم إليه مع قُدرَتِه علىٰ ذلك.

[﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ٧-٨]

الزَّعمُ: ادِّعاءُ العِلم، ومنهُ قولُه عليهِ السّلامُ: «زَعَموا مَطيّةُ الكَذِب»، وعن شُرَيحٍ: لِكُلِّ شَيءٍ كُنيةٌ وكُنيةُ الكَذِبِ: «زَعَموا»، ويَتعدّىٰ إلىٰ المَفعولين تعدّي العلم. قال:

..... وَلَمْ أَزْعُمكِ عَنْ ذَاكِ مَعْزِلا

و﴿أَن﴾ معَ ما في حَيِّزِه قائمٌ مَقامَهما. و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أهلُ مكّة. و﴿بَلَىٰ﴾ إثباتٌ لِما بَعدَ ﴿لَّن﴾، وهو البعث، ....

قوله: (زَعَموا مَطيّة الكَذِب)، النهاية: معناه: أنَّ الرَّجل إذا أراد شيئاً من المَسير إلى بَلدٍ، والظَّعْن في حاجةٍ ركِب مِطيَّةً وسارَ حتّى يَقْضي أَرَبَه، فَشُبِّه ما يُقدِّمه المُتكلِّم أمَام كلامِه ويُتوصّل إلى غَرضِه من قولِه: «زعمُوا كذا وكذا»، بِالمَطيّةِ التي يتوصّل بها إلى الحاجةِ، وإنّما يُقالُ: زعموا في حديثٍ لا سَندَ له ولا ثَبتَ فيه، وإنّما يُحكَى على الألْسُنِ على سبيلِ الإبلاغِ.

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أيْ: لا يَصرِفُه عنه صارِف، وعَنىٰ برسولِه والنّورِ: مُحَمَّدًا ﷺ والقرآن.

[﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ٩-١٠]

وقُرِئَ: ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ و﴿يُكَفِّرْ﴾ و﴿يُدْخِلْهُ﴾، بالياءِ والنّون.

فإنْ قُلتَ: بِمَ انتَصَب الظّرفُ؟ قلتُ: بقولِه: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ أو بـ﴿خَبِيرٌ﴾، لِما فيه من مَعنىٰ الوَعيد، كأنهُ قيل: واللهُ مُعاقِبُكم يومَ يَجمَعُكم أو بإضمارِ (اذكر) ﴿لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ ليَومٍ يُجمَعُ فيه الأوَّلونَ والآخِرون. **التغابُن: مُستعارٌ من: تَغابَنَ القَومُ في التِّجارة**؛ .....

قوله: (**وقُرِئ: ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾**) المَشهُورة: بالياءِ، وبالنُّونِ: شاذَّةٌ[١]، و«نُكفِّر» و«نُدخِلْه» بالنُّون: نافِعٌ وابنُ عامِرٍ، والباقُون: بالياءِ[٢].

قوله: (**التَّغابُن: مُستعارٌ مِن: تغابَن القَوم في التِّجارةِ**)، **الرَّاغِب**، الغَبْنُ: أنْ تَبْخَس صاحِبَك في مُعامَلةٍ بينَك وبَينَه بِضَربٍ من الإخْفَاء، فإنْ كان ذلك في مالٍ يُقال: غُبِن فُلانٌ؛ بضمّ الغَين، وإنْ كان في رأيٍ يقال: غَبِن؛ بكسر الباء[٣].

ويومُ التَّغابُن: يومُ القِيامة، لِظُهور الغَبْنِ في المُبايَعةِ المُشارِ إليها بقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، وبقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١] وبقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] فعُلِم أنَّهم قد غُبِنوا فيما تَركُوا من المُبايَعة، وفيما تَعاطُوه من ذلك جميعاً.

(١) قال ابن الجزري في «تحبير التيسير» ص٥٨٣: قرأ يعقوب: «نجمعكم» بالنُّون، والباقون: بالياء.
(٢) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٤.
(٣) «مفردات القرآن» ص٦٠٢.

وهو أنْ يَغبِنَ بعضُهم بعضًا لِنُزولِ السُّعَداءِ مَنازلَ الأشقِياءِ التي كانوا يَنزِلونَها لوْ كانوا سُعداء، ونُزولِ الأشْقِياءِ مَنازلَ السُّعَداءِ التي كانوا يَنزِلونَها لو كانوا أشْقِياء، **وفيهِ تَهَكُّمٌ بالأشْقِياء؛** لأنّ نُزولَهم ليسَ بغَبْن.

قوله: (**وفيه تَهَكُّمٌ بالأشْقِياءِ**) يعني: صحَّ أنْ يُقال باعْتِبارِ السُّعَداء: ﴿يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾؛ لأنَّهم يَغْبنون الأشْقياءِ بنُزولِهم في مَنازِلهم من الجنَّة لو كانوا سُعَداء، ولكنْ لا يستقيم باعتبار الأشقياء؛ ذلك لأنَّهم لا يَغْبِنون السُّعداء بنُزولِهم في منازِلهم من النّار، إلا بالاسْتِعارةِ التَّهَكُّميَّة، وهو المُراد من قولِه: «لأنَّ نُزولَهم ليس بِغَبْنٍ».

وجعل الواحِديُّ التَّغابُن من طَرفٍ واحِدٍ للمُبالَغَة حيثُ قال: ﴿يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾: يَغْبِن فيه أهلُ الحقِّ أهلَ الباطل، وأهلُ الإيمان أهلَ الكفر، ولا غَبن أبين من هذا، هؤلاء يدخلون الجنة وهؤلاء يدخلون النار[(١)].

وأحسنُ منهما ما ذكَرَه مُحيي السُّنَّة قال: هو تَفاعُلٌ من الغَبْنِ، وهو فَوْتُ الحَظِّ، والمُرادُ بالمَغْبُون من غُبِن في أهْلِه ومَنازِلِه في الجنّة، فيَظْهرُ يومَئذٍ غَبْنُ كُلِّ كافِرٍ بِتَركِ الإيمانِ، وغَبْنُ كُلِّ مُؤمنٍ بِتَقْصِيرِه في الإحْسان[(٢)]. وعليه قول الرَّاغب: ﴿يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾: يومُ القِيامةِ، لِظُهورِ الغَبْن في المُبايَعةِ... إلى آخرِه[(٣)]، كما مَرّ آنفاً.

فالمُبايَعَةُ من الشَّخْصِ ونفسِه، وكذا المُغَابَنةُ على سَبيلِ التَّجْريدِ كما في قولِه تعالى: «وما يُخادعون إلا أنفُسَهم» في وجهٍ[(٤)]، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١]، وما رُوِّينا عن الإمامِ أحمد بن حَنْبَل عن جابرٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «يا كَعبُ بنَ عُجْرَة، النَّاسُ غادِيان، فمُبْتاعٌ نَفسَهُ فمُعْتِقُها، وبائِعٌ نَفسَه فموبِقُها»[(٥)].

---

(١) «الوسيط» (٤: ٣٠٧).

(٢) «معالم التنزيل» للبغوي (٥: ١٠٤).

(٣) «مفردات القرآن» ص٦٠٢.

(٤) كما في قراءة ابن كثير ونافع وأبو عمرو، انظر: «التيسير في القراءات السبع» ص٥٩.

(٥) «مسند الإمام أحمد» (٣: ٣٢١).

وفي حَديثِ رَسولِ الله ﷺ: «ما من عَبدٍ يَدخُلُ الجَنّةَ إلّا أُرِيَ مَقعدَه من النّار لو أساءَ ليزدادَ شُكرًا، وما من عَبدٍ يَدخلُ النّارَ إلّا أُرِيَ مَقعدَه من الجَنّةِ لو أَحسنَ ليَزدادَ حَسرةً».

ومعنىٰ ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ ـ وقَد يَتغابَنُ النّاسُ في غَيرِ ذلك اليوم ـ: استِعظامٌ له وأنّ تَغابُنه هو التّغابُنُ في الحَقيقةِ لا التّغابُنُ في أمورِ الدُّنيا وإنْ جَلّتْ وعَظُمَت.

﴿صَٰلِحٗا﴾: صفةٌ للمَصدَر، أي: عَمَلًا صالِحًا.

[﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ ١١]

﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: إلّا بتَقديرِه ومَشيئَتِه، كأنه أَذِنَ للمُصيبةِ أنْ تُصيبَه. ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ يلطُفْ به ويَشرَحْه للازدِيادِ من الطّاعةِ والخَير. وقيل: هو الاستِرْجاع عند المُصيبة.

وعن الضَّحّاك: ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ حتّىٰ يَعلمَ أنّ ما أصابَه لَمْ يَكُن ليُخطِئَه، وما أخطَأَه لَمْ يَكُن ليُصيبَه.

قوله: (وفي حديثِ رسولِ الله ﷺ) الحديثُ بتمـامِه رواه البُخَاريُّ عن أبي هُريرة في «صحيحِه»، وأوْردَه الصَّغاني في «مَشَارِق الأنوار»[1].

قوله: (ومَعْنى ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾) مُبتدأٌ، والخبرُ «اسْتِعظامٌ له»، وما تَوسَّط بينَهما اعْتِراضٌ، وقولُه: «وأنَّ تُغابنَه هو التَّغابن» إلى آخِره، عطفٌ على الخَبَر على سبيل التَّفسير، يعني: في إيْقاعِ ﴿يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ خبَراً لاسمِ الإشارةِ، والتَّعريف فيه للجِنس، والمشارُ إليه قريبٌ، استعظامٌ لذلك اليوم كما في قولِه تعالى: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١-٢].

قوله: (كأنَّه أَذِنَ للمُصيبةِ أنْ تُصيبَه) وهي اسْتعارةٌ مَكْنِيّة؛ لأنَّ الإذْنَ إنَّما يُسْتعمل في تسهِيل الحِجابِ كما مرّ مِراراً.

---

(١) انظر: «مبارق الأزهار شرح مشارق الأنوار» لابن الملك (١: ٥٤٨) وانظر الحديث في «صحيح البخاري» (٦٢٠٠).

وعن مُجاهِدٍ: إن ابتُلِـيَ صَبَر، وإنْ أُعطِيَ شَكَر، وإنْ ظُلِمَ غَفَر.

وقُرِئَ: (يُهدَ قَلبُه)، علىٰ البِناءِ للمَفعول، والقَلبُ مَرفوعٌ أو مَنصوب، ووَجهُ النَّصب أنْ يكونَ مِثل: ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، أي: يُهدَ في قَلبِه، ويَجوزُ أنْ يكونَ المعنىٰ: أنَّ الكافِرَ ضالٌّ عن قَلبِه بَعيدٌ منه، والمؤمِنُ واجِدٌ له مُهتَدٍ إليه، كَقَولِه تَعالىٰ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقُرِئَ: (نَهدِ قَلبَه)، بالنُّون، و(يَهدٌّ قلبَه)، بمعنىٰ: يَهْتد. و(يَهدَأ قلبُه): يَطمَئِنّ، و(يَهدَ) و(يَهدا) علىٰ التَّخفيف. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يَعلَمُ ما يُؤثِّرُ فيه اللُّطفُ من القُلوبِ ممّا لا يُؤثِّرُ فيه فيَمنَحُه ويَمنَعُه.

قوله: (أنْ يكون مِثلَ ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾) قال: معناه: سَفِه في نفسِه، فَحذَف الجار كقولهم: زيدٌ ظَنِّي مُقيمٌ، أي: في ظَنِّي، وقيل: انْتِصابُ النَّفسِ على التَّميز، نحو: غَبِنَ رأيَهُ، ويجوز تعريف المُميِّز في الشُّذوذِ.

قال ابنُ جِنِّي: قرأ عِكْرِمةُ: «يَهْدأ قَلْبُه» بالهمز، أي: يطْمئِنُّ قَلْبُه، كقولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1] [النحل: ١٠٦].

قوله: (و«يَهْدا» على التَّخْفيفِ) قال الزَّجَّاج: وقُرِئت: «يَهْدَ قلبُه»، على تأويل: هَدَأ قَلْبُه يهدأ، على طَرحِ الهمزة، ويكون في الرفع «يَهْدَا»؛ غير مَهْموزٍ، وفي الجزم: «يَهْدَ» بطرح الألف، يعني: إذا سَلَّمَ لأمر الله سَكَنَ قَلْبُه[2].

قوله: (فَيَمْنَحُه ويَمْنَعُه) نَشْرٌ لما سبق، هذا يُؤذِن أنَّ في الكلامِ إضْماراً تقديرُه: ما أصابَ من مصيبةٍ إلا بإذنِ الله، أي: بتقديرِه، فمن لم يُؤمن بالله يَخْذُلُه، ويَجْعَل صَدْره ضَيِّقاً حَرجاً، ومن يُؤمن يَلْطُف به ويَشْرح صَدْرَه. ويُؤيِّده قولُه في الوجه الثَّاني المُشار إليه بقولِه: ويجوز أنْ يكون «يهد» مُسنداً إلى العَبدِ، لا إلى الله تعالى.

---

(١) «المحتسب» (٢: ٣٢٣).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٨١).

[﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ١٢-١٣].

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فلا عَليهِ إذا تولّيتم؛ لأنهُ لم يُكتَب عليه طاعتُكم؛ إنما كُتِبَ عليه أنْ يُبلِّغَ ويُبيِّنَ فحَسب.

المعنى: أنَّ الكافِر ضَالٌّ عن قلبه، بعيدٌ عنه، والمؤمن واجِدٌ له مُهتدٍ إليه، فيكون قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تابعاً لِقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ على طَرْحِ قرينتَيْها، وأمَّا على تقرير أهلِ السُّنَّة: وأنَّ عِلمَ الله مُوافِقٌ لقضائِه وقَدرِه، فهو تذْييلٌ لقولِه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ولـما كان معنى ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بتقْديرِه ومَشيتِه، كان ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تقريراً له وتوكِيداً، يَنصُرُه ما رواه الوَاحِديُّ عن ابنِ عبّاس: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بعلْمِه وقَضائِـه، وعن مُقاتِل: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ عند المُصيبَة فيَعلم أنَّها من الله فَيُسلِّم لِقضائِه ويَسْترجع[1].

وعن محيي السنة: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾: يُوَفِّقْهُ لليقين حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيسلم لقضائه.

وقلتُ: ويَنصُر هذا التَّأويل ما رُوِّيناه عن أبي دَاود والتِّرمذيِّ عن عُبادةَ بنِ الصَّامت أنَّه قال لابنِهِ عند الموت[2]: يا بنَيَّ إنَّك لن تَجدَ طَعمَ حقِيقَة الإيمان، حتَّى تعلَمَ أنَّ ما أصابَكَ لم يَكُن ليُخطِئَك، وأن ما أخطأَكَ لم يكُن ليُصِيبَك، سمِعتُ رَسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ أوَّلَ ما خلَقَ الله القَلَم، فقالَ لهُ: اكتُب. قالَ: ربِّ وماذا أكتُبُ؟ قالَ: اكتُب مقاديرَ كلِّ شيءٍ حتَّى تَقومَ السّاعَةُ»، يا بنَيَّ إنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «مَن ماتَ علىٰ غير هذا فلَيسَ منِّي».

وعليه كلام الضَّحَّاك، فحينئذٍ يُحتَرَز أنْ يُـقال ما قالَه في سورةِ يونس عند قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦]: «تلكَ كِتابَةُ مَعْلومٍ، لا كِتَابَةُ مُقَدَّر»[3].

---

(١) «الوسيط» (٤: ٣٠٧).

(٢) أبو داود في «السنن» (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥) و(٣٣١٩).

(٣) «الكشاف» (٧: ٥٦٩).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بعثٌ لِرسولِ الله صلّىٰ اللهُ تَعالىٰ عليه وآله وسلَّم علىٰ التّوكُّلِ عليه والتَّقوِّي به في أمرِه، حتّىٰ يَنصُرَه علىٰ مَن كذَّبه وتولّىٰ عنه.

[﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ١٤-١٥]

إنّ من الأزواجِ أزْواجًا يُعادِينَ بُعولَتَهُنّ ويُخاصِمْنَهم **ويَـجْلُبْنَ عليهم**، ....

إنْ قُلتَ: هذا لا يَلزَمُه لأنّه ذكر في كتاب «المنهاج في الأصول»: أنَّ الحَسَنة التي هي الخصْب والصِّحَّة، من الله، وأمَّا الطَّاعاتُ فمن العَبد، ولكنّ الله تعالى قد لطفَ بِهِ في أدائِها، وبعثه عليها، والسيئة هي القَحْطُ والمَرض من الله تعالى، وهو صَوابٌ وحِكْمةٌ، وأمَّا المَعصية فمن العَبد، والله تعالى بريءٌ منها(١).

وما نحن بصدَدِه من القَبيل الأوّل من القِسْم الثّاني وهو القَحْطُ والمرضُ، لا الكُـفْر والمَعْصية، ولذلك فسَّر الآية ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بقوله: «إلا بتقديره ومشيئته».

وقلت: الذي يقْتضيه النَّظمُ واسْتشهاد عُبادَة بالحديث أنَّ تكون المُصيبةُ عامَّةً في جميعِ المصائِب، أمَّا في الحديث فبدلالةِ قولِه: «اكتُبْ مقَاديرَ كُلّ شيءٍ»، وأمّا في الآية فلِوُرودِها عُقَيْب بيانِ جَزاء المُؤمن وجزاء الكافر، وإردَافِها بقولِه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ وأيُّ مُصيبةٍ أعظمُ من ارْتكاب المعاصِي والكُفر؟! فيَكونُ قولُه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إشَارةً إلى الخَلْقِ، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ إيماءً إلى الكَسْب، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كالخَاتمة والفَذْلَكة للكُلّ، وكالمَخلَص إلى مَشْرعٍ آخَر، واللهُ أعْلم.

قوله: (**ويَجْلُبن عَلَيْهم**) من الجلبة: الصيحة، ويروى: «ويُجلبْنَ». **الجوهري**: جَلَبَ على

---

(١) «المنهاج في الأصول» للزمخشري ص١١.

ومن الأَوْلادِ أَوْلادًا يُعادونَ آباءَهم ويَعقّونَهم ويُـجَرِّعونَهم الغُصَـصَ والأذىٰ.

﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ الضَّميرُ للعَدُوِّ أو للأزواجِ والأَوْلادِ جَميعًا، أي: لـمّا علِمتُم أنّ هؤلاءِ لا يَخلُونَ من عَدُوّ، فكُونُوا منهُم علىٰ حَذَرٍ ولا تَأمَنوا غَوائِـلَهم وشَرَّهُم. ﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ عَنهُم إذا اطَّلَعْتُم مِنهُم علىٰ عَداوةٍ ولَم تُقابِلوهُم بمِثلِها، فإنّ اللهَ يَغفِرُ لكُم ذُنوبَكم ويُـكَفِّر عنكم.

وقيل: إنّ ناسًا أرادوا الهِجرةَ عن مَكّةَ، فثَـبَّطَهم أزْواجُهم وأَوْلادُهم وقالوا: تَنطَـلِقونَ وتُضَيِّعونَنا فرَقُّوا لهم ووَقَفوا، فلمّا هاجَروا بعدَ ذلك ورَأَوُا الذين سَبقوهُم قد فَقِهوا في الدِّين أرادوا أنْ يُعاقِبوا أزْواجَهم وأولادَهم فزُيِّن لهم العَفو. وقيل: قالوا لهم: أينَ تَذهَبونَ وتدَعونَ بلدَكم وعَشيرتَكم وأموالَكم؟ فغَضِبوا علَيهم وقالوا: لئِن جمعَنا اللهُ في دارِ الهِجرةِ لم نُصبْكُم بخَير، فلمّا هاجَروا منَعوهُمُ الخَير، فحُثّوا أنْ يَعفُوا عنهم ويَرُدّوا إليهم البِرَّ والصِّلة.

وقيل: كان عَوفُ بنُ مالكٍ الأشْجَعيُّ ذا أهلٍ ووَلَدٍ، فإذا أراد أنْ يَغزُوَ تَعلَّقوا به وبَكَوْا إليه ورَقَّقُوه، فكأنهُ هَمَّ بأذاهُم، فنزَلَتْ.

﴿فِتۡنَةٌ﴾ بلاءٌ ومِحنة؛ لأنّهم يوقِعون في الإثْمِ والعُقوبةِ ولا بلاءَ أعظَمُ منهُما؛ ألا تَرىٰ إلىٰ قولِه: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾؟ وفي الحديث: «يُؤتىٰ برَجُلٍ يومَ القِيامةِ فيُقال: أكَلَ عيالُه حسَناتِه»، وعن بَعضِ السَّلف: العِيال سُوسُ الطّاعات. ....

فرسِه يَجْلُبُ بالضَّمِّ جَلْباً، إذا صاحَ به من خَلْفِه واستحثَّه للسَّبْقِ. وأَجْلَبَ عليه مثلُهُ.

قوله: (وقيل: إنَّ ناساً أرادوا الهِجرة) الحديث رواه التِّرمذيُّ عن ابنِ عبّاس مع اختلافٍ، وهو عَطْفٌ على قولِه: «إنّ من الأزْواجِ أزْواجاً»، فعلى الأوّل الآية عامّةٌ، وكذلك قولُه: «وقيل: إذا أمْكَنكُم الجِهاد والهِجْرة»، وعَطَف على قولِه: «﴿فِتۡنَةٌ﴾ وبلاء ومحنة، لأنّهم يُوقِعُون في الإثم».

وعن النبي ﷺ: **أنه كانَ يخطُبُ فجاءَ الحَسنُ والحُسينُ** وعَليهما قميصانِ أحمَرانِ يَعثُرانِ ويَقومان، فنَزَلَ إليهما فأخذَهُما ووضَعَهُما في حِجرِه علىٰ المِنبَرِ فقال: «صَدقَ الله، ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، رأيْتُ هذين الصَّبِيَّين فلَم أصْبر عنهُما» ثُمَّ أخذَ في خُطبتِه.

وقيل: إذا أمكَنكُم الجِهادُ والهِجرةُ فلا يَفتِنَنَّكُمُ الميلُ إلىٰ الأموالِ والأوْلادِ عنهُما.

[﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ١٦]

﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ جُهدَكُم ووُسعَكُم، أيْ: **ابذُلوا فيها** استطاعَتَكم ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ ما تُوعَظونَ به ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ فيما تُؤمَرون به وتُنهَوْن عنه، ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ في الوُجوهِ التي وَجبَتْ عليْكُم النَّفَقةُ فيها، ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ نُصِبَ بمَحذوفٍ تقديرُه: ائتُوا خيرًا لأنفُسِكم، وافعَلوا ما هو خَيرٌ لها وأنفَع؛ **وهذا تَأكيدٌ للحَثِّ علىٰ امتِثالِ هذه الأوامِر**، وبَيانٌ لأنّ هذه الأمورَ خيرٌ لأنفُسِكم من الأموالِ والأوْلادِ وما أنتُم عاكِفونَ عليه من حُبِّ الشَّهَواتِ وزَخارِفِ الدُّنيا.

قوله: (**أنَّه كان يَخْطُب فجاءَ الحَسَنُ والحُسَين رضِيَ الله عَنْهما**) الحديث رواه التِّرمِذيُّ وأبو دَاود وابنُ ماجَه والنَّسائيُّ عن أبي بُريدَةَ مع اخْتلافٍ يسيرٍ[1].

قوله: (**ابذُلوا فيها**) أي: في التَّقْوى.

قوله: (**وهذا تأكِيدٌ للحَثِّ على امْتِثَال هَذهِ الأوامِر**) يعني قوله: «خيراً لكم»، إذ التَّقْدير: ائتوا خيراً لأنْفُسِكم، والمعنى: وافْعَلُوا ما هو خيرٌ لها، فيكون كالخَاتمة لِسائِر الأوامر السَّابقة، وكالبيانِ للتَّرجِيح على ما اعْتَقدُوا فيه الخَير من الأمْوال والأوْلاد.

---

(١) التِّرمِذي في «الجامع» (٣٧٧٤)، وأبو داود في «السنن» (١١٠٩)، وابن ماجه في «السنن» (٣٦٠٠) والنسائي في «السنن» (٣: ١٠٨).

[﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ١٧]

﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ وذِكرُ القَرض: تَلَطُّفٌ في الاستدعاء. ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾: يَكتُب لكم بالواحِدةِ عَشرًا، أو سَبعَ مئةٍ إلىٰ ما شاءَ من الزِّيادة. وقُرِئَ: (يُضَعِّفْهُ).

﴿شَكُورٌ﴾ مَجازٌ، أي: يَفعَل بكُم ما يَفعَلُ المُبالِغُ في الشُّكرِ من عَظيمِ الثَّواب، وكذلكَ ﴿حَلِيمٌ﴾ يَفعَلُ بكُم ما يَفعَلُ مَن يَحلُمُ عن المُسيءِ، فلا يُعاجِلُكم بالعِقابِ مع كَثرةِ ذُنوبِكم.

عن رسول الله ﷺ: «مَن قرأ سُورةَ التَّغابُن رُفِعَ عنهُ مَوتُ الفَجأةِ».

قال القاضي: ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿خَيْرًا﴾ صفةَ مَصْدرٍ مَحْذوفٍ، أو خَبراً لكان مُقدَّراً، جواباً للأوامرِ[١].

تمت السُّورة

بِحمدِ الله وعَوْنه.

* * *

(١) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ٣٤٧).

سورة الطلاق

مدَنيّةٌ، وهيَ إحدى عشرةَ أو اثنتا عشرةَ أو ثلاث عشرةَ آيةٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۞ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ ١-٣]

خُصَّ النَّبيُّ ﷺ بالنِّداءِ، وعُمَّ بالخِطابِ؛ لأنّ النَّبِيَّ إمامُ أمّتِه وقُدوتُهم، كما يُقالُ لِرئيسِ القَومِ وكَبيرِهم: يا فُلانُ افعلوا كَيْتَ وكَيْت، ....

سورة الطلاق

مدَنيّةٌ(١)، وهيَ إحدى عشرةَ آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (وعُمّ بالخِطّاب)، «عُمّ»: مسندٌ إلى الجار والمجرور.

---

(١) في (ط): «مكية»، وهو خطأ.

إظْهارًا لتَقَدُّمِه واعتِيارًا لتَرَؤُّسِه، وأنهُ مِدرَهُ قَومِه ولِسانُهم، والذي يَصدُرونَ عَن رَأيِه ولا يسْتَبِدُّونَ بأمْرٍ دونَه، فكانَ هُو وَحدَه في حُكمِ كُلِّهم، وسادًّا مَسدَّ جَميعِهم.

ومَعنىٰ ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ إذا أَرَدْتُم تطليقَهُنَّ وهَمَمْتُم به، علىٰ تَنزيلِ المُقبِلِ علىٰ الأمْرِ المُشارِفِ له مَنزلةَ الشّارِعِ فيه: كقَولِه علَيه السلامُ: «مَن قَتلَ قَتيلًا فلَهُ سَلَبه» ومنه كانَ الماشي إلىٰ الصّلاةِ والمُنتَظِرُ لها في حُكمِ المُصَلّي. ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فطَلِّقوهُنَّ مُستقبِلاتٍ لِعِدَّتهنّ، كقَولِك: أتَيتُه لِليلةٍ بَقِيت من المُحَرَّم، أيْ: مُستقبِلًا لها. ....

قوله: (إظهاراً لِتقَدُّمِه واعْتِباراً لِتَرؤسِه)، ومن ثَمَّ أوثِر لفظُ النَّبيِّ على الرَّسُولِ، كما رُوِّينا في «صحيح البُخاريِّ» غيرَ مَرَّةٍ أنَّ البَراءَ لَمّا قال في الدُّعاءِ: ورسُولِك الّذي أرْسَلتَ، قال رسولُ الله ﷺ: «لا، ونَبيِّك الّذي أرْسَلتَ»[1].

النهاية: قيل: إنَّ «النَّبيَّ» مُشْتَقٌّ مِن النَّباوَةِ: وهو الشَّيءُ المُرتَفِعُ.

الرّاغِب: النُّبوّة: سَفارَةٌ بين الله عزّ وجَلّ، وبين ذَوي العُقول من عِبادِه لإزاحَةِ عِلَلهم في أمرِ مَعادِهم ومَعَاشِهم[2].

قوله: (مِدْرَهُ قَومِه)، الجَوْهَري: المِدْرَه: زعيمُ القَومِ والمُتكلّم عنهم.

قوله: (ومنه كان الماشِي إلى الصَّلاة والمُنتَظِر لها في حُكْم المُصلِّي)، هذا إشارةٌ إلى قوله ﷺ: «إذَا أُقِيمَتِ الصَّلاةُ فَلا تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ، وائْتُوهَا تَمْشُونَ وعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَإنّ أَحَدَكُمْ إذَا كَانَ يَعْمَدُ إلَى الصَّلاةِ فهُوَ في صَلاةٍ»[3].

قوله: (فطَلِّقُوهُنَّ مُسْتَقْبلات لِعِدَّتِهنَّ)، قال القَاضي: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: وَقْتِها، وهو الطُّهْر، فإنَّ اللام في الأزمان وما يُشْبهها للتّأقيت، ومن عَدَّ العُدَّة بالحيض علق اللام بمحذوف، مثل مستقبلات، وظاهرُه يدل على أنَّ العِدَّةَ بالأطهار، وأنَّ طلاق المعتدَّة بالأقراء

(١) البُخاريُّ (٢٤٧).

(٢) «مفردات القرآن» ص٧٨٩.

(٣) هذه رواية مُسلم في «صحيحه» (٦٠٢)، لكن في روايته أيضاً: «فما أدْرَكتُمْ فَصَلُّوا وما فاتَكَمْ فَأتِمُّوا».

وفي قِراءةِ رَسولِ الله ﷺ: (في قُبُلِ عِدَّتهنّ)، وإذا طُلِّقتِ المَرأةُ في الطُّهرِ المُتقَدِّم للقُرْءِ الأوّلِ من أقْرائِها فقد طُلِّقتْ مُستَقبِلةً لعِدَّتِها، والمُرادُ: أنْ يُطَلَّقن في طُهْرٍ لم يُجامَعْنَ فيه،

ينبغي أن يكون في الطُّهر وأنه يحرم[١] في الحَيْض من حيثُ أنَّ الأمْر بالشَّيء يَسْتَلزِم النَّهي عن ضِدِّه، ولا يَدُلّ على عَدَمِ وُقوعه، إذ النَّهي لا يسْتَلزم الفساد، كيف وقد صحّ أنَّ ابنَ عُمر لـمّا طَلَّق امرَأتَه حائضاً أمَرَه رسولُ الله ﷺ بالرَّجْعة، وهو سَبَب نزوله[٢].

قوله: (**وفي قِراءَة رَسُولِ الله ﷺ: «في قُبُل عِدَّتِهنَّ»**)[٣]، يعني: هذه القِراءة تُرجِّح تَقْدير «مُسْتقبلاتٍ»، ورَوى هذه القِراءَة الأئمّة كُلُّهم.

وقال ابنُ جِنّي: هذه القِراءَة تَصْديقٌ لمَعْنى قِراءَة الجَماعة، أي: فطَلِّقوهُنَّ عِند عِدَّتِهنَّ، ومِثله قولُه تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] أي: عند وقتها[٤].

وقال صاحب «الانتصاف»: وجْه الدَّليل من القِراءَتين على أنَّ الأقْراء الأطْهَارُ، خِلافَ ما ظَنّه، أنَّ الله تعالى جعل العِدَّة، وإنْ كانت في الأصل مَصْدَراً، ظَرْفاً للطَّلاق المأمور به كاستعمال المصادر ظَرْفاً، كخُفُوق النَّجم، ومَقْدمِ الحاجّ، وزَمانُ الطَّلاق، هو الطُّهر وِفاقاً. فالتَّطهُّر: عِدّةٌ، وتصير اللام على التَّحقيق مثلها في ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤] أي: لو عملتُ عملاً في حياتي، وعلى القِراءة الأُخرى من قبل عدَّتِهنَّ تحقّق ذلك، فإن قُبُلَ الشَّيء جُزءٌ منه، فلَقَد أطلق القَولَ من غير تَحْريرٍ[٥].

قوله: (**في الطُّهْر المتقدّم للقُرْءِ الأوّل**)، أي: للَحِيض الأوّل بأنْ يُطَلِّقها في طُهرٍ يُشارِف الحَيْض.

---

(١) من قوله: «بالحيض» إلى هنا سقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ٣٤٨).

(٣) انظر: «جزء فيه قراءات النبي» لأبي عمرو الدّوري ص١٦٢، وانظر: «صحيح مُسلم» (٣٧٤٣)، و«سنن أبي داود» (٢١٨٥).

(٤) «المحتسب» (٢: ٣٢٣).

(٥) «الانتصاف» لابن المنيِّر، بحاشية «الكشاف» (٤: ٥٥٢).

ثمّ يُخَلِّيْنَ حتّىٰ تَنْقضيَ عِدَّتهنّ، وهذا أحسَنُ الطّلاقِ وأدْخَلُه في السُّنّةِ، وأبعدُه من النّدَم، ويَدُلُّ عليه ما رُوِيَ عن إبراهيمَ النّخَعيِّ أنّ أصحابَ رَسولِ الله ﷺ كانوا يَستَحبُّون أنْ لا يُطَلّقوا أزواجَهم للسُّنة إلّا واحدةً، ثُمّ لا يُطلِّقوا غيرَ ذلك حتّىٰ تَنقضيَ العِدّةُ، وكانَ أحسَنَ عِندَهم من أنْ يُطَلّقَ الرَّجُلُ ثَلاثًا في ثَلاثةِ أطْهار، وقالَ مالكُ بنُ أنَسٍ رَضيَ اللهُ عنه: لا أعرِفُ طَلاقَ السنّةِ إلّا واحدةً، وكانَ يَكرَهُ الثّلاثَ مَجموعةً كانتْ أو مُتَفرِّقة، وأمّا أبو حَنيفةَ وأصحابُه فإنّما كَرِهوا ما زادَ علىٰ الواحِدِ في طُهرٍ واحد، فأمّا مُفرَّقًا في الأطْهارِ فلا؛ لِما رُويَ عن رَسولِ الله ﷺ **أنهُ قالَ لابنِ عُمرَ حينَ طَلّقَ امرَأتَه** وهيَ حائض: «ما هكذا أمَرَكَ الله، إنّما السُّنةُ أن تَستقبِلَ الطُّهْرَ اسْتِقبالًا، وتُطَلِّقَها لِكُلِّ قُرْءٍ تَطْليقَةً». ورُوِيَ أنهُ قالَ لعُمَرَ: «مُر ابنَكَ فَلْيُراجِعْها، ثُمَّ لِيَدَعْها حتّىٰ تَحيضَ ثُمّ تَطْهُر، ثُمّ لِيُطَلِّقْها إنْ شاء؛ فَتلكَ العِدَّةُ التي أمَرَ اللهُ أنْ تُطَلّقَ لها النِّساء».

وعِندَ الشّافِعيِّ رضيَ اللهُ عنه: لا بَأسَ بإرسالِ الثّلاث، وقالَ: لا أعرِفُ في عَدَدِ الطّلاقِ سُنّةً ولا بِدْعةً وهُو مُباح، فما لَكَ تُراعي في طَلاقِ السُّنّةِ الواحِدةَ والوَقت؛ وأبو حَنيفةَ يُراعي التّفريقَ والوَقْتَ؛ والشّافِعيُّ يُراعي الوَقتَ وَحدَه.

قوله: (**أنّه قال لابنِ عُمر حين طَلّق امرأته**) الحديث، رواه البُخَاريُّ ومُسْلمٌ ومَالِكٌ والتِّرمذيُّ وأبو دَاود عن ابن عمر أنّه طلّق امرأته وهي حائِضٌ فذكر ذلك عُمر رضي الله عنه لرسولِ الله ﷺ فتَغيّظ فيه رسولُ الله ﷺ ثُمّ قال: «لِيُرَاجِعْهَا ويُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ ثُمَّ تَحِيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ، فَإِنْ بَدَا لَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا فلْيُطَلِّقْهَا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا فتِلْكَ الْعِدَّةُ كَما أَمَرَ الله»[١]، وفي روايةٍ نحوه وفيه: «الطَّلاقُ لِلعِدَّةِ كَما أَمَرَ اللهُ تَعالَى» قال: وقرأ النَّبيُّ ﷺ: «يا أيُّها النَّبيُّ إذا طَلَّقْتُم النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ في قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ».

قوله: (**وعند الشّافِعيِّ: لا بأس بإرسَالِ الثّلاث**)[٢]، قال صاحب «التّقريب»: يقعُ عِند

---

(١) أخرجه مالك (٢: ٥٧٦) (١١٩٦)، والبخاري (٤: ١٨٦٤) (٤٦٢٥)، ومسلم (٢: ١٠٩٣) (١٤٧١)، وأبو داود (٢: ٢٥٥)، (٢١٧٩)، والنسائي (٦: ١٣٧) (٣٣٨٩)، وابن ماجه (١: ٦٥١)، (٢٠١٩).

(٢) انظر المسألة في: «الأم» للشافعي (٥: ١٤٧-١٤٩).

....

الشَّافِعيِّ الثَّـلاثُ طَلاقَ البِدْعة مع الإثْم[١]، وعِند ابن المُسيّب وجماعةٍ من التَّابِعين: لا يقَعُ ما أوقعه في حَيضٍ أو ثلاثاً[٢].

وقال مُحيي السُّنَّة في «المعالم»: ولا بِدْعة في الجَمْع بين الطَّلَقات الثَّلاث عند بعضِ أهْلِ العلم، حتّى لو طَلَّق امرأته في حَالِ الطُّهْر ثلاثاً لا يَكون بِدْعياً، وهو قولُ الشَّافِعيّ وأحمد، وذهَبَ بعضُهم إلى أنَّه بِدعَةٌ، وهو قَوْلُ مالك وأصحابِ الرَّأي[٣].

وقال: الطَّلاق السُّنِّي: أنْ يُطلِّقَها في طُهْرٍ لم يُجامِعْها فيه، فَلو طَلّق غيرَ المَدْخُولِ بها في حال الحَيْضِ، أو طَلَّق الصَّغيرة التِّي لم تَحِضْ، أو الآيِسة بعد ما جَامَعَها، أو طَلَّق الحامِلَ بعد ما جَامَعَها، أو في حالِ رُؤيةِ الدَّم، لا يكون بِدْعيّاً ولا سُنِّيّاً، ولو طَلَّق في حالِ الحَيضِ أو في طُهرٍ جامَعَهَا فيه قَصْداً، يعْصِي اللهَ، لكن يَقعُ الطَّلاق[٤].

وقال الزَّجّاجُ: عند مَالِك: إنْ أراد الزَّوجُ أنْ يُطَلِّقَ امرأته ثلاثاً أنْ يُطلِّقَها طاهِراً من غيرِ جِماعٍ تَطْلِيقَةً واحدةً ثُمَّ يَترُكُها إنْ أراد المقام على فُرْقَتِها ثلاثَ حِيَضٍ، فإذا طَعَنَت في الحَيْضَةِ الثَّالثة فلا يَمْلك رَجْعتَها، ولكنْ إنْ شاءَ أنْ يُجَدِّدَ نِكاحَها كان ذلكَ لهما، لأنَّ معنى قولَه تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ أي: بعدَ الطَّلاق الواحِد، فإذا طَلَّقَها ثَلاثاً في وقتٍ واحِدٍ فلا يَبْقى لِقَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾[٥] معنى.

وقد جَاء التَّشْديدُ فيمن تَعدَّى طَلاقَ السُّنَّةِ فقال: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ وقال: ﴿وَمَن

---

(١) هذا خلاف مذهب الشافعي كما في الإحالة السابقة، وفي «الحاوي» للماوردي (١٠: ١١٨): فإن طلَّقها ثلاثاً في وقتٍ واحدٍ وقَعت الثّلاثُ ولم تَكُن مُحرَّمَةً ولا بدعَةً، والسُّنَّة والبدعَةُ في زمان الطَّلاق لا في عدده.

(٢) قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٨: ١٤٢): وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين أن من خالف السنة في الطلاق فأوقعه في حيض أو ثلاث لم يقع.

(٣) «معالم التنزيل» للبغوي (٥: ١٠٨).

(٤) المصدر السابق (٥: ١٠٧-١٠٨).

(٥) من قوله: «أي بعد» إلى هنا سقط من (ح)، وأثبته من (ف) و(ط).

فإنْ قُلتَ: هَل يَقعُ الطّلاقُ المُخالفُ للسُّنّة؟

قُلتُ: نَعم، وهو آثِمٌ؛ لِما رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ: أنّ رَجُلًا طَلّقَ امرأتَه ثلاثًا بَين يَدَيْه، فقالَ: «أتَلعَبونَ بكِتابِ الله وأنا بَينَ أظهُرِكُم؟» وفي حَديثِ ابنِ عُمرَ أنهُ قال: يا رَسولَ الله، أرَأيتَ لو طَلّقتُها ثَلاثًا، فقالَ له: «إذنْ عَصيتَ وبانَتْ مِنكَ امرأتُك». وعن عُمرَ رضيَ اللهُ عنه: أنهُ كانَ لا يُؤتَىٰ بِرَجُلٍ طَلّقَ امرأتَه ثَلاثًا إلّا أوْجَعَه ضَربًا، وأجازَ ذلك علَيه. وعَن سَعيدِ بنِ المُسيِّب وجَماعةٍ من التّابِعين: أنّ مَن خالفَ السُّنّةَ في الطّلاقِ فأوْقعَه في حَيْضٍ أو ثلاثٍ لم يَقع، وشَبّهوهُ بمَن وَكّلَ غيرَه بطلاقِ السُّنّةِ فخالَف.

فإنْ قُلتَ: كيفَ تُطَلّقُ للسُّنّةِ التي لا تَحيضُ لِصِغَرٍ أو كِبَرٍ أو حَمْلٍ وغَيرُ المَدخولِ بها؟

قلتُ: الصَّغيرةُ والآيِسةُ والحامِلُ كُلُّهنّ عندَ أبي حَنيفةَ وأبي يوسُفَ يُفرَّقُ عليهِنّ الثلاثُ في الأشهر، وخَالفَهُما مُحَمَّدٌ وزُفَرٌ في الحامِلِ، فقالا: لا تُطَلّقُ للسُّنّة إلّا واحدةً، وأمّا غيرُ المَدخولِ بها فلا تُطَلّقُ للسُّنّةِ إلّا واحدةً، **ولا يُراعىٰ الوقْتُ**.

فإنْ قُلتَ: هل يُكرَه أنْ تُطلّقَ المَدخولُ بها واحدةً بائنةً؟

قلتُ: اختلَفتِ الرِّوايةُ فيه عَن أصحابِنا، **والظاهِرُ الكَراهة**.

فإنْ قُلتَ: قولُه: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ عامٌّ يَتناوَلُ المَدخولَ بِهنّ وغَيرَ المَدخولِ بِهِنّ من ذَواتِ الأقْراءِ...

يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ يعني حُدودَ طَلاقِ السُّنّة(١).

قوله: (ولا يُرَاعَى الوَقْت) إذ لا حَيْضَ لها، فلا يُتَصَوّر رِعَاية الوَقْت .

قوله: (والظَّاهِر الكَـرَاهَة) قيل: هذا لا يُتَصَوّر على مَذهَبِ الشَّافِعي إلا بالـخُلعِ مع الأجْنَبي، لأنّه إذا طَلّق المَدْخُولَ بها طَلْقَةً واحِدَةً لا تبين إنْ كان مجّاناً، وإنْ خالَعَها لا يَكون مَكْروهاً، وأمّا إنْ خَالَعَ مع الأجْنَبيّ والمرأةُ حَائِض، فلا يكونُ الطَّلاقُ بِدْعِياً .

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٨٣-١٨٤).

والآيِساتِ والصَّغائرِ والحَوامِلِ، فكيفَ صَحَّ تَخصيصُه بذَواتِ الأقْراءِ المَدخولِ بهِنّ؟

قلتُ: **لا عُمومَ ثَمّ ولا خُصوصَ**؛ ولكنّ النِّساءَ اسمُ جِنسٍ للإناثِ من الإنْسِ، وهذه الجِنسيَّةُ معنىً قائِمٌ في كُلِّهِنّ وفي بَعضِهِنّ، فجازَ أنْ يُرادَ بالنِّساءِ هذا وذاك، فلمّا قيل: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ عُلِمَ أنهُ أُطْلِقَ علىٰ بَعضِهِنّ وهُنّ المَدخولُ بهِنّ من المُعتدّاتِ بالحَيضِ. ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ واضبِطوها بالحِفظِ وأكمِلوها ثلاثةَ أقْراءٍ مُستَقبَلاتٍ كوامِلَ لا نُقصانَ فيهِنّ، ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ حتّىٰ تَنقَضيَ عِدَّتُهنّ، ﴿مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ من مَساكِنِهِنَّ التي يَسكُنَّها قَبلَ العِدّةِ، وهيَ بُيوتُ الأزواجِ؛ وأُضيفَتْ إليهِنّ لاخْتِصاصِها بهِنَّ من حَيثُ السُّكنىٰ.

فإنْ قُلتَ: ما معنىٰ الجَمعِ بَينَ إخْراجِهم أو خُروجِهنّ؟ قلتُ: معنىٰ الإخراجِ أنْ لا يُخرِجَهُنّ البُعولةُ غَضبًا عَليهِنّ، وكَراهةً لمُساكَنتِهِنّ، أو لحاجةٍ لهُم إلىٰ المَساكنِ،....

قوله: (لا عُمُومَ ثَمّ ولا خُصُوص)، قال صاحب «التَّقْريب»: وفيه نَظَر، وقيل: قولُه: «لا عُمومَ» مُشْكِلٌ، لأنَّ اسم الجِنْس المُعرَّف باللام من صِيغ العُموم، فالأولى أنْ يُقال هو عامٌّ، ولـمّا قيل: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ عَلِم أنَّ المُراد به الخُصُوص، وقلتُ: السُّؤالُ والجوابُ مَبنيٌّ على أصُولِ الحَنفيّة وتوجِيه السُّؤال: أنَّ النِّساءَ جَمْعٌ مُحلّى باللّام، فيُفيدُ اسْتِغراق جميع ما يَصْلُحُ له.

وخُلاصَة الجوابِ: أنَّ هذا ليس من العامِّ الذي خُصَّ بِقولِه: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ لأنَّ المُخصّص عِندَهم دليلٌ مُسْتقلٌّ بنفسِهِ كما سَبَق في البقَرة، وهَاهُنا ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ مِن تتمة الكَلام لأنَّه جَزاءٌ للشَّرْطِ، فلا يَصْلُح للتَّخصِيص فتَعَيَّن أنْ يكون قَيْداً للمُطْلَق، والنِّساءُ على هذا دَالٌّ على شَائعٍ في جِنسِهِ مُقيَّدٍ بِقيدِ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وقد فَسَّره النَّبيُّ ﷺ في حَديثِ ابنِ عُمَر بِطُهْرٍ لم يُجامِعْها فيه، فيجبُ الحَمْل عليه، وإليه أشار بقولِه: «علم أنّه أُطلق على بَعْضِهنَّ، وهن المَدْخولات بِهنَّ من المُعْتَدّات بالحَيْض».

وأنْ لا يَأذَنوا لَهُنّ في الخُروجِ إذا طَلَبْنَ ذلك، إيذانًا بأنّ إذنَهم لا أثَرَ له في رَفعِ الحظر، ولا يَخرُجْنَ بأنفُسِهنَّ إنْ أرَدْنَ ذلك، ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ قُرِئَ بفَتحِ الياءِ وكَسرِها، قيل: هيَ الزِّنىٰ، يعْني إلّا أنْ يَزنينَ فيُخْرَجْنَ لإقامةِ الحَدِّ عليهِنّ، وقيل: إلّا أنْ يُطَلَّقْنَ علىٰ النُّشوزِ، والنّشوزُ يُسقِطُ حَقَّهُن في السُّكنىٰ، وقيل: إلّا أنْ يَبذونَ فيَحِلّ إخراجُهنّ لبَذائِهنّ؛ وتُؤكِّدُه قِراءةُ أُبَيٍّ: (إلّا أنْ يَفحَشْنَ عليكُم)، ....

قوله: (وأنْ لا يَأْذَنُوا لهنَّ في الخُرُوجِ)، عَطْفٌ على «أنْ لا يُخرِجَهُنّ البُعُولَةَ غَضباً عَلَيْهِنَّ»، وكِلاهُما تَفْسيرٌ لِقَولِه: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾ لِكَونِه مُطْلَقاً يحتمل الحَالَتَين، والحَاصِلُ: أنَّ الجمع بين الإخْراجِ والخُروجِ اسْتِيعابُ أقْسامِ العنايةِ بِعدمِ الخُروجِ، وفي «المطلع»: وإنَّما جَمَعَ في النَّهْيِ بين الإخْراجِ والخُروجِ إيذَاناً بأنْ لا أثَرَ لإذْنِ الأزْواجِ في إباحَةِ خُروجِهنَّ، لأنَّه حَقُّ الشَّرعِ فلا يَسْقُط بإسْقَاط العَبْد.

قوله: (لا يَخرُجنَ)، من اللّفِّ التَّقْديريِّ، أيْ: مَعْنى الإخْراجِ والخُروجِ أن لا يُخرجهن البُعُولَةُ، وأنْ لا يَخْرُجنَ بأنْفُسِهنَّ.

قوله: (﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ قُرِئ بفَتْحِ الياء وكَسْرِها) بالفتح: ابنُ كَثير وأبو بكر؛ والباقون: بالكَسر[1].

قوله: (إلّا أنْ يَفْحَشْنَ عَلَيكُم)، قيل: الاسْتثناءُ عندَ الجُمْهورِ من الجُمْلةِ الأولى، وقيل: هو مُنْقطِعٌ، أي: إلّا أنْ يفْحَشْن فَيَخْرُجْن، أيْ: مَن خَرجَتْ أتَتْ بِفاحِشَةٍ، فعلى هذا يُحْتَمل أنْ يكون الاسْتِثناءُ من الجُملة الثّانية، ويُحتَمل أنْ يكون مُتَّصِلاً، رُوي عن المُصنِّف أنّه قال: أيْ: لا يُطْلَقُ لَهُنَّ في الخُرُوجِ إلا في الخُروجِ الّذي هو فَاحِشةٌ، وقد عَلِمْنا أنّه لا يُطْلَقُ لهُنَّ فيه، فيكون ذلك مَنْعاً على أبْلَغِ وَجْهٍ من الخُرُوجِ.

---

(١) «التيسير في القراءات السبع» ص٧٢.

وقيلَ: خُروجُها قَبلَ انقِضاءِ العِدّةِ فاحِشةٌ في نَفْسِه.

الأمْرُ الذي يُحدِثُه الله: أنْ يَقلِبَ قَلبَه من بُغضِها إلىٰ مَحَبّتِها، ومن الرَّغبةِ عَنها إلىٰ الرَّغبةِ فيها، ومِن عَزيمةِ الطّلاقِ إلىٰ النَّدَمِ عليه فيُراجِعَها، والمعنىٰ: فطَلِّقوهُنّ لعِدَّتِهِنَّ وأحْصُوا العِدّةَ لعَلَّكُم تَرغَبونَ وتَندَمونَ فتُراجِعون، ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وهو آخِرُ العِدّةِ **وشارَفْنَه**، فأنْتُم بالخِيار: **إنْ شِئتُم فالرَّجعةُ** والإمْساكُ بالمَعروفِ والإحْسانُ؛ وإنْ شِئتُم فتَرْكُ الرَّجعةِ والمُفارقةُ واتّقاءُ الضِّرار، وهو أنْ يُراجِعَها في آخِرِ عدَّتِها ثمَّ يُطلِّقَها تَطويلًا للعِدّةِ علَيها وتَعذيبًا لها ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ يَعني عندَ الرَّجْعةِ والفُرقةِ جَميعًا، وهذا الإشْهادُ مَندوبٌ إليهِ عِندَ أبي حَنيفةَ كَقولِه: ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وعندَ الشّافِعيِّ: هو واجبٌ في الرَّجعةِ مَندوبٌ إليهِ في الفُرقة.

وقيل: فائدةُ الإشْهادِ أنْ لا يَقعَ بينَهُما التَّجاحُدُ، وأنْ لا يُتّهَمَ في إمساكِها، ولِئلّا يَموتَ أحدُهُما فيَدّعيَ الباقي ثُبوتَ الزّوجيّةِ لِيرِثَ. ﴿مِّنكُمْ﴾ قالَ الحَسَنُ: من المُسلِمين. وعَن قَتادَةَ: مِن أحْرارِكم ﴿لِلَّهِ﴾ لِوَجهِه خالِصًا، وذلك أنْ تُقيموها لا لِلمَشهودِ عليه، ولا لِغَرَضٍ من الأغراضِ سِوىٰ إقامةِ الحَقِّ ودَفعِ الظُّلم، كقَولِه تعالىٰ: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥] أيْ: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الحَثُّ علىٰ إقامةِ الشّهادَةِ لوَجهِ الله ولأَجْلِ القِيامِ بالقِسط ﴿يُوعَظُ بِهِۦ﴾.

قوله: (**وقيلَ: خُروجُها قَبلَ انْقِضاءِ العِدَّةِ فَاحِشَةٌ**[1])، أي: لا تُخرِجُوهنَّ إلا أنْ يَخْرُجنَ قبل انْقِضَاءِ العِدَّة فإنَّه مَحَلُّ إخْرَاجِهنَّ لأنَّه فَاحِشة في نفْسِهِ.

قوله: (**وشارفنه**)، عَطْفٌ على قولِه: ﴿بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، على وجْهِ البيانِ، أي: البُلوغ يُراد به المُشَارفَة، إذ لا يُمْكن الرَّجْعة بعد بُلوغِ الأجَلِ، أي: انْقِضاء العِدَّة.

قوله: (**إنْ شِئتُم فالرَّجْعَة**)، أيْ: إنْ شِئْتم الرَّجْعَةَ فَلَكُم الرَّجْعة والإمْسَاكُ، وإنْ شِئْتم تركَ الرَّجْعَة فَلَكُم ذلك.

---

(١) من قوله: «فاحشة» إلى هنا سقط من (ح)، وأثبته من (ف) و(ط).

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ جُملةً اعتِراضيّةً مُؤكِّدةً لِما سَبقَ من إجراءِ أمْرِ الطّلاقِ علىٰ السُّنّة، وطَريقِهِ الأحسَنِ والأبعَدِ من النّدَم، ويكونُ المَعنىٰ: ومَن يتّقِ الله، فطَلّقَ للسُّنّةِ ولمْ يُضارَّ المُعتَدّةَ ولمْ يُخرجْها من مَسكَنِها، واحتاطَ فأشْهَد، ﴿يَجْعَل﴾ اللهُ ﴿لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ ممّا في شأنِ الأزواجِ من الغُمومِ والوُقوعِ في المَضايقِ، ويُفرِّجْ عنه ويُنفِّس ويُعطِه الخلاصَ ﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ من وَجهٍ لا يُخطِرُه ببالِه ولا يحتَسِبُه، إنْ أوْفىٰ المَهرَ وأدّىٰ الحُقوقَ والنَّفقاتِ وقَلَّ مالُه. وعن النبيِّ ﷺ أنه سُئِلَ عمَّن طَلّقَ ثلاثًا أو ألفًا، هَل لَهُ من مَخرَجٍ؟ فتَلاها، وعن ابنِ عبّاسٍ أنهُ سُئِلَ عن ذلك فقال: «لمْ تتّقِ الله فلَمْ يَجعل لكَ مَخرجًا، بانت منك بثلاثٍ، والزِّيادةُ إثمٌ في عُنُقك».

ويَجوزُ أنْ يُجاءَ بها علىٰ سَبيلِ الاسْتِطرادِ عندَ ذِكرِ قولِه: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ يَعني: ومَن يَتّقِ اللهَ يجعَل لهُ مَخرجًا ومُخلِّصًا من غُمومِ الدُّنيا والآخِرة.........

قوله: (والزِّيادة إثمٌ في عُنقك)، لأنَّ التَّعرُّض للزَّائد انحرافٌ عما عيَّنه الله تعالى، وعدم مبالاةٍ بما يُجري على لسانه، نعوذ بالله من سَخَطه، ومن سَقَطِ القول، وعدم الوقوف على ما حدَّه الله تعالى.

قوله: (ويجوزُ أنْ يُجاءَ بها على سَبيلِ الاسْتِطْرادِ عندَ ذِكْر قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ﴾)، يعني: لمّا أمَر المُؤمنينَ بأمُورٍ تَتعلَّقُ بالنِّساءِ من المُجامَلةِ مَعَهُنَّ في الفِراقِ والطَّلاقِ والإمْساكِ، وأتى باسمِ الإشَارةِ فَذْلَكةً، وأنَّ المذكُورَ تَذْكيرٌ من الله ومَوْعِظةٌ للمُتَّقين من المُؤمنين، أتى بكلامٍ جامِعٍ مَنُوطٍ به أمُور الدِّينِ ظَاهِرهُ وباطِنهُ، وفائدةُ الإشَارة إلى أنَّ أمُورَ النِّساء من عَظَائم الشُّؤون في الدِّينِ، لا سيّما المُفارَقَة بعد العَلْقَةِ التَّامَّةِ، فَيجِبُ على المُتَّقي أنْ يكونَ على حَذَرٍ من جَانِبِهنَّ، وأن لا يُقصِّر في المُجامَلةِ مَعَهُنَّ، ولما قلنا: إنَّه من الكلامِ الجامِع.

قال صَلواتُ الله وسَلامُه عليه: «إنِّي لأَعْلَمُ آيَةً لَوْ أَخَذَ بِهَا النَّاسُ لَكَفَتْهُمْ»... الحديث بتمامه رواهُ الإمامُ أحمد بن حَنبَل عن أبي ذَرٍّ، ورواه ابن ماجَه والدَّارميُّ عنه[1]، وليس فيه:

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٥: ١٧٨) رقم (٢١٥٩١)، وابن مَاجَه في «السنن» رقم (٤٢٢٠)، والدَّارمي في «السنن» رقم (٢٧٢٥)، وهو كذلك عند النسائي في «السنن الكبرى» (٦: ٤٩٤) رقم (١١٦٠٣)، وهو أولى بالعزو من جميع من ذكر.

....

«فما زَال يقرؤها ويعيدُها» ولمّا ذكرنا أنَّ أمُورَ النِّساء من جَلائلِ الخَطْبِ وعَظَائِم الشُّؤون كرّر الأمْرَ بالتَّقْوى في هذهِ السُّورة الكَريمةِ في عِدَّة مَواضِعَ وخَتمها بوعيدٍ شديدٍ، وتَهْديدٍ عظيمٍ، حيث قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ﴾ ثمّ قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ مُقرِّراً لذلك المعنى، وعقَّبَه بقولِه: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا﴾ إلى آخره، امْتِناناً لِمَزيد التَّوصيةِ.

ذكر الرَّاغِب في «غُرّة التَّنْزيل»[1]: إنَّما اقْترن بالطَّلاق والعِدَّة هذا الوَعْظ، لأنَّ الطَّلاق رفْضُ حالٍ مُتَمَهِّدَةٍ، وقَطْعُ آمالٍ مُتأكِّدةٍ، والعِدَّةُ باسْتِيفَائِها يَخْلُصُ النَّسَبُ ويَصحُّ للزَّوجِ الثَّاني الوَلَد، ولو لم يكن هذا الحد الّذي حدَّه الله تعالى لكان الفَسادُ يَتَّصِلُ إلى انْقِضاء الدُّنيا، فهو أحقُّ الأشْياءِ بالمُراعَاةِ، وتأكيدِ المَقالِ فيه والوِصَاية. وذكرَ بعد الطَّلاق: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من تمسّك بتقوى الله فيما يحل ويَعْقِد ويُصْدر ويُورِد، فإنَّ الله يُلقِّيه في شِدَّتِه فرَجَاً، ويجعلُ له ممّا يكْرهُه مَخْرجاً، ويُتيحُ له محْبوبه من حيث لا يُقدّر، ويُوجِّه له رِزْقه من حيثُ لا يحتسِب، وفي ضِمْنِه أنّه إذا طلّق لِكراهةِ أحدِ القَرينين لِصاحِبِه، وقَارنَ ذلك تَقْوى الله، فإنَّ الله سُبحانَه يُسبِّب له القَرينة الصَّالحة، ولها القَرين الصَّالح، ويرزق أحدَهما على يدِ الآخَرِ من حَيثُ لا يَبْلغه تَقْديرُه ولا يُدْرِكه حُسبانه، وهذا وَعْدٌ منه في الدُّنيا، ويَصِحُّ له مِثْلُه في الآخِرةِ، لأنَّه يجْعلُ للمُتَّقين مَنجىً من عَذابِه، وأمْناً من مخافته، فيُخْرِجُهم من الغَمِّ إلى السُّرورِ، ومن الفَزَعِ إلى الأمْنِ، ويُعدُّ لهم من كَرامَتِه ونِعْمتِهِ ما يَكْتفُون به، ولا يَحتاجُون مَعَه إلى غَيرِه. ويكون قولُه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ مُراداً به أنّه يَكِلُ أمْرَه إلى الله فيَتَّبعه راضِياً بما يُصرِّفُه فيه، كالدَّابَّة التي تَسيرُ بسير غيرها مُنقادَةً لحُكْمِه وسيره، فإذا كان المُتوكِّل على الله بهذِه الصِّفَة فالله حَسْبه حافِظاً له ممن يُحاول ظُلْمَه، ومُنتقِماً منه إنْ رأى ذلك أنْفَعَ لَه، وهو يبلغُ مُرادَه في الوقت الذي قدّره، وإذا كان قد جعل لِكلِّ شيءٍ حيناً يَقَعُ عندَه، لا يَتعَجَّل قبله، ولايتباطأ بعده.

---

(١) تقدَّم الكلام في نسبة هذا الكتاب إلى الراغب، وأن الأصح نسبته إلى الخطيب الإسكافي.

وعَن النبيِّ ﷺ أنهُ قرأها فقال: «مَخرَجًا من شُبُهاتِ الدُّنيا، ومن غَمراتِ الموتِ، ومن شَدائدِ يَوم القِيامة»، وقالَ عليهِ السَّلامُ: «إنّي لأَعلَمُ آيةً لوْ أخَذَ النّاسُ بها لَكفَتْهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾» فما زالَ يقرَؤُها ويُعيدُها، ورُوِيَ: أنّ عَوفَ بنَ مالكٍ الأشجَعيَّ أسَرَ المُشرِكون ابنًا له يُسَمّىٰ سالمًا، فأتىٰ رَسولَ الله فقال: أُسِرَ ابني وشَكا إليه الفاقةَ؛ فقال: «ما أمْسىٰ عِندَ آلِ مُحمَّدٍ إلّا مُدٌّ فاتّقِ اللهَ واصبِر، وأكثِرْ من قَولِ: لا حَولَ ولا قُوّةَ إلّا باللهِ»، ففعل، فبَينا هو في بَيتِه إذْ قَرعَ ابنُه البابَ ومَعهُ مئةٌ من الإبِلِ تَغفَّلَ عَنها العَدُوَّ فاسْتاقَها، فنَزلتْ هذه الآية. (بالغُ أمرَهُ) أيْ يَبلُغُ ما يُريدُ لا يَفوتُه مُرادٌ ولا يُعجِزُه مَطلُوب. وقُرِئَ: ﴿بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ بالإضافةِ و(بالِغٌ أمرُه) بالرَّفع، أيْ: نافِذٌ أمرُه، وقرأَ المُفضَّلُ: (بالِغًا أمرَه) علىٰ أنّ قولَه: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ خبرُ ﴿إِنَّ﴾، و(بالِغًا) حالٌ.

﴿قَدۡرٗا﴾ تَقديرًا وتَوقيتًا، وهذا بَيانٌ لوُجوبِ التّوكُّلِ علىٰ الله، وتَفويضِ الأمْرِ إليه؛ لأنهُ إذا عَلِمَ أنّ كُلَّ شَيءٍ من الرِّزقِ ونَحوِه لا يَكونُ إلّا بتَقديرِه وتَوقيتِه.........

وأمّا قولُه بعد ذكر عِدَّة الحامل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾، فمعناه أنَّ من لَزِم التُّقى سهَّل الله عليه الصَّعب من أمْرِه، كما يجعل أمْرَ الوِلادة سهلاً إذا قامت الأم عن ولَدِها سرحاً، ثمّ عقَّب حال الدُّنيا بذكر ما يفعَله في الآخِرةِ من تكْفِير سيئاتِه وإعْظَام أجرِه، فكُلُّ شَرْط مِن «مَن يتقِ الله» قُرِنَ إليه من الجزاء ما لاقَ به، والأخير لـما كان مُقدَّماً على أحْوالِ احتاجت إلى غاية الترغيب، وإلى المُبالغة فيه، وَعَدَ عليه أفْضَل الجزاء، وهو ما يَكُون في الآخِرةِ من النَّعْماء، فتَدبَّرْه تَجِدْ ما ذكرتُ لك[1].

قوله: (تَغَفَّل عنها العَدوَّ)، أي: اسْتَغْفَل ابنه عَدُوّه، تَغَفّلتُ الرَّجُلَ عن كَذا: أخذْتُه على غَفْلةٍ.

قوله: (وقُرِئ: ﴿بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾)، بالإضَافَة، الجرُّ لحفْص، والنَّصْبُ للبَاقين[2]. والرَّفْعُ شاذٌّ.

---

(١) «درة التنزيل» للإسكافي (٣: ١١٩٩ - ١٢٠٣).

(٢) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٤.

لَمْ يَبقَ إلّا التّسليمُ للقَدَرِ والتّوكُّل.

[﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا * ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ ٤-٥]

رُوِيَ أنّ ناسًا قالوا: قَدْ عرَفْنا عِدّةَ ذَواتِ الأقْراء، فما عِدّةُ اللّائي لا يَحِضْنَ؛ فنَزلت. فمَعنى ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾: إنْ أشكَلَ عَليكُم حُكْمُهُنّ وجَهِلتُم كيفَ يَعتدِدْن فهذا حُكمُهُنّ، وقيل: إنِ ارتَبتُم في دَمِ البالِغاتِ مَبلغَ اليأسِ ـ وقدْ قدَّرُوه بسِتّين سَنَةً وبخَمْسٍ وخَمسين ـ أهُوَ دمُ حَيضٍ أو استحاضَة؟

قال الزَّجّاجُ: معنى الإضافة: أنَّ اللهَ يَبْلُغ ما يريد، ومعنى الرَّفع: أنَّ الأمْرَ يُرفَعُ، أي: الله يُبلِغ أمرَه ويُنَفّذ[١].

وقال أبو البَقَاء: وقيل: «أمْرُه» مُبتدأٌ، و«بَالِغٌ» خَبره[٢]. والضَّمير المَجْرور في «أمرُهُ» لله تعالى، أي: أنَّ الله يُنْفِذ حُكْمَه، وأنْشد:

بتقوى الإله نجا مَن نجا وفاز وصار إلى ما رجا

ومن يتّق الله يجعلْ لَهُ كما قال من أمره مخرجا

قوله: (لم يبقَ إلا التَّسْليمُ للقَدَرِ)، **الانتصاف**: أين القَدْرِيُّ من التَّسليم لِلقَدر؟ وهو يَعْتقدُ أنَّ المُقدَّر أكْثرُه لا يَقعُ، وأكثَرُ الكائناتِ تتبَعُ إرادَةَ الخَلْق عندهم، وإنْ وافَقَت إرادة الله تعالى فليس لها أثرٌ في الإيجاد، ما شَاءَ الله كان، وما لم يَشَأ لم يكن[٣].

قوله: (أَهُو دَمُ حَيْضٍ)، قيل: «هو» مُتعلِّقٌ بقولِهِ: ﴿ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ وقد عُلّق عن العمل بسبب الهمزة.

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٨٤).

(٢) «إملاء ما منّ به الرحمن» (٢: ٢٦٣).

(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٥٥٦)، باختصار فيه إخلالٌ.

﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ وإذا كانَتْ هذه عِدّةَ المُرتابِ بها، **فغَيرُ المُرتابِ بها أَوْلىٰ** بذلك، ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ هُنّ الصَّغائر، والمعنىٰ: فعِدَّتُهنَّ ثلاثةُ أشهرٍ، فحُذِفَ لدَلالةِ المَذكورِ عليه. اللَّفظُ مُطلَقٌ في «أولاتِ الأحمال»، فاشتَمَلَ علىٰ المُطلَّقاتِ والمُتوفّىٰ عنهُنّ، وكانَ ابنُ مَسعودٍ وأُبيٌّ وأبو هُرَيرةَ وغيرُهم لا يُفرِّقون. وعن عليٍّ وابنِ عباسٍ: عِدّةُ الحامِلِ المُتوفّىٰ عنها أبعَدُ الأجَلَين. **وعَن عبدِ الله: مَن شاءَ لاعَنْتُه** أنّ سورةَ النِّساءَ القُصرىٰ **نَزلتْ بعدَ التي في «البقرة»**، يَعني: أنّ هذا اللَّفظَ مُطلَقٌ في الحَوامِلِ.

قوله: (فَغَيرُ المُرْتابِ بِها)، وهُنَّ الحَوامِلُ والصَّغِيرةُ.

قوله: (وعَن عَبدِ الله: مَنْ شَاء لاعَنْتُه)، روى البُخَاريُّ وأبو دَاود والنَّسائي[1] عن مُحَمَّدِ ابن سيرينَ قالَ: كُنتُ في حَلقَةٍ فيها عَبدُ الرَّحمنِ بنُ أبي ليلى وكانَ أصحابُهُ يُعَظِّمونَهُ، فذَكَرَ آخرَ الأجَلَيْن، فحَدَّثتُ بحَديث سُبَيعَةَ بنت الحارث إلى قَولِه: قَال أَبو عطِيَّة: كُنّا عند عَبد الله فقال: أتجعَلونَ عَلَيهَا التَّغليظَ ولا تجعَلونَ لَهَا الرُّخصَةَ؟! لنزَلَت سُورَةُ النِّساء القُصرَى بَعدَ الطُّولى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، وفي روايةِ النَّسائي عن عَلْقمةَ: أنَّ ابنَ مَسْعُودٍ قال: من شَاءَ لاعَنْتُه: ما نَزَلَتْ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[2] إلا بَعْدَ آيَةِ المُتوفّى عنها زَوجُها إذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حَلّت. ورواه ابنُ مَاجَه[3] عن مَسْروق عنه.

لاعَنْتُه: أي باهَلْتُه، والقُصرى تأنيث الأقْصَرِ، وهي هذه السُّورة، والطولى هي البقرة[4].

قوله: (نَزلت بَعْد التي في البَقَرة)، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فهذِه الآيةُ ناسِخةٌ أو مُخصِّصةٌ لتلك، عن بعضِهم: ما في البقرةِ مَحْمُولٌ على غيرِ الحامِل، إذ لو أُريدَ به الحَامِلُ لم تتَعيَّن عِدَّتُها بأَربعَة أشْهُرٍ وعَشْر، أو هي معينة بالنَّصِّ.

---

(١) البخاري (٤٦٢٦)، وأبو داود (٢٣٠٧)، والنَّسائي (٦: ٩٧).

(٢) من قوله: «وفي رواية النسائي» إلى هنا ساقط من (ح)، وأثبته من (ف) و(ط).

(٣) في «السنن» (٢٠٣٠).

(٤) من قوله: «لاعنته» إلى هنا ساقط من (ح) و(ف)، وأثبته من (ط).

وروتْ أمُّ سَلَمة: أنّ سُبَيعةَ الأسْلَميّةَ وَلَدَتْ بَعدَ وَفاةِ زَوجِها بلَيالٍ فذَكرتْ ذلك لِرَسولِ الله ﷺ فقالَ لها: «قَد حَلَلْتِ فانكِحي».

﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ يُيَسِّر له من أمرِه ويُحَلِّل من عُقَدِه بسببِ التَّقوىٰ ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يُريدُ ما عُلِمَ من حُكمِ هؤلاءِ المُعتدّات، والمعنىٰ: ومَن يتّقِ اللهَ في العَمَلِ بما أنزَلَ اللهُ من هذه الأحكام وحافَظَ علىٰ الحُقوقِ الواجِبةِ علَيه ممّا ذُكِر من الإسكانِ وتَركِ الضِّرارِ والنَّفَقةِ علىٰ الحوامِلِ وإيتاءِ أجْرِ المُرضِعاتِ وغيرِ ذلك استوجَبَ تكفيرَ السيِّئاتِ والأجرَ العَظيم.

[﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ * لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ ٦-٧]

﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وما بَعدَه: بيانٌ لِـما شَرطَ من التّقوىٰ في قَولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ كأنهُ قيل: كيفَ نَعملُ بالتّقوىٰ في شَأنِ المُعتدّات؟ فقيل: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾.

قوله: (وَرَوَت أمُّ سَلَمةَ: أنَّ سُبَيعة)، روى البُخارِيُّ عن أبي سَلَمَةَ بن عبد الرحمن قال جاء رجُلٌ إلَى ابنِ عبَّاسٍ وأبو هُريرَةَ جَالِسٌ عِندَهُ فقالَ: أفتِني في امرَأةٍ ولَدَت بَعدَ زوجِها بأربَعِينَ لَيلَةً؟ فقال ابنُ عَبَّاس: آخرُ الأجَلَين، وقلتُ أنا: ﴿وَأُو۟لَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾؟ قال أبو هُريرةَ: وأنا معَ ابن أخي - يَعني أبا سَلَمة - فأرسلَ ابنُ عَبّاسٍ غُلامَهُ كُرَيباً إلى أمّ سلمةَ فسَألها، فقالَت: قُتِلَ زَوجُ سُبَيعَة الأَسلَميَّة وهي حُبلَى فوَضَعَت بعدَ مَوتِهِ بِأربعِينَ لَيلَةً فخُطِبَت، فأنكَحَها رسولُ الله ﷺ، وكان أبو السَّنابل بن بعكك فيمَن خطَبَها(١).

قوله: (قَد حَلَلتِ)، هذا يُؤيِّد قَولَ ابن مَسْعُودٍ، وهو مَذْهب الشَّافِعِيِّ رضي الله عنهما(٢).

قوله: (ويُحَلِّل مِن عُقَدِه)، تَتْميمٌ لمعنى قولِه: «يُيَسِّر لَهُ مِن أمْرِه»، أفَاد ذلك التَّنكير في

(١) البخاري (٤٦٢٦).

(٢) انظر: «الحاوي» للماوردي (١١: ٥٣٥ - ٥٢٦).

فإنْ قُلتَ: ﴿مِّنۡ﴾ في ﴿مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾ ما هي؟

قلتُ: هِيَ «من» التَّبعيضيّةِ مُبَعَّضُها محذوفٌ، معناه: أسكنوهُنّ مكانًا من حَيثُ سَكَنتُم، أي بعضَ مكانِ سُكناكُم، كقَولِه تَعالىٰ: ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَـٰرِهِمۡ﴾ [النور: ٣٠] أي: بعضِ أبصارِهم. قال قَتادةُ: إنْ لم يَكُن إلّا بَيتٌ واحِد فأسْكِنْها في بَعضِ جَوانبه.

فإنْ قُلتَ: فقولُه ﴿مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾؟

قلتُ: هو عَطفُ بَيانٍ لِقولِه: ﴿مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾ وتَفسيرٌ له، كأنهُ قيل: أسْكِنوهُنّ مَكانًا من مَسكَنِكُم مما تُطيقونَه، والوُجدُ: الوُسعُ والطّاقةُ، وقُرِئَ بالحَركاتِ الثّلاث.

والسُّكنىٰ والنَّفقَة واجِبتانِ لكُلِّ مُطلَّقة. وعندَ مالكٍ والشّافِعِي: ليسَ للمَبتوتةِ....

﴿يُسۡرٗا﴾، فإنّه للتَّعْظيم والتكثير، والعُمومُ من قولِه: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ لأنّه بمعنى الشّأن والحال، فقولُه: ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ أبْلغُ من قَولِه: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ ثُمَّ لِيُتأمّلْ في اسْتِقْرارِ كُلِّ واحدٍ من مَقامِه، وتمكُّنِه في مَكانه.

قوله: (مُبعَّضُها محْذوف)، يريد: أنَّ «من» إذا كانت تَبْعيضِيّةً، لا بدّ من تقدير مكانٍ هو المُبعَّض الموصوف، لتقع السكنى فيه، وهو «مكاناً»، فحُذِف المَوصُوف وأُقيمتْ الصِّفة مَقامه اختصاراً(١).

قوله: (﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَـٰرِهِمۡ﴾، أي: بَعضِ أبصَارِهم)، يعني: في بَعْضِ الأزْمنةِ، لأنّه لَيسَ عَليهِمْ غَضُّ البَصرِ أبداً.

قوله: (فَقولُه: ﴿مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾؟)، أي: إذا كان معنى ﴿مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾ ما ذَكرتَ، فقولُه: ﴿مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾ ما مَوقِعُه؟ وما مَعْناه؟ يعني في قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾ ما يُشعر بقوله: ﴿مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾، فقوله: ﴿مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾ كالمُسْتَدرِك، فأجاب المُصنِّف بأنه عَطْف بيان له(٢).

قوله: (وقرئ بالحركات الثلاث)، أي: الوُجْد بالضَّمِّ السَّبْعة، والبَواقِي شَواذٌّ.

---

(١) من قوله: «قوله «مُبَعَّضُها»» إلى هنا سقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

(٢) من قوله: «يعني في قوله»، إلى هنا ساقط من (ح) و(ف) وأثبته من (ط).

إلّا السُّكنىٰ ولا نَفقةَ لها، وعَن الحسَنِ وحَمّادٍ: لا نَفقةَ لها ولا سُكنىٰ؛ **لحديثِ فاطِمةَ بنتِ قَيسٍ**: أنّ زَوجَها أبَتَّ طَلاقَها، فقالَ لها رسولُ الله ﷺ: «لا سُكنىٰ لكِ ولا نَفقَة».

وعن عُمرَ رضيَ اللهُ عنه: لا نَدَعُ كِتابَ ربِّنا وسُنَّةَ نَبيِّنا لقولِ امرأةٍ لَعلَّها نَسِيتْ أو شُبِّه لها، سَمعتُ النَّبيَّ ﷺ: «لها السُّكنىٰ والنَّفقةُ». ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾: ولا تَستعمِلوا مَعهُنَّ

قوله: (لحديثِ فاطمةَ بِنْتِ قَيْسٍ)، روى مُسْلِمٌ وأبو دَاود والتِّرمذيُّ والنَّسائِيُّ عن عبد الله بن عُتبة أنَّ أبا عَمرو بن حَفصٍ بنِ المغيرَة خَرَجَ معَ عَليٍّ رَضِيَ الله عَنهُ إلى اليمَنِ فأَرسلَ إلى امرَأتِـهِ فاطِمَةَ بنتِ قيس بتَطليقَةٍ كانَت بَقِيَت من طَلاقها، فأمَرَ لَها الحارثَ بنَ هشَام وعَيّاشَ بنَ أَبي رَبيعَةَ بنَفَقَةٍ، فقالا لها: والله ما لَكِ من نَفَقَةٍ إلا أنْ تكوني حاملاً. فأتَتِ النَّبيَّ ﷺ فذكَرَت لهُ قَولها فقالَ: «لا نفقَةَ لك». فاستَأذنَتهُ في الانتقال فأذِنَ لَها فقَالَت: أينَ يا رسولَ الله؟ قالَ:«إلى ابن أمِّ مكتوم». وكانَ أعمى تَضَعُ ثيابَها عندَهُ ولا يَراها. فأرسلَ إليها مَروانُ قبيصَةَ بنَ ذؤَيب فسأَلها عن الحَديث فحَدَّثَتهُ به، فقالَ مَروانُ: لَم يُسمَعْ هذا الحديث إلا من امرَأةٍ!! سنَأخُذُ بالعِصمَةِ التي وجدْنا النَّاس عليها. فقالتْ فاطِمَةُ رضِي اللهُ عنها حين بلغَهَا قولُ مروَانَ: بيْني وبَيْنكُمُ الْقُرْآنُ، قَالَ اللهُ عَزَّ وجلَّ: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ قالت: هذا لمن كانت له مُراجعةٌ، فَأَيّ أَمْرٍ يَحْدُثُ بعْدَ الثَّلاثِ؟[1].

وفي رِوايةِ أبي إسْحاق قال: كُنت مع الأَسْوَدِ بنِ يزيدَ جالِسًا في المسجد الأعظَم ومعنَا الشَّعبيّ، فَحَدَّث الشَّعبيُّ بِحديثِ فَاطمَة بنت قَيْسٍ أنَّ الرَّسولَ الله ﷺ لم يَجْعل لها سُكْنى ولا نَفَقة، فأَخذَ الأَسْوَدُ كَفًّا مِنْ حَصىً فَحَصَبَهُ به ثُمَّ قال: وَيْحَكَ تُحَدِّثُ بِمِثْلِ هَذَا وقَالَ عُمرُ رَضيَ الله عنه: لا نترُكُ كتابَ الله وسُنَّةَ نبِيِّنَا لقولِ امرأةٍ لا نَدْري لعَلَّها حفِظَتْ أَوْ نَسِيَتْ، لَهَا السُّكْنَى والنَّفَقةُ[2]!!

---

(١) مُسلمٌ (١٤٨١)، وأبو داود (٢٢٩٠)، والتِّرمذي في «الجامع» (١١٨١)، والنسائي في «السنن» (٦: ٦٢ - ٦٣).

(٢) انظر: مسلم في «الصحيح» (٣٧٨٣).

وعن عليٍّ وعبدِ الله وجماعة: أنّهم أوْجَبوا نفقتَها.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ يعني: هؤلاء المطلَّقات، إنْ أرضَعْن لكم ولَدًا من غيرِهنَّ أو منهُنَّ بعدَ انقِطاعِ عِصْمةِ الزَّوْجيّة ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ حُكمُهنَّ في ذلك حُكمُ الأظْآر، ولا يجوزُ عند أبي حنيفةَ وأصحابِه رضيَ اللهُ عنهم الاستِئجارُ إذا كانَ الولَدُ منهنَّ ما لَمْ يَبِنَّ. ويجوزُ عندَ الشافِعيّ.

الائتِمارُ بمعنىٰ التآمر، كالاشْتِوار بمعنىٰ التَّشاوُر. يقال: ائتَمَر القومُ وتآمروا، إذا أمرَ بعضَهم بعضًا. والمعنىٰ: وليأمر بعضُكم بعضًا، والخِطابُ للآباء والأمَّهات، ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بجميلٍ وهو المُسامحة، وأن لا يُماكس الأبُ ولا تُعاسِر الأمّ؛ لأنه ولدُهما معًا، وهما شَريكان فيه وفي وُجوبِ الإشفاقِ عليه. ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ فستُوجَد ولا تُعوِز مُرْضِعةٌ غيرُ الأمِّ تُرضِعُه، وفيه طرفٌ من مُعاتَبةِ الأمِّ علىٰ المُعاسَرة، كما تقول لمَن تستقضيه حاجةً فيَتَوانىٰ: سيَقضيها غيرُك، تريد: لن تَبقىٰ غيرَ مَقْضيّةٍ **وأنتَ مَلُوم**.

الرَّجُل الّذي يجبُ عليه الإنْفَاق على وَلدِه أو زَوجته، فإذا مات ذلك الرَّجل، لا يجب إخْراجُ النَّفَقةِ من مالِه لأجْل الوَلدِ والزَّوج.

قال الإمامُ الرَّافِعيُّ رحمه الله: المُعْتَدَّة عن الوَفاةِ لا نَفَقةَ لها، حَائِلاً كانت أو حَاملاً[1]، أمّا إذا كانت حَائلاً فإنَّ البائِنةَ الحائل لا نَفَقة لها على الزَّوجِ[2] في حِياتِه، فعند الموت أولى.

وأمّا إذا كانت حاملاً فإن النَّفقة للحمل والحامِل، فإنْ كانت للحمل فَنفقةُ الأقَارب تَسقُط بالموتِ، وإنْ كانت حَاملاً فبسبب اسْتِحْقاقِها الحَمْل، فإذا كانت نَفَقتُه في نفسِه بعد الانْفِصال لا يجبُ بعد الموتِ، فكذلك النَّفقة الواجِبة بِسببِه.

قوله: (وأنتَ مَلُومٌ)، قال[3]:

---

(١) انظر: «روضة الطالبين» (فهو مُلخَّصٌ من «شرح الرَّافعي الكبير») (٩: ٦٨) فما بعدها.

(٢) من قوله: «المعتدة عن الوفاة» إلى هنا سقط من (ح)، وأثبته من (ف) و(ط).

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى من معلقته الشهيرة، وانظر «ديوانه» ص١١٠ .

وقولُه: ﴿لَهُۥ﴾ أي للأب، أي: سيجِدُ الأبُ غيرَ مُعاسِرةٍ تُرضعُ له ولدَه إنْ عاسَرتْه أمُّه. ﴿لِيُنفِقْ﴾ كُلّ واحدٍ من الموسِرِ والمُعْسِرِ ما بلغَه وُسعُه، يُريد: ما أُمِر به من الإنفاق علىٰ المُطلَّقات والـمُرضِعات، كما قال: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وقُرِئ: (لِيُنفِقَ) بالنَّصب، أي شَرَعْنا ذلك لِيُنفِقَ. وقرأ ابنُ أبي عَبْلة: (قُدِّر). ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ﴾ مَوعِدٌ لفُقراءِ ذلك الوقتِ بفَتحِ أبوابِ الرِّزقِ عليهم، أو لِفُقراءِ الأزواجِ إنْ أنفَقُوا ما قَدَروا عليه ولم يُقصِّروا.

[﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ ٨- ١١]

ومَنْ يَكُ ذا فَضلٍ، فيَبْخَلْ بفَضْلِهِ   علىٰ قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْه ويُذْمَمِ

الانتصاف: وخُصَّ بالعِتابِ الأمّ، لأنَّ الـمطْلُوبَ منها اللبن، والأبُ غيرُ مُتموِّل، خُصوصاً على الولدِ، ولا كذلك ما يُطلب من الأب[1].

قوله: (**أوْ لِفُقَراء الأزْوَاج**)، يعني: قولُه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وَعْدٌ من الله تعالى للمُنْفقِ بعد أنْ أمَرَه بالإنفاقِ في قولِه: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ فَإذا قَيّد مُطلَق الأمر بما سبق، وأنَّه حديثٌ من شأنِ المُطلّقاتِ والمُرْضِعات، يُقال: إنَّه لِفُقراءِ الأزْواجِ، وإذا تُرِك على إطْلاقِه ليكُونَ اسْتِطْراداً في الكلام، على مِنْوالِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ يقال: إنَّه موعِدٌ لِفُقراءِ ذلك الوقت، ويَـدْخُل فيه فقراءُ الأزْواجِ دُخولاً أوّلياً، وهذا أوْفَـقُ لتأليفِ النَّظْمِ، لِيَكُون

---

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٥٥٩).

(٢) من بداية الآية إلى هنا سقط من (ح).

﴿عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا﴾ أعرَضتْ عنه علىٰ وَجهِ العُتوِّ والعِناد، ﴿حِسَابٗا شَدِيدٗا﴾ بالاستِقْصاء والمناقشة، ﴿عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ وقُرِئَ: (نُكُراً) مُنكرًا عظيمًا، والمُراد: حسابُ الآخِرةِ، وعذابُها: ما يَذوقونَ فيها من الوَبال ويَلقَونَ من الخُسر، وجِيءَ به علىٰ لفظِ الماضي، كقوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤، ٥٠]، ونحوِ ذلك؛ لأنّ المُنتظَر من وعدِ الله ووَعيدِه مُلقًّى في الحقيقة، وما هو كائنٌ **فكأن قَدْ كان**.

تَخلُّصاً إلى قولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا﴾ لأنَّها كالخاتِمة للتَّحْريضِ على تَقْوى الله وحِفظِ حُدودِه والتفادي عن التَّجاوُز عنها، وإليه الإشَارةُ بقولِه: «فليكُن لكم ذلك يا أولي الألبابِ من المُؤمنين، لُطفاً في تقوى الله وحَذَر عِقَابه».

قوله: (**وقُرئ: «نُكُراً»**)، نافِع وابن ذَكْوان وأبو بكر[1].

قوله: (**فكأن قَدْ كان**)، وفي بعض النُّسخ: «فكأن قَدِ» بلا «كان»، بلغ الوَليدَ بنَ عبد الملك أنَّ سُليمانَ بن عبد الملك تمنّى موتَه لِـمَا لَهُ من بعدِه العهدة، فكتب الوليدُ إليه يُعَاتِبه على ما بَلَغه، وكتبَ في آخِرِ الكِتاب[2]:

تَمَنَّى رِجَـالٌ أَنْ أَمُـوتَ وَإِنْ أَمُـتْ ... فَتِلْكَ سَـبِيْلٌ لَسْـتُ فِيْهَـا بِأَوْحَـدِ
وَقَدْ عَلِمُوا لَوْ يَنْفَعُ العِلْـمُ عِنْـدَهُمْ ... لَئِنْ مِتُّ مَـا الـدَّاعِي عَـلَيَّ بِمُخْلَـدِ
فَقُلْ لِلَّذِي يَبْغِي خِلافَ الَّذِي مَضَى ... فَهَيِّـئْ لأُخْـرَى مِثْلِهَـا فَكَـأَنْ قَـدِ

---

(١) «التيسير» ص١٠٠.

(٢) انظر: «البصائر والذخائر» للتَّوحِيدي (٨: ٦٤)، و«التَّذكرة الحَمْدونية» لابن حَمدون (٥: ٣٧) ولكن في «تاريخ دمشق» (٦٥: ٣٠٦-٣٠٧): يزيد بن عبد الملك مع هشام، وكذا في «عيون الأخبار» لابن قتيبة (٣: ١٣١)!، والأبيات لعَبيد بن الأبرص وهي في «ديوانه» ص٥٩-٦٠ الأبيات ٢٩، ٣٤، ٣٥. وقد نسبت هذه الأبيات خطأً للشَّافعي، وهناك قصةٌ أخرى مشهورةٌ حدثت للشَّافعي مع الفقيه المالكي أَشْهَب حيث إنَّه كان يدعو على الشَّافِعي بالموت في سُجوده، فبلغ الشَّافِعي ذلك فتمثل بهذه الأبيات، فظن أناسٌ أنه أنشأها فنسبوها للشافعي وليست كذلك، وهي مطبوعة في «ديوانه» ص٥٩!

وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تكريرٌ للوَعيدِ وبيانٌ لكونِه مترَقَّبًا، كأنهُ قال: أعدَّ اللهُ لهم هذا العَذابَ فليكُن لكم ذلك، ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ من المُؤمِنين لُطفًا في تَقوىٰ الله وحذَرِ عِقابِه. ويجوزُ أنْ يُرادَ إحصاءُ السيِّئات واستِقصاؤها عليهم في الدُّنيا، وإثباتُها في صحائفِ الحفَظة، وما أُصيبوا به من العذابِ في العاجِل؛ وأن يكونَ ﴿عَتَتْ﴾ وما عُطِفَ عليه صفَةً للقرية، و﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ جوابًا لـ﴿وَكَأَيِّن﴾.

﴿رَّسُولًا﴾ هو جِبريلُ صَلَواتُ الله عليه: أُبدِلَ من ﴿ذِكْرًا﴾؛ لأنه وُصِفَ بتلاوةِ آياتِ الله، فكان إنزالُه في معنىٰ إنزالِ الذِّكرِ؛ فصَحَّ إبدالُه منه، أو أُريدَ بـ«الذِّكر»: الشرَف، من قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] فأُبدِلَ منه، كأنه في نَفْسِه شرفٌ، إمّا لأنه شَرفٌ للمُنزَلِ عليه، وإمّا لأنه ذو مَجدٍ وشَرَفٍ عند الله، كقولِه تعالىٰ: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] أو جُعِلَ لكثرةِ ذِكرِه لله وعِبادتِه كأنه ذِكر، أو أُريد: ذا ذِكرٍ، أي: مَلَكًا مذكورًا في السماواتِ وفي الأُمَم كلِّها، أو دَلَّ قولُه: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ علىٰ «أرسل» فكأنه قيل: أرسلَ رَسولًا؛ أو أَعملَ ﴿ذِكْرًا﴾ في ﴿رَّسُولًا﴾ إعمالَ المَصدرِ في المَفاعيل، أي: أنزَلَ اللهُ أنْ ذكَرَ «رسولًا» أو ذِكرَه «رسولًا». وقُرِئَ: (رَسولٌ)، علىٰ: هو رَسولٌ أنزَلَه.

قوله: (ويَجُوز أنْ يُراد)، عَطفٌ على قولِه: «والمُراد حِسابُ الآخِرة»، وعلىٰ هذا مَجيء «حَاسَبْنا» و«عَذّبنا» مَاضِيين على ظَاهِرهِما، وقوله: «أن يكون ﴿عَتَتْ﴾ ومَا عطف عليه صِفة للقَرية» من تَتِمّة هذا الوجه، و﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾ جواب لـ«كَأيِّن»، وعلى الأوّل: ﴿عَتَتْ﴾ جواب «كَأيِّن»، ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾، تكرير وبيان، والمراد بالجواب الخبر، لأنّ «كأيِّن» بمعنى «كم» الخبرية.

قولُه: (أو دَلَّ قولُه ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ على «أرسلَ»)، عَطفٌ على قولِه: «﴿رَّسُولًا﴾، أُبْدِل من ﴿ذِكْرًا﴾».

اعلم أنّ ﴿رَّسُولًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا﴾ إمّا أنْ يكون مَعْمولاً لـ﴿أَنزَلَ﴾ على الإبْدالِ من الذِّكر، أو لا يكون مَعْمولاً له، فعلى الأوّل: المُراد بالرَّسولِ جبريلُ عليه السَّلام، لأنّه هو الّذي أنزله الله تعالى بالرِسَالةِ إلى الأنْبياء.

﴿لِيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بعد إنزالِه، أي: ليَحصُل لهم ما هُم عليه السَّاعةَ من الإيمان والعملِ الصّالح؛ لأنّهم كانوا وقتَ إنزالِه غيرَ مؤمنين؛ وإنّما آمَنوا بعد الإنزالِ والتَّبليغ، أو ليُخرِجَ الذين عُرِف منهم أنّهم يُؤمنون.

قُرِئَ: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ بالياء والنون ....

ثُمَّ الذِكر: إمَّا أنْ يُرادَ به القرآنُ أو الشَّرَفُ أو الذِّكر الـمُتَعارَف، فإذا أُريد به القُرآن فَوَصْفُهُ بسببِ المُلابَسة ونُزولِه به، وإذا أُريد به الشَّرَف فالوَصْف إمّا لكونه نازلاً على خيرِ البَرِيَّة، أو أنّه في نَفْسِه ذو شرَفٍ ومجدٍ، وإذا أُريد به المتعارف[١] فوصفُهُ به إمَّا للمبالغة، نحو: رجلٌ عَدْلٌ، أو أنّه ذو ذِكرٍ، أي: مَذكور عند الخَلْق، وعلى الثّاني الظَّاهِر هو أنْ يُراد بقولِه ﴿رَّسُولًا﴾: محمدٌ ﷺ؛ فهو إمّا أنْ يكونَ مَعْمولاً لفِعْلٍ مَحْذوفٍ. قال الوَاحِديُّ: أنْزَل إليكُم قرآناً، وأرسلَ رَسُولاً، وإنْزالُ الذِّكرِ، يَدُلُّ على إرْسالِ الرَّسولِ[٢].

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ﴾، أيْ: الرَّسُول، أو مَعْمولاً لـ﴿ذِكْرًا﴾، أيْ: أنْزَل الله أن ذكراً رسولاً، وذكْره رَسُولاً، وجوّزَ القاضي على الإبْدال وإعْمال «أنزلَ» أنْ يُرادَ بـ﴿رَّسُولًا﴾ محمّدٌ صلوات الله وسَلامه عَليه، و﴿أَنزَلَ﴾ بمعنى: أرْسَل، حيثُ قال: ﴿رَّسُولًا﴾ مُحمّدٌ صلوات الله عليه[٣] أبدل عن ﴿ذِكْرًا﴾ لمواظبته على تلاوة القرآن، أو لتبليغه، وعبَّر عن إنزاله بالإرسال ترشيحاً[٤].

وقلت: و﴿يَتْلُوا۟﴾، تجريدٌ للاسْتِعارَةِ.

قوله: (**قرئ: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ بالياءِ والنُّون**)، نافع وابنُ عَامر: بالنُّون، والباقون: بالياء[٥].

---

(١) من قوله: «فإذا أُريد به» إلى هنا سقط من (ف) وأثبته من (ح) و(ط).

(٢) «الوسيط» (٤: ٣١٦).

(٣) من قوله: «أنزل بمعنى» إلى هنا سقط من (ح)، وأثبته من (ف) و(ط).

(٤) «أنوار التنزيل» (٥: ٥٥٣).

(٥) «التيسير في القراءات السبع» للدّاني ص١٣٤.

﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ فيه مَعنىٰ التَّعجُّبِ والتّعظيم، لِما رُزِقَ المؤمِنُ من الثّواب.

[﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ ١٢]

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ مُبتَدأٌ وخبَر، وقُرِئَ: ﴿مِثۡلَهُنَّ﴾ بالنَّصْب عطفًا علىٰ ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾؛ وبالـرَّفعِ علىٰ الابـتِداء، وخَبرُه: ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾.

قيـل: ما في القُـرآنِ آيةٌ تَدُلُّ علىٰ أنّ الأرَضِينَ سَبعٌ إلّا هذه. وقيل: بينَ كُلِّ سَماءَين مَسيرةُ خَمسِ مئةِ عام، وغِلظُ كُلِّ سَماءٍ كذلك، والأرَضُون مثلُ السَّماواتِ. ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ أي: يَجري أمرُ الله وحُكمُه بينَهُن، وملكُه يَنفُذُ فيهنّ.

وعَن قتادة: في كُلِّ سَماءٍ وفي كُلِّ أرضٍ خَلقٌ من خَلقِه وأمرٌ من أمرِه وقَضاءٌ من قَضائِه.

وقيل: هو ما يدبِّرُ فيهنَّ من عَجائبِ تَدبيرِه.

وقُرِئَ: (يُنزِّلُ الأمرَ)، وعن ابنِ عبّاس: أنَّ نافعَ بنَ الأزرقِ سألَه: هل تَحتَ الأرضين خَلق؟ قال: نعم. قال: فما الخَلق؟ قال: إمّا ملائكةٌ أو جِنّ.

﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ قُرِئَ بالتّاءِ والياء.

قوله: (﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ﴾[1]، **فيه معنى التَّعَجُّب**)، نحوه قولُ الشّاعِر:

... غَلَت نَابٌ كُلَيبٌ بَوَاؤها

سَبقَ بيانُ دَلالَتِه عليه في الفُرْقان.

قوله: (**قِيل: ما في القُرآنِ آيةٌ تَدُلُّ على أنَّ الأرَضِين سَبْعٌ إلا هذِه**)، رُوِّينا عن الإمَام أحمد

(١) كذا في الأصول الخطية، وفيه اختصار عما في «الكشاف».

عَن رَسولِ الله صلّىٰ اللهُ علَيه وآلِه وسَلّم: «مَن قرَأ سورةَ الطّلاقِ ماتَ علىٰ سُنّةِ رَسولِ الله ﷺ».

ابن حَنْبل والتِّرمِذي عن أبي هُريرة قال(١): بينَما نَبيُّ الله ﷺ جالِسٌ وَأصحابُه، إذ قال: «هل تدْرُونَ ما فَوقكم؟» قالوا: الله ورَسُولُه أعلم، قال: «فإنَّها الرَّقيعُ: سَقفٌ محْفوظٌ، وموجٌ مَكفوفٌ»، ثم قال: «هل تَدْرُونَ ما بينكم وبينَها؟» قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قال: «بينكم وبينَها خَمس مئةِ عامٍ»، ثم قال: «هل تدرون ما فَوقَ ذلك؟» قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قال: «سَماءين، بُعْدُ ما بينَهما خَمْسُ مئَةِ سنةٍ»، ثُمَّ قَال كذلك، حتى عَدَّ سبعَ سَمَواتٍ، ما بَيْنَ كلِّ سَماءينِ ما بين السَّماءِ والأرض، ثُمَّ قال: «هل تدرون مَا فَوقَ ذلك؟» قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: «إنَّ فَوقَ ذلك العَرشَ، وبينه وبين السماء بُعْدُ ما بَيْنَ السَّماءينِ»، ثُمَّ قال: «هل تَدْرُون ما الّذي تحْتكم؟» قالوا: اللهُ ورسولُه أعْلم، قال: «إنّها الأرضُ»، ثُمَّ قال: «هل تَدْرون ما تَحْتَ ذلك؟» قالوا: اللهُ ورسولُه أعْلَم، قال: «إنَّ تَحْتَها أرْضاً أُخْرى، بينهما مَسيرةُ خَمسِ مئَةِ سنةٍ»، حتى عَدَّ سَبْعَ أرضينَ، بين كُلِّ أرْضَيْن مَسيرَةُ خمسِ مئة سنة. الحديث.

تمّت السُّورةُ

حَامِداً لله ومُصَلِّياً على رَسُولِه ﷺ

* * *

---

(١) أحمد في «المسند» (٢: ٣٧٠)، والتِّرمِذي في «الجامع» (٣٢٩٨)، وضعّفه بقوله: هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه.

سُورةُ التَّحريم

مدَنيّةٌ، وتُسَمّىٰ سورةَ النَّبيِّ ﷺ، وهيَ ثِنتا عشْرةَ أو ثلاثَ عشْرةَ آيةٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ١-٢]

رُوِيَ أنّ رَسولَ الله ﷺ خَلا بمارِيّةَ في يَوم عائشة، وعَلِمتْ بذلك حَفصةُ فقالَ لها: «اكتُمي عَليّ، وقد حرَّمتُ ماريّةَ علىٰ نَفْسي، وأُبشِّركِ أنّ أبا بَكرٍ وعُمرَ يَملِكان بعدي أمْرَ أمّتي»، فأخبَرتْ به عائشةَ وكانَتا مُتصادِقَتين.

سُورة التَّحْريم

وهي ثنتا عشرة آيةً، مدنيةٌ بلا خِلافٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وبه ثقتي

قولُه: (خَلا بِمارِيّةَ في يوم عَائشةَ)، الحديثُ من روايةِ النَّسائي عن أنس أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ لهُ أَمَةٌ يَطَؤُهَا، فلم تَزَلْ به عائشةُ وحَفْصَةُ حتَّى حَرَّمَهَا على نَفْسِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾[1].

---

(١) النسائي في «السنن» (٧: ٨٣) رقم (٣٩٥٩).

وقيل: خَلا بها في يومِ حَفصة، فأرضاها بذلك واستكتَمَها فلم تكتُم، فطَلَّقَها واعتَزَلَ نساءَه؛ ومَكثَ تِسعًا وعشرينَ ليلةً في بَيتِ ماريّة.

ورُوِيَ أنّ عُمرَ قال لها: لَو كان في آلِ الخَطّاب خيرٌ لَـمَا طَلّقك، فنزَلَ جِبريلُ عليه السّلام وقال: راجِعْها؛ فإنها صَوّامةٌ قَوّامَة، وإنّها لَمِن نِسائك في الجَنّة.

ورُوِيَ أنه شَرِبَ عَسلاً في بَيتِ زَينبَ بنتِ جَحش، فتَواطَأَتْ عائِشةُ وحَفصةُ فقالَتا له: إنّا نَشُمُّ منكَ ريحَ المَغافير، ....

قولُه: (شَرِبَ عَسَلاً)، الحديث رواه البُخَاريُّ ومُسْلِمٌ وأبو دَاودَ والنَّسائيُّ عن عائشة[١] رضي الله عنها، وفيه أنّه ﷺ شرب العسل في بيت حفصة، وأمّا القائلة فهي سَوْدَة وصَفِيَّة، وفي رواية: شَرِبَ في بيتِ زينب بنت جَحْش كما رواه المُصنِّف مع اختِلافٍ، وفيه: قالت سَوْدةُ: يا رسولَ الله، أَكَلْتَ مَغَافيرَ؟ قال: «لا» قالت: فما هذه الريحُ التي أجدُ مِنك؟ قال: «سَقَتْني حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ» فقالت: جَرَستْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطَ.

وأمّا الحديثُ الأوّل فما وجدْتُه في الكُتُبِ المَشْهُورة[٢]. الجَوْهَري: الجَرْسُ: الصَّوتُ الخَفِيّ، يُقال: سمعتُ جَرْسَ الطَّيرِ، إذا سَمِعْتَ صوتَ مَناقِيرِها على شَيءٍ تَأْكُله.

النهاية: مَغافيرَ واحِدُ مُغْفُورٍ، بالضَّمِّ، وله رِيحٌ كرِيهةٌ مُنْكَرةٌ، وهذا البِناءُ قَـليلٌ في

---

(١) البُخاري (٥٤٣١)، ومُسلم (١٤٧٤)، وأبو داود في «السنن» رقم: (٣٧١٥)، والنسائي في «السنن الكبرى»: (٧٥٦٢)، وهو كذلك عند التِّرْمذي في «الجامع»: (١٨٣١).

(٢) قال ابن حجر في «الكاف الشاف» (٤: ٥٦٣) مع «الكشاف»: لم أقف في شيءٍ من الطُّرق على أنَّ ذلك كان في بيت عائشة رضى الله عنها، إلا فيما رواه ابن سعدٍ عن الوَاقِديّ، ثُمّ ساق الرِّواية.. وقال أيضاً: وروى الطَّبراني في «عِشْرة النساء» وابن مَرْدَويه في التَّفسير عنه من طريق موسى بن جعفر بن أبي كثير بن عبد الرحمن عن عمر عن أبي بكر بن عبد الرحمن عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: دخل رسول الله ﷺ بمارِيّة القبطية بيت حفصة بنت عمر فوجدتها معه.

وكانَ رَسولُ الله ﷺ يكرَهُ التَّـفَل، فحَرَّم العسَل، فمَعناه: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ من مُلكِ اليَمينِ أوِ العَسَل. و﴿تَبۡتَغِي﴾ إمّا تَفسيرٌ لـ﴿تُحَرِّمُ﴾ أو حالٌ أو استِئناف، ....

العَرَبيَّة. وفي «المطلع»: العُرْفُط: شبه الصَّمْغ ذو رائحةٍ كريهةٍ تظهر على المُغْفُور، وهو شَوْكٌ له نَورٌ يأكل منه النَّحْل.

قولُه: (التَّـفَل)، النهاية: هو الرِّيحُ الكَريهَةُ، ومنه الحديثُ «إذا خَرَجْن تَفِلاتٍ» أيْ: تَارِكاتٍ للطِّيْبِ، يقال: رجلٌ تَفِلٌ، وامْرأةٌ تَفِلةٌ ومِتْفَالٌ.

قولُه: (﴿تَبۡتَغِي﴾؛ إمّا تَفْسيرٌ لِـ﴿تُحَرِّمُ﴾، أو حَالٌ، أواسْتِئْنافٌ)، والفرق أنَّه على التَّفْسير: ابْتِغَاءُ مَرْضَاتِهِنَّ عين التَّحْريم، ويكون هو المنكر، وإنَّما ذُكر التَّحْريمُ للإِبْهَام تَفْخِيماً وتَهْويلاً، وأن ابْتِغَاءَ مَرضَاتِهِنَّ من أعْظَمِ الشُّؤون. وعلى الحَالِ: الإنْكارُ وارِدٌ على المجْمُوعِ دُفعةً واحِدةً، ويكونُ هذا التَّقييد مِثل التَّقييدِ في قولِه: ﴿لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ﴾ [آل عمران: ١٣٠]. وعلى الاسْتِئْنافِ لا يكونُ الثَّاني عينَ الأوّل، لأنَّه سؤالٌ عن كيفيَّة التَّحْريم، فإنَّه لـمّا قيل: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ قال: كيفَ أُحَرِّمُ؟ فأُجِيبَ: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ وفيه تَكْريرٌ للإنْكارِ.

والتَّفسيرُ الأوّلُ؛ أعني التَّفسيرَ هو التَّفْسيرُ لِـمَا جَمع بين التَّفْخيمِ والتَّهْويلِ، ولذلك أردفَ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ جُبراناً له، ولولا الإرْدافُ لما قَام بِصَولَةِ ذلك الخِطَابِ، ونَظِيرُهُ قولُه تَعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣]، على أنَّه صلوات الله عليه ما ارْتَكَب عَظِيمةً، بل كان ذلك منه من بابِ تَرْك الأولى، والامْتِنَاعِ من المُباحِ، وإنَّما شَدَّد ذلك التَّشْديد رَفْعاً لَمحلِّهِ، ورَباً لمنْزلتِه، ألا تَرى كيف صدّر الخِطَاب بِذِكْر النَّبيِّ وقُرن بياء البَعِيدِ وهاءِ التَّنْبيه، أي: تنبَّهْ لجلالةِ شَأنِك ونَبَاوةِ مَرْتَبتِك فلا تبتغ مَرْضاتَ أزْوَاجِك فيما أُبيحَ لك. ويُؤيِّدُهُ قولُ المُصنِّف بعد هذا: «ولم يَثْبُت عن رسُولِ الله ﷺ أنَّه قال لِـما أحَلَّه الله: هو حَرامٌ عليَّ، وإنَّما امْتَنع عن مَاريَّة لِيمينٍ تَقَدَّمت منه».

وكانَ هذا زَلّةً منه؛ لأنه ليسَ لأحدٍ أنْ يُحرِّمَ ما أحَلَّ اللهُ؛ لأنّ اللهَ عزَّ وجَلَّ إنّما أحَلَّ ما أحَلَّ لِحكمةٍ ومَصلحةٍ عرَّفها في إحلالِه، فإذا حُرِّمَ كان ذلك قَلبَ المَصلحةِ مَفسَدة. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ قدْ غفرَ لكَ ما زَلَلْتَ فيه، ﴿رَّحِيمٌ﴾ قد رَحِمكَ فلَم يُؤاخِذْكَ به.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ فيه مَعْنَيان، أحدُهما: قَدْ شَرعَ اللهُ لكمُ الاستِثناءَ في أيمانِكُم، من قولِك: حَلّلَ فُلانٌ في يَمينِه، **إذا استَثْنىٰ فيها**، ومِنه: حِلًّا **أبيتَ اللَّعن**، ...

قولُه: (**وكان هذا زَلّةً منه، لأنه ليس لأحدٍ أنْ يُحرِّم ما أحلَّ الله**)، **الانتصاف**: افترى على رسولِ الله ﷺ[1]!! فتَحْريمُ ما أحَلَّ الله باعْتِقَادِ حِلِّه لا يَصْدرُ من مُؤمنٍ، وأمّا مُجَرَّدُ الامْتِناعِ من الحَلالِ ـ وقد يكون مُؤكّداً باليمين ـ فليس من ذلك في شيءٍ، ولو أنْكر ذلك لاسْتَحالت حَقِيقةُ المُباح.

وغَايَتُه أنّه حَلَف ما يَقْرَبُ مَارِيَّة فنزلت كَفّارةً لليمينِ، ومَعَاذَ الله، وحَاش لله ممّا نَسبَه إليه! وهذهِ جُرأةٌ[2].

وقلتُ: الطَّريقُ الّذي سلَكْناه آمَنُ ـ والحمدُ لله ـ من هذهِ المَخاوِف.

قولُه: (**إذا استَثنى فِيهَا**)، **المغرب**: اسْتَثَنيتُ الشَّيءَ: زَوَيْتُهُ لِنَفْسِي، والاسْتِثنَاءُ في اصْطِلَاحِ النَّحْوِيِّينَ: إخراجُ الشّيْءِ ممَّا دخل فيه، لِأَنَّ فيه كفًّا وردًّا عن الدُّخولِ، والاستْثَناءُ في الْيَمِينِ أنْ يقول الحالِفُ: إن شَاء الله، لأَنَّ فيه رَدَّ مَا قَالَهُ بمَشِيئَةِ الله[3].

قولُه: (**أَبيتَ اللَّعْنَ**)، **الأساس**: لَعَنَهُ أَهْلُه: طَرَدُوه وأَبْعَدُوه، وهُو لَعِينٌ: طَرِيدٌ، ومن المَجاز: أَبَيْتَ اللَّعْنَ، وهي تَحِيَّةُ المُلوكِ في الجَاهِلِيَّةِ[4]، أي: لا فَعَلْتَ مَا تَسْتَوجِب به اللّعن.

---

(١) من قوله: «أنه قال لـها» إلى هنا سقط من (ف) وأثبته من (ح) و(ط).

(٢) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٥٦٢) بمعناه، وهذا اللفظ عند ابن هشام النحوي في «مختصر الانتصاف» ورقة ١٣٩ب.

(٣) «المغرب في ترتيب المعرب» لابن المطرّز ص٧١.

(٤) قال ابن الأثير في «النهاية» (١: ٨٣١) التحيات: كلمات مخصوصة كانت العرب تحيي بها الملوك كقولهم: أبيْت اللعن، وأنعمْ صباحاً، وأصله عند ابن قُتيبة في «غريب الحديث» (١: ١٦٨-١٦٩).

بمعنىٰ: استَثْنِ في يَمينِك **إذا أطْلَقها**؛ وذلك أنْ يَقول: (إنْ شاءَ الله) عُقَيْبَها حتّىٰ لا يَحْنَث. والثاني: قدْ شرَعَ اللهُ لكم تحلَّتَها بالكفّارة. ومنه قولُه عليه السَّلام: «**لا يَموتُ لِرَجُلٍ ثَلاثةُ أوْلادٍ فتَمَسُّه** النّارُ إلّا تَحلّةَ القَسَم»، وقَولُ ذي الرِّمّة:

قولُه: (**إذا أطْلَقَها**)، أيْ: يُقال هذا إذَا أطْلَق اليمين.

قولُه: (**لايَمُوتُ لِرَجُلٍ ثَلاثةُ أولادٍ فَتَمَسّه**)، بالرَّفْعِ، وفي نسخَة بالنَّصْبِ، والرِّواية: فيَلِج، وقدّر المظْهري: فأن يلج[١]، رُوِّينا عن البُخاريِّ ومُسْلِمٍ ومَالك والتِّرْمذيِّ عن أبي هُريرة[٢] أنَّ رسُول الله ﷺ قال: «لا يَمُوتُ لِـمُسلمٍ ثلاثةٌ مِن الولدِ فيَلِجَ النَّارَ، إلا تَحِلَّة القَسَمِ».

النهاية: قيل: أراد بالقَسَمِ قولَه تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ تقول العرب: ضَربْتُه تَحليلاً وضَرَبْتُه تَعْزيراً[٣]، إذا لم يُبالِغ في ضَربِه، وهذا مَثَلٌ في القَليلِ المُفْرِطِ في القِلّةِ، وهو أنْ يُباشِر من الفِعل الّذي يُقْسِم عليه المِقْدار الذي يَبَرُّ بِهِ قَسَمَهُ، مِثْل أنْ يَحْلِفَ على النُّزُولِ بِمكانٍ، فلو وقَعَ فيه وَقْعةً خَفيفةً أجزَأتْهُ، فتلك تَحِلَّةُ قَسَمِهِ، فالمعنى: لا تَمَسُّهُ النَّارُ إلا مَسَّةً يَسِيرةً مِثْلَ قَسَمِ الحَالِفِ، ويُريدُ بتَحِلّتِه: الوُرودَ على النَّار والاجْتِيازَ بِها، والتَّاءُ في «تَحِلَّة» زَائِدةٌ، وفي «المَطْلع»: وأصلُ تَحِلَّة تَحْلِلَة، كتَعِلَّة في تَعْلِلَة، ومعناه: التَّحْليلُ.

وقال التُّورِبِشْتِيُّ: التَّحِلَّة: ما تنحل به عقدة اليمينِ، وقد ذهب كثيرٌ من أهْلِ العِلمِ إلى أنَّ معنى قولِه: إلّا تَحِلَّـةَ القَسَمِ: إلّا مِقْدار ما يبرُّ اللهُ قَـسَمه بالجَوازِ على النَّار، ذَهَاباً إلى قولِه:

---

(١) من قوله: «فتمسّه» إلى هنا، سقط من (ح) وأثبته من (ف) و(ط).

(٢) البُخَاريُّ (١٢٥١)، ومُسْلِمٌ (٢٦٣٢) ومَالكٌ في «الموطّأ» (٥٥٦) والتِّرْمذي في «الجامع» (١٠٦٠).

(٣) قال الأزهري في «تهذيب اللغة»: (٣: ٢٨١)) معنى قَوْله: «إِلَّا تَحِلَّة الْقسم» إِلَّا التعزير الَّذِي لَا يَنْدَاهُ مِنْهُ مَكْرُوه. وَمثله قَول الْعَرَب: ضَربته تحليلاً، ووعظته تعزيراً، أَي لم أبالغ فِي ضربه ووعظه، وانظر: «شرح المشكاة» للمصنِّف: (٤: ١٤٢٠).

قَلِيلًا كَتَحْلِيلِ الأُلَىٰ

فإنْ قُلتَ: ما حُكمُ تَحريمِ الحَلالِ؟

قلتُ: قدِ اختُلِفَ فيه؛ فأبو حَنيفةَ يَراهُ يَمينًا في كُلِّ شَيء، ويعتبر الانتفاعَ المقصودَ فيما يُحرِّمُه؛ فإذا حَرَّم طَعامًا فقد حَلفَ علىٰ أكلِه، أو أمةً فعلىٰ وَطْئِها، ....

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، وفي قولِه: ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ معنى القَسَمِ[١].

وقيل: معنى تَـرَتُّب الفاء في «فيلج النار» كمعنى قولِهم: ما تأتِينا فَتُحدِّثنا، في أحدِ الوجهين، أحدُهما: أنْ يكونَ الأوّلُ سبباً للثّاني، أيْ: انتفى السَّبب فينتَفِي المُسبَّب، أيْ: لم يوجَد الإتْيان فكيف الحديثُ! فلذلك قيل:ما تَأتِينا فكيف تُحدِّثُنا؟!

وثانيهما: أن الفعل الثَّاني لم يحصل عقيبَ الأوّل، فكأنّه نفى وقُوعَهُما بصفة كون الثاني عقيبَ الأوّل[٢] كما تقول: ما جاءني زيدٌ وعَمرو، أي: ما جاءا بِصِفة الاجْتِماع، فيَجُوز أنْ يكونَ أحَدُهما جاء، فلذلك يجوز أنْ يكونَ الإتْيانُ وقَع دُون الحديث، فكأنّه نفى الأوّل بصفَة مُعَاقبة الثّاني له، فالحديثُ مَحْمُولٌ على هذا الوجْهِ دُونَ الأوّل، إذ لا يُقدَّر موتُ الولدِ سبباً للمسّ. وقلت: حتّى يَنْتفيَ لانتفائِه، بل الأمرُ بالعَكْسِ لأنَّ موتَ الولدِ سببُ عَدَمِ المسِّ[٣].

قولُه: (**كتَحْليل الأُلى**)، جمعُ أُلْوة وهي الحَلْف. **الأساس**: آلى وائتلىٰ ليَفْعَلنّ، وتَألّى على الله، إذا حَلفَ لَيغْفِرنَّ اللهُ لَه، وعليَّ ألِيّة في ذلك.

قولُه: (**قد اخْتُلِف فيه؛ فأبو حَنِيفةَ رحمه الله تعالى**)، الفاء تَفْصيليَّة، يعني: فأبو حنيفة قال

---

(١) انظر: «مرقاة المصابيح» لملا علي القاري (٣: ١٢٣٦).

(٢) من قوله: «فكأنه نفىٰ» إلى هنا ساقط من (ح)، وأثبته من (ف) و(ط).

(٣) من قوله: «حتى ينتفي» إلى هنا ساقط من (ح)، وأثبته من (ف) و(ط).

....

كذا والشَّافعيُّ كذا، روى البُخَارِيُّ ومُسْلمٌ وابنُ مَاجَه، والنَّسَائيُّ عن ابنِ عبّاسَ قال[١]: من حرم امرأته فليس بشيء، وقرأ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وفي روايةٍ: إذا حَرَّم الرَّجُلُ امْرَأَته فَهِيَ يَمينٌ يُكَفِّرُها[٢]، وقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[٣]، وللنَّسَائيِّ أَنَّه أتَاه رَجُلٌ فقال: جعلتُ امْرأتي عليَّ حَراماً. فقال: «كَذَبتَ، لَيْسَتْ عليكَ بِحرام. ثُمَّ تلا هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، عَليكَ أغْلَظُ الكَفَّارةِ: عِتْقُ رَقَبةٍ»[٤].

قال مُحيِي السُّنَّة: واخْتلَف أهْلُ العلمِ في لَفظِ التَّحْريم، فقال قومٌ: هو ليس بِيمينٍ، فإنْ قال لزوجتِهِ: أَنتِ عليَّ حرامٌ، فإنْ نوى بِهِ طلاقًا أو ظِهَارًا فهُو كما نواهُ، وإنْ نوى تَحْرِيمَ ذَاتِها، أو أَطْلَقَ، فعليهِ كَفَّارَةُ اليمينِ بِنَفْسِ اللَّفْظِ، وَإِنْ قال ذلكَ لجارِيتِهِ فإنْ نوى عِتْقها عَتَقَتْ، وَإِنْ نَوَى تَحْرِيمَهَا ذَاتِهَا أَوْ أَطْلَقَ فَعَلَيْهِ كَفَّارَةُ اليمينِ[٥]، وإن قال لِطعَام: حرَّمتُهُ على نفسِي فلا شيءَ عليْهِ، وهذا قوْلُ ابْنِ مسْعُودٍ وإليهِ ذهبَ الشَّافِعيُّ رضي الله عنهما، وذهبَ جَماعَةٌ إلى أَنَّهُ يمِينٌ، فإنْ قال ذلك لزوجتِهِ أو جاريتِهِ فلا تجبُ عليهِ الكفَّارةُ ما لم يقرَبها، وإنْ حرَّمَ طعامًا فهُوَ كما لو حلَفَ أنْ لَا يَأْكُلهُ، فلا كفَّارةَ عليهِ ما لم يأْكُلْ، يُرْوَى ذلك عن أَبي بكرٍ وعائِشةَ، وبِهِ قالَ الأَوْزَاعِيُّ وَأَبو حَنِيفَةَ رضي الله عنهما[٦].

---

(١) البُخاريُّ (٥٢٦٦) وابن مَاجَه في «السنن» (٢٠٧٣).

(٢) انظر: مسلم في «صحيحه» (١٤٧٣).

(٣) من قوله: «وفي رواية إذا» إلى هنا ساقط من (ح)، وأثبته من (ف) و(ط).

(٤) النَّسائي في «السنن» (٦: ١٥١)، (٣٤٢٠).

(٥) من قوله: «ذلك لجاريته» إلى هنا ساقط من (ح) وأثبته من (ف) و(ط).

(٦) «معالـم التنزيل» (٥: ١١٧)، وانظر تفصيل مذاهب العلماء في هذا القـول في «الاستذكار» لابن عبد البـر (٦: ١٥-٢٢).

أو زَوْجَةً فعَلىٰ الإيلاءِ منها إذا لَمْ يَكُن لهُ نِيّة، وإنْ نَوىٰ الظِّهارَ فظِهار، وإنْ نَوىٰ الطَّلاقَ فطَلاقٌ بائِن، **وكذلك إنْ نَوىٰ ثِنتينِ**، وإنْ نَوىٰ ثَلاثًا فكما نَوىٰ، **وإنْ قال: نَوَيتُ الكَذِبَ دُيِّن فيما بَينَه وبَينَ الله** تَعالىٰ، ولا يُدَيَّنُ في القَضاءِ بإبطالِ الإيلاء. وإنْ قال: كُلُّ حَلالٍ عَلَيَّ حَرامٌ فعلى الطّعامِ والشَّرابِ إذا لَـم يَنْوِ، وإلّا فعَلىٰ ما نَوىٰ، ولا يَراهُ الشّافِعيُّ يَمينًا، ولكن سَببًا في الكَفّارةِ في النِّساءِ وَحدَهُنّ، وإنْ نَوىٰ الطّلاقَ فهُوَ رَجعِيٌّ عندَه.

وعن أبي بَكرٍ وعُمرَ وابنِ عبّاسٍ وابنِ مَسعودٍ وزَيدٍ رضيَ اللهُ عنهم أنّ الحَرامَ يَمين، وعن عُمر: إذا نَوىٰ الطَّلاقَ فرَجعِيّ، وعَن عَليٍّ رضيَ اللهُ عنه: ثَلاث، وعن زَيد: واحِدةٌ بائِنة. وعن عثمـان: ظِهار، وكانَ مَسروقٌ لا يَراه شيئًا ويقول: ما أُبالي أحرَّمتها أم قصعةً من ثَريد، وكذلك عن الشَّعبيِّ قال: ليسَ بشَيءٍ، محتجًّا بقولِه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ [النحل: ١١٦]، وقولِه تَعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧]، وما لَمْ يُحَرِّمه اللهُ تعالىٰ فليسَ لأحَدٍ أنْ يُحرِّمَه، ولا أنْ يَصيرَ بتَحريمِه حرامًا، ولَمْ يَثبتْ عن رَسولِ الله ﷺ أنه قال لـما أحَلّهُ الله: هو حَرامٌ عَليّ، وإنّما امتَنعَ من ماريّةَ ليَمينٍ تقدَّمَتْ منه، وهو قولُه عليه السلام: «والله لا أقرَبُها بعدَ اليَوم»، ....

قولُه: (**وكذلك إنْ نَوىٰ ثنتين**)، قال بعضُ الحَنَفيَّة: هذا عِند أبي يُوسُفَ ومُحمّد، وعِند أبي حَنيفَةَ: لا تَصِحُّ نيةُ الاثْنتين، وتقع واحدةً[1].

قولُه: (**وإنْ قال: نَويْتُ الكَذِبَ، دُيِّن فيما بَيْنَه وبين الله**)، كما لو قال: حَرَّمتُ عليَّ زَيْنَب مثلاً، هذا من حيث التَّركيبِ إخْبارٌ عن إحْداثِ التَّحريم في الزَّمانِ الماضي، ومن حيثُ الاسْتِعْمـالِ إنْشاءُ تَحْريمٍ، كمـا يُقال حال انْعِقادِ أسْبابِ البَيْعِ والشِّراء: بِعْتُ واشْتريْتُ، فإذا

(١) وعلى هذا القول الثاني أغلب كتب الحنفية.

فقيلَ له: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ أي: لِـمَ تَمتنعُ منه بسَببِ اليمين؟ يعني: أقدِم علىٰ ما حلفتَ عليه، وكَفِّرْ عن يَمينِك! ونحوُه قولُه تَعالىٰ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢] أي؛ منَعناهُ مِنها. وظاهِرُ قَولِه تَعالىٰ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أنه كانتْ منه يَمين.

فإنْ قُلتَ: هل كَفَّرَ رَسولُ الله ﷺ لذلك؟

قلتُ: عن الحسَن: أنه لم يُكفِّر؛ لأنه كان مَغفورًا له ما تقَدَّم من ذَنبه وما تأخَّر، وإنّما هو تَعليمٌ للمُؤمِنين، وعن مُقاتل: أنّ رَسولَ الله ﷺ أعتَقَ رَقبةً في تَحريم مارِيّة.

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ سَيِّدُكم ومُتَوَلّي أمورِكم، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يُصلِحُكم فيُشَرِّعُه لكم، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فلا يأمُرُكم ولا يَنهاكُم إلّا بما توجِبُه الحكمة. وقيل: ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ أولىٰ بكم من أنفُسِكم، فكانتْ نَصيحَتُه أنفعَ لكم من نَصائِحِكم لأنفُسِكُم.

[﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ٣]

قال: نَوَيْتُ به الإخْبارَ، لـم يقعْ ذلِكَ، فلا شَكَّ أنّه كَذَبَ، دُيِّنَ فيما بَينَه وبين الله تعالى، ولكن لا يُدَيَّن في قَضاءِ الحاكِمِ بإبْطَال الإيلاءِ لأنَّ اللفظ إنْشاءٌ في العُرْفِ.

قولُه: (أعْتَقَ رَقَبةً في تَحْريمِ مَارِيَّة)، روى التِّرْمِذيُّ وابنُ مَاجَه عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت[1]: آلى رَسُولُ الله ﷺ من نِسائِه وحَرَّم، فَجَعلَ الحلالَ حَراماً[2]، وجَعَلَ في اليَمينِ الكَفَّارَةَ.

---

(١) التِّرْمذيُّ (١٢٠١)، وابن ماجه (٢٠٧٢).

(٢) أي: بالامتناع عنه، وانظر ما تقدم قبل ٤ صفحات.

﴿بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾ حَفصَة، والحديثُ الذي أُسِـرَّ إليها: حديثُ مارِيّـةَ وإمامَة الشَّيخَين، ﴿نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾ أفشَتْهُ إلىٰ عائِشة. وقُرِئَ: (أنبأت) به ﴿وَأَظۡهَرَهُ﴾ واطّلعَ النبيُّ عليه السَّلام ﴿عَلَيۡهِ﴾ علىٰ الحَديث، أي: علىٰ إفشائِه علىٰ لِسانِ جِبريل، وقيل: أظهرَ اللهُ الحَديثَ علىٰ النَّبيِّ ﷺ، من الظُّهور، ﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ﴾ أعلم ببَعضِ الحَديثِ تكرُّمًا. قالَ سفيان: ما زالَ التّغافُلُ من فِعلِ الكِرام، وقُرِئَ: (عرَفَ بعضَه)، أي: جازىٰ عليه، .....

قولُه: (مِن الظُّهورِ)، أيْ: يَكون «أظْهَر» بِمعْنى الظُّهورِ، فالجَارُّ للتَّعْدية، أي: جَعَلهُ ظَاهِراً عليه، وعلى الأوّلِ بمعنىٰ: أطْلَعَ، أيْ: مضمَّن معناه، والجَارُّ صِلَة.

قولُه: (ما زال التَّغَافل من فِعْل الكِرام)، قال[1]:

لَيسَ الغَبيُّ بِـسيِّدٍ في قَومِـهِ ... لكِـنَّ سَـيِّدَ قَومِـهِ المُتَغَـابِي

قولُه: (وقُرِئ: «عَرَفَ بعضَه»)، أيْ: بالتَّخْفيفِ؛ الكِسَائي، والبَاقُون: بالتَّشْديدِ[2].

قال الزَّجَّاج: من قرأ بالتَّخفيف معناه: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قد عَرَفَ[3] كُلّ مَا كان أَسَرَّهُ، والإعْراض لا يكونُ إلّا عمّا يعرف، وتأويلُه: جَازى عليه، كما تقول لمن تتَوعّده: علمتُ ما عَمِلتَ، وعَرفتُ ما صَنَعتُ، أيْ: فَسَأجَازيك عليه، ولا يَقْصد به المعرفة فقط[4].

وقال صاحب «الكشف»: من قال: «عَرَف» بالتَّخْفيف، فإنَّه لا يُجوِّزُ أنْ يكون بمعنىٰ: عَلِم، لأنّه إذا أعلَمَهُ الله فقد أعْلَمه جميعه، وإنَّما معناه: جَازى عن بعضٍ ولم يُجازِ عن بعضٍ، نحو قولِه: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢١٥] أيْ: يجازِه عليه[5].

---

(١) البيت لأبي تمام، انظر: «ديوانه» ص٢٠.

(٢) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٤.

(٣) من قوله: «بعضه أي» إلى هنا سقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

(٤) «معاني القرآن» للزَّجّاج (٥: ١٩٢).

(٥) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٣٦٠).

من قولِك للمُسيء: لأَعْرِفَنّ لك ذلك، وقد عَرفتُ ما صنعت. ومنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [النساء: ٦٣] أولئك الذين يَعلمُ اللهُ ما في قُلوبِهِم، وهو كثيرٌ في القُرآن؛ **وكان جَزاؤُه تَطليقَه إيّاها.**

وقيل: المُعرَّفُ: حديثُ الإمامة، والمُعرَضُ عنه: حديثُ مارِيّة.

ورُوِيَ أنه ﷺ قالَ لها: «أَلَـمْ أَقُلْ لكِ اكتُمي عَليّ؟»، قالت: والذي بَعثَـكَ بالحقِّ ما مَلكتُ نَفسي؛ **فرَحًا بالكَرامةِ التي خَصَّ اللهُ بها أباها.**

قولُه: (**وكانَ جَزاؤه تَطْلِيقَه إيّاها**)، قال الزَّجّاجُ: قيل: إنَّ النَّبيَّ ﷺ طَلّق حَفْصة تَطْليقةً واحدةً فكان ذلك جزاءَها عِندَه، فذلِكَ تأويلُ ﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾ أي: جازى على بعضِ الحديثِ، وكانت حَفْصةُ صَوَّامةً قوَّامَةً، فأمَرهُ اللهُ تعالى أنْ يُراجِعَها فَراجَعَها[١].

وقال القَاضي: ليس في قولِه تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ ما يَدلُّ على أنّه لم يُطلِّق حَفصَة، وأنَّ في النِّساءِ خيراً مِنْهنَّ، لأنَّ تَعْليقَ طَلاقِ الكُلِّ لا يُنافي تَطْليقَ واحِدةٍ، والمُعلَّقُ بما لم يَقَعْ لا يَجِبُ وُقُوعَه[٢].

وقلت: روى البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ والتِّرمذيُّ والنَّسائيُّ عن ابنِ عبّاس الحديثَ الطَّويلَ عن عُمر رضي الله عنهما، وفيه: نزلت آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾ الآية، فكانت عائشةُ بنت أبي بكر رضي الله عنهما، وحَفْصَةُ تَظاهَرانِ على سَائِرِ نِساء النَّبيِّ ﷺ، قلت: يا رسولَ الله، أطَلَّقْتَهُنَّ؟ قال: «لا»، قلت: يا رَسُول الله إنِّي دخلتُ المَسْجد والمسلمون يَنكُتُون بالحَصَا ويقولون: طلّق رسول الله ﷺ، أفأنزِل فأُخبِرَهم أنّك لم تُطَلِّقهن؟ قال: «نعم»[٣]. الحديث.

قولُه: (فَرحاً بالكَرَامَة)، قيل: مفعولٌ له، لقوله: «قالت»، وهو فاسِدٌ، إذ ليس المعنى أنّها

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٩٣).

(٢) «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ٣٥٦).

(٣) البُخاري (٢٤٦٨) ومسلم (١٤٧٩)، والتِّرْمذي (٢٦٩١)، والنَّسائي في «السنن»: (٤: ١٧٦).

فإنْ قُلتَ: هلّا قيل: فلمّا نبأَتْ به بعضَهُنّ، وعَرّفَها بعضَه؟

قلتُ: ليسَ الغرضُ بَيانَ من المُذاعُ إليه ومَن المـُعرَّفُ، وإنّما هو ذِكْرُ جِنايةِ حَفصةَ في وُجودِ الإنباءِ به وإفْشائِه من قِبَلِها، وأنّ رسولَ الله ﷺ بكَرَمِه وحِلمِه، لم يوجَدْ منهُ إلّا الإعلامُ ببَعضِه، وهو حديثُ الإمامة. ألا تَرىٰ أنهُ لمّا كانَ المَقصودُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ ذَكرَ المُنبأ، كيف أتىٰ بضَميرِه؟!

[﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ ٤]

قالت هذا الكلام لِرَسُولِ الله ﷺ لأجْلِ الفَرحِ، لأنَّ مَقامَ العِتَابِ الّذي يترشَّح من قولِه: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ أيْ: جَازى عليه، من قولِك للمُسيءِ: لأعْرِفنَّ لكَ، يأبَى ذلك، بل هو تَعْليلٌ أو تَمييزٌ لِقولِها: «ما مَلَكْتُ نَفْسي فَرَحاً»، وكان القِياسُ أنْ يُقال: خَصَّ الله بها أبي، ولعلّ الرَّاوي نقل المعنى لا لفظها، أو التفتَتْ.

قولُه: (هلاّ قِيل: فلمّا نَبّأتْ به بعضَهنَّ)، يعني: كان القِياس أنْ يُقال: «نبأَتْ به بعضَهنَّ» بدل ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ لأنَّ حَفْصَة نَبّأتْ بالحَديثِ الّذي أسَرَّها النَّبيُّ ﷺ بعضَ أزْواجِه، يعني: عائشة، وأنْ يقال: عَرّفها بعضه، لأنّه عَرّف رسولُ الله ﷺ بعضَ الحديثِ لحَفْصَة، وهو حَديثُ الإمامة.

وأجَابَ أنَّ سِياق الكلام لَيس في شأنِ المُذاعِ إليه، أي: عائشة رضي الله عنها، وفي شأنِ المُعرِّف، أي: حَفْصَة رضي الله عنها ليذكُرهما، بل في مُعاتَبة النَّبيِّ ﷺ وابْتغَائِه مَرْضَاتَ أزْواجِه، وفي شَأنِ جِناية حَفْصَة، ثُمَّ في حُكْم النَّبيِّ ﷺ وإعْراضِه عن بعضِ جِنَايَتِها، فلمّا دلَّ قولُه ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ على الجِنَاية، وقولُه: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ على الإعْراضِ عن البَعْض، أتى بِهما وتَرَكَ ذِكْرهما. ويَعْضُده إتْيان ضمير الـمُنَبّأ به في قولِه: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ مع الاسْتِغْناء عنه بِقَرينة الأحْوالِ لأنّه هو المقصودُ في الذِّكْرِ.

﴿إِن تَتُوبَآ﴾ خِطابٌ لحفصةَ وعائِشةَ على طَريقةِ الالتِفات، ليَكونَ أبلغَ في مُعاتَبتِهما، وعن ابنِ عبّاس: لم أزل حَريصًا على أنْ أسألَ عُمرَ عنهُما حتّى حَجّ وحَجَجْتُ معه، فلمّا كانَ ببعضِ الطّريقِ عدل وعدلتُ معه بالإداوة، فسكبْتُ الماءَ على يدِه فتَوضّأ، فقلتُ: مَن هما؟ فقال: عجَبًا يا ابنَ عبّاسٍ!! كأنهُ كَرِه ما سألتُه عنه، ثمّ قال: هما حَفصةُ وعائِشة.

﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فقَدْ وُجِدَ منكُما ما يُوجِبُ التّوبة، وهو مَيلُ قلوبِكُما عن الواجِبِ في مُخالَصةِ رَسولِ الله ﷺ من حُبِّ ما يُحِبُّه، وكَراهةِ ما يكرَهُه. وقرأ ابنُ مَسعود: (فقد زاغَتْ). ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا﴾ وإنْ تَعاوَنا ﴿عَلَيْهِ﴾ بما يَسوؤُه من الإفراطِ في الغَيرةِ وإفشاءِ سِرِّه، ....

فإن قُلتَ: فلم ترك الضَّمير في قوله: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾؟

قلتُ: لكونِه جواباً عن قولِها: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾؟وقد اعتَمد في السُّؤالِ عن المنبئ، وأوْقَع المُنبَّأ بِه فَضْلةً في الكلام، ولأنَّ في تركِه إفادةَ الشُّمُولِ والتَّفْخِيم، ولذلك أرْدَفَ بالعَليمِ الخَبيرِ، أي: العَليم بِكُلّياتِ الأحْوالِ، والخَبير بِجُزئيّاتِها، ونَظِيرُ هذا الأسْلُوبِ قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ إلى قوله ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ [القصص:٢٣] وقد سَبَق بيانُه.

قولُه: (على طَرِيقَة الالتِفَات)، التَفَت من قولِه: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ إلى الخِطَاب، وأمّا حديثُ ابنِ عبّاسٍ: لم أزَلْ حَرِيصاً على أنْ أسْأل عُمر رضي الله عنه، فقد رواه البُخاريُّ ومُسْلِمٌ وفيه طُولٌ[١].

قولُه: (فقد وُجِدَ منكما ما يُوجِبُ التّوبَة، وهو مَيلُ القَلْب[٢])، يعني: أنَّ قولَه: ﴿فَقَدْ

(١) مرّ تخريجه قبل قليل، في الصفحة السابقة.

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «قلوبكما».

....

صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ لا يَصِحُّ أنْ يكونَ جواباً للشَّرطِ إلا بهذا التَّأويل، قال بعضُهم: التَّقديرُ: إنْ تَتُوبا فَلتَوبَتِكما مُوجِبٌ وسَببٌ، كقولِه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ [البقرة:٩٧]، أيْ: فَلِمُعَاداتِكم مُوجِبٌ وسَببٌ.

وقال ابنُ الحَاجِب في «الأمالي»: جوابُ الشَّرْطِ: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ من حيث الإخبار، كقولِهِم: إنْ أكْرمْتَني اليومَ فقد أكْرَمْتُك أمسِ، الإكْرامُ المَذْكورُ شَرطٌ وسَبب للإخبار بالإكْرام الواقِعِ من المُتكلِّم، لا نَفْس الإكْرام منه، لأنَّ ذلكَ غيرُ مُستقيم، لوجْهين؛ أحدهما: أنَّ الإكْرامَ الثَّاني سببٌ للأوَّلِ، فلا يَستقيمُ أنْ يكونَ مُسبَّباً، وثانيهما: أنَّ ما في حَيِّز الشَّرْطِ في معنى المستقبل وهذا مَاضٍ، وعلى ما ذَكَرنا يُحْمَل الجَواب في الآيةِ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يكن سبباً لِذِكر هذا الخَبر، وهو قولُه: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أيْ: وُجِد مِنكما ما يُوجِب التَّوبة.

فإنْ قلتَ: الآيةُ سِيقت في التَّحْريضِ على التَّوبَةِ، فكَيفَ تُجعَل سبباً لِذِكْرِ الذَّنبِ؟

قلت: ذِكْر الذَّنْبِ مَتُوباً منه لا يُنافي التَّحْريض، ولا سِيَّما الذَّنبُ مَشْهُور، المعنى: إنْ تتوبا إلى الله، يعلم بَراءتَكُما من إثْمِ هذا الصَّغْوِ، لأنَّ الخبر بالصَّغْوِ سببٌ لِذِكْرِه، والذِّكْر مَتُوباً عنه سببٌ للعِلْمِ ببراءَتِهم من إثْمِه، واسْتَغْنى بسببِ السَّببِ، ولو جُعل الجوابُ مَحْذُوفاً لجازَ، أيْ: إنْ تَتُوبا إلى الله يَمْحُ إثْمَكُما، ثُمّ قيل: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ جواباً لتَقْديرِ سؤالِ سائلٍ عن سببِ التَّوبَة الماحِية[1]. تم كلامه.

وقلت: الفاءُ مانعةٌ لأنْ يُقدَّرَ سؤال، لأنَّ موقِعَ الاسْتئنافِ بين الجُملتين خُلوُّ العَاطِف.

وقال أبو البَقاءِ: جواب الشَّرط مَحذوفٌ، أي: فذلك واجبٌ، ودلَّ عليه قولُه: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، لأنَّ مَيلَ القلبِ سببٌ للذَّنبِ[2].

---

(١) «الأمالي» لابن الحاجب (١: ٢٢٤-٢٢٥).

(٢) «إملاء ما مَنَّ به الرحمن» (٢: ٢٦٤).

فلَن يَعدَم هو من يُظاهِره، وكيف يَعدمِ المظاهرَ مَنِ اللهُ مَولاه، أي: وليُّه وناصِرُه: وزيادة ﴿هُوَ﴾ إيذانٌ بأنّ نُصرتَه عَزيمةٌ من عزائِمه، وأنهُ يتولّىٰ ذلك بذاتِه، ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ رأس الكرُّوبيّين؛ وقَرنَ ذِكرَه بذِكرِه، مُفرِدًا له من بَينِ الملائكةِ، تَعظيمًا له وإظْهارًا لمكانتِه عندَه، ﴿وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن صَلحَ من المؤمنين، يعني: كُلُّ مَن آمنَ وعَمِلَ صالحًا. وعن سَعيدِ بنِ جُبَير: مَن بَرئَ منهم من النِّفاق. وقيل: الأنبياء، وقيل: الصَّحابة، وقيل: الخُلَفاءُ منهم.

فإنْ قُلتَ: «صالِحُ المُؤمِنينَ» واحِدٌ أم جَمع؟

قلتُ: هو واحِدٌ أُريدَ به الجَمع، كقولِك: لا يَفعَل هذا الصَّالحُ من النّاس، تُريدُ الجِنس، كقَولك: لا يَفعَلُه مَن صَلُحَ منهم، ومثلُه قولُك: كُنتُ في السَّامرِ والحاضِر.

قولُه: (عَزيمةٌ من عَزائِمه)، النهاية: العَزيمةُ: ما وكّدْت رأيك على شَيء.

قولُه: (رأسُ الكَروبيين) (١)، وعن بعضِهم: في هذا اللّفظِ ثلاثُ مُبالَغاتٍ، أحدها: أنَّ كَرُبَ أبْلغُ من قَرُبَ حين وُضِع مَوْضِع كاد، يُقال: كَرُبتِ الشَّمْسُ أنْ تَغْرُب، كما تقول: كادت، والثَّانية أنَّه على وزن فَعُّول، وهو للمبالغة، والثَّالثة: زيادةُ الياء فيه، وهي تُزاد للمُبالغة كأحْمَريّ.

قولُه: (في السَّامِر)، السَّامِرُ: السُّمّار، وهم الّذين يَسْمُرون، كما يُقال للحُجّاجِ: حاجٌّ. والحَاضِرُ: القَبيلةُ الكبيرة الّذين يَحْضُرون الماءَ، قال الشّاعر (٢):

---

(١) لم يثبت في تسمية جبريل أو الملائكة بهذه التسمية حديثٌ صحيحٌ، لكن وردت بعض الآثار عن السَّلف في ذلك، فقال ابن حجر في «فتح الباري» (٦: ٣٠٧): وروى الطبري عن أبي العالية قال: جبريل من الكرُّوبيين، وهم سادة الملائكة، لكنّه بعد ذلك بصفحات (٦: ٣٣٩) قال عن إبليس: وفي كتاب «ليس» لابن خَالويه: كنيته أبو الكروبيين!

(٢) البيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه، وهو في «ديوانه» ص٢١٩.

ويجوزُ أنْ يَكونَ أصلُه: صالِحو المؤمِنين بالواو، فكُتِبَ بغَيرِ واوٍ على اللَّفظ؛ لأنَّ لَفظَ الواحِدِ والجمعِ واحِدٌ فيه، كما جاءتْ أشياءُ في المُصحَفِ مَتبوعٌ فيها حُكمُ اللَّفظِ دون وَضْعِ الخَطِّ. ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ على تكاثُرِ عددِهم، وامتِلاءِ السَّمٰواتِ من جُموعِهم، ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعدَ نُصرةِ الله وناموسِه وصالِحي المؤمنين، ﴿ظَهِيرٌ﴾ فَوجٌ مُظاهِرٌ له، كأنهُم يَدٌ واحِدةٌ على مَن يُعاديه، فما يَبلغُ تَظاهرُ امرأتينِ على مَنْ هؤلاء ظُهَراؤه؟

فإنْ قلتُ: قولُه: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ تَعظيمٌ للمَلائكةِ ومُظاهَرتِهم، وقَد تَقدَّمتْ نُصرةُ الله وجِبريلُ وصالحُ المُؤمِنين، ونُصرةُ الله تَعالى أعظَمُ وأعظم.

لنـا حـاضِرٌ فَعْـمٌ وبـادٍ كأنَّـهُ قطينُ الإلـهِ عِـزَّةً وتكَرُّمـا[1]

قولُه: (كما جَاءَت أشْياءُ في المُصْحفِ)، من ذلك: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ [الإسراء: ١١]، و﴿يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٦]، ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١] كُتب على لَفْظ الجَمْع نحو كَفَروا.

قولُه: (ونَامُوسِه)، النهاية: النَّامُوس: صاحِب سِرِّ الملك، وأراد به جبريلَ عليه السَّلام. لأنّه تعالى خَصّهُ بالوَحي والغَيْب، لا يَطّلِع عليهما غيرُه.

قولُه: (كأنّهم يَدٌ واحدةٌ)، أي: أوْقَعَ «ظَهيراً» وهو مُفردٌ خَبراً للجَمعِ، كما أوْقَعَ «يَداً» في قولِه ﷺ: «وهُمْ يَدٌ على من سِواهُم»[2] للمُبالَغةِ في المُوافَقة.

قولُه: (﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ تَعْظيمٌ للملائكةِ)، يعني موقع ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ في هذا التَّركيب موقع ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧] في إعطَاء معنى التَّفاوتِ في المَرْتبةِ، نصَّ عليه في قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]، فيَلْزم من ذلك أنْ تكون نُصْرة الملائكةِ أعْظمَ من نُصرة الله وهو مُحالٌ، وأجابَ بأنَّ وُجوه نُصْرةِ الله كثيرة، وأعْظَمها نُصْرتُه بالملائِكةِ.

---

(١) من قوله: «قال الشاعر» إلى هنا ساقط من (ف).

(٢) جزء من حديث رواه أبو داود في «السنن» (٤٥٣٠).

قُلتُ: مُظاهرةُ المَلائِكةِ من جُملةِ نُصرةِ الله، فكأنّه فضَّلَ نُصرتَه تعالىٰ بهم وبِمُظاهَرتِهم علىٰ غَيرِها من وُجوهِ نُصرتِه تعالىٰ، لِفَضلِهم علىٰ جَميعِ خَلقِه.

أمّا تعليله بقولِه: «لِفَضلِهم على جميعِ خَلْقِه» فلا وجه له، لأنّه لا يخلو إمّا أن يكون «جِبريلُ وصالِحُ المؤمنين» عَطفاً على معنى الابْتِداء، أي: على موضِعِ إنّ واسمها، أو أنْ يكون مبتدأً و«الملائِكةُ» مَعْطُوفاً عليه، و﴿ظَهِيرٌ﴾ خبرُ الجميع، وهو واحِدٌ في معنى الجَمْعِ ذكره أبو البقاء[1]، فيَلْزم من الأوّل إمّا نَقْضُ معنى الحَصْرِ الّذي يُفيده تعريفُ الخبر وتَوسيطُه ضَميرَ الفَصْل، لأنّه لا يُقال: زيدٌ هو المُنطَلق وعمرو، بل يُقال: لا غير، نصَّ عليه صاحبُ «المفتاح».

وأمّا هَدْم قاعِدتِه: فإنه قال: «وجِبريلُ رأسُ الكَرَوبِيين، وقَرَن ذِكْرهُ بِذِكْرِه مُفْرِداً له من الملائِكةِ تَعْظِيماً له»، لأنّ اعْتِبارَ التَّعْظِيمِ حِينئِذٍ من اقتران المَعْطُوفِ بالمَعْطُوفِ عليه، والتَّخْصيص بالذِّكْر، فيكون صالِحُ المُؤمنين دُونَ جِبريل، والمَلائِكةُ دُونَهم، ونحوه في وَجْه قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١] قال: «من حَقِّ الخُمس أنْ يكونَ مُتقَرَّباً به إليه، ثُمَّ خَصَّ من وُجُوه القُرَبِ هذه الخمسةَ تَفْضِيلاً لها على غيرِها»، وعليه مذهب مالك والأُصولي والنَّحْوي، إنْ قالا بعد التَّرْتيب، لكنَّ صاحِبَ المَعاني يُراعِي النَّظم والتقديم، ألا تَرى كيف سأل المُصنِّف في سُورة يوسف: «لِمَ أخرَّ الشَّمْسَ والقَمَر؟» فظَهرَ مِن هذا التَّرْتيبِ مَراتِبُ المَذْكورين على ما عَليه مَذهبُ أهْلِ السُّنَّةِ. هذا وإنَّ الوجه هو أن يكونَ «جِبريلُ» مُبتدأً، والخبر ﴿ظَهِيرٌ﴾، و«صالِحُ المُؤمنين والمَلائِكة» عَطفٌ عليه، وأنْ يُقالَ: إنّما عدل من عَطفِ المُفْرَدِ إلى عَطفِ الجُملةِ لِيُؤْذِنَ بالفَرْقِ، وأنَّ نُصْرةَ الله هي النُّصْرَةُ في الحَقِيقةِ، وأنّه تعالى إنّما ضَمَّ إليها المُظاهَرةِ بِجبريلَ وبِصَالِحِ المُؤمنين والملائكة للتَّتْميم، تَطْيِيباً لِقُلوبِ المُؤمنين، وتَوقِيراً لجانِبِ الرَّسُولِ، وإظْهاراً للآياتِ البيِّناتِ كما في يـومِ بَدْرٍ وحُنينٍ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ

---

(١) انظر: «إملاء ما مَنَّ به الرحمن» (٢: ٢٦٤).

وقُرِئَ: (تَظَّاهرا)، و(تَتظاهَرا)، و(تَظَهَّرا).

[﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ ٥]

قُرِئَ: ﴿يُبْدِلَهُۥٓ﴾، بالتَّخفيفِ والتّشديد للكثْـرَة، ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مُقِـرّاتٍ مُخلِصاتٍ، ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائِماتٍ، وقُرِئَ: (سيِّحات)، وهي أبْلَغ.

وقيلَ للصّائم: سائِح؛ لأنّ السّائحَ لا زادَ مَعَه، فلا يَزالُ ....

قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ونحوه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥] أيْ: ثُمَّ إنَّكم بعد تَقَلُّبِكم في تلك الأطْوارِ التي تَخْرِقُ العُقولَ، تموتُون ويُسلَبُ منكم ذلك الكمالِ الّذي من حقِّه أنْ يُصانَ من النَّقْصِ، لقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وكذا قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [النور: ٤٧]، نعلم أن ﴿بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ في هذا التَّرْكيب ليس من قبيل «ثُمَّ» في قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البلد: ١٧]، بل هو عَكْسه، ويُؤيِّد هذا التَّأويل ما رواه مُسْلِمٌ في «صحيحه»[١] عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه قال: دخلْتُ عليهِ وأنا أرى في وجْهِهِ الغضبَ فقُلْتُ: يا رسُولَ الله ما يَشُقُّ عليكَ منْ شأْنِ النِّساءِ؟ فإنْ كُنت طلَّقتهُنَّ فإنَّ الله معك وملائِكتَهُ وجبريلَ وميكائيل، وأنا وأبو بكرٍ والـمُؤمِنُون معكَ، وقَلَّما تكلَّمتُ ـ وأَحمدُ الله بكلامٍ ـ إلا رجَوْتُ أن يكونَ الله يصدِّقُ قولي الذي أَقُولُ، فنزلَت.

قولُه: (وقُرِئ: «تَظّاهرا»)، الكُوفيون: بتخْفيفِ الظَّاء، والباقون: بِتَشديدها[٢].

قولُه: (قُرِئ: ﴿يُبْدِلَهُۥٓ﴾ بالتَّخْفيفِ والتَّشْديد)، نافع وابن كثير وأبو عَمْرو: بالتَّشديد[٣]، والباقُون: بالتَّخْفيفِ[٤].

---

(١) برقم (١٤٧٩).

(٢) «التيسير في القراءات السبع» ص٦١.

(٣) من قوله: «نافع» إلى هنا سقط من (ف)، وأثبته من (ح) و(ط).

(٤) «التيسير في القراءات السبع» ص١٠٠.

مُمسكًا إلىٰ أنْ يَجِدَ ما يَطعَمُه، فشُبِّه به الصّائِمُ في إمساكِه إلىٰ أنْ يَجيءَ وقتُ إفطارِه. وقيل: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ مُهاجِرات، وعن زَيدِ بنِ أسلم: لَمْ تكُن في هذه الأمّةِ سِياحةٌ إلّا الهِجْرة.

فإنْ قُلت: كيفَ تكونُ المُبدَلاتُ خَيرًا مِنهُنّ، ولَمْ تَكُن علىٰ وَجهِ الأرْضِ نِساءٌ خَيرٌ من أمّهاتِ المُؤمِنين؟

قُلتُ: إذا طَلّقَهُنَّ رَسولُ الله لِعِصيانِهِنَّ له وإيذائِهِنَّ إيّاه، لَمْ يَبقين علىٰ تلك الصِّفة، وكان غيرُهُنّ من المَـوصوفاتِ بهذه الأوْصافِ معَ الطّاعةِ لِرسولِ الله ﷺ والنُّزولِ علىٰ هَواه ورِضاه خَيرًا مِنهُنّ، وقَد عَرّضَ بذلك في قَولِه: ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾؛ لأنّ القُنوتَ هو القِيامُ بطاعةِ الله، وطاعةُ الله في طاعةِ رَسولِه.

فإنْ قُلت: لِمَ أُخْلِيت الصِّفاتُ كُلُّها عن العاطِفِ ووُسِّطَ بين الثيِّباتِ والأبْكار؟

قُلت: لأنّهما صِفَتان مُتنافِيتان لا يَجْتَمِعنَ فيهما اجْتماعَهُنَّ في سائرِ الصِّفات، فلَمْ يَكُن بُدٌّ من الواو.

قولُه: (لأنّهما صفتان مُتَنافِيتان لا يجتمعن فيهما)، الانتصاف: ذكر أبو عَمْرو بن الحاجِب أنَّ القاضي عبد الرحيم البَيْساني كان يعْتَقِدُ أنَّ الواوَ [في الآية] [١] واوُ الثّمانية، وكان يَتبجّح باسْتخراجِها[٢] زائدةً على المواضِع الثّلاثة؛ أحدها: في التوبة ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾

---

(١) زيادة يقتضيها السياق استدركتها من «الانتصاف»، والمقصود بالآية الآية التي نحن بصددها وهي قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾، فمن قوله: ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ إلى ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ عدّ سبعة أصناف والثامنة ذكرها مع الواو، لذا كان القاضي البيساني يرى أنها واو الثمانية، وفي هذا الاستدراك ردٌّ لهذا التَّوهم، وقد علّق ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥: ٣٠٦) على الواو في هذا الموضع: وليست هذه الواو مما يمكن أن يقال فيها: واو الثمانية لأنها هنا ضرورية ولو سقطت لاختل هذا المعنى، وهذه الواو مما اختلف قول النَّحويين في نفيها وإثباتها، ولعل ابن هشام من أشد نفاتها حتى إنه عزى القول بها إلى بعض الأدباء كالحريري وضعفه النَّحويين كابن خالويه، وبعض المفسّرين كالثعلبي، كما في «مغني اللبيب» (٤: ٤٧٤).

(٢) ذكر ابن هشام في «مغني اللبيب» ص٤٧٦ أن الثعلبي قد سبق القاضي البيساني إلى استخراجها فقال: ذكرهَا القَاضِي الْفَاضِل وتبجح باستخراجها وَقد سبقه إِلَى ذكرها الثَّعْلَبِيّ.

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ❁ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ٦-٧]

﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ بتَرْكِ المَعاصي وفِعلِ الطّاعات، ﴿وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ بأنْ تَأخُذوهُم بما تَأخُذون به أنفُسَكُم. وفي الحديث: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا قال: يا أهْلاه، صَلاتكم، صِيامَكم، زَكاتكم، مِسكينكم، يَتيمَكم، جيرانكم، ....

[التوبة: ١١٢]، والأخرى في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ [الكهف: ٢٢] والثّالِثُ في قولِه: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] قال ابن الحاجب: فذكَر القاضي ذلك يوماً مُسْتَحْسِناً له بحضْرةِ أبي الجُود النَّحْويِّ المُقْرئ، فبيَّن له أنَّه واهِمٌ في عَدِّهَا من هذا القِسْم، وذَكَر له ما ذكره الزَّمَخْشَريُّ من دُعاءِ الضَّرُورةِ إليها واسْتِحَالةِ المَعْنى بِعَدَمِها، وواوُ الثَّمانيةُ لا تَرِدُ إلا حَيثُ لا حَاجَة إليها إلا الإشْعَار بِتمامِ عَددِ السَّبْعة، فقال: أرْشَدْتَنا يا أبا الجُود[١].

ورُوي عن المُصنِّف أنَّه قال: الواوُ تدخُل في الثّامن كَقولِه: ﴿وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ [الكهف: ٢٢] وقوله: ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، ويُسَمُّونَها واو الثَّمانية، وهي كذلِك ولَيس بِشيءٍ، وقد قال لنا عِند قِراءة هذا المَوْضِع: أنَسيتُم واوَ الثَّمانية عند جَوابي هذا؟ أيْ: هو جَوابٌ حَسَنٌ، وذلك خَطأٌ محضٌ ولا يجوز أنْ يؤخَذ بِهِ[٢].

قولُه: (صَلاتكُم وصِيامَكم[٣])، قال الزَّجّاجُ: معناه: الزَمُوا، احْفظُوا صَلاتكم، وهذه الأشْياءَ المَذْكُورة، أي: أدُّوا فَرْضَ الله فيها[٤].

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٥٦٧).

(٢) لم يذكر المُصنِّف من الذي روى هذا عن الزمخشري، ولا أين روي؟! لذا تعقبه ابن عاشور بعد أن ساق قوله فقال في «التحرير والتنوير» (٢٨: ٣٦٤): قلت: وهذا يخالف صريح كلامه في «الكشاف»، فلعل الرَّاوي لم يُحسن تحريرَ مُرادِ صاحب «الكشاف»، أو لعل صاحب «الكشاف» لم ير منافاة بين لزوم ذكر الواوين اقتضاء المقام ذكرها، بأن المعطوف بها ثامنٌ في الذِّكر، فإنَّ النُّكت لا تتزاحم، فتأمّل بتدقيق.

(٣) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «صيامكم» دون واو.

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٩٤).

لعلَّ اللهَ يَجمَعُهم معه في الجَنّة»، وقيل: إنّ أشَدَّ النّاسِ عَذابًا يومَ القِيامةِ مَن جَهَّلَ أهلَه. وقُرِئَ: (وأَهْلوكُم)، عَطفًا علىٰ واو ﴿قُوٓا﴾ وحَسُنَ العَطفُ للفاصِل.

فإنْ قُلت: **أليسَ التَّقديرُ**: قوا أنفُسَكُم، وَلْيَقِ أهلوكم أنفُسَهم؟

قلتُ: لا، ولكنّ المعطوفَ مقارنٌ في التقديرِ للواو، و﴿أَنفُسَكُمْ﴾ واقِعٌ بعدَه، فكأنه قيل: قُوا أنتم وأهلُوكم أنفُسَكم، لـمّا جَمَعْتَ مع المخاطَبِ الغائبَ غلَّبتَه عليه، فجَعَلْتَ ضميرَهما معًا علىٰ لفظِ المُخاطب.

قولُه: (**لَعَلّ الله يَجْمَعُهم معه في الجنة**)، هكذا في النُّسخِ المُعْتَمدة، ورُوي: يَجْمَعُكم مَعَهم، وليس يَثْبت، ولا يُسَاعِدُه المعنى إلا تَعَسُّفاً.

قولُه: (**أليسَ التَّقْدير...**) إلى آخِرِه، قيل: المعنى: لـمّا كان الأمْرُ للفاعِلِ المُخَاطَب بالصِّيغَة، وللغائِب باللّام، كان يُخَيَّل أنَّ التَّقدير: قُوا أنْفُسَكم، وليَقِ أهْلُوكم أنْفُسَهم، فيكونَ من عَطْفِ الجُملةِ على الجُمْلة، وأجَاب بأنْ ليس التَّقْديرُ كذلك، لأنَّه لَمّا أُرِيدَ أمْرُ المُخاطَب والغَائب، غُلِّبَ حالُ المُخاطَب، فقيل: ﴿قُوٓا﴾ ثُمَّ لـمّا عُطِف[1] الغائبُ على الضَّمِير، غُلِّبَ في المَفْعولِ أيْضاً المُخَاطَبُ على الغَائبِ، للتَّطَابُقِ، وقدّم المَفْعُولُ.

وقلت: معنى جوابه أنّ «أهْلِيكُم» الّذي هو مَعْطُوفٌ على واوِ ﴿قُوٓا﴾ في التَّقْدير مُقارِنٌ للواوِ، و﴿أَنفُسَكُمْ﴾ الذي هو المَفْعُول مُقَدّر بعد «أهْلوكُم»، لأنَّ أصل الكلام: قُوا أنْتُم وأهْلُوكم أنْفُسَكُم وأنْفُسَهم، فلمّا وقع الفَاصِل بين الواوِ و«أهْلُوكُم» بـ ﴿أَنفُسَكُمْ﴾، اسْتَغْنى عن «أنْتم» لِصحّة العَطْفِ على الضَّمِيرِ بِدونِ التَّأكيد لِوُجود الفَصْل، ولـمّا غُلِّبَ في المَفعول ـ الذي هو ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ ـ المُخاطَبُ على الغَائِبِ اكْتُفِيَ بـ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ عن «أنْفُسَهم».

فإنْ قلتَ: لِـمَ حُظِرَ أنْ تُقَدّر: «وَلْيَقِ»؟

---

(١) من قوله: «فيكون» إلى هنا ساقط من (ح).

﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾: نوعًا من النّارِ لا يَتّقِدُ إلّا بالناسِ والحِجارة، كما يُتّقَدُ غيرُها من النّيران بالحَطَب. وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: هيَ حِجارةُ الكِبريت، وهي أشدُّ الأشياءِ حرًّا إذا أُوقِد عليها. وقُرِئ: (وُقودُها) بالضَّمّ، أي: ذو وقودها، ﴿عَلَيْهَا﴾ يَلِي أمرَها وتعذيبَ أهلِها، ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ يعني الزّبانيةَ التِّسعةَ عَشَرَ وأعوانَهم،

قلت: لتكون[1] الشّاذَّةُ أقْرَبَ إلى مَعْنى المَشْهُورَة، ومَعْناه كما قال: «قُوا أنْفُسَكُم بِتَرْكِ المَعاصي وفِعْلِ الطّاعَاتِ، وأهْلِيكُم بأنْ تَأخُذُوهم بما تَأخُذُون به أنْفُسَكم»، وعلى تَقْدير «لِيَقِ» يَكُونون مُسْتقِلّين في الأمر اسْتِقلالاً تاماً بِخلافِ ذلك التّقْدير، فإنَّ عَطْفَ «أهْلُوكُم»، ـ وهو غائبٌ ـ على الضَّمير ـ وهو حَاضِرٌ ـ لا يَصِحُّ إلا على التّبَعيَّة، كما سَبَق في قولِه تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

قال القَاضي: إنما لم يُخاطِبْها أولاً تَنْبيهاً على أنّه المَقْصُود بالحُكْم، والمَعْطُوف تبَعٌ له[2]. وعلى هذا معنى التّغْليب في أنْفُسِكم.

وفي «شرح السنة»: روي عن عليٍّ رضي الله عنه قال: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾: علِّموهم وأدِّبُوهم، وعن ابن عباس نحوه[3].

قولُه: (وعن ابنِ عبّاس: هي حِجَارةُ الكِبْرِيتِ)، مَنَعَ هذا التّفْسير في سُورَةِ البَقَرة، وهو تَخْصيصٌ بغيرِ دَليل، وأثْبَتَه هَاهُنا.

قولُه: (وقُرِئ: «وُقُودُها»)، بالضَّمِّ، قال ابنُ جِنِّي: وهي قِراءَةُ الحَسن ومُجاهِد، وهو على حَذْفِ المُضَاف، أيْ: ذُو وُقُودِها، يعني: ما تُطْعَمُه النّارُ من الوَقودِ[4].

---

(١) من قوله: «لم حظر» إلى هنا ساقط من (ح).

(٢) «أنوار التنزيل» (١: ٢٩٦).

(٣) «شرح السنة» (٢: ٤٠٨).

(٤) «المحتسب» (٢: ٣٢٤).

﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ في أجْرامِهم غلظةٌ وشِـدّة، أي: جَفاءٌ وقـوّة. أو في أفعالِهم جفاءٌ وخُشونة، لا تأخذُهم رأفـةٌ في تنفيـذِ أوامرِ الله والغضَبِ له والانتقامِ من أعدائِه. ﴿مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ في محلِّ النَّصبِ على البدَل، أي: لا يَعْصونَ ما أمرَ الله. أي: أمرَه، كقوله تعالىٰ: ﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ [طه: ٩٣] أو لا يَعْصُونه فيما أمرَهم.

فإنْ قُلت: أليسَت الجُملتانِ في معنًى واحد؟

قلتُ: لا، فإنّ معنىٰ الأولىٰ أنّهم يتقبّلون أوامرَه ويلتزمونَها ولا يأبَونها ولا يُنكِرونَها، ومعنىٰ الثانية: أنّهم يُؤدّون ما يُؤمَرون به لا يتثاقلون عنه ولا يتوانَون فيه.

فإنْ قُلت: قد خاطبَ اللهُ المشركينَ المكذِّبين بالوحيِ بهذا بعَينِه في قولِه تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] وقال: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] فجعلَها معَدَّةً للكافرين، فما معنىٰ مخاطبتِه به المؤمنين؟

قولُه: (أليْستِ الجُمْلَتان في مَعْنى واحِدٍ)، يعني قوله: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ معناه: لا يَتْركُون فِعلَ المَأمُورِ بهِ، ومَفْهومُه: أنّهم يَفْعلون مَا يُؤْمَرون به.

وأجاب: بأنَّ الأولى لبيان مُوافَقَةِ الأمْرِ في الباطن واعْتِقاد حقيقة الأمر والاعتراف به، والثانية لبيان موافقة الأمر في الظَّاهِر، لأنَّ المُوافقة الإتيانُ بالمَأمُور به، فإنَّ مُوافَقة الشَّيءِ ما يُوجِبُ ثُبوتَ مُقْتَضاه، ويُمْكن أنْ يُقال: إنَّه من بابِ الطَّرْدِ والعَكْسِ، وهو كُلُّ كلامين يُقَرِّر الأوّلُ بِمَنْطُوقِه مَفْهُوم الثّاني وبالعَكْس، مُبالَغةً في أنّهم لا تَأخُذُهم رأفَة في تَنْفيذِ أَوَامِرِ الله والغَضَبِ له.

رُوي عن المُصنِّف أنّه قال: نَظيرُ الآيةِ قولُه تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] نَفَى المُعانَدةَ عن المَلائِكةِ والاسْتِكبارَ بقولِه: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩] وأثْبَت لَهُم الكَيَاسَة، ونَفَى عَنْهم الكَسَل بقولِه: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] كقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾.

قلت: **الفُسّاقُ - وإنْ كانت دَركاتُهم فوقَ دركاتِ الكُفّار - فإنّهم مُساكِنونَ الكُفّارَ في دارٍ واحدة**، فقيل للذين آمنوا: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ باجتنابِ الفُسوقِ مُساكَنةَ الكُفّارِ الذين أُعِدَّت لهم هذه النّار الموصوفة.

ويجوزُ أنْ يأمُرَهم بالتَّوقّي من الارتِداد والنَّدمِ علىٰ الدُّخولِ في الإسلام، وأنْ يكونَ خِطابًا للذين آمَنوا بألسنتِهم وهم المنافقون، ويعضُدُ ذلك قولُه تعالىٰ علىٰ إثرِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: يُقالُ لهم ذلك عند دُخولِهم النّارَ: لا تعتَذِروا، لأنه لا عُذرَ لكم، أو لأنه لا ينفعُكم الاعتِذار.

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ٨]

﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ وُصِفتِ التوبةُ بالنُّصحِ علىٰ الإسنادِ المجازيّ؛ **والنُّصح: صِفةُ التائبين**؛ وهو أنْ يَنصَحوا بالتَّوبةِ أنفُسَهم، فيأتوا بها علىٰ طريقِها مُتداركةً للفرطاتِ ماحيةً للسيِّئات، وذلك: أن يتُوبوا عن القبائحِ لقُبحِها، ....

قولُه: (**الفُسّاقُ - وإنْ كانت دَرَكاتُهم فَوقَ دَرَكاتِ الكُفّار - فإنّهم مُساكِنُون الكُفّارَ في دارٍ وَاحِدةٍ**)، **الانتصاف**: جَوابُه بِناءً على اعْتِقادِه في خُلُود الفُسّاقِ، أَوْرَدَ السُّؤالَ لِيَتَنفَّس عن ما في نَفْسِه من هذا البَاطِلِ الّذي لا يُطِيقُ كِتْمانَه، ولا يُمْتَنعُ أنْ يُحَذَّرَ المُؤمِنُ من عذابِ الكافِر تَثْبيتاً له على الإيمانِ كَقولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

قولُه: (**والنُّصحُ: صِفَةُ التَّائِبين**)، **الرّاغِب**: النُّصحُ: تَحَرّي فِعْلٍ أو قَوْلٍ فيه صلاحٌ، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ [الأعراف: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، وهو من قولِهم: نَصَحْتُ له الوُدَّ.

نادِمين عليها، مغتمّين أشدَّ الاغتِمامِ لارتكابِها، عازِمين علىٰ أنّهم **لا يعودون في قبيحٍ من القبائحِ** إلىٰ أنْ يعودَ اللَّبنُ في الضَّرْعِ، موطّنين أنفُسَهم علىٰ ذلك.

وعن عليٍّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنه: **أنه سَمِع أعرابيًّا يقول**: اللّٰهمَّ إني أستَغفِرُك وأتوبُ إليك، فقال: يا هذا، إنّ سُرعةَ اللِّسانِ بالتَّوبةِ توبةُ الكذّابين. قال: وما التوبة؟ قال: يَجمعُها سِتّةُ أشياء: علىٰ الماضي من الذُّنوب: النّدامة، وللفرائض: الإعادة، وردُّ المظالم، واستِحلالُ الخُصوم، وأنْ تعزِمَ علىٰ أنْ لا تعود، وأنْ تُذيبَ نفسَك في طاعةِ الله، كما ربَّيْتَها في المعصية، وأنْ تُذيقَها مَرارةَ الطَّاعاتِ كما أذقْتَها حلاوةَ المعاصي.

وعن حذيفة: **بحسب الرَّجلِ** من الشَّرِّ أنْ يَتوبَ عن الذَّنبِ ثُمَّ يعودُ فيه.

أي: أَخْلَصت، ونَاصِحُ العَسَلِ: خَالِصُهُ، أو من قولهم: نَصَحْتُ الجِلْدَ: خِطْتُه، والنَّاصِحُ: الخيَّاطُ، والنِّصَاحُ: الخَيْطُ، وقوله تعالى: ﴿تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨] فمِنْ أَحَدِ هذين: إمَّا الإخلاصُ، وإمَّا الإحكامُ، يقال: نَصُوحٌ ونَصَّاحٌ كذَهُوب وذَهَّاب، قال:

أَحْبَبْتُ حُبّاً خَالَطَتْهُ نَصاحَةٌ[1]

قولُه: (**لا يَعُودُون في قَبِيحٍ من القَبَائِحِ**)، قيل: هذا مَذْهَبُه، لأنَّ عِندهم أنَّ التَّوبة عن بعْضِ المَعَاصِي مع الإصْرار غيرُ صحيحٍ.

قولُه: (**أنّه سَمِعَ أعْرابياً يَقُولُ**)، ذَكَر هذا الحَديث في الشُّورَى[2] مع تَغييرٍ يَسِيرٍ، قال: مَتْنُ التَّوبَةِ وعمُودُها الانْتِهاءِ، على ما قال تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم﴾ [الأنفال: ٣٨] وجَنَاحَاها: النَّدمُ والعَزْمُ، والنَّدَم: هو الغَمُّ المُلازم للذَّنْب.

قولُه: (**بِحَسَب الرَّجُلِ**)، مُبْتَدأٌ، والباءُ زائِدةٌ، والخبرُ: «أنْ يَتُوبَ».

---

(١) انظر: «مفردات القرآن» ص٨٠٨، وهذا الشطر نسبه ابن قتيبة في «غريب الحديث» (٢: ٥١٢) لذي الرُّمة، ولم أجده في «ديوانه».

(٢) «الكشاف» (١٤: ٥٥).

وعن شَهرِ بنِ حَوْشب: أن لا يعودَ ولو حُزَّ بالسَّيفِ وأُحرِقَ بالنّار. وعنِ ابنِ السَّماك: **أنْ تَنْصِبَ الذَّنبَ الذي أقللْتَ فيه الحياءَ** من الله أمامَ عَينِك، وتَستَعِدَّ **لُمتَظَرِك**. وقيل: توبةً لا يُتاب منها. وعن السُّدِّيّ: لا تَصحُّ التوبةُ إلّا بنَصيحةِ النَّفْسِ والمؤمنين، لأنّ مَن صَحَّت توبتُه أحَبَّ أنْ يَكونَ الناسُ مثلَه.

وقيل: ﴿نَّصُوحًا﴾ **مِن نَصاحةِ الثَّوب**، أي: توبةً ترفُو خُروقَك في دينِك، وتَرُمّ خللَك. وقيل: خالصةً، من قولِهم: عسَلٌ ناصِح إذا خَلَصَ من الشَّمْع. ويجوزُ أنْ يُراد: توبةً تنصَحُ النّاس، أي: تدعوهُم إلىٰ مثلِها لظُهورِ أثرِها في صاحبِها، واستعمالِه الجِدَّ والعَزيمةَ في العَملِ علىٰ مُقتضياتِها.

وقرأ زيدُ بنُ عليّ: (تَوبًا نَصوحًا) **وقُرِئَ: (نُصوحًا) بالضمّ**، وهو مَصدَرُ «نَصَحَ».

قولُه: (**أنْ تَنْصِب الذَّنْب الّذي أقْلَلتَ فيه الحَيَاءَ**)، أقْلَلتَ: صِفَةُ الذَّنْب، على مِنْوالِ قولِه:

ولقَد أمُرُّ على اللئِيمِ يَسُبُّني[1]

قولُه: (**لِمُنتَظَرِكَ**)، أيْ: مَوتِك،وقيل: عَاقِبَتِك.

قولُه: (**مِنْ نَصَاحة الثَّوبِ**)، في «المطلع»: نَصَاحَة الثَّوبِ: خِياطَتهُ، والنَّصَّاحُ: الخَيّاطُ، أي: توبة تَرْفو خُرُوقَكَ في دِينِك، فهي استعارة.

قولُه: (**وقُرِئ: «نُصُوحاً» بِالضَّمِّ**)، أبو بَكْر، والبَاقُون: بالفَتْح[2].

---

(١) هذا صدرُ بيتٍ تَمامُه:

فمضيتُ ثُمَّت قلتُ لا يَعْنيني

وهو لشمر بن عمر الحنفي كما في «الأصمعيات» ص١٢٦.

(٢) «التيسير في القراءات السبع» ص١٣٥.

والنُّصحُ والنُّصوح، كالشُّكْر والشُّكور، والكُفْر والكُفور، أي: ذاتُ نُصوح، أو تَنصَحُ نُصوحًا، أو توبوا لنُصح أنفُسِكم علىٰ أنّه مَفعولٌ له، ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ إطماعٌ من الله لعبادِه، وفيه وَجهان، أحدُهما: أنْ يكونَ علىٰ ما جَرَتْ به عادةُ الجبابرةِ من الإجابةِ بـ«عسىٰ» و«لعلَّ»، ووقوعِ ذلك منهم مَوقِعَ القَطْع والبَتّ. والثاني: أنْ يجيءَ به تَعليمًا للعِبادِ وجوبَ الترجُّح بين الخوفِ والرَّجاء، والذي يَدُلُّ علىٰ المعنىٰ الأوّلِ وأنه في معنىٰ البَتّ: قراءةُ ابنِ أبي عَبْلة: (ويُدخِلْكم) بالجزم، عَطفًا علىٰ محَلِّ (عسىٰ أنْ يُكَفِّر)، كأنه قيل: تُوبوا يوجِبْ لكم تكفيرَ سيِّئاتِكم ويُدخِلْكم، ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ﴾ نُصِبَ بـ﴿وَيُدْخِلَكُمْ﴾، و﴿لَا يُخْزِى﴾: تعريضٌ بمَن أخْزاهم اللهُ من أهل الكُفرِ والفُسوق، **واستِحْمادٌ إلىٰ المؤمِنينَ علىٰ أنه عصَمَهم** من مثلِ حالِهم، ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ علىٰ الصِّراطِ.

﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ **قال ابنُ عبّاس**: يَقولونَ ذلك إذا طُفِئَ نورُ المنافقين إشفاقًا.

قولُه: (**ووجوب**[١] **الترجح**)، **الأساس**: ومن المَجازِ: رجَّحَ أَحَدَ قَوْلَيه على الآخَر، وتَرَجَّح في القَولِ: تَميَّل فِيه، وقيل: التَّرَجُّحُ: التَّرَدُّدُ، وكَونُهم دائِرِيْن بَيْنَهما، غَيرُ مُرَجِّحين أَحَدَهُما على الآخَرِ.

قولُه: (**واسْتِحْمادٌ إلى المُؤمنين على أنّه عَصَمَهُم**)، **الأساس**: واسْتَحْمَدَ اللهُ إلىٰ خَلْقِهِ بإِحْسَانِهِ إليهِم وإنْعَامِه عَلَيْهم. ضَمَّن «اسْتَحْمَدَ» معنى الإحْسَان، أيْ: أحسَنَ إلَيْهم طَالِباً لِلحَمْدِ مِنهُم على عِصْمَتِه إيّاهُم.

قولُه: (﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ **قال ابنُ عبّاس**)، فَسّر ﴿أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ **بالنَّظَرِ إلى قولِه تعالى**: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ بوجوهٍ أرْبَعةٍ؛ أحَدُها: يطْلُبون الدَّوامَ إشْفَاقاً بِسببِ مَا يَنْظُرون إلى نُورِ المُنافِقِين وانْطِماسِهِ، جزاءً لـما كانوا يُخَادِعُون الله والذين آمنوا، وبه فُسِّر قولُه: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] في وَجْهٍ. قال الوَاحِديُّ: ومعنى إذْهَاب الله نُورَهم: هو أنَّ الله تعالى يَسْلُبُ المنافقين ما أُعْطُوا من النّورِ مع المُؤمنين في الآخِرةِ[٢].

---

(١) كذا في الأصول ونصّ «الكشاف» من (ط)، لكن ليست الواو في الأصل الخطي منه ولا المطبوع.

(٢) «الوسيط في تفسير القرآن المجيد» للواحدي (١: ٩٤).

وعن الحسن: الله مُتمِّمُه لهم ولكنّهم يدعون تقرُّبًا إلىٰ الله، كقولِه تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥] وهو مَغفورٌ له. وقيل: يقولُه أدناهم منزلةً؛ لأنّهم يُعطَون من النُّورِ قدْرَ ما يُبصِرون به مَواطِئَ أقدامِهم؛ لأنّ النُّورَ علىٰ قَدرِ الأعمالِ، فيَسألونَ إتمامَه تَفضُّلًا. وقيل: السَّابقون إلىٰ الجنَّةِ يَمرّون مِثلَ البَرقِ علىٰ الصِّراط، وبعضُهم كالرِّيح، وبعضُهم حَبوًا وزَحفًا؛ فأولئك الذين يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾.

فإنْ قلتَ: كيفَ يُشفِقون والمؤمنون آمِنون ﴿أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]، ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [يونس: ٦٢]، ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]؟ أو كيف يتقرّبون وليست الدّارُ دارَ تقرُّب؟

وثانيها: يَطْلُبونَ الدَّوامَ لا خَوْفاً بل تقرُّباً.

وثالِثها: يَطْلُبُون المَزيد لِنُقْصانِ نُورِهم مِن نُورِ غَيْرِهم.

ورابِعُها: ذلك النُّور الّذي يَسْعَى بين أيْديْهم هو نُورُ السَّابِقين، وهم يَطْلُبون ابْتِداءَ إتمام النُّور، أيْ: هَبْ لنا نُورنا وأتمِمْه لنا، والسُّؤال الآتي مُتوجِّهٌ إلى الوَجْهين الأوَّلين.

قولُه: (كَيفَ يُشْفِقُون؟)، هذا الإيْرادُ على قولِ ابنِ عبّاس: يقُولون ذلك إشفاقاً، وقولُه: أو كيف يَتَقَرَّبون؟ هذا على قولِ الحسن: ولكنَّهم يَدْعُون تَقَرُّباً إلى الله تعالى(١).

قولُه: (ولَيْستِ الدَّارُ دارَ تَقَرُّبٍ)، أيْ: الدَّارُ الآخِرةُ ليست دارَ التَّكْليف، فمَن لَم يَتَقَرَّبْ في الدُّنيا إلىٰ الله تعالى، لا يتَقرَّب إليه في الآخِرة، وجاء في الحديثِ ما يُخالِفُه، رُوِّينا عن الإمام أحمد بن حَنْبل والتِّرْمذيِّ وأبي دَاود عن عبد الله بن عَمرٍو قال: قال رسول الله ﷺ: «يُقالُ لصاحبِ القُرآنِ: اقْرَأْ وَارْقَ ورَتِّلْ كَما كُنتَ تُرتِّلُ في الدُّنْيا، فَإنَّ منزلتك عند آخِرِ آية تَقْرؤها»(٢). وروى ابنُ مَاجَه عن أبي سعيدٍ نحوه(٣).

---

(١) وكلا القولين نقلهما الزَّمَخْشري في تفسير هذه الآية.

(٢) أحمد في «المسند» (٢: ١٩٢)، (٦٧٩٩) الترمذي في «الجامع» (٢٩١٤)، وأبو داود في «السنن» (١٤٦٤).

(٣) ابن ماجه في «السنن» (١٢٤٢).

قلت: أمّا الإشفاقُ فيَجوزُ أنْ يَكونَ علىٰ عادةِ البَشريّةِ وإنْ كانوا مُعتقِدين الأمنَ، وأمّا التقرُّبُ فلمّا كانت حالُهم كحالِ المتقرِّبين حيثُ يَطلُبون ما هو حاصِلٌ لهم من الرَّحمة: سمّاه تقرُّبًا.

[﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ٩]

﴿جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسَّيف ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ بالاحتِجاج؛ واستَعمِلِ الغِلظةَ والخُشونةَ علىٰ الفريقَين فيما تُجاهدُهما به من القِتالِ والـمُحاجّة.

وعن قتادة: مُجاهدةُ المُنافقينَ لإقامةِ الحُدودِ عليهم.

وعن مجاهد: بالوَعيد. وقيل: بإفشاءِ أسرارِهم.

[﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ ١٠]

مثَّلَ اللهُ عزَّ وجلَّ حالَ الكُفّارِ في أنّهم يُعاقَبون علىٰ كُفرِهم وعَداوتِهم للمُؤمنين، **مُعاقبةَ مثلِهم** من غيرِ إبقاءٍ ولا مُحاباة، ....

ويمكن أنْ يُقال: إنَّ التَّرقي بِحسب ما ثَبَت لَهُ في الدُّنيا، والتَّرَقِّي في الجنَّة بالقِراءة عَلامَة انْتِهاءِ تلك المَنْزِلة(١).

قولُه: (مُعَاقَبةَ مِثْلِهم)، والمِثْلُ هاهنا كما في قولِك: مِثْلك لا يبخَلُ، أي: أنت لا تبخل، يعني: من هو في صَدَدِكَ من الجُودِ والسَّخَاوَة لا يَبْخَل. أيْ: يُعَاقَبُون مُعَاقَبَةَ مَن هُو مُبالِغٌ في الكُفْرِ والنِّفَاقِ، وتلكَ المُعَاقَبَة هي ما قَالَ: «مُعَاقَبة مِثْلِهم من غَيرِ إبْقَاءٍ ولا مُحَابَاة».

(١) ويمكن أن يقال أيضاً: إن هذا الترقي ليس من التكليف، بل من باب التشريف، فلا يكون فيه مخالفة للمعنى المذكور.

ولا ينفعُهم مع عداوتِهم لهم ما كانَ بَيْنهُم وبَيْنهم من لُحمةِ نسَبٍ أو وُصلةِ صِهْرٍ؛ لأنّ عداوتَهم لهم وكفرَهم بالله ورسولِه قَطعَ العلائِقَ وبَتَّ الوُصَلَ، وجعلَهم أبعدَ من الأجانبِ وأبْعَد، وإن كان المُؤمنُ الذي يتَّصِلُ به الكافرُ نبيًّا من أنبياءِ الله بحالِ امرأةِ نوحٍ وامرأةِ لوط لـمّا نافقتا وخانَتا الرَّسولَين لم يُغنِ الرَّسولانِ عنهما بحَقِّ ما بينَهما وبينهما من وُصلةِ الزَّواج إغناءً ما من عذابِ الله ﴿وَقِيلَ﴾ لهما عندَ موتِهما أو يومَ القِيامة: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ﴾ سائرِ ﴿ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ الذين لا وُصلةَ بَينهم وبينَ الأنبياء، أو مع داخِليها من إخوانِكُما من قَومِ نُوحٍ وقَومِ لُوط.

ومُثِّلَ حالُ المؤمنين في أنّ وُصلةَ الكافرين لا تَضُرُّهم ولا تُنقِصُ شَيئًا من ثوابِهم وزُلفَاهم عند الله، بحالِ امرأةِ فرعونَ ومنزلتِها عند الله تعالىٰ، مع كونِها زوجة أعدىٰ أعداءِ الله **الناطقِ بالكلمةِ العُظمىٰ**، ومريمَ ابنةِ عِمران وما أُوتِيتْ من كرامةِ الدُّنيا والآخِرةِ والاصْطِفاءِ علىٰ نساءِ العالَمِين، معَ أنّ قومَها كانوا كُفّارًا.

وفي طَيِّ هذين التَّمثيلَينِ تَعريضٌ بأُمَّي المؤمنين المذكورَتينِ في أوّلِ السُّورةِ، وما فَرط

قولُه: (النَّاطِقِ بالكَلِمةِ العُظمى)، وهي: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

قولُه: (وفي طَيِّ هذين التَّمثِيلينِ تَعْريضٌ بأُمَّي المُؤْمنين المَذْكُورتين في أوَّلِ السُّورة)، إشَارَةٌ إلى النَّظْم، وأنّه تعالى بعدما حَكى عن أُمَّي المُؤْمنين ما فَعَلتا مما حَصَلت منه الكَراهَة لحَضْرةِ الرِّسَالة من التَّظَاهُر عليه، وعَمَّ التَّوبِيخ بِقولِه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ وهما المُرادَتان أوّلياً، وذكر أوْصَافَ المُبدلاتِ تَقريعاً، ثُمَّ وَعَظ المُؤْمنين تَلْويحاً، وحَرَّضَهُم على التَّوبَة ورَغَّبَهُم فيها، ثُمَّ أمَر رسُولَه بالغِلْظَةِ مع المُعَانِدين من الكَافِرين والمُنَافِقين تَحرِيضاً، أتى بهذين التَّمْثِيلين تَذْييلاً لِذكْر المُؤْمنين والكافِرين، وتَتْميماً للتَّعْـريضِ بأُمَّي المُؤْمِنين، ومَن تَأمَّل في هذهِ التَّشْديداتِ لاحَ له مَنْزِلَة حَبيب الله عِنْد الله، وحَقّق مَعْنى قَولِ أمّ المُؤْمنين

من التَّظاهُرِ علىٰ رسولِ الله ﷺ بما كَرِهَه، وتحذيرٌ لهما علىٰ أغلَظِ وَجهٍ وأشَدِّه. لِـمَ في التَّمثيلِ من ذِكْرِ الكُفر، ونحوُه في التَّغليظِ قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وإشارةٌ إلىٰ أنّ من حقِّهما أنْ تكونا في الإخلاصِ والكمالِ فيه كمَثَلِ هاتَينِ المؤمنتين، وأنْ لا تتَّكِلا علىٰ أنّهما زوجا رسولِ الله، فإنّ ذلك الفضلَ لا يَنفعُهما إلّا معَ كونِهما مُخلِصَتَين، والتعريضُ بحَفصةَ أرجحُ؛ لأنّ امرأةَ لوطٍ أفشَتْ عليه كما أفشَت حَفصةُ علىٰ رسولِ الله! وأسرارُ التنزيلِ ورُموزُه في كُلِّ بابٍ بالغةٌ من اللُّطفِ والخَفاءِ حَدًّا يَدقُّ عن تَفطُّنِ العالِمِ ويَزِلُّ عن تَبصُّرِه.

فإنْ قُلت: ما فائدةُ قولِه: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾؟

قلتُ: لـمّا كان مَبْنىٰ التَّمثيلِ علىٰ وجودِ الصَّلاحِ في الإنسانِ كائنًا مَن كان، وأنّه وحدَه هو الذي يَبلُغُ به الفوزَ ويَنالُ ما عندَ الله: قال: ﴿عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ﴾، فذَكَرَ النَّبيَّين المشهورَينِ العلَمَين بأنّهما عَبدانِ لم **يكونا إلّا كسائرِ عبادِنا** من غَيرِ تَفاوتٍ بينَهما وبينَهم إلّا بالصَّلاحِ وحدَه؛ إظهارًا وإبانةً لأنّ عَبدًا من العِبادِ لا يرجَحُ عندَه إلّا بالصَّلاحِ لا غير، وأنّ ما سواهُ ممّا يَرجَحُ به النّاسُ عندَ الناس ليس بسَبَبٍ للرُّجْحانِ عنده.

الصِّدِّيقَة رضي الله عنها: يا رسُول الله مَا أرى ربّك إلا يُسَارِعُ في هَواكَ. الحديثُ مُتَّفق على صِحَّتِه(١).

ولله دَرّه حيث قال: «وأسْرارُ التَّنْزيلِ ورُمُوزُه في كُلِّ بابٍ بالِغة من اللطفِ والخَفاءِ حَدًّا يَدُقُّ عن تَفَطّن العَالِمِ ويَزِلّ عن تَبَصُّرِهِ!».

قولُه: (**لم يَكُونا إلا كَسَائِرِ عِبادِنا**)، لعَلّه قَصد في تَعْميم ﴿عِبَادِنَا﴾، تَقْرِيرَ معنى العُمُوم الذي اعْتَبـرَه في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] اعْتِزالاً، وقَد بَيّنّا هُناكَ أنَّ

---

(١) البُخَارِي (٤٧٨٨)، ومسلم (١٤٦٤).

فإنْ قُلتَ: ما كانت خيانَتُهما؟

قلتُ: نِفاقُهما وإبطانُهما الكُفر، وتَظاهُرُهما علىٰ الرَّسولَين، فامرأةُ نوحٍ قالتْ لقومِه: إنّه مجنون، وامرأةُ لوطٍ دَلّت علىٰ ضِيفانِه، ولا يَجوزُ أنْ يُرادَ بالخِيانةِ الفُجور؛ لأنهُ سَمِجٌ في الطِّباع، نقيصةٌ عندَ كُلِّ أحَد، **بخِلافِ الكُفر؛ فإنّ الكُفّارَ لا يَستَسمِجونَه** بل يَستَحسِنونَه ويُسمّونَه حَقًّا.

وعنِ ابنِ عَبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: ما بَغَت امرأةُ نَبيٍّ قطّ.

[﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ١١]

عَادَةَ الله جَارِيةٌ بِتَخْصِيصِ لَفْظِ العِبَادِ بالمؤمنين الـمُكَرَّمين، ولا سِيّما وقد أُضِيفَ إلى ضَمِيرِ التَّعْظِيمِ، وأمّا فَائِدتُه هنا فتربيةُ معنى التَّعْريض في التَّمْثيلِ، كأنّه قيل: إنَّ امْرَأةَ نُوحٍ وامْرَأةَ لُوطٍ ما نَفَعَهُما شيءٌ من صُحْبةِ هذين النَّبِيَّينِ المُكَرَّمَينِ الدَّاخِلَينِ في زُمْرةِ العُبّادِ المُخْلَصينَ. ويَدلُّ على إرَادةِ المَدْحِ تَكْرِيرُ قولِه: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٨١، ١١١، ١٢٢، ١٣٢] في الصَّافات عند ذِكْرِ نُوحٍ وإبْراهِيمَ ومُوسى وهَارونَ وإلْيَاسَ عَلَيْهِم السَّلام في خَاتمةِ قَصَصِهِم.

الرَّاغِب: تَخْصِيصُ إضَافَةِ العَبْدِ إلى الله تَنْبيهٌ على مَدْحِهِ في كونه مُطِيعاً له منصرفاً عن أمرِه، وأنّه غير مُعَرَّج على غيرِه ثُمَّ إضَافتُه بنونِ المَمْلُوكِيَّة، مُبالَغَةٌ في الاخْتِصَاصِ، وفي كُلِّ إضَافَةٍ إلى الله بهذا الوجه مُبَالَغَةٌ[1].

قولُه: (**ما كانت خِيَانَتُهما؟**)، «ما» اسْتِفْهامِيّة، وضَمير «كانت» يَعُودُ إليها، و«خِيَانَتُهما» خَبَرُه، والتَّأنِيثُ باعْتِبارِ الخبر، كما في: «مَنْ كانَتْ أُمَّك؟».

قولُه: (**بخِلافِ الكُفْر، فَإنَّ الكُفّارَ لا يَسْتَسْمِجُونَه**) فيه إيماءٌ إلى أنَّ العَقْلَ لا يَصْلُح أنْ يَحْكُم في أمُورِ الدِّيانَة.

---

(١) «تفسير الراغب الأصبهاني» (١: ١١٦).

وامرأةُ فرعون: آسيةُ بنتُ مُزاحم. وقيل: هيَ عَمّةُ موسىٰ عليه السَّلام، آمنَتْ حينَ سَمعَتْ بتَلَقُّفِ عصا موسىٰ الإفك، فعَذَّبَها فرعون.

عن أبي هُرَيرة: أنّ فرعونَ وتَّدَ امرأتَه بأربعَةِ أوتاد، واستقبَلَ بها الشَّمس؛ وأضْجَعَها علىٰ ظَهرِها، ووَضعَ رَحىً علىٰ صَدرِها. وقيل: أمَرَ بأنْ تُلقىٰ عليها صَخرةٌ عَظيمةٌ فدَعَتِ اللهَ فرقَىٰ بروحِها، فأُلقِيَتِ الصَّخرةُ علىٰ جَسدٍ لا روحَ فيه. وعن الحسَن: فنجّاها اللهُ أكرَمَ نَجاة؛ فرَفعَها إلىٰ الجنّةِ فهيَ تأكُلُ وتَشرَبُ وتتَنَعّمُ فيها. وقيل: لـمّا قالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ أُريت بيتَها في الجنّةِ يُبنىٰ. وقيل: إنّه من دُرّة، وقيل: كانت تُعذَّبُ في الشَّمسِ فتُظِلُّها الملائكة.

فإنْ قُلتَ: ما معنىٰ الجَمعِ بينَ ﴿عِندَكَ﴾ و﴿فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾؟

قلتُ: طلبَت القُربَ من رَحمةِ الله والبُعدَ من عَذابِ أعدائِه، ثُمّ بَيّنت مكانَ القُربِ بقولِها: ﴿فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ أو أرادَت ارتِفاعَ الدَّرجةِ في الجنّة، وأنْ تكونَ جنّتُها من الجِنانِ التي هيَ أقربُ إلىٰ العَرْشِ وهيَ جنّاتُ المأوىٰ، فعَبّرت عن القُربِ إلىٰ العَرشِ بقولِها: ﴿عِندَكَ﴾. ﴿مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ من عَمَلِ فرعون، ....

قولُه: (ما مَعْنى الجَمْع بين ﴿عِندَكَ﴾، و﴿فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾)، أيْ: المقامُ المُعَيّن عِند الله في الآخِرةِ الجنّةُ فما مَعْنى الجَمْعِ؟ وأجَابَ أولاً: أنَّ ﴿فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ غيرُ مُتَعلِّقٍ بـ ﴿ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا﴾ بل هو بيانٌ، كأنّها حين قالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا﴾ قيل لها: أين؟ فقالت: ﴿فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾، نحْوُه قولُه تعالى: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] فإنَّ ﴿فِيهِ﴾ بيانٌ لـما زَهِدُوا فيه، أو أنَّ مُرادَها بيانُ المَقاماتِ والمَنازل، طلبت بقولِها: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ القُربَ من رحمةِ الله، وبِقولِها: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ الآية، البُعدَ من أعْدائِه، ولا ارْتِيابَ أنَّ القُرْبَ له مَراتِبُ لا تَنْحصرُ، فَأَدْمجَتْ بقولِها: ﴿عِندَكَ﴾، تعني: أعْلى المراتِبِ وأقْرَبها عِندَ الله، فعلى هذا قولُه: ﴿فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ صِفةُ بَيتاً، أو ظَرْفٌ لـ ﴿ٱبۡنِ﴾.

أو مِن نَفْسِ فرعونَ الخَبيثةِ وسُلطانِه الغَشوم، **وخُصوصًا من عمَلِه** وهو: الكُفر، وعبادةُ الأصنام، والظُّلم، والتَّعذيبُ بغيرِ جُرم، ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من القِبْطِ كلِّهم. وفيه دَليلٌ علىٰ أنّ الاستعاذةَ بالله والالتجاءَ إليه ومسألةَ الخلاصِ منه عندَ المِحَنِ والنَّوازل من سِيَرِ الصّالحِين وسُنَنِ الأنبياءِ والمُرسَلين، ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨]، ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يونس: ٨٦].

[﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ ١٢]

﴿فِيهِ﴾ في الفَرْج. وقرأ ابنُ مَسعود: (فيها)، كما قُرِئَ في سورة الأنبياء، والضَّميرُ للجُملة، **وقد مرَّ لي في هذا الظَّرفِ كلام**. ومن بِدَعِ التَّفاسير أنّ الفَرْجَ هو جَيبُ الدِّرع، **ومعنىٰ (أحصَنَتْه): منعته جِبريل**، وأنه جَمع في التَّمثيلِ بين التي لها زَوجٌ والتي لا زوجَ لها،

قولُه: (**وخُصوصاً من عَمَلِه**)، يريد أنَّ قولَه: ﴿مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ يجوز أنْ يكونَ من بابِ: أعْجَبَني زَيْد وكَرَمُه، ويَجُوز أنْ يُراد: ونَجِّني من نَفْسِ فِرْعونَ الخَبيثَة، ثُمَّ قِيل خُصُوصاً: «مِن عَمَلِه»، وهو قَريبٌ من عَطْفِ الخاصِّ على العَامِّ، وفيه: أنَّ ذاتَه الخَبيثَةَ مَعْدن كُلِّ شِرٍّ، ومَا ظَهَر منه من الكُفْرِ وعِبادَةِ الأصْنامِ والظُّلْم نَعْتانِ مِنْه، وهذا أَبْلَغ.

قوله: (**وقد مَرَّ لي في هذا الظَّرف كلامٌ**) أي: في سُورة الأَنبياءِ، وذلك أنَّ قولَه: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] يدلُّ على إحْياءِ مَرْيم، والمُراد إحْياء عيسى عليه السَّلام منها، والتَّقْدير: ونَفَخْنا الرُّوحَ في عيسى منها، أيْ: أَحْيَيْناهُ منها.

قولُه: (**ومَعْنى «أحْصَنَتْه»: مَنعَتْه جِبْريل**)، عَطْفٌ على «أنَّ الفَرْجَ»، وكذا قَوْله: «وأنَّه جمع في التَّمثيلِ» عطف عليه، والمعنيُّ بالمَنْع قولُها: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]. وعن الوَاحِديِّ رحمه الله تعالى: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: حَفِظَتْ فَرْجَها ومَنعَتْها عمّا

تسليةً للأراملِ وتَطييبًا لأنفُسِهنّ، ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ **قُرِئ بالتَّشديدِ وبالتخفيف على أنّها جَعلَت الكلِماتِ والكُتبَ صادِقة**، يعني: وصَفتْها بالصِّدق، وهو معنى التَّصديقِ بعَينِه.

فإنْ قُلت: فما كلماتُ الله وكتبُه؟ قلتُ: **يجوزُ أنْ يُرادَ بكلماتِه: صُحُفُه** التي أنزلَها على إدريسَ وغيرِه، سمّاها «كلماتٍ» لِقصَرِها، ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾: الكتب الأربعة، **وأن** يُرادَ جميعُ ما كلّم اللهُ به ملائكتَه وغيرَهم، **وجميعُ ما كتَبَه في اللَّوحِ وغيرِه**. وقُرِئ: (بكَلمةِ الله وكتابِه)، أي: بعيسى وبالكتابِ المُنزَلِ عليه وهو الإنجيل.

لا يحِلّ، قال الفرّاءُ[1]: ذكَر المُفسّرون أنّه جَيْبُ دِرْعِها، وهذا مُحتَمَلٌ، لأنَّ الفَرْجَ معناه في اللغة: كُلُّ فُرْجَةٍ بين شَيئين، ومَوْضِعُ جَيْبِ دِرْعِ المَرْأةِ مَشْقُوقٌ فهُو فَرْجٌ، وهذا أبْلَغُ في الثَّناءِ عليها لأنّها إذا مَنعَتْ جَيْبَ دِرْعِها فهي للنَّفْسِ أمْنَعُ[2].

وقلت: هو كِنايةٌ، نحْوُ قولِهم: هو نَقِيُّ الجَيْبِ طَاهِرُ الذَّيلِ، لكنَّ العُدُول عن الظَّاهِرِ المَكْشُوف إلى الخَفِيِّ الّذي لا قَرينة له بعيد، ولِذلك قال المُصنِّفُ: «ومن بِدَعِ التَّفاسِير».

قولُه: (**قُرِئ بالتَّشديدِ وبالتَّخفيفِ**) «صَدّقَت» بالتَّشْديدِ: المشهورةُ، وبالتَّخفيفِ شَاذّةٌ[3].

قولُه: (**جَعلَت الكَلماتِ والكُتُب صَادِقةً**)، إمّا بأنْ قال: إنَّ كُتبَ الله صَادِقةٌ فيما جاءت به، أو صَدَّقت بِمعنَى آمَنَتْ بِكَلماتِ ربِّها مُصَدِّقةً لها، وهو معنى التَّصْديق بِعَينِه، والباءُ للتَّعْدِية.

قولُه: (**يَجُوز أنْ يُراد بِكَلماتِه: صُحُفُه**)، إلى قوله: (**وجميعُ ما كَتَبه في اللَّوحِ وغيرِه**)، **الانتصاف**: هو يجحدُ الكلامَ القَديمَ، فلا جَرَم كلامُه يُشْعِر بأنَّ كلماتِ الله مُتَناهِيةٌ، لأنه

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء: (٢: ٢١٠).

(٢) «الوسيط» للواحدي (٣: ٢٥٠).

(٣) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٨: ١٨٨).

فإنْ قُلت: لم قيل ﴿مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ علىٰ التَّذكير؟

قلتُ: لأنّ القُنوتَ صِفةٌ تَشمَلُ مَن قَنتَ من القبيلَيْن، **فغُلِّبَ ذكورُه علىٰ إناثه**، و﴿مِنَ﴾ للتَّبعيض، ويجوزُ أنْ يكونَ لابتداءِ الغاية، علىٰ أنّها وُلِدت من القانِتِين؛ لأنّها من أعقابِ هارونَ أخي موسىٰ صلَواتُ الله علَيهما.

وعن النَّبيِّ ﷺ: «**كَمُلَ** من **الرِّجالِ كثير**، ولم يَكمُل منَ النِّساءِ إلّا أربعٌ: آسيةُ بنتُ مُزاحِم امرأةُ فِرعون، ومَريمُ ابنةُ عِمران، وخَديجةُ بنتُ خُوَيلد، وفاطمةُ بنتُ مُحمَّد،

جَمَعَها في الأوّل جَمْعَ قِلّةٍ لِقِصَرِها، وفي الثّاني حَصَرها بِقَوْلِه: و«جميع»، وأين هو من قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩] ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] وكلامُ الله صِفَةٌ أزَلِيَّةٌ أبَدِيَّةٌ غيرُ مُتَناهِيةٍ.

وقلت: ومِنْ ثَمَّ وَرَد عن مَصْدرِ النُّبُوّةِ في الدُّعَاءِ: «أعوذُ بِكَلِماتِ الله التَّامّاتِ»، وأمّا مَعْنى الـجَمْعِ في ﴿بِكَلِمَـٰتِ﴾ فهُو ما ذَكَره في قَـولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢] مِن أنَّ المُراد والقَصْد بها «جَماعة الثَّمَرة الّتي في قَوْلِك: أدْرَكَت ثَمرة بُسْتَانِه، تُريد ثِمارَه، ونظيره قولهم: كلمة الحُوَيْدرة؛ لقصيدته، وقولهم للقرية: المَدْرَة، وإنما هي مَدَرٌ مُتلاحِقٌ».

قولُه: (**فَغُلِّب ذُكُورُه على إنَاثِه**)، قال القاضي: وفائِدةُ التَّغْلِيب الإشْعَارُ بأنَّ طَاعَتَها لم تَقْصُر عن طَاعَةِ الرِّجالِ الكَامِلِين، حتّى عُدَّت من جُملَتِهم[١].

قولُه: (**كَمُلَ مِن الرِّجَالِ كَثِيرٌ**)، الحديثُ رواه البُخارِيُّ ومُسْلِمٌ والتِّرْمِذيُّ وابنُ مَاجه والنَّسَائيُّ عن أبي مُوسى[٢]، ولَيسَ فيه حَديثُ خَدِيجة رضي الله عنها[٣].

---

(١) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٥٩).

(٢) البُخَاري (٣٢٣٠)، ومُسْلِم (٢٤٣١)، والتِّرْمِذيُّ في «الجامع» (١٨٣٤)، وابن مَاجَه في «السنن» (٣٢٨٠)، والنَّسائيُّ في «السنن الكبرى» (٥: ٩٣)، (٨٣٥٣).

(٣) هذه الزيادة ذكرها ابن الأثير وعزاها لرزين كما في «جامع الأصول» (٩: ١٢٤ - ١٢٥). ولها روايات أخرى في كتب السنة غير المذكورة هنا.

وفَضلُ عائِشةَ علىٰ النِّساءِ **كفَضلِ الثَّريدِ علىٰ سائرِ الطَّعام**»، وأمّا ما رُوِيَ أنّ عائشةَ سألتْ رسولَ الله ﷺ كيف سَمّىٰ اللهُ المسلِمة (تعني مريم)، ولم يُسَمِّ الكافرة؟ فقال: «بغضًا لها»: قالت: وما اسمُها؟ قال: اسمُ امرأةِ نوح: واعِلة، واسمُ امرأةِ لوطٍ: واهِلَة، فحديثٌ أثرُ الصَّنعةِ عليه ظاهرٌ بَيِّن، ولقد سمّىٰ اللهُ تعالىٰ جماعةً من الكُفّار بأسمائِهم وكُناهُم، ولو كانتِ التَّسميةُ للحُبِّ وتركُها للبُغضِ لسمّىٰ آسية، وقد قرَن بينَها وبين مَريمَ في التَّمثيلِ للمُؤمنين، وأبىٰ اللهُ إلّا أنْ يَجعلَ للمصنوعِ أمارةً تنُمُّ عليه، وكلامُ رسولِ الله ﷺ أحكمُ وأسلَمُ من ذلك.

عن رسول الله ﷺ: «من قَرَأ سورةَ التَّحريمِ آتاهُ اللهُ توبةً نصوحًا».

قولُه: (**كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلى سَائِرِ الطَّعَامِ**)، قيل: إنَّما مَثَّل الثَّريدَ لأنَّه أفضَلُ طَعَام العَرَب ولا يَرون في الشِّبع أغنَى غَناءً منه، وقيل: إنَّهم كانوا يَحمدون الثَّريدَ فيما طُبِخ بلَحمٍ، ورُوي: «سَيِّد الطَّعَام اللَّحم»[1]، فكَأنَّها فُضِّلَت على النِّساءِ كَفَضل اللَّحم على سَائِر الأطعِمَة، والسِّرُّ فيه أنَّ الثَّريدَ مَع اللَّحم جَامِعٌ بينَ الغِذاءِ واللَّذة والقُوَّة وسُهُولةِ التَّناوُل، وقِلَّة المَؤونَة في المَضغ وَسُرعَةِ المُرور في المَريء، فضَرَبَ به مَثَلاً ليُؤذِن بأنَّها أعطِيتُ مَع حُسن الخَلق حُسنَ الخُلُق، وحَلاوَة المنطق، وفَصَاحَة اللَّهجَة، وجَودَة القَريحَة، ورَزَانَة الرَّأي، ورَصَانَة العَقل، والتَّحَبُّب إلى البَعل، فَهي تَصلُحُ للتَّبَعُّل، والتَّحَدُّث والاستِئناس بها، والإصغاء إليها. وحَسبُك أنَّها عَقَلَت عن النَّبيِّ ﷺ ما لَم تَعقِل غَيرُها منَ النِّساء، ورَوَت ما لم يروِ مِثلُها مِنَ الرِّجال، ومِمَّا يَدُلُّ على أنَّ الثَّريدَ أشهَى الأطعِمَة عندَهُم وألَذُّها قَولُ الشَّاعِر:

إِذَا مَـا الخُبـزُ تَأدِمُـهُ بِلَحـمٍ فَذَاكَ ـ أَمَانَةَ الله ـ الثَّرِيـدُ[2]

تمت السورة حامداً اللهَ ومصلياً.

---

(١) رواه ابن ماجه في «السنن» (٣٣٠٥).

(٢) هذا القول كله من بداية التعليق إلى آخره، مَنقولٌ من شرح التوربَشْتي على «المصابيح»، انظر: «تحفة الأحوذي» (١٠: ٢٦١) ولم يُصرِّح المصنف هنا بهذا مع أنَّ عادتَه أنْ يذكر مصادره ومنها «شرح التُّورْبَشْتِي» كما مرَّ في هذه السُّورة.

سُورة المُلك

مكيّةٌ، وهي ثلاثونَ آيةً

وتسمّىٰ: الواقية، والمنجية؛ لأنها تقي وتُنجي قارئَها مِن عذابِ القَبر

بسم الله الرحمن الرحيم

[﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ * ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ * ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ * ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ ١-٤]

﴿تَبَٰرَكَ﴾ تعالىٰ وتعاظمَ عن صفاتِ المخلوقينَ ﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ علىٰ كلِّ موجودٍ ....

سورةُ المُلْك

مكيّةٌ، وهي ثلاثونَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثِقَتي

قَولُه: (﴿بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ على كلِّ موجود)، وجَعَل ﴿بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ بمعنىٰ التصرُّفِ والاستيلاء، ولذلك عَدّاه بـ«على» في قولِه: «على كلِّ موجود»، قال الراغبُ في قَولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ﴾ ما لم يوجدْ مما يدخلُ تحتَ القدرةِ ﴿قَدِيرٌ﴾. وذِكرُ «اليدِ» مجازٌ عن الإحاطةِ بالمُلكِ والاستيلاءِ عليه. والحياةُ: ما يَصحُّ بوجودِه الإحساس، ....

﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]: «فالمُلْكُ: ضَبْطُ الشَّيءِ المُتصرَّفِ فيه بالحُكْم، والمِلْكُ كالجِنْسِ لهُ؛ فكلُّ مُلْكٍ مِلْكٌ، وليس كلُّ مِلْكٍ مُلْكاً»(١).

قَوْلُه: (﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ﴾ ما لَمْ يوجَدْ مِمّا يَدْخُلُ تَحْت القُدْرةِ ﴿قَدِيرٌ﴾)، يَعْني أن «الشيءَ» عامٌّ في كلِّ ما يَصِحُّ أَنْ يُخْبَرَ عنه ويُعْلَمَ بناءً على مَذْهبه(٢)، فلما اقترنَ بقولِه ﴿قَدِيرٌ﴾، عُلِمَ أنَّ المُرادَ منه المعدومُ الذي يَدْخلُ تحت القُدْرةِ دون غَيْرِه، ومَقْصُودُه رِعايةُ الطِّباقِ بِذكْرِ المَوْجودِ والمَعْدومِ بين القرينتَين، قالَ صاحبُ «التَّقْريب»: «وفيه نَظَرٌ؛ لأنّ «الشيْءَ» إما أن يَخْتصَّ بالمَوْجود، أَو يَشْملَ الموجودَ والمعدومَ على المَذْهَبَين، فلا وَجْهَ لِتَخْصيصِه بِما لم يُوجَد مع انضمامِ ﴿كُلِّ﴾ إليه، اللهمَّ إلا أَنْ يُقالَ: خَصَّصَه به لِيُغايِرَ ما قَبْله، إذا خَصَّصه(٣) بالموجود».

قُلْنا: لَوْ عَممَ الثاني، لَتحقَّقَ التَّغايُرُ أَيضاً، على أن في تَخْصيصِ الأوَّل بالمَوْجود أيضاً نَظَراً، لأنَّ اليَدَ مَجازٌ عن القُدْرة، وإنْ تَخَصَّصتِ القُدْرةُ بالمعدوم كما هو مَذْهَبُه تَخَصّصَ الأوَّل بالمعدوم، وإِنْ لم يَتخصَّص، لم يَتَخَصَّصِ الثاني بالمعدوم. والتحقيقُ أن الأوَّلَ مُطلقٌ، والثاني عامٌّ لِمَا وُضِعَ له تَبايُنُ الشيْءِ، فَقُصِدَ بيانُ أَصْلِ القُدْرة أَوّلاً، وعُمومِها ثانياً.

وقلتُ: الظّاهِرُ أن الآيَةَ مِن بابِ التَّكميل، فالقرينةُ الأولى تَدُلُّ علىٰ التَّصرُّفِ التّامِّ في الموجودات، على مُقْتضىٰ إرادتِه ومَشيئتِه مِنْ غيرِ مُنازِعٍ ولا مُدافِعٍ، تَصَرُّفَ المُلّاكِ في مُلْكِهم، لا يَتَصرَّفُ فيها غَيْرُه حقيقةً، ولذلك قَدَّمَ الظَّرْفَ للتَّخْصيصِ، قال الإمامُ: «هذه اللفظةُ إنما

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٧٧٥.

(٢) يعني مذهب المعتزلة في تعريف الشيء، انظر حديث القاضي عبد الجبار عن حقيقة الموجود والمعدوم: «شرح الأصول الخمسة» له، ص ١٧٥ وما بعدها.

(٣) أي: خصّصَ الملكَ بالموجود.

وقيل: ما يوجِبُ كَونَ الشيءِ حيّاً، وهو الذي يَصحُّ منه أن يَعلَمَ ويَقدِر. والموتُ: عدمُ ذلك فيه، ومعنىٰ خَلْقِ الموتِ والحياة: إيجادُ ذلك المصحّحِ وإعدامُه.

تُسْتعملُ لِتأكيدِ كَوْنِه تعالىٰ مَلِكاً ومالِكاً، كما يُقالُ: بِيَدِ فلانٍ الأَمْرُ والنَّهيُ، والحَلُّ والعَقْدُ»[(١)].

والقَرينةُ الثانيةُ دالّةٌ على القُدْرةِ الكاملةِ الشّاملة، ولو اقْتَصَر على القَرينةِ الأُولى، لأَوْهمَ[(٢)] أن تَصرُّفَه مَقْصورٌ على تَغْييرِ أَحوالِ المُلْكِ كما يُشاهَدُ مِن تَصرُّفِ المُلّاكِ المجازيّ؛ فَقُرِنت بالثانيةِ ليؤذِنَ بأَنَّه عَزَّ سُلْطانُه قادرٌ على التصرُّفِ، وعلى إيجادِ الأَعيانِ المُتصرَّفِ فيها، وعلى إيجاد عَوارِضِها الذّاتيّةِ وغيرِها، ومِن ثَمَّ عَقَّبَ ذلك الوصْفَ بالوصْفِ المُتَضمِّنِ للعَوارِضِ، وهو قَوْلُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] إلى آخره. وأمّا مَسْأَلةُ أَنَّ المعدومَ شَيْءٌ فَمِمّا لا يَهُمُّنا الآنَ.

قَوْلُه: (**وقيل: ما يُوجِبُ كَوْنَ الشيْءِ حَيّاً، وهو الذي يَصِحُّ منه أنْ يَعْلَمَ ويَقدِر**)، قالَ صاحبُ «التَّقْريب»: الحياةُ ما به الإِحساسُ، أَو ما به العِلمُ والقُدْرةُ، ولا يُفَسَّرُ بِما يُوجِبُ كَوْنَ الشيءِ حَيّاً لئلّا يَلْزمَ منه الدَّوْر[(٣)].

قَوْلُه: (**والموتُ عَدَمُ ذلك**)، **الانتصاف**: مَذْهَبُ القَدَريَّةِ أَنَّ الموتَ عَدَم، واعْتِقادُ أَهلِ السُّنَّةِ أَنَّه أَمرٌ وُجوديٌّ يُضادُّ الحياةَ، وكَيْف يكونُ عَدماً وقَدْ وُصِفَ بكَوْنِه مَخْلوقاً، وعَدَمُ الحوادثِ أَزليٌّ؟ ولَوْ كانَ المعدومُ مَخلوقاً للَزِمَ وُقوعُ الحوادثِ أَزلاً، وهُوَ ظاهرُ البُطْلان[(٤)].

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ٤٦) للرازي.

(٢) في (ف): «لأفهم».

(٣) الدَّوْر: هو توقّف وجود الشيء على ما يتوقف عليه وجودُه، إمّا بلا واسطة وهو الدور المصرَّح، كتوقف (أ) على (ف) وبالعكس، وإمّا بواسطة وهو الدور المُضْمَر، كتوقف (أ) على (ف) و(ف) على (ج)، و(ج) على (أ). انظر: «التعريفات» للجرجاني، ص ١٤٠.

(٤) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٥٧٥).

والمعنىٰ: خلقَ موتَكم وحياتَكم أيُّها المكلَّفون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، ....

وقال صاحبُ «الفرائد»: «لَوْ كانَ الموتُ عَدَمَ الحياةِ اسْتَحالَ أَنْ يكونَ مَخْلوقاً»، وقد قالَ بَعْد ذلك: «مَعْنىٰ خَلْقِ الموتِ والحياةِ، إيجادُ ذلك المُصَحّح وإعْدامُه»، وهذا أَيضاً مَنْظورٌ فيه. وقال الإمامُ: «الحياةُ هي الصِّفةُ التي يكونُ المَوْصوفُ بها، بحيثُ يَصِحُّ أن يَعْلمَ ويَقْدر»[1].

واختلفوا في الموت، قيلَ: إنَّه عبارةٌ عَن عَدَمِ هذه الصِّفة، وقيلَ: صِفَةٌ وجوديّةٌ مُضادَّةٌ للحياةِ، لقَوْلِه تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾؛ والعَدَمُ لا يكونُ مَخْلوقاً، هذا هُوَ التَّحقيق.

قَوْلُه: (خَلَقَ مَوْتَكم وحياتَكم أيُّها المُكلَّفون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾)، الراغبُ: «أنواعُ المَوْتِ بحسَبِ أَنواعِ الحياة: الأوّلُ: ما [هو][2] بإزاءِ القوَّةِ النامِيةِ في الإنسانِ والحيوانِ والنباتِ، نحو: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧]، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [ق: ١١]. الثاني: زَوالُ القوَّةِ الحاسَّة[3]، قال تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ [مريم: ٢٣]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. والثالثُ: زوالُ القُوَّةِ العاقلةِ، وهي الجهالةُ نحو: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. الرابعُ: الحُزْنُ المُكدِّرُ للحياة، نَحو: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧]. الخامسُ: المنامُ، فقد قيل: المنامُ مَوْتٌ خفيف، والموتُ نومٌ ثَقيل، نَحْوُ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقَوْلُه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، قيل: [معناه][4] ستموتُ، تنبيهاً على أنّه لا بُدّ لكلِّ أَحَدٍ مِن الموت، وقيلَ: فيه إشارةٌ إلى ما يَعْتري الإنسانَ في كلّ حالٍ مِن التحلُّلِ، وأنّ البَشَرَ ما دامَ في الدُّنيا يَموتُ جُزءاً فجزءاً. وقد عَبَّرَ قومٌ عَن هٰذا المعنىٰ بـ«المائت»، وَرَدَّه عليُّ بنُ عبدِ العزيز[5]

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ٤٨). ومن قوله: «قال صاحب التقريب»، إلى هنا، سقط من (ط).

(٢) زيادة من «مفردات القرآن» يقتضيها السياق.

(٣) كذا في «المفردات» وهو الصواب، وفي الأصول الخطية: «الحسّاسة».

(٤) زيادة من «المفردات» يقضيها السياق.

(٥) الجرجاني، صاحب «الوساطة» و«التعريفات».

وسمّىٰ عِلمَ الواقعِ منهم باختيارِهم «بَلْوى»، وهي الخبرةُ استعارةً من فعلِ المختبِر. ونحوُه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ﴾ [محمد: ٣١].

فإن قلتَ: مِن أينَ تَعلّق قولُه: ﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ بفعلِ البَلْوىٰ؟

وقال: ليس في لغتنا «مائت» على حَسَبِ ما قالوا، وإنّما يُقالُ: مَوْتٌ مائِت كقولك[1]: شِعْرٌ شاعِرٌ، وسَيْلٌ سائِلٌ»[2].

قَوْلُه: (**وسَمّىٰ عِلْمَ الواقعِ منهم باختيارِهم «بَلْوى»**) وهو مِن إضافةِ المصدرِ إلى المَفْعول، وقَوْلُه: «منهم» و«باختيارهم» مُتعلقانِ بـ«الواقع». قيلَ: إنَّه تعالىٰ يَعْلَمُ الأشياءَ قبل وُقوعها أنّها سَتَقعُ لا أنّها[3] واقعةٌ، لأنَّ ذلك لا يكونُ عِلْماً، وإذا وُجِدَ تَعلَّقَ العِلمُ بوجودِه. واللهُ تعالىٰ خلَقَ المُكلَّفينَ يَعْلَمُ[4] ما يَصْدرُ مِنْهم باخْتيارهم، فسَمّيَ هذا اختياراً ؛ لأنه إذا خَلَقَهم ليعلمَ واقعاً ما، يَعلمُ أنه يصدرُ باختيارهم، فكأنَّه تعالىٰ اخْتبرهم بِخَلقِه وابتلاهم. المعنىٰ: لِيَعْلَمَ هذا المعنىٰ واقعاً بَعْدما عَلِمَ أنه سَيَحْصل منهم.

والفلاسفةُ خَذَلَهم الله، زَعَموا أن اللهَ تعالىٰ يَعلمُ الجزئيّاتِ على وَجهٍ كلّي لا جُزئي[5]، والمُسْلمون يَعْتقدون أنّه تعالىٰ يَعلمُ الجزئياتِ على وَجْهٍ جُزئي، أي عند وُجودِها يَعلمُ أنّها وُجِدَت، وعند عَدَمِها يَعْلَمُ أنّها عُدِمت، وقَبْل ذلك يَعْلَمُ أنّها ستوجَدُ وسَتُعْدَم، فالتغييرُ في المعلومِ لا في العِلْم.

قَوْلُه: (**استعارةً**)، نَصْبُ تَميزٍ أو مفعولٍ له، أو حالٍ، أو مَفْعولٍ مُطْلَق، لِـما في قولِه: «سَمّى»

---

(١) كذا في «المفردات» وهو الصواب، وفي الأصول الخطية: «نحو».

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٤٧٦–٤٧٧. وانظر: «الكتاب» (٣: ٣٨٥) لسيبويه.

(٣) في (ف): «لأنها»، وهو خطأ.

(٤) في (ط)، و(ح): «ليعلم»، وما أُثبت هو الصواب، بدليل الكلام بعده.

(٥) انظر: ردّ ابن تيمية على أقوالهم في كتابه النفيس: «درء تعارض العقل والنقل» (٥: ١١٣، ٩: ٣٨٣، ٣٩٨، ١٠: ١٦٤، ١٩٥).

قلتُ: من حيثُ إنه تَضمّنَ معنىٰ العلم، فكأنه قيل: ليَعْلَمَكم أَيُّكم أحسنُ عملاً؛ وإذا قلتَ: علمتُه أزيدٌ أحسنُ عملاً أم هو؟ كانت هٰذه الجملةُ واقعةً موقعَ الثاني مِن مفعولَيْه، كما تقول: علمتُه هو أحسنُ عملاً.

فإن قلتَ: أتسمِّي هٰذا تعليقاً؟

قلتُ: **لا، إنما التعليقُ أن توقعَ بعده ما يسدُّ مسدَّ المفعولَيْنِ جميعاً**، كقولك: علمتُ أيُّهما عمرو، وعلمتُ أزيدٌ منطلِق. ....

إلى آخره، مَعنىٰ «اسْتعارَ»، لأن الاستعارةَ تَسْمية الشيْءِ باسمِ ما شُبِّه أو شُبِّه به، أي اسْتعارَ لِعِلْمِ الله المُتعلِّقِ بأَفْعالِ المُكلَّف، لَفْظَ الابتلاءِ المَعْنيّ به الخِبْرة، بَعْد سَبْقِ تَشْبيهِ حالِ المُكلَّفِ المُخْتارِ المُمكَّنِ مِن فِعل الطّاعةِ والمَعْصيةِ مَع تَعَلُّقِ عِلْمِ الله تعالىٰ بأفعاله، بحالِ المُخْتَبِرِ مَع المُخْتَبَر، ثُمّ اسْتُعيرَ لِعلْمِ الله الخاصِّ ما اسْتُعْمِلَ في المُشَبَّهِ به مِن لفظ «يَبْلُوكم»، فهي استعارةٌ تَبَعيَّةٌ واقعةٌ في طريق التمثيل. مِثْلُها في قَوْلِ صاحب «المفتاح»: «شُبِّهَ حالُ المكلَّفِ المُمكَّنِ مِنْ فِعْلِ الطّاعةِ والمعْصيةِ مَع الإرادةِ منه أنْ يُطيع، بحالِ المُرْتجي المُخيَّرِ بين أنْ يَفْعلَ وأنْ لا يَفْعَلَ، ثُمَّ اسْتُعيرَ لجانِبِ المُشبَّـهِ «لعلَّ»، جاعلاً قَرينةَ الاستعارةِ عِلْمَ العالِم»[1]؛ فـ«لعلَّ» مُسْتعارٌ للإرادةِ على مذهبه، كما أنّ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ مُسْتعارٌ للعِلْم الخاصّ فيما نَحْن بصَدَدِه؛ فَقَوْلُه تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، مُتعلِّقٌ بـ ﴿خَلَقَ﴾، أي: خَلَقَ الموتَ ليكونَ جَوازاً إلى دارِ الجَزاء، وخَلَقَ الحياةَ لتكونَ ذريعةً إلى فِعْلِ ما يَتَرتَّبُ عليه الجزاء في تلك الدارِ، فَمَنْ أَطاعَ وشكرَ أثابَه، ومَن كفرَ وعَصىٰ عاقبَه.

قَوْلُه: (**لا، إنَّما التعليقُ أَنْ توقعَ بَعْده ما يَسُدُّ مَسَدَّ المفعولَيْنِ**)، قيلَ: إنَّ قَوْلنا: عَلِمتُ أَزيدٌ مُنْطلقٌ، تَعْليقٌ للفعلِ عن العَمَل، ومِنْ شَرْطِ التَّعليقِ أَنْ لا يُذْكَرَ شيءٌ مِن المفعولَيْنِ، إذْ

---

(١) انظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي، ص٣٨٢.

....

لو قُلْتَ: عَلِمتُ القومَ أَيُّهم أَفْضَل، لم يكنْ تعليقاً، وهاهُنا ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أَخَذَ مَفْعولَه، فلا يُعَلَّقُ عليه قوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وقالَ صاحبُ «التَّقريب»: «وفيه نَظَر، لأَنَّ المُضْمَرَ هو العِلْمُ، فلا يَلْزَمُ ذِكْرُ المفعولِ مَعه، بل التَّقدير: لِيَبْلوَكم فيعلَمَ أَيُّكم. وأَيضاً لا تَقعُ[1] الجملةُ الاستفهاميَّةُ مفعولاً ثانياً لِـ«علمتُ»، وإِنَّما يَقعُ مَوْقِعَ المفعولَيْنِ في: علمتُ أَيُّهم خَرَج؟ لأَنَّ المعنىٰ: علمتُ جوابَ هذا الاستفهام، ولا يُقَدَّرُ مِثلُه في: عَلِمتُه أَيُّهم خَرَج؟ إِذْ لا معنىٰ لقولك: عَلِمتُه جوابَ هذا الاستفهام. وأَيضاً ذُكِرَ في «هود» في ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، أَنَّه تَعْليق».

وقالَ الزَّجّاجُ: «المُتعلِّق بـ ﴿أَيُّكُمْ﴾ مُضْمَر، أَي: لِيَبْلوَكم فَيعلَمُ أَيُّكم أحسنُ عملاً. وارْتفَعت «أَيّ» بالابتداء، ولا يَعملُ فيها ما قَبْلها، لأَنَّها على أَصْلِ الاسْتِفهام»[2]. والجوابُ ما يُعْلَمُ مِن كلامِ الإمامِ قالَ: «فيه وَجهان: أَحدُهما قَوْلُ الفرّاءِ والزَّجاجِ: إِنَّ المتعلِّق مُضْمَر، وثانيهما قَوْلُ صاحبِ «الكشّاف»: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ في مَعْنىٰ ليُعلِمَكم، أَيْ: لِيُعْلِمَكم أَيُّكم أَحْسَنُ عملاً»[3].

وقلتُ: فالمُصنّفُ ذَهَبَ في «هود»[4] إِلى مَذْهَبِ الفرّاءِ والزَّجاج، واختارَ هاهنا مَذْهباً آخَرَ، وَهُوَ صَحيحٌ مِن حيثُ العربيَّة، لأَنَّ بابَ التَّضمين بابٌ واسعٌ، وإِليه الإشارةُ بقولِه: «مِنْ حيثُ إِنَّه تَضَمَّنَ مَعنىٰ العِلْم، فكأَنَّه قيل: لِيَعْلَمَكم أَيُّكم أَحْسَنُ عملاً».

---

(١) زاد في (ح): «ما وقع»، وفي (ف): «واقع»، والصواب سياق (ط)، ولذا أثبتناه، بدليل ما سيأتي من ردّ الطيبي على هذا القول في آخر الصفحة.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٩٧).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ٥٠)، وانظر: «معاني القرآن» (٣: ١٦٩) للفراء.

(٤) انظر: «الكشاف» (٨: ٢٠-٢٢)؛ قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

ألا ترىٰ أنه لا فَصْلَ بعد سَبقِ أحدِ المفعولَيْنِ بينَ أن يقعَ ما بعدَه مُصدَّراً بحرفِ الاستفهام وغيرَ مُصدَّرٍ به، ولو كان تعليقاً لافترقتِ الحالتانِ كما افترقتا في قولك: علمتُ أزيدٌ منطلِق، وعلمتُ زيداً منطلقاً. ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: قيل: **أخلصُه وأصوبُه**؛ لأنه إذا كان خالصاً غيرَ صوابٍ لم يُقبل، وكذلك إذا كان صواباً غيرَ خالص؛ فالخالصُ: أن يكونَ لوجهِ الله تعالىٰ؛ والصوابُ: أن يكونَ علىٰ السُّنة.

وأمّا قَوْلُه: «لا تَقَعُ الجملةُ الاستفهاميَّةُ مَفْعولاً ثانياً» فَضَعيف، لأنَّها إذا وقَعَت مَفْعولاً أوّلَ في قَوْلِه تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩]، أيْ: لَنَنْزِعَنَّ الذين يُقالُ في حَقِّهم: أيُّهم أشَدُّ، كما هو مَذْهبُ الخليل[١]، كيف يَمْتنعُ وُقوعُها مَفعولاً ثانياً بالتأوّل، أيْ: لِيَعْلمكم الذين يُقالُ في حَقِّهم: أيُّهم أَحْسَنُ عملاً. وقد أنْصَفَ صاحبُ «الانْتِصاف» حيثُ قالَ: «التَّعليقُ عَنْ أَحَدِ المفعولَيْن فيه خلافٌ، والأَصَحُّ هو الذي اختارَه الزَّمخشريُّ، وهذا النحو عُشُّه فيه يَدْرج، ويَدْري كيف يَدْخلُ ويَخْرُج»[٢].

قولُه: (**أَخْلَصُه وأَصْوَبُه**)، الراغبُ: «الخالصُ كالصافي، إلا أنَّ الخالصَ هو ما زال عنه شَوْبُه بَعْد أَنْ كان فيه، وحقيقةُ الإخلاصِ التعرِّي عن كلِّ ما دون الله، والتَّبرِّي عَمّا سِوىٰ الله»[٣]. والصَّوابُ ضِدُّ الخَطأ والعُدولِ عَن الطَّريق المستقيم، ولِصُعوبته وَرَدَ في الحديث: «اسْتقيموا ولَنْ تُحصوا»[٤].

---

(١) انظر: «الكتاب» (٢: ٣٩٩) لسيبويه، و«الكشاف» (١٠: ٧٣)؛ في سياق تفسيره الآية (٦٩) من سورة مريم.

(٢) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٥٧٥)، وفيه إشارة إلى المثل المشهور: «ليس هذا بِعُشِّكِ فادرُجي»، يضرب لمن يرفع نفسه فوق قدره. انظر: «مجمع الأمثال» (٢: ١٨١) للميداني.

(٣) «مفردات الراغب»، ص ٢٩٢.

(٤) تمامه: «واعلموا أنَّ خيرَ أعمالكم الصلاةُ، ولن يُحافظ على الوضوء إلا مؤمن». «مسند الإمام أحمد» (٢٢٣٧٨).

وعن النبي ﷺ أنه تلاها، فلما بلغَ قولَه: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: «أيُّكم أحسنُ عقلاً، وأورعُ عن محارمِ الله، وأسرعُ في طاعةِ الله»، يعني: **أيُّكم أتمُّ عقلاً عنِ الله** وفهماً لأغراضِه؛ والمرادُ: أنه أعطاكُم الحياةَ التي تَقْدِرون بها علىٰ العمل وتَسْتمكِنون منه، وسَلّط عليكمُ الموتَ الذي هو داعيكم إلىٰ اختيارِ العملِ الحسَنِ علىٰ القبيح، لأن وراءَه البعثَ والجزاءَ الذي لا بدّ منه، ....

وقلتُ: وبالنَّظَرِ إلى قَوْلِه تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقَوْلِه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، قالَ المصنِّفُ: «والصَّوابُ أَنْ يكونَ على السُّنَّة»، وأَبى قَبولَ العملِ إلّا بها وبالإخْلاص. ويُفْهَم مِنْه: إذا راعىٰ المُكلَّفُ في أعمالِه الفرائضَ والواجبَ فقط ولم يُكْملها بالسُّنَن، سَقَطَ عنه الفرضُ لكنْ لَمْ يُقْبلْ منه لِتَخطِّيه الصَّواب؛ على ذلك ما رَوينا عن أبي داود عن أبي هريرة قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ: «مَنْ سَمِعَ المُناديَ فلَمْ يَمْنعْه من اتِّباعِه عُذْرٌ»، قالوا: وما العُذْر؟ قال: «خوفٌ أو مَرَض، لَـمْ تُقْبَلْ منه الصَّلاةُ التي صَلَّى»(١).

وفي الحديثِ دليلٌ على وُجوبِ حضورِ الجماعةِ، وأَنْ لا رُخْصةَ في تَركِ الجماعةِ لأحد إلا مِن عُذْرٍ. وقالَ عطاءٌ: ليسَ لأَحدٍ مِن خَلْقِ الله في الحَضَرِ والقَرْيةِ رُخصةٌ إذا سَمِعَ النِّداءَ، في أَنْ يَدَعَ الصَّلاةَ؛ أَيْ: في الجماعة. وقال الأوزاعيُّ: لا طاعةَ للوالدِ في تَرْكِ الجُمُعة والجماعات. وقالَ بعضُ أصحابِ الشافعي: الجماعةُ فَرْضٌ على الكفايةِ لا على الأعيان، ولا يَمْتنعُ العَبْدُ عن الجماعةِ بغيرِ عِلَّة. وقَد سَبَقَ في سُورة الجُمعة مُسْتوفىً تَحْقيقُه.

قَوْلُه: (أَيُّكم أَتَمُّ عَقْلاً عن الله)، أَيْ: أَتَمُّ فَهماً لِما يَصْدرُ عَن جَنابِ الله، وأَكملُ ضَبْطاً لِما يَأْخذُ عَن خِطابه، يَدلُّ عليه عَطْفُ قَوْلِه: «وفَهْماً لِأَغْراضِه» على «عقلاً»، على سبيلِ التَّفسير.

---

(١) «سنن أبي داود» (٥٥١)، بهذا اللفظ عن ابن عباس، رَضِي الله عنهما.

وقدّمَ الموتَ علىٰ الحياة، لأنّ أقوىٰ الناسِ داعياً إلىٰ العملِ، مَن نَصَبَ موتَه بين عينَيْه، **فقُدِّم لأنه فيما يَرْجِعُ إلىٰ الغرضِ المسوقِ له الآيةُ أَهم** ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾: الغالبُ الذي لا يُعْجِزُه مَن أساءَ العملَ ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ لمن تابَ مِن أهلِ الإساءة. ﴿طِبَاقًا﴾: مطابقةً بعضُها فوقَ بعض، مِن طابَقَ النَّعل: إذا خَصَفها طَبَقاً علىٰ طَبَق، **وهٰذا وَصْفٌ بالمصدر**،

قَولُه: (**فَقُدِّم لأنه فيما يَرْجِعُ إلى الغَرَضِ المسوقِ له الآيةُ أَهمُّ**)، «فيما يَرجِعُ» مُتعلِّقٌ بـ«أهمّ». والظاهرُ أَنَّ قَوْلَه: «فَقُدِّمَ»، قد عُطِفَ على «قَدمَ الموتَ على الحياة» على سبيلِ التَّعقيب، نحو: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٤]، يعني: المرادُ مِن قَوْلِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك: ٢]، أنه أَعطاكم الحياةَ... إلى آخره، وقُدِّم الموت على الحياة، لأَنَّ الموتَ أَقوى الدَّواعي إلى العَمَل، فَقُدِّمَ لِيَتَبيَّنَ أَنّ الذي سِيقَ له الآيةُ، البعثُ على العملِ، والإخلاصُ فيه، وتَحَرِّي الصَّوابِ له.

ولَعَمري، إنَّ مَن جَعَلَ المَوْتَ نُصْبَ عَيْنَيْه، زَهِدَ في الدّنيا ولذَّاتها، وَرَغِبَ في الآخرةِ وأنابَ إلى الجنَّة ونعيمها؛ روينا عَن التِّرمذي عَن ابنِ مَسْعودٍ رَضِي اللهُ عنه، قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**اسْتَحْيوا مِن الله حَقَّ الحياء**»، قُلْنا: إنّا نَسْتَحي مِن الله يا رسولَ الله والحمدُ لله، قال: «**ليسَ ذلك! ولكنّ الاسْتحياءَ مِن الله تعالىٰ حَقَّ الحياء، أَنْ تَحْفظَ الرأسَ وما وَعَىٰ، والبَطْنَ وما حَوىٰ، وتَذكُرَ الموتَ والبِلىٰ، ومَنْ أَرادَ الآخرة تَرَكَ زينةَ الدُّنيا، وآثر الآخرةَ على الأُولى؛ فَمَنْ فَعَلَ ذلك فَقَد اسْتَحيا مِن الله حقَّ الحياء**»[1].

قَوْلُه: (**وهذا وَصْفٌ بالمصدر**)، قيلَ: هو مُشْكِل، لأنه لو كانَ صفةً لكان مجروراً صفةً للمُضافِ إليه، أَيْ: سَبْعَ سمواتٍ طباقاً، كما في قَوْلِه: ﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ﴾ [يوسف: ٤٣]، لأَنَّ الصِّفةَ في الأَعدادِ تكونُ للمضافِ إليه، ولَوْ قيلَ: هو حالٌ لكانَ وجهاً، لأَنَّ ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ مَعْرفةٌ لشُمولِها كلها، وهو قريبٌ ممّا ذُكِرَ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ

(١) «سنن الترمذي» (٢٤٥٨).

أو علىٰ ذاتِ طِباق، أو علىٰ: طوبقَتْ طباقاً. ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ وقُرِئ: «مِن تَفَوُّت»، ومعنىٰ البناءين واحد، كقولهم: تَظاهروا مِن نسائهم وتَظَهَّروا، ....

وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]، مِن أَنَّ مَحَلَّ ﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ﴾ النَّصبُ على الحالِ من ﴿كُلُّ﴾ لِتَعرُّفِه بالإضافةِ إلى ما هو في حُكْمِ المَعْرفةِ، وذلك أَنَّ النفسَ بالإضافةِ صارتْ شاملةً لجميعِ النُّفوس.

وقُلتُ: ما خَطَرَ هناك أَنْ يُوصَفَ المضافُ به، بَل سأل عَن التفاوتِ بين أَنْ يكونَ ﴿سِمَانٍ﴾ صفةً للبقرات، وأَنْ يكونَ صفةً للسَّبْع[1]. ولا ارْتياب أَنَّ وَصْفَ البقراتِ بالسِّمانِ والعِجافِ أَوْلى مِنْ وَصْفِ الأَعدادِ بها، كما أَنَّ وَصْفَ الأَعداد بالطِّباقِ، أَحْرىٰ مِن وَصْفِ السَّماءِ به، لِاقتضاء كلٍّ ما يناسبه. علىٰ أَنَّ قَوْلَه: «وهذا وَصْفٌ بالمصدرِ»، لا يُنافي إرادةَ الحال، نَحْوُه قَوْلُه في قولِه تعالىٰ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]: «﴿هَوْنًا﴾: حالٌ أو صفةٌ للمَشْي، يَعْني: هَيِّنينَ، أَوْ مَشْياً هَيِّناً. إلا أَنَّ في وَضْعِ المصدرِ مَوْضِعَ صِفَةٍ مُبالغةً»[2]؛ وإنَّما يكونُ مُبالَغةً إذا وُضِعَ «هَيِّناً» مَوْضِعَ «هَيِّنينَ»، لأَنَّه حينئذٍ وَصْفٌ للذاتِ بالمَصْدرِ، بِخِلافِه إذا جُعِل وَصْفاً للمَصْدرِ ويُقالُ: مَشْياً هَوْناً، والوَجْهُ هو الأوَّل. ولأَنَّ قَوْلَه ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ يَشُدُّ مِن عَضُدِه، كما قالَ: «هي صِفةٌ مُشايِعةٌ لِقَوْلِه: ﴿طِبَاقًا﴾»، يَعْني احْتَملَ ﴿طِبَاقًا﴾ أَنْ يكون صفةً، وأَنْ يكون مَصْدراً لِمُضْمَرٍ، رَجَّحَ الأَوَّلَ مَجيءُ قوله ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ الآية.

الأساسُ: «شَيَّعَ هٰذا بهٰذا: قَوّاه به». **النِّهاية**: «في حديثِ الضَّحايا: نَهىٰ عَن المُشَيَّعة» بِفَتْحِ الياءِ، أَيْ: التي تَحتاجُ إلى مَن يُشَيِّعها، أَيْ: يَسوقُها لِتأخُّرِها عن الغنم.

قَوْلُه: (وقُرِئ: «مِنْ تَفَوُّتٍ»): حمزةُ والكسائيُّ، قال الزَّجّاجُ: «يُقالُ: تفاوَتَ الشَّيْءُ تفاوتاً، وتَفَوَّتَ تَفَوُّتاً، إذا اخْتَلَف»[3].

---

(١) انظر: «الكشاف» (٨: ٣٤٥-٣٤٦).

(٢) «الكشاف» (١١: ٢٨١).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٩٨). والقراءتانِ بمعنًى واحدٍ، لأنَّ (فاعَلَ) و(فَعَّلَ) بمعنى واحد، =

وتعاهَدتُه وتَعَهّدتُه، أي: مِن اختلافٍ واضطرابٍ في الخِلْقة ولا تَناقُض؛ إنما هي مستويةٌ مستقيمة.

وحقيقةُ التفاوت: عدمُ التناسب، كأنَّ بعضَ الشيء يفوتُ بعضاً ولا يلائمُه، ومنه قولُهم: خَلْقٌ متفاوت، وفي نقيضه: مُتناصِف.

فإن قلتَ: كيفَ موقعُ هٰذه الجملةِ مما قبلَها؟

قلتُ: هي صفةٌ مشايِعةٌ لقوله: ﴿طِبَاقًا﴾، وأصلُها: ما ترىٰ فيهنّ مِن تفاوُت، فَوُضِعَ مكانَ الضميرِ قولُه: ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تعظيماً لخلقِهنّ، وتنبيهاً علىٰ سببِ سلامتِهنّ من التفاوُت؛ وهو أنه خَلْقُ الرحمٰن، وأنه بباهر قُدْرتِه هو الذي يَخلقُ .....

قَولُه: (وفي نَقيضِه: مُتناصِف)، الجوهريّ: «تَناصَفوا، أَيْ: أَنْصَفَ بَعْضُهم بعضاً مِن نَفْسِه، قال:

أَنّي غَرِضْتُ إلى تَناصُفِ وَجْهِها ... غَرَضَ المُحِبِّ إلىٰ الحبيبِ الغائبِ[1]

يُقالُ: غَرِضْتُ إليه: أي اشْتَقْتُ إليه، أيْ: بَلَغَ استواءُ مَحاسِنِ وَجْهِها حَدّاً، كأنَّ بعضَ أعْضاءِ الوَجْهِ أنْصَفَ بَعْضاً في أَخْذِ القِسْطِ مِن الجمال».

قَولُه: (وأنه بباهِرِ قُدْرتِه)، أيْ: بِقُدْرتِهِ الغالبُ الكامِلُ، وذلك لأَنَّ «الرَّحمٰنَ» مُرادِفٌ لاسْمِ الله الأعْظَمِ في قَوْلِه تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فيكونُ حُكمُه حُكمَه، فَدَلَّ في مَقامِ القُدْرةِ والخَلْقِ على كمالِهما، فيكون في وَضْعِ

= بَيْد أَنَّ ﴿تَفَوُتٍ﴾ أَجْوَد، لأنك تقول: تَفاوَتَ الأَمرُ، ولا تقول: تَفَوَّت. انظر: «حجّة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧١٥.

(١) البيت للشاعر ابن هرمة، وقبله:

مَنْ ذا رسولٌ ناصحٌ فمبلِّغٌ ... عَنّي عُلَيّةَ غيرَ قيل الكاذبِ

مثلَ ذلك الخَلْقِ المتناسب، والخطابُ في ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ للرسولِ أو لكلِّ مخاطَب. وقولُه تعالىٰ: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ متعلّقٌ به علىٰ معنىٰ التَّسْبيب؛ أخبرَه بأنه لا تفاوتَ في خلقِهنّ، ثُم قال: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ حتىٰ يَصِحَّ عندك ما أُخبِرْتَ به بالمعاينة، ولا تَبقىٰ معك شُبهةٌ فيه. ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ من صُدوعٍ وشُقوق، جَمعُ فَطْرٍ وهو الشَّق، يقال: فَطَرَهُ فانفطر، ومنه: فطَرَ نابُ البعير، كما يقال: شَقَّ وبَزَل، ومعناه: شَقَّ اللحمَ فطَلع. وأمَرَه بتكريرِ البَصرِ فيهنّ مُتصفّحاً ومتتبّعاً يلتمسُ عيباً وخللاً ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ﴾ أي: إنْ رَجَعْتَ البصرَ وكـرَّرْتَ النظر، لم يرجعْ إليكَ بَصَرُك بما التمستَه مِن رؤيةِ الخللِ وإدراكِ العَيْب، بل يَرجعُ إليك بالخُسوءِ والحُسور، أي: بالبعدِ عن إصابةِ الملتمَس، كأنه يُطْرَدُ عن ذلك طرداً بالصَّغارِ والقَماءة، وبالإعياءِ والكَلال لطولِ الإجالةِ والترديد.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مَوْضِعَ الضمير، إشْعارٌ بأنْ لا يكونَ في خَلْقِه السَّمواتِ مِن نُقْصانٍ ولا تَفاوُت، ثُمَّ لا يَخْلو مِن إشارةٍ على لفظة (الله) في هٰذا المقامِ مِن نُكْتةٍ، وهي أنَّ خَلْقَ هذه الأَجرامِ العِظامِ نِعمةٌ جليلةٌ تُوجبُ الـحَمْدَ على نَظَرِها، لأنَّها مسارِحُ أنظارِ المتفكِّرين، ومهابطُ أنـوارِ ربِّ العالمين[1].

قَوْلُه: (﴿مِن فُطُورٍ﴾: مِن صدوع)، الرَّاغبُ: «أَصْلُ الفَطْرِ الشَّقُّ طولاً، يُقال: فَطَرَ فلانٌ كذا فَطْراً، وَأَفْطَرَ هو فُطوراً، وانفَطَرَ انفطاراً، قال تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: اختلالٍ وَوَهْيٍ فيه، وَمِنْه الفِطْرة، وفَطْرُ الله الخَلْقَ، وهو إيجادُه وإِبْداعُه على هَيْئةٍ مُتَرَشِّحةٍ لِفعلٍ مِنَ الأَفْعال؛ فقولُه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، إشارةٌ منه إلى ما أَبْدَعَ وَرَكَزَ في النّـاسِ مِن مَعْرفته المشار إليه بِقَوْلِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ﴾ [الزخرف: ٩]. والفِطْرُ: تَرْكُ الصَّوْم»[2].

قَوْلُه: (إنْ رَجَعْتَ البصر وكَرَّرْتَ النَّظَر، لَمْ يَرْجعْ إليك البَصَرُ بما التَمَسْتَه مِن رؤية الخَلَلِ

---

(١) من قوله: «قوله: وأنّ اللهَ بباهرِ قُدْرته»، إلى هنا سقط من (ف).

(٢) «مفردات القرآن»، ص ٦٤٠.

فإن قلتَ: كيف ينقلبُ البصرُ خاسئاً حسيراً بِرَجْعه كرّتينِ اثنتين؟

قلتُ: معنىٰ التثنيةِ التكريرُ بكثرة، كقولهم: لبيكَ وسَعْديك، تريدُ إجاباتٍ كثيرةً بعضُها في أَثرِ بعض، وقولهم في المثل: «دُهْدُرّيْنِ سعد القَيْنِ» من ذلك، أي: باطلاً بعدَ باطل.

وإدراك العَيْب)، في كلامِه إشعارٌ بأنَّ ﴿ٱلْبَصَرُ﴾ الثاني في مَوْضِعِ المُضْمَر، لقولِه: «بَلْ يَرْجعُ إليك»، أَيْ: بَصَرُك[1] بما التَمَسْتَه. الانتصاف: «مَعْنىٰ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْضعَ المُضْمَرِ، أَنَّ الأَبْصارَ التي يُدْرِكُ بها كلُّ مَوْجودٍ تَرْجعُ خاسِئةً»[2].

قَوْلُه: (دُهْدُرَّينِ سَعْدُ القَيْنِ) مَعْنىٰ التثنيةِ هَلْ يُسْتَنْبَطُ من انضمام «سَعْدِ القَيْن» بـ«دهدرَّين»، أو مِن التثنية في «دُرَّيْنِ»؟ والوَجْهانِ مُحتَملانِ، قال الميدانيُّ: قيل: «الأَصلُ فيه أَنَّ العَرَبَ تَعْتَقدُ أَنَّ العَجَمَ أَهْلُ مَكْرٍ وخَديعةٍ، وكانوا يُخالِطونَهم ويَتَّجرونَ في الدُّرِّ ولا يُحْسنون العربيَّة، فَوقَعَ إليهم رَجُلٌ مَعه خَرَزاتٌ سودٌ وبيضٌ وقال: دُودُر أي: نوعانِ مِن الدُّرِّ، أو قال: عَشَرةٌ منه بكذا، فَفَتَّشوا عَنْه فَوجدوه كاذباً فيما زَعَمَ، فقالوا: دُه دُرَّين، ثُمّ ضَمُّوا إليه «سَعْد القَيْن» لأنَّهم عَرفوه بالكذب، حتّى قالوا: إذا سَمِعتَ بِسُرى القَيْنِ فإنَّه مُصْبِح، فجعلوا اللَّفظَينِ عبارةً عَن الكذبَ، وثَنَّوا قَوْلَهم: «دُرَّيْنِ» لِمُزاوجةِ «القَيْنِ»، فإذا أَرادوا أَنْ يُعبِّروا عَن الباطل تَكَلَّموا بهذا. وقال بعضُهم: أَصْلُه: دُهْ دُر، فَثَنَّوْه، عبارةً عَن تَضاعُفِ مَعْنىٰ الباطلِ والمُبالغةِ فيه، كما جَمَعوا أَسماءَ الدَّواهي فقالوا: الأَقْوَرِينَ والفَتْكرِينَ، إشارةً إلى اجتماعِ الشَّرِّ فيه، وغَيَّروا أَوَّله عن الفَتْحِ إلى الضَّمِّ، ليكونوا قَدْ تَصَرَّفوا فيه بِوَجْهٍ ما.

«ومَوْضعُ المَثَلِ نَصْبٌ بإضمارِ «أَعْني» أو «أُبْصِر»، ويَجوزُ أَنْ يكونَ رفعاً على الابتداء، أَيْ:

---

(١) في (ف): «البَصَر».

(٢) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٥٧٦).

فإن قلتَ: فما معنىٰ ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ﴾؟

قلتُ: أمرَه بِرَجْع البصر، ثُم أمرَه بأن لا يَقْتنعَ بالرَّجعةِ الأولىٰ وبالنظرةِ الحمقاء، وأن يَتوقّفَ بعدها ....

أنتَ صاحبُ هذه اللفظة، التقديرُ: أَنْتَ سَعْدُ القَيْنِ، وحُذِفَ التنوينُ لالتقاءِ الساكِنَيْنِ»[١].

وفي بعضِ الحواشي: القَيْنُ: الحدَّاد، ويُضْرَبُ به المثَلُ في الكَذِب، ويُقالُ: أَكْذَبُ مِن قَيْن، رُوِيَ عَن المُصَنِّف أنَّه قال: «الدُّهْدُر، والدُّهْدُنُ: الباطل»، والمعنىٰ: جئتَ يا سَعْد القَيْنِ بباطلٍ بعد باطل، وذلك مَثَلٌ. يُقال: أَكْذَبُ مِنْ قَيْن، وذلك لأنَّه سَمَّى نفسَه سَعْداً كاذباً، وكان حَدَّاداً يَطوفُ في القبائل، فإذا كَسَدَ سُوقُه كان يقول: أذهبُ الليلةَ، فيتسارعون إلى دَفْعِ أَسْلِحتِهم وآلاتِهم لِيُصْلِحَها، ويُقْبلون على التِّجارة معه خوفاً، فإذا فعلوا ذلك ونَفَقَت سوقُه امْتَنَعَ عن الذَّهاب، وإنَّما يقولُ ذلك تخويفاً لهم، حتّى قيلَ: إذا سمعتَ بسُرى القين، فاعلم أنه مُصْبح. والأصلُ: سعدٌ القينُ، بالرَّفع على الوصف، والقَينُ: كُلُّ عَمَّالٍ بالحديد.

قَـوْلُه: (وبالنظرةِ الحمقاء)، وهي النّظرةُ الأُولى، لأنّ الرؤيةَ لا تصلُ في بَدْءِ الأَمرِ إلى الوَصْفِ إلا على الإجمال ثُمّ على التفصيل، ولهذا قيلَ: فلانٌ لَمْ يُمْعِنِ النَّظَرَ، وكذا سائر الحواسّ. وإنَّ السَّمعَ يُدْرِكُ مِن تَفاصيل الصَّوتِ في المَرّةِ الثانية، ما لَمْ يُدْرَكْها في الأُولى، قال ابن المقرّب:

إذا مـا نـساءُ الحـيِّ رُحْـنَ فإنَّهـا ... لها النَّظرةُ الأُولى عليهنَّ والعَقْبُ[٢]

يقولُ: إنّها النِّهايةُ في الجمالِ، لا تَزْداد في عَينِ الرّائي إلّا حُسْناً، لأنّ أوّلَ النَّظرةِ لا يُميِّزُ بها الرائي حُسْنَ المرأةِ مِن قُبْحِها، ومَنْ أدامَ فيها النَّظَرَ أَمِنَ مِن ذلك.

(١) «مجمع الأمثال» (١: ٢٦٦-٢٦٧) بتصرف. والدُّهدُر كلمة فارسية، نقلها العرب وجعلوها بمعنى الباطل. انظر: «التحرير والتنوير» (٢٩: ١٨) لابن عاشور.

(٢) البيت لابن المقرب العيوني الأحسائي، لم أقف على «ديوانه»، وعلمتُ بأخرة أنّ ثلاثة باحثين سعوديين قاموا على تحقيقِه ونشره.

ويُجِمّ بصرَه، ثم يعاودَ ويُعاوِد، إلىٰ أن يُحسرَ بصرُه مِن طولِ المعاوَدة، فإنه لا يَعثرُ علىٰ شيءٍ من فُطور.

[﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ ٥]

﴿ٱلدُّنْيَا﴾: القربىٰ؛ لأنها أقربُ السمواتِ إلىٰ الناس، ومَعناها: السماءُ الدنيا منكم. والمصابيحُ: السُّرُج، سُمّيت بها الكواكب، والناسُ يُزيّنون مساجدَهم ودورَهم **بأثقابِ المصابيح، فقيل: ولقد زَيّنا** سَقفَ الدار التي اجتمعتُم فيها ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾، أَيْ: بأيِّ مصابيحَ لا تُوازيها مصابيحُكم إضاءةً، وضَممنا إلىٰ ذلك منافعَ أُخر: ....

قولُه: (**وَيُجِمّ بَصَرَه**)، يُقالُ: جَمَّ الفَرَسُ جَمّاً وَجِماماً؛ إذا ذَهَبَ إِعياؤُه، ويُقال: أَجْمِمْ نفسَك يوماً أو يومَيْنِ[1].

قَوْلُه: (**بأَثقاب المصابيح**)، **الجوهريّ**: «ثَقَبَتِ النارُ تَثْقُبُ ثُقوباً وثَقابةً؛ إذا اتَّقَدَت، وشِهابٌ ثاقبٌ، أَيْ: مُضيء».

قَوْلُه: (**فقيل: ولقد زَيَّنّا**)، عطفٌ على قَوْلِه: «سُمِّيت بها الكواكِبُ»، وقَوْلُه: «والناسُ» إلى آخِره: اعتراض.

الرّاغبِ: أمّا قولُه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [المُلك: ٥]، وقولُه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الصافات: ٦]، فإشارةٌ إلى الزِّينة التي تُدْرَكُ بالبَصَر التي يَعْرِفُها الخاصَّةُ والعامَّة، يَدُلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]. وقال: الزِّينةُ الحقيقيّةُ ما لا يَشينُ الإنسانَ في شَيْءٍ مِن أَحوالِه لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، فأمّا ما يَزينُه في حالةٍ دون حالةٍ فهُو مِن وَجْهٍ شَيْنٌ. والزِّينةُ بالقَوْلِ المُجْمَل ثلاثٌ: زينةٌ نفسيّةٌ كالعِلْم والاعْتِقاداتِ الحَسَنةِ،

---

(١) كذا في «الصحاح» (٥: ١٨٩١ ـ جمم).

أنا جعلناها رجوماً لأعدائِكم الشياطين الذين يُخرِجونكم من النورِ إلىٰ الظلمات، وتَهتدونَ بها في ظُلمات البرِّ والبحر؛ **قال قتادة: خَلَقَ اللهُ النجومَ** لثلاثٍ: زينةً للسّماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدىٰ بها؛ فمن تأوّلَ فيها غيرَ ذلك فقد تكلّفَ ما لا علمَ له به. وعن محمد بن كعب: والله ما لأحدٍ من أهلِ الأرضِ في السّماء نَجْم، ولكنهم يَبتغونَ الكَهانةَ ويَتخذونَ النجومَ عِلّة.

وزينةٌ بَدَنيّةٌ كالقوّةِ وطولِ القامة، وزينةٌ خارجيّةٌ كالمالِ والجاه. وقولُه تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] مِن النفسيَّة، وقولُه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فقد حُمِلَ على الخارجيّة، لِمَا رُوي أَنَّ قوماً كانوا يَطوفونَ بالبَيْتِ عُراةً، فنُهوا بها عنه(١). وقيل: زينةُ الله هي الكَرَمُ المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال:

وزينةُ المَرْءِ حُسْنُ الأَدَبْ»(٢).

قَوْلُه: (**قال قتادةُ: خَلَقَ اللهُ النُّجومَ**)، وفي صحيحِ الإمامِ البُخاريِّ عَن قَتادَةَ تعليقاً، قال: «خَلَقَ اللهُ هذه النُّجومَ لثلاثٍ(٣)، إلى قولِه: فَمَنْ تَأَوَّلَ فيها بغير ذلك أَخطأَ، وأَضاعَ نَصيبَه، وتَكَلَّفَ ما لا عِلْمَ له به»(٤).

وفي رواية رزين: «وَتَكلَّفَ ما لا يَعْنيه، وما لا عِلْمَ له به، وما عَجَزَ عن عِلْمِه(٥) الأَنبياءُ

---

(١) أي بهذه الآية عن هذا الطواف.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٣٨٨-٣٨٩، وفيه «وزينة العاقل».

ولم أهتدِ إلى قائل هذا الشطر، وتمام الشعر في «معجم الأدباء» (١: ٢٠):

لكلِّ شيءٍ حَسَنٍ زينةٌ ... وزينةُ العالمِ حُسْنُ الأدب

قَدْ يَشْرفُ المرءُ بآدابِهِ ... فينا، وإنْ كان وضيعَ النَّسَب

(٣) جَعَلَها زينةً للسَّماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدى بها.

(٤) انظر: «صحيح البخاري»، كتاب (٥٩)، باب (٣).

(٥) في (ف): «عَمَله».

والرُّجومُ: جَمعُ رَجْم: وهو مصدرٌ سُمي به ما يُرْجَم به. ومعنىٰ كونها مَراجمَ للشياطين: أنّ الشُّهبَ التي تَنقضُ لرَمْي المُسترِقةِ منهم مُنفصلةٌ من نارِ الكواكب، لا أنهم يُرْجَمون بالكواكب أنفسِها؛ لأنها قارّةٌ في الفَلكِ علىٰ حالها، وما ذاك إلا كقبسٍ يُؤخذُ من نار، والنارُ ثابتةٌ كاملةٌ لا تَنْقص. وقيل: مِن الشياطينِ المرجومةِ مَن يَقْتلُه الشّهاب، ومنهم مَن يُخبّله. وقيل: معناه: وجعلناها **ظُنوناً ورُجوماً بالغيبِ** لشياطينِ الإنسِ وهم النّجّامون. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ في الآخرة، بعد عذابِ الإحراق بالشُّهبِ في الدنيا.

[﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ٦-١٢]

والملائكةُ. وعن الرّبيع مِثْلُه وزادَ: واللّـهِ ما جَعَلَ اللهُ في نَجْمٍ حياةَ أَحدٍ، ولا رِزْقَه، ولا مَوْتَه، وإنّما يَفْتَرون علىٰ الله الكذبَ، ويَتعلّلونَ[1] بالنُّجوم»، وأوْرَدَه صاحبُ «جامعِ الأُصول» في كتابه[2]، ولبعضهم:

لك أَلفُ مَعْبودٍ مُطاعٍ أَمْرُهُمْ دونَ الإلٰـه وَتَـدَّعي التّوحيـدا

قولُه: (ظُنوناً ورُجوماً بالغيب)، الرّاغبُ: «الرِّجامُ: الحِجارةُ، والرَّجْمُ: الرَّمْيُ بها، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ﴾ [هود: ٩١]، ويُسْتعارُ للرَّمْي بالظّنّ والتّوهُّم، وللشَّتْم وللطَّرْدِ نحو: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢]، ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]، أي: لأقولَنَّ

---

(١) في (ف): «يتعلقون».

(٢) انظر: «جامع الأصول» (٩٢٠٢) لابن الأثير.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي: ولكلِّ مَن كفرَ بالله من الشياطينِ وغيرهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ ليس الشياطينُ المرجومون مخصوصين بذلك. وقُرِئ: «عذابَ جهنم» **بالنصب عطفاً علىٰ** ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾. ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ أي: طُرِحوا كما يُطرحُ الحطبُ في النار العظيمة، ويرمىٰ به، ومثلُه قولُه تعالىٰ: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾: إمّا لأهلِها ممّن تَقدمَ طَرْحُهم فيها، أو مِن أنفسِهم، كقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]، وإما للنارِ تشبيهاً لحسيسِها المنكر الفظيعِ بالشهيقِ ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ تَغْلي بهم غليانَ المِرْجلِ بما فيه. **وجُعلت كالمغتاظةِ عليهم** لشدةِ غليانها بهم، ....

فيك ما تَكْرَه. والشَّيطانُ الرَّجيمُ: المطرود، والمُرَاجَمَةُ: المُسابَّةُ الشديدةُ، استعارةٌ كالمُقاذَفة، والتَّرْجُمان: تَفْعلان، منه»(١).

قَوْلُه: (**بالنَّصْب، عطفاً علىٰ** ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾)، قال الزَّجّاجُ: «أَيْ: أَعْتدنا لهم عذابَ السَّعير، وللذين كفروا بربِّهم عذابَ جَهَنّم»(٢). قال أبو البقاءِ: «قُرِئ: ﴿عَذَابُ﴾ بالرَّفْعِ على الابْتِداء، والخبرُ «لِلَّذين»، ويُقْرأُ بالنَّصْبِ عطفاً على ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾»(٣).

قَوْلُه: (**وجُعِلت كالمُغْتاظةِ عليهم**)، **الرَّاغبُ**: «الغَيْظُ أَشَدُّ الغَضَب، وَهُو الحرارةُ التي يَجِدُها الإنسانُ مِن ثَوَرانِ(٤) دَمِ قَلْبِه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩]، فإذا وُصِفَ اللهُ تعالىٰ به، فإنّما يُرادُ به الانتقامُ. والتَّغيُّظُ: هو إظهارُ الغَيْظ، وقَدْ يكونُ ذلك مَعَ صَوْتٍ مَسْموعٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢](٥)، والغَضَبُ: ثَوَرانُ دَمِ

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٣٤٥-٣٤٦، بتصرف.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٩٨).

(٣) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٢٣٢).

(٤) في «المفردات»: «فوران»، وكذا في الموضع الآتي بعد أسطر.

(٥) «مفردات القرآن» ص ٦١٩.

ويقولون: فلانٌ يَتميَّزُ غيظاً ويتقصّفُ غضباً، وغَضبَ فطارتْ منه شِقَّةٌ في الأرض وشِقّةٌ في السماء، إذا وَصفوه بالإفراطِ فيه. ويجوزُ أن يُراد: غيظُ الزبانية. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ توبيخٌ يزدادونَ به عذاباً إلىٰ عذابِهم وحسرةً إلىٰ حسرتِهم. وخزنتُها: مالكٌ وأعوانُه من الزبانية ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ اعترافٌ منهم بعدلِ الله، وإقرارٌ بأن اللهَ عزّ وعلا أزاحَ عِلَلَهم ببَعْثِه الرُّسلَ وإنذارِهم ما وَقعوا فيه، وأنهم لم يُؤْتَوا مِن قَدَرِه كما تَزعمُ المُجبِرة؛ ....

القَلْبِ إرادَةَ الانْتِقام»[1]، ولذلك جاء: «اتَّقوا الغَضبَ فإنَّه جَمْرةٌ في قَلْبِ ابْنِ آدَم، أَلَمْ تَرَ إلى انْتِفاخِ أَوْداجِه وحُمْرَةِ عَيْنَيْه»[2].

قَوْلُه: (يتميَّزُ غَيْظاً ويتقصَّفُ غضباً)، الرّاغبُ: «المَيْزُ والتَّمييز: الفَصْلُ بين المُتَشابِهات، يُقالُ: مازَه يَميزُهُ مَيْزاً ومَيَّزَهُ تَمْييزاً. والتَّمييزُ يُقالُ تارَةً لِلْفَصْلِ، وتارَةً للقُوَّةِ التي في الدِّماغ، وبها تُسْتَنْبَطُ المعاني، ومنه يُقالُ: فلانٌ لا تَمْييز له، ويُقالُ: انْمازَ وامْتاز، قال تعالىٰ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وتَميَّـزَ كذا: انْفَصلَ وانْقَطَع، قال: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾»[3].

قَولُه: (لَمْ يُؤْتَوا مِنْ قَدَرِه كما تَزْعُمُ المُجْبِرة)، يُريدُ أنّ قولَهم: ﴿بَلَىٰ﴾ تقريرٌ للمنفيّ، و﴿قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ قَوْلٌ بِالمُوجَب، يَعْني أنّ اللهَ تعالى ما أَبـقى مِن الإرْشادِ والـهدايةِ شيئاً إلّا فعَلَ. وقَوْلُهم ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾، إقرارٌ بأن التَّكْذيبَ إنَّما نَشأَ مِن قِبَلِ أَنْفُسِهم.

تَلْخيصُه: أَنَّهم أُتوا مِن قِبَلِ أَنْفُسِهم لا مِن قضاءِ الله وقَدَرِه.

واعْلَمْ أنّ الجوابَ والسُّؤالَ مَبْنيٌّ علىٰ ظاهِرِ الحال، وإثْباتِ الكَسْبِ لِلعَبْد. وقَوْلُهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ إثباتٌ للقَدَر. قالَ الإمامُ: «احْتَجَّ أَصْحابُنا بهذه الآيةِ في مَسْألةِ الـهُدَى والضَّلال، قالوا: «لَوْ» تُفيدُ امتـناعِ الشَّيْء لامتناعِ غيرِه، فَدَلَّت الآيـةُ

---

(١) انظر: «مفردات القرآن» ص ٦٠٨.

(٢) انظر: «مسند الإمام أحمد» (١١١٤٣)، من حديث طويل رواه أبو سعيد الخدري، وثمّة تمام تخريجه.

(٣) «مفردات القرآن» ص ٧٨٣.

وإنما أُتوا مِن قِبَلِ أنفسِهم **واختيارِهم خلافَ ما اختارَ اللهُ وأَمرَ به** وأَوْعدَ علىٰ ضِدّه.

فإن قلتَ: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ مَن المخاطبونَ به؟

قلتُ: هو مِن جُملةِ قولِ الكفارِ وخطابِهم للمُنْذِرين، **علىٰ أنّ النذيرَ بمعنىٰ الإنذار**، والمعنىٰ: ألم يأتكم أهلُ نذير، أو وُصفَ منذرُوهم لغلوِّهم في الإنذار، كأنّهم ليسوا إلا إنذاراً؛ وكذلك ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾، ونَظيرُه قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، أي: حاملا رسالته.

علىٰ أنّه ما كانَ لَهُم سَمْعٌ ولا عَقْلٌ، ولا شَكَّ أنّهم كانوا ذَوي أَسماعٍ وعُقولٍ صَحيحة، فالمرادُ أنّهُ ما كانَ لَهم سَمْعُ الهِدايةِ ولا عَقْلُ الهِداية»[1].

قَوْلُه: (**واخْتِيارِهم خِلافَ ما اخْتارَ اللهُ وأَمَرَ به**) فيه إِشارتانِ إلى مَذْهَبه: إِحْداهما: في إيقاعِ «خلافَ» مَفْعولَ «واخْتيارِهم» إشارةٌ إلىٰ أنَّ اخْتيارَهم وإرادَتَهم غَلَبَ اخْتيارَ الله وإرادَتِه. وثانيهما: في عَطْفِ «وَأَمَرَ به وأَوْعد» على «ما اخْتارَ اللهُ» علىٰ سَبيلِ البيانِ، إِشْعارًا بأَنَّ الإرادةَ والأَمْرَ مُتَّحِدان.

قولُه: (**علىٰ أَنَّ النَّذيرَ بِمَعنىٰ الإِنذار**)، يعني: إِنَّما يَسْتقيمُ هذا أَنْ يكونَ مِنْ جُمْلةِ قَوْلِ الكفّار، والمُخاطَبونَ الرُّسُل، إذا جُعِلَ ﴿نَذِيرٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾، وقولِه: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ بمعنىٰ الإِنْذار؛ إمَّا بتقدير مُضافٍ، أيْ: أَهْلُ نَذير، أو مُبالغةً في أَنَّ الرُّسُلَ عَيْنُ الإِنْذار، لأنَّ الخطابَ بقوله: ﴿أَنتُمْ﴾ لِلْجماعة. وأَمَّا إذا كانَ مِن كلامِ الخَزَنةِ للكُفّار، أو مِن كلامِ الرُّسُلِ لهم، فَلَمْ نَحتجْ إلى هذا التأويل، ويكونُ الوَقْفُ علىٰ قَوْلِه: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ حَسَناً، وقَوْلُه: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ استئنافٌ علىٰ تَقْدير القَوْل.

قَوْلُه: (﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾)، الجَوْهريّ: «ولَمْ يَقُل: «رُسُل»، لأنَّ فَعولاً وفَعيلاً يَسْتوي فيهما المُذَكَّر والمُؤَنَّث، والواحِدُ والجَمْعُ».

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ٥٧).

ويجوزُ أن يكونَ من كلامِ الخزنةِ للكفارِ علىٰ إرادةِ القول: أرادوا حكايةَ ما كانوا عليه مِن ضَلالِهِم في الدنيا، أو أرادوا بالضّلال الهلاك، أو سَمّوا عقابَ الضَّلالِ باسمِه، أو من كلامِ الرسلِ لهم حَكَوه للخزنة، أي: قالوا لنا هٰذا فلم نَقبلْه.

﴿لَوْكُنَّا نَسْمَعُ﴾ الإنذارَ سماعَ طالبين للحق، أو نَعقلُه عقلَ متأمّلين. وقيل: **إنما جُمِعَ بين السمعِ والعقلِ؛ لأنّ مدارَ التكليفِ علىٰ أدلّةِ السمعِ والعقلِ.**

ومن بِدَعِ التفاسير: أنّ المرادَ: لو كنا علىٰ **مذهبِ أصحابِ الحديثِ أو علىٰ مذهبِ أصحابِ الرأي**. كأنّ هٰذه الآيةَ نزلتْ بعدَ ظهورِ هٰذيْنِ المذهبيْنِ، وكأن سائرَ أصحابِ المذاهبِ والمجتهدينَ قد أنزلَ اللهُ وعيدَهم، وكأن مَن كان مِن هؤلاءِ فهو مِن الناجينَ لا مَحالة؛ **وعِدّةُ المبشَّرينَ** مِن الصحابة عَشَرة، لم يُضمّ إليهم حادي عَشَر، وكأن مَن يجوزُ علىٰ الصراطِ أكثرُهم لم يَسْمعوا باسمِ هٰذيْن الفريقيْنِ.

قَوْلُه: (وإنَّما جُمعَ بينَ السَّمْعِ والعَقْل، لأنَّ مَدارَ التكليفِ على أَدلَّة السَّمْعِ والعَـقْل)، **الانْتِصاف**: «إنْ أرادَ أنَّ الأحكام التكليفيّة مُسْتفادةٌ مِن العَقْل، فَهُو مِن العقائِدِ الفاسدة. وإنْ عَنىٰ أنَّ العَقْلَ يُرشِدُ إلىٰ[1] العقائِدِ الصَّحيحةِ، والسَّمعَ يَخُصُّ الأَحْكامَ الشَّرعيّة، فَهُو حَقٌّ»[2].

قولُه: (علىٰ مَذهَبِ أصحابِ الحديثِ وأصحابِ الرأي)، أَيْ: أَصْحابِ الشافعيّ وأبي حَنيفةَ رضيَ اللهُ عَنْهم[3].

قَوْلُه: (وعِدَّةُ المُبَشَّرين)، يَعْني يَلْزمُ مِن هذا أنْ يَتَجاوَزوا النَّصَّ بالعَشَرة إلىٰ أَزْيَدَ، وفيه بَحْث، لأَنَّ عبدَ الله بن سَلام وغَيرَه مِنَ المُبَشَّرين لَيسوا مِن العَشَرة.

---

(١) في (ط)، و(ح): «يزيد في».

(٢) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٥٧٩) بتصرف.

(٣) هذه الفقرة وردت في الأصول الخطية بعد التي تليها، وقدمناها هنا مراعاةً لترتيب «الكشاف».

﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾ بكفرِهم في تكذيبِهم الرسلَ. ﴿فَسُحۡقٗا﴾ قُرِئ بالتخفيفِ والتثقيل، أي: فبُعداً لهم، اعترفوا أو جَحدوا؛ فإنّ ذلك لا ينفعُهم.

[﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ ١٣-١٤]

ظاهرُه الأمرُ بأحدِ الأمريْنِ: الإسرارِ والإجهارِ. ومعناه: لِيَسْتوِ عندكم إسرارُكم وإجهارُكم في علمِ الله بهما، ثُم إنه علَّله بـ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: بضمائرِها قبل أن تُترجمَ الألسنةُ عنها، فكيف لا يَعلمُ ما تُكُلِّمَ به؟! ثم أنكرَ ....

قَولُه: (﴿فَسُحۡقٗا﴾: قُرِئ بالتَّخفيف والتَّثقيل)، الكسائيُّ: بِضَمِّ الحاءِ، والباقونَ: بإسْكانِها(١).

قَوْلُه: (ظاهِرُه الأَمْرُ بأَحَدِ الأَمْرَيْنِ)، وَهُو كقولِه تعالىٰ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٨٠]، وقَوْلِ كُثَيِّر رَحِمَه اللهُ:

أَسيئي بنا أَوْ أَحْسِني لا ملومَةً(٢)

قَوْلُه: (ثُمَّ إِنَّه عَلَّلَه) إلى قَوْله: (ثُمَّ أَنْكَرَ)، بيانُ النَّظْمِ يَعْني: قَوْلُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تَعْليلٌ لكونِه عالماً بما يُسِرّونه ويَجْهرونه، وقَوْلُه: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، تَعْليلٌ لإحاطةِ عِلْمِه بجميعِ الكائنات جُزْئياً وكُلِّياً، ظاهراً وباطناً، على الإنكار. والجُملةُ تَذْييلٌ، وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ حالٌ مُقرِّرةٌ لجهةِ الإشْكالِ، وإليه الإشارةُ أَوَّلاً بقولِه: «ثُمَّ أَنْكَرَ أَنْ لا يُحيطَ عِلماً بالمُضْمَر»، وثانياً بقولِه: «أَلا يَعْلَمُ مَخلوقَه وهذه حالُه».

قالَ الإمامُ: «تَدُلُّ الآيةُ علىٰ أَنّ العَبدَ غيرُ مُوجِدٍ لِأفعالِه، وذلك أنّه تعالىٰ لَـمّا قرَّر بأنّه

---

(١) هما لغتان مثل (الرُّعْب والرُّعُب)، و(السُّحْت والسُّحُت). انظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة، ص٧١٦.

(٢) «ديوان كثير» (١: ٣٤)، وتمام البيت:

لدنيا، ولا مَقْلِيَّةً إنْ تَقَلَّتِ

أن لا يحيطَ علماً بالمضمَرِ والـمُسَرِّ والـمُجهَر.

﴿مَنْ خَلَقَ﴾ الأشياءَ، وحالُه أنه ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، المتوصّلُ علمُه إلىٰ ما ظهرَ مِن خلقِه وما بَطن. ويجوزُ أن يكون ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ منصوباً بمعنىٰ: ألا يعلمُ مخلوقَه وهٰذه حالُه؟

ورُوي أنّ المشركين كانوا يتكلّمونَ فيما بينهم بأشياء، فيُظهِرُ الله رسولَه عليها، فيقولون: أسِرّوا قولَكم لئلّا يسمعَه إلهُ محمد، فنبّهَ اللهُ علىٰ جهلِهم.

عالِـمٌ بالسِّـرِّ والجَهْرِ وبكلِّ ما في الصُّدور، قالَ بعده: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾. وهٰذا الكلامُ إنّما يَتّصلُ بما قَبْله لو كانَ تعالىٰ خالقاً لِكلِّ ما يَفعلونه في السِّـرِّ والجَهْر، وفي القلوبِ وفي الصُّدور، فإنّه لَوْ لَمْ يَكُنْ خالقاً لها، لَمْ يَكُنْ قولُه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ مُقْتضياً كَوْنَه تعالىٰ عالماً بتلك الأَشْياء.

فَإنْ قيلَ: لِـمَ لا يَجوزُ أن يكونَ المُرادُ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ الأجسام، فيلزمُ منه أن يكونَ عالماً بهذه الأشياء؟ قلنا: إنه لا يَلْزمُ مِن كَوْنِه خالقاً لِغَيرِ هذه الأشياء، كَوْنُه عالماً بها، لأن مَنْ يكونُ فاعلاً بشَيْءٍ لا يَجبُ أن يكونَ عالماً بشيءٍ آخر، نَعَمْ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِه خالقاً لها كونُه عالماً بها، لأن خالقَ الشَّيْءِ يَجبُ أَنْ يكونَ عالِماً به»(١).

وقُلْتُ: إنّما يَلْزَمُ ذلك إنْ لـم يُقيِّـد ﴿خَلَقَ﴾ بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، فالمعنىٰ: خَلَقَ الأَجسامَ وهُوَ عالِمٌ بأَحوالِها ما ظَهَرَ منها ومَا بَطَن، وإليه أَشارَ المُصنِّفُ بقولِه: «المتَّصلُ عِلْمُه إلىٰ ما ظَهَرَ مِنْ خَلْقِه ومَا بَطَن».

والحقُّ أَنَّ قولَه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ الآية، كما سَبَقَ، تَذْييل، ومِنْ حَقِّه أَنْ يكونَ أَعَمَّ مِن المُذَيَّلِ به وأَشْملَ منه ، فَيَدخُلُ فيه دخولاً أَوليّاً، وحينئذٍ يَجبُ أَنْ يُقال: ألا يَعلَمُ مَنْ خَلَقَ الأَشياءَ كما قَدَّره المُصنِّف، لكن نُخالفُ مَذْهَبه علىٰ ما قَرَّره الإمامُ أَوّلاً(٢).

قولُه: (ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾) عَطفٌ علىٰ قولِه: «مَنْ خَلَقَ الأشياء»، فـ«مَن» علىٰ الأَوّل: عبارةٌ عَن الفاعِلِ، وعلىٰ الثاني: عَن المفعولِ به.

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ٥٩-٦٠) بتصرف، ومنه صوّبنا ما في النسخ: «أما يلزم من كونه...».
(٢) من قوله: «قال الإمام: تدل الآية» إلىٰ هنا، سقط من (ف).

فإنْ قلتَ: قدّرتَ في ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ مفعولاً؛ علىٰ معنىٰ: ألا يعلمُ ذلك المذكورَ مما أُضمرَ في القلبِ وأُظهرَ باللسانِ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾، فهلّا جعلتَه مثلَ قولِهم: هو يُعطي ويمنع؛ وهلاّ كان المعنىٰ: ألا يكونُ عالماً مَن هو خالق؛ لأنّ الخلقَ لا يَصحُّ إلا مع العِلم؟

قلتُ: أبتْ ذلك الحالُ التي هي قولُه: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، لأنك لو قلتَ: ألا يكونُ عالماً مَن هو خالقٌ وهو اللطيفُ الخبير، لم يكنْ معنىً صحيحاً؛ لأنّ ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ معتمدٌ علىٰ الحال، والشيءُ لا يُوقّتُ بنفسِه، فلا يقال: ألا يعلمُ وهو عالِم، ولٰكن ألا يَعلمُ كذا وهو عالمٌ بكلِّ شيء.

قولُه: (والشَّيءُ لا يُوقَّتُ بنفسه)، أي: المُطْلَقُ لا يُقيَّدُ بِمُطْلَقٍ مِثْلِه، لأَنَّ الحالَ تَقْييدٌ للفِعْلِ المُطْلَق، قال صاحبُ «التقريب»: وفيه نَظَر، لأن ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أخص مِن العالِمِ علىٰ ما فَسَّره، فيكونُ التقديرُ: ألا يكونُ له أَصْلُ العِلْمِ وهو يَنْفُذ علمُه في الظّاهر والباطن من خلقه، بل وجهُ المنعِ أنْ ليس الغرضُ إثباتَ أصل العلمِ لأنّهم لم ينكروه، بل علمه بما أسرّوه، فلا بدّ من تقدير مفعول[1]، ويدلُّ عليه سَبَبُ النُّزول.

وقُلتُ: نَظَرُ صاحبِ «التقريب» أَنَّ اللطيفَ الخبيرَ أخصُّ مِن العالِمِ على ما فَسَّره بعيدٌ، لأَنَّ قَوْلَه: «المتوصِّلُ عِلْمُه إلى ما ظَهَرَ مِن خَلْقِه وما بَطَن» شامِلٌ للمعلوماتِ كلِّها مَفهوماً وازْدِواجاً[2] علىٰ نَحْوِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فإنَّ الخبيرَ مِثْلُ الرَّحمٰن، واللَّطيفُ مِثْلُ الرَّحيم، لأَنَّ العَلَمَ المُطْلَقَ شائعٌ في جِنْسِه، فتكونُ دِلالتُه على أفرادِ الجِنْسِ، مِثْلَ دلالةِ لام الاستغراق، فيدخلُ فيه ما دَلَّ عليه ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

قال صاحبُ «المفتاح» في الحالةِ المُقْتَضِية في تَرْكِ المفعول: «والقَصْدُ إلى نَفْسِ الفِعْل، [بـ][3] تنزيل المتعدي مَنْزِلَةَ اللّازِمِ ذَهاباً في نَحْو: فُلانٌ يُعْطي، إلى مَعْنىٰ: يَفْعلُ الإِعْطاء، أَيْ:

---

(١) من قوله: «علمه في الظاهر» إلى هنا، أثبته من (ط)، وسقط من (ح) و(ف).

(٢) في (ف): «للمعمولات كلّها مفهوماً واندراجاً».

(٣) هكذا تستقيم عبارة المخطوط بما نقلناه عن «المفتاح».

....

يُوجدُ[١] هذه الحقيقةَ إيهاماً لِلْمبالغةِ بالطَّريقِ المذكورةِ في إفادةِ اللّامِ للاسْتِغْراق»[٢].

وقالَ حُجَّةُ الإسلامِ: «إنَّما يَسْتَحِقُّ هذا الاسمَ مَنْ يَعْلَمُ دقائقَ المَصالِحِ وغَوامِضَها، وما دَقَّ مِنْها وما لَطُف، ثُمَّ يَسْلُكُ في إيصالِها إلى المُسْتَصْلَحِ سبيلَ الرِّفْقِ دونَ العُنْف»[٣]. والخبيرُ: هو الذي لا تَعزُبُ[٤] عَنْه الأَخْبارُ الباطِنةُ، فلا يَجْري في المُلْك والمَلكوتِ شَيءٌ، ولا تَتحرَّكُ ذَرَّةٌ ولا تَسْكُنُ، ولا تَضطربُ نفسٌ ولا تَطْمئنُّ، إلّا ويكون عِنده خَبَرُها. وهو بِمَعْنىٰ العليم، لكنَّ العِلْمَ إذا أُضيفَ إلى الخَفايا الباطنةِ، سُمِّي خبرةً، وسُمِّي صاحِبُها خبيراً.

وقالَ الأَزهريُّ: قال اللهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [هود: ١١١]، أَيْ عليم. ويُقالُ: «خَبَرْتُ الأَمْرَ أَخْبُرُه خُبْراً، أيْ: عَلِمْتُه، ومَا لي به خُبْرٌ، أَي: عِلْم»[٥].

فلمّا تَقَـرَّرَ اتفاقُ العِبارتَيْنِ علىٰ ذلك التقدير صَحَّ ما قالَه، على أَنَّ المَقامَ يَقْتضي إثباتَ مَعْلومٍ خاصٍّ، وَهُو ما دَلَّ عليه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾.

الانتصاف: «هٰذه الآيةُ رَدٌّ علىٰ الزَّمَـخْشريّ، فإنَّ العَبدَ لا يَخلُق أَفْعالَ نفسِه لأَنَّه لا يَعْلَمُها، وَهُو استدلالٌ بنَفْي اللازم؛ اسْتَدَلَّ بثُبوتِ الخَلْقِ له تعالىٰ على ثُبوت العِلْم؛ فَالوَجْهُ في الآية أَنَّ ﴿مَنْ﴾ فاعِل، ومَفْعولُ العِلْمِ مَحْذوفٌ وهو السِرُّ والـجَهْر، وضميرُ ﴿خَلَقَ﴾ مَحْذوفٌ عائِدٌ إليه، تَقْديرُه: أَلا يَعْلمُ السِّرَّ والجَهْرَ مَنْ خلقَهما؟ وغيرُ هذا الوَجْهِ تَكَلُّف»[٦].

وقُلتُ: هٰذا نَظَرٌ دقيقٌ، يَعْني: في تَخْصيصِ ذِكْرِ الخالِقِ دونَ سائرِ الأَسماءِ في مَقامِ إِثْباتِ

---

(١) في «المفتاح»: «ويوجد»، وفي (ف): «يوجّه».
(٢) انظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي، ص ٢٢٨، ٢٢٩.
(٣) «المقصد الأسنى» للغزالي ص ٩٢.
(٤) في (ح): «تُعْرف».
(٥) انظر: «تهذيب اللغة» (٧: ٣٦٥، ٣٦٩).
(٦) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٥٧٩).

[﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ ١٥]

المشيُ في مناكبِها: مَثَلٌ لفرطِ التذليلِ ومُجاوزتِه الغاية؛ لأنّ المَـنْكِبيْنِ وملتقاهُما من الغاربِ أرقُّ شيءٍ من البعيرِ، وأَنبـاهُ عن أن يطأَه الراكبُ بقدمِه ويعتمدَ عليه، فإذا جعلَها في الذِّلّ بحيثُ يمشِي في مناكبِها لم يَترُك. **وقيل: مناكبُها: جبالُـها**، قالَ الزَّجاج: معناه سَهّلَ لكم السلوكَ في جبالِها، فإذا أَمكنَـكم السلوكَ في جبالِها، فهو أبلغُ التذليل. وقيل: جوانبُها، والمعنىٰ: وإليه نشورُكم، فهو مُسائِـلُكم عن شُكرِ ما أنعمَ به عليكم.

العِلْم، إشعارٌ بأَنَّ الخالقَ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ عالِماً بِما يَخْلُقُه وبتفاصيله، وفيه إِدْماجٌ لمعنىٰ أَنَّ العَبْدَ غيرُ خالقٍ لأَفْعالِه لأَنّه لا يَعْلَمُها في الأزل.

قولُه: (في الذّل)، الذِّلّ بالكَسْر: اللّينُ وهو ضِدُّ الصُّعوبة، يُقالُ: دابَّةٌ ذَلولٌ بَيِّنَةُ الذِّلّ. والذِّلُّ بالكَسْرِ: مَصْدرُ الذَّلول، والذُّلّ بالضمِّ: مَصْدرُ الذَّليل.

قَوْلُه: (لَم يَترُك)، أي: لَمْ يَتْرُكْ بقيَّةً مِن التَّذْليل.

قَوْلُه: (**وقيلَ: مَناكِبُها جبالُها**)، فعلىٰ هٰذا: المجازُ في المناكِبِ وهي الجبالُ وَحْدَها، **الأَساسُ**: «ومِنَ المَجاز: سِرْنا في مَنْكِبٍ مِن الأَرْضِ والجَبَل: في نَاحِيَة». فقوله: ﴿ذَلُولًا﴾ تشبيهٌ لِذِكْرِ المُشَبَّهِ والمشَبَّهِ به، أيْ: الأَرضُ والذَّلول. وقولُه: ﴿مَنَاكِبِهَا﴾: اسْتِعارةٌ تَـمْثيليّةٌ أَوْ تَحْقيقيّة، لأَنَّ القَصْدَ الأرض، إمَّا ناحِيتُها أَو جِبالُها؛ فَنِسْبةُ الذَّلولِ إِلَيْها تَرْشيح، ونِسْبةُ المَشْي تَجْريد.

الراغبُ: «المَنْكِبُ: مُجْتَمَعُ ما بين العَضُدِ والكَتِف. ومنه اسْتُعيرَ للأَرضِ المَنْكِبُ في قَوْلِه تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾، كما اسْتُعيرَ لها الظَّهْرُ في قَوْله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، ومَنْكِبُ القوم: رأسُ العُرَفاءِ، مُسْتعارٌ مِن الجارِحةِ اسْتِعارةَ الرأْسِ للرَّئيس، واليَدِ للنّاصر»[١].

---

(١) «مفردات الراغب» ص ٨٢٢.

[﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۞ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۞ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ ١٦-١٩]

﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه وجهان: أحدُهما مَن ملكوتُه في السّماء؛ لأنها مسكنُ ملائكتِه، وثَمّ عرشُه وكرسيُّه واللوحُ المحفوظ، ومنها تنزلُ قضاياه وكتبُه وأوامرُه ونواهيه.

والثاني: أنهم كانوا يَعْتقدونَ التشبيه، وأنه في السماء، وأنّ الرحمةَ والعذابَ ينزلانِ منه، وكانوا يَدّعونه مِن جهتِها، فقيلَ لهم علىٰ حَسَبِ اعتقادِهم: أَأَمِنْتم مَنْ تَزْعمونَ أنه في السماء، وهو متعالٍ عن المكانِ، **أن يُعذّبَكم بخَسْفٍ أو بحاصِبٍ**؟ كما تقول لبعض المشبِّهة: أما تخافُ مَن فوق العرشِ أن يعاقبَك بما تفعل؟ إذا رأيتَه يركبُ بعضَ المعاصي! ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ قُرِئ: بالتاء والياء.

قَوْلُه: (أَنْ يُعَذِّبَكم بِخَسْفٍ أَو بِحاصِبٍ)، قال الراغب في «غُرَّةِ التأويلِ»[1]: لِـمَ قَدَّم التَّوعُّدَ بالخَسْفِ علىٰ التَّوعُّدِ بالحاصِبِ؟ وأُجيبُ أنّه لَـمّا كانت الأرضُ التي مَهَدَها لَهم لاسْتِقْرارِهم، يَعْبدون عليها غيرَ خالِقِها، فَعَبدوا الأَصْنامَ التي هي مِن شَجَرِها أَوْ مِن حَجَرِها، خُوِّفوا بِما هو أَقْرَبُ إليهم. والتَّخْويفُ بالحاصِبِ من السَّماءِ التي هي مَصاعِدُ كَلِمِهم الطَّيِّبة ، ومَعارِجُ أَعْمالِهِم الصَّالحة، لأَجْلِ أَنَّهم بَدَّلوهما بِسَيِّئاتِ كُفْرِهم وقَبائِحِ أَعْمالِهِم»[2].

قَوْلُه: (﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾)، قُرِئ بالتاءِ وَهِي المشهورة، وبالياءِ التَّحْتانِيّة شاذّةٌ.

---

(١) كذا في الأصول الخطية، وكذا نسبه المؤلف هذا الكتاب إلىٰ الراغب في مواضع كثيرة من كتابه، والأصح أنه للخطيب الإسكافي المتوفّى سنة ٤٢١ هـ.

(٢) «درّة التنزيل» للإسكافي، ص ٢٨٣.

ومن قوله: «الراغب: المنكب مجتمع ما بين العضد والكتف» إلىٰ هنا، سقط من (ح).

﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: إذا رأيتُم المنذَرَ به علمتُم كيفَ إنذاري حين لا ينفعُكم العِلم.

﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطاتٍ أجنحَتَهنّ في الجوّ عند طيرانِها؛ لأنهن إذا بَسطْنَها صَفَفْنَ قوادمَها صفّاً، ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويَضْمُمْنَها إذا ضَربْنَ بها جُنوبَهن.

فإن قلتَ: لم قيل: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾، ولم يقل: وقابضات؟

قلتُ: لأن أصلَ الطيران هو صَفُّ الأجنحة؛ لأنّ الطيرانَ في الهواءِ كالسِّباحةِ في الماء، والأصلُ في السِّباحةِ مَدُّ الأطرافِ وبَسْطُها. وأما القَبضُ فطارئٌ علىٰ البَسْطِ للاستظهارِ به علىٰ التحرّك، **فجيء بما هو طارئٌ غيرُ أصلٍ بلفظِ الفعل**، علىٰ معنىٰ أنهنَّ صافات، ويكون منهن القبضُ تارةً بَعْد تارةٍ كما يكون من السّابح.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بقدرتِهِ وبما دَبرَ لهنَّ **من القوادمِ والخوافي**، ....

﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ الأخيرةُ [الملك: ٢٩]: الكِسائيُّ بالياءِ التَّحْتانيّة، والباقون بالتاء(١).

قَوْلُه: (**فجيءَ بِما هو طارئٌ(٢) غيرُ أَصْلٍ بلَفْظِ الفِعْل**)، **الانتصاف**: «ويلاحظه ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۞ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص: ١٨-١٩]، حيث لَمْ يَقُل: مُسَبّحات»(٣).

قَوْلُه: (**مِن القَوادِمِ والخَوافي**)، قَوادِمُ الطَّيرِ: مَقاديمُ ريشِه، وهي عَشَرةٌ في كُلِّ جَناح، والخَوافي: ما دون الرِّيشاتِ العَشْرِ مِن مُقَدّم الجَناح.

---

(١) حُجَّة الكسائي أَنَّ الغيبة تقدم في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨]، وحُجَّة الباقين الخطاب في الآية قبلها: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾. انظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧١٦.

(٢) في الأصول الخطية: «طارٍ»، والأصوبُ ما أثبتناه، بدليل قول الزمخشري قبله: «الأصلُ في السباحة مَدُّ الأطراف وبَسْطُها، وأمّا القَبْضُ فطارئٌ على البَسْط ... فجيء بما هو طارئٌ».

(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٥٨١).

وبنى الأجسامَ على شكلٍ وخصائصَ قد تأتّى منها الجريُ في الجو، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ﴾ يَعلمُ كيف يخلقُ وكيف يدبرُ العجائب.

[﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ * أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ ٢٠-٢١]

﴿أَمَّنْ﴾ يشارُ إليه من الجموعِ ويقال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ﴾ الله إن أرسلَ عليكم عذابَه ﴿أَمَّنْ﴾ يشارُ إليه ويقال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾، **وهٰذا علىٰ التقدير.**

قَوْلُه: (وهٰذا علىٰ التَّقدير)، أيْ: هذا التَّأويلُ على تَقْديرِ جَمْعٍ مِن الجُموعِ في الذِّهْنِ لمفهومِ ﴿جُندٌ﴾، وَجَعْلِه مُشاراً إليه، قالَ في قَوْلِه تعالىٰ: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]: «قَدْ تَصوَّرَ فِراقَ بَيْنِهما، فأَشارَ إِليه، وجَعَلَه مُبْتدأً وأَخْبَرَ عَنْه، ويَجوزُ أَنْ يكونَ إِشارةً إلى السُّؤال الثالث»[١]. وعَلىٰ هٰذين الوَجْهَين يَنْبَني كلامُه هاهنا، وإلى الثاني أَشارَ بقوله: «وَيَجوزُ أَنْ يكونَ إشارةً إلى جميعِ الأَوثان»، والقَرينةُ حُضورُها بين أَيْديهم يَعْبدونَها.

والفَرْقُ بين الوَجْهَين، أَنَّ الكَفَرَةَ ما كانوا يَعْتقدون وُجودَ جَمْعٍ غَيْرِ الأَصنامِ يَنْصُرونَهم ويَرْزُقونَهم، فوَجَبَ أَنْ يُقدَّر ويُفْرض بِخِلافِ الأَصنام، يَدُلُّ عليه قَوْلُه في الوَجْهِ الثاني: «لاعْتِقادِهم أَنَّهم يُحْفَظون مِن النَّوائب ويُرْزَقون». هكذا يَنْبغي أَنْ يُتَصوَّر هذا المَقامُ ولا تُتَّبَعُ الأَوْهام، لأنَّ التَّقْدير: هذا التأويلُ الذي ذَكَرْتُه مَبْنِيٌّ علىٰ أَنَّ المُشارَ إليه جُنْدٌ مُقَدَّرٌ مَفروض، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ إشارةً إلى جميعِ الأَوثان، فلا يكونُ حينئذٍ مُقَدَّراً مَفروضاً[٢].

قالَ أَبو البقاءِ وصاحبُ «الكَشْف»: «مَنْ» مُبْتدأ، و﴿هَٰذَا﴾ خَبَرُه، و﴿ٱلَّذِى﴾ وَصِلَتُه

---

(١) انظر: «الكشاف» (٩: ٥٣٢).

(٢) من قوله «والفرق بين الوجهين» إلىٰ هنا سقط من (ف).

....

نَعْتُ لِـ﴿هَٰذَا﴾، و﴿يَنصُرُكُم﴾ نَعْتٌ لِـ﴿جُندٌ﴾ مَحمولٌ على اللفظ، ولَو جُمِعَ علىٰ المعنىٰ لَجاز»[١]. فعلى هذا «مَنْ» اسْتِفهاميّة، فلا يَجوزُ أَنْ تكونَ «أَمْ» مُنْقطِعة، لِئَلّا يَلْزَمَ اجتماعُ اسْتِفْهامَين[٢]؛ فلذلك قالَ القاضي: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي﴾، عَديلٌ لِقَوْلِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، علىٰ مَعْنى: أَوَ لَمْ تَنْظروا في أَمثالِ هذه الصَّنائع، ولَـمْ تَعْلموا قُدْرتَنا على تَعْذيبكم بنَحْوِ خَسْفٍ وإرْسالِ حاصب، أَمْ لكم جُنْدٌ يَنْصُرُكم مِن دونِ الله إنْ أَرْسَلَ عليكم عذابَه؟ فهو كقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣]، إلا أَنّه أُخْرِجَ مُخْرَجَ الاسْتِفهام عَنْ تَعْيين مَنْ يَنْصرُكم، إشْعاراً بأَنَّهم اعتقدوا هذا القَسَم[٣].

وقُلْتُ: الظّاهِرُ مِن كلامِ المُصَنِّف أَنَّ «مَنْ» مَوْصولة، و﴿هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ صِلَتُها، علىٰ تأويلِ: «ويُقالُ: هذا الذي يَرْزُقُكم»، لأَنَّه عَطْفٌ تَفْسيريٌّ لِلصِّلة، فَلَو كانت استفهاميّةً لكانت داخلةً في حَيِّز القَوْل، وكأَنَّ تَقْديرَه: يُقالُ في حَقِّه: مَنْ هٰذا الذي هُوَ جُنْدٌ لكم يَنصرُكم من دونِ الله، فحينئذ يُحتَملُ أَنْ تكون «أَمْ» مُتّصلة، والقَرينةُ مَحْذوفةٌ بِشَهادةِ سياقِ الكلام، كما في قَوْلِه تعالىٰ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

ولكنّ الوَجْهَ أَنْ تكون «أَمْ» مُتّصِلة، علىٰ أَنْ يُقدَّرَ قَبْلَها مَحْذوف، كأَنّه قيلَ: أَتَدَّعون علىٰ الأَنْبياءِ اليهوديّة ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾، فالمعنىٰ: آللهُ الذي لَه هذه الأَوصافُ الكاملةُ والقُدْرةُ الباهِرة، يَنْصُركم ويُنَجِّيكم مِن الخَسْفِ والحَصَبِ وغَيْرِهما إذا أَصابَتْكم، أَم الذي يُشارُ إليه ويُقالُ في حَقِّه: هذا الحَقيرُ؛ الذي تَزْعُمون أَنّه جُنْدٌ لكم يَنْصُرُكم مِن دونِ الله؟ آللهُ الرزّاقُ ذو القُوّةِ المتينُ يَرْزُقُكم في السِّنينَ المُجْدبةِ، أم الذي يُقالُ في حَقِّه:

---

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٢٣٣)، و«كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٣٦٩).

(٢) لعلها في (ف): «التَّوأَمَيْن».

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٦٥) للبيضاوي؛ قاله في تفسير الآية (٢٠) من سورة الملك.

ويجوزُ أن يكونَ إشارةً إلىٰ جميعِ الأوثانِ لاعتقادِهم أنهم يُحْفَظُون من النوائبِ ويُرْزَقون ببركةِ آلهتِهم، فكأنّهم الجندُ الناصرُ والرازق، ونحوُه قولُه تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣]. ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ بل تمادَوا في عنادٍ وشِرادٍ عن الحقِّ لثقلِه عليهم فلم يَتّبعوه.

[﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ٢٢-٢٤]

يُجعلُ (أَكبَّ) مطاوعَ (كَبَّه)، يقال: كَبَبْتُه فأكبَّ، من الغرائبِ والشواذّ. ونَحوُه: قَشَعَتِ الريحُ السحابَ فأَقْشَع، ....

هذا الضَّعيفُ المهينُ؛ الذي تَدَّعونَ أنّه يَرْزُقُكم؟ ثُمَّ أَوْقَعَ ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ اعتراضاً، وَضْعاً لِلْمُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمرِ تَسْجيلاً على غُرورهم، وتَجْهيلاً بَعْد تَجْهيل.

ويُمكِنُ أَنْ تُجْعَلَ «أَمْ» مُنْقطعةً ويُقال: قُلْ يا مُحمّد، أَلَمْ تَنْظروا في أَمثالِ هذه الصَّنائعِ العَجيبة، حتّى تَعرِفوا أنّه هو وَحْدَه قادرٌ علىٰ الخَسْفِ، وإرسالِ الحاصب، وعلى إنْجائِكم منها؟ ثُمَّ أَضْرَبَ عَن ذلك، وقيل: بل أَمَّن هذا الذي هُو جُندٌ لكم يَنْصُركم من دون الرَّحمٰن، أيْ: لا تَسأَلْ عَن ذلك لأنّه مَفروغٌ عنه؛ فإنّهم كانوا إذا حَزَبَهم خَطْبٌ عَظيم، دَعَوُا اللهَ مُخْلصينَ له الدِّينَ، دون شُهدائِهم وأَصْنامِهم، بل سَلْ[١] عَنْ هذا تَقْريعاً وتَوْبيخاً.

قَوْلُه: (ونَحْوُه قَوْلُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣]، مَثَلٌ[٢] لِلْوجهِ الثاني، وهو أَنْ يكونَ المشارُ إليه الأَصْنامَ.

(١) في (ف): «سئل».
(٢) في (ف): «مقابل».

وما هو كذلك؛ ولا شيءَ مِن بناءِ (أَفْعَلَ) مطاوعاً، ولا يُتقِنُ نحوَ هٰذا إلا حَمَلَةُ «كتابِ سيبويه»؛ وإنما (أَكَبَّ) من بابِ (**أنفضَ، وأَلامَ**)، ومعناه: دخلَ في الكَبِّ، وصارَ ذا كَبٍّ؛ وكذلك أَقْشعَ السَّحاب: دخلَ في القَشْع، ومُطاوعُ كَبَّ وقَشَعَ: انْكبَّ وانْقشَعَ.

فإن قلتَ: ما معنىٰ ﴿يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ وكيفَ قابلَ ﴿يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؟

قلتُ: معناه: يَمْشي مُعْتسِفاً في **مكانٍ مُتَعادٍ** غيرِ مستوٍ فيه انخفاضٌ وارْتفاعٌ، فيعثرُ كلَّ ساعةٍ فيخرُّ علىٰ وجهِه مُنكبّاً، فحالُه نقيضُ حالِ مَن يمشي سويّاً، أي: قائماً سالماً من العُثور والخُرور، **أو مستويَ الجهة** قليلَ الانحراف، خلافَ المعتسفِ الذي يَنْحرفُ **هكذا وهكذا** علىٰ طريقٍ مستوٍ.

ويجوزُ أن يرادَ الأعمىٰ الذي لا يَهتدي إلىٰ الطريقِ فيعتسِفُ، ....

قَوْلُه: (**وما هو كذلك**)، رَدٌّ لِمَن يَجْعلُ «أَكَبَّ» مُطاوعَ «كَبَّه».

قَوْلُه: (**مِنْ بابِ أَنْفَضَ وأَلامَ**)، **الجوهريّ**: «أَنْفَضَ القَومُ: إذا هَلَكَت أَمْوالهم، وأَنْفضوا أيضاً ـ مِثْلُ أَرْملوا ـ: إذا فَني زادُهم، وأَلام الرَّجلُ: إذا أَتىٰ بما يُلام عليه».

قَوْلُه: (**في مكانٍ مُتعاد**)، **الجَوْهريّ**: «نِمْتُ على مكانٍ مُتعادٍ؛ إذا كان مُتفاوتاً ليس بِمُسْتوٍ، يُقالُ: هذه أَرْضٌ مُتَعادِيَةٌ ذاتُ جِحَرَةٍ ولَخاقيق. الجِحَرَةُ بكَسْرِ الجيم وفَتْحِ الحاءِ: جَمْعُ جُحْر، واللُّخْقوق: شَقّ الأَرْض».

قَوْلُه: (**أو مُسْتَوِيَ الجِهة**)، عَطْفٌ على قولِه: «قائماً».

قَوْلُه: (**هكذا وهكذا**)، بيانُ انْحِرافِه، أَيْ: يَميناً وشِمالاً، وَهُما مَنْصوبانِ علىٰ المَصْدرِ، أو علىٰ الظَّرْف.

قَوْلُه: (**ويَجوزُ أَنْ يُرادَ**)، عَطفٌ على قَوْلِه: «مَعْناه: يَمْشي مُعْتَسِفاً»، يَعْني: طريقُ مُراعاةِ

فلا يزالُ ينكبُّ علىٰ وجهِه، وأنه ليسَ كالرَّجلِ السّويِّ الصحيحِ البصرِ الماشي في الطريقِ المهتدي له، وهو مَثَـلٌ للمؤمنِ والكافر.

وعن قتادة: الكافرُ أكبَّ علىٰ معاصي الله تعالىٰ فحشَرَه اللهُ يومَ القيامة علىٰ وجهِه، وعن الكلبي: عُني به أبو جهلِ بنُ هشام. وبالسّويّ: رسولُ الله ﷺ، وقيل: حمزةُ بنُ عبدِ المطلب.

[﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ ٢٥-٢٧]

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الضميرُ للوَعْد، والزُّلفة: القُرب، وانتصابُها علىٰ الحالِ أو الظرف، أي: رَأَوْه ذا زُلْفةٍ أو مكاناً ذا زُلفة. ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ساءتْ رؤيةُ الوعدِ وجوهَهم بأنْ عَلَتْها الكآبةُ وغشِيَها الكُسوفُ والقَترة، وكَـلَحوا، ....

التَّقابلِ بَيْن قَوْلِه تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾، وبَيْنَ قَوْلِه: ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، هو أَنَّ الماشي علىٰ الطَّريق إمَّا أَنْ يكونَ صحيحَ البَصَرِ أو فاقِدَه. وعلىٰ الأوَّل: الطَّريقُ إمَّا أَنْ يكونَ مُعْتَسفاً غيرَ مُسْتوٍ، والسَّالِكُ إمّا أَنْ يكونَ غيرَ عارفٍ بالطَّريق، فيعثر كلَّ ساعةٍ فَيخِرُّ على وَجْهِهِ مُكباً، أَوْ يكونَ عارفاً خِرِّيتاً[1] يَمْشي في هذا الطريق قائماً سالماً مِن الخُرور والعثور. وإمَّا أَنْ يكونَ مُتعبَّداً مُسْتويَ الجِهة، والعارِفُ يَمْشي فيها سَوِيّاً، والجاهِلُ يَنْحرِفُ فيها هكذا وهكذا. وعلىٰ الثاني ظاهِر.

واعْلَمْ أَنَّ ﴿سَوِيًّا﴾ إذا فُسِّرَ بـ«قائماً»، كانَ التقابلُ بينه وبين ﴿مُكِبًّا﴾ ظاهراً، وإذا فُسِّرَ بـ«مُسْتويَ الجِهة» أي: جِهةً مُسْتوياً كانَ مَعْنوياً، وكانَ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ كالتأكيدِ له، كما أَنَّ ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ تأكيدٌ لِـ﴿مُكِبًّا﴾. وإذا جُعِلَ ﴿سَوِيًّا﴾ بِمَعْنى «قائماً»، كان تأكيداً مَعْنوياً.

قَوْلُه: (المُهتَدي له)، اللام مُتعلِّق بـ«المُهْتَدي»، والضَّميرُ يعودُ إلى «الطَّريق»، وهو في مُقابَلَة «لا يَهْتَدي إلى الطريق»؛ فاسْتَعْمَلَ «الهُدَى» تارةً بـ«إلىٰ»، وأُخرى باللام.

---

(١) الخِرِّيت: الدّليل الحاذق بالدّلالة، كأنّه ينظر في خُرْت الإبرة. «لسان العرب» (خرت).

وكما يكونُ وجهُ مَن يُقادُ إلىٰ القتلِ أو يُعْرَضُ علىٰ بعضِ العذاب. ﴿وَقِيلَ﴾ القائلون: الزبانية ﴿تَدَّعُونَ﴾ تَفتعِلون؛ من الدعاء، أي: تَطْلبون وتَسْتعجلون به. وقيل: هو من الدَّعوىٰ، أي: كنتم بسببِه تَدَّعون أنكم لا تُبْعثون. وقُرِئ: «تَدْعون».

وعن بعضِ الزهّاد: أنه تلاها في أولِ الليلِ في صلاتِه، فبقي يُكرّرُها وهو يَبْكي إلىٰ أن نودي لصلاة الفجر، ولَعَمْري إنها لَوَقّادةٌ لمن تَصوّرَ تلك الحالةَ وتأمّلَها.

[﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ٢٨]

قوله: (أَيْ: كنتم بِسَبَبِه تَدَّعون)، يُريدُ أَنَّ ﴿بِهِۦ﴾ مُتعلّق بـ﴿تَدَّعُونَ﴾، وهو إمّا بمعنى الدُّعاءِ، والباءُ صِلتُه للتَّضمين، أو بمعنىٰ الدَّعْوىٰ والباءُ للتَّسْبيب.

قَوْلُه: (وَقُرِئ: «تَدْعون»)، قالَ ابنُ جنّي: «وَهِي قراءَةُ أَبي رَجاءٍ، والحسنِ، وقتادة[1] وغيرهِم. أيْ: هذا الذي تَدْعونَ اللهَ أَنْ يُوقِعَه بكم، كقولِه تعالىٰ: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]»[2].

قَوْلُه: (لَوَقّادة)، بالذال المُعْجَمة، الجوهريّ: «وَقَذَه يَقِذُه وَقْذاً: ضَرَبَه حتّى اسْترخى وأَشْرفَ علىٰ الموت، وشاةٌ مَوْقوذةٌ: قُتِلت بالخَشَبة». وقيل: الآيةُ المَتْلُوّةُ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾، قال الواحديُّ: «مَعْنى الآية: إنّا مَع إيمـانِنا بين الخوفِ والرَّجاء، فَمَن يُجيركم مَع كُفْركم مِن العذاب؟ أَيْ: أنّه لا رَجاءَ لَكُم كما لِلمُؤْمنين»[3]. ولعلَّ الزّاهِدَ التاليَ في صلاتِه ذَهَبَ إلى أَنّ القائِلَ بهذا إذا كانَ رسول الله ﷺ ومَنْ مَعَه مِن الصَّحابةِ الكرامِ مَعَ جَلالَتِهم، فَما بالُنا؟

---

(١) في (ح): «وأبي قتادة».

(٢) «المحتسب» (٢: ٣٢٥) لابن جني.

(٣) «الوسيط في تفسير القرآن» (٤: ٣٣١).

كان كفارُ مكةَ يَدْعون علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ وعلىٰ المؤمنينَ بالهلاك، فأُمِرَ بأنْ يقولَ لهم: نحنُ مؤمنونَ متربِّصونَ لإحدىٰ الحُسنييْنِ: إما أن نَهلِكَ كما تَتمنَّوْن فننقلبَ إلىٰ الجنة، أو نُرْحَم بالنصرةِ **والإدالةِ للإسلامِ** كما نَرْجو، فأنتم ما تَصْنعون؟ مَن يُجيرُكم وأنتم كافرونَ من عذابِ النار؟ لا بدّ لكم منه، يعني: إنكم تَطْلبون لنا الهلاكَ الذي هو استعجالٌ للفوزِ والسَّعادة، وأنتم في أمرٍ هو الهلاكُ الذي لا هَلاكَ بعده، وأنتم غافلونَ لا تَطْلبون الخلاصَ منه.

أو إنْ أهلَكَنا اللهُ بالموتِ فمن يُجيرُكم **بعدَ موتِ هداتِكم والآخِذينَ بِحُجَزِكم** من النار؟ وإنْ رحمَنا بالإمهالِ والغلَبةِ عليكم وقَتْلِكم فمن يُجيركم؛ ....

قَوْلُه: (**والإدالةِ للإسلام**)، الجوهري: «الإدالةُ: الغَلَبة، اللهمّ أَدِلْني على فلانٍ وانْصُرني عليه». واعْلَمْ أنَّ قولَه تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾، جزاءٌ للشَّرطِ على سَبيلِ الاسْتِخبار مَع الإِنْكار، وَذَكَرَ فيه وُجوهاً ثلاثةً، جَعَلَ في الوَجْهَين الأخيرَيْنِ لكلٍّ مِن الإهْلاكِ والإجارة جَزاءً وشَرْطاً على حياله، وفي الأوّلِ جَعَلَ الجزاءَ مُشْتركاً، لأنّه أَخَذَ الزُّبْدةَ مِن المعطوفِ والمعطوفِ عليه في الجَزاء، وجَعَلَهما كالشَّيْءِ الواحِد، وَهُو تَرَبُّصُ إِحدى الحُسْنيَيْنِ مُفَسَّرٌ بِهما أو بالموت، ولذلك أتى في الجوابِ بِقَوْلِه: «فأَنْتم ما تَصْنعون؟». وأمَّا قولُه: «فَمَنْ يُجيرُكم»، فجملةٌ مستأنفةٌ مُبَيِّنةٌ للجواب.

وحاصلُ الوجوهِ الثلاثةِ راجعٌ إلى أَنَّ الهلاكَ والرَّحمةَ في الآية إمّا مؤوّلان بالشَّهادة والنُّصْرة، لأَنَّ الحُسْنيَيْنِ في قولِه تعالى: ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] مُفَسَّرٌ بهما، أو بالموتِ وما يُقابِلُه مِن الإمْهال، أو بالعذابِ ومَا يقابِلُه مِن الرَّحْمة.

قَوْلُه: (**أَوْ إِنْ أَهْلَكنا**)، عَطْفٌ على قوله: «إِمَّا أَنْ نَهْلك».

قَوْلُه: (**بَعْد مَوْتِ هُداتِكم والآخذين بِحُجَزِكم**)، الهُداةُ: جَمعُ الهادي، والمُرادُ به النبيّ ﷺ وأَصْحابُه، وَهُو مُقْتَبَسٌ مِمّا روينا عن البُخاريّ رَحِمه اللهُ، ومُسْلمٍ والتِّرمذي، عَن أَبي هُريرةَ

فإنّ المقتولَ علىٰ أيدينا هالك؟ أو إنْ أهلكَنا اللهُ في الآخرةِ بذنوبِنا ونحنُ مسلمون، فمن يُجيرُ الكافرينَ وهم أولىٰ بالهلاك لكُفرِهم؛ وإنْ رحمَنا بالإيمانِ فَمَنْ يُجيرُ مَن لا إيمانَ له؟

[﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ٢٩]

فإنْ قلتَ: لِمَ أُخِّرَ مفعولُ ﴿ءَامَنَّا﴾ وقُدِّمَ مفعولُ ﴿تَوَكَّلْنَا﴾؟

قلتُ: لِوقوعِ ﴿ءَامَنَّا﴾ تعريضاً بالكافرين حينَ وَردَ عَقيبَ ذِكْرِهم، كأنه قيل: آمنا ولم نَكفرْ كما كَفرْتُم، ثم قال: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ خصوصاً، لـم نتكلْ علىٰ ما أنتم مُتّكلون عليه مِن رجالِكم وأموالِكم.

أنّه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّما مَثَلي وَمَثَـلُ الناسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ ناراً، فلمّا أضاءَت مَا حَوْلَه، جَعَلَ الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ التي تَقَعُ في النّارِ تَقَعُ فيها، فَجَعَلَ يَنْزِعُهنَّ ويَغْلِبْنَه فَيَقْتَحِمْنَ فيها، فأنا آخذٌ بِحُجَزِكم عن النّار، وأنتم تَقْتَحِمون فيها»[1]. الاقْتِحامُ في الشيْءِ: إلقاءُ النَّفْسِ فيه برغبةٍ، والحُجَزُ جَمعُ حُجْزَة، وَهي مَعْقِدُ الإزار، وحُجْزَةُ السَّراويلِ مَعْروفة.

قَوْلُه: (لِوقوعِ ﴿ءَامَنَّا﴾ تَعْريضاً بالكافرين)، يَعْني: كان مِن حَقّ الظّاهِرِ أَنْ يُقال: فَمنْ يُجيرُكم، لأَنَّ الشَّرطَ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ ﴾، فَعَدَلَ إلى المُظْهَرِ إشعاراً بأَنَّ الكُفْرَ هو سَبَبُ الهلاك، وأَنَّ الإيمانَ هُو الوَسيلَةُ في النَّجاة، ثُمَّ جيءَ بقولِه: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ جواباً عَن قَوْلِه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ ﴾ على سبيلِ التّبكيت، أَيْ: هو الرَّحمٰن يجيرنا لأنا آمنا به ولَمْ نَكفُرْ كما كَفرْتُم. ولَـمّا لَـمْ يَكنِ المقصودُ في الإيرادِ نَفْيَ الشِّرْكِ وإثباتَ التَّوْحيد، لأَنَّ الكلامَ في الإِهلاكِ والإِنْجاءِ[2]، جيءَ بقوله: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ على ظاهره.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٣).

(٢) في (ف): «الإجلاء».

[﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ ٣٠]

﴿غَوْرًا﴾ غائراً ذاهباً في الأرض. وعن الكلبي: لا تنالُه الدِّلاء، وهو وَصْفٌ بالمصدرِ كعَدْلٍ ورِضا.

وعن بعضِ **الشُّطّار** أنها تُليتْ عنده فقال: تَجيءُ به الفؤوسُ والمعاوِل، فذهبَ ماءُ عينَيْه؛ نعوذُ بالله من الجَراءةِ علىٰ الله وعلىٰ آياتِه.

عن رسولِ الله ﷺ: «مَن قرأ سُورةَ الملكِ فكأنّما أحيا ليلةَ القَدْر».

وأمّا قولُه: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، فالتَّقديمُ لأنَّ مَقام الخلاصِ والنَّجاةِ يَقْتضي ناجياً وناصراً، وهم كانوا مُتَّكلين على الرِّجالِ والأَمْوال[١]، فقيل: نَحنُ لا نَتَّكِلُ على ما أَنتم مُتَّكِلون[٢] عليه، بَلْ علىٰ الرَّحمٰنِ تَوكَّلنا خصوصاً، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

قَوْلُه: (وعَنْ بعض الشُّطّار)، جمعُ شاطِرٍ، وهو الخبيثُ الذي عَجَّزَ[٣] أهلَه. وفي الحَواشي: أنّه عَنىٰ به مُحَمَّدَ بنَ زكريا المُتَطبِّب[٤]، واللهُ تعالىٰ أعلمُ بصحَّتِه.

تَمّتِ السُّورة

حامِداً لله سُبحانه وتعالى ومُصَلِّياً على رسوله.

* * *

---

(١) في (ف): «والأموات».

(٢) في (ح): «متوكلون».

(٣) في (ف): «حجر».

(٤) هو أبو بكر محمد بن زكريا الرّازي، الطّبيب الشّهير، المتوفّى سنة ٣١١هـ.

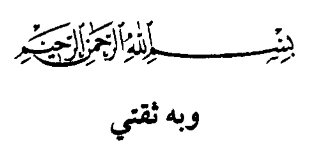
سُورَة نٓ
مَكيّةٌ، وهي اثنتانِ وخمسونَ آيةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ ١]

قُرِئ: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ بالبيانِ والإدغام، وبسكون النونِ وفَتْحِها وكسرِها، كما في ﴿صٓ﴾، ....

سورةُ نٓ
اثنتانِ وخمسون آيةً، مكيّة
إلا ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾ إلى ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ [١٧-٣٣] مدنيّة[1]



وبه ثقتي

قَولُه: (قُرِئ: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾، بالبيانِ والإدغام)، وفي «التَّيسير»: «وَرْشٌ وأبو بكرٍ وابنُ عامرٍ والكسائي، يُدْغمون نونَ الهجاءِ في الواو، ويُبْقونَ الغُنَّة في ﴿يسٓ﴾، وكذلك في ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾. غيرَ أَنَّ عامّةَ أَهلِ الأَداءِ مِن المصريينَ، يأخذون في [﴿نٓ﴾][2] مَذهب وَرْشٍ هناك

---

(١) من قوله: «إلا ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾» إلىٰ هنا، سقط من (ط).

(٢) زيادة من «التيسير»، لم ترد في الأصول الخطية.

....

بالبيان، والباقون بالبيانِ للنّونِ في السورتين»[1]. قالَ الزّجّاج: «والمختارُ إدغامُ النّونِ في الواوِ، كانت النُّونُ[2] ساكنةً أو مُتحرِّكة، لأنّ الذي جاء في التفسير يباعدها من الإسكان والتبيين[3]، لأَنَّ مَن أَسْكنها وبيَّنَها فإنَّما يَجْعلُها حرفَ هجاء، والذي يُدْغِمُها فجائـزٌ أَنْ يُدْغمَها وهي مفتوحة. وجاءَ في التفسير أَنَّ «نُونْ»: الحوتُ الذي دُحِيت عليه سَبعُ الأَرَضِينَ، وجاءَ أَيضاً أَنَّ النّونَ: الدَّواةُ، ولَمْ يَجِئْ في التفسيرِ كما فُسِّرت حروفُ الهجاء»[4]؛ فالإدغامُ، كانت حَرْفَ هجاءٍ أو لم تكنْ جائز، والتَّبيينُ والإسْكانُ لا يجوزُ أَنْ يكونَ فيه إلا حرفُ هجاء.

وقال المَهْدويُّ في «تَعْليل القراءات»[5]: «طسٓ»: مَنْ قَرأَ بإظهارِ النونِ مِنْ هجاءِ «سين» عند الميم، فَحُجَّتُه أَنَّ السّكونَ مُقدَّرٌ في حروفِ التّهجِّي؛ فإذا قُلتَ: « طسٓم»، فالسّكون[6] مُقدرٌ على الطّاءِ وعلى السّينِ وعلى الميم، ولذلك لم يُعْرب. ونَظيرُ ذلك أَسماءُ الأَعدادِ في قَوْلِهم: واحد، اثنان، ثلاثة، أَرْبعة، فيُسكِّنون آخرَ كلِّ اسمٍ مِن هٰذه الأَسماء، وَهُم واصلونَ لَمّا قَدَّروا[7]

---

(١) «التيسير في القراءات السّبع» لأبي عمرو الداني، ص١٨٣.

(٢) في «معاني القرآن» للزجاج: الواو، وصوابُه ما جاء في الأصول الخطية وكتبِ القراءات. انظر: «حُجّة القراءات» لابن زنجلة، ص٧١٧.

(٣) قوله: «لأنّ الذي جاء» إلىٰ هنا، أثبتّه من (ط)، وسقط من (ح) و(ف).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٠٣). ومن لطيف ما ذكره الإمام ابن العربي، أنّ رسم حروف أوائل السور على غير التهجي، فيقال: يس، ق، ن ....، فيه حكمة بديعة، وذلك أنّ كتبة المصحف كتبوها مطلقة، لتبقى تحت حجاب الإخفاء، ولا يقع عليها بمعنى من المعاني المحتملة. انظر: «أحكام القرآن» (٤: ١٨).

(٥) هو «الموضَح في تَعْليل وجوه القراءات» للإمام أبي العباس المهدوي (ت ٤٣٠ هـ)، ولعله شرحُه على كتابه «الهداية في القراءات السبع». انظر: «غاية النهاية في طبقات القراء» (١: ٩٢) لابن الجزري. لم أقف على الكتاب، وعلمتُ أنه كان ميداناً لرسالتين علميتين في المغرب والسودان، وهو غير كتاب «الموضَّح في وجوه القراءات وعللها» للإمام ابن أبي مريم (ت ٥٦٥ هـ).

(٦) في (ف): «فالوقف».

(٧) في (ح) و(ف): «قرؤوا»، وليس بصواب.

....

الوقوفَ علىٰ كلِّ اسمٍ منها، ولذلك جازَ قَطْعُ ألفِ الوَصْلِ مِن قَوْلِهم: اثنان؛ إِذْ هي في حُكْمِ الابْتِداء.

فَعلىٰ ما قُلْنا: تكونُ «النونُ» مِن هجاءِ «سين» في حُكْمِ الانْفِصالِ مِن الميم، وكذلك القولُ[١]: والإدغامُ لا يَصحُّ مَعَ الانْفِصال، وإنَّما يَصِحُّ مَعَ الاتِّصال. ومَن أَدْغَمَ، فإنَّه راعىٰ اللفظ لمّا اتَّصلت النونُ الساكنةُ مِن هجاءِ «سين» بالميم، وكذلك القَوْلُ في «يس» و«نٓ».

وإذا عُلِمَ هذا، فَلِمَ لا يجوزُ أَنْ يُقالَ: إنَّ حُكْمَ التَّبْيِينِ في «نُونْ»، وأنّه اسمٌ للدَّواةِ أو الحوت كما جاءَ في الأثر، حُكْمُ أسماءِ الأعدادِ في إجراءِ الوَصْلِ مُجْرىٰ الوقف؟

وأمّا الإدغامُ فظاهِر. وأمَّا قوله: «ما أدري أَهُو وَضعٌ لغويٌّ أو شَرْعي؟»، فَلَعلّه يَرُدّ ما نُـقِل عن حَبْرِ الأُمّة أنّه قال: «هو الحوتُ الذي علىٰ ظهره الأرض»، وهو قَوْلُ مُجاهِد ومُقاتِل والسّدّي والكَلْبي، وقالَ الحسنُ وقَتادةُ والضَّحّاكُ: «هو الدَّواة»، رَواه مُحْيي السُّنة في «المعالم»[٢]. هذا وقد مَرَّ في الفواتِح أَنَّ «صاد» و«قاف» و«نون» أسماءٌ للسّورِ ويَتأتّى فيها الإعْراب[٣].

وقال أيضاً: «إنَّ مثلَ «نُونَ»[٤] نَصبٌ وليس بِفَتْح، وإنَّما لم يَصْحَبْهُ التنوينُ لامتناعِ الصَّرْف، وانتصابُها بفعلٍ مُضْمر»[٥]، أي: اذكرْ نونَ وأُقسِم بالقلم. وقال: «الجرُّ أيضاً جائزٌ»[٦]

---

(١) من قوله: «فَحُجَّتُه أَنَّ السّكونَ مُقدَّرٌ في حروفِ التّهجّي» إلىٰ هنا، سقط من (ط).

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٨: ١٨٥، ١٨٦)، بتصرّفٍ ملحوظ.

(٣) انظر: «الكشاف» (٢: ١٤).

(٤) روي عن عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩ هـ) أنه قرأ: نُونَ والقلم. انظر: «إعراب القرآن» لابن النحاس، (٥: ٣).

(٥) «الكشاف» (٢: ١٨).

(٦) في قراءةِ مَن قرأ: «نونِ والقلم» بالجر. انظر: «إعراب القرآن» لابن النحاس (٥: ٣).

والمرادُ هٰذا الحرفُ من **حروفِ المعجم**. وأمّا قولهم: هو الدواةُ، فما أدري أهو وَضْعٌ لغويٌّ أم شرعي؟ ولا يَخلو إذا كان اسماً للدّواةِ من أن يكون جنساً أو عَلَماً، فإنْ كانَ جنساً **فأينَ الإعرابُ** والتنوين؟ وإنّ كان عَلَماً فأينَ الإعراب؟ وأيُّهما كانَ فلا بدَّ له من موقعٍ في تأليفِ الكلام.

فإن قلتَ: هو مُقسَمٌ به، وَجَبَ إن كان جنساً أن تَـجُرَّه وتُنوِّنَه، ويكون القَسَمُ بدواةٍ منكرةٍ مجهولة، كأنه قيل: ودَواةٍ والقلَم. وإنْ كانَ عَلَماً أنْ تَصْرِفَه وتَجرَّه، أو لا تَصْرِفه وتَفتحَه للعلميّةِ والتأنيث. وكذلك التفسيرُ بالحوت: إما أن يُرادَ نونٌ من النِّينان، أو يُجْعلَ عَلَماً لليَهَموتِ الذي يَزْعُمون، والتفسيرُ باللوحِ من نورٍ أو ذَهبٍ، والنهرِ في الجنةِ نَحوُ ذلك. وأَقسمَ بالقلمِ: تعظيماً له، **لِما في خَلْقِه وتَسويتِهِ مِن الدلالةِ علىٰ الحكمةِ العظيمة**،

بإضمارِ باءِ القَسَميّة[١]، لا بحذفِها»[٢]. فعلىٰ التَّبيينِ والإدْغامِ، لإجراءِ الوَصْلِ مَجْرى الوَقْفِ كما مَرَّ آنفاً.

قَولُه: (**مِن حروف المُعْجم**)، قيل: المُعجمُ هاهنا: مَصْدر، أيْ: حروفُ الإعْجام، يَعْني: حروفَ إزالةِ العُجْمة، يُقالُ: أَعْجَمَ الحرفَ، أيْ: أزال عُجْمتَه وأَبان.

قَولُه: (**فأَينَ الإعْراب**)، قيل: هذا تقسيمٌ وليس بسؤال. والمعنىٰ بقوله: «في تأليفِ الكلام»، أَنَّ وَضْعَ الدَّواةِ مَوْضِعَ ﴿نٓ﴾، يَنْبغي أنْ يكونَ صحيحاً فيما يَرْجعُ إلى التأليف، وليس كذلك على ما تبَيَّن. قُلتُ: قَوْلُه: «والمُراد هذا الحرفُ من حروف المُعْجم»، يَرُدُّ قولَهم: هذا تَقْسيم.

قَوْلُه: (**لِما في خَلْقِه وتَسْويتِه مِن الدِّلالةِ على الحكمةِ العظيمة**)، قال الإمامُ: «وفيه قَوْلان:

---

(١) في (ح): «أو القسمية»، وفي (ف): «باء والقسيمة».

(٢) «الكشاف» (٢: ٢٢) بتصرف.

ولِما فيه مِن المنافعِ والفوائدِ التي لا يُحيطُ بها الوَصْف. ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وما يَكْتبُ مَن كَتَبَ، وقيل: ما يَسْطُرُه الحَفَظَةُ، و«ما» موصولةٌ أو مَصْدرية، ويجوزُ أن يُرادَ بالقلمِ أصحابُه، فيكونُ الضميرُ في ﴿يَسْطُرُونَ﴾ لهم، كأنه قيل: وأصحابِ القلمِ ومَسْطوراتِهم، أو سَطْرِهم، ويُرادُ بهم كلُّ مَنْ يَسْطُر، أو الحَفَظَة.

[﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ٢-٣]

فإنْ قلتَ: بِمَ يتعلقُ الباءُ في ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وما محلُّه؟

قلتُ: يَتَعلقُ بـ«مجنون» منفيّاً، كما يَتَعلقُ بعاقلٍ مُثبَتاً في قولك: أنتَ بنعمةِ الله عاقِل، مُستوياً في ذلك الإثباتُ والنفيُ ....

أَحدُهما: أنَّ المُقْسَم به هو هذا الجنسُ، وهو واقعٌ علىٰ كلّ قَلَمٍ يَكتبُ في السَّماءِ والأرض[1]، قالَ تعالىٰ: ﴿الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤-٥]، فَمَنَّ بتَيسيرِ الكتابةِ بالقَلَم، كما مَنَّ بالنُّطْقِ فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣-٤]. وَوَجْهُ الانْتِفاعِ به أنَّه يُـنْزِلُ الغائبَ مَنْزلةَ الـمُخاطَب، فيتمكَّنُ الـمرءُ مِن تعريفِ البعيدِ به ما يتمكَّنُ باللسانِ مِنْ تعريف القريب[2]. والثاني: هو القلمُ المعهودُ الذي جاءَ في الخبر: «أوّلُ ما خَلَقَ اللهُ القَلَم»[3][4].

وقلتُ: ويُؤيِّدُ الأولَ قولُه: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، قالَ الراغب: «أَصلُ القَلْم: القَصُّ مِن الشيءِ الصُّلْب، كالظُّفْرِ وكَعْبِ الرُّمحِ والقَصَب، ويقالُ للمقلوم: قِلْم، كما يُقال للمنقوض: نِقْض.

---

(١) وفي «مفاتيح الغيب»: «يكتب به من في السماء ومن في الأرض».

(٢) في الأصول الخطية: «البعيد».

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣١٩) وأبو داود (٤٧٠٢)، من حديث عُبادة بن الصامتِ رضي الله عنه.

(٤) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ٦٩).

استواءَهما في قولِك: ضَرَبَ زيدٌ عمراً، وما ضربَ زيدٌ عمراً: **تُعمِلُ الفعلَ مُثبَتاً ومنفياً** إعمالاً واحداً؛ ومحلُّه النصبُ علىٰ الحال، كأنه قال: **ما أنتَ بمجنونٍ مُنعماً عليك بذلك**؛ ولم تَمنعِ الباءُ أن يَعْمَلَ «مجنون» فيما قبلَه، لأنها زائدةٌ لتأكيدِ النفي. والمعنىٰ: استبعادُ ما كان يَنسبُه إليه كُفّارُ مَكّةَ عَداوةً وحَسداً، ....

وخصَّ ذلك بما يُكتبُ به وبالقَدَح الذي يُضْرَب به، وجَمعُه أقلام، قال تعالىٰ: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، وقالَ تعالىٰ: ﴿يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ [آل عمران: ٤٤]، أيْ أقداحَهم[١]. وقَوْلُه تعالىٰ: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤]، تَنْبيهٌ لِنعمتِه على الإنسانِ بما أفاده مِن الكِتابه»[٢].

قولُه: (تُعمِلَ الفعلَ مُثْبَتًا ومَنفيًا)، قال الزَّجاج: ﴿أَنتَ﴾ اسمُ ﴿مَآ﴾، و﴿بِمَجْنُونٍ﴾ الخبر، و﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ مَوْصولٌ بمعنىٰ النَّفْي. المعنىٰ: انتفىٰ عنك الجنونُ بنعمةِ ربِّك، كما تقولُ: أنت بنعمةِ الله فَهِم، وما أنت بنعمته بجاهِل. وهذا جوابٌ لقولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]»[٣].

قولُه: (ما أَنت بمجنونٍ مُنْعماً عليك بذلك)، أيْ: بالسَّلامة، أَيْ: مُنْعماً عليك بنفي الجُنون. ولَوْ جُعِل مُطْلَقاً بأَنْ يُقال: ما أَنت بمجنونٍ مُنْعماً عليك بالنبوّةِ والفَهْم، وكمالِ[٤] العَقْل وسائرِ ما أَنْعَمَ عليك مِن الفضائل؛ لَجاز، وهذا جوابُ القَسَم. وعلى هذا: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ كان صفةً لـ«مجنون»، فَقُدِّمَ وصُيِّر حالاً.

وقال مُحْيي السُّنة: «إنّك لا تكونُ مجنوناً، وقَد أنعمَ اللهُ عليك بالنُّبوّة والحِكْمة، وقيل: بِعِصْمة ربِّك. وقيل: هو كما يُقالُ: وما أَنت بمجنونٍ والحمدُ لله. وقيل: معناه: ما أَنت بمجنونٍ

(١) في (ح): «قِداحَهم».
(٢) «مفردات القرآن» ص ٦٨٣.
(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٠٤).
(٤) في (ح): «أو كمال».

وأنه من إنعامِ الله عليه بِحَصافةِ العقلِ والشهامةِ التي يَقْتضيها التأهيلُ للنبوّة، بمنزِل.

﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ علىٰ احتمالِ ذلك وإساغةِ الغصّةِ فيه والصبرِ عليه ﴿لَأَجْرًا﴾ لثواباً ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غيرَ مقطوع كقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، أو غيرَ ممنونٍ عليك به، لأنّه ثوابٌ تَستوجبُه علىٰ عملِك، وليسَ بتفضّلٍ ابتداءً؛ وإنما تُمَنُّ الفواضلُ لا الأجورُ علىٰ الأعمال.

والنّعمةُ لربّك، كقولِهم: سُبْحانك اللهمَّ وبحمدك، أي: والحمدُ لك»[١]. ويمكن أن يُقال: إنَّ الباءَ قَسَميّة، والجملة مُعْترضة.

قولُه: (والشّهامة)، الجوهريُّ: «شَهُمَ الرجُلُ بالضَّمِّ شَهامة، فهو شَهْمٌ، أي: جَلْدٌ ذكيّ الفؤاد».

قولُه: (لأنّه ثوابٌ تَستَوجِبُه على عملك، وليس بتفضّلٍ ابتداءً)، الانتصاف: «ما يَرى رسولُ الله ﷺ هذا التفسير، حيثُ قال: «لن يَدخلَ الجنّةَ أحدٌ بعمله»، قالوا: يا رسولَ الله، ولا أنت؟ قال: «ولا أنا، إلّا أنْ يتغمّدني الله برحمةٍ منه وفضل»، وهذا مِن سوءِ[٢] الأدب»[٣].

وقلتُ: المرادُ مِن قولِه: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: غيرُ ممنونٍ عليك لأنّي كريمٌ، ومِن شيمةِ الأكارمِ أنْ لا يَمنّوا على إنعامِهم: قال:

سَأشكُرُ عَمراً إنْ تَراخت مَنيّتي ... أياديَ لم تُمْنَنْ وإنْ هي جَلَّتِ[٤]

وأنشَدَ المصنِّفُ رحمه اللهُ تعالىٰ لنفسه:

---

(١) «معالم التنزيل» (٨: ١٨٧).

(٢) في (ف): «حُسْن».

(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٥٨٥)، والحديث سيذكره الطيبي بعد قليل، وثمة تخريجه.

(٤) يُنسَبُ لأبي الأسود الدؤلي، انظر: «ديوانه» ص ٣٨٨.

[﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ٤]

اسْتَعظمَ خُلُقَه لِفَرْطِ احتمالِه المُمِضّاتِ من قومِه وحُسْنِ مخالفتِه ومداراتِه لهم. وقيل: هو الخُلُقُ الذي أمرَه اللهُ تعالىٰ به في قولِه تعالىٰ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وعن عائشة رضي الله عنها: أن سعدَ بنَ هشام سألـها عن خُلُقِ رسولِ الله ﷺ فقالتْ: «كان خُلُقُه القرآن، ألستَ تَقرأُ القرآنَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾»؟

وإنَّ امرأً أَسْدىٰ إليَّ صـنيعةً وذكَّرَنيهـا مَـرَّةً لَبخيـلُ[1]

وفي «نوابغ الكَلِم»[2]: «صنوانِ: مَن مَنَحَ سائلَه ومَنَّ، ومَنْ منعَ نائله وَضَنَّ». وفيها: «طَعْم الآلاء أحلىٰ مِن المَنّ، وهو أَمَرُّ مِن الألاء مَع الـمَنّ».

وأمّا الحديثُ الذي أورده صاحبُ «الانتصاف»، فَرويناه عن البخاري ومُسْلم، عن أبي هريرة وجابرٍ، قالا: قال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسَدِّدوا، واعلموا أنّه لَن يَنْجوَ منكم أحدٌ بعمله»، قالوا: ولا أنت؟ قال: «ولا أنا، إلاّ أنْ يتغمّدني الله برحمته»[3]، أي: إلا أن يَسْترني اللهُ بها؛ مأخوذٌ مِن غِمْد السَّيف.

قولُه: (المُمِضّات)، الجوهري: «أَمَضَّني الجُرْحُ إِمْضاضاً: إذا أَوْجَعك».

قولُه: (قالت: كان خُلُقُه القرآن)، الحديث مِن رواية مُسْلِم وأبي داود والإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ والدّارميّ والنَّسائي وابنِ ماجه، عَن سعد بن هشام: قُلْتُ لعائشة رَضِي الله عنها: يا أمَّ المؤمنين، أَنبئيني عَن خُلُقِ رسولِ الله ﷺ؟ قالت: أَلَسْتَ تَقْرأُ القرآنَ؟ قلتُ: بلى. قالت: فإنَّ

---

(١) لـم أهتدِ إلىٰ قائله، وليس للزمخشري كما زَعم الطِّيبي، انظر: «الكشاف» (٣: ٥١٨).

(٢) في (ح) و(ف): «توابع الكَلِم»، وهو تحريف، و«نوابغ الكلم» كتاب للزمخشري، ويُقال فيه أيضاً: «الكَلِمُ النَّوابغ». و«الآلاء» الثانية: شجر حسن المنظر، مرّ الطعم، و«الـمنّ» الأولى: العسل.

(٣) البخاري (٦٤٦٧) ومسلم (٢٨١٨).

[﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ ٥-٦]

﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ المجنون، لأنه فُتِن: أي مُحِنَ بالجنون. أو لأنّ العربَ يَزْعمونَ أنه مِن تخييلِ الجِنّ، ....

خُلُقَ نَبيّ الله كانَ القرآن[١]. الحديث، وليس فيه ذِكْرُ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

قالَ شيخُنا شيخُ الإسلام في «العوارف»: «قولُها رَضِي الله عنها: «كانَ خُلقُه القرآنَ»، فيه سِرٌّ كبيرٌ غامِض؛ وذلك أَنَّ النفوسَ مَجْبولةٌ على طبائعَ وغرائزَ مِن البَهيميّة والسَّبُعِيّة والشَّيْطنة، واللهُ تعالىٰ بعظيمِ عنايتِه، نَزَعَ نَصيبَ الشيطانِ منه صلواتُ الله عليه، لقولِه تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، وَلحديثِ انْشراحِ الصَّدْر، وبَعْد هذا النَّزْع، بَقيت للنَّفسِ الزَّكيّة النَّبويّةِ بقايا صفاتِ البشريّةِ رحمةً للخَلْق، فاستمدَّت البقايا مِن الصّفاتِ بظهورها[٢] فيه صلوات الله عليه، بتنزيلِ الآياتِ المحكماتِ بإزائِها لقَمعِها، تأديباً مِن الله رحمةً له خاصّةً وللأُمّة عامّة، مُوزِّعاً نُزولَ الآياتِ على الأيّام والأوقاتِ عندَ ظهورِ الصِّفات، قال اللهُ تعالىٰ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]، فلمّا تـحرَّكتِ النَّفسُ الشَّريفةُ عند كَسْرِ رَباعيَتِه وقال: «كيف يُفْلحُ قومٌ خَضَبوا[٣] وَجْهَ نَبيِّهم»، أنزل اللهُ تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فاكتسىٰ القلبُ لباسَ الاصطبارِ، فلمّا تَوزَّعتِ الآياتُ علىٰ ظهورِ الصِّفاتِ، صَفَتِ[٤] الأَخلاقُ النبويّةُ بالقرآن، ليكونَ خُلقُه القرآنَ؛ ولذا وَرَدَ: «إنّما أُنسّىٰ لِأَسُنَّ»[٥]، تأديباً لنفوسِ الأمّةِ وتَهْذيباً ورَحْمةً»[٦].

---

(١) مِن حديث طويل، أخرجه مسلم (٧٤٦)، وأبو داود (١٣٤٢)، والإمام أحمد (٢٤٢٦٩)، والدارمي (١٥١٦)، والنسائي (٤٢٤)، وابن ماجه (٢٣٣٣).

(٢) في (ح): «لظهورها».

(٣) في (ح): «حَصَبوا».

(٤) لعله جوابُ «لمّا» في الموضعين السابقين.

(٥) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (٢٦٤)، وفي رواية يحيى الليثي: «إنّي لأنسىٰ، أو أُنَسّىٰ لِأَسُنَّ».

(٦) انظر: «عوارف المعارف» (٢: ٥٦ - ٥٨) بتصرّف.

وهم الفُتّانُ للفُتّاكِ منهم، والباءُ مزيدة. أو المفتونُ مصدرٌ كالمعقولِ والمَجْلود، أي: بأيِّكمُ الجُنون، أو بأيِّ الفريقَيْنِ منكم المجنون، أبفريقِ المؤمنينَ أم بفريقِ الكافرين؟ أي: في أيِّهما يوجدُ مَن يَستحقُّ هٰذا الاسم؟ وهو تعريضٌ بأبي جهلِ بنِ هشامٍ والوليدِ بنِ المغيرةِ وأضرابِهما، وهٰذا كقولِه تعالىٰ: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦].

[﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ ٧-٩]

قولُه: (للفُتّاك منهم)، متعلّقٌ بقولٍ مضمر، أي: المفتون المجنون، لأنَّ العربَ يَزْعمونَ أنّ الجنونَ مِن تَخْييلِ بَعْضِ الجِنّ، وَهُم الفُتّانُ، يقولون: الفُتّانُ: للفُتّاك منهم.

قولُه: (والباءُ مَزيدة)، قالَ الزَّجاجُ عن أبي عبيدة: «إنَّ الباءَ مزيدةٌ، أي: أيُّكم المفتون؟ ومثلُه:

نَحنُ بنو جَعْـدةَ أَصـحابُ الفَلَـجْ ... نَضْربُ بالسَّيفِ ونَرْجو بالفَرَجْ[1]

أيْ: نَرْجو الفَرَجَ، وليس كذلك؛ بل معناه: نَرجو كَشْفَ ما نحنُ فيه بالفَرَج، أو نَرْجو النَّصرَ[2] بالفَرَج»[3]، ثُمَّ ذَكَرَ الوجهَيْنِ الآخرين[4].

قولُه: (أَيْ: في أيِّهما يُوجَد)، قال صاحبُ «التَّقْريب»: فالباءُ بمعنىٰ «في».

---

(١) للنابغة الجعدي، انظر: «ديوانه» (ص ٤٨)، وفيه شاهدٌ على زيادة الباء مع المفعول به، انظر: «مغني اللبيب» (ص ١٤٧)، أراد: ونرجو الفرجَ، قال ابن العربي في «أحكام القرآن» (٣: ٢٧٧): «وهذا مما لا يُحتاج اليه في سبيل العربية، لأن حَمْل المعنى على الفعل أولى من حملِه على الحرف».

(٢) في (ف): «النُّصْرة».

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٠٤-٢٠٥).

(٤) الأول: المفتونُ بمعنىٰ الفُتون، كما تقولُ العربُ: ليس لهذا معقول، أي عقل. والثاني: بأي الفريقين منكم المجنون، بالفرقةِ التي أنتَ فيها، أو الفرقة التي فيها أبو جهل والوليد. انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢٠٥).

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ بالمجانينِ علىٰ الحقيقة، وَهمُ الذينَ ضَلُّوا عن سبيلِه، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ بالعقلاءِ وَهمُ المهتدون، أو يكونُ وعيداً ووعداً، وأنه أعلمُ بجزاءِ الفريقَيْنِ.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ تهييجٌ وإلهابٌ للتصميمِ علىٰ مُعاصَاتِهِم، وكانوا قد أرادوه علىٰ أن يعبدَ اللهَ مُدةً، وآلهتَهم مُدةً، وَيكفُّوا عنه غوائلَهم. ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾ لو تَلينُ وتُصانعُ ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾.

فإن قلتَ: لِمَ رُفعَ ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ ولم يُنصبْ بإضمارِ «أن» وهو جوابُ التمني؟

قلتُ: قد عُدلَ به إلىٰ طريقٍ آخر، وهو أنْ جُعلَ خبرَ مبتدإٍ محذوف، أي: فهم يُدْهنون، كقولِه تعالىٰ: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ﴾ [الجن: ١٣] علىٰ معنىٰ: وَدّوا لو تدهنُ

قولُه: (أَوْ يكونُ وعيداً وَوَعْداً)، عَطْفٌ على قولِه: «إنَّ ربَّك هو أعلمُ[1] بالمجانين على الحقيقة». فعلىٰ الأولِ: مُجرىً على الاسْتِدراجِ وإرْخاءِ العِنان؛ لأن قوله ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ واردٌ عليه، لأنَّ المسلمين كانوا يَعْلمون أن المفْتونين كانوا أضْدادهم، نحو قولِه تعالىٰ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤]. المعنىٰ: لا أنتم أيُّها المؤمنون تَدْرون ولا الكَفَرةُ، مَنْ ضَلَّ عَنْ سبيله ومَن اهْتدىٰ، واللهُ على الحقيقةِ هو أَعْلم. وعلىٰ الثاني: إنَّ اللهَ يَعْلَمُ أحوالَ المؤمنين وما هم عليه مِن الهُدىٰ، فيُثيبُهم بذلك، ويَعْلمُ كُفر المُعاندين وضَلالَهم فيعاقبهم عليه.

قولَه: (مُعاصاتِهم)، وهي نَقيضُ المُطاوعة. الجوهري: «يُقال: عَصاهُ يَعْصيه عصياناً ومَعْصية، وعاصاه[2] أيضاً؛ مثل: عَصاه».

قولُه: (﴿فَلَا يَخَافُ﴾)، أَيْ: فهو لا يَخاف، ولهذا لم يُجزم.

---

(١) بعدها في (ف): «بمن ضَلَّ عن سبيله»، زيادة على عبارة «الكشاف».

(٢) في (ح): «عَصاه».

فهم يُدْهنون حينئذٍ، أو وَدّوا إِدْهانَك فهمُ الآن يُدْهِنون؛ لطمعِهم في إِدْهانِك؛ قال سيبويه: وزَعمَ هٰارونُ أنها في بعضِ المصاحفِ: وَدّوا لو تُدهنُ فيُدْهنوا.

[﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ ١٠-١٦]

﴿حَلَّافٍ﴾ كثيرِ الحَلْف في الحقِّ والباطل، وكفىٰ به مَزْجرةً لمن اعتادَ الحَلِف، ومثلُه قولُه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

﴿مَّهِينٍ﴾: من المَهانة وهي القِلّةُ والحَقارة، يريدُ القلةَ في الرأي والتمييز، أو أرادَ الكذّابَ لأنه حقيرٌ عندَ الناس. ﴿هَمَّازٍ﴾ عيّابٍ طَعّان؛ وعن الحسن: يَلْوي شِدْقيهِ في أقفيةِ الناس. ﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ مُضَرِّبٍ نَقّالٍ للحديثِ من قومٍ إلىٰ قومٍ علىٰ وجهِ السّعايةِ والإفسادِ بينَهم. ....

قولُه: (لمِن اعتادَ الحَلِفَ)، أيْ: كفىٰ بكثرةِ الحَلفِ سوءَ خُلُقٍ وعَيْباً، أنّه قَدَّمه علىٰ جميع العيوب، وفيه تَعْظيمٌ للحَلف، وبيانُ أنّها أَقْبحُ مَعايبه وأَعْظمُها.

قوله: (مُضَرِّبٍ). أي: مُبالِغٍ أَوْ كثيرِ الضَّرْبِ بين الناس، مُشَتِّتٍ لِشَمْلِهم مُفَرِّقٍ[١] لجمْعِهم. **الأساس**: «ومِن المجاز: ضَرَبَ في الأرض، وفي سبيلِ الله، وضَرَبَ الدَّهْرُ بيننا: فَرَّقَنا، قالَ ذو الرُّمَّة:

فإنْ تَضْرِبِ الأَيّامُ يا مَيُّ بَيْننا ... فلا ناشِرٌ[٢] سِرّاً ولا مُتغيِّرُ[١]

---

(١) في (ف): «ممزق».
(٢) في (ف): «ناشئاً».

والنميمُ والنميمةُ: السِّعاية، وأنشدني بعضُ العرب:

تَشَبَّبي تَشَبُّبَ النَّمِيمَـه تَمشي بها زَهْرا إلىٰ تَميمَهْ

﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ بخيل، والخيرُ: المال. أو ﴿مَنَّاعٍ﴾ أهلَه الخيرَ وهو الإسلام، ....

وتقول: لَحا اللهُ زماناً ضَرَبَ ضَرَبانَه، حَتّىٰ سَلَّطَ علينا ظَرِبانَه[٢]، وجاءَ فلانٌ يَضْربُ بِشَرّ: يُسْرِع».

قَوْلُه: (تَشَبَّبي تَشَبُّبَ النَّمِيمة)، يُخاطِبُ النّار، أَيْ: الْتَهِبي التهابَ النَّميمة. زَهْرا وتَميمة: جارتان. وهذا مِن مُلَح العرب[٣]، أَيْ: تَوَقَّدي تَوَقُّدَ النَّميمة، وهو فِعلٌ لازمٌ: شَبَّ النّارَ فتَشَبَّبَت.

الراغبُ: «النَّمُّ: إظهارُ الحديثِ بالوِشاية. وأَصلُ النَّميمةِ الهمسُ والحركةُ الخفيَّة[٤]، ومنه: أَسْكَتَ اللهُ نامَّتَه، أَيْ ما يَنِمّ عليه مِن حَرَكتِه»[٥].

قوله: (﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: بخيلٍ)، الراغبُ: «الـمَنْعُ: يقالُ في ضِدّ العَطِيّة، يقالُ: رجلٌ مانعٌ ومَنّاع، أَيْ: بخيل، قال تعالىٰ: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧]، وقال: ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾. وقَدْ يُقالُ في الحِماية، ومنه: مكانٌ مَنيعٌ وقد مَنُعَ ، وفلانٌ ذو مَنَعَة، أَيْ عَزيزٌ مُمتَنِعٌ علىٰ مَن يَرومُه، وقَـوْلُه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ٧]، أَيْ ما حَماك؟»[٦]

(١) انظر: «ديوانه» ص١٠٩.

(٢) ضَرَبَ الدهرُ ضَرَبانَه: قضى، والظَّرِبان: دُويبّة كالهرّة مُنْتِنةِ الريح. انظر: «الصحاح» (ضرب ١: ١٦٨، ظرب ١: ١٧٤).

(٣) في (ف): «الحرب».

(٤) في «المفردات»: «الخفيفة».

(٥) «مفردات القرآن» ص٨٢٥.

(٦) في «المفردات» (مادة: مَنع): حَمَلَك.

فَذُكرَ الممنوعُ منه دونَ الممنوع، كأنه قال: مناعٍ من الخير. قيل: هُو الوليدُ بنُ المغيرةِ المخزومي، كان موسِراً، وكان له عَشَرةٌ مِن البنين، فكانَ يقولُ لهم ولِلُحْمتِه: مَن أسلمَ منكم مَنَعتُه رِفْدي، عن ابنِ عباس. وعنه: أنه أبو جَهل، وعن مجاهد: الأسودُ بنُ عبدِ يَغوث، وعن السُّديّ: الأخنسُ بنُ شَريق، أصلُه في ثَقيفٍ وعِدادُه في زُهْرة، ولذلك قيل: زَنيم. ﴿مُعْتَدٍ﴾ مجاوزٍ في الظلمِ حَدَّه. ﴿أَثِيمٍ﴾ كثيرِ الآثام. ﴿عُتُلٍّ﴾ غليظٍ جافٍ؛ من عَتلَه إذا قادَه بعنفٍ وغِلْظة. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعدَ ما عُدّ لهُ مِن المثالبِ والنقائِصِ ﴿زَنِيمٍ﴾ دَعِيٌّ، قال حسان:

وأنتَ زَنيمٌ نِيطَ في آلِ هاشمٍ كما نِيطَ خَلْفَ الراكِبِ القَدَحُ الفَرْدُ

وقيل: ما الذي صَدَّك وحَمَلك على تَرْكِ ذلك»(١).

قولُه: (فَذُكرَ الممنوعُ منه)، أي: الخيرُ، (دون الممنوعِ) أي: الأهل؛ وذلك أنَّ القَصْدَ ذَمُّه، وأنَّه مِمَّن يَمْنعُ الخير، وليس القَصْدُ أنَّ الممنوعَ مَنْ هو. نَحْوُ: شُتِمَ الأميرُ، وقُطعَ اللّصّ. وقولُه تعالىٰ: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤]، وقَدْ سَبَقَ بيانُه. والفَرْقُ أنَّ المنّاعَ في الوَجْهِ الأوّلِ يُحِبُّ الخَيْرَ، أي المال، ويَمْنعُه مِن النّاس. وفي الثاني يُبْغضُ الخيرَ، أيْ الإسلامَ، ويَمْنَعُ الناسَ منه.

قَوْلُه: (وأَنْتَ زَنيمٌ نِيطَ)، أيْ: مُؤخَّرٌ في آلِ هاشمٍ كما يُؤخِّرُ الرّاكبُ القَدَحَ خَلْفه.

النّهاية: «وفي الحديث: «ولا تجْعلوني كَقَدَحِ الرّاكب»، أيْ: لا تُؤخِّروني في الذِّكْر، لأنَّ الرّاكبَ يُعلِّقُ(٢) قَدَحَه في آخِرِ رَحْلِه عند فراغِه من تَرْحاله(٣) ويَجْعله خَلْفه».

(١) «مفردات القرآن» ص٧٧٩.

(٢) في (ح): «يُؤخّر».

(٣) في الأصول الخطية: «رِحاله»، ولعلَّ الصّوابَ ما أثبتُّه من «النّهاية».

وكانَ الوليدُ دَعِيّاً في قريشٍ ليسَ من سِنْخِهم، ادّعاه أبوه بعدَ ثماني عَشْرةَ مِن مَوْلده. وقيل: بَغَتْ أُمُّه ولم يُعرفْ حتىٰ نَزلتْ هٰذه الآية، جَعلَ جفاءَه ودِعوتَه أشدَّ معايبِهِ، لأنه إذا جَفا وغَلُظَ طبعُه قَسا قلبُه واجترأَ علىٰ كلِّ معصية، ولأن الغالبَ أنّ النطفةَ إذا خَبُثَتْ خَبُثَ الناشيءُ منها، ومِن ثَمَّ قالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا يَدخلُ الجنةَ وَلَدُ الزِّنىٰ ولا وَلدُه ولا وَلدُ وَلَدِه**».

قولُه: (**وكانَ الوليدُ دَعِيّاً في قريش**)، الدَّعِيُّ: الذي يُنْسَبُ إلى غَيرِ أَبيه وعَشيرتِه، وقد كانوا يَفْعلونه. «سِنْخِهم»: أصلِهم.

قَوْلُه: (**لا يَدْخلُ الجنَّةَ وَلَدُ الزِّنىٰ**)، هٰذا أَشَدُّ وعيداً مِن لو قيل: يَدْخلُ النارَ؛ لأَنَّه يُرَجّي منها الخَلاص، فَهُو تَغْليظٌ وتَشْديدٌ علىٰ وَلَدِ الزِّنْية، تَعْريضاً للزّاني لئلّا يُوَرِّط في السِّفاح، فيكونُ سَبَباً لشَقاوةِ نَسَمةِ تَزَنِّيه.

ومِمّا يُؤْذِنُ أَنّه تَغْليظٌ وتَهْديد: ما رُوِّينا عن الدّارميّ، عن عبد الله بن عمرو، عن النبيّ ﷺ، قال: «لا يَدْخُلُ الجنَّة عاقٌّ ولا قَمّارٌ، ولا مَنّانٌ ولا مُدْمِنُ خَمْر»[١].

وفي روايةٍ أُخرىٰ للدارمي: «ولا وَلَدُ زِنْية»، بَدَل «قَمّار»[٢]؛ حيث سَلَك وَلَدَ الزِّنْيةِ في قَرْنِ العاقِّ والمنّان، ولا ارْتيابَ أَنّهما ليسا مِنْ زُمْرةِ مَنْ لا يَدْخلُ الجنَّة أبداً.

وعن ابنِ ماجه، عن مَيْمونة، أَنَّ رسولَ الله ﷺ، سُئِل عَن وَلَد الزّنا، فقال: «نَعْلانِ[٣] أُجاهِدُ بهما خيرٌ مِن أَنْ أُعْتِقَ وَلَدَ الزِّنا»[٤]. على أَنّه يَجوزُ عِتْقُه؛ رُوِّينا عَنْ مالك، عن

---

(١) «سُنن الدّارمي» (٢٠٩٤).

(٢) المصدر السابق (٢٠٩٣).

(٣) في (ح): «نَعْلين».

(٤) «سُنن ابن ماجه» (٢٥٣١).

و﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ نظيرُ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧].

وقرأ الحسنُ: «عُتُلٌّ» رفعاً علىٰ الذمِّ، وهٰذه القراءةُ تَقويةٌ لما يَدلُّ عليه بعد ذلك.

والزَّنيم: مِن الزَّنَمةِ وهي الـهَنَـةُ مِن جِلْد الماعِزةِ تُقطَعُ فتخلّىٰ مُعلَّقةً في حَلْقِها، لأنه زيادةٌ مُعلَّقةٌ بغيرِ أهلِه ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾ مُتعلّقٌ بقولِه ﴿وَلَا تُطِعْ﴾، يَعْني: ولا تُطعْه معَ هٰذهِ المثالب، لأَنْ كان ذا مال، أي: ليسارِه وحظِّه مِن الدنيا. ....

أبي هريرة، أنَّه سُئِلَ عن الرَّجلِ يكونُ عليه رَقَبةٌ، هل يُعْتِقُ فيها ابنَ زنا؟ فقال: نَعَمْ، ذلك يُجْزِئه[1].

قولُه: (و﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ نَظيرُ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧]). يَعْني: لفظة ﴿ذَٰلِكَ﴾ هاهنا للتَّراخي في المَرْتَبة، كـ ﴿ثُمَّ﴾ هناك، ولذلك قال: «جَعَلَ جفاءَه ودِعْوَتَه أَشَدَّ مَعايبه»[2].

قولُه: (﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾ مُتعلِّق بقوله ﴿وَلَا تُطِعْ﴾)، قال صاحبُ «الكَشْف»: «ولا يَـجوزُ أَنْ يتعلَّـقَ بـ ﴿عُتُلٍّ﴾، لأنه قد وُصِف بقوله: ﴿زَنِيمٍ﴾»[3]، وقد قـال سيبويه: هذا ضاربٌ ظريفٌ زيداً: مُـمْتنِع[4]. فإذن، الواجبُ أَنْ تكونَ «اللام» مِن صِلَـةِ مُضْمرٍ في القِراءة بالاستفهام[5] وتَرْكه. المعنىٰ: لِأَنْ كان ذا مالٍ وبنين يَجحدُ وَيُنْكِر ويَكْفر؟!

---

(١) «الموطّأ» (٤: ٢٢٦٤)، والفِقرةُ من قوله: «قولُه: لا يدخلُ الجنّةَ ولدُ الزّنا» إلىٰ هنا، سقطت من (ف).

(٢) نَقل الواحديّ في «الوسيط» (٤: ٣٣٦) عن ابنِ قتيبة الدِّينوري: «ولا نعلمُ أنّ اللهَ وصفَ أحداً، ولا بلغ مِن ذِكرِ عيوبه، ما بلغَه مِن ذكرِ عيوبِ الوليدِ بنِ المغيرة، لأنه وَصَفَه بالحلفِ والمهانةِ والغيبةِ للناس، والمشي بالنمائم، والبخلِ والظلمِ والإثمِ والجفاءِ والدِّعوة». والدِّعوة بالكسر: ادّعاءُ الولد الدَّعيِّ غيرَ أبيه.

(٣) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٣٧٤).

(٤) انظر: «الكتاب» (٢: ٢٩). وقد خالفَ الفارسيُّ البصريين؛ إذْ أجازَ أن يتعلق بـ ﴿عُتُلٍّ﴾. انظر: «الدر المصون» (١٠: ٤٠٦).

(٥) تَوجيهُ القراءةِ بالاستفهام: أَتطيعُه لأَنْ كان ذا مالٍ وبنين؟، وتوجيه القراءةِ بالخبر: لا تُطعْه لأن كان ذا مالٍ وبنين. انظر: «حُجّة القراءات» لابن زنجلة، ص٧١٧، ٧١٨.

ويجوزُ أنْ يَتعلقَ بما بعدَه علىٰ معنىٰ: لكونِه مُتموّلاً مستظهِراً بالبنينِ كذّبَ آياتِنا، **ولا يَعملُ فيه** ﴿قَالَ﴾ الذي هوَ جوابُ ﴿إِذَا﴾، لأنّ ما بعدَ الشرطِ **لا يَعملُ** فيما قبله، ولكنْ ما دَلّتْ عليه الجملةُ مِن معنىٰ التكذيب. **وقُرِئ**: «**أَأَنْ كان**» **علىٰ الاستفهام** علىٰ: أَلأَنْ كانَ ذا مالٍ وبنينَ كَذّب؟ أو أَتطيعُه لأَنْ كانَ ذا مال؟

ورَوىٰ الزبيريُ عن نافع: إِنْ كانَ، بالكسرِ والشرطِ للمخاطَب، أي: لا تُطعْ كلَّ حلافٍ شارطاً يَسارَه، لأنه إذا أطاعَ الكافرَ لغناهُ فكأنه اشترطَ في الطاعةِ الغنىٰ، **ونَحوُ صَرْفِ الشرطِ إلىٰ المخاطَبِ صَرْفُ الترجي إليه** في قولِه تعالىٰ: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: ٤٤].

قَوْلُه: (**ولا يَعْملُ فيه**)، أَيْ: في ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ﴾.

قَوْلُه: (**وقُرِئ**: «**أَأَن؟**»[١] **علىٰ الاستفهام**)، أبو بكر وحَمْزة: كذا[٢]، وابنُ عامر: بهمزةٍ ومَدَّة[٣]، والباقون سِوىٰ ابنِ ذَكْوان: بهمزةٍ واحدةٍ علىٰ الخبر.

قَوْلُه: (**ونَحْوُ صَرْفِ الشَّرطِ إلى المُخاطب صَرْفُ التَّرجّي إليه**)، يَعْني: تَعْليقُ الطاعةِ بالمال هاهنا، كالتَّرجّي في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]. ظاهِرُ اللَّفظِ التَّرجّي، والتَّعليقُ للمتكلِّمِ وهو الله تعالىٰ، وفي الحقيقةِ للمخاطَب، وهو مُحمَّدٌ وموسىٰ وهارون، صلواتُ الله عليهم. أَيْ: عامِلاه مُعاملةَ مَنْ لا يَعْلَمُ العاقبةَ يا موسىٰ وهارون، ولا تُطِعْ يا محمّدُ كلَّ حلاّفٍ يَشترطُ[٤] يسارَه. وعَنْ بعضهم: حاصلُ هذا الشَّرطِ، أَنّه نَهْيٌ عَنْ طاعةٍ مَشْروطةٍ لا نَهْيٌ مَشْروط.

وقُلْتُ: الظّاهِرُ أَنَّ هٰذا الشَّرطَ تَعْليل، لأَنَّ مَنْ نُهِيَ أَنْ يُطاعَ، وهو الوليد، كانَ ذا مالٍ

---

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «أأن كان»، لعله من باب الاختصار.

(٢) أي: «أَأَنْ».

(٣) أي: «آنْ».

(٤) في (ح): «بِشَرْطِ».

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ الوَجْهُ أكرمُ موضعٍ في الجسد، والأنفُ أكرمُ موضعٍ مِنَ الوَجْهِ لتقدّمِه له، ولذلك جَعلُوه مكانَ العِزِّ والحَمِية، واشتقّوا منه الأَنَفَة. وقالوا الأَنَفُ في الأَنْف، وحمِىٰ أنفَه، وفلانٌ شامخُ العِرْنين. وقالوا في الذليل: جُدعَ أنفُه، ورَغِمَ أنفُه، فعُبِّـرَ بالوسْمِ علىٰ الخُرطومِ عن غايةِ الإذلالِ والإهانة، لأنّ السّمةَ علىٰ الوجهِ شَينٌ وإذالة، فكيفَ بها علىٰ أكرمِ مَوْضعٍ منه، ولقد وَسَمَ العباسُ أَباعِرَهُ في وجوهِها، فقالَ له رسولُ الله ﷺ: «أكرِموا الوجوه»، فوسَمَها في جواعِرِها، ....

وبنين، كما سَبَقَ في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]؛ قال: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا﴾ مُتعلّقٌ بـ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾[١]. وَقَدْ مَرَّ أَنَّ الشَّرْط كالتَّعليل، ولذلك جَعَلَه حالاً مِن فاعِلِ «لا تُطِعْ» حيث قال: «شارطاً يَسارَه»، وصَرَّحَ بحرفِ التعليل في قَوْلِه: «لِغناه»؛ فَرَجَعَ معنىٰ «إنْ» المكسورةِ إلى[٢] معنىٰ «أَنْ» المفتوحة.

قال القاضي: قُرِئ: «إنْ كان» بالكسر، على أَنَّ شَرْطَ الغنى[٣] في [النَّهْي عن][٤] الطاعة كالتعليل بالفَقْر في النَّهي عَنْ قَتْل الأَوْلاد[٥].

قولُه: (وإذالَة)، أَيْ: إهانة[٦].

قولُه: (في جواعِرها)، الجوهري: «الجاعِرتان: مَوْضعُ الرقمتَيْنِ مِن اسْتِ الحمار، وهو مَضْرِبُ الفَرَسِ بذَنَبِه[٧] على فَخِذَيْه».

---

(١) انظر: «الكشاف» (١٥: ٥٣١).

(٢) قَبْل «إلى» في (ف): «جاءَ مِن النكرة»، وهي عبارةٌ قَلِقة.

(٣) في (ف): «الشَرطَ»: المعنىٰ، وليس بصواب.

(٤) زيادة مِن «أنوار التنزيل» للبيضاوي (٥: ٣٧٠)، يَقْتضيها السياق.

(٥) في قولِه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١].

(٦) في (ف): «إنهاء».

(٧) في (ف): «بيديه».

وفي لفظِ ﴿ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ استخفافٌ به واسْتِهانة. وقيلَ معناهُ: سَنعلّمُه يومَ القيامةِ بعلامةٍ مُشوِّهةٍ يَبينُ بها عن سائرِ الكَفَرَة، كما عادىٰ رسولَ الله ﷺ عَداوةً بانَ بها عنهم.

وقيل: خُطمَ يومَ بدرٍ بالسيفِ فبقيتْ سِمةً علىٰ خُرْطومِه، وقيل: سَنُشهِّرُه بهذه الشتيمةِ في الداريْنِ جميعاً، فلا تَخفىٰ، كما لا تخفىٰ السِّمةُ علىٰ الخرطوم.

وعن النضرِ بنِ شُميل: أنّ الخرطومَ الخمرُ، وأن معناه: سَنحُدُّه علىٰ شُرْبها، وهو تعسّف؛ وقيلَ للخمرِ: الخُرطوم، كما قيلَ لها: السُّلافة، وهي ما سَلفَ مِن عَصيرِ العِنب، أو لأنّها تَطيرُ في الخياشيم. ....

قولُه: (**وفي لَفْظِ ﴿ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ استخفافٌ به**)، لأنه لو قال: علىٰ الأنْف لكان اسْتِهانة، فلمّا قال: على الخُرْطوم، كان أَبْلَغَ[1] في الإِهانة، لأَنَّ الخُرْطومَ لا يكادُ يُسْتَعملُ إلا في أَنْفِ الفيلِ والخِنْزير من بين الدَّوابّ.

قَوْلُه: (**خُطِمَ يومَ بَدْرٍ بالسَّيْف**)، قيلَ: خَطْمُ البَعير: أَنْ تَضَعَ عليه الخِطام.

قَوْلُه: (**أَنَّ الخُرْطومَ الخَمْرُ**)، رُوي عن المُصنِّف: أَنَّهم يَضَعون الرُّطَبَ بعضَه فوق بعضٍ زمانَ القِطاف، فَما خَرَجَ مِن دَسْتِه بدون العَصْرِ، واتُّخِذَ منه خَمْرٌ يُسَمّونه: سُلافة؛ لخروجه أوّلاً، وخُرْطوماً[2]، كأنّه خُرْطوم.

قَوْلُه: (**وأَنّ معناه: سَنَحُدُّه على شُرْبها، وَهُو تَعَسُّف**)، **الانتصاف**: «صدقَ؛ فإنَّ الوليدَ قَتَلَه النبيُّ ﷺ مباشرةً في بَدْر، فَلَمْ يُدْرك زَمَنَ تَحْريم الخَمْر، وَوَعْدُ الله حَقّ»[3].

---

(١) في (ف): «مِن».

(٢) سميت الخمرُ خُرْطوماً، لأنها كما يقولُ الأعلم الشَّنتمري: «أَوّلُ ما تخرج مِن الدَّنّ»، فأَشبهتِ الأنف، لأنه أول ما يبدو من الوجه. انظر: «الدر المصون» (١٠: ٤٠٨).

(٣) وانظر: «الإنصاف» (ق ١٤١) للعراقي.

[﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ * أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ * فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ * قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ * كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ١٧-٣٣]

إنا بَلَوْنا أهلَ مكةَ بالقَحْطِ والجوعِ بدعوةِ رسولِ الله ﷺ عليهم، ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهم قومٌ من أهلِ الصلاةِ كانتْ لأبيهم هٰذه الجنةُ دونَ صنعاءَ بفرسَخيْنِ، فكان يأخذُ منها قوتَ سَنتِه ويَتصدَّقُ بالباقي، وكان يَتركُ للمساكينِ ما أخطأه المِنْجل، وما في أسفلِ الأكداسِ وما أخطأَه القِطَافُ من العنب، وما بقيَ على البساطِ الذي يُبْسطُ تحتَ النخلةِ إذا صُرِمت، فكانَ يجتمعُ لهم شيءٌ كثير، ....

وَقُلتُ: لَمْ يُرِدْ بالتعسُّف إلَّا أنَّ حَمْـلَ ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ علىٰ ذلك المعنىٰ بتكلّفٍ بعيدٌ عَن الذَّوْقِ.

أمّا الوليدُ بنُ المُغيرة، فَمِنَ الخمسةِ المُستهزئين[١]؛ رَوىٰ ابنُ عبّاسٍ أنّهم ماتوا كلُّهم قَبْل بَدْرٍ، وَذَكَره المُصنِّفُ في آخرِ «الحِجْر»[٢]. وأمّا الوليدُ الذي حُدَّ علىٰ الخمرِ، فهو الوليدُ بنُ عُقْبَةَ بنِ أَبي مُعَيط، أخو عُثمان بنِ عَفّان مِن أُمِّه، أَسْلَمَ يوم الفَتْحِ، وولاه عثمانُ الكوفةَ في وِلايتِه، ثُمّ حَدَّه في شُرْبِ الخَمْرِ[٣] وعَزَلَه عنها، ذَكَره صاحبُ «جامع الأُصول»[٤].

---

(١) وهم: الوليدُ، والعاصُ بنُ وائل، والأسودُ بن عبد يغوث، والأسودُ بنُ المطلب، والحارثُ بن الطلاطلة. انظر حديث ابن عباس: «المعجم الكبير» للطبراني (١١٠٥٢)، و«دلائل النبوّة» للبيهقي (٢: ٣١٦).

(٢) انظر: «الكشاف» (٩: ٦٦).

(٣) في (ف): «شُرْبه».

(٤) انظر: «جامع الأصول» (١٢: ٤٤١).

فلَما ماتَ قالَ بَنوه: إنْ فَعَلْنا ما كانَ يَفعلُ أبونا ضاقَ علينا الأمرُ ونحنُ أولو عِيال، فَحَلَفوا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ في السَّدَفِ خُفيةً عنِ المساكين، ولم يَسْتثنوا في يَمينِهم، فأَحرقَ اللهُ جَنتَهم. وقيل: كانوا من بني إسرائيل.

﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصُّبح مُبكّرين ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ولا يقولونَ: إنْ شاءَ الله.

فإن قلتَ: لِمَ سُمّي استثناءً، وإنما هو شَرْط؟

قلتُ: لأنه يؤدّي مُؤدىٰ الاستثناء، من حيثُ إن معنىٰ قولِك: لأخرجَنّ إنْ شاءَ الله، ولا أخرجُ إلا أن يشاءَ الله واحد. ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ بَلاءٌ أو هَلاكٌ ﴿طَآئِفٌ﴾ كقولِه تعالىٰ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢]، وقُرِئ: «طَيفٌ». ....

قولُه: (في السَّدَف)، الظُّلمةُ إذا اخْتَلَطت بالضياء فهو السَّدف.

قولُه: (لأنه يؤدِّي مُؤَدّى الاستثناء)، قال الإمام: «قال جماعةٌ مِن المُفسِّرين: هو «إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ». يُقالُ: حَلَفَ فلانٌ يَميناً ليس فيها ثُنيا ولا ثُنْوىٰ ولا ثَنِيَّةٌ ولا مَثْنَوِيَّة ولا استثناء[١]، كلُّه واحدٌ. وأصلُها مِن الثَّني، وهو الكَفُّ والرَّدّ؛ وذلك أنَّ الحالفَ إذا قال: والله لَأَفْعلَنَّ كذا إلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ غيرَه، فَقَد رَدَّ[٢] انعقادَ ذلك اليمين»[٣]. وقالَ القاضي: «وإنّما سُمِّي استثناءً لِما فيه مِن الإِخْراج، غير أنَّ المخرج خلافُ المذكور»[٤].

وعَنْ بعضِهم: نظيرهُ قولُك: جاءني القومُ سِوىٰ زيدٍ، وهٰذا ليس باستثناءٍ حقيقة، لكنْ لَمّا كان مَعْنىٰ «سوى» المكان، قال تعالىٰ: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨]، صارَ المعنىٰ: جاءني القومُ مكانَ زيدٍ، فلمّا كان معناه هذا هو مَعْنىٰ الاسْتِثناء، سُمِّي استثناءً.

---

(١) في (ح) و(ف): «والاستثناء».

(٢) في (ف): «وَرَدّ».

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ٧٧).

(٤) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٧١).

﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ كالمصرومةِ لهلاكِ ثَمرِها، وقيل: الصَّريمُ: الليل، أي احترقتْ فاسودّتْ، وقيل: النهار أي: يَبِستْ وذَهبتْ خُضرتُها، أو لم يبقَ فيها شيءٌ؛ مِن قولِهم: بَيَّضَ الإناءَ، إذا فَرَّغَه، وقيل: الصَّريم: الرِّمال. ﴿صَٰرِمِينَ﴾ حاصدين.

فإن قلتَ: هلّا قيل: اغدوا إلىٰ حرثِكم؛ وما معنىٰ ﴿عَلَىٰ﴾؟

قلتُ: لمّا كانَ الغدوُّ إليه لِيَصْرِموه ويَقْطعوه، كان غدوًّا عليه، كما تقول: غدا عليهم العدوّ. ويجوزُ أن يُضمّنَ الغدوُّ معنىٰ الإقبال، كقولهم: يُغْدىٰ عليه بالجفنةِ ويُراح، أي: فأقبِلوا علىٰ حَرْثِكم باكرين ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يتَسارُّون فيما بينَهم. وخَفَىٰ، وخَفتَ، وخَفَد: ثلاثتُها في معنىٰ الكَتْم؛ ومنه الخُفْدودُ للخُفّاش ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا﴾ أنْ: مفسِّرة.

وقرأ ابنُ مسعود بطرحِها بإضمارِ القول، أي: يَتَخافتون يقولون لا يَدْخلنّها؛ والنهيُ عن الدّخول للمسكين نَهيٌ لهم عن تمكينِه منه، أي: لا تُمكِّنوه مِن الدخولِ حتىٰ يدخل، كقولك: لا أَرَيَنَّك هاهنا. الحَرْدُ: مِن حارَدتِ السَّنةُ: إذا مَنعتْ خيرَها، وحارَدتِ الإبلُ: إذا مَنَعتْ دَرَّها.

قولُه: (مِن قَوْلِهم: بَـيَّضَ الإناءَ)، الأساس: «بَـيَّضَ الإناءَ: مَلأَه وفَرَّغَه. وعن بعض العرب: ما بَقي لهم صَميلٌ إلَّا بُيِّضَ، أيْ: سِقاءٌ يابسٌ إلاّ مُلِئ».

قولُه: (مِن حارَدَتِ السَّنَةُ إذا مَنَعَتْ خَيرَها)، الراغب: «الحَـرْدُ: المنعُ[1] عَن حِدَّةٍ وغَضَب، قال تعالىٰ: ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥]، أَيْ علىٰ امتناعٍ مِن أَنْ يَـتَناولوه قادرين علىٰ ذلك. ونَزَلَ فلانٌ حريداً، أيْ: مُتمنِّعًا عَنْ مُخالطةِ القوم، وهو حَريدُ المَحَلّ. وحارَدَتِ السَّنَةُ: مَنَعَتْ قَطْرَها، والنّاقةُ: مَنَعَت دَرَّها. وحَرِدَ: غَضِبَ، وحَرَّده كذا». يُغدىٰ عليه بالجفنةِ ويُراح: مِثلُه قيلَ في حَقّ المطّلب: تَغْدو[2] دِرَّتُه علىٰ السُّفهاء، وجَفْنَتُه علىٰ الحُكماء[3].

---

(١) سقط لفظ «المنع» من (ح) و(ف).

(٢) بمعنى تُقبِل، قالَ ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٢٩: ٧٨): «ويجوزُ أن يُضمّنَ فعلُ الغُدوّ معنىٰ الإقبال، كما يقال: يُغدىٰ عليه بالجفنة ويراح» ثم نَقَلَ عبارة الطيبي، وفيه: «الحلماء» بدلاً من «الحكماء».

(٣) من قوله: «يُغدى عليه» إلىٰ هنا، سقط من (ط).

والمعنىٰ: **وغَدَوا قادرينَ علىٰ نكَد، لا غيرَ عاجزينَ عنِ النفع**، يَعْني أنّهم عَزَموا أن يَتَنكّدوا علىٰ المساكين ويَحْرموهُم وهم قادرونَ علىٰ نَفْعِهم، فَغدوا بحالِ فَقرٍ وذهابِ مالٍ لا يَقدرونَ فيها إلا علىٰ النّكدِ والحِرْمان، وذلك أنّهم طَلبوا حِرْمانَ المساكينِ فَتعجَّلوا الحِرْمانَ والمَسْكنة. أو وَغدوا علىٰ مُحاردةِ جَنّتِهم وذهابِ خيرِها قادرين، بَدلَ كونِهم قادرينَ علىٰ إصابةِ خيرِها ومنافعِها، أي: غَدَوا حاصلينَ علىٰ الحرمانِ مكانَ الانتفاع، أَوْ لَـمّا قالوا: اغدوا علىٰ حرثِكم وقد خَبُثَتْ نِيّتُهم، عاقَبهمُ اللهُ بأنْ حاردتْ جَنتُهم وحُرِموا خيرَها، فلم يَغْدوا علىٰ حرثٍ وإنما غَدَوا علىٰ حَرْد، و﴿قَٰدِرِينَ﴾ من عكسِ الكلامِ للتهكُّم، أي: قادرينَ علىٰ ما عَزموا عليه من الصِّرام وحِرمانِ المساكين،

قولُه: (**والمعنىٰ: وغَدَوا قادرين على نكَد**)، اعْلم أنَّ ﴿عَلَىٰ﴾ إمّا مُعَلَّـقٌ بـ﴿قَٰدِرِينَ﴾ أو بـ«غَدَوا»؛ فإذا عُلِّقَ بـ﴿قَٰدِرِينَ﴾ فالكلامُ فيه التَّخصيص، لتقديمِ المعمولِ علىٰ العامل، فلا يَخْلو حينئذ: إمّا أَنْ يُرادَ بالحَرْد مَنْعُ الخيرِ والنَّكَدُ أو الغَضَب.

فعلى الأوَّل: إمّا أَنْ يترك الحَرْدَ مُطْلقاً، فهو المرادُ مِن قَوْله: «قادرين على نَكَدٍ لا غير عاجزين عن النَّفع»، كقولهم: فلانٌ لا يَمْلك إلّا الحِرْمان، ولا يَقْدرُ إلّا علىٰ الخَيْبة، على المُبالغة، قال:

فَأَصْبَحْتُ مِن ليلىٰ الغَداةَ كقـابضٍ   علىٰ الماءِ خانَتْهُ فُـروجُ الأصـابعِ[١]

أو يَجْعلَ الحَرْدَ مُقيّداً بِجنَّتِهم[٢]، فهو المرادُ مِن قَوْلِه: «أو وَغدوا علىٰ مُحاردةِ جَنَّتهم وذَهابِ خَيْرِها قادرين» إلىٰ آخره. و«على مُحاردة» مُتعلِّق بـ«قادرين»، قُدِّم عليه.

وعلى الثاني: وهو أَنْ يُراد بالحَرْدِ الحَنَقُ والغَضَب؛ المعنى ما قال: «لـم يَقْدروا إلّا علىٰ حَنَقٍ وغَضَب»، وفيه الحَصْر.

---

(١) من الأبيات التي تنسبُ إلى قيس بن الملوح، ولم أجده في «ديوانه».
(٢) في (ح): «بخَيْبَتهم».

و﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ ليس بصلة ﴿قَدِرِينَ﴾، وقيل: الحَرْدُ بمعنى الحَرَد، وقُرِئ: «على حَرَدٍ»، أي: لم يقدِروا إلا على حَنَقٍ وغَضَبٍ بعضهم على بعض، كقوله تعالى: ﴿يَتَلَوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠] وقيل: الحَرْد: القَصْدُ والسُّرعة؛ يقال: حَرَدْتُ حَرْدَك، وقال:

أقبَلَ سَيْلٌ جاءَ مِنْ أمرِ الله يَحْرِدُ حَرْدَ الجَنَّةِ المُغِلَّهْ

وقَطا حِرادٌ: سِراعٌ، يعني: وغَدوا قاصدينَ إلىٰ جنَّتِهم بسرعةٍ ونَشاط، قادرينَ عند أنفسِهم، يقولون: نحن نَقدِرُ علىٰ صِرامها وزَيِّ مَنْفعتِها عن المساكين.

وإذا عُلِّق بـ﴿وَغَدَوْا﴾، فلا يخْلو: إمّا أَنْ يُرادَ به مَنْعُ الخيرِ والنَّكدُ أوْ لا. فعلى الأوّل: يُقَدَّرُ مُتعلَّقُ ﴿قَدِرِينَ﴾: ما عَزَموا عليه مِن الصِّرامِ والمنع، أي: غَدَوا قادرين على نَيْلِ مُرادِهم وحصول بُغيتِهم[1]، وهُم إنَّما حَصَلوا علىٰ الخَيْبة والحِرمان، كقوله: عِتابُه السَّيف، وإليه الإشارة بقوله: «مِن عَكْسِ الكلام للتهكُّم». وعلى الثاني: فالحَرْدُ إمّا بمعنىٰ القَصْدِ والسُّرعة، ومُتعلَّقُ ﴿قَدِرِينَ﴾: ما عَزَموا عليه مِن الصِّرام والمَنْع، كما قَدَّره بقوله: «وغَدوا قاصدينَ إلى جَنَّتهم بسرعة»، إلى قوله: «نَحْن نَقْدر علىٰ صرامِها»، أوْ هو اسمٌ لجنتهم، ومُتعلَّق ﴿قَدِرِينَ﴾ ما سبق.

وهذا المعنىٰ عُني بقوله: «غَدوا على تلك الجنّة، قادرين على صِرامها عند أنفسِهم». ويُحتَملُ أنْ يُرادَ بـ﴿قَدِرِينَ﴾: مُقدِّرين، وإليه الإشارةُ بقوله: «أو مُقَدِّرين أنْ يَتمّ لهم مُرادهم». والتقسيمُ يَحتملُ أنْ يُراد أكثرُ مِن ذلك، لكن اقْتَصَرْنا علىٰ ما عليه الكتاب.

قولُه: (المُغِلَّة)، أيْ: الجنَّة التي لها الدَّخل والثّمار.

قولُه: (زَيّ[2] مَنْفَعتِها عن المساكين)، أي: مَنْعِها عنهم علىٰ التَّضْمين، الجوهريّ: «قولُهم: زوىٰ فلانٌ المالَ عن وارثه زَيّاً».

---

(١) في (ح): «تعبهم»، وفي (ف): «نعيمهم».
(٢) في (ف): «زَوْي».

وقيل: ﴿حَرْدٍ﴾ عَلَمٌ للجنّة، أي غَدَوا علىٰ تلك الجنةِ قادرينَ علىٰ صِرامِها عند أنفسهم، أو مُقدّرينَ أن يَتمَّ لهم مرادُهم مِن الصّرامِ والحِرْمان ﴿قَالُوٓاْ﴾ في بديهةِ وُصولِهم ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي ضَلَلْنا جَنَّتَنا، وما هيَ بها لِما رَأَوا مِن هَلاكِها؛ فلمّا تأمّلوا وعَرَفوا أنها هي قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ حُرِمنا خيرَها لجنايتِنا علىٰ أنفسِنا ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدَلُهم وخَيْرُهُم، مِن قولِهم: هو مِن سِطَةِ قومِه، وأعطني من سِطاتِ مالِك، ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ لولا تَذْكرونَ اللهَ وتَتوبونَ إليه مِن خُبْثِ نيّتِكم، كأنّ أوسَطَهم قالَ لهم حينَ عَزَموا علىٰ ذلك: اذكُروا اللهَ وانتقامَه من المجرمين، وتوبوا عن هذه العزيمةِ الخبيثةِ من فَوْرِكم، وسارِعوا إلىٰ حَسْمِ شَرِّها قبلَ حُلولِ النِّقْمة، فعَصَوْه فعَيَّرَهم! والدليلُ عليه قولُهم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾،

قولُه: (﴿أَوْسَطُهُمْ﴾: أعْدَلُهم وخَيْرُهم)، الراغب: «وَسَطُ الشَّيء، بالتَّحْريك، ما له طرفانِ مُتساويا القَدْر. ويُقالُ ذلك في الكمّيّةِ المتّصلةِ كالجسمِ الواحدِ إذا قلتَ: وَسَطُه صُلْبٌ. وَوَسْطٌ بالسّكون، يقالُ في الكمّيّةِ المُنْفصلةِ كشيءٍ يَنفصِلُ بين جسمَيْنِ، نَحْوُ وَسْطُ القَوْمِ كذا. والوسَطُ بالتحريك، تارةً يُقالُ فيما له طرفانِ مَذْمومان، كالجود الذي بين البُخْلِ والسَّرَف، فيُستعملُ استعمالَ القَصْدِ المصونِ عن الإفراطِ والتّفريط، فيُمْدَحُ به نحوُ السَّواءِ والعَدْلِ والنَّصَفة، نحو ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وعلىٰ ذلك: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾. وتارةً يُقالُ فيما له طَرَفٌ محْمود وطَرَفٌ مَذْموم، كالخير والشّرّ، ويُكَنّىٰ به عن الرَّذِل[1] نَحْوُ قولِهم: فلانٌ وَسَطٌ مِن الرِّجال، تَنْبيهاً علىٰ أنّه خَرَجَ مِن حَدِّ الخير».

قَولُه: (والدَّليلُ عليه)، أيْ: علىٰ أنَّ معنىٰ ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، تَحْريضٌ علىٰ التوبة مِن تلك

---

(١) في (ح): «الزوال».

فَتكلَّموا بما كانَ يَدْعوهم إلىٰ التكلّمِ به علىٰ أثرِ مُقارفةِ الخطيئة، ولكن بعد خَرابِ البصرة.

العزيمةِ الخبيثة، وحَثٌّ علىٰ التَّصُدُّقِ علىٰ المساكين، والمسارعةِ إلى قَطْعِ تلك العَزيمة التي هي مَحْضُ الظُّلم، تَدارُكهم[١] حين[٢] لا يَنْفعُهم بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

قولُه: (بَعْد خَرابِ البصرة)، وسَببُ خَرابِها علىٰ ما ذَكَره صاحبا «الكامل» و«التّذكرة»، أنه في شَوّال سَنَةَ ستٍّ وخمسين ومِئَتَيْنِ[٣]، خَرَجَ في «البحرين» مَن ادَّعى أنّه مِن أَولادِ الحسن[٤] بنِ عليّ رَضِي الله عنهما، وتَبِعَه جماعةٌ مِن أَهْلِها، ثُمَّ انْتَقَلَ إلى الباديةِ وادَّعىٰ النُّبوّة، وزَعَمَ أنَّ سحابةً أَظَلَّته، ونودي منها: اقْصِد[٥] البَصْرة.

ولَـمّا قَصَدَها، اسْتهالَ «الزَّنْجَ» الذين يَعْملون في السِّباخ[٦] وأَطْعمهم[٧] في مَواليهم، وما زالَ يَدْعوهم ويُقْبلون إليه للخلاصِ مِن الرِّقّ، حتّى اجْتَمَع عنده جَمْعٌ كثيرٌ، فأتاه مَواليهم فأَمَرَ العَبيدَ فَضَربوا مَواليَهم، ثُمَّ خَطَبَهم وصلّى بهم، وذَكَّرهم ما كانوا عليه مِن الشَّقاءِ وسوءِ الحال، وأنّ اللهَ تعالىٰ أَنْقذهم مِن ذلك، وأنّه يُريد أَنْ يَرْفَعَ أَقْدارَهم، ويُمَلِّكَهم الأموالَ والعَبيدَ، ثُمّ اسْتَوْلىٰ أَمْرُهم حتّى دخلوا «الأُبُلَّة» و«عُبَّادان» و«الأَهْوازَ»، فَقَتلوا فيها ونَهَبوا وأَحْرَقوا.

---

(١) الخبر، أي: الدليل عليه تداركهم.

(٢) في (ف): «حيث».

(٣) في (ف): «خمسين ومئتين».

(٤) في (ط) و(ح): «الحسين». والمدّعي هو صاحبُ الزَّنج، ادّعىٰ في البصرة أن نسبه يتصل الى الحسين، وفي البحرين الى الحسن بن علي. انظر: «الكامل» لابن الأثير (ص١٠٢١)، وهذا النَّسَب ليس صحيحاً، والرجلُ حوله جدال كبير.

(٥) في (ف): «أفضل».

(٦) السِّباخ: جمعُ سَبَخَة، وهي ما لم يُحرث مِن الأرضِ ولم يُعمَّر لملوحته، والذين يعملون فيها هم العبيد.

(٧) في (ح): «أَطْعَمهم»، وفي (ف): «لَطَفهم».

وقيل: المرادُ بالتسبيح الاستثناء، لالتقائِهما في معنىٰ التعظيم لله، لأنّ الاستثناءَ تفويضٌ إليه، والتسبيحَ تنزيهٌ له؛ وكلٌّ واحدٍ من التفويضِ والتنزيهِ تَعْظيم.

وعن الحسن: هُو الصّلاة، كأنّهم كانوا يَتوانَون في الصلاة؛ وإلا لَنهتْـهُم عن الفحشاءِ والمنكر، ولكانتْ لهم لُطفاً في أن يَسْتثنوا ولا يَحْرموا.

وفي سنة سَبْعٍ وخَمْسين دخلوا البَصْرة، وقَتلوا فيها مَقْتلةً عظيمة، لا يُحْصىٰ عَدَدُ مَن قُتلوا فيها، وأَحْرقوا الجامعَ والمدينة، ثُمّ دخلوا «واسط» ومَلكوها، ثُمّ شَخَصَ إليهم الموفَّقُ[1] من بغداد، وجَرىٰ له معهم أُمورٌ وحُروبٌ لا يُمْكنُ وَصْفُها حتّىٰ قَهَرهم.

يُضْربُ[2] في الأَخْذِ في التّدارُكِ بعد فواتِ أوانه.

قَولُـه: (وقيـل: الـمُراد بالتَّسْبيح: الاستثناء)، يَـدلُّ عليه قولُـه تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾، وكان هٰذا هو الأَوْسَطَ حَرَّضَهم علىٰ القَوْلِ بـ «إنْ شاء الله» حينئذ، فَلَم يَرْفعوا له رأساً، فَذَهبَ الآن يُؤَنِّبُهم عليه. وجَوَّز التَّعبيرَ عَن الاستثناءِ بالتَّسْبيح التقاؤُهما في معنىٰ التعظيم، لأنَّ المفوِّضَ مُثْبِتٌ لِذاتِه الأَقْدسِ الحَوْلَ والقوَّة، ويَنْفيهما[3] عن غيره تَعْظيماً، والمُنَزِّهُ ينفي عنه النقائصَ تبجيلاً وتكريماً؛ قال القاضي: «سُمِّي الاستثناءُ تَسْبيحاً، لأنّه يُنَزِّهُه عن أنْ يَجْري في مُلْكِه ما لا يريده»[4].

قولُه: (ولكانت لهم لُطْفاً)، يَعْني: كما أَنَّ الصلاةَ تَنْهىٰ عن الفَحْشاءِ والمنكر، كذلك سَبَبٌ لاسْتِنْزالِ لُطْفِ الله، والتَّوْفيقِ علىٰ الطّاعات، وعلىٰ ما به الفلاحُ وعدمُ الخَيْبة[5].

وفيه أَنَّ الصَّلاةَ رأسُ كُلِّ الخيراتِ، وتاركُها خائبٌ خاسِرٌ في الدُّنيا والآخرة.

---

(١) في (ف): «الواثق». والموفق هو أخو الخليفة المعتمد (٢٥٦ – ٢٧٩ هـ) وكان نفاه الخليفة المهتدي (٢٥٥-٢٥٦ هـ) إلى الحجاز، فاستنجد به المعتمد لقتال الزنج. انظر: «تاريخ الإسلام» (٣: ٢١٢).

(٢) أي: قولهم: «بعد خراب البصرة».

(٣) في (ف): «ومعناهما».

(٤) «أسرار التنزيل» (٥: ٣٧٣).

(٥) في (ف): «الخشية».

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ سبَّحوا اللهَ ونـزَّهوه عن الظّلم وعن كلّ قبيح، ثم اعترفوا بظُلمِهم في مَنْعِ المعروفِ وتَرْكِ الاستثناء ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾ يلومُ بعضُهم بعضاً؛ لأنّ منهم مَن زَيَّن، ومنهم مَن قَبِل، ومنهم مَن أمرَ بالكَفّ وعذَّر، ومنهم مَن عَصىٰ الأمر، ومنهم مَن سَكتَ وهو راض. ﴿أَن يُبۡدِلَنَا﴾ قُـرِئ بالتخفيف والتشديدِ ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ طالبونَ منه الخيرَ راجونَ لعفوه ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُ﴾ مِثلُ ذلك العذابِ الذي بَلَوْنا به أهلَ مكةَ وأصحابَ الجنةِ عَذابُ الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أشدُّ وأعظمُ منه.

قولُه: (مَنْ زَيَّن)، أيْ: زَيَّنَ[1] الـمنعَ وحِرْمانَ المساكين، ومنهم مَن قَبِلَ النَّصيحةَ مِن أَوْسَطِهم.

قَوْلُه: (وعَذَّرَ)[2]، الجوهري: «التَّعْذيرُ في الأَمر: التَّقْصير فيه»[3].

قولُه: (﴿أَن يُبۡدِلَنَا﴾: قُرِئ بالتخفيفِ والتشديد): نافع وأبو عمرو: مُشَدَّداً، والباقون: مُخَفَّفاً.

قولُه: (مِثلُ ذلك العذابِ الذي بَلَوْنا به أهلَ مكّةَ وأصحابَ الجنّة: عذابُ الدّنيا)، قالَ الإمام: «المقصودُ مِن القِصّةِ أنّه تعالىٰ قال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ * إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أيْ: لأجلِ أنَّ اللهَ أَعْطاه المالَ والبنين كَفَر بالله. كَلّا، بل اللهُ إنّما أَعْطاه ذلك للابتلاء، فإذا صَرَفه إلىٰ الكُفْرِ دَمَّرَ اللهُ تعالىٰ عليه؛ لأنَّ أَصْحابَ الجنَّة لـمّا أتَـوا هذا القَدْرَ اليسيرَ مِن المَعْصِية، دَمَّر اللهُ علىٰ جَنَّتهم، فكيفَ حالُ مَن عانَدَ الرسولَ وأَصرّ علىٰ الكُفْرِ والمعصية؟ أَوْ أَنَّ أَصحابَ الجنّة خَرجوا لِيَنْتفعوا بالجنّة، ويَمْنعوا الفقراءَ عنها، فَقَلَبَ اللهُ عليهم القَضيّة، فكذا أهلُ مكة، لـمّا خرجوا إلى بَدْرٍ، وأرادوا الكَيْدَ بمحمَّدٍ وأَصحابه صلواتُ اللهُ عليه، وشَربوا الخمور، فأَخْلَفَ اللهُ ظَنَّهم فَـقُتِلوا وأُسِروا. ولـمّا خَوّفَ الكفّارَ قال مُسْتأنِـفاً:

---

(١) قوله: «أي: زَيّن»، سقط من (ط).

(٢) في (ف): «وغدوا».

(٣) في (ح): «عنه».

وسُئِلَ قتادةُ عن أصحابِ الجنة: أهُم من أهلِ الجنةِ أم من أهلِ النار؟ فقال: لقد كَلَّفتني تَعباً. وعن مجاهد: تابوا فأُبدِلوا خيراً منها.

ورُوي عن ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه: بَلَغني أنهم أَخلصوا وعَرَفَ اللهُ منهم الصدقَ فأبدلَهم بها جَنةً يقالُ لها: الحيوان، فيها عِنبٌ يَحملُ البغلُ منه عُنقوداً.

[﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ٣٤]

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي في الآخرةِ ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ **ليسَ فيها إلا التنعمُ الخالص، لا يَشوبُه ما يُنغِّصُه كما يَشوبُ جِنانَ الدنيا.**

[﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ ٣٥-٣٩]

كان صناديدُ قريشٍ يَرونَ وُفورَ حَظِّهم من الدنيا وقلّةَ حظوظِ المسلمينَ منها، فإذا سَمعوا بحديثِ الآخرةِ وما وَعدَ اللهُ المسلمين ....

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾»[(١)]. وعَنْ بَعْضِهم: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ في مَحَلِّ النَّصْبِ على الحال، أي: أثبت مجهولاً عندهم.

قَوْلُه: (لَيْس فيها إلا التنعّمُ الخالصُ، لا يَشوبُه ما يُنَغّصه كما يَشوبُ جِنانَ الدّنيا)، فإنْ قُلتَ: مِن أين جاءَ هٰذا التَّخْصيص؟ قُلتُ: جاءَ مِن جانبِ المقام التَّعْريضي، مِن تَقْديم الخبر -أَعْني ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ -على المبتدأ، ومَجيء الآيةِ بَعْد ذِكْرِ أصحابِ الجنّة وأَحْوالِ قُريش، وإردافِهِ بقولِه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

ونَظيرُه في المَشْروب -وإنْ لَمْ يَبْلغ هٰذا المَبْلغ- قَوْلُه تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧].

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ٨٠) بتصرف.

قالوا: إنْ صَحّ أنّا نُبعَثُ كما يَزعمُ محمدٌ ومَن معه لم تكنْ حالُهم وحالُنا إلا مِثلَ ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يَفْضُلونا، وأقصىٰ أمرِهم أنْ يُساوونا، فقيل: أَنحيفُ في الحُكم فنجعلُ المسلمينَ كالكافرين؟ ثُم قيلَ لهم علىٰ طريقةِ الالتفات: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكمَ الأعوجَ؟ كأنّ أمرَ الجزاءِ مفوّضٌ إليكم حتىٰ تحكموا فيه بِما شِئتم ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾ مِن السماءِ ﴿تَدْرُسُونَ﴾ في ذلك الكتابِ أنّ ما تختارونَه وتَشتهونَه لكم، كقوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ [الصافات: ١٥٦-١٥٧].

والأصلُ: تدرسونَ أنّ لكم ما تَتخيّرون، بفتح «أنّ»؛ لأنه مدروس؛ فلَما جاءتِ اللامُ كُسِرت. ويَجوزُ أن تكونَ حكايةً للمدروس، كما هو، كقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وتَخَيّرَ الشيءَ واختارَه: أَخذَ خيرَه، ونَحوُهُ: تَنخّله وانْتخلَه إذا أخذ مَنْخولَه.

لفلان عليّ يمينٌ بكذا: إذا ضَمِنْتَه منه وحَلفتَ له علىٰ الوفاءِ به، يعني: أم ضَمِنا منكم وأَقْسمنا لكم بأَيمانٍ مُغَلّظةٍ متناهيةٍ في التوكيد.

قَوْلُه: (فلمّا جاءَت اللامُ كُسِرت)، قال صاحبُ «الكَشْف»: «فَلا يُوهِمنَّك كَسْرُ «إِنَّ» الوقفَ علىٰ ما قَبْلها والبدايةَ بها، وهذا كَقَولِهِم: عَلِمْتُ: إنَّ في الدّارِ لَـزَيداً»[1].

قَوْلُه: (ويجوز أَنْ تكونَ حكايةً للمدروسِ كما هو)، قال صاحبُ «التَّقريب»: «وفيه نَظَر؛ إِذْ لَفْظُ ﴿فِيهِ﴾ لا يُساعِده، يَعْني: يَصِحُّ أَنْ يُقالَ: إِنَّ لكم كتاباً تَدْرسونَ فيه أَنَّ لكم ما تَشْتَهونه. يَعْني: مُؤدّاه ومَعْناه مَسْطورٌ فيه، ولا يَجوز أَنْ يُراد: إِنَّ هٰذا اللّفظَ بعينِه مَكْتوب؛ إِذْ لَفظةُ ﴿فِيهِ﴾ زائدة». ويُمكنُ أَنْ يكونَ صورةُ المكتوبِ فيه: إِنَّ لكم ما تَخْتارونه، وقَدْ سَطَّرناه لكم في هذا الكتاب.

قولُه: (كما هو)، قيلَ: يَجوزُ أَنْ يكونَ نَصْباً علىٰ الحال، و«ما» مَوْصولة، و«هو» خَبرُ مُبتدإٍ مَحْذوف، كأنّه قيلَ: كالذي هُو هُو أو كافّة، و«هو» في مَوْضِعِ الابتداء، والخَبَرُ مَحْذوف، أَيْ: حَكاهُ كما هُو عليه، وأَنْ يكون «كما هُو» نَصْباً على المصدر، أَيْ: كَحكايتِها الآن.

---

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٣٧٥).

فإن قلتَ: بِمَ يتعلقُ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟

قلتُ: بالمقدّرِ في الظرف، أي: هي ثابتةٌ لكم علينا إلىٰ يوم القيامةِ لا تَخرجُ عن عُهدتِها إلا يومئذٍ إذا حَكّمناكم وأعطيناكم ما تَحْكمون. ويجوزُ أن يتعلقَ بـ﴿بَٰلِغَةٌ﴾، علىٰ أنها تبلغُ ذلكم اليومَ وتَنْتهي إليه **وافرةً لم تَبْطُلْ منها يمينٌ** إلىٰ أن يحصلَ المقسَمُ عليه مِن التحكيم. **وقرأ الحسن**: «**بالغةً**» **بالنصب** علىٰ الحالِ من الضميرِ في الظرف ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جوابُ القَسَم؛ لأنّ معنىٰ ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾: أم أقسمنا لكم.

قولُه: (**وافِرةً لَم تَبْطُل منها يمين**)، فإنْ قُلتَ: لِمَ قال في الوَجْه الأَوّل: «لا تَخرُجُ عَنْ عُهْدتِها إلّا يَوْمئذ»، وفي الثاني: «وافرةً لم تَبْطُلْ مِنها يَمين»؟ قُلتُ: لأنّه إذا عَلَّقَ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بالمقدَّرِ في ﴿لَكُمْ﴾، يَدْخُل الأَجلُ في حُكْمِ الوُجوبِ المُسْتفادِ مِن نفسِ الخبر ومُتعلِّقه، أَعْني «لكم»، أصالةً. وإذا عُلِّقَ بـ﴿بَٰلِغَةٌ﴾، وهي صفةٌ للأَيمان، يكون الكلامُ أصالةً في الأَيمانِ وبُلوغِها إلىٰ ذلك اليوم، بأَنْ تكونَ مَحْفوظةً مِن النُّقْصانِ، مُؤدّاةً[1] وافيةً تامّةً. ألا ترى كيف أَهْمَلَ معنىٰ ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ في الأَوّل واعْتبَرَه في الثاني؟ فَقَوْلُه: «إذا حَكَّمْناكم» شَرطٌ، جَزاؤُه ما دَلَّ عليه «لا تَخْرُجُ عَن عُهْدتِها إلّا يَوْمئذٍ».

تَلْخيصُ المعنىٰ: أَمْ لكم أَيْمانٌ علينا بالغةٌ أنْ نُحَكِّمْكم، بأَنْ تُسَوُّوا بين المُسْلمين والمُجْرمين، ولا تَخْرُجُ عَن عُهْدتِها إلّا إذا حَكَّمناكم يوم القيامة. أو أَيْمانٌ وافيةٌ، فلا تُؤَدُّونها إلّا إذا حَكَّمناكم يوم القيامة[2].

قولُه: (**وقَرأَ الحسَنُ: «بالغةً» بالنَّصب**)، قالَ ابنُ جنّي: «يجوزُ أَنْ تكونَ «بالغةً» حالاً مِن الضَّمير في ﴿لَكُمْ﴾، لأنّه خبرُ ﴿أَيْمَٰنٌ﴾، ففيه ضمير. أَوْ حالاً مِن نفسِ الضَّمير في ﴿عَلَيْنَا﴾،

---

(١) في (ف): «مرادة».

(٢) من قوله: «فقوله: إذا حكمناكم، شرط» إلىٰ هنا، سقط من (ف).

[﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ ٤٠-٤١]

﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ الحُكمِ ﴿زَعِيمٌ﴾ أي قائمٌ به وبالاحتجاج لصحتّهِ، كما يقومُ الزعيمُ المتكلِّمُ عن القومِ المتكفِّلُ بأمورهم. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي ناسٌ يشاركونَهم في هذا القولِ ويُوافقونَهم عليه ويَذْهبون مَذْهبَهم فيه ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ بهم ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دَعْواهم، يعني: أنّ أحداً لا يُسلِّمُ لهم هٰذا ولا يُساعِدُهم عليه، كما أنه لا كتابَ لهم يَنْطقُ به، ولا عهدَ لهم به عندَ الله، ولا زعيمَ لهم يقومُ به.

[﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾ ٤٢-٤٣]

إذا جعَلْتَه وصفاً للأَيمان لا مُتعلِّقاً بنفسِ الأَيمان، لأنّه لا يكون[1] حينئذ فيه ضمير. ويجوز أَنْ يكون حالاً من نفسِ ﴿أَيْمَانٌ﴾ وإنْ كانت نكرةً، كما أَجاز أبو عمرو في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١]، أَنْ يكون ﴿حَقًّا﴾ حالاً مِن ﴿مَتَاعٌ﴾[2].

قَولُه: (ناسٌ يُشارِكونهم في هٰذا القول)، وهو: «إنْ صَحَّ أَنّا نُبْعَثُ كما يَزْعُمُ محُمّدٌ ومَن معه، لَمْ يَكنْ حالُهم وحالُنا، إلّا مِثْلَ ما هي في الدُّنيا...» إلى آخره. قال القاضي: «وَقَدْ نَبَّه سُبحانه وتعالىٰ في هٰذه الآيات، علىٰ نَفْي جميعِ ما يُمكنُ أَنْ يَتَشبَّثوا به لِدَعْوتِهم، مِن عَقْلٍ[3] أو نَقْلٍ أو وَعْدٍ أَو مَحْضِ تَقْليدٍ علىٰ الترتيب، تَنْبيهاً علىٰ مَراتبِ النَّظر، ودَفْعاً لِما لا سَنَدَ له»[4].

---

(١) في (ح): «يكون».

(٢) «المحتسب» (٢: ٣٢٤).

(٣) في (ف): «عطف».

(٤) «أسرار التنزيل» (٥: ٣٧٤).

الكَشفُ عن الساق والإبداءُ عن الخِدام، مَثَلٌ في شدةِ الأمرِ وصعوبةِ الخَطْب، وأصلُه في الرَّوْعِ والهزيمةِ، وتَشْميرِ المُخدَّراتِ عن سُوقِهنّ في الهَرَب، وإبداءِ خِدامِهنّ عند ذلك، قالَ حاتمٌ:

أخو الحربِ إنْ عَضَّتْ بِهِ الحربُ عَضَّها وإنْ شَمَّرَتْ عن ساقِها الحربُ شَـمَّرا

وقال ابنُ الرُّقيات:

تُذهِلُ الشَّيْخَ عن بَنيهِ وتُبْدي عن خِـدَامِ العَقِيلـةِ العَـذْراءِ

قلتُ: علىٰ هذا لا يَحْسُنُ أنْ تَجعلَ عامل الظَّرْفِ ـ أيْ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ﴾ ـ: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾. بَلْ إمّا: اذكُر، أو كان: كَيْتَ وكَيْتَ.

قَوْله: (أَخو الحَرْب[١]) البَيْت، إنَّما سُمِّي به لِمُباشَرتِه الحَرْبَ كثيراً. والتَّشْميرُ: مَثَلٌ لشِدَّةِ الأَمرِ وصُعوبةِ الخَطْب، تقولُ: هو مُباشرٌ لِلْحَربِ بمثل ما يُباشِره في الشِّدَّةِ والصُّعوبة ولا يَتْركُها بحال.

قَوْله: (تُـذْهِلُ الشَّيْخَ) البيت[٢]، الخِدامُ: جَمعُ خَدَمةٍ، وهي الخَلْخال. تُذْهِل: أيْ: تُشْغِل، والفعلُ لِلغارةِ في قوله:

كيفَ نَوْمي علىٰ الفراشِ ولَـمّا تَـشْمَلِ الـشَّامَ غـارةٌ شَـعْواءُ

أيْ: غارةٌ فاشِية. وإنَّما خَصَّ «الشَّيْخَ» بالذِّكْرِ، لِوُفورِ عَقْلِه ومُمارستِه الشَّدائدَ، أوْ لِفَرْط مَحبَّتِه للأَوْلاد. والعَقيلةُ مِن النّساء: التي عُقِلَتْ في بيتِها، أي خُدِّرَت وحُبِست. والإبداءُ عَن الخدامِ مَثَلٌ في شِدَّةِ الأَمْرِ، والفِعلُ أيضاً للغارة. وفي «شَعْواءُ» و«العَذْراءِ» الإِقْواءُ[٣].

---

(١) في (ف): «الخريب». والبيت لجرير.
انظر: «ديوانه» ص٤٧٠.
(٢) لابنِ قيس الرقيات، انظر: «ديوانه» ص٩٥-٩٦.
(٣) الإقواءُ: اختلافُ حركة الرويّ.

فمعنىٰ ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ في معنىٰ: يومَ يَشتدُّ الأمرُ ويَتفاقم، ولا كَشْفَ ثَمَّ ولا سَاق، كما تقولُ للأقطع الشحيح: يَدُه مَغْلولة، ولا يَدَ ثَمَّ ولا غِلّ؛ وإنما هو مَثَلٌ في البُخل.

وأما مَن شَبّه فلضيقِ عَطَنِه وقلةِ نَظَرِه في عِلْم البيان، والذي غَرَّه منه حديثُ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه: «يَكْشفُ الرحْمٰن عن ساقِه؛ فأمّا المؤمنونَ فَيَخرّون سُجّداً،

وقيلَ: الفِعلُ لِلْعَقيلة(١)، وحُذِفَ التنوينُ عن «خِدامِ» لالتقاءِ السَّاكنَين، كقولِه:

ولا ذاكِرَ اللهَ إلا قليـلا(٢)

والتَّقديرُ: وتُبْدي نِسْبتها، لِيرجعَ الضميرُ إلى الغارةِ المَوْصوفةِ بقولِه: تُبْدي.

قَولُه: (ولا كَشْفَ ثَمَّ ولا ساق)، يَعْني: هو مِن الكناية الإيمائيّة، التي تُؤخذُ فيها الزُّبْدةُ والخُلاصةُ مِن المَجْموعِ، ولا يُنْظَرُ إلىٰ مُفْرداتِ التركيبِ(٣) حقيقةً ومَجازاً، كما مَرَّ في قَوْلِه: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]. وعن بَعْضِهم: الكَشْفُ عن السّاق بأَسْرِه عبارةٌ عَنِ الشِّدَّة، أَمّا أَنْ يكون السّاقُ اسماً للشّدّة، فلا. وقال: ومِن الناسِ مَنْ يُفسِّرُ الساقَ بالشِّدّة، ويَدَّعيه لغةً، ولَيْس بشيءٍ.

قولُه: (حديثُ ابنِ مَسْعود: «يَكْشِفُ الرَّحْمٰن عن ساقِه»)، الحديثُ مِن روايةِ البُخاري ومُسْلمٍ والنَّسائي، عن أبي سعيد، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ، يقولُ: «يَكْشِفُ رَبُّنا عَنْ ساقِه،

(١) أي: وتُبدي العقيلةُ العذراءُ عن خدام. فلا يكون في البيت إقواءٌ، ويروىٰ «العقيلةُ العذراءُ».

(٢) البيت لأبي الأسود الدؤلي، مشهورٌ سيّار، وصَدْرُه:

فـألفيتُه غـيرَ مُسْـتَعْتِبٍ

ويُروىٰ الشاهد بنصب «ذاكر» وجرّها؛ فالنصبُ عطفاً على «غير»، والجرُّ عطفاً على «مُسْتعتب»، و«لا» لتوكيد النفي. انظر: «ديوانه»، ص١٢٣، وتخريجه في المصادر في «معجم شواهد العربية»، ص٣٥٨.

(٣) أقحمت في (ف) لفظة «التنكير» بين «مفردات التركيب»، وليست بشيء.

وأما المنافقونَ فتكونُ ظهورُهم طَبقاً طَبقاً كأنّ فيها السَّفافيد» ومعناه: يَشتدُّ أمرُ الرحمٰن ويَتفاقمُ هَـوْلُه، وهو الفزَعُ الأكبرُ يومَ القيامة، ثُم كانَ من حَقّ الساقِ أن تُعرّفَ علىٰ ما ذهبَ إليه المشبِّه، لأنها ساقٌ مخصوصةٌ معهودةٌ عنده وهي ساقُ الرحمٰن.

فإن قلتَ: فلِمَ جاءت مُنكَّرةً في التمثيل؟

قلتُ: للدلالةِ علىٰ أنه أمرٌ مبهمٌ في الشّدةِ مُـنكَرٌ خارجٌ عن المألوف، كقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦]، كأنه قيل: يومَ يقعُ أمرٌ فظيعٌ هائل؛ ويُحكىٰ هٰذا التشبيهُ عن مقاتل.

وعن أبي عُبيدة: خَرجَ من خراسانَ رَجلانِ، أحدهما شَبَّه حتىٰ مَثّل، وهو مقاتلُ ابنُ سليمان، والآخرُ نفىٰ حتىٰ عَطّل، وهو جَهمُ بنُ صَفْوان؛ ومَن أحسَّ بعِظَمِ مضارِّ فَقْدِ هٰذا العلمِ، عَلِمَ مقدارَ عِظَمِ منافِعه.

فَيَسْجُدُ له كلُّ مُؤْمِنٍ ومُؤمِنة، فَيَبْقىٰ[1] كلُّ مَنْ كانَ يَسْجُدُ في الدُّنيا رِياءً وسُمعةً، فَيَذْهبُ لِيَسجُدَ، فيعودُ ظهرُهُ طَبَقاً واحداً»[2].

وقلتُ: ويُمْكنُ أَنْ يكونَ الحديثُ بياناً للآية، فلا تَحتاجُ إلى التعريف المُبَيِّنِ، بل التنكيرُ أَوْلىٰ والتأويل. روىٰ مُحْيي السُّنّة في «شَرْحِ السُّنّة»، عن ابنِ عباسٍ قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾: يَومُ كَرْبٍ وشِدَّة. وقال مُجاهدُ: يُكشَفُ عن الأمرِ الشّديد. والعربُ تَذْكُرُ الساقَ إذا أَخبَرت عن شِدَّةِ الأمرِ وهَوْلِه. وسُئِلَ عِكْرمةُ عنه فقال: إذا اشْتَدَّ الأمرُ في الحرب، قيلَ: كَشَفَت الحربُ عن ساق»[3].

قولُه: (السَّفافيد)، الجوهريّ: «السَّفُّودُ بالتشديد: الحديدةُ التي يُشْوىٰ بها اللحم».

---

(١) في الأصول الخطية: «ويبقىٰ».

(٢) «صحيح البخاري» (٤٩١٩)، و«صحيح مسلم» (١٨٣) في حديث مطوّل.

(٣) «شرح السُّنّة» (١٥: ١٣٨-١٣٩).

وقُرِئ: «يوم نَـكْشِف» بالنون، و«تكشفُ» بالتاء على البناء للفاعل والمفعول جميعاً، والفعلُ للساعةِ أو للحال، أي: يومَ تشتدُّ الحالُ أو الساعة، كما تقول: كَشفتِ الحربُ عن ساقِها، على المجاز. وقُرِئ: «تُـكْشِف» بالتاءِ المضمومةِ وكسرِ الشين، من أكشفَ: إذا دَخلَ في الكَشْف، ومنه: أكشفَ الرجلُ فهو مُـكشِف، إذا انقلبتْ شَفتُه العُليا. وناصِبُ الظرفِ: فليأتوا، أو إضمارُ (اذكرْ)، ....

قولُه: (**وقُرِئ: «يوم نَـكْشِفُ»، بالنون، و«تكشفُ»، بالتاءِ**[١] **على البناءِ للفاعِلِ والمفعول**)، المشهورةُ: بالياءِ للمفعول، والبواقي: شَواذّ، قالَ صاحبُ «التقريب»: في قراءة[٢] التاء مع البناءِ لِلْمفعول، نَظَـرٌ[٣]؛ لأنَّ فاعِلَه ﴿عَن سَاقٍ﴾، فكانَ حَقُّه التَّذْكيرَ، كَصَرْفِ «عن هِنْدٍ»، وجَعْل الفِعْلِ للسَّاعةِ أو للحالِ، كأنّه على تقديرِ البناءِ للفاعل لا للمفعول؛ إذْ ليس معناه: تُكْشَفُ الساعةُ والحالُ عن ساقٍ، بل الكَشْفُ عن السّاق عبارةٌ عن الشِّدَّة، فقيل: إنَّما أُنِّث لأنَّ المعنىٰ: تَـكْشِفُ[٤] عن ساقٍ، و«عن» زائدة، ولا يَخْلو عن حَزازة.

وقلتُ: قوله «بل الكَشْفُ عن الساقِ عبارةٌ عن الشِّدَّة» تَحْجير[٥] للواسع.

نعم، وهو وَجْهٌ حَسَنٌ يُصارُ إليه كما عليه أَوَّلُ كلامِ المصنّف، فَلِمَ لا يَجوزُ أَنْ تثبتَ للساعةِ أو للحالِ الساقُ تَخْييلاً، بَعْد الاستعارة فيها على سبيلِ المكنيّة، سواءٌ جُعِلت فاعلاً أو مفعولاً؟ كما يُـقال: كَـشَفَ اللهُ الساعةَ عن ساقها، وعليه كلامُ مُجاهِدٍ كما سَبَـق، وكلامُ

---

(١) في (ب): «بالياء»، وليس بصحيح، بدليلِ قولِ صاحب «التقريب» بعد قليل.

(٢) في (ح): «قوله».

(٣) قال السمين الحلبي في «الدر المصون» (١٠: ٤١٦): «لأن التأنيث لا معنىٰ له هنا، إلّا أنْ يقال: إن المفعولَ مُسْتتر، أي: تُكْشفُ هي، أي الشدة».

(٤) في (ف): «يَكْشف».

(٥) في (ف): «تعجيل».

....

ابنِ جنّي[١] في قراءةِ ابنِ عباس: «يومَ تَكْشِفُ عن»، بالتاءِ، والتاءُ مُنتصبةٌ[٢]، ورُوي عنه: «يومَ تُكشَفُ» بالتاءِ[٣] مضمومةً، أَيْ: تُكْشَفُ الشدّةُ والحالُ الحاضرةُ عن ساقٍ. وهذا مَثل، أَي: تأخُذُ في أَغْراضِها، ثُمّ شُبِّهت بِمن أَراد أَمراً وتَأَهَّبَ له، كيف يَكْشِفُ[٤] عن ساقه؟ قال:

كَشَفَتْ لكم عَـنْ سـاقِها وَبَدا مِن الشَّرِّ الصَّراحُ[٥]

فأَضْمَرَ الحالَ والشِّدّةِ لدلالةِ الموضعِ عليه. ونَظيرُه مِن[٦] إِضْمارِ الفاعلِ لدلالةِ الحالِ عليه، مسألةُ الكتاب: إِذا كان غداً فَأْتِني، أَيْ: إِذا كانَ ما نَحنُ عليه[٧] مِن البلاءِ[٨] في غدٍ فَأْتِني[٩]. وأَمّا «تُكشَفُ»[١٠] بتاءٍ مَضْمومة، فعلىٰ ذلك أيضاً، أي: تُكْشَفُ الصُّورةُ هناك عَن شِدَّة»[١١].

---

(١) بين لفظتي (ابن جني) و(في)، وردت العبارةُ الآتية في (ط) و(ف): «في قراءات ابن مسعود، قال ابنُ جنّي»، وهي عبارة مقحمةٌ؛ لأن ابن جني انصبَّ حديثه على قراءات ابن عباس لا ابن مسعود.

(٢) في (ف): «والفاءُ مُنْضمّة»، أي: تُكشَفُ، وليس بصواب.

(٣) في (ف): «بالياء»، أي: يُكشَفُ، وليس بصواب.

(٤) في (ف): «يكشفُ بالياءِ مَضمومةً»، والسياقُ لا يَحتمل ذلك.

(٥) البيت لسعدِ بنِ مالك، جدّ طرفة بنِ العبد، في قصيدةٍ مَطلَعُها:

يـا بـؤسَ للحـربِ التـي وَضَعتْ أَراهطَ فاستراحوا

انظر: «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (١: ٣٥٥)، و«الخصائص» لابن جنّي (٣: ١٠٦).

(٦) في (ف): «ومثاله في».

(٧) في (ح): «فيه».

(٨) في (ف): «التلاقي».

(٩) انظر: «الكتاب» لسيبويه (١: ٢٢٤).

(١٠) في (ف): «بياء»، وليس بصواب.

(١١) «المحتسب» (٢: ٣٢٤).

أو يومَ يُكشفُ عن ساقٍ كانَ كيتَ وكيتَ، فحُذفَ للتهويلِ البليغ، وأن ثَمّ مِن الكوائنِ ما لا يوصفُ لعِظَمِه. عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه: **تُعقَمُ أصلابُهم**، أي تُردُّ عِظاماً بلا مفاصلَ لا تَنثني عند الرفعِ والخفض، وفي الحديث: «وتبقىٰ أصلابُهم طبقاً واحداً»، أي: فَقارةً واحدة.

فإن قلتَ: لِمَ يُدْعَونَ إلىٰ السجودِ ولا تَـكْليف؟

قلتُ: لا يُدْعَونَ إليه تعبداً وتكليفاً، ولكن توبيخاً وتعنيفاً علىٰ تركهِمُ السجودَ في الدنيا، معَ إعقامِ أصلابِهم والحيلولةِ بينَهم وبينَ الاستطاعةِ تَحسيراً لهم وتَنديماً علىٰ ما فَرّطوا فيه حينَ دُعوا إلىٰ السّجود، وهم سالمو الأصلابِ والمفاصلِ، مُمكّنون مُزاحو العللِ فيما تُعُبِّدوا به.

[﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ٤٤- ٤٥]

يقال: ذَرْني وإياه، يريدونَ: كِلْه إليّ، فإني أكفيكَه، كأنه يقول: حسبُك إيقاعاً به أن تَكِلَ أمرَه إليّ وتُخلّيَ بيني وبينَه، فإني عالمٌ بما يجبُ أن يُفعلَ به مُطيقٌ له، والمراد: حَسْبي مُجازياً لمن يكذّبُ بالقرآن، فلا تشغلْ قلبَك بشأنِه وتَوَكّلْ عليّ في الانتقامِ منه، تسليةً لرسولِ الله ﷺ وتهديداً للمكذّبين.

قولُه: (تُعقَمُ أصلابُهم)، النِّهايةُ: «في حديثِ ابنِ مسعودٍ: «[إنَّ الله][1] يَظهرُ للناسِ يومَ القيامةِ، فَيَخِرُّ المسلمون للسجود، وتُعقَمُ أصلابُ المنافقين فلا يَسْجدون»، أيْ: تَيبَسُ مَفاصِلُهم وتَصيرُ مَشْدودةً. والمعاقِمُ: المفاصِل».

---

(١) زيادة مِن «النهاية» (٣: ٢٨٢) يقتضيها السياق.

اسْتدرجَه إلىٰ كذا: إذا اسْتنزلَه إليه دَرجةً فدرجةً، حتىٰ يُورّطَه فيه، واستدراجُ الله العصاةَ: أن يرزقَهم الصّحةَ والنّعمة، فيَجْعلوا رزقَ الله ذريعةً ومُتسلَّقاً إلىٰ ازديادِ الكفرِ والمعاصي ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من الجهةِ التي لا يَشْعرون أنه استدراجٌ، وهو الإنعامُ عليهم، لأنهم يَحْسبونَه إيثاراً لهم وتَفضيلاً علىٰ المؤمنين، وهو سببٌ لهلاكِهم ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأُمهلُهم، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

والصحةُ والرزقُ والمدُّ في العُمر: إحسانٌ مِن الله وإفضالٌ يوجِبُ عليهم الشكرَ والطاعة، ولكنهم يجعلونَه سبباً في الكفرِ باختيارِهم، فلما تَدرّجوا به إلىٰ الهلاكِ وُصِفَ المنعِمِ بالاستدراج. وقيل: «كَم مِن مُستدرَج بالإحسانِ إليه، وكم من مَفتونٍ بالثناءِ عليه، وكم من مَغرورٍ بالسِّترِ عليه».

وسَمىٰ إحسانَه وتَمكينَه كيداً كما سَمّاه استدراجاً، لكونه في صورةِ الكيدِ حيثُ كان سبباً للتورّطِ في الهَلَكة، ووَصَفَه بالمتانةِ لقوّةِ أثرِ إحسانِه في التسبّبِ للهلاك.

[﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ٤٦ - ٤٧]

المَغْرم: الغرامة، أي: لـم تَطلبْ منهم علىٰ الهدايةِ والتعليمِ أجراً، فيثقلُ عليهم حَملُ الغراماتِ في أموالِهم، ....

قَوْلُه: (ومُتَسلَّقاً)، الجوهريّ: «تَسلَّق الجدار، أيْ: تَسوَّره».

قولُه: (وكم مِن مَغرورٍ بالسِّتْر)، يُروىٰ بكَسْرِ السِّين وفَتْحِها. وعَنْ بعضِهم: السِّتْرُ: سِتْرُ الله، والسَّتْر؛ بالفتحِ: مَصْدرٌ: المَسْتور.

قَوْلُه: (وسَمّىٰ إحسانَه وتَمْكينَه كيداً كما سَمّاه استِدراجاً)، قالَ الإمامُ: «الأصحابُ تَمسَّكوا بهذه الآيةِ في مَسْألةِ إرادة الكائنات»[1].

(١) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ٨٥).

فيثبِّطُهم ذلك عن الإيمان ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: اللوحُ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكمونَ به.

[﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۝ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ٤٨ - ٥٠]

﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالُهم وتأخيرُ نُصْرتِك عليهم ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يعني: يونُسَ عليه السلام ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ في بطنِ الحوتِ ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مملوءٌ غيظاً، مِن كَظَمَ السِّقاءَ: إذا مَلأه، والمعنىٰ: لا يوجدُ منك ما وُجِدَ منه مِن الضَّجرِ والمغاضَبة، فتُبتلىٰ ببلائِه، حَسُنَ تذكيرُ الفعلِ لفصلِ الضميرِ في ﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾.

وقرأ ابنُ عباس وابنُ مسعودٍ: «تَداركَتْه»، **وقرأ الحسن: «تَدّارَكه»، أي: تَتَداركه** علىٰ حكايةِ الحالِ الماضية، بمعنىٰ: لولا أن كانَ يقالُ فيه «تَتداركه»، كما يقال: كان زيدٌ سيقومُ فمنعَه فلان، أي: كان يقالُ فيه سَيقوم. والمعنىٰ: كان مُتوقَّعاً منه القيام.

ونِعمةُ ربه: أنْ أنعمَ عليه بالتوفيقِ للتوبةِ وتابَ عليه، ....

قولُه: (**وقَرأَ الحسَنُ: «تَدَّارَكَه»، أَيْ: تَتَدارَكَه**)، قال ابنُ جنّي: «قَرأَ ابنُ هُرْمز والحَسَنُ: «تَدَّارَكَه»، مُشدَّدةً، رواها أبو حاتمٍ[1] عن الأعْرج لا غير، قال: وسُئِلَ عنها أبو عَمرو، فقال: لا. قال أبو حاتم: لا يَجوزُ ذلك، لأنَّه فِعلٌ ماضٍ، وليست فيها إلّا تاءٌ واحدة، ولا يجوز: تَتَدارَكُه. قال ابن جنّي: هذا خطأٌ، وذلك أَنَّه يَجوزُ علىٰ حكايةِ الحالِ الماضيةِ المُنْقَضية[2]، أي: لولا أَنْ كانَ يُقالُ فيه: تَتَداركُه[3]، كما تقولُ: كان

---

(١) في (ف): «ابن حاتم»، وليس بصواب؛ فأبو حاتم هو السجستاني المشهور المتوفى سنة (٢٥٥ هـ)، وابن أبي حاتم محدث مصنف له كتاب «الجرح والتعديل» توفي سنة ٣٢٧ هـ.

(٢) في (ح): «المفيضة»، وفي (ف): «المقتضية»، وسقط اللفظ من (ط).

(٣) في (ف): «تداركه».

وقد اعتُمِدَ في جوابِ ﴿لَّوْلَآ﴾ علىٰ الحال ـ أعني قوله: ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ـ يعني: أنّ حالَه كانتْ علىٰ خلافِ الذمِّ حين نُبذَ بالعراء، ولولا توبتُه لكانتْ حالُه علىٰ الذمّ.

روي أنها نزلتْ بأُحُدٍ حين حَلَّ برسولِ الله ﷺ ما حَلَّ به، فأرادَ أن يدعوَ علىٰ الذين انهزموا، وقيل: حينَ أرادَ أن يدعوَ علىٰ ثقيف. وقُرِئ: «رَحمةٌ من ربه».

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ فَجمَعه إليه، وقَرّبه بالتوبةِ عليه، كما قال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي من الأنبياء. وعن ابنِ عباسٍ: رَدّ اللهُ إليه الوحيَ وشَفَّعَه في نفسِه وقومِه.

[﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ٥١ - ٥٢]

زيدٌ سَيقومُ، أي: كان مُتوقَّعاً منه القيام، فكذلك هذا، أي: لولا أَنْ كان يُقال فيه: تَتَداركُه نِعْمةٌ مِن ربِّه لَنُبِذَ بالعَراء»(١). أَيْ: لولا هٰذه الحالةُ المَرْجُوَّةُ له كانت مِن نِعمةِ الله تعالىٰ، لَنُبِذَ بالعَراءِ.

قولُه: (**وقد اعْتمدَ في جوابِ ﴿لَّوْلَآ﴾ على الحال**)، يَعْني: أَوْقَعَ ﴿لَّوْلَآ ...لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ مُقَيَّداً بقولِه: ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾. والمَقْصودُ الأَوّلي منه الحال، ولولاه لم يكُن لِقَوْلِه: ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ فائدة، لأنه نُبِذَ فيه. ولذلك قال: «ولولا تَوْبتُه لكانت حالُه علىٰ الذّم». قال القاضي: «الحالُ هو الذي اعتمدَ عليه الجوابُ لأنها المنفيّةُ دون النَّبذ»(٢).

قولُه: (**يَعْني أَنَّ حاله كانت علىٰ خلافِ الذمّ**)، وعَن بعضِهم: أَيْ حالُه وَقْتَ النبذِ كانت

---

(١) «المحتسب» (٢: ٣٢٤-٣٢٦).

(٢) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٧٦) بتصرف.

﴿إن﴾ مخففةٌ مِن الثقيلةِ، واللامُ عَلَمُها. وقُرِئ: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ بضمِّ الياء وفتحِها، وزَلَقه وأَزْلَقه بمعنىً، ويقال: زَلَقَ الرأسَ وأَزْلَقه: حَلَقه، وقُرِئ: «ليزهِقونَك»؛ من زَهَقتْ نفسُه وأَزْهقَها، يعني: أنهم مِن شدةِ تَحْديقِهم ونظرِهم إليك شَزْراً بعيونِ العداوةِ والبغضاءِ، يكادونَ يُزِلّون قدمَك أو يُهلِكونَك، مِن قولهم: نَظرَ إليّ نَظراً يكادُ يَصْرعُني ويكادُ يأكلُني، أي: لو أَمكنَه بنظَرِه الصَّرعُ أو الأكلُ لَفعَلَه، قال:

يَتقارَضونَ إذا التقَوْا في مَوْطِنٍ ... نَظـراً يُـزِلُّ مَـواطِئَ الأَقْـدامِ

وقيل: كانتِ العَينُ في بني أسد، فكانَ الرّجلُ منهم يَتجوّعُ ثلاثةَ أيام فلا يَمرُّ به شيءٌ، فيقول فيه: لَم أرَ كاليوم مثلَه! إلاّ عانَه، فأُريدَ بعضُ العَيّانينَ علىٰ أن يقولَ في رسولِ الله ﷺ مثلَ ذلك، فقال: لَم أرَ كاليوم رجلاً! فعصمَه الله.

مُخالفةَ حالَ الابتداء؛ فإنَّ حالَ الابتداءِ حالُ الأمة، ولذلك قيلَ فيه: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾، وفي الآخرةِ لم يُذَم، ولم يكن حالَ الأمة.

قولُه: (﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ بضمِّ الياءِ وفَتْحِها)، بالفتحِ: نافعٌ، والباقون: بالضّمِّ[1].

قولُه: (يَتقارَضونَ إذا التَقَوا) البيت[2]، يُقالُ: القِرْنانِ يَتقارَضانِ النّظرَ، إذا نَظرَ كلُّ واحدٍ منهما إلىٰ صاحبه شَزْراً. وكلُّ أمرٍ يُجازىٰ به الناسُ فهو قَـرْض، وهما يَـتقارَضانِ الثناءَ، أيْ: كُلُّ واحدٍ منهما يُثْني علىٰ صاحبه، يقول: إذا الْتَقوا في مَوْطنٍ يَنْظرُ كلُّ واحدٍ منهم إلىٰ الآخَرِ نَظَرَ حَسَدٍ وحَنَق، حتىٰ يكاد يَصْرَعُه، وهو الإصابةُ بالعين.

وقولُه: مَواطِئَ الأَقْدامِ: أيْ: الأقدامَ نفسَها، والمرادُ: الموطِئُ مِن الأَقْدام، أي: تَـزِلّ الأخامِص. وأرادَ بالموطنِ: المعركة.

---

(١) زَلَقَ يَزْلِق، وأزلَقَ يُزْلِقُ: لغتانِ بمعنىٰ واحد، هو يَصرعونك. انظر: «حجة القراءات»، ص٧١٨.
(٢) لـم أهتد إلى قائله.

وعن الحسن: **دواءُ الإصابةِ بالعَين**، أنْ تقرأَ هٰذه الآية.

﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي القرآن، لَم يَملِكوا أنفسَهم حَسداً علىٰ ما أُوتيتَ مِن النبوّة، ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ حيرةً في أمرِه وتنفيراً عنه، وإلّا فقد عَلِموا أنه أعقلُهم، **والمعنىٰ: أنهم جَنّنوهُ لأجلِ القرآن** ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ وموعظةٌ ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ فكيف يُجَنَّنُ مَن جاءَ بمثله؟

عن رسولِ الله ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ القلَمِ أَعْطاه اللهُ ثوابَ الذين حَسَّنَ اللهُ أخلاقَهم».

قولُه: (**دواءُ الإصابةِ بالعين**)، عن مُسْلمٍ والتِّرمذي، عن ابن عبّاسٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: «**العَينُ حقٌّ**، ولو كان شيءٌ سابَقَ القَدَرَ سَبقَتْه العَين»[1].

قولُه: (**والمعنىٰ: أنَّهم جَنَّنوه لِأَجلِ القرآنِ**، ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾)، جوابٌ عن مُنكرٍ مُصِرٍّ أنَّ هذا القرآن ليس بِذِكْرٍ للعالمين من ربِّ العالمين، بل هو مِن قَبيلِ الجنِّ والكَهانة، وصاحبُه مجنونٌ كاهنٌ، كقولِه تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ۝ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٥-٢٧]، فهو مِن بابِ إطْلاق المسبَّب على السَّبب، لأَنَّ نِسْبتَه صلواتُ الله عليه إلى الجنون، لِكَوْنِ المُلْقىٰ إليه مِن الجنّ بزَعْمهم، وإلّا فهو أَعْقَلُ الناسِ عندهم، كما قال[2]: «وإلّا فقد عَلموا أنّه أَعْقَلُهم».

تمّت السّورة

حامداً لله ومصَلِّياً على رسوله.

* * *

---

(١) «صحيح مسلم» (٢١٨٨).

(٢) في (ف): «نقل».

سُورَة الحاقة

إحدى وخمسون آية، وهي مَكيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ ١-٨]

﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ الساعةُ الواجبةُ الوقوعِ الثابتةُ المجيء، التي هي آتيةٌ لا ريبَ فيها، أو التي فيها حَواقُّ الأمورِ من الحسابِ والثوابِ والعقاب، ....

سورةُ الحاقّة

اثنتان وخمسون آيةً، مكيّةٌ بلا خلاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَولُه: (حَوَاقُّ الأمورِ) يَعْني: أوْسَاطُها[١]، الجوهريّ: «سَقَطَ فلانٌ علىٰ حاقِّ رأسِه، أي: وَسَطِ رأسِه، وجئتُه في حاقِّ الشتاءِ، أي: وَسَطِه». وقيلَ: الحاصلُ أنها إمّا مِن قَوْلهم: حَقّ الشّيءُ

---

(١) في (ح): «أوسطها».

أو التي تَحِق فيها الأمورُ، أي: تُعرفُ علىٰ الحقيقة، من قولك: لا أحِقُّ هذا، أي: لا أعرفُ حقيقتَه. جُعلَ الفعلُ لها وهو لأهلِها، وارتفاعُها علىٰ الابتداء، وخبرُها ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾، والأصلُ: الحاقةُ ما هي؟ أَيْ: أيُّ شيءٍ هي؟ تفخيماً لشأنِها وتعظيماً لهولِها، فَوُضعَ الظاهرُ موضعَ المضمر؛ لأنه أهولُ لها، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ وأيُّ شيءٍ أعلمَك ما الحاقة؟ يعني: أنك لا عِلْمَ لك بكُنهِها ومدىٰ عِظمها، علىٰ أنه من العِظَم والشدّةِ بحيثُ لا يبلغُه درايةُ أحدٍ ولا وَهْمُه، وكيفما قُدّرتْ حالُها فهي أعظمُ مِن ذلك. و﴿وَمَآ﴾ في موضعِ الرفعِ علىٰ الابتداء، و﴿أَدْرَىٰكَ﴾معلّقٌ عنه لتضمُّنِه معنىٰ الاستفهام.

«القارعة»: التي تَقرعُ الناسَ بالأفزاعِ والأهوال، والسماءَ بالانشقاقِ والانفطار، والأرضَ والجبالَ بالدّكِّ والنَّسْف، والنجومَ بالطّمسِ والانكدار. **ووضعتْ موضعَ الضميرِ** ليَدُلَّ علىٰ معنىٰ القرع في ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾، زيادةً في وَصْفِ شدَّتِها؛ ولَـمّا ذكرَها وفَخَّمها، أتبع ذِكْرَ ذلك ذِكْرَ مَن كذَّبَ بها وما حلَّ بهم بسببِ التكذيب، تذكيراً لأهلِ مكةَ وتخويفاً لهم من عاقبةِ تكذيبِهم.

يَحِقُّ، بالكَسْرِ: ثَبَت. أو مِن قَولِهم: حَقَقْتُه أَحُقُّه، أيْ: عَرفتُ حقيقتَه.

أمّا علىٰ الأوّل، فإمّا أنْ يُقال: سُمِّيت حاقّةً، لأنها ثابتةُ الوقوعِ واجبةُ المجيء. أوْ هو علىٰ تَقْديرِ حَذْفِ المُضاف، أَيْ: ذو الحاقَّة، لأن فيها الأُمورَ الحواقَّ مِن الحسابِ والثَّوابِ والعقاب. وأمّا علىٰ الثاني، فالقيامةُ سُمِّيت حاقَّةً، بمعنىٰ عارفةً للأُمورِ علىٰ المجاز، لأنَّ الخلائقَ فيها تَعرفُ الأمور، فَجُعلَ الفِعلُ للقيامة وهو لأَهلها.

قال الواحديُّ: «﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾: القيامة، في قَولِ جميعِ المفسِّرين. وسُمِّيت بذلك، لأنّها ذاتُ الحواقِّ مِن الأمور، وهي الصادقةُ الواجبةُ الصِّدق، وجميعُ أَحكامِ القيامةِ صادقةٌ واجبةُ الوقوع»[1].

قَولُه: (وَوُضِعت مَوْضِعَ الضمير)، أيْ: «القارِعة» مُظْهرٌ وُضِعَ مَوضِعَ المُضْمَرِ مِن غيرِ

---

(١) «الوسيط» (٤: ٣٤٣)، قاله في تفسير الآية (١) من سورة الحاقة.

﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ بالواقعةِ المجاوِزةِ للحدِّ في الشدة؛ واختُلِفَ فيها، فقيل: الرَّجْفة، وعنِ ابنِ عباس: الصاعِقة، وعن قَتادة: بعثَ اللهُ عليهم صيحةً فأهمدَتْهم. وقيل: الطاغيةُ مصدرٌ كالعافية، أي: بطُغْيانِهم؛ وليس بذاك لعدم الطباقِ بينَها وبين قولِه ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾. والصَّرْصَر: الشديدةُ الصوتِ لها صَرْصَرَة، وقيل: الباردةُ من الصِّرّ، كأنها التي كُرِّرَ فيها البردُ وكثُر، فهي تحرِقُ لشدةِ بردِها.

لَفظِه السابق(١). وأصْلُ المعنىٰ: كَذَّبت ثَمودُ وعادٌ بها، فَعَدَل إلى «القارعةِ» لِيَدلَّ علىٰ القَرْعِ(٢) مَزيداً للتَّهويل.

قولُه: (﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ بالواقعةِ المجاوزةِ للحدّ في الشِّدّة)، اعْلَمْ أنّه لَمْ يَسْلكْ باللّفظِ سبيلَ ما وُضِعَ له مِن المعنىٰ الحقيقيّ، علىٰ أنّه هو الظّاهر؛ فإنَّ «الطاغيةَ» عند أهلِ اللّغةِ(٣): الطّغيان، فإسنادُه إليهم حقيقةٌ كما يقال: أمّا ثَمودُ، فَأُهلِكوا بِطُغيانِهم، لكن جُعِلت وَصْفاً لموصوفٍ مَحْذوفٍ وعلىٰ المجاز، أيْ: بالواقعةِ الطّاغية، فَحُذِف لرعاية التناسُبِ بين القَرينتَيْنِ، لأنّ قَرينتَها: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾.

قال صاحب «المفتاح»: «قولُه ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾: العُتُوُّ، هاهنا، مُسْتعارٌ استعارة الطّغيان في المثال الأوّل»(٤). وقال الزّجاج: «مَعْنىٰ ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ عند أهل اللغة: بطُغيانِهم، و«فاعِلة» قَد يأتي بمعنىٰ(٥) المصادرِ نَحو: عافية وعاقبة. والذي عليه الآيةُ أنهم أُهلكوا بالرَّجفةِ

---

(١) اللفظ السابق: الحاقة، والقارعةُ في قولِه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ مِن غيرِ لفظها.

(٢) في (ف): «الوقوع».

(٣) على طريقتهم في تداخُلِ المشتقاتِ استعمالاً، كقولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠]، أي: غائراً. وقولك: قُمْ قائماً، أي: قياماً.

(٤) «مفتاح العلوم» للسكاكي، ص ٣٩١.

(٥) في (ف): «بأفعال».

﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديدةِ العَصْفِ، والعتوُّ استعارة، أو عَـتَتْ علىٰ عادٍ، فما قَدروا علىٰ رَدّها بحيلة، من اسْتِتارٍ ببناء، أو لِـياذٍ بجبل، أو اختفاءٍ في حُفْرة؛ فإنها كانت تَنْزِعُهم من مكامنهم وتُهلِكُهم. وقيل: عَتتْ علىٰ خُزّانِها، فخرجتْ بلا كيلٍ ولا وَزْن.

وروي عن رسولِ الله ﷺ: «ما أرسلَ اللهُ سَفْيةً مِن ريحٍ إلا بمكيالٍ، ولا قَطرةً مِن مطرٍ إلا بمكيالٍ، إلا يومَ عادٍ ويومَ نوح؛ فإنّ الماءَ يومَ نوحٍ طغىٰ علىٰ الخُزّانِ فلم يكنْ لهم عليه سبيل»، ثُم قرأ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، «وإنّ الريحَ يومَ عادٍ عَتَتْ علىٰ الـخُزّان فلم يكنْ لهم عليها سبيل»، ثُم قرأ: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾،

الطاغية، كما قال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، فقيلَ للشّيء العظيم: عاتٍ[1] وعاتية، كقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾»[2]. وهٰذا أَصلٌ عظيمٌ تَنْبني عليه أكثر المعاني في التّنزيل، في أنَّ رعايةَ النَّـظْمِ أولىٰ بالمصيرِ إليه مِن ظاهرِ اللفظ، ومِن ثَمّ قال: «وليس بذاك لعدمِ الطِّباق».

قولُه: (أَوْ عَـتَتْ علىٰ عادٍ) عَطفٌ على «عاتيةٍ شديدةِ العَصْفِ»[3]، فعلىٰ الأول: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ مُطْلقةٍ، وعلىٰ الثاني: مُتعلَّقُها مَحْذوف.

قَوله: (سَفْيةً[4] مِن ريح) أيْ: مَرَّة، مِن سَفَت الرِّيح. النّهاية: «السّافي: الرِّيحُ التي تَسْفي التُّرابَ، وقيلَ للتُّرابِ الذي تَسْفيه الرِّيحُ أيضاً: سافٍ، أي: مَسْفيّ، كماءٍ دافِقٍ».

---

(١) في (ف): «عاهٍ»، ولعلّه يَقْصد: عاةٍ، وكلاهما خطأ.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢١٣-٢١٤) بتصرف.

(٣) في (ف): «العطف».

(٤) في بعض نسخ «الكشاف» وطبعاته: «سَفينةً»، والصواب: «سَفْية»، كما شَرَح الطيبيُّ وبيَّن، وفي (ف): «سَفْتة»، وفي «الجامع» للقرطبي (١٨: ٢٥٩): نَسْمة.

ولعلّها عبارةٌ عن الشدةِ والإفراطِ فيها. والحُسوم: لا يَخْلو مِن أنْ يكونَ جمعَ حاسِمٍ؛ كشُهودٍ وقُعود، أو مصدراً؛ كالشُّكورِ والكُفور. فإنْ كان جمعاً، فمعنىٰ قوله: ﴿حُسُومًا﴾: نَحِساتٍ **حَسَمتْ كلَّ خيرٍ واستأصلتْ** كلَّ بَركة، **أو متابعةً** هبوبَ الرياح، ما خَفَتَتْ ساعةً **حتىٰ أتتْ عليهم** تمثيلاً لتتابُعِها بتتابعِ فِعْلِ الحاسِمِ في إعادةِ الكَيِّ علىٰ الداء، كَرَّةً بعد أخرىٰ حتىٰ يَنْحسم.

وإن كانَ مصدراً: فإما أن يَنْتصبَ بفعلِه مُضْمراً، أي: تَحْسُمُ حُسوماً، بمعنىٰ تَسْتأصلُ استئصالاً، أو يكونُ صفةً كقولِك: ذاتُ حُسوم، أو يكونُ مفعولاً له، أي: سَخّرها للاستِئصال، وقال عبدُ العزيز بنُ زُرارة الكلابي:

قَوله: (**ولعلَّها عبارةٌ**) أيْ: العاتيةُ علىٰ هذا التفسير كنايةٌ عن الشدَّةِ والإفراطِ فيها، لا أنَّها[1] عَتَتْ علىٰ الخزَّانِ حقيقةً.

قوله: (**حَسَمتْ كلَّ خيرٍ واستأْصلَتْ**)، **الرّاغبُ**: «الحَسْمُ: إزالةُ أثَرِ الشَّيء، يقالُ: قَطَعَه فحَسَمَه، أيْ: أزالَ مادَّتَه، وبه سُمِّي السَّيفُ حُساماً. وحَسْمُ الدّاءِ: إزالةُ أثرِه بالكَيّ. وقيل للشُّؤمِ المُزيلِ لأثرِ مَن نالَه: حُسومٌ، قال تعالىٰ: ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، وقيلَ: حاسِماً خبَرَهم، وقيل: قاطعاً لِعُمُرِهم، وكُلُّ ذلك داخلٌ في عُمومه»[2].

قولُه: (**أو مُتتابعةً**) عَطفٌ علىٰ قولِه: «نَحِساتٍ». والجمعُ في ﴿حُسُومًا﴾ علىٰ الأوّل باعتبارِ المَحْسومِ لقولِه: «كلَّ خير»، وعلىٰ الثاني باعتبارِ نفسِها.

وعلى الأوّل يمكنُ أَنْ يَحْصلَ حَسْمُ الجميعِ مِن غيرِ التّتابع، وعلىٰ الثاني بالعكس، وقَدْ مَرَّ في سورةِ القمر عند قوْلِه: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [من الآية: ١٩]، كلامٌ في هذا المعنىٰ.

قولُه: (**حتّى أَتَتْ عليهم**). أيْ: أَهْلكتهم.

---

(١) في (ف): «لأنها»، وليس بصواب.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٢٣٥.

ففَرَّقَ بَينَ بَيْنِهِمُ زمانٌ تَتابَعَ فيهِ أعوامٌ حُسُومُ

وقَرأ السّدي: «حَسوماً»، بالفتح حالاً من الرّيح، أي: سَخَّرها عليهم مُستأصِلةً، وقيل: هي أيامُ العَجوز؛ وذلك أن عَجوزاً مِن عادٍ تَوارتْ في سَرَب، فانتزعَتْها الريحُ في اليومِ الثامنِ فأهلكَتْها. **وقيل: هي أيامُ العَجُز، وهي آخِرُ الشتاء**، وأسماؤها: الصِّنُّ والصِّنَّبْر، والوَبْر، والآمِرُ، والمؤتَمِر، والمُعلِّل، ومُطْفِئُ الجَمْر، وقيل: مُكْفِئُ الظُّعْن.

ومعنى ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ سَلَّطَها عليهم كما شاءَ ﴿فِيهَا﴾ في مَهابِّها، أو في الليالي والأيام. وقُرِئ: «أَعجاز نَخيل» ﴿مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾، من بَقيّةٍ، أو من نفسٍ باقيـة، أو مِن بقاء، كالطاغية: بمعنىٰ الطُّغيان.

[﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ * فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً﴾ ٩-١٠]

قولُه: (**فَفَرَّقَ بَيْنَ بَينِهِمُ**) البيت، «بَيْنَ» الأوَّلُ مُقْحَمٌ تأكيداً. وقيلَ: يُحتملُ أنْ يكونَ «بَيْن» الثاني بمعنىٰ الوَصْل؛ فالأوَّلُ غيرُ مُقْحَمٍ، وإنْ كانَ مُقْحَماً، فالوجهُ فَتْحُ «بين» الثاني، وإلا فالوَجْهُ الكَسْر.

قَوْلُه: (**وقيلَ: هي أيامُ العَجُز، وهي آخِرُ الشتاء**) قالَ ابنُ قُتيبةَ الدِّينوريُّ في «الأَنواءِ»: «وأَيّامُ العجوزِ في نَوْءِ الصَّرْفة، ونَوْؤُها آخرُ أنواءِ الشتاء، وهي عندهم خمسةُ أيام: صِنٌّ، وصِنَّبْر، ووَبْر، ومُطْفِئُ الجَمْر، ومُكفِئُ الظُّعْن. والبَرَدُ فيها يَشْتدّ وذلك لانصرافه، وبه سُمِّيت الصَّرْفة، ويُشْبِه ذلك السِّراجُ يَشْتدُّ ضَوْؤُه، قبل أنْ يُطفأ»[1].

وقالَ الجوهريّ: «صَنابرُ الشّتاء: شِدَّةُ بَرْدِه، وكذلك الصِّنَّبْرُ بتَشديدِ النّونِ وكسرِ الباء، وبسُكونِها: يومٌ مِن أيّامِ العجوز، والوَبْرُ أيضاً»[2]. وأمّا قولُ الشّاعِر:

---

(١) «الأنواء» ص ١١٩.

(٢) «الصحاح» (٢: ٧٠٨، ٨٤١).

(ومَن قِبَلَه) يريد: ومَن عِنْده مِن تُبّاعِه، وقُرِئ: ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾، أي: ومَن تَقدَّمَه. وتَعضدُ الأولىٰ قراءةُ عبدِ الله وأُبيّ: «ومَن مَعَه»، وقراءةُ أَبي موسىٰ: «ومَنْ تلقاءَه».

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ﴾ قُرىٰ قومِ لوط ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ بالخطأ، أو بالفَعْلة، أو الأفعالِ ذاتِ الخطأِ العظيم ﴿رَّابِيَةً﴾ شديدةً زائدةً في الشّدة، كما زادتْ قبائِحُهم في القُبح، يقال: رَبا الشيءُ يَرْبو: إذا زاد، ﴿لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٣٩].

[﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ ١١-١٢]

وَبِآمِرٍ وأَخيهِ مُؤْتَمِرِ[1]

فهما يومانِ مِن أيامِ العجوز، كان الأوّلُ يأمرُ الناسَ بالحذر، والآخرُ يُشاوِرُهم في الظَّعْنِ أَوِ المُقام. والمُعَلِّلُ يومٌ مِن أَيّامِ العَجوز، لأَنّه يُعَلِّل الناسَ بشيءٍ مِن تَخْفيفِ البَرْد. «والكِفاءُ، بالمدّ والكَسْر، شُقّة أو شُقّتانِ تُنْصَحُ إِحداهما بالأُخرىٰ، ثُمَّ يُحمَلُ به مُؤَخَّرُ الخِباء»[2]، تقول: منه: أَكْفأْتُ البيتَ إكفاءً.

قَوْلُه: (وقُرِئ: ﴿وَمَن قِبَلَهُۥ﴾)، أبو عمرو والكسائي: بكسرِ القافِ وفَتْحِ الباء، والباقون: بفتحِ القافِ وإسكانِ الباء[3].

---

(١) مِن مقطوعةٍ أنشدها الأصمعيُّ لأبي شِبْل الأعرابي، وهي:

كُسِعَ الشتاءُ بسبعةٍ غُبْرِ ... أيامِ شَهْلَتِنا مِن الشّهرِ
فإذا انقضتْ أيامُ شهلتنا ... صِنٌّ وصِنَّبْرٌ مَع الوَبْرِ
وبآمِرٍ وأخيه مُؤتَمِرٍ ... ومُعَلِّلٍ وبمطفئِ الجمرِ
ذهبَ الشتاءُ مُولّياً هرباً ... وأتتكَ واقِدةٌ مِن النَّجْرِ

انظر: «اللسان» لابن منظور، مادة (كسع).

(٢) كذا في «اللسان» مادة (كفأ)، وتُنْصَحُ: تُخاط، مِن قولِك: نَصحتُ الثوبَ: إذا خِطتَه. انظر: «اللسان» مادة (نصح).

(٣) «ومَن قِبَلَه»: أي: وتُبّاعه، ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾: مَنْ تَقدَّمَه. انظر: «حُجّة القراءات» لابن زنجلة، ص ٧١٨.

﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ حملنا آباءَكم ﴿فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾ في سفينةِ نوح؛ لأنهم إذا كانوا مِن نَسْلِ المحمولينَ الناجين، كانَ حَمْلُ آبائِهم مِنَّةً عليهم، وكأنهم هُمُ المحمولون، لأن نَجاتَهم سببُ ولادتِهم ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ الضميرُ للفَعْلة، وهي نجاةُ المؤمنينَ وإغراقُ الكَفَرة ﴿تَذْكِرَةً﴾ عِظةً وعِبرةً. ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ مِن شأنِها أن تعيَ وتحفظَ ما سَمعتْ به ولا تُضيِّعَه بتركِ العمل، وكلُّ ما حَفِظْتَه في نفسِك فقد وَعَيْتَه، وما حَفِظتَه في غيرِ نفسِك فقد أَوْعيتَه، كقولك: أَوْعيتُ الشيءَ في الظَّرف.

وعن النبيِّ ﷺ أنه قالَ لعليٍّ رضيَ اللهُ عنه عند نُزولِ هٰذه الآية: «سألتُ اللهَ أن يجعلَها أُذنَك يا عليّ»، قال عليٌّ رضي اللهُ عنه: فما نسيتُ شيئاً بعدُ، وما كان لي أن أنسىٰ.

فإن قلتَ: لِمَ قيل: ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، علىٰ التوحيد والتنكير؟

قلتُ: للإيذانِ بأن الوُعاة فيهم قِلَّة، ولتوبيخِ الناسِ بقلةِ مَن يَعي منهم؛ وللدلالةِ علىٰ أنَّ الأذنَ الواحدةَ إذا وَعَتْ وعَقَلَتْ عنِ الله، فهي السَّوادُ الأعظمُ عند الله، وأن ما سواها لا يُبالي بهم بالةً وإن ملؤوا ما بين الخافقيْن.

وقُرِئ: «وتَعْـيَها» بسكون العينِ للتخفيف؛ شُبِّهَ «تَعِي» بـ«كَبِد».

[﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ١٣-١٨]

قولُه: (وما كانَ لي أَنْ أنسىٰ)، أيْ: ولا يُمْكنني ولا يَنْبغي أَنْ أَنسىٰ وإنْ تكَلَّفتُ ذلك.

قولُه: (لا يُبالي بهم بالةً)، الجوهريّ: «الأصلُ: بالية، مثل: عافاه عافية؛ حَذَفوا الياءَ منها بناءً علىٰ قولِهم: لَمْ أُبَلْ، وليس مِن بابِ الطاعةِ والطَّاقة». وقُلتُ: لَعلَّه يُعرِّضُ بأَهلِ السُّنّة المُسمَّيْنَ بالسَّوادِ الأعظم، كما طَعَنَ[1] فيهم عند قولِه تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

---

(١) انظر كلامه في «الكشاف» (٥: ٤٩٨).

أُسندَ الفعلُ إلىٰ المصدر، وحَسُنَ تذكيرُه لِلفَصْل. وقرأ أبو السَّمال: «نفخةً واحدةً» بالنصب، مُسنِداً الفعل إلىٰ الجارِّ والمجرور.

فإن قلتَ: هما نفختان، فلِمَ قيل: واحدة؟ قلتُ: معناه أنها لا تُثَنّىٰ في وقتها.

قولُه: (معناه: أنّها لا تُثَنّى في وقتها) أي: تَقَعَ النفخةُ الأخرى بعدها بزمان، رُوي عن المصنِّفِ رَحِمه اللهُ أنّه قال: «النَّفخةُ: المَرّة، ودلالتُها علىٰ النَّفْخِ اتفاقيّةٌ غيرُ مَقْصودةٍ، وحدوثُ الأمرِ العظيمِ بها وعلىٰ عَقبها، إنما[1] اسْتُعْظِم مِن حيثُ وقوعُ النَّفخِ مَرّةً واحدةً، لا مِن حيثُ إنّه نَفْخ، فنَبَّه علىٰ ذلك بقولِه: ﴿وَٰحِدَةٌ﴾».

فإنْ قلتَ: هٰذا مضادٌّ لِقَوْلِ ابنِ الحاجبِ في «شَرْحِه»: «إنَّ ﴿نَفۡخَةٌ﴾ لم توضَع للدّلالة علىٰ الوحدة على حيالها، وإنّما وُضِعت للدلالةِ علىٰ النَّفخ، والدّلالةُ علىٰ الوحدة ضُمّن «لا»، مقصودٌ بوضعِ اللفظِ المركَّبِ له»[2].

قلتُ: لا مُناقضة، لأنَّ المصنِّفَ راعىٰ مُقْتضىٰ المقام، وأنَّ مثلَ ﴿نَفۡخَةٌ﴾ حاملٌ لِمَعْنيينِ: الجِنْسيّةِ[3] والعدد. ولمّا كان المعنىٰ الذي يُساقُ إليه الحديثُ، وهو حُدوثُ الأَمرِ العظيم، اقْتَضىٰ العَدد، شُفِعَ بما يُؤكِّد، فَدُلَّ بِهِ على أنَّ العنايةَ به أَتَمّ. ولو قيلَ: ونُفِخَ في الصّورِ نَفْخةٌ ولَمْ يُؤَكِّدْها، لَمْ يَحْسُن، وخُيِّل أنّه أثبتَ معنىٰ النَّـفْخ[4] لا المَرّة. ذُكِرَ نَحوُه في قولِه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [النَّحل: ٥١].

وابنُ الحاجبِ نَظَرَ إلى ظاهرِ اللفظِ مِن غيرِ اعتبارِ المقام، واستقلالِ النَّفْخةِ في مَعنىٰ ما وُضِعت له، وأنَّ دلالاتها علىٰ الوَحْدةِ ضِمْنٌ. وقَوْلُه: شُفِعَ بما يُؤَكِّد، ليس بنصٍّ علىٰ أنَّ «الواحدةَ» تأكيدٌ لا صفةٌ، لِمَجيءِ الصِّفةِ المؤكِّدةِ على هذا النَّهج.

---

(١) في الأصول الخطية: «إنّها»، وصوابُه ما أثبتناه عن الألوسي الذي نقل عبارة الطيبي بنصّها. انظر: «روح المعاني» (١٥: ٤٩).

(٢) لم أهتدِ الى موضعه في شرح ابن الحاجب، وعبارته بنصّها في «روح المعاني» (١٥: ٤٩-٥٠).

(٣) في (ح): «الحاسية».

(٤) في (ح): «معنى النَّفخ».

فإن قلتَ: فأيُّ النفختيْنِ هي؟ قلتُ: الأولىٰ، لأن عندها فسادَ العالم، وهكذا الروايةُ عن ابنِ عباس، وقد رُوي عنه أنها الثانية.

فإن قلتَ: أما قال بعدُ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ والعَرْضُ إنما هو عندَ النفخةِ الثانية؟ قلتُ: جُعل اليومُ اسماً للحينِ الواسعِ الذي تقعُ فيه النفختانِ والصَّعقةُ والنشورُ والوقوفُ والحِساب، فلذلك قيل: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ كما تقول: جئتُه عامَ كذا؛ وإنما كان مجيئُك في وقتٍ واحدٍ من أوقاتِه.

﴿وَحُمِلَتِ﴾ ورُفعتْ مِن جهاتِها بريحٍ بَلغتْ من قوّةِ عَصْفِها أنها تَحملُ الأرضَ والجبال، أو بِخَلْقٍ من الملائكة، أو بقدرةِ الله من غيرِ سبب. **وقُرِئ: «وَحُمِّلتْ» بحذفِ**

قال صاحبُ «الكَشف»: ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ كقولِـه تعالىٰ: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النَّحل: ٥١]، وقَولِهم: أمسِ الدّابرُ لا يَعود[١]، ولا يُنافي البيانَ كما عليه ظاهِرُ كلامِ صاحبِ «المفتاح» في قَوْلِه: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النَّحل: ٥١]، ولا التأكيدَ أيضاً؛ إذِ التوابعُ كالبدلِ وعَطْفِ البيانِ والصِّفةِ والتأكيدِ، بيانٌ مِن وجهٍ للمتبوعِ عند أربابِ المعاني[٢].

قولُه: (**وقُرِئ: «وحُمِّلت»، بحذفِ الـمُحَمَّل**) أيْ: بِحذفِ ما حَملها، وهو أَحدُ الثلاثةِ المذكورة، مِن الرِّيحِ أو الـملائكةِ أو القُدْرة، فَعُدِّي في القراءةِ الأُولى[٣] إلى المفعولِ[٤] بواسطة

---

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٣٧٩).

(٢) انظر: «مفتاح العلوم» ص ١٩٠.

(٣) وهي القراءة المشهورةُ: «حُمِلَت»، بالبناءِ للمجهول وكسرِ الميم مِن غيرِ تضعيف، والقراءةُ الثانيةُ هي التي ذكرها الزمخشري، وهي قراءةُ الأعمشِ وابنِ أبي عبلة وابنِ مقسم، انظر: «مختصر شواذ القراءات» لابن خالويه، وتمام تخريجها في «معجم القراءات القرآنية» (٧: ٢٠٩-٢١٠).

(٤) في الأصول الخطية: المفعول الثاني، وليس بصواب، لأن التقدير في القراءة الأولى: حَمَلَتْ قُدْرتُنا الأرضَ؛ فعند البناءِ للمجهولِ تُصبحُ: حُمِلَتِ الأرضُ. وعلى ذلك، فصوابُه إذن: فعدّي في القراءة الأولى إلى المفعول بواسطة البناء.

المُحمَّلِ وهُوَ أحدُ الثلاثة. ﴿فَدُكَّتَا﴾ فدُكّتِ الجُمْلتان: جُملةُ الأرَضين وجُملةُ الجبال، فَضُربَ بعضُها ببعضٍ حتىٰ تَنْدقَّ وتَرْجعَ كثيباً مَهيلاً وهباءً منبثاً، **والدّكُّ أبلغُ مِن الدّق**. وقيل: فَبُسِطتا بسطةً واحدة، فصارتا أرضاً لا ترىٰ فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً، من قولك: اندكّ السَّنام إذا انْفرَش، وبعيرٌ أَدكُّ وناقةٌ دكّاء، ومنه: الدّكّان.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ فحينئذٍ نزلتِ النازلةُ وهي القيامة ﴿وَاهِيَةٌ﴾ مسترخيةٌ ساقطةُ القوّةِ جدًّا بعد ما كانتْ مُحكَمةً مُسْتمسِكة، ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ يريد: والخَلقُ الذي يقالُ له المَلَك، ورُدَّ إليه الضميرُ مجموعاً في قوله: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ علىٰ المعنىٰ.

البناء، وإليه الإشارةُ بقولِه: «ورُفِعت مِن جهاتِها بريح»، وفي الثانية بالتَّضعيف[١].

قالَ ابن جنّي: «روي عن ابن عامر مشدّدة الميم، قالَ ابنُ مجاهد: ما أدري ما هذا». وقال ابن جنّي: «وهُو صحيحٌ واضِح، وذلك أنّـه أَسْنَـدَ الفعلَ إلىٰ المفعولِ الثاني، حتَّى كأنّـه في الأَصلِ: وحَمَّلنا قُدْرتَنا، أو مَلَـكاً مِن ملائِكتنا، أو نَحْوَ ذلك، الأَرْضَ. ولو جئتَ بالمفعولِ الأولِ لَأَسْنَدتَ الفعلَ إليه، فَقُلتَ: وحُمِّلت قُدْرتُنا الأرضَ. فلمّا لَمْ يُذكرِ المفعولُ الأولُ، أُقيمَ الثاني مَقامَ الفاعلِ فَرُفِع، فقيل: وحُمِّلَتِ الأرضُ، ونَحوُه قَوْلُك: أَلبستُ زيداً الجبَّـةَ، فَلَو أقمتَ المفعولَ الأولَ مقام الفاعلِ، قلت: أُلبِسَ زيدٌ الـجُبَّـةَ. وإنْ حَذَفتَ المفعولَ الأولَ، أقمتَ الثاني مَقامه، فقلتَ: أُلبِسَتِ الـجُبَّـةُ. نعم، ويجوز أيضاً مَع استيفاءِ المفعولِ الأولِ، أَنْ يُبْنىٰ الفعلُ للمفعولِ الثاني، فتقول: أُلبِسَتِ الـجُبَّـةُ زيداً، علىٰ طريق القلبِ للاتِّساع» تَمَّ كلامُه[٢].

قولُه: (**والدَّكُّ أَبلغُ مِن الدَّقّ**)، **الراغب**: «الدَّكُّ: الأَرْضُ اللَّيِّنةُ السَّهلة، وقَدْ دَكَّه دكًّا.

---

(١) لعلّ الصواب: بالبناءِ والتضعيف.

(٢) «المُحْتَسَب» (٢: ٣٢٧-٣٢٨).

فإن قلتَ: ما الفرق بين قوله: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾، وبين أن يقالَ: «والملائكة»؟

قلتُ: الملَك أعمُّ من الملائكة، ألا ترىٰ أن قولك: ما مِن مَلَكٍ إلا وهو شاهِد، أعمُّ من قولك: ما مِن ملائكة؟ ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ علىٰ جوانبها، الواحدُ رَجاً مقصور، ....

وقَولُه تعالىٰ: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾، أيْ: جُعِلَتْ بمنزلةِ الأرض اللّينة، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]»[١].

قَوْلُه: (المَلَكُ أعَمُّ مِن الملائكة) قالَ صاحبُ «التَّقريب»: «لأنَّ الجنسَ يَقعُ علىٰ الواحِدِ والكثير، والجَمْعُ لا يَقعُ إلّا علىٰ الكثيرِ، فأفرادُ[٢] الجنسِ أكثر؛ فكُلَّما وُجِدَ الكثيرُ وُجِدَ الجِنسُ ولا يَنْعكس»، وفيه نظَر.

وقالَ صاحبُ «الانتصاف»: «كلٌّ مِن المفردِ والجَمْعِ مُعَرَّفٌ تعريفَ الجِنْس، فالواحدُ والجمعُ سواءٌ»[٣].

وقالَ في «الإنصاف»: «استشهادُ الزَّمخشريّ[٤] بقولِه: «ما مِنْ مَلَكٍ»، أنّه أعَمُّ، ضعيفٌ؛ فإنّه[٥] ما حَصَلَ العموم إلّا مِن النَّفي، وقولُه: «أعَمُّ من: ما مِن ملائكة»، لأنَّ الأوّلَ يَنْفي عَن كلِّ واحدٍ ومثلِه، والثاني يَنْفي عَن كُلِّ جماعة، لا عَن كُلِّ واحد»[٦]. ومِثلُه قولُ صاحبِ «المفتاح»: «اسْتِغراقُ المفردِ أشْمَلُ مِن استغراقِ الجمع، ويَتَبيَّنُ ذلك بأنْ ليس يَصْدق: لا رجلَ في الدار، في نَفْيِ الجنسِ إذا كانَ فيها رجلٌ أو رجلان، ويَصْدقُ: لا رجالَ في الدّار»[٧].

---

(١) «مفردات القرآن» ص ٣١٦.

(٢) في (ف): «فأراد».

(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٠١).

(٤) في مخطوط «الإنصاف»: «أحمد»، وليس بصواب.

(٥) قوله: «ضعيف فإنّه»، سقط من (ح) و(ف).

(٦) «الإنصاف» (ق١٤٢).

(٧) «مفتاح العلوم» ص ٢١٦.

....

وقلتُ: لا فرقَ بين المَنْفي والمُثْبت، لِمَا سَبَقَ في «البقرة»، أنَّ اسْتغراقَ الجنسِ في الواحد، بحسَبِ تَناوُلِه[(١)] الأفرادَ فرداً فَرْداً، إلى أنْ يَنْتهي إلى الواحد[(٢)]. وفي الجَمْعِ، يُحْتَمَلُ أنْ يكون وُحْدانُه[(٣)] المجموعَ جمعاً جمعاً، إلى أنْ يَـنْتهي إلى الاثنينِ أو الثلاثة. ولهذا قال صاحبُ «المفتاح»: «وَمِن هٰذا يُعْرفُ لُطْفُ قَوْلِه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]، دون: وَهَنَ العظام، مِن حيث يُوصَلُ باختصارِ اللفظِ إلى الإِطْناب»[(٤)].

وقال البَزْدوي[(٥)]: «قولك: والله لا أَتزوَّجُ النساءَ ولا أشتري[(٦)] العبيد: إنَّ ذلك يَقَعُ على الأقل ويَحْتملُ الكُلّ، لأَنَّ هذا جَمعٌ صارَ مَجازاً عن اسمِ الجنس؛ لأنّا إذا أَبْقيناه جمعاً لُغيَ حَرفُ العَهْد[(٧)]، وإِذا جعلناه جِنساً بقي اللامُ لتعريفِ الجنسِ، وبَقِيَ مَعْنىٰ الجمعِ مِن وَجْهٍ في الجِنْس»[(٨)].

ثمَّ يقالُ لصاحبِ «الإنصاف»: إنْ صَحَّ النَّفيُ في الاسْتشهاد كيف يَصِحّ في قولِه: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾؟ [الحاقة: ١٧]. وقال الراغبُ: «النَّحويّون جَعَلوا «الـمَلَكَ» مِن لفظ

---

(١) في (ح): «ما تناوله».

(٢) انظر: «الكشاف» (٢: ٣٤٩-٣٥٠).

(٣) الوُحْدان: جمع الواحد.

(٤) «مفتاح العلوم» ص ٢١٦.

(٥) أبو الحسن، علي بن محمد: فقيهٌ أصوليٌّ مِن أكابِرِ الحنفية، له تَصانيفُ منها «كنز الوصول» في أصول الفقه، توفي سنة (٤٨٢ هـ).

(٦) في (ط) و(ف): «أُكلِّم».

(٧) أي: «ال» العهديّة، مع أنَّ هذه الأمثلة تحتملُ اللام فيها الجنسية والعهدية، قالوا في «لا أشربُ الماء»: «إن الألف واللام تكون للجنس تارة وللعهد أخرى». انظر: «البحر المحيط» (٢: ٢٩٥) للزركشي. وقال ابن هشام في قولهم «لا أتزوج النساء»: «وبعضهم يقولُ فيها: إنها لتعريف العهد، لأن الأجناسَ أمورٌ معهودة في الأذهان متميِّزٌ بعضها عن بعض». «مغني اللبيب» ص ٧٣.

(٨) «الكافي في شرح البزدوي» (١: ٣٧٥) للسِّغناقي.

يعني: أنها تَنْشقُّ، وهي مَسْكنُ الملائكة، **فَيَنْضوون إلىٰ أطرافِها** وما حولَها مِن حافاتِها، ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ أي: ثمانيةٌ منهم.

وعن رسولِ الله ﷺ: «همُ اليومَ أربعةٌ، فإذا كانَ يومُ القيامةِ أيَّـدهُمُ اللهُ بأربعةٍ آخرينَ فيكونونَ ثمانيةً». وروي: ثمانيةُ أملاكٍ أَرْجلُهم **في تخومِ الأرضِ** السابعة، والعرشُ فوقَ رؤوسِهم، وهم مُطرِقون مُسبِّحون. وقيل: بعضُهم علىٰ صورةِ الإنسان، ....

الملائكة، وجَعلوا الميمَ زائدة. وقالَ بعضُ المحقّقين: هو مِن المِلْك، قال: والمتولِّي مِن الملائكة شيئاً مِن السياساتِ، يُقالُ له: مَلَكٌ بالفتح، ومِن البَشَر يقالُ له: مَلِكٌ بالكسر. قال: فكلُّ مَلَكٍ ملائكةٌ[١] مِن غيرِ عكس، بل الـمَلَكُ هو المشارُ إليه[٢] بقولِه تعالىٰ: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ﴾ [الذاريات: ٤]، ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ [النازعات: ١]. ومنه مَلَكُ الموت، ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾»[٣].

قولُه: (فَيَنْضَوونَ إلىٰ أَطرافِها)، الجوهري: «ضَوَيتُ إليه، بالفَتْحِ، أَضْوي ضُوِيًّا، إذا أَويتُ إليه وانْضَمَمْتُ»[٤].

قولُه: (في تُخومِ الأرض)[٥]، الجَوْهريّ: «التَّخْمُ: مُنْتهىٰ كلِّ قَرْيةٍ أَوْ أَرْض، والجمعُ تُخوم، مثل فَلْسٍ وفُلوس. وقالَ ابنُ السِّكِّيت: سَمِعتُ أبا عمرو يقول: هي تَخومُ الأَرضِ، والجمعُ تُخُم، مثل: صَبورٍ وصُبُر».

---

(١) في (ح): «مِن الملائكة».

(٢) في (ح) و(ف): «إليهم».

(٣) «مفردات القرآن» ص ٧٧٦.

(٤) في (ف): «الجوهري: نَضوْتُ البلاد: قَطعَتُها. الأساس: الفرسُ يَنْضو الجياد اذا تقدّمها»؛ فـ«ينضوون» هنا على وزن «يَفْعلون»، والجذر: نَضو، والمثبت من (ح) و(ط) على وزن: يَنْفعلون، والجذر: ضوي. والمعنى في السياق يقتضي الجذر (ضوي) كما في (ح) و(ط).

(٥) قوله: «الروايةُ بفتحِ التاء»، سقط من (ح).

وبعضُهم علىٰ صورةِ الأسد، وبعضُهم علىٰ صورةِ الثَّور، وبعضُهم علىٰ صورةِ النَّسْر.

ورُوي: ثمانيةُ أملاكٍ في خَلْقِ الأوْعال، ما بين أظلافِها إلىٰ رُكبِها مسيرةُ سبعين عاماً. وعن شَهْرِ بنِ حَوْشب: أربعةٌ منهم يقولون: سُبحانَكَ اللهمّ وبحمدِك، لك الحمدُ علىٰ عفوِك بعد قُدْرتِك، وأربعةٌ يقولون: سُبحانَكَ اللهُمّ وبحمدِك، لك الحمدُ علىٰ حِلْمِك بعدَ عِلْمك. وعن الحسن: اللهُ أعلمُ كم هم، أثمانيةٌ أم ثمانيةُ آلاف؟ وعن الضّحاك: ثمانيةُ صفوفٍ لا يعلمُ عددَهم إلا الله. ويجوزُ أن تكونَ الثمانيةُ مِن الرّوح، أو مِن خَلْقٍ آخر، فهو القادرُ علىٰ كلِّ خَلْق ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

العَرْض: عبارةٌ عن المحاسَبةِ والمُساءَلة، شُبّه ذلك بعَرضِ السُّلطان العَسْكَر لتعرُّفِ أحوالِه. **ورُوي أنّ في يوم القيامةِ ثلاثَ عَرَضات:** فأما عَرْضتانِ فاعتذارٌ واحتجاجٌ وتَوْبيخ، وأما الثالثةُ ففيها تُنْشرُ الكتبُ، فيأخذُ الفائزُ كتابَه بيمينِه والهالكُ كتابَه بشماله ﴿خَافِيَةٌ﴾ سَريرةٌ وحالٌ كانت تَخفىٰ في الدنيا بسَتْرِ الله عليكم.

قولُه: (**ورُوي: ثمانيةُ أملاكٍ في خَلْقِ الأوْعال**) عن التِّرمذي وأبي داود وابن ماجه، عن العباس بنِ عبد المطلب في حديث: «وفوق ذلك ثمانيةُ أوعالٍ، بين أظْلافِهنَّ ورُكبِهنَّ ما بين سماءٍ إلىٰ سماء، ثُمَّ فوقَ ظُهورِهنَّ العَـرْشُ، بين أسفلِه وأعلاه مِثْـلُ ما بين السَّماء إلى السَّماء»[1].

قولُه: (**أنَّ في يوم القيامةِ ثلاثَ عَرَضاتٍ**) الحديثُ مِن روايةِ أبي هُريرةَ عن رسولِ الله ﷺ، قال: «يُعْرَضُ الناسُ يومَ القيامةِ ثلاثَ عَرَضات، فأمّا عَرْضتانِ فَجِدالٌ ومَعاذير، وأمّا العَـرْضَةُ الثالِثة[2]، فعِندَ ذلك تَطيرُ الصُّحُـفُ في الأَيدي، فآخِذٌ بيميـنِه وآخِذٌ بشمالِه».

---

(١) انظر: «سنن الترمذي» (٣٣٢٠). وقال: هذا حديث حسنٌ غريبٌ.

(٢) قوله: «وأما العَرْضة الثالثة»، سقط من الأصول الخطية.

[﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ ١٩ - ٢٤]

﴿فَأَمَّا﴾ تفصيلٌ للعَرْض. «ها»: صوتٌ يُصوّتُ به فيُفهَمُ منه معنىٰ (خُذْ) كأُفٍّ وحَسِّ، وما أشبه ذلك. و﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ منصوبٌ بـ﴿هَآؤُمُ﴾ عند الكوفيين، وعند البصريين بـ﴿ٱقْرَءُواْ﴾، لأنه أقربُ العاملَيْنِ؛ وأصله: هاؤمُ كتابي اقرؤا كتابي، فحُذِفَ الأوّلُ لدلالةِ الثاني عليه، ونَظيرُه ﴿ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]، قالوا: ولو كانَ العاملُ الأوّلَ لقيل: اقرؤوه وأُفرِغْه، والهاءُ للسكتِ في ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾، وكذلك في ﴿حِسَابِيَهْ﴾ و﴿مَالِيَهْ﴾ و﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾، وحَقُّ هٰذه الهاءاتِ أن تُثْبَتَ في الوقفِ وتُسْقطَ في الوصل،

أَخرَجه التِّرمذِي[١]، قال: «لا يَصحُّ هذا الحديثُ مِن قِبَلِ أَنَّ الحَسَنَ لم يَسْمعْ مِن أبي هُريرة. ورَواهُ بعضهُم عن الحسَن عن أبي موسى».

قولُه: (﴿فَأَمَّا﴾: تفصيلٌ للعَرْض)، يَعْني: يومئذٍ تُعْرضون، خِطابٌ شامِلٌ للفريقَيْنِ، وقَوْلُه: ﴿فَأَمَّا مَنْ﴾، وقَوْلُه: ﴿وَأَمَّا مَنْ﴾: تَفْصيلٌ له.

قولُه: (فَيُفْهمُ منه مَعنىٰ: «خُذْ») قال الزَّجّاجُ: «هاؤُمُ: أمرٌ للجماعةِ بمنزلةِ: هاكم. تقولُ للواحدِ: هاءَ يا رجل، وللاثنين: هاؤُما يا رجلان، وللثّلاثَة: هاؤُمُ يا رجال، وللمرأة: هاءِ، بكَسْرِ الهمزة، والثِّنْتَيْنِ: هاؤما، ولجماعةِ النساءِ: هاؤُنَّ»[٢].

قولُه: (وحَسِّ)، وهي كلمةٌ تُقالُ عند الوَجَع[٣].

قَولُه: (ولو كانَ العامِلُ الأَوّلَ لَقِيل: اقرؤوه وأُفْرِغْه) قال اليَمَنيّ[٤]: «إنَّ الفِعْلينِ إذا تَنازعا: إنْ أَعْملتَ الأولَ أَضْمرتَ الفاعلَ في الثاني؛ إذْ لا يَجوزُ حَذْفُه، وأمّا المفعولُ فيجوزُ

---

(١) في «السنن» (٢٤٢٥).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢١٧).

(٣) أي: حَسَّ يحِسُّ، بالكسر. وأما بالضم: يحُسُّ، فمعناه أدرك بإحدىٰ حواسّه.

(٤) هو منصور بن فلاح، له «شرحٌ» على «كافية ابن الحاجب»، توفي سنة ٦٨٠ هـ.

وقد استُحِبَّ إيثارُ الوقفِ إيثاراً لثباتِها في المُصْحف، وقيل: لا بأسَ بالوصلِ والإسقاط. وقرأ ابنُ محيصنٍ بإسكانِ الياءِ بغيرِ هاء، **وقرأ جماعةٌ بإثباتِ الهاءِ في الوصلِ والوقفِ** جميعاً لاتّباعِ المصحف. ﴿ظَنَنتُ﴾: عَلِمتُ؛ وإنما أُجريَ الظنُّ مجرىٰ العِلم، لأنّ الظنَّ الغالبَ يُقامُ مقامَ العِلْمِ في العاداتِ والأَحْكام. ويقال: أَظنُّ ظناً كاليقينِ أنّ الأمرَ كَيْتَ وكَيْت. ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ منسوبةٍ إلىٰ الرضا؛ كالدّارعِ والنّابل، والنِّسبةُ نسبتان: نِسْبةٌ بالحَرْفِ، ونِسْبةٌ بالصِّيغة. أو جُعلَ الفعلُ لها مجازاً وهو لصاحِبِها ﴿عَالِيَةٍ﴾ مرتفعةِ المكانِ في السّماء، أو رفيعةِ الدّرجات، أو رفيعةِ المباني والقصور والأشجار ﴿دَانِيَةٌ﴾ ينالُها القاعدُ والنائم، يقال لهم: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا﴾ أكلاً وشُرْباً هنيئاً. أو هَنِئْتُم هنيئاً علىٰ المصدر ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ بما قدّمتم مِن الأعمالِ الصالحة ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ الماضيةِ من أيامِ الدنيا.

حَذْفُه، نحو: ضَرَبني وضَرَبتُ زيداً. والاختيارُ أنْ يُقالَ: ضَرَبَني وضَرَبْتُه، لأَنَّ التقدير: ضَرَبني زيدٌ وضَرَبتُه، فالهاءُ عائدةٌ إلى «زيد»، وهو فاعِلُ الأوّل[1]، ورُتْبتُه التقدُّم[2]. وأمّا حَذْفُها، فالمفعولُ مُسْتَغْنًى عنه، وهذا دليلٌ علىٰ إعمالِ الثاني في قولِه تعالىٰ: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]، و﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾، لأنه لو أَعْمَلَ الأوّل، لأَضمرَ المفعول في الثاني لأنّه أَوْلىٰ، ولا يليقُ بفصاحةِ القرآنِ تَرْكُ الأَوْلىٰ»[3].

قولُه: (**وقرأ جماعةٌ بإِثْباتِ الهاء**) وفي «التّيْسير»: «حَمْزة: «مالي» و«سلطاني»، بحذف الهاءَين في الوَصْل، والباقون: بإثباتِها في الحالَين»[4]، وإِسْكانُ الياءِ[5] شاذٌّ.

وقال الـزَّجّاجُ: «الوجهُ أنْ يوقَفَ علىٰ هذه الهاءات ولا يُوصَل، لأنّها أُدْخِلت للوقْف،

---

(١) من قوله: «يقال: ضربني»، إلىٰ هنا، مكرّرٌ في (ف).

(٢) في (ح): «التقدّم».

(٣) انظر: «شرح الكافية في النحو» (١: ٣١٧) وما بعدها، بتصرف ملحوظ.

(٤) «التيسير في القراءات السبع» ص ٢١٤.

(٥) مِن غيرِ هاءٍ.

وعن مجاهدٍ: أيام الصّيام، أي: كُلوا واشربوا بدَلَ ما أمسكتُم عن الأكل والشُّرب لوجهِ الله. ورُوي: يقولُ اللهُ عزَّ وجل: يا أَوْليائي طالمَا نظرتُ إليكمْ في الدنيا وقد قَلَصَتْ شِفاهُكم عن الأشربة؛ وغارتْ أعينُكم، وخَمَصَتْ بطونُكم، فكونوا اليومَ في نعيمِكم، و﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾.

[﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ ٢٥ - ٢٩]

وهٰذه رؤوسُ الآيات. وقد حَذَفَها قومٌ في الوَصْل[1]، ولا أُحِبُّ مُخالفةَ المُصْحف»[2]، وإليه الإشارةُ بقولِه: «وقد استُحِبَّ إيثارُ الوقْفِ إيثاراً لِثَباتِها في المُصْحَف».

قالَ صاحبُ «الانتصاف»: «تعليلُ القراءَةِ باتّباعِ المصحفِ غَلَطٌ؛ وإنَّما القراءَةُ ومُعْتَمَدُها النَّقلُ المتواتَر»[3]، وفيه نَظَرٌ، لأنَّ الوقفَ والابتداءَ غيرُ مَوْقوفةٍ على النَّقْل[4]. ولذلك حَدَّ[5] الكواشي السَّبْعة: «ما صَحَّ سنده، واستقامَ وجهُهُ في العربيّة، ووافَقَ لفظُه خطَّ الإمام، وما لم يوجدْ فيه مجموعُ هذه الثلاثةِ[6]، أو التواتُرُ وموافقةُ خط الإمامِ فهو شاذ»[7].

قولُه: (قَلَصَت)، أي: انْضَمَّت وانزوت[8].

---

(١) في (ف): «الأصل».

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٢١٧) بتصرف.

(٣) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٠٣).

(٤) من قوله: «باتباع المصحف غلط» إلىٰ هنا، جاء في (ف) في نهاية كلام «الكواشي».

(٥) في (ح): «قال».

(٦) في (ف): «وأمّا».

(٧) قاله الكواشي في أوّل تفسيره «التبصرة»، كما في «النشر» (١: ٤٤) لابن الجزري. وانظر ذات التعريف في «الإتقان» (١: ٢٢٥) للسيوطي.

(٨) في (ح): «والصوت». ولعلّ ما أثبتناه أقرب، قال الجوهري: «قَلَصَت شَفَتُه: انْزَوَت»، وذَكَرَ الزبيدي لها معاني أخرى، منها: شَمّرت، ونَقَصت، وانْقَبضت. انظر: «الصحاح» (٢: ١٠٥٣ - قلص)، ومن «تاج العروس» (١٨/ ١١٩ - قلص). ومن «قوله: قلصت» إلى هنا سقط من (ط) و(ف).

الضميرُ في ﴿يَٰلَيْتَهَا﴾ للمَوْتة، يقول: يا ليتَ الموتةَ التي مُتُّها ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ أي: القاطعةَ لأمري، فلم أُبعثْ بعدَها؛ ولم أَلقَ ما أَلقىٰ، أو للحالة، أي: ليتَ هٰذه الحالةَ كانت الموتةَ التي قَضَتْ عليّ، لأنه رأىٰ تلك الحالةَ أبشعَ وأمرَّ مما ذاقَه مِن مرارةِ الموتِ وشدّتِه؛ فتمنّاهُ عندَها ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ نفيٌ أو استفهامٌ علىٰ وجهِ الإنكار، أَيْ: أيُّ شيءٍ أغنىٰ عنّي ما كان لي من اليَسار؟ «هَلَكَ عَنّي سُلطاني» مُلْكي وتَسلّطي علىٰ الناس، وبَقيتُ فقيراً ذليلاً، وعن ابنِ عباسٍ: أنها نزلتْ في الأسودِ بنِ عبدِ الأشَد.

وعن فَنّاخُسْرةَ الملقّبِ بالعَضُد، أنه لما قال:

عَضُدَ الدَّوْلةِ وابنَ رُكْنِها مَلِكَ الأملاكِ غَلّابَ القَدَرْ

قولُه: (عَضُدَ[1] الدّولةِ وابنَ رُكنِها)، أي: وابنَ رُكْنِ الدَّوْلة. أوّلُه في «التاريخِ الكامل»:

لَيسَ شُرْبُ الكأسِ إلاّ في المَطَرْ وغِناءٌ مِن جَوارٍ في سَحَرْ
غانياتٍ سالباتٍ للنُّهىٰ ناغِماتٍ في تَضاعيفِ الوَتَرْ
مُبْرِزاتِ الكأسِ مِن مَطْلَعِها ساقياتِ الرّاحِ مَن فاقَ البَشَرْ
عَضُدَ الدَّولةِ وابنَ رُكْنِها مَلِكَ الأَمْلاكِ غَلّابَ القَدَرْ[2]

وقد ارْتكبَ هنا بعد الجُرْأةِ علىٰ الله في الملاهي والمناهي عَظيمتَيْنِ: إِحْداهُما: التَّسْميةُ بـ«مَلِكِ الأَمْلاك»، وعليه الاسْتِشهاد.

وروينا عن البخاريّ ومُسْلمٍ، عَنْ أَبي هريرة، أَنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: «إِنَّ أَخْنَعَ اسمٍ عند الله، رجلٌ تَسمّى مَلِكَ الأَمْلاك»، وفي روايةٍ: «لا مالِكَ إِلّا الله».

---

(١) النصب على البدل مِن الاسم الموصول «مَنْ» في البيتِ قبله.

(٢) انظر: «الكامل في التاريخ» ص ١٢٩٦.

لم يُفلحْ بعدَه وجُنّ، فكانَ لا يَنطلقُ لسانُه إلاّ بهٰذه الآية. **وقالَ ابنُ عباس: ضَلّتْ عني حُجّتي**، ومعناه: بَطُلَتْ حُجّتي التي كنتُ أحتجُّ بها في الدنيا.

[﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ * إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ ٣٠-٣٧]

قال: سفيانُ: مِثلُ[1] شاهَنْ شاه. وعَن أحمدَ بنِ حنبلٍ: «سألتُ أبا عمرو عن أَخْنَعَ؟ قال: أَوْضَع»[2].

وثانيتهما: التّفوّه بـ «غَلّابَ القَدَرْ»؛ فإنّه غُلُوٌّ، بَلْ كادَ أنْ يكونَ كُفْراً، وعليه قَوْلُ ابنِ دُرَيْد:

وَلَوْ حمىٰ المِقْدارُ، عَنْه، مُهْجَةً لَرامَها[3]، أو يَسْتبيحَ ما حَمىٰ[4]

نعوذُ بالله مِن الخذلان.

قولُه: (وقالَ ابن عباسٍ: ضَلّت عَنّي حُجّتي) عَطْفٌ على قولِه: «هَلَكَ عنّي سلطاني: ملكي»، الرّاغب: «السَّلاطَةُ: التمكُّنُ مِن القَهْر، يُقال: سَلَّطْتُه فتسلَّط، قالَ تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٠]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [الحشر: ٦]، ومنه سُمّي السُّلطان. والسُّلْطانُ يقالُ في السَّلاطة، نَحوُ: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، وقَدْ يُقالُ لِذي السَّلاطةِ وهو الأكثر. وسُمّي الحجّةُ سُلْطاناً، لِما يُلحِقُ مِن الهجومِ علىٰ القلوب، لكنّ أكثرَ تَسلُّطِه[5] علىٰ أهلِ العِلْمِ والحِكْمةِ مِن المؤمنين،

---

(١) في الأصول الخطية: «قيل».

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣)، ولم يَرْوِ البخاريُّ قولَ أحمد.

(٣) في (ف): «لرماها».

(٤) البيت مِن مَقصورته الشهيرة، انظر: «شرح المقصورة» للخطيب التبريزي، ص ٥٣. والمقدار: القَدَر.

(٥) في (ف): «سُلْطانه».

﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ ثم لا تُصَلّوه إلا الجحيم، وهي النارُ العُظْمىٰ، لأنه كانَ سلطاناً يَتعظّمُ علىٰ الناس؛ يقال: صَليَ النارَ وصَلّاهُ النارَ. سَلْكُه في السِّلسِلة: أن تُلْوىٰ علىٰ جَسدِه حتىٰ تلتفَّ عليه أثناؤُها؛ وهو فيما بينَها مُرهَقٌ مضيَّقٌ عليه لا يقدرُ علىٰ حَركة؛ وجَعلَها سبعينَ ذراعاً إرادةَ الوصفِ بالطول، كما قال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠]، يريد: مراتٍ كثيرة، لأنها إذا طالتْ كان الإرهاقُ أشدّ.

والمعنىٰ في تقديم السِّلْسِلةِ علىٰ السَّلْكِ، مِثلُه في تقديم الجحيمِ علىٰ التَّصلية؛ أي: لا تَسْلكوه إلّا في هٰذه السِّلْسِلةِ، كأنها أفظعُ من سائرِ مواضِعِ الإرهاقِ في الجحيم.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وقَوْلُه تعالىٰ: ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾، يَحْتملُ السُّلْطانين[1]. وسَلاطةُ النساء[2]: القُوَّةُ علىٰ المقال، وذلك في الذَّمِّ أَكثرُ استعمالاً»[3].

قولُه: (ثُمّ لا تُصلُّوه إلا الجحيم)، هذا تَفْسيرٌ لتقديم ﴿ ٱلْجَحِيمَ ﴾ علىٰ عامِلها.

قولُه: (أثناؤها)، الجوهريّ: «أثناءُ الشَّيءِ: تَضاعيفُه، وثِنْيُ الحَبْلِ: ما ثَنَيْتَ».

قولُه: (مُرْهَقٌ)، الأَساس: «مِن المجاز: رَهِقَه الدَّين، وأَرْهقوا الصَّلاةَ: أَخَّروها حتّى كادت تَفوت». ومنه قولُه: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣].

قولُه: (كأنّها أَفظَعُ مِن سائرِ مواضِعِ الإرهاق) أيْ: كأَنَّ السِّلسلةَ أَفْظَعُ من سائرِ أدواتِ الإِرهاقِ، فَوَضَعَ مَوْضِعَها «مَواضِع» مبالغةً، لأنَّها لَـمّا التفّت عليه تَضاعيفُها، صارت كأنَّها وِعاءٌ له.

---

(١) السلطان الأول: التسلّط، والثاني: الحجّة.

(٢) في «المفردات»: اللسان. ولعل صوابه ما أثبتناه من الأصول الخطية، إذْ قال بعد قوله: «وذلك في الذمّ أكثرُ استعمالاً»: يقالُ: امرأةٌ سليطة.

(٣) «مفردات القرآن» ص ٤٢٠.

ومعنىٰ ﴿ثُمَّ﴾ الدلالةُ علىٰ تفاوتِ ما بين الغَلِّ والتَّصْليةِ بالجحيم، وما بينَها وبينَ السَّلْكِ في السِّلْسِلة، لا علىٰ تَراخي المدّةِ. ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعليلٌ علىٰ طريقِ الاسْتئناف، وَهُو أَبْلغ؛ كأنه قيل: ما له يُعذَّبُ هٰذا العذابَ الشديد؟ فأُجيبَ بذلك.

وفي قوله: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ دليلانِ قويانِ علىٰ عِظَمِ الجُرمِ في حِرْمانِ المِسْكين، **أحدُهما: عَطفُه علىٰ الكُفر، وجَعْلُه قرينةً له.** والثاني: **ذِكرُ الحضِّ دونَ الفِعل،** لِيُعلمَ أنّ تاركَ الحضِّ بهٰذهِ المنزِلة، فكيف بتاركِ الفِعل؟! وما أحسنَ قولَ القائل:

قولُه: (**أَحدُهما: عَطفُه علىٰ الكُفْرِ وجَعْلُه قَرينةً له**) نَحْوُه قَوْلُه: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١]، جعل ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ قَرينةً لِقولِهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾، إيذاناً بأنّهما في العِظَمِ أَخوان، وأنّه ليس بأوّلِ ما ركبوا مِن العظائم. كذا جَعَلَ تَرْكَ الحَضِّ[1] علىٰ طعامِ المِسْكينِ مِن صفاتِ الكُفّار، فعلىٰ المؤمِن[2] أنْ يَجْتَنِبَ منه. قالَ القاضي: «وفيه دليلٌ على تَكْليفِ الكفّار بالفروعِ، ولعلَّ تَخْصيصَ الأَمْرينِ بالذِّكْرِ، لأَنَّ أَقْبحَ العقائدِ الكُفرُ بالله، وأَشْنعَ الرَّذائِلِ البُخلُ وقَسْوةُ القَلْب»[3].

قولُه: (**ذِكرُ الحضِّ دونَ الفِعل**)، الراغبُ: «الحضُّ: التَّحْريضُ كالحَثّ، إلّا أَنَّ الحثَّ يكونُ بسَيْرٍ وسَوْقٍ، والحضُّ لا يكونُ بذلك. وأَصلُه مِن الحثِّ علىٰ الحضيض[4]، وهو قرارُ الأرض»[5].

---

(١) من قوله: «نحوه قوله» إلى هنا سقط من (ف).

(٢) في (ح): «الأول».

(٣) «أنوار التنزيل» (٥: ٣٨٣).

(٤) في (ف): «الحضّ على التحضيض».

(٥) «مفردات القرآن» ص ٢٤١.

إذا نَزَلَ الأضيافُ كـانَ عَـذَوَّراً عَلىٰ الحَيِّ حتَّىٰ تَسْتَقِلَّ مَراجِلُـهْ

يريدُ حَضَّهم علىٰ القِرىٰ واسْتَعجَلَهم وتَشاكَسَ عليهم.

وعن أبي الدرداءِ أنه كان يَحُضُّ امرأتَه علىٰ تكثيرِ المَرَقِ لأجلِ المساكين، وكانَ يقول: خَلَعْنا نصفَ السِّلْسِلة بالإيمان، أفلا نَخلعُ نِصفَها الآخر؟ وقيل: هو مَنعُ الكفار؛ وقولُهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]، والمعنىٰ علىٰ بَذْلِ طعامِ المسكين. ﴿حَمِيمٌ﴾ قريبٌ يَدفعُ عنه ويَحْزنُ عليه، لأنهم يَتَحامونَه ويَفِرّون منه، كقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠]، والغِسْلين: غُسَالةُ أهلِ النارِ وما يَسيلُ من أبدانِهم من الصَّديدِ والدَّم؛ فِعْلينٌ من الغَسْل. ﴿ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ الآثمونَ أصحابُ الخطايا، وخَطِئ الرَّجل: إذا تَعمَّدَ الذّنب، وهم المشركون. عن ابن عبّاس.

قولُه: (إذا نَزَلَ الأَضْيافُ) البيت، العَذَوَّر: السَّيِّئُ الخُلُق. تَسْتَقِلَّ: أيْ: تُنْصَبَ على الأَثافِيّ، المَراجِلُ: القُدورُ العَظيمة. يقولُ: «إنَّه مُطاعٌ في الحيِّ لِسيادتِه وجَلالةِ مَحَلِّه، فإذا نَزَلَ ضَيفٌ قامَ بنفسِه في إقامةِ القِرىٰ، ولا يَعْتمدُ على أحدٍ[١]، ويَعْرِضُ في خُلُقِه عَجَلةٌ، فيُشدِّدُ في الأَمْرِ والنَّهْي علىٰ أهلِ الحيّ، حتّى يَنْصِبَ المراجِلَ ويُهيِّئَ الطعامَ، فإذا نالَ مَرامَه عادَ إلىٰ خُلُقِه الأوَّل»[٢].

قولُه: (﴿حَمِيمٌ﴾: قريب) قالَ صاحبُ «الكَشْفِ»: «﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾، الجارُّ والمجرورُ خبرُ «ليس» ليصِحَّ قولُه: ﴿وَلَا طَعَامٌ﴾، ولا يكونُ[٣] الخبرُ ﴿هَٰهُنَا﴾، لأنه يَصيرُ

---

(١) في (ح): «أهله».

(٢) انظر: «شرح ديوان الحماسة» (٢: ٧٣٣) للمرزوقي، بتصرف. والبيتُ مِن مقطوعةٍ لزينب بنت الطَّثْرِيّة، ترثي أخاها يزيدَ، مَطلَعُها:

أرىٰ الأَثْلَ مِن بَطنِ العقيقِ مُجاوري مُقيماً، وقد غالتْ يزيدَ غَوائلُـهْ

(٣) في (ف): «لِكَوْن».

وقُرِئ: «الخاطيون»، بإبدال الهمزةِ ياءً، و«الخاطون» بطرحِها. وعن ابن عباس: ما الخاطون؟ كُلّنا يَخْطو، ورَوىٰ عنه أبو الأسود الدؤلي: ما الخاطون؟ إنما هو الخاطئون؛ ما الصّابون؟ إنما هو الصّابئون: ويجوزُ أن يُراد: الذين يَتخطّوَن الحقَّ إلىٰ الباطل، ويَتعدّوْنَ حدودَ الله.

[﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ * وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ * وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ٣٨-٤٣]

التقدير(١): ولا طعامٌ هاهنا إلَّا مِن غِسْلين، وهو غيرُ جائز؛ إذْ هناك طعامٌ غيرُ غِسْلين. ولا يكونُ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ خبراً، لأنَّ حميماً جُثَّةٌ، وظَرفُ الزّمانِ لا يكونُ خبراً عن الجُثّة»(٢).

قولُه: (وقُرِئ: «الخاطيون»، بإبدالِ الهمزةِ ياءً) حمزةُ عند الوَقْف، قال ابنُ جنّي: «قَرأَها الزُّهريُّ والحسَنُ، وهو يَحْتملُ وَجْهين: أحدهما: تَخْفيفُ الهمزة، لكن علىٰ مَذْهبِ أبي الحسَنِ في قولِه تعالىٰ: ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٥]، بإخلاصِ الهمزةِ في اللفظِ ياءً لانكسارِ ما قَبْلها، وسيبويهِ يَجْعلها بَيْنَ بَيْن(٣). وثانيهما: أَنْ يكونَ قد بَقِي مِن الهمزةِ شَيءٌ علىٰ مذهبِ سيبويهِ، إلَّا أنه يَلْطفُ على القُرّاء، فيقرؤون بإخلاصِ الياء».

قولُه: (و«الخاطون» بِطَـرْحِها) أَيْ: بِطَرْحِ الهمزةِ ونَقْلِ حركتِها إلىٰ الطاءِ. عن عِكْرمة: قَرأْناها عندَ ابنِ عباسٍ، فقال: مَهْ، كُلُّنا نَخْطو، ثُمّ قالَ: ﴿إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾؛ ذَكَره الواحديّ، ورَوىٰ عن الكَلْبي أنّه قالَ: «يَعْني: مَنْ يُخْطِئُ بالشِّرْك»(٤). ولعلَّ ابنَ عباسٍ يُـفرِّقُ بين الهمزة

---

(١) في (ف): «التقدم».

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٣٨٠).

(٣) أي: متوسّطةً بين مخرج الهمزة ومخرج الحرف الذي منه حركة الهمزة، فإذا كانت مفتوحةً، أخرجناها بين الهمزة وبين الألف، وهكذا إذا كانت مضمومة أو مكسورة، بين الهمزة والواو، والياء. انظر: «الكتاب» (٣: ٥٤١) وما بعدها، و«شرح الكتاب» (٤: ٢٧٤) للسيرافي.

(٤) انظر: «الوسيط في تفسير القرآن» (٤: ٣٤٨)، وفيه «مَهْ، كلنا نُخطئ»، وليس بصواب.

هو إقسامٌ بالأشياءِ كلِّها علىٰ الشّمولِ والإحاطة، لأنها لا تَخرجُ من قِسميْنِ: مُبصَرٍ وغيرِ مُبصَر. وقيل: الدّنيا والآخِرة، والأجسامُ والأرْواح، والإنسُ والجِنّ، والخَلْقُ والخالِق، والنِّعمُ الظاهرةُ والباطنة، إنّ هٰذا القرآنَ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، أي: يقولُه ويتكلّمُ به علىٰ وجهِ الرّسالةِ مِن عندِ الله ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ ولا ﴿كَاهِنٍ﴾ كما تَدّعون، والقِلّةُ في معنىٰ العَدَم، أي: لا تُؤمنون ولا تَذَكَّرون البتَّـةَ. والمعنىٰ: ما أكفركم وما أغفلَكم! ﴿تَنزِيلٌ﴾ هو تَنزيل، بياناً لأنه قولُ رسولٍ نُزِّلَ عليه ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ....

في ﴿ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ و﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾[1] [البقرة: ٦٢، الحج: ١٧] وبين[2] غيرها مِن جهة الإصلاح واللُّغة[3].

قولُه: (والمعنىٰ: ما أكْفَرَكم!)، يَعْني: قولُه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، تَتْميمٌ للمعنىٰ السابق، وفيه معنىٰ التعجّبِ كقولِ الشاعر:

وجـارةُ جـسّاسٍ أَبأْنـا بِنابِهـا كُلَيْباً، غَلَتْ نابٌ كُلَيْبٌ بَواؤها[4]

والقِلّةُ بمعنىٰ العدم.

قولُه: (هُو تَنْزيلٌ، بياناً)، «بياناً»: مَفْعولٌ له لِمَحْذوف، يُريد: ﴿تَنزِيلٌ﴾ خَبَرُ مُبتدأٍ مَحذوف؛ فالجملةُ مَفْصولةٌ عن الأُولىٰ للبيان، لأنَّ كَوْنَه قَوْلَ رسولٍ، لا يكونُ إلّا تَنْزيلاً، لأنَّ الرّسولَ لا يتكلّمُ مِن تِلْقاءِ نَفْسه.

---

(١) في الأصول الخطية: «الصابئون».

(٢) في (ف): «ومن».

(٣) أي: ثمّة فرقٌ في المعنىٰ بين الجذرين: خَطِئَ يَخْطأُ، وخَطا يَخطو، ومثلهما: صَبأ يَصبأ، وصَبا يَصْبو.

(٤) استشهدَ به الزمخشري في سياق تفسير قولِه تعالىٰ: ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وهو لرجلٍ مِن بني بكرٍ قبيلةِ جسّاس، يَفتخرُ على بني تغلب. أبأنا: ساوينا، أي: قتلنا كُلَيْباً بناقتها المسِنّة. بَواء: مثل سَواء وزناً ومعنًى. انظر: «الكشاف» (١١: ٢٠٨-٢٠٩).

وقرأ أبو السَّمال: «تنزيلاً»، أي: نُزِّلَ تنزيلاً. وقيل: «الرسولُ الكريمُ» جبريلُ عليه السلام، وقولُه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ **دليلٌ على أنه محمد ﷺ، لأنّ المعنى على إثباتِ أنه رسولٌ، لا شاعرٌ ولا كاهن.**

[﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ * وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ ٤٤-٥٢]

قولُه: (﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، **دليلٌ على أنّه محمّدٌ صلواتُ الله عليه، لأنَّ المعنى على إثباتِ أنّه رسولٌ، لا شاعرٌ ولا كاهن**)، قال الإمام: «إنّه تعالى ذَكَرَ في سورة «كُوِّرت» مثل هذا الكلام[١]، والأكثرون على أنَّ المرادَ منه جبريلُ عليه السلام، وهاهنا المرادُ محُمَّدٌ ﷺ. قالوا: لأنه تعالى لـمّا قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، قال بعده: إنّه ليس بقولِ شاعرٍ ولا كاهن. والقومُ ما كانوا[٢] يَصِفونَ جبريلَ بالشِّعر والكَهانة، بل كانوا يَصفون رسولَ الله ﷺ، بهذينِ الوَصفَين»[٣]. وأمّا في سورة «كُوِّرت»، فلمّا قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]، قال بَعْده: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥]، كأن المعنى: إنَّه لَقولُ مَلَكٍ كريم، لا قَوْلُ شيطانٍ رجيم. وعند هذا يَتوجَّهُ سُؤال: وذلك أَنَّ القرآنَ كلامُ الله المجيد، فكيف أُسْنِدَ[٤] تارةً إلى رسولِ الله ﷺ، وأُخرىٰ إلىٰ جبريل عليه السَّلام؟ فَيقال: إنَّه يَكْفي في صِدْقِ الإضافةِ أدْنىٰ سَبَب؛ فهو كلامُ الله المجيد، مِن حيثُ إنَّه تَكلَّم به، وهو كلامُ جبريل، لأنّه هو الذي أنزلَه مِن السَّماء، وهو كلامُ محمّدٍ، صلواتُ الله عليه، لأنّه هو الذي أَظْهَرَه لِلخَلْقِ، ودعاهم إلىٰ الإيمانِ به، وجَعَلَه حُجّةً لِنُبوّته.

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» (٣١: ٦٧-٦٨).

(٢) في (ف): «كانوا».

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٠٣).

(٤) في (ف): «أشير».

التَّقوُّل: افتعالُ القول، لأنّ فيه تكلُّفاً من المفتعِل، **وسَمّىٰ الأقوالَ المتقوَّلةَ «أقاويلَ» تَصغيراً بها** وتحقيراً، كقولك: الأعاجيبُ والأضاحيك، كأنها جَمعُ أُفعولةٍ مِن القولِ، والمعنىٰ: ولو ادّعىٰ علينا شيئاً لم نَقُلْه **لَقتلْناه صَبراً**، كما يفعلُ الملوكُ بمَن يَتكذّبُ عليهم مُعاجَلةً بالسَّخَطِ والانتقام، فَصُوِّرَ قتلُ الصبرِ بصورتِه ليكونَ أَهْول؛ وهو أن يُؤخذَ بيدِه وتُضرَبَ رَقبتُه. وخُصَّ اليمينُ عن اليسارِ، لأنّ القَتّالَ إذا أرادَ أن يوقِعَ الضربَ في قَفاه أخذَ بيسارِه، وإذا أرادَ أن يوقِعَه في جِيدِه **وأن يَكْفَحَه** بالسَّيف، وهو أشدُّ علىٰ المصبورِ لِنَظَرِه إلىٰ السَّيف، أخذَ بيمينِه. ....

قَولُه: (وسَمّىٰ الأَقوالَ المُتقوَّلة «أَقاويل» تَصْغيراً بها)، الانتصاف: «هو مُعتلٌّ غريبٌ عَن قياسِ التّصريف، ويُحتملُ أَنْ تكونَ «الأَقاويل» جَمْعَ جَمْعٍ كالأَناعيم، جَمْع أَقْوالٍ وأَنعام»[1].

قولُه: (لَقَتلناه صبراً)، النهاية: «قَتْلُ الصَّبْر: هو أَنْ يُؤْخذَ شَيءٌ مِن الحيوان، ثُمّ يُرمىٰ بشيءٍ حتّى يَموت. ومنه الحديث في الذي أَمْسَكَ رجلاً وقَتَله آخَرُ، [فقال][2]: «اقتلوا[3] القاتِل، واصْبِروا الصّابِرَ»، أيْ: احْبِسوا الذي حَبَسَه[4] للموت. وكُلُّ مَن قُتِلَ في غيرِ مَعْركة، ولا حَرْبٍ ولا خَطإٍ، فهو مَقْتولٌ صَبْراً».

قَوْلُه: (وأَنْ يَكْفَحَه)[5]، الجوهري: «كافحوهم: إذا اسْتَقبلوهم في الحربِ بوجوهِهم ليس دونها تُرْسٌ[6] ولا غيرُه».

---

(١) «الانتصاف» بحاشية «الكشاف» (٤: ٦٠٧).

(٢) زيادة من «النهاية» ليتضح المعنىٰ.

(٣) في (ف): «قتل».

(٤) في (ف): «جلسه».

(٥) في (ح): «يَلْحقه»، وفي (ف): «يَكْحفه».

(٦) في (ح): «تَزْمي».

ومعنى ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ لأَخَذْنا بيمينِه، كما أنّ قولَه. ﴿لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾: لَقطَعنا وَتينَه، وهٰذا بَـيِّن، والوتينُ: نياطُ القلبِ وهو حَبلُ الوريد، إذا قُطعَ ماتَ صاحِبُه. وقُرِئ: «ولو تُقُوِّلَ» علىٰ البناء للمفعول.

قيل: ﴿حَٰجِزِينَ﴾ في وَصْفِ ﴿أَحَدٍ﴾؛ لأنه في معنىٰ الجماعة، وهو اسمٌ يقعُ في النفيِ العام مستوياً فيه الواحدُ والجمعُ والمذكّرُ والمؤنّث، ومنه قولُه تعالىٰ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، والضميرُ في ﴿عَنْهُ﴾ للقتل، أي: لا يقدرُ أحدٌ منكم أن يَحْجزه عن ذلك ويَدْفعَه عنه، أو لرسول الله، أي: لا تَقْدرون أنْ تَحْجزوا عنه القاتِلَ وتَحولوا بينه وبينه؛ والخطابُ للناس،

قولُه: (وهٰذا بَيِّنٌ) أَيْ: لَقَطعنا وَتينَه، ظاهرٌ في المقصود. والأول مُحْتمِلٌ لِما يُوهَمُ مِنْه، أنَّ ﴿مِنْهُ﴾ صِلَةُ ﴿أَحَدٍ﴾(١)، وليس كذلك. والذي عليه التلاوةُ، فيه إِجمالٌ وتَفْصيلٌ علىٰ نَحْو: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشَّرح: ١].

قولُه: (وقُرِئ: «وَلَوْ تُقُوِّلَ»)(٢) قال ابنُ جنّي: «وهي قراءةُ مُحمّدِ بنِ ذَكْوان(٣)، وفيها تَعْرِيَضٌ بما صَرَّحت به القراءَةُ العامَّة؛ ذلك أَنَّ ﴿تَقَوَّلَ﴾ لا تُسْتعملُ إِلَّا مَعَ التَّكَذُّب(٤)، مِثْلُ تَخَرَّصَ وتَزَيَّدَ. وأَمّا «يَقولُ»، فَلَيْسَت مُخْتَصَّةً بباطلٍ دون حَقّ»(٥).

---

(١) في (ط) و(ف): «آخر».

(٢) على البناءِ للمفعول؛ قالَ أبو حيان في «البحر المحيط» (٨: ٢٤٧): «حُذِفَ الفاعلُ وقام المفعولُ مقامه، وهو «بعض» إنْ كان قرئ مرفوعاً، وإنْ كان قرئ منصوباً، فـ«علينا» قام مقام الفاعل».

(٣) ليست قراءة ابنِ ذكوان، واستشهادُ الطيبي على قولِ الزمخشري بكلامِ ابن جنّي في غير محلّه؛ فمقصدُ الزمخشري القراءةُ على البناءِ للمفعول، وحديثُ ابنِ جنّي مَقْصده القراءةُ بالفعل المضارع: «يَقولُ»، وهي قراءة ابن ذكوان وأبيه. انظر: «البحر المحيط» (٨: ٢٤٧).

(٤) في (ط) و(ح): «في الكذب».

(٥) «المحتسب» (٢: ٣٢٨).

وكذلك في قولِه تعالىٰ: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾، وهو إيعادٌ علىٰ التكذيب، وقيلَ: الخطابُ للمسلمين، والمعنىٰ: أن منهم ناساً سيكفرون بالقرآن.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ الضميرُ للقرآنِ ﴿لَحَسْرَةٌ﴾ علىٰ الكافرينَ به المكذِّبينَ له إذا رَأَوْا ثوابَ المصدِّقينَ به، أو للتكذيب. وإنّ القرآنَ لَلْيقينُ حقُّ اليقين، كقولك: هو العالِمُ حَقُّ العالِمِ، وجِدُّ العالِمِ، والمعنىٰ: لَعَيْنُ اليقين، ومحضُ اليقين. ﴿فَسَبِّحْ﴾ اللهَ بذكرِ اسمِه العظيمِ وهو قوله: سُبحانَ الله؛ واعبدْه شكراً علىٰ ما أَهَّلَكَ له مِن إيحائِه إليك.

عن رسولِ الله ﷺ: «مَن قرأ سُورةَ الحاقةِ حاسَبَه اللهُ حساباً يسيراً».

قولُه: (والمعنىٰ: أَنَّ منهم ناساً سيكفرون بالقرآن) وهم المُرْتَدّون في عَهْدِ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، وبعضُ الخوارجِ في عَهْدِ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنه.

قولُه: (وجِدُّ العالِمِ)، قيلَ: إنَّ معناه: مَن سِواه مِن العلماءِ، فهو بالإضافةِ إليه هَزل. والإضافةُ فيه وفي «حَقُّ العالِمِ»، بمعنىٰ «مِنْ»[١]. مَضىٰ تحْقيقُه في آخر «الواقعة»[٢].

قولُه: (والمعنىٰ: لَعَيْنُ اليقين)، قال الإمامُ: «﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، مَعْناه: أنّه حَقٌّ مُعَيَّنٌ لا بُطلانَ فيه، ويَقينٌ لا رَيْبَ فيه، ثُمَّ أُضيفَ أَحدُ الوَصفينِ إلى الآخرِ للتأكيد»[٣]. وقال غيرُه: اليقينُ اسمٌ لِعلْمٍ تَقَدَّمَه لَبْسٌ، وإذا لم يَتَقدَّمْهُ لَبْسٌ لا يكونُ يَقيناً. مِن يَقِنَ الماءُ في الحوضِ، إذا استقرَّ فيه[٤].

تمَّتِ السُّورةُ

بعونِ الله وحُسْنِ تَوْفيقِه

---

(١) الأكثر في الإضافة أن تكون بمعنى اللام، وتجيءُ بمعنى «من» اذا كان المضافُ بعضَ المضافِ إليه، وصالحاً للإخبار به عنه، كقولك: خاتَم فِضّة. انظر: «أوضح المسالك» (٣: ٨٦) لابن هشام.

(٢) قوله: «مضىٰ تحقيقه في آخر الواقعة» مكررة في (ح)، وفي (ط)، (ف): «تَقْريرُه»، بدل: «تحْقيقه».

(٣) «مفاتيح الغيب» (٣٠: ١٠٦)، قاله في تفسير الآية (٥١) من سورة الحاقة.

(٤) انظر: «التعريفات» للجرجاني، ص ٣٣٢.

فهرس زُمَرِ الآياتِ المفسَّرة

سورة المجادلة

سورة الحشر

❋ ❋ ❋